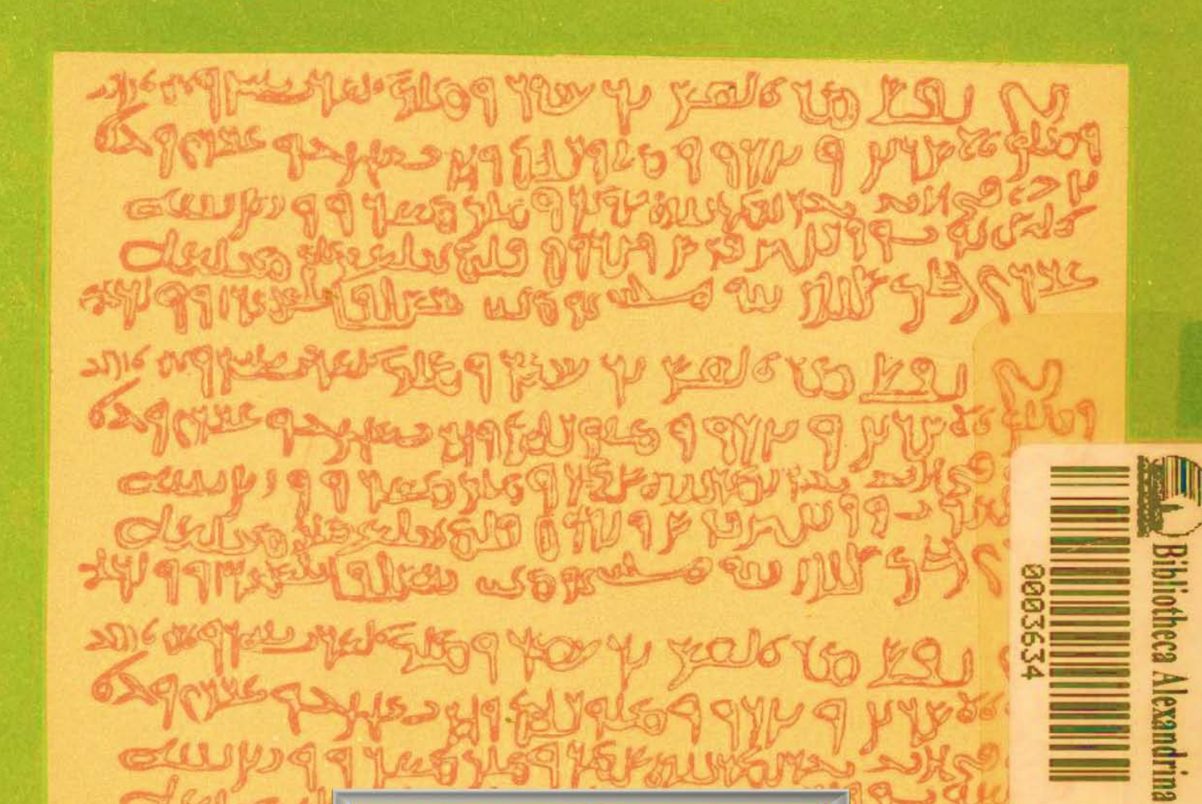
تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف : هارى إلمر بارنز

ترجمة : د. محمد عبد الرحمن برج



تاريخ الكتابة التاريخية

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى إلمر بارنز

ترجمة

د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجـزء الأول



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

تصــــدير

بقلم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ كرسي التاريخ بكلية الآداب
جامعة القاهرة

انقضت أزمنة كان ينظر فيها إلى التاريخ على أنه مجرد قصص يراد به المتعة حينا والعظه أحيانا ، واندثرت عصور اعتبر فيها كل من خاض فى أحداث التاريخ مؤرخا . وها نحن نعيش فى زمن نرى فيه التاريخ علما له قوانينه وقواعده ومنهجه التى لا يعيها إلا المؤرخ المصقول الذى يجمع بين الحاسة التاريخية المرهفة والوعى العلمى المتين .

حقيقة إننا كثيرا ما نصادف أناسا يخوضون فى التاريخ على غير أساس سوى التقاط بعض المعلومات التاريخية والتظاهر بعرضها رغبة فى التعالم ، ولكن ما أكثر الأدعياء فى كل علم وفن ، وما أخطر هؤلاء الأدعياء على كل علم وفن .

وإذا كان التاريخ هو محور العلوم الانسانية كلها ، لأنه هو الذى يوضح كيف نشأ الانسان ويتتبع تطوره على مدى الأيام والعصور وجهوده فى تسخير الطبيعة لخدمته والخطوات التى بنى بها حضارته لبنة بعد أخرى وكيف كان ينهض بعد كبوة ويكبو بعد نهضة .... إذا كانت هذه بعض أوجه التاريخ ، فإن هذا كله كفيل بأن يجعل من التاريخ علم دراسة وتحقيق وتحليل ومقارنة ونقد ، بحيث لا يكون كل من يحاول الكتابة فى التاريخ أو كل من يروى قصة من قصص الماضى مؤرخا .

والحق إن التاريخ يعمل فى محيط أصعب من المحيط الذى يعمل فيه أى علم معروف ، مما يجعل مهمة المؤرخ الأمين تفوق فى صعوبتها مهمة أى عالم آخر . فعالم الجغرافيا أو الفيزياء أو الكيمياء أو الجيولوجيا أو الطب عليه أن يجرى تجاربه ويثبت مشاهداته ويقارن ويعلل ليصل إلى النتيجة التى يرضى عنها . أما المؤرخ الحق فعليه - علاوة على ما سبق - أن يغربل الحقائق ويصفيها وينقيها ويميز بين ما هو واقعى وما هو مدسوس . فليس كل ما هو منقوش على الآثار أو مدون فى بطون المخطوطات حقيقة خالصة وإنما فيه الحقيق وفيه المزيف ، ومنه الصادق ومنه الكاذب . وهنا تكمن الصعوبة التى تواجه المؤرخ الحق ، إذ عليه أن يجمع المعلومات والوثائق المتباينة عن الحدث الواحد ، ويسجل الملاحظات المختلفة عن كل حدث أو واقعة ، ثم يسلك طريقا شاقا من الفحص والنقد والمقارنة ، مجردا نفسه تجريدا تاما عن الهوى - حتى يصل إلى ما يؤمن بأنه اليقين .

على أن التاريخ لم يصل إلى هذه الدرجة من الدقة العلمية والتقيد بأصول البحث إلا بعد أن مر التاريخ نفسه بأدوار طويلة ، تبلغ فى قدمها قدم الإنسان نفسه على ظهر الأرض ، الأمر الذى يثير نوعا من التساؤل حول تاريخ التدوين التاريخى أو تاريخ علم التاريخ . ومع النهضة الحديثة التى يشهدها العالم ظهرت عدة مؤلفات باللغات الأوربية تعالج تاريخ فن التدوين التاريخى وكيف تشكلت الكتابة التاريخية فى كل عصر من العصور بطابع معين خاص ، أو بعبارة أخرى توضح ما أسهم به كل عصر وكل مدرسة فى تطور الكتابة التاريخية . وبكل أسف ظلت المكتبة العربية حتى اليوم خلوا تماما - أى كتاب أو بحث فى هذا الموضوع ، مما يشكل فراغا واضحا فى هذه المكتبة يجب أن نعترف به لنتلافيه .

وهكذا جاء اختيار هذا الكتاب - الذى نقدمه اليوم للقارئ فى مشروع المكتبة العربية - للترجمة اختيار موفقا ، لأنه سيسد فراغا ملموسا فى تلك المكتبة ، وخاصة أنه من خيرة الكتب وأحدثها فى موضوعه . أما مؤلف الكتاب فهو الأستاذ هارى إلمر بارنز - أحد المرموقين فى حقل الدراسات التاريخية ، امتاز كتابه بأنه موسوعه فى تاريخ تدوين التاريخ ، وهو موضوع لا يستطيع أن يوفيه حقه من البحث أى مؤرخ عادى وقد صدر هذا الكتاب بالإنجليزية أول مرة سنة ١٩٣٧ ثم أعيد طبعه مرتين الأولى سنة ١٩٣٨ والثانية سنة ١٩٦٣ . والطبعة الأخيرة مزيدة ومنقحة ، وهى التى قام الدكتور محمد برج ببذل جهد كبير فى ترجمتها إلى اللغة العربية .

ولا أريد فى هذا التصدير أن أخوض فى موضوع الكتاب وخطته ، فقد شرح المؤلف ذلك بالتفصيل فى المقدمتين اللتين كتبهما لكتابه ، حسبما يرى القارئ فى الصفحات التالية . على أنه ينبغى أن أشير إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية لم تكن بالمهمة السهلة لطول الحقبة التى عالجها ، وكثرة المصطلحات والأسماء التى ترددت فيه ، والتى تدخل فى كافة فروع علم التاريخ بل فى معظم فروع المعرفة الإنسانية . ولا أنكر أننى أشفقت على نفسى ووقتى من مهمة مراجعة هذا الكتاب ، إذ رغم الجهد الكبير الذى بذله فيه المترجم ، فإن مسئولية المراجعة الأمينة تقتضى دائما من المراجع أن يسير مع المؤلف الأوربى ومع المترجم العربى كلمة كلمة ليطمئن إلى تأدية المعنى الذى أراده المؤلف بدقة وأمانة ، وذلك فى أسلوب يتقبله القارئ العربى ويفهمه فى غير صعوبة . ولكنه للإيمان بأهمية موضوع الكتاب وحاجة المكتبة العربية إليه هو الذى جعلنى أضحى بما ضحيت به من جهد ووقت فى مراجعته ، إلى جانب الجهد المرموق الذى بذله المترجم فى ترجمته .

والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من خدمة المكتبة العربية والقارئ العربى .

مقدمة لطبعة دوفر (١٩٦٣)

صدرت هذه الطبعة الجديدة من كتاب «تاريخ الكتابة التاريخية» تلبية لرجاء الكثيرين وطلبهم ؛ من أساتذة التاريخ بالجامعات الذين أقروا أن هذا الكتاب هو الوحيد الذى يحوى عرضاً كاملاً لصناعة كتابة التاريخ فى مجلد واحد . وأوضح لى هؤلاء الأساتذة ، أن الحاجة ماسة لاستخدام هذا الكتاب مرشداً ومدخلاً لمن يتابع دراسة مناهج الكتابة التاريخية والأسلوب التاريخى على مر العصور . وأنه لاغنى عنه بأى حال فى تحقيق هذه الأغراض — وكان أن ازداد الطلب على هذا الكتاب زيادة كبيرة ؛ بعد أن نفد فى السنوات العشرة الأخيرة — حتى استطعت أن ألبى رغبة القراء بفضل مساعدة السيد هيوارد سيركر مدير مؤسسة دوفر للطباعة .

وأرى لزاماً علىّ من باب المصارحة وتوضيح الأمور ؛ أن أبين ماهية هذه الطبعة المنقحة . ذلك أنها فى حقيقة أمرها هى نفس الكتاب الذى صدر سنة ١٩٣٧ ، والذى أدخلت عليه بعض التصميمات ، فأعيد طبعه سنة ١٩٣٨ . ولاينبغى أن تنتقض هذه الحقيقة من قيمة هذه الطبعة الأخيرة ، وذلك إذا مانظرنا إليها من زاوية الغرض من إعدادها . فهذا الكتاب بالذات ، هو الذى طلب المعتنون إعادة طبعه ؛ لأنه يحقق غرضهم ، ويسد حاجة غيرهم من بقية المشتغلين بالدّراسات التاريخية ، وهم الذين يريدون كتاباً أساسيا ؛ يكون مدخلاً لدراسة الجوانب الدراسية التى أعد من أجلها والتى يتفق معها . وعندما طلبوا إعادة طبع الكتاب ؛ كان هذا الكتاب بالذات هو الذى يقصدونه ، وترتسم صورته فى أذهانهم .

ولو أن الظروف كانت قد سمحت بإعادة جمع حروف الكتاب من جديد ، ومراجعته فى حرية واسعة ، لما أدى ذلك بأى حال من الأحوال إلى أختلاف الكتابة عن هذه الطبعة الجديدة . فقد بذلت كل جهودى فى اخراج هذا الكتاب سنة ١٩٣٧ — ولم أر مبرراً لإدخال أية تعديلات جوهرية أو هامة عليها فى السنوات التالية ، ولو كنت قد فكرت فى زيادة حجم الكتابة فربما تغير الموقف ، ولكنى لم أفكر فى ذلك ؛ لأن الزيادة فى حجم الكتاب ؛ كانت ستؤدى إلى صعوبة استخدامه كمرجع دراسى سهل التداول .

وقد حرص المؤلف عند إعداد هذه الطبعة الجديدة ، أن يضع في الاعتبار كل ماوجه من نقد لطبعة سنة ١٩٣٧ ، وكذا كل ماوصله من تعليقات ومقترحات منذ ذلك الحين. كذلك قرأ بعناية أشهر الكتب التي تناولت موضوع الكتابة التاريخية ، والتي ظهرت منذ سنة ١٩٣٨ فصاعدا ، وأخص بالذكر منها : المؤلف الضخم الذي وضعه جيمس وستغول طومسون ، وما كتبه مايكل كراوس من كتابات قيمة عن علم تدوين التاريخ في أمريكا ، فضلا عن الكتب العديدة الأخرى التي ظهرت في ذلك الموضوع ، والتي تناولت بصفة أساسية التطورات المرتبطة بكتابات كارل بيكر وشارل اوشن بيرد ، والمرتبطة كذلك بمشكلة النسبية التاريخية ».

وثمة تغيير جذري في هذه الطبعة الجديدة هو إدراج المؤلفات التاريخية التي تم نشرها منذ سنة ١٩٣٨ ، والتي تعتبر من الدرجة الأولى في الأهمية ، وهي المؤلفات التي عالجت كافة عصور التاريخ — من عصر ماقبل الكتابة إلى عصر الحرب الباردة الذي نعيشه اليوم . كذلك أدخلت تعديلاً على ثبت المراجع وعلى التذييلات ، بحيث أصبحت جديدة كل الجدة ، وشملت الكتب الهامة التي ظهرت منذ سنة ١٩٦٣ . هذا فضلاً عن العناية الكافية بالتغييرات التي طرأت على منهج الكتابة التاريخية ، وما نجم عن التطورات التكنولوجية التي حدثت منذ ١٩٣٨ - من تعديل اعترى النظرة إلى التاريخ وطرق البحث فيه ، فضلاً عن كتابته ودراسته وتألقه.

ومع أنني أعطيت الكتابة التاريخية عن الحرب العالمية الثانية ونتائجها قدراً من الاهتمام يفوق ما قام به أي مؤرخ آخر على قيد الحياة -- إلا أنني حرصت في هذه الطبعة على مقاومة الإغراء للخوض في معالجة تلك المسألة السياسية . ولن يعجز أولئك الذين يرغبون في الوقوف على آراء المؤلف حول هذا الموضوع عن الوصول الى موضع تلك الآراء .

ماليبور كاليفورنيا

سبتمبر سنة ١٩٦٣ .

هاري إلمر بارنز

مقدمة المؤلف للطبعة الأولى

يجرى هذا الكتاب مدخلا لتاريخ الكتابة التاريخية ، وهو يقدم عرضاً لتطور فن الكتابة التاريخية والعلم الخاص بتلك الكتابة ؛ من الأزمنة الغابرة حتى عصرنا الحالى . مع عدم أغفال اهمية علاقة هذا التطور بالإطار . الثقافى العام ، والقوى الفكرية التى شكلت ذلك الإطار . ثم إن هذا يعطى ، اهتماماً كافياً لكبار الذين دونوا مؤلفات تاريخية كبرى تتناول أحداث الماضى ، مع محاولة إيضاح أهمية جهود أولئك الكتاب والتأثيرات الفكرية التى ساعدت على تشكيل مفاهيمهم التاريخية ، ذلك أن الكتابة التاريخية — مثلها مثل أية صورة أخرى من الصور الثقافية — هى فى حقيقة أمرها نتاج تاريخى . ولذا ينبغى دراستها فى ضوء خلفية الحضارات التى انبثقت منها — وعلى ذلك فإن تاريخ الكتابة التاريخية لابد وأن يكون إلى درجة كبيرة مظهرا من مظاهر التاريخ الفكرى للجنس البشرى — فضلا عن أن الكتابة التاريخية الواعية ؛ لابد وأن تضع فى اعتبارها أمرين ؛ هما : نظرية عظمة الانسان ، وفكرة حتمية التطور الثقافى ويوضح تاريخ الكتابة التاريخية أثر هذين العاملين على التطور الثقافى إلى حدٍ بعيد .

وهناك ثلاثة طرق رئيسية يمكن بواسطتها علاج موضوع الكتابة التاريخية . أولها : أن يختار المؤلف عدداً من كبار المؤرخين منذ عصر هيرودوت إلى عصر ادوارد ماير — ثم يخصص لكل منهم دراسةً أدبية . وتبدو هذه الطريقة أكثر إمتاعاً من غيرها ، كما أنها تلائم بدرجة أكبر الصنعة الأدبية . ومن أمثلة هذا النوع من المؤلفات ؛ كتاب موريتز ريتر عن «تطور علم التاريخ» . ولكن مهما يكن لهذا النوع من الكتابة من حظ من شغف القراء ، ومهما يكن له من قيمةٍ أدبية ، فإنه يفتقروا إلى الدقة العلمية والدراسة المقارنة .

والطريقة الثانية : هى أن يقدم المؤلف موسوعة بأسماء مراجع للكتابة التاريخية ، على نحو مافعل وليم هنرى اليسون وآخرون فى كتابهم . «دليل المراجع التاريخية» وكذا كتاب شارل . ف . لانجلويس «الدليل الموجز للمراجع التاريخية» . وهذا النوع الأخير من الكتب يحقق الدقة التى تعوز الطريقة السابقة . ولكنه يقدم لنا شيئا لايخرج عن كونه مجرد اسم مرجع . وبالتالى فهو لايلائم القراءة المتصلة ذات الأفكار المترابطة .

أما الطريقة الثالثة : فهى ان يشخص المؤلف الأساس الفكرى لكل فترة رئيسية من فترات التقدم البشرى فى الحضارة الغربية — ويوضح كيف أن الكتابة التاريخية فى كل من هذه الفترات ؛ كانت متصلة اتصالاً وثيقاً بالثقافة الأم — وبين السمات الرئيسية للكتابة التاريخية فى كل عصر — وما حققته من تقدم جديد فى علم التاريخ . ثم يعطى صورةً واضحةً لانتاج كل كاتب من دعائم الكتابة التاريخية فى العصر — وهذه الطريقة تمكنه من استعراض الاحداث الكبرى فى كل حقيقة وتحديد جوانب التقدم فى الحضارة البشرية بوجه عام ، وفى علم التاريخ على وجه الخصوص ، ثم استجلاء ، ما أسهمت به المواهب الفردية لكبار كتاب التاريخ فى كل عصر. وهذا الأسلوب فى علاج الموضوع يجعل من الممكن الجمع بين حصر نواحى التقدم فى كل عصر وبين إبراز طبيعة الشخصيات الكبرى التى تدور حولها أحداث ذلك العصر. وكانت هذه هى الطريقة التى اتبعها ادوارد فيوتر فى كتابه « تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة » وهى أيضاً نفس الطريقة التى فضلتها فى كتابى هذا ، لأنى مقتنع بأنها الطريقة السليمة لعلاج هذا الموضوع بوصفها عرضا عاماً ومدخلا لدراسةٍ أشمل . وإن كنت أترك للآخرين الحكم على مدى ما أحتسبه من توفيق فى استخدام هذه الطريقة .

وقد حافظت فى الفصول الأولى من الكتاب على التقسيم التقليدى لمراحل تطور الكتابة التاريخية ، فعالجت الموضوعات فى هذه الفصول علاجاً زمنياً مسلسلاً . ولكن القارئ سيلمس تبايناً فى بقية الفصول ، حيث إننى لجأت إلى علاج هذا التطور على أساسٍ موضوعى ، وهو أمرٌ لم يكن من المستطاع تجنبه ؛ لظهور اتجاهاتٍ مختلفة فى الكتابة التاريخية فى وقت واحد. فعلى سبيل المثال نجد أن القرنين السابع عشر والثامن عشر شهدا بداية المدارس التاريخية الحديثة ، ونشأة فلسفة التاريخ . والاتجاهات التعقلية فى الكتابة التاريخية ، فضلا عن ظهور النعرة القومية فى تلك الكتابة . كذلك شهدت المائة سنة الأخيرة ، بلوغ الكتابة التاريخية مرحلة الكمال من ناحية شمول المعلومات. كما شهدت نشأة تاريخ الحضارة kulturgeschichte والأثر العظيم للعلوم الاجتماعية على كتابة التاريخ. وهكذا نتبين أن علاج جميع هذه التطورات والاتجاهات عن طريق إدماجها تحت حقبة زمنية واحدة ، لن ينجم عنه سوى الارتباك وسوء التنظيم . ومن ثم رأينا من الأفضل الالتجاء إلى تعديل طفيفٍ فى الطريقة ، بالقدر الذى يسمح بالترتيب الموضوعى حتى يزداد الموضوع فهما ووضوحاً

وبدهى أنه فى هذه الحالة بات الاختيار امراً ضرورياً لتحديد عدد واسماء المؤرخين الذين يتعرض لهم هذا الكتاب ؛ والذين لزم التنويه بهم والإشارة الخاصة إلى أعمالهم ، وإلا غدا الكتاب مجرد فهرس — وخاصة فى أجزائه الأخيرة — ولقد حاولت بكل طاقتى أن أجعل

هذا الاختيار يقوم على أسس عادلة معقولة . ومع ذلك فانه لا مفر من أن يقع اختيار الغير فى حالات كثيرة على اسماء غير تلك التى اخذتها واقل ما يمكن أن أقوله فى هذا الشأن : إننى لم أورد أى اسم بسبب ميلى أو انحيازى لاتجاه بعينه ، أو شخصياتٍ بذاتها. وكذلك فإننى لم أستبعد أى اسم لتحاملى الشخصى على صاحبه أو تحيزى ضده — فإن كانت هناك أسماء قد حذفتها وثبت بعد ذلك اهميتها ؛ فإنه ليسرنى أن أضعها فى الطبعات اللاحقة ؛ إذا تفضل أى امرئ يلفت نظرى إليها .

هذا وقد كنت صريحا فى معالجتى للكتابات التاريخية المعاصرة والأحياء من المؤرخين ، قدر صراحتى فى تقديمى للكتابة التاريخية والمؤرخين فى العصور القديمة والوسطى — وفى هذا ابتعاد عن المنهج المألوف المقبول — ولكنى أعتقد أن هذا أمر لاغنى عنه فى أى مشروع للتاريخ للكتابة التاريخية يأخذ على عاتقة سرد قصته والوصول بها إلى أيامنا هذه . ذلك أن اهم الكتابات التاريخيه على مر العصور كلها ؛ هى تلك التى دونت فى الخمسين سنه الأخيرة — ومازال اكفأ المؤرخين على قيد الحياة — وعلى ذلك ، فإن استثناء الأحياء من المؤرخين ،وكذا السمو بأعمالهم عن النقد والتعليق ، سوف يترك هوّة خطيرةً فى التقدير والتقييم الفاحص ؛ الذى يمكن أن يحوية كتاب من هذا النوع . وكتب التاريخ والعلوم الاجتماعيه التى لا تتعرض للمؤرخين المعاصرين ؛ لا تحقق الفائدة المرجوة منها لأجيالنا التى تعيش اليوم . وحسبنا أن مقالةً كتلك التىَ كتبها «شارل اشن بيرد» بعنوان الحلم النبيل The Noble Dream ؛ تفوق فى أهميتها العملية مجلداً كاملاً يتناول فى طياته نقداً لكتّاب الحوليات فى العصور الوسطى . ثم إن تناول المعاصرين من الكتاب تناولاً صريحاً عادلاً يمثل «روحاً رياضيةً» عظيمة ذلك أن الشخص الموجود على قيد الحياة ؛ يستطيع أن يرفع صوته محتجاً ؛ بعكس الميت الذى لايستطيع الدفاع عن نفسه ضد ما يوجه إليه من نقد .

وقد عنى هذا الكتاب عنايةً كبيرةً برعاية ميول المؤرخين ، والاهتمام بالدراسات التى يعتمدون عليها فى عصرنا . ولعل اهم ما أتى به القرن العشرون من جديد فى مجال الكتابة التاريخية ؛ هو أنه ومع إدراكنا لمعنى التاريخ — تأتى بالفكرة القائلة بأن دراسة تاريخ الانسان فى العصور السابقة يجب أن تبين لنا كيف كانت تسير الأمور فى الماضى ، وكيف تطورت بعد ذلك — كما أنه أتى بالفكرة التى تذهب إلى أن تاريخ ماضى الانسان يساعدنا كثيراً على فهم حاضرنا ، ويمكننا من تخطيط المستقبل ، هذا كله فضلا عن الاعتراف باهمية العلوم الاجتماعية المختلفة فى إعداد المؤرخ لممارسة مهنته . وهذه الأفكار الجديدة ؛ إنما تنبئ بتطورات عديدة أخرى فى ميدان الكتابة التاريخية عند الأجيال القادمة ، وهذا فى حالة ما إذا قدر للحضارة البشرية أن تستمر. وقد أقرت مدرسة أقطاب المؤرخين هذه الحقيقة بصفة قاطعه ، كما يدل

على ذلك التقرير المطول عن الدراسات الاجتماعية الذى اعدته احدى اللجان المنبثقة عن الجمعية التاريخية الأمريكية . ومع ذلك فإن اعترافنا بأهمية مايسمى «بالتاريخ الجديد» لجيلنا الحالى ، لم يجعلنى أبداً انتقص من القدر المخصص للإشادة بدور المدرسة التاريخية التقليدية ، فوفيتها حقها من الاحترام والتقدير .

والحقيقة أن هذا الكتاب قد قصد به أن يكون أكثر من مجرد موجز لما يعلم للقلة المختارة . ذلك أنه من المستطاع أن يمكن القارئ من ربط الأطراف المفككة فى كتابات الباحثين ، كما يعرف المبتدئ فى الدراسات التاريخية بالتطورات الاساسية لمهنته فى المستقبل ، وبعمالقة هذه المهنة . ولكنى أرجو كذلك أن يجد القارئ العام متعةً ذهنيةً فى هذا الكتاب ، حيث إن عظماء المؤرخين يجذبون دواماً القراء المثقفين إليهم ، وذلك بفضل ما لكتاباتهم من روعة وسحر وقد حرصنا فى هذا الكتاب على أن نضع ثيكوديدس ، تاكيتوس ، هيوم ، جيبون ، موتلى ، باركمان ، ماكولى ، وغيرهم ، فى مواجهة المسرح الثقافى والمهنى الذى انبثقت منه كتاباتهم ، والذى على أساسه يتم تقييم هذه الكتابات تقيماً سليماً وسط كتابات معاصريهم . فالقصة الكاملة لتاريخ التاريخ ، لا بد وأن تكون أكثر تشويقاً ومتعة ثقافيةً من أية نبذة عن مؤرخٍ واحد ، أو عن انتاج ذلك المؤرخ . يضاف إلى ذلك أن أى عرض لتاريخ التاريخ ، سيكون حتماً رحلةً متصلة الحلقات لها أهميتها فى تاريخ نمو الفكر البشرى والرقى الانسانى ، حيث إن التاريخ يتميز بكثرة جوانبه ودوام تقدمه وتطوره .

وأخيراً ، فإن دراسة الكتابات التاريخية السابقة ، وكذا الحقائق التاريخية المتعلقة بالماضى ، ينبغى أن تعدنا بطريقة أفضل لمعالجة مشاكل اليوم ، وتفسير المشاكل الجارية التى يتعرض لها الناس . ثم إننى قمت بهذا العمل على قدر طاقتى فى ضوء المفاهيم التى استرشدت بها ، وفى حدود الحجم الذى خصصته للكتاب . وإذا كان هناك من يعتقد أنه يستطيع تنفيذ هذا العمل بطريقة أفضل ، فإنه سيجد بكل تأكيد مجالاً متسعاً لذلك . ولما كان هذا الكتاب هو الوحيد من نوعه فى كافة اللغات ، فإننى أتمنى كل نجاح وتوفيق لأى كاتبٍ يقوم بعمل ينافس عملى هذا . ولن يكون هناك من هو أكثر منى سعادة عندما أرى المطابع تخرج للقراء كتاباً أفضل من كتابى هذا فى الموضوع نفسه .

وبرن — نيويورك

هارى إلمر بارنز

شكر وتقدير

لقد تفضل كلٌّ من الأساتذة : كارل وتيك (عميد كلية اوبرلين) ، ورالف هـ . ريكوردز (جامعة اوكلاهوما) بقراءة أصول الكتاب بأكملها . وأبدى كلاهما بعض الملاحظات البناءة التي ساعدتني كثيراً في مراجعة مادته . كذلك عنى آخرون بأجزاء من الأصول تقع في دائرة تخصصاتهم ؛ فقرأ الاستاذ (ناتانيال شميدت) جامعة كورنيل الفصل الأول — وقرأ الاستاذ دلاس كالدويل (جامعة كارولينا الشمالية) الفصلين الأول والثاني — أما الأساتذة ؛ ادوارد مازلين هولم (جامعة ليلاند ستانفورد) جوزيا . ك راسل (جامعة كارولينا الشمالية) ؛ فقد قرءوا الفصلين الثالث والرابع ، وقرأ الاستاذ البرت هـ لايابر الأجزاء التي ترتبط بالمؤرخين البيزنطين والمسلمين في الفصل الرابع . وقرأ الأستاذ جيمس ا جيلسبي (كلية بنسلفانيا) والأستاذ ليوجير شوى (جامعة لونج ايلاند) الفصل السابع . كذلك قرأ الدكتور هـ .س . انجلبرشت (نيويورك) الفصلين الثامن والتاسع — أما الفصل العاشر ، فقد قرأه الاستاذ دافيد مازي (جامعة كولومبيا) وهو الذي تفضل أيضاً بقراءة مسودة مبدئية للفصل الحادي عشر — كما قرأ بعض أجزاء الفصل العاشر أيضا ؛ الأستاذ لويس م . هاكر . وهناك أيضاً الأستاذ بنيامين ب . كندرك (كلية كارولينا الشمالية للبنات) الذي قرأ الفصول الثاني عشر والثالث عشر والخامس عشر — أما الأستاذ ميرل كورتي (كلية المعلمين بجامعة كولمبيا) ، والأستاذ فالرمود (مكتبة هانتيخ قون) باسادينا كاليفورنيا — فقد قرءوا الفصل الرابع عشر.

واكتشف هؤلاء الأساتذة عدداً من الأخطاء ، وأبدوا كثيراً من الملاحظات البناءة من أجل تهذيب المادة التي أضفتها لهذه الطبعة . وإنني لمدين كذلك للسيد سانوى لونتنيل « نورمان — اوكلاهوما) لتفضله بمراجعة الأسماء والتواريخ في « تجارب الطبع » ولقيامه بعمل الفهرس المطول الخاص بالكتاب — ويسرني كذلك أن أشيد بالمجهود العظيم الذي بذله السيد جوزيف ا. براندت (مطبعة جامعة اوكلاهوما) بالاشراف الدقيق على الطباعة والإخراج . كذلك ساعدني مشكوراً السيد أنتوني نتبوي في قراءة « تجارب الطبع » .

والحق إننى فى هذه الطبعة لم أفرض على أحد مساعدتى . وإنما أفدت من النقد والتعليقات التى ظلت تصلنى منذ سنة ١٩٣٨ وأود بصفة خاصة أن أعبر عن امتنانى وشكرى للسيد روبرت هتشنسون ورفاقه فى مؤسسة ردفر للطباعة ؛ لما قدموه من مساعدة فنية قيمة ، ولما أبدوه من جد واهتمام طوال عملهم معى فى إخراج هذا الكتاب .

هارى إلمر بارنز

أصول الكتابة التاريخية
(طبيعة التاريخ)

ارتبط اصطلاح التاريخ فى استعماله العام بمعنيين مختلفين : فهو يستعمل عادةً للتعبير عن حصيلة النشاط الإنسانى فى الأزمنة السابقة . ويأتى استخدامه بهذا المعنى مقروناً عادةً بالعبارة التى كثيراً ما تترامى إلى أسماعنا ؛ وهى عبارة «والآن يصنع التاريخ» . وهذا ما يحدث عادةً عند الكلام عن فترة نشطة ، أو عصر حافل بالأحداث الهامة من عصور النشاط البشرى . أما الاستعمال الأكثر شيوعاً فهو ذلك الذى يعتبر التاريخ سجلاً للأحداث لا مجرد سردٍ للأحداث ذاتها . وهذا المعنى الأخير الأكثر تقبلاً وشيوعاً يمدنا بتعريفين للتاريخ : الأول موضوعى ؛ وهو على حد قول الأستاذ جيمس هارفى روبنسون : «كل مانعرفه عن كل شئ فعله الإنسان أو فكر فيه أو أحس به أو تمناه» أما التعريف الثانى — وهو إلى حد كبير تعبير موضوعى أو نفسانى ؛ فهو أن التاريخ سجلٌ لكل ماحدث داخل نطاق الإدراك البشرى .

وعندما ننظر إلى التاريخ على أنه سجل لأحداث الماضى ؛ نجد أن البعض — وبخاصة فى العصور المبكرة — اعتبروه فناً — وفرعاً من فروع الأدب . ونلمس فى الوقت الحاضر زيادةً كبيرة مضطردة فى عدد الهيئات العلمية التى تعتبر التاريخ فى أساسه علماً اجتماعياً ؛ يعنى بقدر الإمكان باعادة بناء الفكر البشرى والنشاط الإنسانى فى العصور السابقة .

وقبيل الاكتشافات الهامة التى توصل إليها الباحثون فى علم آثار ما قبل التاريخ وهى تلك الاكتشافات التى كان لها فضل كبير فى تنمية معلوماتنا عن النشاط الإنسانى فى الأزمنة الغابرة — كان هناك اتجاه تقليدى يقصر لفظه «تاريخ» على سجل أحداث الماضى التى تم وصفها أو تسجيلها على الآثار . أما الآن فقد أوضح لنا علم الآثار كثيراً مما خفى من مراحل

معينة فى حياة الانسان الأول ، مما جعلها أكثر وضوحاً من المراحل الأحدث منها . والتى استقينا معلوماتنا عنها من الأدلة المدونة . وعلى هذا لم يعد سليما أو منطقياً أن نستخدم اصطلاح «ماقبل التاريخ» ، إلا إذا كنا نعنى تلك الفترة الغامضة التى يفترض وجودها فى البداية المبكرة جداً للتطور البشرى والتى لا توجد لها كتابات مدونة أو نقوش أو اللهم إذا قصرنا مفهوم التاريخ على أنه فرعٌ من فروع الأدب . ولذا حل اصطلاح «ماقبل الكتابة» محل اصطلاح «ماقبل التاريخ» . ونعنى بهذا المصطلح ، تلك الفترة من التطور البشرى التى نستمد معلوماتنا عنها من القرائن الأثرية ؛ لا من كتابات مدونة .

وخلاصة الـ ل : فإن هناك أتفاقاً على أن اصطلاح «ماقبل التاريخ» يحوى كثيراً من التناقض والبعد عن الحقيقة ؛ إذا ما استخدم فى وصف أيه فترة وجد لها سجلٌ غنى ؛ سواء اتخذ هذا السجل شكل كتابة أو أحجار أوعظام ، أو أدوات معينة ؛ مما كانت تستخدم فى الحياة اليومية . وقد نبذ الكتاب المحدثون اصطلاح «ماقبل التاريخ» كما نبذوا من قبل اصطلاح «ما قبل آدم» . وجاء ذلك نتيجةً حتمية لنمو معلوماتنا عن النشاط البشرى ؛ من ناحيتى الزمان والمكان .

وليس من الصواب أن نناقش فى هذه المرحلة من الكتاب وبالتفصيل مختلف الآراء التى توضح ماهية التاريخ ؛ وما إذا كان يعنى أساساً برواية الأحداث — فإن مهمة هذا الكتاب هى إلى حد كبير توضيح التفسيرات المختلفة للتاريخ ، وتبيان تلك المشكلة التى طالما أثارت جدلاً ونقاشا ، وأقصد معنى التاريخ أو الآراء التى دارت حول معناه ، وماطرأ عليها من تغيرٍ وتطورا .

تطور تاريخ ماقبل الكتابة

يتحتم علينا بعد ماتبينا أن التاريخ بمعناه المعاصر يرجع بعيداً إلى ماقبل تسجيل الوجود البشرى أو النشاط الإنسانى ، أن نبحث عن أصل التاريخ بين تلك المصنوعات المبكرة التى تميزت من ناحية الشكل ، كما اتصفت بمتانة التركيب المادى ، بحيث أمكنها البقاء على مر العصور المتعاقبة ، لتكون دليلاً على منجزات الإنسان فى ذلك الدور العريق فى القدم والذى سبق إتقان فن الكتابة . وعلى هذا يمكن القول : إن الأصل الحقيقى للتاريخ إنما يرجع إلى تلك الفترة الغابرة الغامضة ؛ التى تعرف بالعصر الايولوثى أو ما قبل العصر الحجرى القديم ، وهو العصر الذى استخدم فيه أحجاراً لا شكل لها ، بمعنى أن أول وثيقةٍ تاريخية يمكن أن تعتبر

يحق أول آلة حجرية . أما إذا كان هناك من يرفض وجود الفترة الايلوثية — أى ماقبل العصر الحجرى القديم . فإن أول سجل مؤكد فى التاريخ يكون العصر الحجرى القديم ، الذى استخدم فيه الحجر المشظّى .

ولا يسمح المجال هنا إلا ببيانٍ مختصرٍ جداً عن القصة الشيقة للتطور المبكر للجنس البشرى — كما تكشف عن الأدوات التى ظلتّ باقية . فهناك دلائل مثيرة على نشاط الإنسان واهتماماته فى هذه الفترة الغابرة ، التى ترجع إلى أكثر من ربع مليون سنة — والتى توضحها الأدوات والعظام التى وجدت فى حصباء المدرجات النهرية القديمة ، فضلاً عن الكهوف والمغارات وماتم على عظام الحيوانات من نقوش محفورة ، فضلاً عن الرسومات البدائية التى وجدت فى أماكن تلك الكهوف . ومن بينها ماوجد فى التاميرا بأسبانيا ، فونت دى جوم بفرنسا ، فضلاً عن المنتجات الرائعة من العصرين البرونزى والحديدى — مما يثير بكل تأكيد اهتمام القارئ . وللإلمام بهذا الموضوع إلماماً وافياً ، على القارئ أن يرجع إلى كتاب س .د. نايت «ماقبل فجر التاريخ »[1] . وكتاب جورج جرانت ماكردى Mac Curdy «ظهور الإنسان »[2] . وكتاب ستانلى كاسون «التقدم فى دراسة الآثار »[3] . وكل مايمكننا أن نفعله فى هذا المجال ، هو أن نقدم عرضاً سريعاً مختصراً لأهم الحقائق وأبرزها فى هذا الموضوع .

لقد تم التوصل خلال القرن التاسع عشر إلى اكتشافين ثوريين ، على قدرٍ كبيرٍ جداً من الأهمية فيما يتعلق بأصل الجنس البشرى . أما الاكتشاف الأول فقد قضى على الفكرة القائلة : إن كل الكائنات الحية على هذه الأرض ، وأهمها بطبيعة الحال الإنسان قد خلقها الله فى أسبوع واحد فى وقت سبق ظهور المسيح بأربعة آلاف سنة أو أكثر قليلا كما ذكر فى الكتب الإسرائيلية والمسيحية وعلى النقيض من ذلك ، أثبت هذا الاكتشاف أن بعض المخلوقات التى لها خصائص إنسان اليوم ، وبعض عاداته ، وشئ من ذكائه وتكوينه الجسمانى ، تركت آثار أقدامها على صفحة التاريخ منذ حوالى خمسة ملايين سنة . أما الاكتشاف الثانى ، فيؤكد حداثة عمر البشرية بالقياس الى عمر الأرض ذاتها .

وبناءً على هذه الاكتشافات ، أخذت تلك القصة التقليدية عن بداية الخليقة تنهار تماماً أمام المفهوم الجديد الذى شق طريقه إلى عقولنا ، بعد التعرف على تلك الحقبة الطويلة

(1) Mc Graw - Hill Book co. 1935.

(2) University Society 1932.

(3) Mc Graw - Hill 1935

التى أنقضت منذ أن أنفصل كوكبنا عن الكوكب الأم — وهو الشمس — فى صورة كتلة غازية هائلة . أخذت تتجمع ذراتها لتكون الأرض التى نعيش عليها . ومهما يكن الاختلاف حول تقدير عمر الأرض ، فإنه لا جدال فى أن حقبة طويلة من الزمن لا يمكن أن يدركها الإنسان ، قد أنقضت منذ أن بدأ الغاز يتحول إلى مادة أصلية ، أو منذ أن بدأت الذرات الكوكبية تتحد معاً لتكون كوكبنا — ومع ذلك ، فإنه طبقا لتقدير الفلكيين فى قياس الزمن ، فإن مولد الأرض كان حدثاً جديداً نسبيا فى تاريخ الكون . وفى هذا يقول الاستاذ شابلى : فى الأزمنة الغابرة جداً منذ ملايين كثيرة من السنين ، وقبل ظهور سيد جميع المخلوقات — أى الإنسان — بعثت النجوم طاقتها المشعة ، ودارت الأجرام السماوية دورتها ، وخضع الكون لحكم القانون » .

والواقع أننا مدينون بالكثير لعلم الجيولوجيا فيما يختص بتقدير عمر الأرض . ذلك أن الجيولوجين كانوا أول من حطم الأفكار السائدة فى هذا الشأن . فبعد أن كانت النظرية المقبولة حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقول : إن سلسلةً من الازمات القاسية قد حلت بالكون الذى هو من صنع الله ، لتفسر بذلك التكوين الطبيعى لسطح الأرض — إذا بالجيولوجى الانجليزى السير شارلز لايل يثبت لأول مرة أن القشرة الأرضية لم تتكون نتيجة لما حل بالكون من كوارث جارفة ، وإنما تكون سطح الارض نتيجة لأسبابٍ وعوامل طبيعية كلها مفهومة الآن ، ولا يزال معظمها يؤثر فى الأرض . ففى كتابه المشهور «مبادئ الجيولوجيا الذى صدر فى الفترة ما بين سنتى ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ ، أوضح لايل التفاعلات الطبيعية التى انتهت — بعد عصور جيولوجيه عديدة — إلى تكوين مختلف الطبقات الجيولوجيه والجبال والوديان وما إلى ذلك . ومنذ ذلك التاريخ وكل مؤلفات الجيولوجين المتعاقبين تؤكد وجهة نظر لايل . الذى أصدر بعد ذلك بثلاثين سنة (١٨٦٣) كتاباً آخر عنوانه «قدم الانسان» لخص فيه الدلائل المقنعة التى تؤكد صحة نظريته القائلة : إن الانسان عاش على الأرض منذ زمن أقدم بكثير عما كان يعتقد الناس عندئذ .

والواقع أن تطور الحياة العضوية على كوكب الارض ينقسم من الناحية الجيولوجية إلى أربعة أقسام رئيسية هى :

١ — المرحلة الاولية (الباليوزية)

٢ — المرحلة الثانوية (الميسوزية)

٣ — مرحلة الثدييات (الترتارية)

٤ — مرحلة عصر الإنسان (الكوترينية)

وتستخدم أحيانا عبارة المرحلة السينوزية للتعبير عن المرحلتين الثالثة والرابعة معا . ومن الواضح أن حقبة طويلة جدا من الزمن قد مرت بين المرحلتين الأولية والثانوية . وربما بلغت هذه الحقبة ثلاثمائة مليون سنة . ولابد أن نذكر هنا أن تقديرات الزمن الجيولوجي تختلف من مصدر إلى آخر اختلافا كبيرا — ولذلك فان علينا أن نقنع بما هو تقريبي . ومن المعتقد أن مرحلة الثدييات قد استمرت فترة تتراوح بين خمسة ملايين وثلاثين مليون سنة . ويسود الاعتقاد فى الوقت الحاضر بأن طول المرحلة الرابعة يزيد على المليون سنة . أما المرحلتان الأخيرتان فتنقسمان إلى أقسام فرعية ، فرحلة الثدييات تنقسم الى أربعة فترات : عصر الأيوسين ، وعصر الاوليجوسين ، عصر الميوسين ، عصر البليوسين . كذلك تنقسم مرحلة الإنسان (المرحلة الكوترنية) الى عصرين : عصر البلستوسين والعصر الحديث . والواقع أن الترتيب الزمنى لهذه المرحلة الأخيرة أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لتقدير عمر الإنسان وهو يقوم على العصور الجليدية الأربع ، وعلى العصور الثلاثة المتداخلة التى تخللتها الواحد بعد الآخر . وتعاقبت حتى نهاية عصر البليستوسين . وقد نكون اليوم فى المرحلة الرابعة من هذه المراحل المتداخلة .

وظلت أصول الثقافة البشرية حتى عهد قريب مجهولة تماما . شأنها فى ذلك شأن أصل الجنس البشرى ذاته . فطالما اعتبر آدم أول انسان عاش على الأرض ، لم يكن هناك مجال لفكرة ماعن أى وجود للإنسان قبله ، وبالتالى لم يكن هناك مبرر لوجود علم آثار «ماقبل التاريخ» حيث إن أصل الكتابة يرجع إلى عهد يكاد يعاصر الإنسان الاول كما يتحدث عنه الإنجيل . ولكن اكتشاف بقايا هيكلية فى الطبقات الجيولوجية القديمة أثبتت وجود أنواع أولى للإنسان فى ذلك الزمن السحيق . كما أن اكتشاف المصنوعات والمنتجات المختلفة التى هى من عمل الإنسان فى بعض الطبقات المماثلة الأخرى ، سرعان ما أوضح أن تاريخ الإنسان وثقافته لابد وأنهما يمتدان إلى عهود بعيدة جدا . ولدينا معلومات كافية إن لم تكن كاملة تمكننا من تتبع تاريخ الثقافة البشرية منذ أصولها البعيدة للغاية ، وخلال مراحل تطورها المتعددة إلى يومنا هذا .

ولا يزيد عمر العلم الذى أوصلنا إلى هذه المعلومات القيمة — وهو علم آثار ماقبل التاريخ عن مائة سنة بكثير . ولما كان عصر ماقبل الكتابة لم يعرف التقويم ، فإن علم الآثار عليه تصنيف وتاريخ القرائن التى يعالجها ، أى البقايا الحجرية والعظمية والمعدنية التى يكتشفها . وذلك بوضعها فى ترتيب زمنى طبقاً لما يتبينه فيها من تطور وتقدم فى الثقافة البشرية . ويعاونه فى ذلك الجيولوجى الذى يقوم بوضع تواريخ تقريبية لكل من هذه البقايا عن طريق تقدير عمر الطبقة التى وجدت بها البقايا العظمية ، أو الأدوات والمصنوعات البشرية . فضلاً عن

عمر العظام الحيوانية التي وجدت بالطبقة نفسها . وتمكننا طريقة «كربون ١٤» من التعرف على طبقات عمرها خمسون الف سنة ، في حين تمكننا طريقة ارغون البوتاسيوم من التعرف على طبقات عمرها أكثر من مليونين من السنين .

وقد أدى العثور على بعض الأدوات الحجرية التي نعتقد اليوم أنه من صنع الإنسان البدائي ببعض الكتاب خلال العصر الوثني القديم إلى التأمل مغزاها ومعناها ، فيبدو أن الشاعر الروماني الفيلسوف لوكريتيوس ؛ وهو من كتاب القرن الأول قبل الميلاد — استطاع التوصل إلى تعاقب العصور الحجرية البرونزية والحديدية . بيد أن ثمة أعتقاداً ساد في تلك العصور بأن الأدوات الحجرية ليست إلا أحجاراً رعدية ألقت بها الآلهة . وظل هذا الاعتقاد سائدا طوال قرون عديدة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل اعتقد البعض بأن الأدوات تملك قدرات وخصائص سحرية خارقة . لذا فإنه عندما أتى مايكل مركت التوسكاني في القرن السادس عشر ؛ بنظريته تنادى بأن الأحجار الرعدية أو الصواعق ؛ ربما كانت من صنع الإنسان الأول ؛ فإنه يردد نظرية تسبق عصره واستطاع رجلٌ مجهولٌ اسمه توليوس — في القرن التالي — أن يخرج بنظرية ترضى المتدينين من معاصرية ، ونوداها أن تلك الأحجار ليست إلا نيازك تولدت في السماء ؛ بفعل أبخرة ذات وميض تكونت على شكل سحاب من تراكم بعض المواد فيا وراء الأفق .

ولم يكن ذلك قبل القرن التاسع عشر ، عندما تأكدت تماماً فكرة أن هذه الأدوات إنما هي من فعل البشر . ويرجع الفضل في ذلك إلى أمين متحف دانمركي الجنسية هو س . ثومسن Thomsen؛ ثم إلى درجة أكبر إلى المجتهد الجرئ جاك بوشيه دي برث ، وهو عالم آثار فرنسي . أما ثومسن فقد أحيا الأراء غير الواضحة التي أتى بها لوكريتيوس وأقامها على أسس علمية . وقد قسم ثومسن معروضات تحفة طبقاً لتتابع العصور : الحجرية ، فالبرونزية ، ثم الحديدية ، مستعيناً في ذلك بعلم الجيولوجيا . ولكنه — على الرغم من ذلك — لم يضف إلى معلوماتنا سوى القليل عن أهمية تلك المعروضات التي صنعها على ذلك النحو ، أو عن قدم عهدها .

أما بوشيه دى برث فقد أخذ على عاتقه إيضاح حقيقه هامة ؛ وهي أن الإنسان المبكر قد استخدم فعلاً تلك الأدوات الحجرية في حياته اليومية منذ آلاف عديدة من السنين . وقد بدأ بوشيه حوالى سنة ١٨٣٠ جهداً منظماً للكشف عن البقايا الأثرية لوادى السوم ، حيث عثر في رمال الأنهار القديمة على كميات هائلة من الأدوات الحجرية والأسلحة . ثم أوضح بوشيه سنة ١٨٤٦ في مؤلفة القيم بعنوان «الصناعة البدائية» ؛ أنه ليس هناك شك في أن الأدوات الحجرية التي تم العثور عليها لابد وأن تكون قد صنعت بيد الإنسان . وكان أن قوبلت آراؤه في

البداية بمعارضته شديدة ، وسخرية حادة ، ولكنه أصر عليها ودافع عنها حتى اقتنع بها علماء كثيرون من أئمة ورواد الباحثين فى التاريخ الأول للإنسان على الأرض ، وهؤلاء لم يكتفوا بمجرد تقبلها بل هبوا بدورهم يدافعون عنها . ومن أمثلة هؤلاء ؛ السير جون ايفانس .

وبعد أن ثبت بالدليل العلمي الأصل البشرى لهذه الأدوات الحجرية ؛ بدأ تصنيف تومسن السالف الذكر اكثر وضوحاً وأكبر معنى ، وأصبح من الممكن تصنيف أدوات الإنسان الأول طبقاً لترتيبها الزمنى ، ووفق تطورها الفنى . وتم منذ منتصف القرن التاسع عشر ؛ تقدم هائلٌ وسريعٌ فى علم دراسة الآثار ، إذ ظهرت تقسيمات أكثر دقةً وتخصصا ، فى نفس الوقت الذى تم فيه اكتشاف كثيرٍ من البقايا الحجرية والعظمية والمعدنية .

وفى العقد السابع من القرن التاسع عشر ، قسم السيرجون لابوك العصر الحجرى إلى عصرين متميزين هما : العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الحديث . فأطلق اسم العصر الحجرى القديم على العصر الذى اتصفت فيه الأدوات الحجرية بعدم الدقة فى الصناعة ؛ فى حين أطلق على العصر التالى الذى صقلت فيه هذه الأدوات وتهذبت ؛ اسم العصر الحجرى الحديث . وكان أن أفادت كتابات السير جون لابوك علم الآثار فائدةً عظيمة . ونخص منها بالذكر كتابه «عصور ماقبل التاريخ» الذى صدر سنة ١٨٦٥ . وكان أحد العلماء الفرنسيين ويدعى ادوارد لارتيت ؛ قد اكتشف فى سنة ١٨٦١ حقائق عديدة ، ساعدته على تقسيم العصر الحجرى القديم إلى قسمين : علوى وسفلى . وهكذا استمرت بعد ذلك عملية تقسيم هذه العصور الكبيرة إلى فترات أصغر — تسير سيراً حثيثاً لتسهيل دراسة التقدم الحضارى البشرى ووصفه .

ثم وضع جابريل دى مورتيليه فى كتابه «بحث فى تقسيم العصور التاريخية» (سنة ١٨٦٩) ؛ أسس الترتيب الزمنى لعصر «ماقبل التاريخ» . وأتى هذا الكتاب بالتقسيم المفصل الحالى للعصر الحجرى القديم إلى فترات متعاقبة هى : المسفينيه **Mesvinian** التشيليه **Chellean** ، الآكليليه **Acheulian** ، الموستيرية **Mausterian** الأرجناسية **Aurgignacian** ، السولتيرانية **Sulutrean** ، الجداليتيه **Magdalenian** ، الآزيليه **Azilian** ، التاردينيه **Tardenonsion** وهذه كلها فى الحقيقة تقسيمات فرعية منبثقه عن الأقسام الكبرى وهى ؛ العصر الحجرى القديم الأسفل ، والأوسط ، والأعلى . وفى بعض الأحيان لا تعتبر المرحلتان الفرعيتان الأزيليه والتاردينية ضمن العصر الحجرى القديم ، بل تعتبران مرحلة انتقال بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث . وقد أطلق عليهما حديثا اسم المرحلة الميزوليثية **(Mesolithic)** ولقد واصل دراسة العصر الحجرى القديم عدد من العلماء أمثال ؛ هنرى برويل ، كما تابع دراسة

العصر الحجرى الحديث كثيرون أمثال ؛ ر.ر.شميدت ، اوجت اسكنك ، اسكار توتيليوس . أما فى قرننا هذا ؛ فقد أثبت العالم البلجيكى ايميه روتو ، والعالم الانجليزى ج.ريدموار Ridmoir وجود عصر سابق للعصر الحجرى القديم ، أطلق عليه اسم العصر الايولوثى . ومن ناحية أخرى تم فى نفس القرن ربط العصور المعدنية بالعصور الحجرية ، كما تم وضع ترتيب زمنى لهذه العصور المعدنية .

وبعد أن تم اكتشاف الأدوات البدائية وتصنيفها ؛ أمكن التوصل إلى ترتيب زمنى لعصر ماقبل الكتابة . وبذلك صارت الخطوة التالية هى تطوير دراسة التركيب الاكيولوجى للمناطق الأوربية المختلفة . وكان أن أورد روتو وصفاً رائعاً لوحدة ثقافات بلجيكا ووادى السوم فى عصر ماقبل الكتابة . وفى نفس الوقت قام كل من جوزيف ديكيليته Joseph Dechelette هنرى برويل ، اميل كارتيلهاك Cartailhac باعداد كل مايتعلق بالآثار القديمة جدا فى فرنسا ؛ من صخور وحفريات وما إلى ذلك . وكذلك فعل كارتيلهاك وهوجو اوبرناير Hugo Obermaier بالنسبة لأسبانيا ، فى حين تحمل هذا العبء فى ايطاليا ت.ا.بيت T.E. Peet أما فى المانيا فقد تمت هذه الدراسات على يد ر.ر.شميدت ، واوبرماير كما عكف مونتليوس على دراسة المواد الاسكندنافية وفحصها فحصا عميقا ، على حين اهتم علماء آخرون بالبلدان الأوربية الأخرى . والواقع ؛ إن أول تحليل كامل ودراسة حديثة لفترة ماقبل الكتابة بأكملها ؛ كان من عمل العالم الامريكى جورج جرانت ماكردى[1] .

وقد يبدو للمبتدئ فى دراسة الآثار القديمة أن أسماء كتلك التى أطلقت على فترات العصر الحجرى القديم إنما يصعب فهمها لطولها وثقلها . ولكنها إذا ماشرحت شرحاً وافياً دقيق ، فإنها تصبح غاية فى البساطة والوضوح . فهذه الأسماء تمثل التسلسل الزمنى للتطور الحضارى وتوضح فى نفس الوقت — إلى حد كبير — التطور الفنى الذى طرأ على المصنوعات الأولى كالأدوات والأسلحة من حيث ؛ العدد والتصميم ، والشكل ، فضلاً عن حافتها القاطعة . ويعتبر تقسيم العصور إلى فترات فرعية وإطلاق أسماء على تلك الفترات الوسيلة الوحيدة للترتيب الزمنى لعصور ماقبل الكتابة . وعلى عكس ماقد يبدو فإن الأسماء الغربية التى أطلقت على الفترات الحضارية المختلفة لم تطلق جزافاً ، لأن لهذه الأسماء أصولٌ مفهومةٌ ومعرفة ، وسميت كل من هذه الفترات بما يعرف (Type site) ، والمقصود بهذه الكلمة المكان الذى اكتشفت فيه لأول مرة أكثر البقايا دلالةً على نوع معين من ثقافة العصر الحجرى ، أو أنماط كاملة منها ، فمثلا ؛ الآثار النموذجية للفترة الموستيرية هو كهوف الموستير بفرنسا .

---

(1) Human Origins (O. Applaton and Co. 1974 vols).

وعلى الرغم من أن هذا العصر الطويل من عمر الإنسان ، وهو العصر الذى دام حوالى خمسة ملايين من السنين ؛ لم يعرف الكتابة ، ولم يكن له بالتالى أية كتابات تاريخية ؛ إلا أن الاكتشافات البعيدة للبقايا الحجرية والعظمية والمعدنية ؛ تمثل البداية الحقيقية للسجل التاريخى للطريق الشاق الذى سلكه الإنسان من الهمجية إلى الحضارة . والحق ؛ إن هذه البقايا تزودنا بمعلومات عن حياة الجنس البشرى ؛ تفوق بكثير مازودتنا به الكتابات التاريخية اللاحقة التى طالما أغفلت كثيراً من النواحى الحيوية لمعيشة الإنسان . ولذا فإن هذه البقايا ستظل على قدر كبير جداً من الأهمية ، خاصة إذا ماعلمنا أن أكثر من تسعين فى المائة من الوجود البشرى على كوكبنا قد انقضى قبل إتقان فن الكتابة . ولعل هذا هو السبب الذى جعلنا نستغنى عن اصطلاح «ماقبل التاريخ» وأن نستعيض عنه بمفهوم «ماقبل الكتابة» .

وإلى جانب ماقام به علماء الآثار من جهود فى تنظيم العناصر الحضارية لعصر ماقبل الكتابة ؛ فقد عكف علماء الاجتماع على دراسة نظم المعيشة عند ذلك المجتمع الأول . وليس لدينا بطبيعة الحال سوى النزر اليسير من بقايا المجتمع ، وبعض معلومات ضئيلة عن حياة الجماعات فى عصر ماقبل الكتابة ومن بين مالدينا فى هذا الشأن آثار تدل على وجود شعائر دينية ، كما أن هناك بعض الأدوات الحجرية التى لابد وأن تكون قد وضعت بجهد تعاونى . والحق إنه يتعين علينا أن نبنى معلوماتنا عن حياة الإنسان الجماعية فى هذا العصر على الاستنتاج والمقارنة ، وذلك عن طريق دراسة حياة المجتمعات البدائية التى لاتزال قائمة فى عالم اليوم ، والتى تشبه إلى حد كبير فى ثقافتها مجتمعات ماقبل الكتابة . ولعل أهم مؤلف صدر فى هذا الشأن هو كتاب «المجتمع القديم» لمؤلفه لويس هنرى مورجان Morgan ، وإن كان يؤخذ على هذا الكتاب أنه برغم ما أضافه من معلومات قيمة ؛ فإنه بسط الأمور بشكل مبالغ فيه . ثم جاء كتاب أحد تلامذته وهى ليسلى Leslie ا هويت بعنوان «تطور الثقافة» مصححاً لكتاب مورجان ، وأكثر تمشياً مع الحقائق الهامة عن المجتمعات البدائية . وهذا الكتاب وكذا كتاب روبرت هـ. لوى Lewie يمكن مقارنتها بوجه عام بكتاب ماكردى «الأصول البشرية» الذى يتحدث فيه عن البقايا القديمة من عصر ماقبل الكتابة .

اتقان فن الكتابة

على الرغم من أن البقايا الخالية من الكتابة للإنسان القديم تعد أقيم وأعظم مصدر نستخة منه معرفتنا عن حياة ذلك الإنسان ونشاطة ، فإنه لم يمكن التوصل إلى

سجل شامل لاحداث الماضي البعيد ؛ إلا فى العصر الذى بدأ يفكر فيه الإنسان فى أن يضفى على أفكاره وأفعاله تعبيراً خالدا — أى فى العصر الذى أتقن فيه الكتابة .

والحقيقة أن أصل هذا الفن لايزال يشوبه بعض الغموض . ولكن هناك اتفاقاً على أن العصر الأول للكتابة ؛ هو عصر الكتابة بالصور التى ظهرت أول ماظهرت على أدوات الاستعمال اليومى وعلى جدران كهوف المراحل المتوسطة والمتأخرة من العصر الحجرى القديم . وقبل أن تصبح هذه الصور كتابة حقيقية ؛ كان عليها أن تمر بمراحل ثلاث : ففى المرحلة الأولى كان من الضرورى التوصل إلى اتفاق عام فى استخدام الصور ، بحيث تدل كل صورة على شئ معين لا يتغير شكلها أما المرحلة الثانية فكانت إيجاد تعبير عن المفاهيم المعنوية ، إلى جانب ما وجد فعلاً من رسوم تدل على الأشياء المادية والمحسوسة وأخيراً ؛ كان ضروريا الربط بين هذه الصور والرموز من ناحية ، وبين صوت الإنسان من ناحية أخرى وقد مرت هذه المرحلة الأخيرة نفسها بعدة خطوات على طريق التطور ، ففى البداية كان هناك نوع من اللغة البدائية التركيبية . ثم كان هناك أبسط أنواع كتابة الأصوات ، حيث كان كل رمز يدل على كلمة بأكملها . وهناك بعض اللغات مثل اللغة الصينية لم تتعد المرحلة البدائية التى تعرف « بمرحلة الكلمات ذات المقطع الواحد » . وبالتدريج بدأت الرموز تعبر عن وقائع وليس عن كلمات بأكملها . وأمكن بعد ذلك بكثير من الوقت أو بقليل ؛ تحليل أصوات الإنسان ، ومن ثم تمثيلها برموز أو حروف معينة . وهكذا خرجت الأبجدية إلى الوجود .

وحوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م أضاف المصريون عملا جديداً لفن الكتابة باستخدام أربعة وعشرين علامة هيروغلفية تمثل الأصوات الساكنة . ومع ذلك فان المصرين القدماء لم يعتبروا هذا العدد من العلامات كافيا للوفاء باحتياجات التعبير ، واستخدموا عددا أكبر من الرموز للدلالة على كلمات ومقاطع أخرى . وبالتالى لم يدركوا الجانب الاساسى اللازم لأبجدية ممثلة للصوت . والواقع ان أول أبجدية صوتيه اكتشفت حديثاً على حفريات وجدت فى شبه جزيرة سيناء ، وفى جنوب فلسطين ، ويبدو أن مؤلف هذه الأبجدية قد حرر نفسه من قيود الأبجدية المصرية التى لم تتسم بالكمال . ولعله كان فنيقياً من « جبيل » أو من أية جنسية سامية أخرى ، كما يحتمل أن يكون قد عاش فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . كذلك تم حديثاً اكتشاف آثار كتابية فى منطقة رأس الشمرة ؛قرب اللاذقية فى أوجاريت القديمة Ugaret وبعض هذه الكتابات مدون بأبجدية حروفها تشبه المسامير ، وبلهجة سامية شمالية غربية .

وليس مؤكدا حتى الآن أن صاحب هذه الكتابات كان يحاول استبدال الأبجدية المسمارية بالأبجدية السامية المعروفة فى ذلك العصر ، أو أنه قد ابتكر هذه الأبجدية دون التأثير بما عداها . ولكن من الواضح أننا لابد وأن نعدل الرأى القائل : إن الفينيقيين هم أول من ابتدع الأبجدية الصوتية . وأول ما اكتشف من كتابات بالأبجدية الفنيقية الكاملة هى تلك التى تنسب إلى آهيرام Ahiram ؛ أحد معاصرى رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد احتوت هذه الأبجدية على اثنين وعشرين حرفاً كلها من النوع الساكن . ثم جاء دور الاغريق فى إكمال الأبجدية حيث جعلوا بعض الحروف الساكنة تمثل الاصوات المتحركة ، وانتشرت هذه الأبجدية بعد إدخال بعض التعديلات عليها فى العالم الغربى على ايدى الرومان ، وكذا بين شعوب أوربا الشرقية على ايدى البيزنطيين . وقد أعطانا الرومان الشكل النهائى للحروف ، وهو الذى اخذت به معظم الدول فى العالم الغربى الحديث . ففى العصر الرومانى ؛ بدأ التمييز بين الحروف الكبيرة والصغيرة ، وإن كان الأدب الرفيع ظل يكتب بالحروف الكبيرة ؛ خلال العصرين اليونانى والرومانى ، فى حين اقتصر استخدام الحروف الصغيرة على الكتابات التجارية والمراسلات الخاصة . وفى عهد شارلمان فى العصور الوسطى ؛ بدأ الناسخون من الرهبان فى بلاطه يستخدمون الحروف الصغيرة مع الحروف الكبيرة ، حتى فى تدوين الآداب المرموقة ، وهو الأمر الذى أصبح عادياً ومقبولاً منذ ذلك الوقت .

وصاحب اتقان فن الكتابة تقدم عظيم فى صنع المواد اللازمة لها ، إذ كان من الواضح أن الأعمدة الحجرية ، والحوائط ، وقوالب الصلصال ، والألواح التى اشتهر بها البابليون ؛ لم تكن إلا وسائل محدودة للغاية ؛ على الرغم من أن أحداً لاينكر فضلها فى صيانة ماكتب عليها ، والاحتفاظ به إلى الأبد . وقد حل المصريون القدماء المشكلة باستخدام أوراق البردى كنوع من الورق . وبعد ذلك استخدمت جلود الحيوانات لنفس الغرض فى المناطق التى لم يتوافر فيها البردى . ثم كان أن ظهر الورق المصنوع من الحرير ولب الأشجار ، وكان ظهوره أول مرة فى الصين قربا بداية العصر المسيحى . كذلك ابتكر العرب نوعاً من الورق المصنوع من نسيج القطن حوالى سنة ٧٥٠ م ، وأنتقل هذا الورق إلى اسبانيا مع استبدال القطن بالكتان . أما الورق الحديث المصنوع من التيل فقد شاع استخدامه حوالى ١٢٥٠ ميلادية . وفى القرن الرابع عشر ، أصبح الورق المصنوع من الخرق شائع الاستخدام فى أوربا الغربية .

كذلك صنع أول حبر عرف فى التاريخ ؛ بخلط الماء بالصمغ النباتى والسناج الأسود الذى كان يحصل عليه من جدران الأوانى المسودة . وبعد ذلك صنع الحبر من مخاليط من الأصباغ النباتية والحيوانية . وفى عصرنا هذا يصنع من مختلف المواد الكيماوية الملونة . أما أول قلم ؛ فقد صنع من البوص الذى كان يبرى ويسن باليد ، وبعد ذلك استخدم ريش الإوز

وغيره من الطيور ، وظل يستخدم إلى أن اخترع القلم المعدنى فى القرن الرابع عشر.

وبعد أن وجدت الأبجدية وتيسرت مواد الكتابة ، أصبح من الممكن أن تبدأ الكتابة التاريخية رحلتها الطويلة عبر الزمن ؛ من هيرودوت ثيكوديدس الى فون رانكه، اولارد Aulerd ، جاردنر Gardiner ، اوسجود Osgood ، هاسكنز Haskins . ولقد أوضح الاستاذ جيمس هـ. برستيد أهمية فن الكتابة عامة فى تطور الحضارة ، وأهمية الكتابة التاريخية خاصة إذ يقول : إن اختراع الكتابة ، وكذلك اختراع نظام ملائم للتسجيل على الورق ، لمن الأمور التى كان لها أكبر الأثر فى الرقى بالجنس البشرى ، وربما كان لهذين الاختراعين أثر على الانسان يفوق أثر أى منجزات فكرية أخرى خلال تاريخه الطويل ، فهما أكثر أهمية من كل المعارك التى حاربها الانسان ، وكل النظم التى أقامها ، والمنشآت التى شيدها .(1)

ومع ذلك ، بقى أمام الإنسان أثر هامٌ آخر قبل أن يتمكن من تسجيل تاريخه ، وهذا الأمر هو إيجاد طريقةٍ لقياس الزمن ، ووضع نظام علمى لترتيب العصور.

اكتشاف الزمن ونشأة الترتيب الزمنى للعصور

على الرغم من أن وجود طريقة لقياس الزمن ؛ كان لازمة أساسية لعملية تسجيل أفكار الإنسان وأعماله وترتيبها ، فإن التقويم لم يبتدع أصلاً منها لهذا الغرض . ولقد أوضح كل من الاستاذ جيمس ت. شوتويل James T. Shotwell ، والاستاذ هوتن ويبستر Hutton Webester فى شيئٍ من التفصيل ؛ أن التقاويم الأولى صنعت لتحديد وتسجيل اعمال الالهة وليس أعمال البشر. ثم ازدادت الحاجة إلى قياس الوقت وابتداع طرقٍ لذلك ، نتيجة لرغبة الإنسان فى تحديد تواريخ الأيام المحرمة والمقدسة ، وكذلك رغبته فى تسجيلٍ وتحديد مايحدث من ظواهر طبيعية غير عادية ؛ كان يعتقد فى العصور المبكرة أن لها مغزىً دينياً ، وبمعنىً آخر فإن مفهوم الزمن نما عند الانسان نتيجة لشعورة بما يتكرر حدوثه فى الطبيعة ، وإحساسه بضرورة التفرقة بين الأيام بعضها وبعض ؛ على أساس نضائلها أو خصائصها الدينية المعنية . وكان أن شبه التقدم فى طريقة قياس الزمن بالانتقال التدريجى من «الخط إلى الرياضيات» . والثابت أنه سبقت عملية الترتيب الزمنى للأحداث الدنيوية والتاريخية ؛ عدة تقويماتٍ غير دقيقةٍ استخدمت فى الأغراض الدينية .

(1) J.H. Breasted: Ancient Times (Ginn and Co. 1916) P. 45

وكان التقويم القمرى أبسط انواع التقاويم وأكثرها بدائية ، وهو يعتمد على المراحل المختلفة للقمر ، وأساسه الشهر القمرى الذى يتكون من تسعة وعشرين يوما ونصف يوم . ومن هذا الأساس أمكن التوصل إلى وحدات زمنية أطول وأقصر من الشهر ، فكان هناك نصف الشهر القمرى الذى شاع قبوله كوحدة لقياس الزمن . وكذلك اشتقت الاسابيع من أرباع الشهر القمرى ، كما كان هناك تقسيم للشهر بحيث يشمل ثلاث فترات كل منها عشرة أيام وكان هذا على مايبدو أحسن الحلول وأكثرها قبولاً من الناحية الحسابية . وبالمثل ؛ فإن اثنى عشر شهراً قمرياً كانت تكون السنة القمرية ذات الثلاثمائة واربعة وخمسين يوما . وحتى تتمشى الشهور مع التقسيم الفصلى للسنة ، كان يضاف شهر ثالث عشر فى الفترات والحالات المناسبة . كذلك كانت هناك وحدة قياس أكبر تتمثل فى الدورة القمرية التى كانت تتكون من تسعة عشر سنة ، وهى التى استخدمها الإغريق حوالى سنة ٧٥٠ قبل الميلاد .

وعلى الرغم من أن التقويم القمرى لم يزود الإنسان بتقسيمات محددة للزمن طولاً أو قصراً فضلاً عن عدم وقته ؛ فإنه ظل شائعاً بين كل الشعوب القديمة باستثناء المصريين ؛ الذين أنفردوا — ومعهم سكان المكسيك الأصليين — بشرف ابتكار مايعتبر فى جوهرة تقويما شمسياً ، وبداية للتقويم الجديث . ولعل اتجاه المصريين القدماء إلى السنة الشمسية كان مبعثه طبيعة الحياة الزراعية على أرض وادى النيل ، والأهمية القصوى لآله الشمس ، الأمر الذى أعطى الشمس أهمية أكبر ومكانة أفضل .

وهكذا صنع المصريون حوالى سنة ٤٢٣٦ ق.م[١] — وهو أول تاريخ ثابت فى التاريخ — تقويماً جديداً ، أساسه السنة الشمسية ذات الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وكانت هذه السنة اثنى عشر شهراً ، كل منها ثلاثون يوما . ويضاف إلى هذه الشهور — فى نهاية كل سنة خمسة أيام للأعياد[٢] . اما الأسبوع بأيامه السبعة ؛ فهو على الأرجح من ابتكار السومريين والعبرانيين . وفى سنة ٢٣٨ ق.م ابتكر علماء الاسكندرية السنة الكبيسة التى تحل مرة كل أربع سنوات ، وكذلك حدث فى العصر الهلينى تغيير فى الأسبوع العبرى ؛ بحيث أصبح على غرار الأسبوع الفلكى كما نحسبه فى تقويمنا الحديث . وفى سنة ٤٦ ق.م أدخل يوليوس قيصر نظام السنة الشمسية إلى العالم الغربى ، ولكن لم يعم استخدامه فى روما قبل القرن الثانى بعد الميلاد . أما آخر خطوة للوصول بالتقويم إلى درجة الكمال ؛ فقد قام بها البابا جريجورى الثالث عشر فى سنة ١٥٨٢ م ، حين أسقط أحد عشر يوماً من التقويم واعتبرت السنوات المئوية كبيسة إذا قبلت القسمة على أربعمائة .

---

(١) يرى بعض العلماء ان ذلك تم حدوثه سنة ٢٢٧٦ ق . م وليس سنة ٤٢٣٦ ق . م .

(٢) بنى المصريون تقويمهم السنوى على اساس النجوم والشمس . فكانت السنة المصرية تبدأ مع أول ظهور النجم الشعرى على الأفق الشرقى لخط طول الدلتا .

ونتبين مما سبق ، أن وجود نوع ما من التقويم كان أمراً ضرورياً للكتابة التاريخية المنظمة ومع ذلك فقد بقيت خطوة هامة أمام الإنسان حتى يتمكن من تطوير عملية قياس الزمن وتسجيله ، بالصورة التى تجعل هذه العملية تفيد المشتغلين بكتابة التاريخ ، حيث إن قياس الزمن بالسنة وكسورها كان أمراً غير كاف . كذلك صار لابد من التوصل إلى طريقة ما يمكن بها تمييز السنين المتعاقبة وتحديدها ، وبمعنى آخر كان لابد من التوصل إلى ترتيب زمنى منظم للتاريخ .

وعلى الرغم من أن المصريين كانت لديهم وسيلة علمية رائعة تفى بهذا الغرض ؛ وهى الدورة الفلكية ذات الـ ١٤٦١ سنة ، إلا أنهم لم يستخدموها ، وبالتالى لم يتوصلوا إلى ترتيب زمنى دقيق ، وكان أفضل ماتوصلوا إليه فى هذا الشأن هو تسمية بعض السنين بما دفع خلالها من أحداث عظمية أو هامة . ولقد أمكن التعرف على الفترة مابين ٣٤٠٠ ق.م ، ٢٧٠٠ ق . م من خلال إحدى قوائم الحوليات التى اشتهرت باسم (لوح بالرمو) . ثم طرأ بعض التقدم فى عملية تمييز السنين والتعرف عليها ، عندما اعتبر عهد كل ملك من الملوك فترة مستقلة قائمة بذاتها ، ومثال ذلك ماتذكرة الآثار المصرية القديمة من عهود الأسر والملوك الذين تعاقبوا على حكم مصر . وفى سنة ٢٧٥ ق . م عهد بطليموس فيلا دلفيوس إلى أحد الكهنة المصريين المتعمقين فى العلم واسمه «مانيتو» بمهمة جمع قوائم ملوك مصر وعهودهم وترجمتها إلى اللغة اليونانية . وكان مابقى من عمل «مانيتو» فى هذا الشأن ، هو الأساس الذى بنى عليه علماء الآثار المصرية ترتيبهم ودراستهم لتاريخ مصر القديم .

أما البابليون فأنهم لم يتعدوا مرحلة تمييز السنين والتعرف عليها بما وقع خلالها من أحداث كبرى ، وإن كنا نشهد لهم بأنهم كانوا على درجة كبيرة من الدقة فى وضع قوائم الملوك . ولقد حاول بيروسوس Berressos وهو أحد الكهنة المرموقين فى بلاط انتيوخس الأول ملك سوريا وأحد معاصرى مانيتو — أن يفعل مافعله الأخير ، ولكن يبدو مما تبقى من أعماله أنه كان أقل نجاحاً وأقل دقة من معاصره .

وفى العصر الأشورى — وحوالى سنة ١١٠٠ ق . م — ظهرت بعض الحوليات التى كانت تتحدث عن أعمال الملوك سنةً بعد أخرى ، وأصبحت هذه الحوليات التى كانت تتحدث عن أعمال الملوك سنةً بعد أخرى ، وأصبحت هذه الحوليات فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد — وعلى عهد الملك تجلات بلسر الأول Tiglathpileser بالذات (حوالى ١١٠٠ ق . م) مصدراً مكتملاً ومعقولاً يمكن الأعتماد عليه لأغراض التاريخ . وقد ازداد

الترتيب الزمنى عند الأشوريين دقة ، نتيجة لتقليد سار عليه ملوكهم ؛ وهو تعيين موظف رسمى كل سنة ليقوم بأعمال التسجيل ، وأطلق على هذا الموظف اسم الليمو Limu ، وبينما اسم الليمو فى الأحداث المعاصرة التى سجلت على قوالب الصلصال ، فإن قوائم الليمو مكنت للمؤرخ من إعادة بناء وتركيب الأحداث التاريخية فى ذلك العصر الآشورى بدرجة كبيرة من الدقة — وهكذا أمكن فى أواخر العصر الأشورى والبابلى التوصل إلى مفهوم (للحقبة التاريخية) التى تورخ بعهد الملك نابوناصر Nabonassar سنة ٧٤٠ ق.م.

وأما الترتيب الزمنى عند العبرانيين فلم يتعد مرحلة تقدير الزمن بالأجيال ، على أعتبار أن كل جيل يستمر أربعين سنة ، ولكن يبدو أيضاً أن اليهود كانت لديهم فكرة غير واضحة عن العصور إذ تحدثنا كتاباتهم عن الفترة مابين إبراهيم وداود ، والفترة ، مابين داود والاسر البابلى .

وأما المؤرخون الاغريق الأوائل ؛ فعلى الرغم من أنه كان هناك نقطة بداية طيبة للعصر الاغريق ؛ تتمثل فى القصة شبه الأسطورية لحصار طرواده ، وعلى الرغم مما كان لديهم من استعداد فطرى غير عادى لقياس الزمن ، فإنهم لم يفعلوا أكثر مما فعل أسلافهم بخصوص أبتكار تقويم زمنى . فحتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن لديهم سوى بعض القوائم المحلية التى تحوى أسماء كبار رجال الدولة والكهنة . وقد حاول أحد مواطنى جزيرة لسبوس ، واسمه هيلا نيقوس (Hellenicus) فى النصف الأخير من نفس القرن ؛ أن يضع ترتيباً زمنياً مبنياً على تسلسل الأمر ، وعلى الرغم من أن المحاولة لم تستند إلى أساس قوى ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة . كذلك فإن هيرودوت وثيكوديدس لم يحاولا بصفة جدية أن يجدا حلاً لهذه المشكلة .وبذلك أنهى المؤرخون اليونانيون أعمالهم دون أن يصلوا إلى نظام مرض للترتيب الزمنى ، إذ ظلوا يعتمدون كلية على طريقة الحساب بالسنوات الاولمبية التى أدخلها تيماوس حوالى ٣٠٠٠ ق. م ، وهى طريقة غير دقيقة على الإطلاق . ولم يحاول هؤلاء المؤرخون حتى مجرد الاستفادة من الحسابات الفلكية التى كانت فى متناول أيديهم ، فى الوقت الذى كانت فيه الأبحاث الفلكية لعلماء الاسكندرية أمثال ؛ أراطوستنيز الذى جاء بعد طيماوس بثمانين سنة ، قد بدأت تؤثر تأثيراً فعالاً على مستقبل علم الترتيب الزمنى .

ولما كان الرومان يتصفون بالواقعية وبأنهم شعب عملى ، فإنهم كانوا أول من ابتكر نظاماً جيداً لترتيب الزمن يمكن الأعتماد عليه ، وبدأوا يؤرخون سنواتهم بادئين من تاريخ تأسيس روما الاسطورى فى سنة ٧٥٣ ق. م . وسوف نتعرض فيما بعد للطريقة المسيحية الواضحة لترتيب الزمن وتاريخ الأحداث ، والتى أدخلها جوليوس الافريق ، ايوزيبوس ، جيروم ، وكذلك للطريقة العلمية الحديثة لتاريخ الأحداث ، التى ظهرت فى أوائل العصر

الحديث على يد جوزيف سكالجر فى كتابة «تقويم الزمن » ، وعلى يد دوم كلمنت فى كتابة «فن تحقيق التواريخ   ولكن يكفى الآن أن نعى فى الذاكرة حقيقة هامة ، هى أن علم التأريخ عند الرومان وحدهم هو الذى مكّن كاتبى التاريخ القديم من أن يعالجوا أى موضوع فى ثقة واطمئنان ، حيث ضبط التواريخ فيما عدا التواريخ المعاصرة . وهذا يفسر إلى حدٍ ما ؛ لماذا كانت المؤلفات التاريخية التى خلفها اليونانيون مجرد سجلاتٍ للأحداث الأخيرة والمعاصرة للكتاب .

وجاء تطور عملية الترتيب الزمنى للأحداث مرتبطاً بفكرة تقسيم التاريخ إلى فترات وعصور ، وهو التقسيم المألوف لنا جميعاً والذى يجعل من التاريخ ثلاثة عصور كبرى : قديمة ، ووسطى ، وحديثة . ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذا التقسيم لم يخرج إلى الوجود إلا قرب نهاية القرن السابع عشر .

وكانت لآراء الأولى لتقسيم التاريخ إلى مراحل تقوم على التأمل والتفكير فى الماضى . فاليهود والمسيحيون رجعوا إلى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء قبل هبوطها على الأرض ، ومن ثم فقد قسموا التاريخ إلى قسمين رئيسين هما : المرحلة التى سبقت الخروج من الجنة ، والمرحلة التى أعقبت ذلك الخروج . وبالمثل ؛ فإن اليهود قد استخدموا وقائع طردهم أساساً لتأريخهم وترتيبهم الزمنى للأحداث . أما الاغريق فأتوا بفكرةٍ مماثلةٍ ، وهى فكرة اضمحلالهم بعد أن كانوا فى «عصر ذهبى » وعبر «هزيود » عن هذا المفهوم أحسن تعبير عندما قسم عصور التاريخ البشرى إلى خمسة أقسامٍ هى : الذهبى ، والفضى والبرونزى ، وعصر الأبطال ، والعصر الحديدى . أما الآباء المسيحيون الأول ؛ فقد ربطوا بين العصر الذهبى والعصر الذى عاش فيه الإنسان فى الجنة ثم الخطيئة ، فى حين عبروا عن عصر الاضمحلال عن الوثنيين بفكرة تردى آدم فى الخطيئة وطردة من الجنة . بل إن نظرية دورات التطور البشرى كانت أكثر شيوعاً بين الأغريق والرومان ، إذ ساد الاعتقاد بأن الحضارة تمر بمراحل متعاقبة من الارتقاء والضمحلال ، وأن هذه العملية تكرر نفسها إلى مالا نهاية .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ فإن مؤرخى العصور الوسطى دأبوا فى معظم الأحوال على تأكيد فكرة أن التاريخ سلسلة متصلة الحلقات مستمرة ؛ لاحقب منفصلة عن بعضها البعض . ولذلك اعتبروا العصر الوسيط استمراراً للإمبراطورية الرومانية . وكان من أوائل من خرجوا على هذا الاتجاه المؤرخ العلامة فلافيوس بلوندوس Flavius Blondus

(١٣٨٨ — ١٤٦٣ م) الذى اعتبر أن العصور الوسطى حقبة انفصلت فيها شعوب أوربا الغربية عن روما ، وخلقت لنفسها تاريخاً وثقافةً خاصةً بها . بمعنى أن بلوندوس أدرك تماماً أن هناك قسمين على الأقل للتاريخ هما : العصر القديم ، والعصر الوسيط . وجاء بعد ذلك العلامة الهولندى كرستوف كيلر ، الذى وضع كتاباً قرب نهاية القرن السابع عشر . قسم فيه التاريخ إلى أقسامه التقليدية الثلاثة التى نعرفها اليوم وهى : التاريخ القديم الذى ينتهى بعصر قسطنطين العظيم ، والتاريخ الوسيط الذى ينتهى بسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم التاريخ الحديث من سنة ١٤٥٣ فصاعدا . واتبعت هذه التقسيمات بصفة عامة على الأقل من أيام كلاريوس حتى يومنا هذا . ولسوف نشير فيما بعد إلى مايتسم به هذا التقسيم من طابع لايوجه الباحث توجيهاً صحيحاً ، وإلى مايشوبه من عدم الدقة ، خاصة فى ضوء التقدم البشرى والتطور الكبير الذى نعاصره اليوم ونتوقع المزيد منه ، الأمر الذى يجعل أى تقسيم بقصد تطبيقه على التاريخ الحضارى للجنس البشرى تقسيماً قاصراً تعوزه الدقة[1] .

والآن ، وبعد أن ناقشنا فى إيجاز متطلبات الكتابة التاريخية ، يمكننا أن نتناول اصل هذه الكتابة فى العصر القديم .

بداية الكتابة التاريخية فى الشرق

كانت الكتابة التاريخية فى الشرق قليلةً نسبياً باستثناء أعمال المؤرخين العبرانيين ، كذلك لم تتصف تلك الكتابة بالتنظيم المحكم الدقيق . واستمر الأمر كذلك فترةً طويلة من الزمن ، إلى أن تأثر الشرق الأدنى القديم بحضارة الاغريق وثقافتهم تأثراً عميقا ، ذلك أن المادة التاريخية فى الشرق القديم أقتصرت على النقوش وقوائم الملوك . وكانت هذه النقوش مركزة على تمجيد الملوك ، وإبراز ماشيدوه من مبان ، وماأحرزوه من أنتصارات حربية ، وماقاموا من مخاطراتٍ فى الصيد . ومع أنه من المسلم به أن نعلم هذه النقوش كانت من عمل الكهنة الكتاب ، إلا أنها نسبت إلى الملوك وإلى الآلهة . فضلاً عما يلاحظ من أن هذه الكتابة التاريخية كانت خلواً من أى نقد ، فلم تتضمن أية معلومات تشين الملوك أو الآلهة الذين اهتدوا بديهنم .

وعلى الرغم من أن الأحوال المناخية قد جعلت من مصر متحفاً رائعاً للآثار ، أوكما يقول الاستاذ برستد : مجلداً تاريخياً شاسعاً . وعلى الرغم من أن هذه الظروف المناخية قد ساعدت على حفظ عديد من مصادر المعلومات التاريخية القيمة المتمثلة فى فن العمارة ، وفى الحقائق الهندسية ، والآثار الفنية الباقية فى المقابر الملكية ، فضلاً عن الفنون التشكيلية التى

وجدت على جدران المقابر ، والقصور ، والمعابد وسائر الآثار ، على الرغم من هذا كله فإن ما امكن حفظه من الكتابة التاريخية المصرية لايعدو النزر اليسير . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى عمل قام به أحد الكتبة فى عهد تحتمس الثالث . وهو عمل يحتوى على وصفٍ دقيقٍ لأبرز فتوحات هذا الملك القدير النشط

وفيما عدا ذلك ؛ لانجد سوى أجزاء من حولياتٍ كتلك التى وردت على لوح بالرمو ، وعلى بردية ماتورنيو . وليس لدينا فى الوقت الحاضر أية معلوماتٍ تثبت وجود أية كتابةٍ تاريخية هامة فى العصور السابقة على الفترة الهلينية ؛ التى أصبحت فيها ثقافة مصر هيلنية أكثر منها مصرية . فى هذه الفترة جمع مانيتو الكاتب المصرى الذى ذكرناه آنفا — عصور التاريخ المصرى القديم ، كما وضع تاريخاً قصصياً لمصر ؛ يعتبر من ناحية التنظيم والدقة سابقاً للعصر الذى كتبت فيه . وأهم ماتميز به كتابةُ مانيتو ؛ تلك الموضوعية فى جميع المادة التاريخية وتفسيرها . ولكن شاء سوء الحظ ألا يتبقى من عمله العظيم سوى أجزاء قليلة ؛ هى تلك التى نراها فى صورة مقتطفات فى كتاب المؤرخ اليهودى جوزيفوس Josepheus وكذا فى الكتابات التاريخية المسيحية التى وضعها كل من جوليوس افريكانوس ، ازيبيوس .

ويبدو أن البابليين والأشوريين قد فعلوا أكثر قليلاً مما فعل المصريون من حيث الوثائق التاريخية . وإن افتقرت بلاد مابين النهرين إلى مؤرخ يماثل مانيتسون ، إلا أن الكاهن البابلى بيروسوس الذى تأثر كثيرا بالهيلنية ؛ قد جمع تاريخاً لبابل فى نفس القرن الذى عاش فيه مانيتو . وكانت الكتابات التاريخية المبكرة فى آسيا ؛ تسجيلات أعدها الكهنة السومريون ، وإن كان لايوجد لدينا حتى الآن أى تسجيل تاريخى منظم يمكن أن ينسب إلى هؤلاء الكتبة ويرجع أقدم المصادر فى هذا الشأن إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو عبارة عن نقوش للتمجيد والدعاء تبين أسماء الملوك ونسبهم ، وتصف العمائر التى شيدت فى عهودهم . كذلك جمع البابليون عدة قوائم باسماء ملوكهم . وبالنسبة للفترة السومرية ؛ نجد أن النقوش الاسطوانية المنسوبة لجوريا من أهل لاجاش gudea of Lagach (٢٠٧٠ ق.م) هى أقيم المصادر التاريخية ، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك والعادات السائدة فى تلك الفترة . وبعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ نجد مصدراً عظيماً آخر وهو (قانون حامورابى) الذى لاتقتصر أهميته على كونه مصدراً قيماً لتاريخ بابل الاجتماعى فحسب ، بل لأنه أهم وثيقةٍ لتاريخ التشريع القديم . وليس هناك بعد ذلك أية كتابة تاريخيةٍ هامةٍ يمكن أن تنسب إلى السومريين والبابليين القدماء .

اما الحقائق والترتيب الزمنى الخاص بتاريخ أشور القديم ؛ فإنها تستمد من ثلاثة مصادر رئيسية .

١ —نقوش الزينة التى كتب معظمها على قطع من الحجر ، وكان المقصود بها أصلاً تزيين العمائر ، ومن ثم فإنها لاتتسم بالدقة المطلوبة لسرد التاريخ .

٢ —نقوش الحوليات الملكية التى تحوى تاريخ الملوك ، والتى تعطى ملخصاً لأحداث كل سنة ، وهى تعتبر أهم مصدرٍ يستمد منه تاريخ آشور .

٣ —قوائم أسماء الكتبة الرسميين ، وهى تبين أسماءهم والسنة التى عين فيها كلٌ منهم .

ولقد أوضحنا فيما سبق أهمية هذا المصدر الثالث بالنسبة لتاريخ آشور . ولعل أهم الأعمال التاريخيه للآشوريين والتى يمكن اعتبارها محاولات جادة لجمع التاريخ هى «التاريخ التزامنى» و «الحولية الآشورية» . ويحكى الأول بالتفصيل علاقة بابل وآشور من حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م إلى حوالى سنة ٨٠٠ ق.م ، ويحوى قائمة بالملوك الذين حكموا فى تلك الفترة فى كلا البلدين . كذلك عنى هذا المصدر عنايةً خاصةً بالخلافات التى نشبت حول تحديد الحدود بين بابل وآشور . وفى وقت مضى اعتبر هذا العمل عملاً تاريخياً جاداً ، ولكن الأبحاث التاريخيه اللاحقه أوضحت أنه لا يعدو واحداً من نقوش الزينة الممتازة ، التى قصد بها تمجيد آشور وآلهتها ، وتصوير الأفعال الشريرة التى أتى بها البابليون الأوغاد . ومع هذا فإنه نظراً لقلة المصادر يعتبر مصدراً قيماً للمعلومات التاريخيه . أما الحولية الآشورية ، فهى وإن كانت تجميعاً جافاً لأسماء الموظفين ، ومدة خدمة كل منهم ، وسرداً لأهم أحداث كل سنة ، إلا أنها هى الأخرى تعتبر من أثمن مصادر معلوماتنا عن تاريخ آشور . وأقرب الكتابات التاريخيه الآشورية إلى الأدب ، هى تلك التى تحكى عن الملوك بلغة مليئة بالمحسنات اللفظية . ولقد كان لعهد آشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق.م) أهمية خاصة فى تطوير الكتابة التاريخيه فى آشور ، إذ أمر هذا الملك بجمع وتكوين مكتبةٍ عظيمةٍ ساعدت على حفظ المادة التاريخيه الأولى ، فضلاً عن أنها ضمت كذلك نقوش وكتابات عصره . وهذه أقربت كثيراً من أسلوب السرد التاريخى المنظم الذى لم تعرفه العصور السابقة .

ويأتينا من العصر البابلى الكلدانى عملان عظيما أولها : التاريخ البابلى ، ويغطى الفترة من ٧٤٥ ق.م الى ٦٦٨ ق.م . ولهذا التاريخ وجهة نظر تختلف عن تلك الواردة فى السجلات الآشورية التى تكملها وتصححها ، وتتميز بأنها تروى حروب آشور مع عيلام Ilam دون تحيز . أما العمل الآخر فهو : وتعالج الأجزاء التى حفظت منها الفترة ٦١٦ ق.م الى ٦١٠ ق.م . وتصف سقوط آشور سنة ٦١٤ ق.م وسقوط نينوى سنة ٦١٢ ق.م وسقوط حرّان سنة ٦١٠ ق.م ، كما تمجد الميديين تمجيداً كاملاً لمهارتهم الحربية . وواضحٌ أن (تاريخ بيرسوس History of Beressos) الذى كتب باللغة الاغريقيه فى بداية القرن الثالث قبل الميلاد ، إنما تم جمعه من السجلات المحلية فى بابل ، حيث حافظ على أسلوبها الذى تميزت به . ولقد كان

تاريخ بيروسوس مصدراً هاماً للمؤرخين فى العالم الاغريقى — الرومانى وذلك لندرة المصادر الأخرى. وعلى الرغم من أننا فى الوقت الحاضر لا نملك سوى مقتطفات من أجزائه الأخيرة غير الموثوقه بها ، إلا أن قيمتها تزداد يوماً بعد يوم.

أما ملوك ميديا وفارس فاتبعوا نفس طريقة الحوليات التى سارت عليها حوليات ملوك بابل وآشور ، ونخص بالذكر حولية الملك دارا المنقوشة على صخرة Behistan ، إذ كان لها الفضل الأكبر فى مساعدتنا على تصحيح معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم ولغاته. وقد جاء هذا النقش الرائع فى كتاباتٍ أو لغاتٍ ثلاث هى : الفارسية ، والسوسيه ، والبابلية. ومنذ قرن مضى ، وبعد دراسة ذلك السجل المنقوش وترجمته ، تمكن السير هنرى رولنسن من كشف الغموض الذى أحاط باللغات المسمارية.

وهكذا تحقق العلماء أخيراً من أن الحيثيين كانت لهم كتاباتٌ تاريخيةٌ عظيمه. ولدينا الآن مادةٌ تاريخيةٌ واسعة ، معظمها ورد على لوحات بالخط المسمارى وأمكن قراءتها وتفسيرها. هذا فضلاً عن نصوص هيروغليفية ظهرت بعد ذلك أمكن فك رموزها حاليا. وبالإضافة الى الحوليات التاريخية ، توجد كتابات تشير إلى العلاقات السياسية المبكرة ، نخص منها بالذكر «تاريخ تليبنوس» (حوالى سنة ١١٠٠ ق.م) الذى يغطى أكثر من ثلاثة قرون. وواضحٌ أن لهذا التاريخ هدفاً خلقياً محدداً ، هو إبراز شرور الحروب الدامية وخطرها كوسيلة لتسوية المنازعات ومعالجة الجرائم. وبيّن الكاتب كيف أن الحروب أدت إلى القضاء على أسرةٍ حاكمةٍ بأكملها ، وإلى اتخاذ نظام الفدية فى القانون الحيثى الذى وضعه هاتوشيل الثالث. كذلك يجدر بنا أن نشير إلى أحد الأمثلة المبكرة لكتابة التراجم ، وهو تاريخ الملك هاتوشيل الثالث (١٢٨١ ق.م — ١٢٦٠ ق.م).

وينسب إلى العبرانيين القدامى فى فلسطين شرف انتاج أول سردٍ تاريخىٍّ مطولٍ ودقيقٍ نسبيا. ولما كان هذا السرد قد ورد فى التوراه ، فإنه من المفيد أن نستعرض باختصار الآراء الخاصة بطبيعة هذه التوراة.

لقد آثار بعض آباء الكنيسة من ذوى الاتجاه الناقد فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، بعض الشكوك حول الأفكار التقليدية الخاصة بتأليف التوراه. ولكن أول عالمٍ قدر له أن يثير مسائل خطيرة حول تلك الأفكار التقليدية ، كان المفكر اليهودى ابن عزرا Aben Ezra الذى عاش فى العصور الوسطى ، وتحدى حوالى سنة ١٥٥٠ م الفكرة القائلة : إن موسى هو الذى ألف الأسفار الخمسة الأولى من التوراة المعروفة بأسم أسفار موسى. وفى القرن السابع عشر أعلن الفيلسوف البريطانى الناقد توماس هوبز ، أنه يشك فى نسب التوراة إلى موسى ، وذلك على أساس المنطق والادراك ، لا على أساس النصوص والدراسة التاريخية. فقد بين هوبز مدى الغرابة فى أن يكتب مؤلفٌ (موسى) تاريخ حياته ثم

يشبرق الوقت نفسه إلى موته ، ويفخر بأنه قد دفن دفناً جيداً ، بحيث لم يتمكن أحدٌ لسنين طويلة معرفة مكان قبره . ومع هذا ، فإن التوراه تصف بدقةٍ هذه السرية فى دفن موسى ، كما تصف فى إسهابٍ حزن اليهود على موته . وبالمثل ، فإن المفكر اليهودى باروخ سبنيوزا Barush Spinoza وهو أحد معاصرى هوبز ، قام هو الآخر بدراسة ناقدة لأصل سفر التكوين ، وبين أنه لا يمكن أن يكون قد كتب بمعرفة مؤلفٍ واحدٍ فى أى عصرٍ واحد ، وقدم بعض الأدلة التى تهدم النظرية القائلة : إن موسى هو مؤلف الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة.

وفى منتصف القرن الثامن عشر قدم جان استروك ، وهو طبيب فرنسى مشهور ، رأياً فى هذا الشأن ، أصبح فيما بعد الرأى المقبول بالنسبة لطبيعة تأليف الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة . أما الخطوة الفاصلة التى تلت ذلك ، فقد قام بها كارل دافيد الجن Karle David Elgan قرب نهاية القرن الثامن عشر ، حيث أوضح أنه كانت هناك سبعة عشر وثيقة على الأقل فى سِفْر التكوين ، وأن هذه الوثائق مستمدة من ثلاثة مصادر رئيسية ، اعتبرت منذ ذلك الزمن مقبولة وصحيحة . وفى القرن التالى ، استمر البحث عن أصل التوراه ، وكشف الغموض عن مؤلفها ، ومن بين من اشتركوا فى هذا البحث الشامل عدد من قادة الفكر ، نذكر منهم : و.م.ل. دى ويت W.M.L. De wette ، هيرمان هوبفلد Hermann Hupfeld ، الأسقف جون وليام لوليترو John Wlliam Lolenso ، برنارد دَمْ Bernhard Duhm ، ابراهام كيونين Abraham Kuenen ، برنارد ستيد Bernhard Stade ، جوليوس ولهوزن Julius welhausen ، ويرجع الفضل الى الأخير فى التقدم العظيم فى مجال نقد التوراة . ولذا يعتبر العلاقة الفذ فى هذا الميدان . ثم واصل عمله من بعده ت .ك. تشين T.K. chayne ، س .ر . دريفر S.R. Driver ، ب .و . بيكون B.W.Bacon ، وغيرهم ، فأخرجوا بحوثاً رائعة فى ذلك الصدد .

ولم يقتصر النقد على مجرد دراسة نصوص التوراة ، بل برهن وليام روبرتسن سميث William Rohertson Smith ، — وهو الأستاذ الضليع بجامعة كمبردج ، فى كتابة المشهور «ديانة الساميين» على أن الديانة اليهودية لم تحو شيئا مزيدا أو غريبا ، كما أوضح أوجه الشبه العديدة بين ديانة قدماء العبرانيين من ناحية ، والعقائد والشعائر الدينية لدى بقية فروع الشعوب السامية من ناحية أخرى . ثم واصل هذه الدراسة على صورة أوسع وأكثر دقة ، باحثون أمثال : دلتش Delitzsch ، وونكلر Winckler ، وروجرز Rogers ، وهم الذين أوضحوا الأثر العميق الذى تركته الأساطير البابلية ، وتقاليد البابليين الدينية على ديانة العبرانيين ، وخاصة فيما يتعلق بفكرة البابليين عن طبيعة الكون ،

وقصة الخلق ، والأساطير التاريخية القديمة ، مثل قصة برج بابل وقصة الطوفان . كذلك أوضح ر . هـ . شارلز R.H. charles وآخرون الأسس الفارسية لبعض العقائد اليهودية المتأخرة ، التي أصبحت فيما بعد أساس المعتقدات المسيحية عن الشيطان ، وجنهم ، وخلود الروح .

وقد سبق أن أشرنا إلى اليهودي ، أو المسيحي الورع الذي أعتقد أن الله قد أملى التوراة على موسى ، — وهو ذلك السياسي العبراني الكبير ، والكاتب المخلص الأمين ، وتم ذلك في وقتٍ ما خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وكان أن أوضح العلماء الذين تخصصوا في دراسة الكتاب المقدس ، أن توراة موسى ليست مكونةً من خمسة أسفار كما هو معتقد ، وإنما هي تتكون من أحد عشر سفراً ، هي على وجه التحديد الأثنى عشر سفراً الأولى من الكتاب المقدس ، باستثناء سفر راعوث الذي هو نتاج متأخر للعصرين الفارسي والإغريقي . فالتوراة إذا أبعد عن أن تكون عمل مؤلفٍ واحد تم في فترة وجيزة من السنين ، وإنما هي في الحقيقة جمعت بواسطة أربع مجموعات من المؤلفين على أقل تقدير ، في حقبةٍ كبيرةٍ من الزمن تمتد من نهاية القرن العاشر قبل الميلاد ، إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ذلك أن هناك أربعة أصولٍ أساسيةٍ نبع منها هذا الجزء من الكتاب المقدس ، أقدمها ما سمى بالمصدر « J.E. » وهو نتاج الجزء الأخير من القرن العاشر ، أو بداية القرن التاسع قبل الميلاد . وقد سمى كذلك لأن الكتاب أطلقوا أسم يهوه Jahveh للدلالة على إله العبرانيين . أما المصدر الثاني من حيث الترتيب الزمني ، فقد سمى بالمصدر « E. » لأن المؤلفين استخدموا هذا اللفظ Elohim للدلالة على الرب — ويرجع هذا المصدر إلى القرن الثامن قبل الميلاد على وجه التحديد . أما المصدر الثالث فيتمثل في سفر التثنية الذي دون فيما بين سنة ٦٥٠ ق .م ، ٦٢٠ ق . م ويشير اليه العلماء بالحرف « د. D » وهو الحرف الأول من لفظ ((Deuteronomy)) أى سفر التثنية . أما المصدر الرابع والأخير فهو ما أطلق عليه اسم « المصدر الكهنوتي » أو المصدر « ب — P. » وهو الحرف الأول من لفظ ((priest)) أى كاهن ، ويرجع الى الفترة ما بين ٥٨٦ ق .م ، ٥٤٠ ق .م . وكل مصدرٍ من هذه المصادر الأربعة كان نتاج عمل مجموعةٍ من الكتاب ، وليس من عمل كاتبٍ واحد .

وجدير بالذكر أن كل وثيقةٍ من هذه الوثائق الأساسية الأربع لم ترد في الكتاب المقدس بنفس الصيغة التي كتبت بها بالضبط ، فقد تعرضت جميعاً لتغييرات متفاوته على أيدى الكتبة المتعاقبين . هذا بالاضافة إلى أن التوراة ليست مكونة من الأصول السابقة ، P.P.J.E. ، بنفس هذا الترتيب الزمني . فقد أدمج الكتاب اللاحقون هذه الأصول الأربعة بعضها في بعض ، وخلطوها بشكل يتعذر معه فصلها أو تمييزها في سهولة . ولعل هذا

هو السبب فى أن الكشف عن مؤلف التوراة وعن تكوينها ، ظل مشكلة صعبة أستنفذت من الباحثين قرناً كاملاً من الجهد . ويبدو أن المصدرين E.J. ، تم تحريرهما وإدماجهما فى بعضهما فى وقت ما ، قرب نهاية القرن الثامن قبل الميلاد ، ثم م بعد ذلك ، أى فيما بين سنة ٦٢٠ ق.م ، ٥٤٠ ق.م ، — تدوين وإدماج للمصادر P,E,J وأخيراً — أى فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، تم ضم المصدر . ب إلى المصادر الثلاثة الأخرى ، بعد أن أدخلت عليها عدة تعديلات وتصويبات . وهكذا تكونت التوراة فى صورتها التاريخية ، وأصبحت كما هى فى أيدينا الآن ، تحت أسم «العهد القديم» .

على أن كل هذه الحقائق عن توراة موسى — وهى كما أوردناها هنا بهذا الشكل المختصر غير الكامل — لاتكفى لتصوير الموقف بكل ما فيه من تعقيد . ولكنها على أية حال تبين عدم صحة الفكرة التى يتصورها المتدينون عن التوراة — تلك الفكرة التى تحدثنا عنها فيما سبق . ولعلنا نلقى ضوءاً أكثر على طبيعة التوراة ، لو تأملنا المقارنة التالية التى عقدها الأستاذ جيمس ت . شوتويل بين التوراة كتاب إغريقى ضم الكثير من الافتراضات يشابهها من حيث الطبيعة والتكوين . يقول شوتويل : «دعنا نتخيل على سبيل المثال أننا لسنا بصدد الإصحاحات اليهودية ، وإنما تلك التى كانت لدى الاغريق . ولنفرض أن تراث هيلاس Hellas قد أمكن حفظه ، وأنه قد وصل إلينا بشكل يشبه الكتاب المقدس . ماذا يمكن أن يكون شكل وطبيعة هذا الكتاب ؟ لعله يجدرُ بنا أن نبدأ بعدد بسيط من الفقرات التى ألفها هزيود عن ميلاد الآلهة وفجر الحضارة ، وقد اختلطت بأجزاء من الالياذة ، وصيغت هذه وتلك فى شكل مقتطفات طويلةٍ من كتابات هيرودوت . أما حوار افلاطون فيمكن أن يقدمه لنا أبطال ملاحم هومر . وأما نصوص عظماء كتاب المسرح (بدلاً من الأنبياء) فقد تكون قد حفظت وتداخلت فى بعضها البعض ، حتى جاءت تعليقات اساتذة مدرسة الاسكندرية لتزيدها تعقيدا . ولنتخيل بعد ذلك كله ، أن مصادر هذا التراث الضخم قد حجبتها عوامل الزمن وتعاقب القرون . وأن الفلاسفة — الذين كانوا بالنسبة للإغريق أشبه بفقهاء الذين بالنسبة لإسرائيل — أصبحوا يعتقدون أن الجزء الأعظم من هذا التراث التاريخى الفلسفى الأدبى قد كتبه سولون Solon ، كأنه صادر عن نبوءة أبولو فى دلفى . وأخيراً ، فلنتخيل أن هذه النصوص أصبحت ثابتةً وغير قابلةٍ للتغيير ، ومن ثم فقد اكتسبت قداسة وعظمة ، حتى أصبحت بعد ذلك تراثاً لشعوبٍ أجنبيةٍ لا تعرف شيئاً عن التاريخ اليونانى أكثر مما تحويه هذه النصوص الجمعة .. مثل هذا التراث — وفى هذا شئ من المبالغة — يكون بمثابة توراة هيلنية على غرار توراة اليهود . ولن نحاول أن نتمادى فى هذه المقارنة ، ويكفى أن نذكر أنها من ناحية الشكل والتكوين مقارنة ممتازة تفى بالغرض تماما[1]

(1) T. Shotwell: An Introduction to the History of Histoy (Columbia Universty Press 1922) pp. 82-83.

ولقد كان لازدياد رخاء العبرانيين وهيبتهم تحت حكم ثلاثة من ملوكهم هم : شاءول ، وداود ، وسليمان أكبر الأثر فى تقدم الكتابة التاريخية عند هؤلاء القوم . وفى هذا يقول الاستاذ جورج فوت مور George Foote Moore : إن الباعث الأول على كتابة التاريخ هو الأحداث التى تصنع التاريخ . وهذا هو ما حدث فى اسرائيل فى عهد شاءول وداود حيث كانت البداية الحقيقية لكتابة التاريخ العبرانى[٢] .

وكان أن ظهرت الكتابة التاريخية العبرانية أول ما ظهرت فى أعمال عددٍ من المؤلفين المجهولين ، الذين ينتمون إلى المصدر « D » الذى يتمثل فى سفر يشوع Joshua ، وأسفار صموئيل ، وبداية «سِفر الملوك الأول» . ويعلق الاستاذ برستد على هذا المصدر قائلاً : إن هذه أول أمثلةٍ للكتابة التاريخية المنثورة ، ومؤلفها المجهول هو أول مؤرخ عرفناه فى العالم القديم »[١] .

كذلك يعلق ادوارد ميار على أروع الفقرات فى هذه الكتابة التاريخية قائلاً : إنه لمن المدهش حقاً أن وجدت كتابة تاريخية من هذا الطراز فى إسرائيل ، فى ذلك الوقت المبكر ، فهى تفوقه بكثير أى كتابةٍ تاريخيةٍ نعرفها فى الشرق القديم بأكمله » . وأبرز هذه الكتابات على الإطلاق ، هى ذلك السرد التاريخى المسمى «سيرة داود» والذى يرجح أن كاتبه هو الكاهن الأعظم (أبياثار) Abiathar . ويعلق الأستاذ أ . ت . اولمستيد A.T. Olmstead على هذه الكتابة بقوله : «سواء كان المؤلف أبياثار أو غيره ، فإن على المؤرخ الحديث المحترف أن ينصف سلفه الذى عاش وكتب منذ ثلاثة آلاف سنة . فلقد أمتعنا بتاريخ مبتكر لا يوجد لدينا حتى الآن أى دليل على أن هناك من سبقه إليه . ففى هذه الكتابات العبرانيةُ لا نجد حوليات تسجل حروب ملك ، ولا قصصاً جافةً موجزةً عن حياة بعض الأبطال السابقين ، كما هو الحال فى الكتابات التاريخيه المصرية والبابليه والآشورية ، وإنما نجد تاريخاً معاصراً يمكن أن يقارن بسجلات العصور الحالية . لقد كان ذلك المؤرخ الأول يقف خلف الستار ، ويكتب ببساطة ولكن فى وضوح ، ولم يكن يقوم بالدعاية لمليكه ، بل كان يسجل الحقائق للأجيال القادمة . ولذا فإن موضوعيته تعتبر أمراً غير عادى بالنسبة لعصره . لقد كان داود يمثل البطل بالنسبة له — ما فى ذلك شك — ولكنه لا يغفر لداود نقائصه ونواحى ضعفه ، وكذا خروجه على القانون فى شبابه ، وأكاذيبه المتكررة ، وهروبه إلى اعداء قومه ، وتناسيه أن ميكال كان قد أنقذ حياته . كذلك فهو يؤاخذه على دساسته مع «بتشبع» ، وما ترتب على ذلك من نتائج بالنسبة لأسرته . وأخيراً فهو لا ينسى غروره وتبذله ، نتيجة للنجاح الذى أصابه ، ورغد العيش الذى حظى به . كذلك نرى هذا المؤرخ

(١) الكتاب السابق الاشارة اليه للاستاذ Breasted.

George F. Moore: Lterature of the Old Testement (Henry Hotl 1911). p. 96.

وقد التزم نفس الموضوعية في تعرضه لباقي أفراد البلاط ، بما فيهم صادوق الذى حل محل أبياثار فى مركز الكاهن الأعظم . وسواء كان هذا الكاتب أبياثار أو غيره ، فهو أول مؤرخ حقيق عرفه التاريخ ».

يبقى بعد ذلك من الأجزاء التاريخيه للعهد القديم ، «سفراء الملوك» اللذين كتبا حوالى ٥٦٠ ق . م ، و «حوليات عزرا ونحميا» . أما عن «سفرى الملوك» فهما أول تصوير لفكرة أن التاريخ كان يهدف أساساً الى الافادة من دروس الماضى ، إذ أستهدف المؤلف إقناع الناس بقيمة الإخلاص للدين ، وذلك عن طريقة سرد أمثلةٍ مستقاةٍ من التاريخ . وتعزو هذه الأسفار والكوارث المتعاقبة التى حلت ببنى اسرائيل إلى ابتعادهم عن ديانتهم القومية . ويبدو أن مؤلف «سفرى الملوك» قد استقى بعض مادته عن تاريخ اسرائيل ويهوذا وملوكها فى العصر الأخير ، من الكتابات المبكرة ذات القيمة الكبيرة ، وهى الكتابات التى أثبتت النقوش المعاصرة دقتها وصحتها . أما حوليا عزرا ونحميا فهى فى أساسها من عمل مؤلفٍ واحدٍ هو كاهن من القدس . وقد استطاع هذا المؤلف عن طريق سرد سلاسل الأنساب ، فضلاً عن القصص والروايات ، أن يقدم عرضاً للتاريخ العبرانى بأكمله ، يستهدف تمجيد مملكة العبرانيين تحت حكم داود وسليمان ، وإبراز عظمة هذه المملكة فى شئ كثيرٍ من المبالغة . كما أنه أكد مرة أخرى التحذير الذى سبق أن أعلنه مؤلف «سفرى الملوك» بخصوص العقوبات التى سيتعرض لها كل من يرتد عن ديانته . وأهم ما تحتويه حوليات «عزرا ونحميا» هو مذكرات نحميا الممتعة الغنية بالمعلومات ، والتى جاءت فى مجرى السرد العام للأحداث . وتتميز هذه المذكرات بأنها أرقى بكثيرٍ من عمل المؤلف الكاهن الذى يعتقد أنه قد زوّر مذكرات عزرا . وبالإضافة إلى ما فى العهد القديم من قصص ، فإن هذا الكتاب الدينى يضم مادةً تاريخيةً ذات قيمةٍ كبيرةٍ ، من جملتها تشريع العبرانيين ، سواء ما يتعلق «بالقوانين الدينية أو الدنيوية» وهى التشريعات التى رتبها كبار العلماء الذين قاموا بدراسات نقدية للأنجيل فى القرن التاسع عشر . كذلك يحوى العهد القديم كثيراً من القصائد والأناشيد والقصص الشعبية ، مثل اساطير البطارقة . وقصص شمشون ، والقصص التى تناولت داود وسليمان . ويعتبر سِفر المكابيين الأول من أقيم ما قدمته حضارة العبرانيين فى فن التاريخ . ونظراً لأن هذا السِفر لم يكن فى الأصل العبرى للتوراة ، وهو الأصل الذى اعتمد عليه المترجمون ، فإنه لم يرد فى الكتاب المقدس البروتستانتى . وقد كتب هذا السِفر حوالى سنة ١٢٥ ق . م أحد الصدوقيين المعروفين بحماستهم وتقواهم واعجابهم الشديد باسرة الحشمونيين ، هو ترتشكا اليهودى ، وفيه يحكى قصة التاريخ العبرانى المثيرة ، منذ فتح فلسطين على يد الاسكندر الأكبر ، حتى اعتلاء الملك يوحنا هركاندسى John Hyrcanus العرش . ويركز هذا الكتاب على تخليص فلسطين من السيطرة السورية ، نتيجة للحملات العسكرية التى قادها يهوذا المكابى وخلفاؤه . وعلى الرغم

مما اتصفت به كتابة هذا المؤلف من حماسة وطنيه ، وزهو بالنصر ، إلا أنه أنتج عملا فريدا بالنسبة لعصره ، تميز باتجاهه العلماني . هذا الى أنه عزا انتصارات العبرانيين إلى شجاعة الحشمانيين ومقدرتهم ، وليس للتدخل الإلهي المباشر لصالح اليهود . ومع الأسف ، فإن المؤرخين المسيحيين فى العصور الوسطى لم يعتبروا سِفْر المكابيين الأول النموذج الأسمى للسرد التاريخى العبرانى ، بل راحوا يدعمون حماسة أتباعهم ، ويرهبون خصومهم بمحاكاة القصص التاريخية التقليدية العبرانية التى تؤكد المعجزات الالهية ، ومكافأة الرب للمخلصين ومعاقبة المخطئين .

وكان آخر المؤرخين العبرانيين البارزين فلافيوس يوسيفوس (حوالى ٣٧ — ١٠٥ ق . م) وهو يعتبر المؤرخ القومى لليهود . وقد جاءت كتاباته فى الفترة التى أعقبت تدمير قوة شعبه ووحدته سنة ٧٠ م . ولذا نراه يحرص على عرض أمجاد اليهود الماضية ، ليخفف من محنة الشعب اليهودى وبؤسه . ولعل هذا هو الذى جعل كتاباته تتميز بالمبالغة فى تصوير ثراء فلسطين القديمة ، وشعبها ومكانتها الدولية ، أكثر مما فعل مؤلف (حوليات عزرا ونحمياه) .

وأهم مؤلفات يوسيفوس كتابان هما : «حرب اليهود» و «آثار اليهود» ويتضمن الأول عرضاً لتاريخ اليهود فى القرون التى سبقت الحرب اليهودية الكبرى مباشرة ، والتى انتهت بتدمير القدس . ثم يسرد بالتفصيل أحداث الحلقات النهائية فى ذلك الصراع . أما الكتاب الثانى فأكثر إسهاباً من سابقه . وقد كرسه الكاتب لإبراز أمجاد اليهود فى الماضى . وليوسيفوس كتابٌ صغيرٌ آخر يعارض فيه النحوى اليونانى أبيون Apion لموقفه المناوئ لليهود ، وفى هذا الكتاب هاجم يوسيفوس المؤرخين من غير اليهود لتعمدهم عدم إنصاف الثقافة اليهودية ، وغمطهم التاريخ اليهودى حقه من التقدير .

وفى علاجه لعصر العهد القديم ، نجد أن يوسيفوس أتى بمادة لا يمكن الاعتماد عليها . أما عرضه لفترة ما بعد المكابيين فقد جاء خلوا من المبالغة ومليئاً بالأدلة . وجديرٌ بالذكر أن يوسيفوس كتب باللغة اليونانية ، وبأسلوبٍ أدبيٍ رفيع . ولهذا نعت بأنه «ليفى اليهود» . وإذا كانت هذه المقارنة بين يوسيفوس والمؤرخ الرومانى ليفى لا تخلو من أساس سليم تعتمد عليه ، إلا أن يوسيفوس لم يكن فى نفس المستوى الأدبى الراق الذى اشتهر به ليفى ، وإن كان يبدو أنه قاربه فى دقة التعبير والتصوير .

وعلى الرغم من أن العبرانيين كان لهم الفضل فى رواية التاريخ روايةً صادقةً ، إلا أن كتابة التاريخ عند العبرانيين ظلت لا تؤثر على المجرى العام للكتابة التاريخية ، حتى تناول المسيحيون بالدرس كتب اليهود وأسفارهم الدينية ، ذلك أن المسيحيين لم يتخذوا من هذه الكتب أساساً لكثير من نظريات اللاهوت المسيحى ، بل جعلوها أساساً للتاريخ المسيحى نفسه . ولتكوين وتأليف تاريخ العصور السابقة .

والواقع إن الإغريق هم الجديرون حقاً بأن نحول إليهم أنتباهنا ، بوصفهم المصدر الرئيسى الأول لأصول ذلك الطراز من الكتابة التاريخية ، الذى كانت له السيادة فى العصور القديمة ، والذى ظل سائداً حتى عهد ليو الإفريقى ، واروزيوس ، وايزيبيوس . والواقع ، إن كل الكتابات التاريخية للشرق القديم ، باستثناء الكتابات التاريخيه العبرانيه الأولى ، تأثرت إلى حد كبير بالثقافة الإغريقية . فما يتون ، وبيروسوس ، ويوسيفوس ، تأثروا جميعاً بالحضارة الهيلنية ، فضلاً عن أنهم كلهم استخدموا اللغة اليونانية فى كتاباتهم .

المـراجـع

1-**H.E. Barnes:** The New History and Social Studies, The Century G. 1925
2- **A. C. Haddon:** History of Anthropology G. P. Ountan's Sons 1910.
3- **B.J. Stern, Lewis Henry Morgan,** Social Evolutionist, Universty of chicago press 1931.
4- **Stanley Casson:** Progress of Archeology Mc Cgraw Hill Book Co. 1935.
5-**B.L. Uieman,** Ancient Writing, Longmans Green and Co. 1932.
6-**W.A.Mason:** History of the Art of Writing Macmillan 1920
7-**Hutton Webster:** Rest Days Macmillan 1916.
8- **J.T. Shot well: Introduction to the History of History Chaps.** i-xi- columpia University press 1927.
9- **Adolf Erman:** Literature of the Ancient Egyptians E.P. dutton and Co. 1927.
10-**A.T. Olmstead Assyrian:** Historiogrephy Universty of Missouri Press 1961.
11- **D.D. Luchenbill:** Ancient Records of Assyria and Baloylonia unwirsty oof chicago press 1927, 2 vols.
12-**G.A. Barton,** The Loyal Inscruption of Sumer and Akkad. Yale University press 1929.
13- **R.W. Rogers Cuneiform:** parallels to the old Testanent Abingdon press 1912.
14- **G.F. Moore,** Literateure of th Old Testament. Hemry Holth, 1911.
15- **A.T. Olmstead** «Hebrew History and Mistericel Method» in Olmstead et al, persecution an Leberty: Essays in Homor of George Burr, pp. 21 ff. ceentury 1931.
16-**Hans Schnidt,** Die Ges shichtschraibung im Alten Testament tüingen, 1911.
17- **J.W. Thomposon:** AHistory of Historcial wrting voli, shopi 2 vols. Macmillan 1942.
18- **H.E. Barnes and howard Becker,** Social Thought from lore to science; voll, chopiii, 3 vols, 1961.
19- **Herkert Wendet,** In search of Adam, Hought on Miffin 1959.
20- **J.H. Robinson:** The New History. The macmillen Co. 1912.
21- **I, A, White,** The Evolution of Culture Mc Graw. Hill 1955.
22- **Juluis Leppert** The Evolution of Culture Mac Millan 1931.
23- **Will Durant** our Oriental Heritage Simon and schuster 1938.
24- **Jack Finegan** Light from the Ancient Past, princeton Univ. Prem, press, 1959.
25- **Werner Keller** The Bible at History Strought on 1956.
27- **F.J. Teggart,** The Teory of History, gale University press 1925.
28- **J.O. Hetzler,** soial Thought of the Ancient Civilization Mc graw-Hill 1936.

29- **H. H. Breastead** Ancient Records of Egupt Univ. of chicago 1906-7
30- **J.A. Bewer:** Literature of the Old Testament columbia univ. of 1951.
31- **Alexaner Heidel:** The babylomian Genesis. Univ. of chicagv press 1951.

الكتابة التاريخية عند اليونان والرومان

تردد القول استناداً على شئ من الحقيقة الثانية أن أول كتابة تاريخية تستحق الذكر عند اليونان إنما تمثل فى الأشعار المنسوبة لهومر. فهذه الأشعار بوصفها على الأقل مصدراً للمعلومات عن ثقافة الأغريق ومجتمعهم؛ تتضمن مادةً تفوقه فى جمعها ومعناها ماورد فى معظم الكتابات التاريخية التقليدية عند اليونان. وتوضح مؤلفات كل من ت . و . سيمور T.D. Seymour واندرو لانج Andrew lang ا . ج . كيلر A.G. Käller عن المجتمع الهومرى — كيف يمكن للمرء أن يحصل على صورةٍ حيةٍ وافيةٍ لحضارة ذلك العصر من دراسة لكتابات هومر.

بينما ميلاد الكتابة التاريخية الحقيقة عند الأغريق تطلبت شروطا عده . وظروفاً أساسيةً فى الخلفية الثقافية ، وهو أمر لم يكن متوفراً قبل القرن السادس قبل الميلاد . وأعنى بهذه الظروف أسلوباً سهلاً متعارفا عليه لكتابة النثر ، وفكراً ناقداً يعارض الأساطير الشائعة المتعلقة ببدء الأغريق ونشاطهم وإثارة الاهتمام بالأنظمة الاجتماعية وأصولها .

وكان أن توافرت هذه الشروط والظروف التى لاغنى عنها لكتابة التاريخ فى منتصف القرن السادس فى مدينة ملطيه فى ايونيا . ففى بداية القرن السادس ق.م أدخل كادموس من مدينة ملطية طريقة الكتابة بالنثر بدلا من الشعر .

ولذلك اعتبر كادموس واحداً من أوائل كتاب النثر الأغريق ، وهم الذين أطلق عليهم اسم Logographi . وصحب ذلك ظهور الفلسفة الأيونية التأملية فى نفس الوقت ، وهى الفلسفة التى جاءت للعالم بأصول الفكر الحر والفلسفة النقدية . ويعبر عن ذلك الاستاذ بيورى Bury بقوله : «إننا مدينون للإغريق بأعمق الشكر بوصفهم مبتكرى

الحرية والفكر الجدل . لقد كانت أيونيا فى آسيا الصغرى مهدا للفكر الحر وبين جوانبها نشأ تاريخ العلم الأوربى والفلسفة الأوربية . وفى أيونيا أخذ الفلاسفة الأوائل فى القرنين السادس والخامس ق . م ، يعملون عقولهم للتحقيق فى البحث فى أصل العام وتكوينه . ومن ثم فقد بدأوا عملية تحطيم وجهات النظر والمعتقدات الدينية » .

وكان أن ساعدت حركة الاستعمار والتجارة والسفر فى الشرق على تموين الايونيين والأغريق الإيجيين ، وعلى تطوير تلك الثقافة وروح النقد التى كانت أساسا لنمو الفلسفة والأدب والكتابة التاريخية الاغريقية . والواقع ان اتصال الثقافات بعضها على هذا النحو ، أثار حب الاستطلاع وشجع الازدهار الفكرى ، وهكذا فإن رحلة هيكاتايوس أول مؤرخ اغريق إلى مصر ، وتجواله فيها من أقصاها إلى أدناها ، لم تخل من أهمية .

وأخيرا فإن دخول أيونيا فى نطاقة الامبراطورية الفارسية ، نجم عنه اتساع أفق الثقافة لدى الاغريق الايونيين نتيجة هذا الاتصال الهام بين الثقافات كما أنه آثار اهتمام الاغريق الأيونيين بحضارة الشعوب المختلفة الذين ضمتهم الإمبراطورية الكبيرة واصبحوا هم جزءا منها .

ونخرج من ذلك بأن أصول الكتابة التاريخية الاغريقية كانت جزءا من تلك الحركة الفكرية الكبيرة ، التى جرى العرف على تسميتها باسم حركة التدوين التاريخى القديم (قبل هيرودوت) فضلاً عن أنها كانت جزءاً من الفلسفة الأغريقية الناقدة فى أيونيا . وإلى جانب هذه التفسيرات العامة أو الثقافية لمولد أول كتابة تاريخية اغريقية ونبغى ألا نغفل الرغبة الملحة التى كانت تدفع بعض المواطنين البارزين إلى أن يضفوا على أسرهم نسباً مرموقا . ولقد مجد هيسود الآلهة الاغريقية باعطائهم نسباً عريقا . وأضفى الكتاب المحترفون الذين اتصف أسلوبهم بالبلاغة الأمر نفسه على النبلاء هذا إلى أن الاهتمام بدراسة الجغرافيا ناحية ، وعلم وصف الأجيال والسلالات من ناحية أخرى ، فضلاً عن دراسة الأنسان ، كل ذلك ساعد على بذر بذور أصول الكتابة التاريخية عند الأغريق . وهذا يفسر اتجاه الكتابة التاريخية عند الأغريق نحو العناية بالوصف الجغرافى والدراسة الاجتماعية بالإضافة إلى وصف أصول الشعوب وعاداتها .

وفى ضوء العرض الموجز السابق للبيئة الفكرية التى ظهرت فيها البوادر الأولى للنثر الأغريق النقدى ، يمكن القول : إنه كان من الطبيعى أن نعتبر هيكاتايوس Gecatays (الذى ولد سنة ٥٥٠ ق . م) أول مؤرخ أغريق . ذلك أنه كان رحالة ، وأحد مواطنى ملطية التى نشأ بين رجالها النثر الإغريق والفلسفة الإغرقية الناقدة . وتنبع أهميته الأساسية من أنه أن أرهص بتطورين هامين فى النهج العلمى لعلم التاريخ ، فجعل الحقيقة مقياساً لما يرد من روايات . بالإضافة إلى أنه اتخذ اتجاهاً نقدياً صريحاً تجاه الأساطير اليونانية التقليدية التى دارت حول نشأة الخلق . وربما كانت الفقرة الافتتاحية من كتابة المسمى

« الانساب Genealogies » هى أول محاولة يقترب بها كاتب من طبيعة النقد التاريخى اقتراباً شعورياً عن وعى صادق . وهو يقول فى هذه الفقرة « إن ما أدونه هنا هى الرواية التى أعتبرها صادقة وحقيقيه ، لأن قصص الاغريق عديدة . وهى فى رأيى تبعث على السخرية » .

ولم تلبث أن اخذت الاتجاهات الفكرية التى أنجبت هيكاتايوس تتقدم بخطى حثيثة . حتى اكتمل التطور من كتابة « الأنساب » إلى « تاريخ هيرودوت » . ذلك أن شارون الذى ينتمى إلى مدينة لامياسكوس ، وديومنسيوس — الذى ينتمى إلى ملطية ؛ جمعا خلال منتصف القرن الخامس تواريخ فارس ، كما وضع سكيلاكس — الذى ينتمى إلى كاريانلا ؛ أول سيرة تاريخية . ثم ألف أنطيوخس — الذى ينتمى إلى سيراكيوز ؛ أول تاريخ لشعوب اليونان فى الجزء الأخير من القرن الخامس . فى حين مهد هيلانيكوس — الذى ينتمى إلى لسبوس — الطريق لهيرودوت ، وذلك بفضل سعة دائرة أفقه . ذلك أنه لم يقتصر على علاج تاريخ فارس واليونان من وجهة نظر اجتماعية عريضة فحسب ، بل إنه أيضاً كان أول مؤرخ اغريق اعترف بضرورة وجود نظام شامل للتسجيل التاريخى . وقد حاول أن يحقق الأمر الأخير ، ونجح فى ذلك نجاحاً نسبياً .

على أن هيرودوت كان أول مؤلف إغريق قام بعمل تاريخى متكامل ومنتظم ؛ حين كتب قصة العلاقات الأغريقية الأسيوية منذ حكم كروسس ملك ليديا (٥٦٠ — ٥٤٦ ق . م) ، حتى الهزيمة التى لحقت بالفرس عندما غزوا بلاد اليونان سنة ٤٧٨ ق . م . والواقع إن الحروب الفارسية أيقظت عند الأغريق الاهتمام بخصائص وطبيعة حضارات منطقة الشرق الأدنى . ومن ثم فإن أى كاتب يربط بين وصف الثقافات الشرقية ، وبين العمل الوطنى المجيد الذى قام به الاغريق فى صد الفرس ؛ كان من الضرورى أن يجد عدداً وفيراً من القراء المتجاوبين معه . لقد انتهز هيرودوت ـ أحد مواطنى مدينة هاليكارنا سوس (٤٨٤ ق . م — ٤٢٥ ق . م تقريبا) — الفرصة ، ولم يقتصر اهتمامه على الشعوب المتحضرة فحسب ، بل وجه عنايته أيضاً نحو غيرها من الشعوب . ولذا اعتبر هيرودوت بحق أبا التاريخ ، بل أبا علم البشر والانسان . وقد كتب موريس كروازيه Croiset عن طبيعة كتاب هيرودوت وأهميته فقال : « لقد أخذ كاتب أسيوى إغريق هو هيرودوت — الذى ينتمى إلى مدينة هاليكارنا سوس — على عاتقه تعريف مواطنيه بمزيد من الحقائق عن الشرق . ووفق فى ذلك توفيقاً عظيماً . وامتاز هيرودوت بأنه رحالة لايكل ، دفعته رغبته فى أن يرى وأن يتعلم إلى زيارة مصر ، وآسيا الصغرى ، فضلاً عن كل بلاد الأغريق تقريبا ، وصقليه ، وإيطاليا على التوالى . وفى إيطاليا استقر به المقام فى نهاية الأمر ، وحيث يحتمل انه مات . وقد وفق فى القيام بدارسة ميدانية عظيمة الفائدة ، فراح يسأل الناس ، ويزور الآثار ، ويقف على كل شيء ؛

مثل العادات ، والقوانين ، ونظم الحكم ، والديانات ؛ دون أن يكون متأثرا بأفكار سابقةٍ أو ميولٍ معينه . وانما كانت مشاعره عبارة عن مزيجاً مزيداً من الدقة والاستعداد للتصديق ، مع فضول لا يقف عند حد ؛ واحترام للأديان . ومن كل ماشاهده وقرأه وسمعه — فضلاً عن قدرته وعبقريته ، وحبه للاشياء الجميلة ؛ وموهبته فى رواية الأخبار ، وروعة أسلوب — استطاع أن ينتج مؤلفا رائعاً حقا . ذلك أنه أعطى لقرائه صوره عن حياة مائتين من الشعوب المتباينة داخل إطار ضخم كأنه منظرٌ حيٌ متحرك . والواقع ان المعلومات الوافرة التى وردت فى كتاب . هيرودوت ؛ جعلت منه شيئاً أشبه بدائرة معارف ضخمة . ذلك أنه عالج فى ذلك الكتاب أنماطا متباينه من البشر ، وعدداً وفيراً من الديانات ، وتظماً مختلفةً للحكم ، عالج كل ذلك بطريقة ممتعه ؛ بحيث يصعب أن نعثر على تلك الصورة الحافله للمجتمع البشريِ ؛ حتى على مسرح الحياة المعاصرة »[1]

وكانت الحروب الفارسية هى المحور لتاريخ هيرودوت ، وخاصة ما أصاب اكزرسيس من دمار على أيدى الاغريق . ولكن الصورة الخلفية التى رسمها هيرودوت لمؤلفه احتوت من المادة ما هو اهم وأكثر طرافةً من التاريخ الخاص بحرب الفرس . والواقع أن هيرودوت كان أضعف ما يكون كراويةٍ للتاريخ الحربى ، إذ أظهر فى علاجه لهذا الجانب عدم اهتمامٍ وقلة مقدرةٍ فى التحقق من التفاصيل . بين أن علاجه هذا كان من ناحية أخرى عملا غير عاديٍ ، يستوجب الثناء فى الوقت ذاته ، لأنه لم يسمح للعواطف الوطنية أن تتغلب على أحكامه وحبه للعدل ، وقد بلغ من عدالة أحكامه على الفرس إصراره على امتداح شجاعتهم ، الأمر الذى عرضه لتقديرٍ من جانب مواطنيه من قراء الاغريق .

وقد اعتبر هيرودوت الحروب الفارسية صداما بين غطين مختلفين من الحضارة هما : الحضارة الهلينيه ، والحضارة الشرقية . ومن ثم فإنه تجرد عن الهوى عند تحليل هاتين الثقافتين المتضاربتين . وبفضل نظرته التاريخيه البعيدة ؛ تمكن هيرودوت من أن يصف شعوب غرب البحر الابيض المتوسط والعالم الآسيوى فى القرنين السادس والخامس ق . م وصفاً ممتعاً حيّاً وجاءت هذه المادة خليطاً بين التاريخ الثقافى والدراسة الاجتماعية الوصفية ، إذ تنقل من وصف مناخ المناطق المختلفة ، إلى وصف الحياة الخاصة اليومية للشعوب التى تناولها بالدراسة . ووصف الشعوب المختلفة فى روح بعيدةٍ تماماً عن التعصب الجنسى . ولقد ظل هيرودوت زمناً طويلاً يعتبر ضحية تصديق كل ما كان يسمعه ، ولكن الأبحاث الأثرية المعاصرة أكدت صحة الكثير من قصصه الرائعه . هذا إلى أنه ميز بنجاحٍ فائقٍ ليس له نظير فى عصره بين القصص الشعبي الذى تتناقله الالسنه ، وبين ماشاهدة بعينه وآمن بصحته . وأخيراً فإن هيرودوت اعتبر

(1)Maurice Croiset: Hellenic Civilzation (Alf.d A. Knopf 1936) pp. 143-144

بسبب تنوع ميوله واتساع أفقه — مؤرخا للتاريخ الثقافى . والجدير بالذكر أنه إذا كان كتابه أول مؤلف تاريخى شامل على وجه الاطلاق ، فانه فى نفس الوقت جاء تأريخا للحضارة .

وكان هيرودوت فى تناوله للحروب الفارسيه أقل توفيقاً وحظاً وإن لم يكن أقل تشويقا .

وأذا كان العلاقه شوتويل Shotwell وصفه بأنه «هومر الحروب الفارسية» فإن لهذة المقارنه سندها وقوتها . ذلك أن هذا الجزء من مؤلفة عبارة عن ملحمة شعرية فذة و استمد إلهامها من إعجابه بالديمقراطية الأثنية . فعلى الرغم من أنه راح يثنى على شجاعة الفرس ، إلا أنه مجد أثينا وأنتصارها على الأمبرالية الفارسية المطلقة ، وفعل ذلك فى أسلوب حماسى ؛ يشبه أسلوب بانكروفت عند وصفه فوز الامريكيين باستقلالهم عن الامبراطورية البريطانيه . لكن هيرودوت على عكس خلفه الشهير ثوكيديدس ؛ أعوزه ذلك الحرص على مراعاة الدقة والوضوح فى سرد الأخبار الحربية هذا فصلاً عن أنه لم يستطع أن يحرر نفسه من الخضوع للعقيدة القائلة : إن الآلهة تتدخل فى اعمال البشر . فظهرت فى أماكن متفرقة من مؤلفة فكرة نسبة بعض الظواهر إلى قوى عليا قاهرة غير ملموسة .

ومع هذا كله فإن شهرة هيرودوت ستظل خالدة بوصفه أول فنان بناء فى مجال الكتابة التاريخية ، وصاحب أول مؤلف تاريخى شامل ، وأول كاتب أثبت أن مهمة المؤرخ هى أن يعبر بناء حياة الانسان الماضى كلها ، وأخيراً بوصفه واحداً من أمتع رواة القصص فى مجال الكتابة التاريخية كلها . وقد ازدادت شهرته واهميته فى جيلنا نتيجة للإقبال المضطرد على دراسة التاريخ الحضارى ، والتخلى تدريجيا عن الاتجاه الذى حظى باقبال شديد ظل سائداً منذ عهد ثوكيديدس حتى القرن العشرين من عصرنا هذا ، وهو الاتجاه الخاضر بالعناية بالتاريخ الحربى والسياسى .

أما ثانى المؤرخين الاغريق العظام فهو ثوكيديدس Thucydides (٤٥٦ — ٣٩٦ ق . م)الذى تناول المسائل التاريخيه بروح اختلفت كثيراً عن روح هيرودوت ، فتخلى عن اتباع الأسلوب القصصى مفضلاً عليه السرد المتزن الجاد للحقائق التاريخية كما أدركها . هذا إلى أن ثوكيديدس استبعد الأساطير والخرافات التى ولع بها هيرودوت ، وفصل التاريخ عن شعر الملاحم والقوى الغير طبيعية ، ففسر أحداث التاريخ فى ضوء أسباب منطقية أساسها العقل ، أو مبررات دنيوية . ولا نجد فى كتابات ثوكيديدس استطرادات طويلة تخرجنا عن الموضوع ، مثلما نجد فى كتابات هيرودوت المليئة بتلك الاستطرادات ، بل إننا نجد ثوكيديدس يختار موضوعاً محدداً لبحثه التاريخى ، ويلتزم بالسير فى نطاقه . ولذا لم تكن مادته متصلة بالموضوع العام فحسب ؛ بل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنقطة قيد البحث .

كانت الحروب البلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) هي الموضوع الرئيسي الذي عالجه ثوكيديدس في كتاباته ، وهو ميدان أقل مدىً وأكثر تحديداً من ذلك الميدان الذي غطاه هيرودوت واذا قارنا مؤلف ثوكيديدس بمؤلف هيرودوت فكأننا نقارن تاريخ الحرب الأمريكية الأهلية بقصة تطور الحضارة الأمريكية الانجليزية منذ القرن السادس عشر ولما كان بعضا من كتاب ثوكيديدس قد أعد حين كان رحى الحرب دائرة فان عمله كان أشبه بعمل المراسل الحربي الحصيف بحيث أنه يمكننا أن نطلق عليه اسم فرانك سيموندس العصر القديم . وفي الوقت نفسه فإن مؤلف ثوكيديدس يعتبر بنفس القدر عمل مؤرخ هادئ خال من النزعات ، يعمل على إعادة بناء أحداث الماضي البعيد معتمدا على دراسة الوثائق . وان العرض الموجز الذي تناول فيه تطور اليونان من مدن حرةإلى قيام الامبراطورية الأثينية ، وهو العرض الذي قدم به روايته عن الحروب البلوبونيزية — ليدل على قدرته النادرة على تصوير الماضي إذا ما رأى ان ذلك مناسبا . ولكن عمله العظيم كان في المحل الأول تاريخاً معاصراً لأحداث تناولها بوصفه شاهد عيان ، وناقدا وسياسياً أثينيا .

على ان الفضل الأكبر لثوكيديدس على علم كتابة التاريخ ، يتركز كما ألمحنا في ميدان النقد ، وفي الطريقة المنهجيه . ذلك أنه أكد بقوة نظرية أن القيمة الخالدة للعمل التاريخي وشهرته ؛ ينبغي أن تعتمد على صدق مايرد فيه من روايات ومطابقتها للحقيقة ؛ أكثر مما تعتمد على التسلية بسرد الأحداث . والواقع ان ليوبولدفون.رانكه في بداية القرن التاسع عشر ؛ لم يأت بشرح أوفى من شرح ثوكيديدس في نهاية القرن الخامس ق . م ؛ للقاعدة الأساسية للدراسة العلمية للتاريخ ؛ وهي القاعدة القائلة : إن الدقة في جمع المعلومات ينبغي أن تكون أساس الكتابة التاريخية السليمة . أما القاعدة الرئيسية الثابته التي وصفها ثوكيديدس فهي تلك التي تنص على مراعاة التثبت من المادة التاريخية والاقتناع بها ، وهذه كما رأينا — خطوة تقدم بها على هيرودوت . ويضاف إلى هذا كله قدرته على الإلمام بالتفاصيل ، وتنسيقها في سياق السرد العام ومن ثم ؛ يمكن أن تعتبر ثوكيديدس بحق مؤسس المنهج العلمي النقدي للتاريخ . وفضلاً عن ذلك كان ثوكيديدس أول مؤرخ يقرر في وضوح وجلاء القيمة العملية لكتابة التاريخ ودراسته ، فهو يرى أن الإلمام الصحيح بالماضي مفيد ، لأن الاحداث سوف تعيد نفسها في صورة مشابهة ، وذلك وفقا لسنة الحياة البشرية .

ولم يقتصر جهد ثوكيديدس وإصراره ؛ على غربلة مصادره وإقامة روايته على وثائق دقيقة ، بل إنه كان كذلك بارعاً في تنظيم مادته وتفسيرها . وإذا كان قد أهتم أساساً بالحقائق السياسية ، فإنه كان في الوقت ذاته أول مؤرخ يتناول السياسة بأسلوب الفيلسوف . ذلك أنه عني بفحص البواعث السياسية والتاريخية للأحداث ، مبرزاً الأسباب البعيدة منها والقريبة ،

فى الوقت الذى امتاز بقدرته على التحليل السيكولوجى للأفراد والجماعات ويظهرها بوضوح فى دراسته الرائعة لعدد من الشخصيات ، وتحليله للرأى العام فى مختلف المناسبات ، مثل ثورة أثينا سنة ٤١١ ق . م . وكان ثوكيديدس أديباً مبرعاً ، فعلى حين أنه استغل الوثائق والمصادر الشفاهية استغلالاً طيبا ، إلا أنه كان يخفى ذلك بمهارة ، ويستخدم طريقة ماهرة فى العرض ، كى يجعل روايته سهلة سلسلة .

ولكن ، مع هذا كله ، ورغم أفضاله الكبيرة على علم التاريخ ، فإن كتابات ثوكيديدس لم تخل من سقطات كبرى . ذلك أنه لم يكن قادراً على استيعاب مفهوم الزمن استيعاباً كاملاً أو على تصوير الأحداث تصوراً تاريخياً صادقا ، هذا بالاضافة إلى أنه لم يمتلك قدرة هيرودوت البارعة فى تقدير أهمية العوامل الجغرافية وأثرها فى توجيه الأحداث التاريخية . ولم يكتف بأن يقتصر مجال التاريخ على مجال ضيق ، هو دراسة الظواهر السياسية المعاصرة ، بل إنه حصر هذه الظواهر الأخيرة فى الجوانب الخارجية ، العسكرية ، الدبلوماسية ، والنشاط السياسى ، وأغفل الأهمية الحيوية لأثر العوامل الثقافية والجماعية والاقتصادية على التاريخ . ولعل ف . م . كورنفورد F.M. Cornford قد بالغ فى إبراز نقط الضعف هذه ، إذ أوضح كورنفورد فى كتابه « تاريخ ثوكيديدس الأسطورى « Thucydides Mythistoricus » أن ثوكيديدس لم يفهم طبيعة الحرب البلوبونيزية وأسبابها ، حيث يعتقد كورنفورد أن تلك الحرب جاءت نتيجة لمسلك الجماعات التجارية والصناعية فى ميناء بيريه ، أو بعبارة أخرى ، جاءت نتيجة لسياسة الطبقة الوسطى من التجار . ولكن ثوكيديدس لم يذكر هذه الحقيقة الأساسية ، ولعله — بوصفه أثينياً — كره أن ينوه بنشاط الطبقة الوسطى وتطلعاتها ، واكتفى ثوكيديدس بأن سلم بتصريحات بركليز العامة عن نتائج الحرب ، دون أن يفحص قيمتها الحقيقية . وقد تولى ج . ف . أبوت G.F. Abbott وآخرون الدفاع عن ثوكيديدس فى هذه النقطة ، ولكن لم يوفقوا توفيقاً كبيرا .

وأهم من ذلك كله ، أغفل ثوكيديدس الفرصة الذهبية لتصوير أمجاد الحضارة الأثينية ، وهو الأمر الذى جاء نتيجة لفكرته المحددة عن رسالة المؤرخ ، لا لعدم قدرته كمؤرخ للحضارة . ذلك أن محاولته الشهيرة لإعادة بناء وتجميع مرثية بركليز ، تمثل دليلاً على ما كان يمكن أن يفعله فى مجال التاريخ الثقافى لو أنه أختار أن يعالج هذا الموضوع . وفضلا عن ذلك ، فإنه يصعب أن نشك فى أنه ذهب بعيداً فى التزام مبدأ التثبت والتحقق من صحة المعلومات التى أوردها . وإذا كان هيرودوت قد أدخل الكثير من الاضافات والاستطرادات على أوصافه ، مما يبدو معه أنه خرج على الموضوع ، فإن ثوكيديدس حذف كثيراً من المادة المرتبطة بروايته اللازمة لفهم الرواية فهماً كاملاً . ويصدق هذا بصفة خاصة على العناصر غير السياسية وغير العسكرية فى المواقف التاريخية ثم إن ثوكيديدس بدت فيه نقطة الضعف التى

اخذها المؤرخون على كارليل ؛ من حيث تفسيره المثير للأحداث عن طريق اتخاذ الشخصيات الكبيره محاور لها ، وإن لم تكن له قدرة كارليل على تصوير الشخصية فى مجموعها . ففى إدراكه للأسباب الشخصية البحته وأثرها على التاريخ كان سطحياً إلى حد ما ، حيث كان يضع مجرد مبررات ظاهرية للأسباب الحقيقية . وأخيرا ؛ لم يبد فى منهجه شيء قليل أو حتى شيء على الإطلاق مما ذكره مابيلون فى نقاشه العميق عن استفادة ثوكيديدس من الوثائق بصورة ناقدة . فكما ذكرنا من قبل عن ثوكيديدس ؛ انه كان يخفى مصادره حتى لا يتأثر أسلوب روايته للتاريخ .

ومع هذا كله فإنه من الممكن أن نتفق تماماً مع ماقاله بيورى Bury من إن عمل ثوكيديدس يعتبر أوسع الخطوات وأكثرها حسماً مما قام بها فرد واحد نحو جعل التاريخ على ماهو عليه اليوم . مع ملاحظة عدم اعتبار هذا القول ثناءً خالصا . والأمر لاشك فيه ان ثوكيديدس كان له اثر واضح فى إخضاع علم تدوين التاريخ لطلسم السياسة ولغز الأحداث ، وهى مسائل عانى منها التاريخ منذ العصور القديمة حتى القرن التاسع عشر . كما أكد لابرخت ؛ يجب ألا ننسى أن الدقة التاريخية الصادقة ، تتطلب دراسة نشأة كل موقف من المواقف وإطاره الحضارى ، بقدر ما يتطلب مجرد سرد حقائق الأحداث المرتبطة بذلك الموقف سرداً صادقا . فإذا أخذنا بوجهة النظر هذه بالإضافة إلى ماهو مطلوب فى دراسة التاريخ من تحرى الدقة والضبط والاحكام ، فاننا نجد أن ثوكيديدس قلما يرقى إلى مستوى هيرودوت . ولعل المعجبين بالأول ، كثيراً ما غاب عنهم وتناسوا أن مجال البحث ومحتواه لايقلان أهمية فى ميدان التاريخ عن سلامة المنهج وقوة حبك الرواية .

أما آخر كبار المؤرخين الاغريق فقد كان بوليبوس Polybius (١٩٨ — ١١٧ ق . م .) وهو يفوق ثوكيديدس من حيث وفرة الإنتاج والعمق ، ويتساوى معه فى تحريه ودقة الحقائق التاريخية . ولكن لما كان أسلوب بوليبوس معقداً ومطولا ، فإن جمهور القراء لم يقبلوا على قراءة مؤلفاته قدر إقبالهم على قراءة أعمال سلفيه العظيمين (هيرودوت ،ثوكيديدس) . وجاء تاريخه فى أربعين جزءاً تناول فيها اتساع الامبراطورية الرومانية وتطورها الدستورى حتى سنة ١٤٦ ق . م . وإذا كان هناك شيئ امتاز به بوليبوس على ثوكيديدس ؛ فهو انه كان أكثر تأكيداً فى أن المؤرخ الناجح ينبغى أن يكون رجلاً من أبرز رجال الأعمال فى الدولة ، والأفضل أن يكون قائدا وسياسيا .

وكما أن كتابات هيرودوت تعكس اهتمام المؤرخين الاغريق الأوائل بالشرق ، وكما أن ثوكيديدس كتب عن أثينا وعلاقتها الخارجية فى أوج الحضارة الأثينية ، فكذلك صور بوليبوس اضمحلال الامبراطورية الهيلنية ، واتجاه الأنظار نحو قوة الرومان الجديدة فى الغرب . ولما كان بوليبوس مواطناً اغريقياً قضى معظم شبابه فى روما ، فإنه كان أكثر اعتدالاً وتمسكاً

بمبدأ عدم التحيز ؛ عند علاجه التاريخ الإغريقي والرومانى من أى مؤرخ آخر قديم . وقد حاول فى مؤلفه حسن التنسيق والترتيب أن يشرح نمو سلطة روما . ويعتبر المجلد السادس من كتابه أفضل تحليل قديم بقى حتى اليوم للمثل السياسية والأساليب العسكرية الرومانية . وفى هذا التحليل ؛ توصل بوليبوس إلى أن عبقرية الرومان السياسية نبعت من اتخاذهم نظاماً للحكم جمع بين الملكية والارستقراطية والديمقراطية . وباتباع الرومان لهذا الأسلوب تفادوا طريقاً حتمياً يمثل حلقة مفرغة ، تدور فيها الشعوب من الملكية ، إلى حكم الطغاة إلى الارستقراطية فالاوليجاركيه أو حكم الأقلية ، ثم الديمقراطية وحكم الجماهير ، ثم تدور الحلقة من جديد. وكان بوليبوس ثاقب الفكر ، نافذ البصيرة فى تقديره للأمور السياسية ، كما كان مولعاً بدراسة الأحداث والشخصيات ، فجاء تحليله للشخصيات رائعا ، نذكر على سبيل المثال ؛ وصفه لشخصية هانيبال .

ويتلخص ما أسهم به بوليبوس فى تقدم علم التاريخ ؛ فى أنه شجع الأساليب المثالية للدراسة المنهجية التاريخية السليمة ، وهى الناحية التى فاق فيها ثوكيديدس . ففي المجلد الثانى عشر من مؤلفه ، أورد بوليبوس نقداً للمؤرخ القديم طيماوس ، ويعتبر هذا النقد أول بحث عن منهج الأسلوب العلمى فى التاريخ . وإذا استثنينا ما كتبه ثوكيديدس ، فان هذا البحث يعتبر خير ما كتب فى موضوعه حتى يومنا هذا فضلا عن أن حيدته وعدم انحيازه كفيلة بأن تجعله نموذجاً لكل المؤرخين . هذا كله فضلا عما يجب التنويه به من أن بوليبوس أصر على أهمية معرفة الجغرافيا والطوبوغرافيا للمؤرخ ، وهو فى هذا يشبه العالم ريت Ritter ثم إن بوليبوس شابه ثوكيديدس فى اتجاهه ليجعل من تاريخه دراسة ذات قيمة عملية كبيرة أو بعبارة أخرى ؛ يجعل منه دراسة فلسفية تعتمد على الأمثلة والنماذج . وكان بوليبوس يعتقد أن القيمة العملية الكبرى للتاريخ تكمن فى عرض الحقائق التاريخية الصحيحة ؛ التى قد تساعد الناس على توجيه الأمور العامة فى حاضرهم ولكنه ندر أن سمح لطابعه الفلسفى أن يتغلب على طابعه كمؤرخ . ولما كان كثير من الاهتمام بالسببية ؛ فقد تعمق أكثر من ثوكيديدس فى تحليل الأسباب الغير شخصية ، وإن جاء تفسيره أخلاقيا أكثر منه اقتصاديا واجتماعيا . وفى ذلك يقول كروازيه : «إن مؤلف بوليبوس هو المؤلف الذى يوضح فكرة استمرار الحياة البشرية ، وتطور الأشياء ، واعتماد الدول على بعضها بعد أن كانت كل منها فى عزلة عن الأخرى . فلم يعد فى إمكان التاريخ بعد ذلك أن ينظر إلى الجغرافيا أو تكوين الدول وقوانينها وعاداتها ونظمها الاقتصادية والحربية على أنها موضوعات منفصلة ، الهدف فيها إشباع فضول القراء بطريقة عابرة نوعاً ما »

وتلخص العبارة المختصرة التالية المقتبسة من مجلده الثانى عشر آراءه فى مجال التاريخ ، وأساليبه والهدف منه : «يقوم علم التاريخ على ثلاث دعائم : أولها ؛ تناول الوثائق المكتوبه وتنظيم المادة التى يحصل عليها منها .ثانيا ؛طوبوغرافيا وظهور المدن الأحياء ووصف الأنهار

والمولى ، وبصفة عامة الظواهر الخاصة بالبحار والدول والمسافات بينها . ثالثها : الشئون السياسة . إن دائرة العمل الخاصة بالتاريخ تشمل أولا : التحقق من صدق الكلمات التي استخدمت وقيلت فعلا . وثانيا : فهم الأسباب التي أدت إلى فشل أو نجاح سياسة معينة أو تنظيم معين . ذلك أن مجرد رواية حادث ما ؛ ليس مفيداً وإن كان طريفا . ولكن إذا ربطت هذه الرواية بذكر المسببات ، أصبحت دراسة التاريخ مثمرة حيث يمكننا عن طريق مقارنتها بظروف ما أن نصل إلى الوسائل والأسس لتقدير المستقبل ، وأن نتعلم من الماضي حتى نتصرف بحذر في الحاضر ، ومتى نتصرف بجرأة أكثر »

ثم إن بوليبوس في تحليله ونقده للمؤرخ الإغريقي القديم طيماوس ؛ عنى كثيراً بموضوع صحة الوثائق التي على المؤرخ أن يستخدمها ، وانتقد الانسياق وراء العاطفة وحذر منه ، وكان بوليبوس خصماً لدوداً للبلاغة ؛ التي كانت قد بدأت تسوء الكتابة التاريخية عند الإغريق والرومان .

وخلاصة القول ان المرء يكاد يتفق مع الأستاذ جورج وليز بوتسفورد Willis Botsford في رأية القائل : إن قراءة هذا المؤلف بإمعان : هى أحسن مدخل ممكن للوقوف على روح التاريخ وطريقته كما ننظر إليها اليوم . » أو على حد تعبير الأستاذ شوتول : إن شرح بوليبوس للمبادئ الهادية لكتابة التاريخ ؛ هو أول بيانٍ رائع عن المثل العلمية للمؤرخ حتى أيام رانكة »

وهناك مؤرخ أقل مرتبة بكثير من من هيرودوت وثوكيديدس وبوليبوس ، هو اكزنيفون Tenophon (٤٣٠ — ٣٥٤ ق . م) الذى سبق بوليبوس بقرنين . وكانت قدرته الأدبية مرموقة ، أما قدرته على التحليل التاريخى العميق فقد كانت محرومة . وقد أجاد المذكرات ، ويعتبر كتابه (Anabesis) من أمتع ما كتب من مذكرات تاريخيه . كذلك حاول في كتابة Hellenica أن يكمل أو يواصل تاريخ ثوكيديدس من ٤١١ — ٣٦٢ ق . م .

ومع أن كتابه هذا بالغ القيمة ؛ بوصفه مصدرا لتاريخ تلك الفترة ، إلا أنه سطحى ، وترجع أهميته التاريخية إلى محاكاته طريقة ثوكيديدس وتنظيمه . كذلك كتب اكزنيفون أحسن سيرة تاريخيه في الأدب الإغريقى ، وهى كتابه عن حياة اجزسلاوس Agesilous . هذا ويعتبر كتابه Ways and Means المثل الوحيد بين كتابات المؤرخين الإغريق الذى يدرك تماماً مدى تأثير العوامل الاقتصادية على اتجاهات السياسة . ومهما يكن من أمر ؛ فمن الممكن بصفةٍ عامةٍ ودون غضاضةٍ أن نتفق مع بيورى في قوله : إن اكزنيفون يدين بشهرته كمؤرخ إلى أن جيلاً لا يمتلك القدرة على النقد حافظ فيما بعد على

كتاباته فى حين أهمل غيرها من المؤلفات الأكثر قيمة والتى تستحق المحافظة عليها «وانه لو عاش اكزنيفون فى أيامنا لاعتبر صحفيا من الطراز الأول وكاتب مقالات ممتاز ، ولشق طريقة فى الحياة بوصفه مراسلاً حربيا » ومع ذلك فإنه ليس من العدالة أن ننكر مواهب اكزنيفون الأدبية ، التى تجلت فى مذكراته ، وتراجمه ، وتاريخة الرتيب ، وتحليلاته للدساتير والنظرية الاقتصادية .

أما بوليبوس ، فكان مؤرخاً فريداً فى عصره ، وكان علم الكتابة التاريخية عند الإغريق قد بدأ ينحدر عن المستويات التى وضعها ثوكيديدس ، وذلك قبل أن يؤلف بوليبوس كتابه بوقت طويل . وأخذ علم التاريخ يخضع لتأثير البلاغة فى القرن الرابع ، واتجهت المؤلفات التاريخية للمدرسة البلاغية إلى إبراز الجوانب الخلقية ، إلى الخطب والنقة الخيالية ، كما ولعت بالمديح والثناء ، وهى لذلك تشبه كتابات فرواسار ولامارتين فى عصور لاحقة ، «التى تبدو فنيه أكثر منها تاريخية » . ويرى هيرمان بيتر Hermann peter أن الرضوخ وتلك الاستجابة من جانب المؤرخين لإرضاء نزعة العامة نحو الكتابات البلاغية ، هو السبب الرئيسى فى ركود وانهيار الكتابة التاريخة عند الإغريق ، وشبيهتها عند الرومان .

وكان ايسقراط Esocrates رائد البلاغيين فى القرن الرابع ق . م . كما كان ايفورس وثيوبومبوس زعيمى مؤرخى هذه المدرسة . ولعل مؤلف ايفورس أقرب محاولة من الحركة التاريخية الإغريقية لكتابة (التاريخ القومى) الهيلنى . وعلى نقيض ذلك كان عمل طيماوس ، الذى ينسب إلى مدينة طورمنيوس بصقليه ، والذى قضى حياته يعمل فى صبر لجمع مجموعة كبيرة من الحقائق التى لايرقى إليها الشك عن تاريخ صقلية وإيطاليا . لذلك كان أول الأقدمين الذين برزوا فى القرن الثالث ق . م . ويمكن القول : إنه كان نموذجا لكل من بلوندس وليلالند Blondise Lalaind فيما بعد . وقد تم بعد ذلك جمع كتابين كبيرين هما : تاريخ العالم لديودور الصقلى (٩٠ — ٢١ ق . م .) ، وتاريخ روما لمعاصره الاصغر سناً ، ديو نيسيوس الذى ينتمى إلى مدينته هاليكارناسوس . وقد عرفا فى السنة الرابعة الميلادية ، ومع أنها أقل دقة ، إلا أنهما فاقا بكثير مؤلفات اصحاب المدرسة البلاغية . ويعتبر الكتاب الأخير أول مؤلف نادى بأن التاريخ يعلم الفلسفة عن طريق سرد الأمثلة الواقعية .

أما كتابه السير والتراجم عند الإغريق ، فقد قام ايسقراط — وهو أحد زعماء البلاغيين — برفع مستواها . وكانت سيرة اجيز لاوى التى كتبها اكزنيفون إحدى الآثار المبكرة . ثم خصص المؤرخون اللاحقون جزءاً كبيراً من مؤلفاتهم لكتابة التراجم . وجدير بالذكر أن كتاب بلوتارخ (٥٠ — ١٢٥ م تقريبا) «السير المتشابهة » وهو كتاب يتصف بالدقة والوضوح — ظل دواما يتصدر الانتاج فى مجال التراجم فى العالم ، وذلك لطرافة معلوماته ،

فضلا عن دقته التاريخية الفائقة . وينبغي أن نذكر أن بلوتارخ كان داعيةً من دعاة الأخلاق ، وأنه كتب كتابه هذا لا ليكون مجرد سير تاريخية فحسب ، بل ليدعم بالبرهان مبادئه الأخلاقية التي استهدف من ورائها رفع أخلاقيات القراء .

وفي فترة إحياء الحضارة الهيلينية في روما ، ساهم عدد من المؤرخين الاغريق - على مستويات متباينة - بنصيب كبير في الكتابة التاريخية . ومن بين المؤلفات الأقل شهرة التي ظهرت في تلك الفترة ، المؤلف الذي وضعه اريان Arrian (حوالي ٩٥ - ١٧٥ م) عن «زحف الاسكندر وحركته التوسعية» وكتابه «تاريخ روما» الذي ألفه في الفترة ذاتها . ونذكر من المؤلفات التي تفوق هذين المؤلفين بكثير ، الكتاب القوي الذي ألفه ديوكاسيوس Diocassius (١٥٥ - ٢٤٠ م تقريبا) بعنوان «تاريخ روما» . أما اميانوس ماركيللينوس وهو الذي يمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة عظماء مؤرخي الاغريق ، فقد وضع تاريخاً للإمبراطورية الرومانية من ٩٦ - ٣٧٨ م يمتاز بسعة الأفق والإدراك . وقد كتب مؤلفه هذا باللغة اللاتينية حرصاً منه على أن يقرأه أهل روما . ويلاحظ أن اميانوس هذا كانت تعوزه عذوبة الأسلوب في اللغة التي اختارها وهي اللاتينية ، ولكن روايته للأحداث اتصفت بالدقة ، ويمكن الاعتماد عليها بصفة عامة .

هذا وقد ساهم الإغريق في تطور علم التاريخ عن طريق عرضي ، عندما ابتكروا آراء مقبولة حول عملية التسجيل التاريخي . من ذلك أن المؤرخ القديم طيماوس (٣٥٠ ق . م تقريبا) ابتكر لتاريخ الأحداث طريقة حساب الزمن ، على أساس دورة الألعاب الأولمبية التي تجرى كل أربع سنوات . ثم تقدم تأريخ الأحداث على يد أمين مكتبة الاسكندرية العلامة ايراتو ستنيز Eratosthens (٢٧٦ - ١٩٤ ق.م تقريبا) الذي كان أول من ضبط أوقات الفترات الهامة في التاريخ الإغريقي ، مستعينا بالتقديرات الفلكية ، فضلاً عن المراجع التاريخية التقليدية . وانتشر عمله وعمم على يد أبولودورس Appoledorus الأثيني (١٢٠ ق . م تقريبا) وذلك في الدليل الذي وضعه لتأريخ الأحداث عند الإغريق . وقد أتم هذا العمل حتى وصل به إلى سنة ٦١ ق . م أحد علماء جزيرة رودس ، وهو كاستور Castor . ومن هذه الحصيلة التي حققها الإغريق في التأريخ ، أفاد يوليوس الافريقي ، وايزبيوس ، وجيروم في حساباتهم لتاريخ العالم في أوائل العصر المسيحي .

لم تسهم روما سوى بالقليل من العناصر الجديدة المبتكرة فى تقدم علم كتابة التاريخ . ذلك أن روما سارت فى هذه الناحية كما هو الحال فى سائر مظاهر حياتها الحضارى على منوال الاغريق . وإذا كان هناك مؤرخون رومان مشهورون ، فإن أحداً منهم لا يرقى إلى مستوى ثوكيديدس أو بوليبوس فى التزامه أساليبه النقد . ومع هذا نستطيع أن نقول : إن ليفى وتاكيتوس ، هما المؤرخان الروماتيان الوحيدان اللذان بلغا فى الجانب الاسلوبى ما بلغه المؤرخون الإغريق من رقى وتقدم .

ويتضح اعتماد الرومان المباشر على الاغريق فى كتاباتهم للتاريخ ، من أنهم حتى القرن الثانى ق . م دأبوا على تدوين معظم كتاباتهم التاريخيه باللغة الاغريقية . ومعظم هذه الاعمال التاريخيه المباشرة التى كتبها الرومان بالاغريقية كانت عبارة عن حوليات ، أولها وأشهرها تلك التى كتبها فابيوس بيكتور — Fabius pictor (ولد ٢٥٤ ق . م) . أما الانتاج الذى ردد لأول مرة الأسطورة القائلة بالأصل الطرواحى لروما ، فهو حولية الشاعر انيوس Ennius (ت ١٦٩ ق . م) الذى اشتهر باقتباسه عن الأدب الاغريقى . على أن أقدم المؤلفات التاريخيه الرومانية التى كتبت باللاتينية هو كتاب « الأصول » Origins ، الذى الفه كاتو (عاش فيما بين ٢٣٤ — ١٤٩ ق . م) . وقد روى فيه تاريخ روما ، فى إسلوب تمشى مع روحه الوطنية الجياشة ، ونزعاته الريفية الأرستقراطية . ومن أشهر المؤرخين الرومان القدامى ، فارو Farro ، وكان كاتباً واسع الأفق ، لا يمل ولا يكل . وأهم مؤلفاته كتابه عن الآثار الرومانية سنة ٤٧ ق . م .

أما أول المؤرخين العمالقة فهو يوليوس قيصر الذى يعتبر من أعظم رجال عصره ، وأبرز قادة الرومان من حيث المقدرة (١٠٠ — ٤٤ ق . م) . وكان فى كتابته دقيقاً بوجه عام ، وواضحاً وقوياً على الدوام ، اتصف أسلوبه بالصرامة والقوة . وقد كتب كتابين يدافع فيهما عن حياته العامة هما : « تعليقات على الحروب الغالية » و « الحروب الأهلية » وهما أحسن ما كتب من مذكرات تاريخية فى العالم القديم ، ويقفان على قدم المساواة مع ما كتب من مذكرات تاريخيه فى أى عصر . والحق إن كتابات قيصر التاريخية ، تمثل أروع عرض لما كتب فى مجال

التاريخ ، إذ صور عبقريته كأحسن ما يكون التصوير ، وناقش قضاياه بدقة فائقة ، بفضل تحلّيه بصفات ضبط النفس ، والتواضع الشخصى الملحوظ ، ويكاد كتابه «تعليقات على الحروب الغالية» لا يقل أهمية من حيث ما حواه من معلومات عن بلاد الغال قبل عهد الرومان ، عن كتاب تاكيتوس المعروف باسم «جرمانيا» ، من حيث ما تضمنه عن بلاد الجرمان قبل عصر الرومان .

وهناك مؤرخ رومانى أكثر منهجية هو سالوست Sallust ، واسمه بالكامل جايوس سالوستيوس كرسبوس (٨٦ – ٣٤ ق . م) ويعتبر التلميذ الرومانى لثوكيديدس . ولم يعثر على مؤلفه الرئيسى عن تاريخ روما من ٧٨ – ٦٧ ق . م . ولكن يمكن للباحث من كتيباته عن مؤامرة كاتيلين ، وعن الحرب بين روما ونوميديا – المعروفة بحرب جوجورثا – أن يقدر أسلوبه القوى الراقى ، وأن يلمس قدرته على تحليل الشخصيات والعوامل السياسية . لقد امتدح المعلقون على مؤلفاته بنوع خاص جهوده الواضحة فى التزام عدم التحيز ، وسط الظروف السياسية التى أحس بها إحساساً عميقاً ، كما أشادوا بقدرته الفائقة على تصوير الشخصيات التاريخيه وتحليلها . بيد أنه لم يستطع إخفاء تشاؤمه إزاء مستقبل الدولة الرومانية ، فى الفترة المضطربة المتقلبة التى صحبت سقوط الجمهورية . ويلاحظ أن سالوست لم يتفهم تماماً أسس الاتجاهات التاريخيه للسياسة الرومانية فى عصره ، ولم يعن بضبط تواريخه ولا بمعلوماته الجغرافيه . وكان يستأجر الكتبة لإعداد الجزء الأكبر من أبحاثه التاريخية .

أما المؤلف الرائع فى تاريخ روما القومى فكان من وضع ليفى (تيتوس ليفيوس) (٥٩ ق . م – ١٧) وهو واحدٌ من أعظم الرواة فى كافة العصور ، وجاء مؤلفه ملحمةً نثريةً كبيرة ، تصور نمو الدولة الرومانية ذات الصبغة العالية ، وبرغم تفهمه الكبير لأهمية الدقة فى السرد التاريخى فإنه فضل كمال الأسلوب على مراعاة الدقة فى عبارته . ولم يتخذ ثوكيديدس نموذجاً يحتذ به ، وإنما اختار أن يتخذ رجال المدرسة البلاغية الاغريقية ليحتذ ى أسلوبهم . وإن ما تميز به مؤلف ليفى من أسلوب أدبى رفيع ، وحرص على إشباع نزعة الغرور الوطنى عند الرومان ، الذين اتصفوا بحرصهم على شد انتباه المعجبين من معاصريهم ، ثم ما حظى به هذا المؤلف من إعجاب رجال الحركة الانسانية فيما بعد ، كل هذه الأمور تضافرت معاً لتعطى كتاب ليفى مكانةً خاصةً فى ميدان التأليف التاريخى ، أسمى بكثير من قيمته التاريخيه البحتة .

لقد كتب ليفى بصراحة ليبرز عظمة روما ، ويمجد كبرياء أهلها وغرورهم ، وليبعث فى الشباب الرومانى روح الحماسة وحب الوطن . وكانت عاطفته الدينية أقل قوةً من عاطفته الوطنية فاحتلت القوى الخارقة للطبيعة دورا كبيراً فى كتابته التاريخيه . وقليل من مؤرخى العصور الوسطى من فاقه فى إرجاع الأحداث التاريخيه إلى تدخل الآلهة . والواقع إن ليفى لم يحسن استغلال مصادره ، ولم تكن لديه القدرة الكافية أو الرغبة فى استبعاد العناصر الخرافية

والتقليدية من كتابته . لقد اعتقد أن كل ما وجد من مادة تاريخية سابقة صالح له . وجاء تناوله لنشأة روما بصفة خاصة ، بحثاً لا يعتمد عليه ، حيث أنه جمع فى صعيد واحد مجموعة من الأساطير والخرافات والتنبؤات . ولسوء الحظ ، فإن الجزء الأول من تاريخه هو الذى بقى حياً للأجيال اللاحقة . والواقع أنه لا يوجد خير من المؤلفين اللذين ألفهما ليفى وبوليبوس عن تاريخ روما لتوضيح الفارق بين رواة القصص الممتلئين وطنية ، والمؤرخين اللذين يتبعون فى كتاباتهم الأساليب العلمية السليمة .

بين أنه ينبغى أن نذكر أن ليفى لم يكن شخصية بلهاء ساذجة تؤمن بكل شئ . لقد كان يميز بين الغث والسمين ، وأدرك أن مصادره لكتابه تاريخ روما فى عصرها الأول ، تكاد تكون عديمة القيمة ، ولكنه استخدمها متجاهلاً هذه الحقيقة ، وأدرك أنه إذا كانت المادة التى كتبها ليست تاريخاً سليماً بالمعنى العلمى فحسب أنها قطعة أدبية رائعة . ومن هنا نبع أهتمامه بالكتابة .

ومن الأمثلة الأقل أهمية للمؤلفات التاريخية التى وصفها المؤرخون الرومان من رجال المدرسة البلاغية تاريخ روما فى أوائل عصر الامبراطورية ، ألفه فيليوس باتركولوس فى عهد الامبراطور طيبروس .

أما آخر المؤرخين الرومان العظام فهو بوبليوس كورنيلوس تاكيتوس Publuis Corneluis Tacitus (٥٥ – ١٢٠ م تقريبا) الذى كان رجل عمل ؛ شأنه شأن ثوكيديدس وبوليبوس . ذلك أنه كان أحد المعجبين بالجمهورية الرومانية ذات الطابع الأرستقراطى . وكانت نظرته للسياسة الرومانية والمجتمع الرومانى أكثر تشاؤما من رواية سالوست عن انهيار الجمهورية . لقد كتب تاكيتوس فى حماسة بالغة ، وكانت له قدرة نادرة على تصوير الشخصيات ، كما حرص بصفة عامة على تحرى الحقيقة فيما كتبه ولكن حرصه على استخلاص المغزى الأخلاق لرواياته ؛ قلل من قيمة مؤلفه من الناحية التاريخية ، وإن كان قد زاد من شهرته الأدبية . ويعتبر تاكيتوس وجوفينال مسئولين عن تلك الأسطورة المضللة ؛ التى تدور حول « الأسباب الخلقية » لسقوط الإمبراطورية الرومانية ، وهى التى تلقفها وزاد عليها فيما بعد شارل كنجسلى وأخرون غيره ، مما أدى إلى نتائج مؤسفة .

ولتاكيتوس مؤلفان رئيسان هما : « الحوليات » التى تناولت الفترة من موت أوغسطس حتى سنة ٦٩ ق . م وكتابه « التواريخ » الذى بدأ بالأزمة السياسية التى حدثت فى سنة ٦٩ وتناول عهد الأباطرة الفلافيين . ويحتل تاكيتوس بوصفه مؤرخاً اتبع منهجا علمياً مكاناً وسطاً بين ليفى وبوليبوس ، إذ كان أكثر توفيقا وأقل أستعداداً لأخذ الأمور على علاتها من ليفى . ولكن تعوزه قدرة بوليبوس على عدم التحيز . ذلك أن تعصبه ضد الامبراطورية ، وميله للكتابه المثيرة – كل ذلك جعل كتاباته لا يمكن الاعتماد عليها بالقدر الذى يمكن به

الاعتماد على كتابات بوليبوس . هذا إلى أنه كتب من وجهة نظر طبقه أعضاء السناتو ، والتزم روح الإعجاب بالنظم الجمهورية القديمة ، حتى مع اعترافه بأن الجمهورية لقيت نهايتها نتيجة لما كان يمكن فيها من ضعف .

ومع هذا يعتبر تاكيتوس فى تحليله للمؤامرات السياسية ، ووضعه للشخصيات المرموقه ، على رأس قائمة المؤرخين القدامى . إن الصورة التى رسمها لشخصية طبريوس لا مثيل لها فى المؤلفات التاريخيه القديمة . وإذا كان بوليبوس قد أعتقد أن التاريخ أداة فى خدمة الدولة ، فان تاكيتوس رأى أن التاريخ ينبغى أن يدعم الأخلاق العامة والخاصة . كذلك اعتقد تاكيتوس أن أسمى وظائف المؤرخ هى ألا يترك عملاً ذا قيمة دون أن يبرزه ، وأن يجعل التأنيب الذى يمكن أن يلحق بالإنسان من الخلف والاجيال التالية ، مصدر رعب لكل من يقول قولا سيئاً ، أو يفعل شرا . لقد أدخل تاكيتوس نظرية أن التاريخ يعيد نفسه فى مجال الأخلاقيات . فكتب فى حولياته (الجزء الثالث ، ٥٥) يقول : «لعل هناك فى كل أمر من الأمور ما يشبه الدائرة . وقد تكون هناك ثورات وتغييرات تطرأ على الأخلاق ، كما هو الحال مع تغيرات الفصول . وليس معنى ذلك أن كل ما كان فى الماضى أفضل وأحسن ، فإن عصرنا أيضاً أنجب نماذج رائعةً للعظمة ، وثقافةً وحضارةً تحتذيها الأجيال القادمة » . وكانت تنقص مؤلفات تاكيتوس خطة عريضة ، كتلك التى اهتدى بها بولبيوس ، إذ أفسدت كتابته كثرة التفصيلات الثانوية المتداخلة . وهكذا احتجبت صورة تطور الامبراطورية الرومانية فى كتابته خلف إسرافه فى العناية بسير الأفراد ، فضلاً عن التيارات المعقدة من الدسائس والاعمال الحزبية .

وبالإضافة إلى اعمال تاكيتوس التاريخيه البحتة ، كان كتابه «جرمانيا» من أقدم الدراسات فى ميدان علم الاجتماع الوصفى . وقد صار لهذا الكتاب أهمية كبيرة فيما بعد ، نظراً لكونه المصدر الشامل الوحيد لمعلوماتنا عن نظم الجرمان فى عصر تاكيتوس ، حتى ظل الوثيقة التاريخيه التى ثار حولها جدالٌ لا يفوقه سوى الجدال الذى قام حول توراة موسى والأناجيل المتقاربة (متى ومرقص ولوقا ويوحنا) . ولقد كشف النقاب عن هذا الكتاب فى عصر الحركة الإنسانية ، وعرفه جمهور المتعلمين عن طريق كل من : بوجيو ، وانوك الاسكولى ، وكونراد كلتيس . وظل هذا الكتاب محور الصراع التاريخى بين المؤرخين الألمان والمؤرخين الفرنسين فى العصور الحديثة ، بالضبط مثلما كان الألزاس واللورين مثار صراع سياسى وحربى بين الدولتين اللتين ينتمى إلى كل منهما الفريقان السابقان . وفوق هذا أو ذاك ، فإن اتجاه تاكيتوس إلى إعلاء شأن الجرمان الأوائل من الناحية المثالية على حساب الرومان ، أدى إلى ذلك التفسير الخاطئ الخطير للغزوات الجرمانية ، والذى بلغ ذروته فى النهاية فى تخيلات شارلز كنسجلى التى أودعها كتابه «الرومانى والجرمانى» .

أما آخر مؤرخ رومانى كان له نصيب من الشهرة ، فهو سوتنيوس ترانكيليوس Suetonius Tranquillus (٧٥ – ١٦٠ م) وهو الذى ظل مغموراً حتى عمل كورنمان على كشف الستار عنه واظهار أهميته . وكان سوتنيوس ترانكو يللوس السكرتير الواسع الاطلاع لقائد الحرس الإمبراطورى للإمبراطور هادريان . ومع أن كتابه المطول المليئ بالمعلومات عن «حياة القياصرة» يعول عليه فى وصف الحياة العامة ، الا أنه يعتبر مثلاً من أوائل الأمثلة فى كتابة التاريخ عن محاولة البحث عن الفضائح ونشرها . والحق أن كتابة زاخرٌ بوصف المواقف التاريخية والشخصيات ، حتى إن التراجم والسير التى ذكرها تغطى الفترة من عهد أوغسطس حتى عهد الاباطرة الفلافيين . وبرغم ولع سوتنيوس بالتفاصيل المثيرة ، إلا أنه تحاشى الأساليب البلاغية السائدة فى عصره ، وترك الحقائق التى سردها تروى قصتها بنفسها . وإن أهم ما ميز سوتنيوس فى مجال تدوين التاريخ ، أنه أصبح نموذجاً يحتذى من ناحية الأسلوب وتنظيم التراجم التاريخيه خلال عصر الحركة الإنسانية .

وأخيراً ، فإنه لا يمكن ختام هذا العرض الموجز للكتابة التاريخية عند الرومان ، دون الإشارة إلى كاتبٍ ولو أنه لم يكن مؤرخاً محترفاً لكنه كان أكثر المؤرخين القدامى إلماماً بفكرة التاريخ . ونقصد به شاعر التطور العظيم لوكرتيوس (٩٥ – ٥٥ ق . م) . ويعتبر كتابه عن طبيعة الأشياء أروع ما صدر عن تطور الكون حتى نشر هربرت سبنسر كتابه «المبادئ الأولى» First principles فى سنة ١٨٦٠ . وقد شرح لوكريتوس فى كتابه ، تطور الحضارة المادية ، والنظم ، والسلوك ، والعادات ، حتى قال عنه الاستاذ شوتويل : «إنه ربما كان أروع عملٍ ظهر فى أدب الأقدمين» .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الرومان لم يكونوا مبتكرين ، وكانوا دائماً فى كثيرٍ أو قليلٍ تحت تأثير المدرسة الاغريقية البلاغية ، إلا أن أهم ما امتازت به كتاباتهم أنها كانت أكثر صدقاً وأقرب إلى علم كتابة التاريخ مما جاء بعدها من كتابات رجعت بالتاريخ إلى الوراء ، وجعلته يخضع لتأثير الأساطير والتعصب الدينى ، وهى الظاهرة التى كانت قد أخذت تختفى منذ أيام هيكاتيوس الملطى ، أى قبل ثمانية قرون .

المـــراجـــع

1- **J.T. Shotwell**, An Introduction to the Histery of History cheps XII-XXIII.

2- **Thompson:** History of Hisrical writing Vol. 1. chaps II-VII

3- **Mortz Rutter:** Die Entwicklung der Geschichtowissenscheft — Munich 1919.

4- **G. Wachsnuth**, Einleitung in das studium der alten Geochichte (Leipsig) 1895.

5- **Uber Ziel und Methuden der griecheschen** Geschichtohchrei, bung Lepzig 1897.

6- **J.B Bury** The Ancient greek Historians Pover 1957.

7- **Hermann Peter** Die Geschichtliche Litteratur Uber die romische Kaiserzeit bis The Obosuis 1. Leipzig 1897.

8- Wahrfet und kunst leipzig 1911.

9- **T.R. Glover:** Herudotus, Unwiersity of calefarnia press 1939.

10- **F.M. Cornford:** Thucydides Mythistoricus London 1907.

11- **G.B. Grundy:** Thucy dides and the History of His Age London 1911.

12- **G.F. Abbott:** Thcydides: Astudy in Historical Reality. London 1925.

13- **C.N. Cochrane:** Thucydides and the Sience of History London.

14- **Offo Cutnz:** polybuis und Sein Werk, Lepzig 1902.

15- **R.A. Laquer:** Polybuis Leipzig 1913.

16- **T.S. Brown:** Timaeus of Tauromenium, Universety of california press 1958.

17- **A.J. Toynbee:** Greek Historcial Thought Macmillan 1924.

18- **Wilhelm Soltau** Livius Geschichtswerk, Leipzig 1897.

Romische Geschichts chreilsung, Leipzig 1909.

20- **Gaston Boisser** Tacitus London 1906.

21- **Wolf Steidle:** Sallusts Hiswrische Monograpbien wiesbaden 1958.

22- **M.L.W. Laistner:** The Greater Roman Historians unversity of California press 1947.

23- **Willy Strehl and Wilhelm Solatu:** Grundriss der alten Geschichte und quellankunde, Bresleu, 1913 2 vols.

24- **Arthur Rosenberg Einleitung und quellenkunde Zur romishen Geschichte. Berlin 1921.**

25- **W.S. Teuffel and L. Schwake:** History of Roman Literature 2 vols. London 1900.

الكتابة التاريخية في العصر المسيحي الأول

الخلفية الثقافية للكتابة التاريخية فى العصر المسيحي

صحب انتصار المسيحية على الوثنية تغييراتٌ شاملةٌ فى مفاهيم الكتابة التاريخية ، والآراء التى اهتدت بها . ففى العصر المسيحى استبعدت – من الوجهة الرسمية على الأقل – الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان . ولم تلبث أن غدت كتابات الوثنيين التاريخية تحتل مرتبةً أدنى بكثير من مرتبة كتابات اليهود المقدسة الواردة فى العهد القديم (التوراة) ، رغم أن معظم ما احتوته (التوراة) كان فى مستواه التاريخى أقل بكثير من مستوى مؤلفات كبار المؤرخين الوثنيين . كذلك احتقر المسيحيون منطق العمل الذى احتل مكانته الهامة عند الإغريق ، ورفعوا من شأن الايمان ، وجعلوا له مكان الصدارة . وهكذا غدت سهولة التصديق وخاصة بالنسبة لقوى الطبيعة الخارقة – فضيلة أساسية ، عقليةً وروحيةً معا . ولقد كان شوتويل بارعاً عندما أجمل هذه الحقائق الجوهرية عن تلك الثورة الثقافية الكبرى من حيث تأثيرها على الكتابة التاريخية فقال : «ليس هناك فى تاريخ الفكر ثورة أهم من هذه ، من حيث إنتاج المفكرين والمؤلفين والفلاسفة والفنانين والشعراء ورجال السياسة . ذلك أن الاهتمام تركز حول مايسمى وحى الأنبياء والزهد فى الحياة الدنيا .... ، وحلت كتب اليهود المقدسة محل مؤلفات الأقدمين وهكذا بدأت ثورة فى تاريخ التاريخ ، إذ تعرضت أشعار هومر . وكتابات ثوكيديدس وبوليبوس وليفى – وهم فخر العصر القديم – للإهمال والإغراض . وربط المسيحيون النظرة العلمية التى توصل إليها أعظم المفكرين الذين أنجبهم العالم بالأساطير والخرافات التى نشأت قرب مراكز البرابرة البدائيين ، ومعنى هذا أن كل شئ صار فى نظرهم وثنيا ، أى متصفا بالخداع والتضليل ولا يمكن الاعتماد عليه إلا إذا كان متمشيا مع ضوء العقيده الجديدة ، أو إذا استطاع أن يفرض نفسه نتيجة لمتطلبات الحياة ، وبذلك يشد طريقه إلى علم التجربة العادية ... وهكذا كان انتصار هذه المقاييس الجديدة كارثةً على

علم كتابة التاريخ ، حيث لم تعترف الديانة السماوية الجديدة سوى بمنهج واحد للتاريخ وسط التطور الواسع المتنوع الذى حققه العالم القديم . وبذلك وضعت عقبة كأداء فى مجال البحث العلمى ، تطلب التغلب عليها تسعة عشر قرناً من الزمان » .

ومع ذلك ورغم تعصب آباء الكنيسة الأول رسمياً ووجدانياً ضد الثقافة الوثنية فإنهم لم يستطيعوا التخلص كلية من التأثيرات الغير مباشرة واللاشعورية التى فرضتها الوثنية عليهم ، والتى عاشت فى البيئة الثقافية المحيطة بهم . وهكذا كان سخرية القدر أن هذه الثقافة الوثنية التى عمل آباء الكنيسة على ازدرائها ؛ أثرت فعلاً على فلسفتهم التاريخية ، وفلسفتهم عن الكون ؛ بقدر يكاد يقارب تأثير الثقافة اليهودية عليهم . ذلك آباء الكنيسة استخدموا اللغات القديمة وسحرتهم بلاغة القدماء ، وكان الكثيرون منهم قد تلقوا العلم بوصفهم وثنيين قبل اعتناقهم الديانة المسيحية . وكانت آراؤهم عن التلفيقات اللاهوتيه مشوبه بكثير من العناصر الوثنية ، بل كانت مثلهم السياسة وأعمالهم مقتبسة بعناية عن مثيلاتها فى الامبراطورية الرومانية ، مما جعل الاستاذ جورج لنكولن بير يصف أسس التنظيم الكنسى المسيحى بأنه أشبه ما يكون «بظهور روما جديدة » .

ويبدو أن أكبر أثر ساهمت به الوثنية فى الاتجاهات المسيحية التاريخية بعد أن تأثر المسيحيون بالأسلوب الكلاسيكى والبلاغة والقواعد الكلاسيكية – جاء هذا الأثر من الإفلاطونية الجديدة التى اضفت تبريراً فلسفياً رفيعاً على تمجيد المسيحين الساذج للإيمان . فإن نظريتها القائلة بتفوق العواطف والإيحاء على العقل والفكر وندائها بضرورة تصديق كل ما يتصل بالمسائل الدينية تصديقاً لاحد له – وهذا كله وآم تماماً آباء الكنيسة وانعكاساتهم الفكرية ، وأصبح جزءاً لايتجزأ من الاتجاه الفكرى لدى مؤرخى العصر المسيحى الأول والعصر الوسيط ذلك أن القديس أوغسطين وقف على اتجاهات الأفلاطونيه الجديدة أيام شبابه ، ثم ظهرت هذه الاتجاهات جلياً فى فلسفته فيما بعد أما الحافز الذى دفع هذه الاتجاهات إلى الأمام فى العصور الوسطى فقد جاء فيما يبدو نتيجة أمرين : أحدهما ؛ رواج «كتاب الملائكة » Celestial Hierarchy الذى يفسر الأفلاطونية الجديدة على أسس مسيحية ، وقد كتبه راهب سورى فى القرن الخامس الميلادى يدعى ديونيبوس الغير حقيقى [1] .

وينحصر الأمر الثانى فى الجهود الفلسفية والأدبية التى قام بها جون سكوتس إريجينا (John Scotus Erigena) وإلى جانب الاتجاه إلى الرمزية ؛ فقد كان من شأن الأفلاطونية الجديدة أن جعلت من المستحيل تماماً تطور أى اتجاه ناقد يتناول بالشك مصادر المعرفة التاريخية .

(١) لصقت به هذه الصفة تمييزا له عن ديونيسيس الاريوباغى وكان يظن فى أول الأمر أنهما شخص واحد .

وعلى حين نبذ المسيحيون الأوائل الكتابات التاريخية القديمة ، بسبب موقفهم الرسمى من الثقافة الوثنية ، إذا بهم يركزون اهتمامهم فى كتبهم التاريخية على تأكيد فكرتين هما : المذهب العملى والغائية . ذلك أن «عملية التاريخ» كانت لها دلالة ومعنى عند المؤرخين المسيحين الأول ؛ بوصفها فى نظرهم جزءاً من عمليه كونية كبرى أركانها الأساسية : الله ، والانسان وفى ذلك يقول الاستاذ جيمس هارف روبنسون : «ربما كان المسيحيون أول من ظن فى وجود عظمة حقيقية فى التاريخ ، حيث صار (التاريخ) فى نظرهم ملحمةً مقدسةً تمتد إلى الماضى السحيق منذ خَلْق الإنسان ، وتمضى قدماً إلى أن ينفصل الخير عن الشر انفصالاً نهائياً فى لحظةٍ حاسمةٍ هامة» .

وهذه النظرة الفلسفية المسيحية للتاريخ التى وفق جورج سانتيانا حين نعتها بأنها «الملحمة المسيحية» قام الآباء المسيحيون بتطويرها شيئاً فشيئاً حتى شرحها أوغسطين شرحاً وافياً وحاسما فى كتابة «مدينة الله» . ويلاحظ أن هذه الفلسفة التى استقت أصولها من عقائد فارسية وهيلنيه ؛ قدر ما استقت من مصادر عبرية تعتبر العملية التاريخية تعبيراً عملياً عن الصراع الكونى بين قوى الخير والشر. وقد كان هذا الصراع بالنسبة لمدلوله للإنسان فى الأرض ، وبالنسبة للتاريخ صراعاً بين «مدينة الله» أى المجموعة المصطفاة من المؤمنين برب اليهود والمسيحين ، وبين «مدينة الشيطان» وهو الاسم العام الذى اطلق على اتباع الوثنية المعاصرين والسابقين ، وعلى الضالين من المسيحين . أما نتيجة هذا الصراع فهى فى انتصار الخير وهلاك الشر وفنائه .

وفى ضوء هذه الخلفية الفلسفية ؛ ليس من الصعب أن ندرك أن الكتابة التاريخية المسيحية كانت ذات طابع عملى لم يكن يحلم بها بولبيوس أو ديونيسيوس . لقد كانت «فلسفة تلقن بالقدوة» وفى ظل رادع حقيقى ومن ثم ؛ كان لكل حادثٍ مهما كان تافهاً أهمية الحيوية وهذه «الملحمة» التى شرحت شرحاً فلسفياً فى كتابات اوغسطين ، والتى وضحت من تاريخ اوروزيدس ؛ قد صيغت فى أسلوب أدبى ممتع فى حولية سولبيكوس سفروس Sulpicius Severus (٣٦٣ - ٤٢٣) .

ابتعد المؤرخون المسيحيون بعيداً عن القواعد التى وصفها ثوكيديدس وبوليبوس للمنهج التاريخى فبالإضافة إلى تعصبهم الشديد ضد الوثنية ؛ وهو أمر أدى إلى اعراضهم عن الموضوعية كان لزاماً عليهم أن يبتكروا أسلوبا خاصاً لمعالجة الوثائق ذات الطابع الدينى . حيث رأوا أن تناول المسائل الخاصة بالخلق كما وردت فى التوراة بنفس طريقة النقد التى اتخذها هيكاتيوس نحو الأساطير الإغريقية يعتبر إلحاداً وإثماً لايغتفر . هكذا فإنه لو فرض أن الكتب الدينية حوت مالا يصدقه العقل أو يقبله ، فلابد لتبرير ذلك من إيجاد معنى خفى ، أو تفسير باطنى .

واستجابة لهذه الضرورة حلت المجازات والمعانى الرمزية محل التحليل الناقد والقول الصريح كأسس للمنهج التاريخى . وفى ذلك يقول الاستاذ بير Burr : «حتى الكتب المقدسة لم تحظ بالتقدير بسبب ما احتوته من حقائق تاريخية سطحية فحسب ، وإنما للمعانى الأكثر عمقاً ، الرمزية والخلقية والصوفية التى تكمن وارءها» . وكان أن طور فيلو اليهودى - أحد يهود الاسكندرية - المنهج الرمزى المجازى فى تفسير التوراة . كذلك ظهر المنهج فى الكتابات المسيحية المبكرة ، فى كتاب «سفر الرؤيا» وفى «رسالة برنابا» ، و «راعى هرماس» . وكان الأب أوريجن السكندرى (١٨٦ - ٢٥٥) هو صاحب الفضل الأول فى بث هذا الاتجاه بين الآباء المسيحين . ويقول فرديك كورناولس كونبير أنه طبقاً لما ذكره أوريجن : «نصادف شرائع أو أحداثاً عديمة النفع وتتصف بالاستحالة من هذا النوع ، فإن علينا أن نتجنب تفسيرها الحرفى . وأن نفحص المغزى الخلقى التى هى جديرة بأن تحتوية وكذا المعانى السامية الغامضة التى تتضمنها . وما يمكن أن يكمن وراء رمزيتها من حقائق أكثر عمقا . ولقد دبرت الحكمة الألهية عن قصد الشباك الصغيرة والعقبات ، لتجعلنا نتخلى عن تعلقنا بالفهم التاريخى للمتن ، وذلك بحشر أشياء مستحيلة وغير مناسبة بين طياته ، كى تدفعنا عبارات تبدو لأول وهلة أنها غير صحيحة أو ناقصة إلى البحث عن الحقيقة الكلية . فنتلمس فى الأسفار المقدسة - التى تؤمن أن الله أوحى بها - المعنى الجدير به»[1].

ولقد لقى الاتجاه الرمزى الذى سما فوق النقد قبولا عاماً تقريبا ، لدى الآباء المسيحين الأول ، وتجلى هذا الاتجاه فى الكتب الخالدة الآتية : «كتاب الأخلاق» أو «شرح سفر أيوب» لمؤلفه جريجورى العظيم (٥٤٠ - ٦٠٤) . أو كتاب «الشرح المجازى للكتاب

(1) F.C. Convbeare, A history of New Testament criticism (G.P. Puntam sons 1910) pp. 14-15.

المقدس ، لصاحبه ايزدور الاشبيلي (ت ٦٣٦ م) . وقد عالج فيه في ترتيب زمني الدلالة الرمزية لكل الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . وأصبحت هذه الكتب هي الكتب الأساسية المتداولة في العصور الوسطى عن الرمزية .

ولم يقتصر الأمر على وجود معيارين أو مستويين مختلفين كل الاختلاف لاستخدام الوثائق التاريخية وتفسيرها في أوائل العصر المسيحي ، بل انقسم التاريخ إلى ميدانين حدد كل منهما تحديداً دقيقا . فكان هناك التاريخ المقدس والتاريخ غير المقدس ، فاختص الأول بالجانب الديني ، واختص الثاني بالجانب الدنيوي[2] . وغني عن الذكر أن الجانب الأول كان له الأهمية الكبرى بل الخطيرة في ذلك العصر ، حتى إن اصطناع المعجزات والحديث عنها بات أمراً أهم من الحديث عن قيام اسرة من الأسر الحاكمة . وحرص الآباء المسيحيون على أن يكرسوا جهودهم وأقصى طاقتهم لتفسير الحقائق المشكوك فيها والمتناقضة في الكتاب المقدس تفسيراً مجزياً رمزيا . لكنه كان من المستحيل أن نتصور أحدهم يقوم مثلاً بمثل ماقام به أرسطو من جمع وتحليل محتويات ١٥٨ دستورا .

على انه من الإنصاف هنا أن نشير إلى أن تدهور المدرسة التاريخية تدهوراً ملحوظاً في ذلك الدور من العصر المسيحي المبكر ، لم يكن كله راجعاً إلى الاتجاه المسيحي نحو حقائق التاريخ ومشاكله . فعلى الرغم من الأسباب التي سبق سردها والتي جعلت الكتابة التاريخية المسيحية أقل صحةً وأتزانا من قرينتها الوثنية ، إلا أنه لا يمكن أن ننكر أن الفترة الأخيرة في عهد الامبراطورية الرومانية شهدت اضمحلال الحضارة بوجه عام ، أو أن الانحراف عن المثل والانجازات التي بلغتها الثقافة الكلاسيكية في أوجها كان له أثره على الكتاب الوثنيين والمسيحين على سواء[1] .

المفهوم التاريخي عند المسيحين
تاريخ الأحداث في المسيحية

من الوسائل البالغة الأثر في إزالة الشك من نفوس الناس ، وكسب أنصار لحركة من الحركات ، القدرة على الاستشهاد بماض مجيد . وكان أن أحس المسيحيون بذلك إحساساً عميقا فقبلوا كتب اليهود المقدسة بوصفها سجلاً رسمياً لأسلافهم ، ومن ثم نقد واجهتهم ضرورةٌ ملحةٌ وعاجلة ، هي أن يضفوا على التاريخ العبري القديم منزلةً رفيعة ، وأصالة خرمته

(1) C.F.H.O. Taylor. The Classical Heritage of the MIddle Ages (Macmillan Co. 1911).

(2) J. H. Robinson «Sacred and profane History in Anunal Report of the American Historical Assoc. 1899-1, 527-35.

منها مؤلفات المؤرخين الوثنيين ذلك أن هؤلاء الأخيرين لم يعطوا تاريخ اليهود سوى ذلك القدر الضئيل من الكم والعناية الذى يتناسب وتاريخهم (اليهود) السياسى الهزيل . ولذا يلاحظ على المؤلفين التاريخين اللذين وصفهما ديوردر الصقلى وبومبى تروجس عن تاريخ العالم – وهما دون شك يقومان بكثير أى تاريخ للعالم جمعه المؤرخون الأوائل من الآباء المسيحين – لم يحققا بحال من الأحوال متطلبات الدعاية المسيحية . وكذلك كان شأن المؤلف الذى وضعه يوسيفوس عن التاريخ العبرى العام ، لأنه بالغ كثيراً فى الدور الذى لعبه اليهود ، على حين لم يعط المسيحين سوى القليل من الاهتمام . ومن ثم اتجه الكتاب المسيحيون إلى جمع عناصر الماضى التى أعطت اليهود حقهم فيما ينسب إليهم من أمجاد ، وتوضح فى الوقت نفسة لماذا لم يعد اليهود جديرين بتراثهم القديم ؛ بعد أن ضيعوا ذلك التراث فانتقل مجدهم السالف إلى المسيحين .

وكان أول عمل للمؤرخين المسيحين ؛ هو وضع خلفية تاريخية رائعة للعقيدة المسيحية ، وتدعيم أهمية التاريخ المقدس وعراقته – وأعنى بالتاريخ المقدس هنا التاريخ اليهودى والمسيحى معاً وبذلك غدا التطور التاريخى لليهودية والمسيحية هو المحور الرئيسى فى تاريخ الماضى بأسره ، بينما وصفت الأحداث التاريخية التى احتوتها سجلات الأمم الوثنية فى صورة عرضية ثانوية ، على سبيل المقارنة أمام خلفية التاريخ اليهودى والمسيحى . وقد عبر عن ذلك الأستاذ جورج لنكولن بير فى عبارته الواضحة الرائعة : « إن ذلك التاريخ الطويل الذى أصبح الآن مقدمة لتاريخهم هو تلك القصة الدينية لشعب الله المختار ، بما فيها من معان تشير إلى سلم يعقوب الذى يصل بين الأرض والسماء[1] . ولقد كان « يهوه » محورها وهو الآن إله الأرض كلها وينبغى أن يدور التاريخ كله حول هذه القصة ، فضلا عن الكتب المقدسة التى يمكن عن طريق قدسيتها البالغة الوقوف على ترتيب الله القادر على كل شئ وكان جيروم هو الذى كشف عن ذلك فى تفسيرات « دانيال » وأحلامه القائلة بخروج أربعة حيوانات عظيمة من البحر لكل منها رأس من ذهب وجسم من نحاس . ومن أيامه حتى عهدنا اضطرت الممالك والإمبراطوريات التى تعاقبت على الأرض أن تجد لها مكاناً داخل الإطار . وكان من الضرورى نبذ كل ماحوته الحوليات غير المقدسة من كتابات تناقض الكتاب المقدس ، ثم تنسيق مابقى منها بعد ذلك مع كلمات هذا الكتاب . لقد اعتبرت حياة الإنسان على الأرض سقوطاً ولم يعد من الجائز للعقل البشرى أن يمجد نفسه ، وبذا فإن فيثاجوراس وأفلاطون قد تعلما من موسى ، وتعلم سينكا من بولص »[1] .

وكان أقدم كاتب مسيحى حاول أن يوجد تأريخا مناسبا لماضى البشرية ؛ ويتفق وحاجات العقيدة المسيحية الجديدة ومفهومها هو سكتوس يوليوس الإفريقى ، (١٨٠ – ٢٥٠

---

(١) سفر التكوين ، ٢٨ (١٢) .

(1) G.L. Burr: «The Freedon of History in American Historical Review jan. 1917 pp. 255-60.

ق . م) إذ كتب مؤلفا اسمه «قياس الزمن» chronogrephia فى كتب ؛ لخص فيها ماضى اليهود ، والوثنيين منذ بدء الخليقة حتى سنة ٢٢١ م . وقد أفاد سكتوس الإفريقى مما كتبه الكتاب المختلفون سواء كانوا يهوداً أو وثنيين عن الموضوع نفسه . فكان من بين من اعتمد عليهم : مانيتون ، وبيردسوس ، وابوللو دورس الآثينى ، ويوسيفوس ، وجستوس الطبرانى . وقد وضع هذا الأخير تأريخا يعوزه التهذيب لملوك اليهود . وقد حدد سكتوس الإفريقى فى التاريخ الذى وضعه بداية الخليقة بسنة ٥٤٩٩ قبل المسيح ، كما قرر أن العالم سيظل على حاله خمسمائة سنة بعد مولد المسيح ، يبدأ بعدها العصر الألفى (عصر حكم المسيح ألف سنة على الأرض) . وقد لخص سكتوس الإفريقى أحداث وتواريخ الأمم اليهودية والوثنية فى صورة مقتضبه ، مع إعطاء أهمية خاصة لسجل اليهود التاريخى . ولم تكن الرمزية والخيال فى كتاب أقل وضوحاً من عنايته بالجانب الرياضى فى تقويم الأحداث .

وهناك مؤلف لمؤرخ آخر أوفى من مؤلف سكتوس الإفريقى وأكثر منه تكاملاً وانسجاماً ألا وهو التاريخ الذى وصفه إيوزيبوس بامفيلوس Eusebuis pamphilus اسقف قيصرية (حوالى ٢٦٠ — ٣٤٠) لقد حفز إيوزيبوس على إعداد حوليته هذه ؛ رغبته فى أن يرسم الخلفية التاريخية الزمنية للمؤلف الذى أعتزم وضعه عن «تاريخ الكنيسة» ، وكذلك ليتمكن من إثبات أسبقية موسى على حكماء اليونان وروما .

ولقد كتب ايوزيبوس كتابه قبل عام ٣٠٣ م بقليل ، وأفاد كثيراً من جهود سكستوس الإفريقى السابقة ، وقسم كتابه الأول إلى قسمين أساسين ؛ أولها : قياس الزمن ، وتضمن ملخصاً لطرق حساب الزمن عند اليهود والوثنيين ، وكذا موجز للتاريخ العالمى قام على أساس مقتطفات عن المؤرخين المعروفين فى كل قطر . فاعتمد فى كتابته عن الكلدانين على اسكند — بوليهستور ايدنوس ، ويوسيفوس . وأعتمد فى سرده تاريخ اليهود على التوراه ، وعلى يوسيفوس ، وكلمنت السكندرى . أما ما كتبه عن المصرين ؛ فقد أعتمد فيه على ديودور ، مانيتون ، بورفيرى ، كما أعتمد على كاستور ، بورفيرى ، وديوردرس فيما كتبه عن الإغريق ، وعلى ديونسيوس من هاليكارناسوس وديودور ، كاستور فيما ذكره عن الرومان . وهكذا ؛ نلاحظ أن إيوزيبوس غض النظر أو تجاهل كثيرين من أكفأ المؤرخين الوثنيين وأحرصهم على تحرى الدقة فى زكرهم للحقائق .

أما القسم الثانى من تاريخ إيوزيبوس ؛ ويعرف باسم قواعد حساب الزمن Chronological canons ؛ فهو أهم كثيراً من القسم الأول لأنه يمثل فضل إيوزيبوس الفعلى على حساب الزمن وتأريخ الأحدث . بذلك أنه أورد تواريخ الأحداث فى مسلسلة فى عامود فى منتصف كل صحيفة ، مع أعطاء أحداث التاريخ العبرى أولية خاصه . ثم نسق حوادث التاريخ الوثنى والعبرى والمسيحى ، إلى جانب تلك التواريخ ، وذلك فى

أعمدة متوازية ، معطيا أحداث التاريخ العبرى والمسيحى مكان الصدارة . ووضع أحداث التاريخ المقدس إلى يسار عامود التواريخ ، وأحداث التاريخ الوثنى إلى يمينه .

وتمتد عملية حساب الزمن أو التاريخ الإنجيلى بالقارئ إلى بدء الخليقة ، على حين أن التاريخ المقارن المسهب لم يبدأ حتى الوقت الذى يقال إن سيدنا ابراهيم ولد فيه (٢٠١٦ ق . م) ومنذئذ فصاعداً ؛ قسمت عملية تأريخ التاريخ إلى خمس فترات أو مراحل :

(١) ابراهيم إلى حصار طرواده .

(٢) من حصار طرواده إلى الدورة الاولمبية الأولى .

(٣) من الدورة الأولمبية الأولى إلى السنة الثانية من حكم دارا .

(٤) من السنة الثانية . فى حكم دارا إلى موت المسيح .

(٥) من موت المسيح إلى السنة العشرين من حكم الإمبراطور قسطنطين .

وكما سبق أن أشرنا ، فإن المادة قد نسقت فى أعمدة متقابلة أختلف عددها طبقاً للفترة التى تناولتها . وتبدأ هذه الأعمدة بأعمدةٍ خاصةٍ بالملوك الأشوريين والأنبياء العبرانيين وملوك سيكيون ببلاد اليونان ، ثم الفراعنة المصريين . وتعددت الأعمدة الى حد كبير من الفترة الثانية حتى الرابعة ، ثم تحولت فى الفترة الخامسة أى الأخيرة إلى ثلاثة جداول ، خصصت لليهود والأغريق والرومان ، فى حين تضمنت الهوامش تعليقات إيوزيبوس نفسه . ويلاحظ أنه فى تجميعه وتنسيقه لمادته ، لم يكشف عن جهدٍ كبير وعلمٍ واسعٍ فحسب ، بل كشف كذلك عن قدرٍ كبيرٍ من السذاجة . ولقد أوضح ذلك الرئيس الراحل اندرو هوايت حينما كتب يقول : «بدت فى هذه القوائم أسماء موسى ، والإله باكوس ، . واسماء ديبورة واورفيوس والامازونات ؛ كما لو كانت كلها شخصيات حقيقية لا فرق بين الحقيق منها والخراف . وعلى هذا الأساس نفسه «احتلوا مكانتهم فى التاريخ» .

وكتب ايوزيبوس كتبه بالإغريقية وهى لغة لم يستطيع قراءتها فى ذلك الوقت سوى عددٍ قليلٍ جداً من المثقفين فى الأمبراطورية الغربية ومن ثم كانت هناك حاجةٌ ماسةٌ إلى ترجمتها إلى اللاتينية ، لكى يسهل على المسيحيين الغربيين قراءتها . وقام بهذه المهمة الأب جيروم ، فسارع فى سنة ٣٧٩ م إلى ترجمة تاريخ ايوزيبوس مع اجراء بعض التصحيحات والأضافات . أما كتاب إيوزيبوس (قياس الزمن) فقد ترجمه جيروم دون أن يدخل عليه تغييرات هامة . وأضاف جيروم حقائق كثيرة من التاريخ العام ، وخاصة من التاريخ والأدب الرومانى ، عند ترجمته للجزء المعروف «قواعد حساب الزمن» وكذلك ليجعله أكثر فائدة للغرب . ووصل جيروم بالتلخيص الزمنى للأحداث حتى ٣٧٨ م .

والواقع إن ترجمة جيروم لتاريخ ايوزبيوس ظلت تعتبر المصدر المعتمد فى تاريخ الأحداث بالنسبة للمسيحيين فى الغرب ، حتى راجع هذا التاريخ كل من يوسف جستوس سكاليجر Joseph Justus scaliger فى سنة ١٥٨٣ م ، والأسقف جيمس أوشر James Ushar فى سنة ١٦٥٠ م . على أنه أصبح جزءاً من تاريخ الكنيسة عندما أدخله سولبيكس سيفروس Sulpicuis Severus (٣٦٠ – ٤١٠ م) فى تاريخه ، وكذلك عندما ورد فى كتاب « التاريخ الثلاثى » Historia Tripartita الذى ترجمه رفاقد كاسيودورس .

وكان أن أثر كتاب جيروم تأثيراً كبيراً فى الكتابات التاريخية طوال العصور الوسطى . ذلك أن المؤرخين فى تلك العصور أعتادوا أن يصدروا به رواياتهم عما حدث من تطورات فى بلادهم ، أو فى غيرها من الأجتماع ، وأن يربوطوها بالتالى بما سلفها من أحداث حتى يصلوا إلى بدء الخليقة . ولقد وضع بروسبر الاكوتينى prosper of Aquitaine تكملة لكتاب جيروم ، حيث وصل بالأحداث إلى سنة ٤٥٥ ثم أوصلها الأسقف الاسبانى ايداتيوس Idatuis حتى سنة ٤٦٨ م . أما الراهب الافريقى فكتور تونِنْزيسس Victor Tonnennensis ، فقد أخرج حولية عامة منذ بدء الخليقة حتى سنة ٥٦٦ م . وقام العلامة الأسبانى ايزودور الأشبيلى فى أوائل القرن السابع بكتابه مدونة تاريخية أكتسبت شهرة كبيرة ، بناها على أساس ماقام به كل من إيوزبيوس وجيروم ، ولكنه تأثر كذلك بما كتبه أوغسطين الذى أقتبس عنه ايزودور تقسيم تاريخ العالم إلى ستة فترات ، نسبة إلى الأيام الستة التى خلق الله فيها العالم . وأجمل ايزودور بطريقة زمنية مسلسلة تاريخ البشرية منذ بدأت حتى ٦١٥ م ، ولكنه لم يضف شيئاً جوهرياً إلى ماجاء فى التواريخ السابقة . كذلك كتب القسيس بيدى ((Bade)) مؤلفاً قيماً عنوانه « التفسير العقلى للزمن » De Temporum Ratione عن التاريخ فى القرن الثامن ، وقسم فيه التاريخ منذ بدء الخليقة إلى عصور ستة . وراح المؤرخون فى العصور الوسطى ينقلون الكثير عنه . وكان بيدى أول من أشاع فى تاريخه أتخاذ مولد المسيح حداً فاصلاً بتقسيم التاريخ إلى ماقبل الميلاد وبعده وهو الإجراء الذى نتبعه اليوم ، والذى كان أول من أتى به ديونزيوس اكسيجس Dionysuis Exiguus (ت ٥٥٠ م) .

ويلاحظ أن فكرة المسيحيين هذه عن تاريخ العالم وبناء عناصره ، بغض النظر عما فى تأريخها للأحداث من تصنع ، وترتيبها ترتيبا زمنياً فى جداول متقابلة ، قد تضمنت ظاهرتين جديرتين بالذكر ، وهما عدم تقبل مبدأ الأهمية النسبية للتاريخ العربى ، ثم التعصب الخطير ضد الحضارة الوثنية ، مما جعل النظرة الموضوعية للتاريخ أمراً مستحيلاً . أما عن الأتجاه الأول

فقد قال عنه الأستاذ جيمس هارى روبنسون : «إن هذه الوحدة اللاهوتية للتاريخ ومعناه ، تمت على حساب كل المفاهيم العلمانية ، والدقة فى صحة المعلومات ، وفى ذلك تضحية بالغة . ذلك أن العموريين حظوا باهتمام لم يحظ به القرطاجنيون . وتألق اسم كل من إنوك ، ولوط فى تاريخ لا يكاد يعرف بركليز .»[1] والحقيقة المرة التى يجب أن تعرف بها لثباتها هى أن الأمة اليهودية تدين بدرجة كبيرة ببروزها فى تاريخ العالم إلى هذه التشويهات التى جاءت نتيجة المفاهيم التاريخية الخاطئة لدى المؤرخين المسيحيين الأوائل .

أورزيوس وتاريخ العالم المسيحى

وكان من غير المتوقع أن يستمر آباء الكنيسة الأوائل قانعين بما تم تسجيله فى العصر الوثنى من أحداث تاريخية ، وإنما اشتدت الرغبة فى إعداد تاريخ للبشرية يتم فى ظل المسيحية ، ويتصف بالتنظيم ، ويأخذ طابعاً رسمياً ، على أن يكون هدفه تمجيد المسيحية ، وكان أن تحقق ذلك بعد أن اتهم الوثنيون المسيحيين إلى حد قولهم إن المسيحية هى المسئولة عن المصائب التى حلت بالأمبراطورية الرومانية ، وخاصة بعد أن تعرضت روما للحصار على يد «ألرك» فى بداية القرن الخامس . وقد عهد أوغسطين بالرد على هذا الأتهام الى مساعده المخلص والمثابر «بولس» أو رزيوس paulus Orosuis (٣٨٠ - ٤٢٠ م) ، وهو من مواليد اسبانيا ، ثم أنتقل إلى إفريقية ، حيث صار مقربا لأوغسطين وتتلمذ عليه مدي خمس سنوات . وقبل أن يقوم أورزيوس بجمع مؤلفه التاريخى كتب - بناءً على أقتراح من أوغسطين - بعض أبحاث دفاعاً عن العقيدة المسيحية ضد أقوال المراطقة . أما كتابه الذى نفى فيه عن المسيحية الأتهامات الوثنية ، فقد عرف باسم «سبعة كتب تاريخية ضد الوثنيين» وقد تم جمعه بين سنتى ٤١٥ ، ٤١٨ م .

وأستند كتاب اورزيوس التاريخى على نظرية القديس أوغسطين القائلة بمبدأ أثر القدرة الالهية فى التاريخ ، بمعنى أن التدبير الإلهى هو الذى قرر مصائر الإمبراطوريات الوثنية ، والتاريخ اليهودى والمسيحى على سواء . وأختار اورزيوس أن يضرب المثل ببابل وروما كدولتين وثنيتين ، كان لها أعظم التأثير المباشر على اليهود والمسيحيين ، ولكنه لم يذكر شيئاً ذا قيمة عن مصر ، فى حين أنه أعتبر مقدونيا وقرطاجنة امبراطوريات إضافية ، ساعدت على نقل الثقافة البابلية إلى روما ، وذلك لكى يبرر الرمزية التى تضمنها حلم دانيال والتى نقلها جيروم إلى المفهوم التاريخى المسيحى والقائلة : «بصعود أربعة حيوانات عظيمة من البحر» . وكان

(1) J.H. Robinson: The New History (Machnillan 1912) p. 30.

الكتيب الذى وضعه اورزيوس عن التاريخ ، قائماً على تدعيم وجهة نظر جيروم التى استقاها هذا الأخير من حولية ايوزيبوس . على أن أورزيوس لم يبذل جهداً فى جمع المادة التاريخية لكتابه ، إذ أنه لم يستشر المؤرخين القدامى فى الشرق ، أو المؤرخين الإغريق والرومان . واستعان بمقتبسات لاتينية من هيرودوت ، وليفى ، وتاكيتوس ، ومن شابههم .

ويبدأ أورزيوس كتابه «سبعة كتب تاريخية ضد الوثنيين» نبذة جغرافية عن العالم كما عرفه أورزيوس ، لاسيا تلك المناطق التى عالجها فى كتابه . ثم يبدأ تاريخ الإنسان منذ بدأت الخليقة باقتباس من حولية جيروم . ثم يذكر عجالة سريعة عن التاريخ البابلى . ويأتى على ذكر التاريخ الرومانى المباشر حتى حصار الغاليين لروما وهو الحصار الذى أبدع فى تصويره ووصف ما أحدثه الغاليون بأنه فاق فى شناعته وسوء تخريبه ، ذلك الذى أحدثه ألرك . ثم يأتى على ذكر التاريخ الإغريقى والمقدونى من أيام بركليز إلى هزيمة بيرهوس الإبيروسى . ثم ينتقل أورزيوس إلى الحديث عن قرطاجة ، التى يتناول تاريخها من نشأتها حتى تخريبها . وفى النهاية يتناول أورزيوس تاريخ روما القريب ، فيؤكد تأكيداً قوياً ارتباطه بالكنيسة المسيحية ، ولكنه لا ينسى فى الوقت نفسه أن يسرد الأحداث البشعة التى صحبت اضطهاد الوثنيين للمسيحيين والمذابح التى تعرض لها المسيحيون ، ويصل بالرواية حتى سنة ٤١٧م .

ومن الواضح أن هناك ثغرات كبيرة عن الماضى فى تاريخ أورزيوس . وجاء ذلك نتيجة لاستبعاده بعض البلدان من الاعتبار فى سرده ونتيجة لعمله الغير متكامل ، وهو العمل الذى عبر عن وجهة نظره الخاصة . على أن نقطة الضعف الأساسية التى تؤخذ على كتابه ، لم تكن نتيجة لإجماله واختصاره فيما كتب . وإنما كانت حول الهدف الذى استهدفه من وضع كتابه ، وهو حرصه على إظهار وتأكيد حقيقة هامة ، هى أن كل مالحق بروما من مصائب فى العصر المسيحى ، لا يمكن أن يعادل فى عدده وأثره الهدام تلك المصائب التى مرت بالمجتمعات الوثنية . وهكذا أهمل أورزيوس الجوانب المشرقة للثقافة الوثنية ، وتغاضى عن أبراز تلك الجوانب ، حتى إنه جمع كتابه الذى سماه مصائب تاريخية «Historia Calamitatun» ليبرز فيه صورة لاهوادة فيها عما حواه التاريخ الوثنى من كوارث تضمنت الحروب والطاعون والجوع واهوال الزلازل والدمار الذى حدث بواسطة النار المتطايرة من البراكين والبرق والجليد ، والبؤس الشديد الناتج عن الجرائم التى تحدث فى مثل هذه الأحوال . وعبر عن ذلك الأستاذ روبنسون عندما كتب يقول : «ان كل المنجزات التى تحققت فى مصر واليونان وروما ، اختفت من فكر تلميذ أوغسطين (اورزيوس) فى حين أنه أبرز الآلام التى سادت فى الدول العابدة للشيطان» .

ولكن على الرغم من كل ذلك ، فإنه لاينبغى أن نتغاضى عما فى كتاب أورزيوس العظيم من نظرة بعيدة وبناءة . ذلك أننا نخرج من تاريخه عن الحروب الوثنية وما أحدثته الوثنيون

من مذابح جماعية ، باستطاع أنه يصرف النظر عن شغف طبقة النبلاء بالحروب ، فإن أثر تلك الحروب على العامة كان عميقاً إلى أقصى حد . وأشار إلى أن هناك رواية هامة تروى عن تاريخ العامة القديم كانت الحروب بالنسبة لهم بلاء وشراً مستطيراً . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن علاجه التاريخ الإمبراطورية الرومانية فى الفترة القريبة منه ، يجعلنا نحس بأنه كان على يقين من أنه يعيش فترة انتقال ، وهى الفترة التى تعارفنا فيما بعد على أنها بداية العصور الوسطى . وهو بهذا واتجاهه يكون قد اتخذ خطوة تقدم بها على استاذه أوغسطين أو أى كاتب مسيحى آخر .

ومع مايقال حول الحقيقة التى تنادى بأن مؤلف أورزيوس إنما هو كتاب جدلى ، هدفه الدفاع عن العقيدة المسيحية ، فإن هذا الكتاب صار خير نموذج للعمل التاريخى الذى يعالج العالم القديم الوثنى ، وذلك خلال العصور الوسطى . وكان هذا من سوء حظ دارس التاريخ خلال العصور الوسطى ، لأسباب كثيرة واضحة ، أولها أن الكتاب أساء إلى الأمم الوثنية وثقافتها ، وثانيها : أنه أهمل العناصر البناءة والنواحى الأكثر استقرارا فى التاريخ الوثنى ، وثالثها : أن تناوله للتاريخ القديم جاء مقتضباً وغير متكامل ، سواء بالنسبة للبلاد أو بالنسبة للموضوعات والأحداث . وأخيراً ، فإنه حتى المادة التى أقتبسها لم تكن مما يعتمد عليها ، لأنها جمعت من مصادر غير أصلية ، ثم نسقت حتى تبدو فى صورة عمل مبتكر يفسر التاريخ والأحداث .

التاريخ الكنسى المنسق

إن أعظم إنجازات آباء الكنيسة فى ميدان التاريخ تمت داخل إطار التاريخ المنسق للكنيسة المسيحية . ذلك أن نظرتهم العالمية وإن كانت قد حجبت عنهم كثيراً من الأبعاد والمجالات ، وطمست بعض تفسيراتهم ، إلا أن ذلك لم يعد سوى بالنزر اليسر من الضرر على المدرسة التاريخية ، لأنهم رغم مسلكهم المعادى للوثنية ، ورغبتهم القوية فى الأعتقاد فى المعجزات والخوارق الغير طبيعية ، وعلت كتاباتهم من مسحة تدل على بساطة التقوى والتدين ، وتغليب فلسفة المسيحية على تفسير التاريخ ، فإن طبيعة المادة التى كانوا يعالجونها حالت بينهم وبين أن يشوهوها مثلما شوهوا التاريخ الوثنى القديم . ذلك أن أهتمامهم تركز على الموضوعات الكنيسية ، كما تناولوا بالذكر معاصريهم من كبار رجال الدين ، وإن كان هؤلاء لم يلقوا عند الحديث عنهم من العناية مالقيته الشخصيات التى تناولها الإنجيل .

أما أول المصادر الشبيهة بالقصص عن تاريخ المسيحية فهى تلك التى أكتشفت

حديثا ، والمعروفة باسم لفائف أو سجلات البحر الميت ، وتشمل رسائل القديس بولس الرسول في القرن الأول ، والأناجيل المتقاربة لمتى ومرقص ولوقا ويوحنا ، وهى التى يحتمل أنها كتبت فى الثلث الأخير من القرن الأول نفسه .

وأدق الأناجيل التى يمكن الاعتماد عليها من حيث استقامة الرواية هو إنجيل مرقس - الذى كتب حوالى سنة ٧٠ م ، ولو أن إنجيل لوقا جاء أكثر رونقاً وأكثراقتراباً من أن يكون عملاً تاريخياً . ثم هناك سفر أعمال الرسل ، وهو ماتبقى من التراث القانونى والتاريخى فى القرن الأول ، وقد كتبه نفس الكاتب الذى كتب إنجيل لوقا حوالى سنة ١٠٠ م . وبعد ذلك يأتى الكتاب المسيحيون الذين تولوا الدفاع عن العقيدة المسيحية فى القرنين الثانى والثالث ، وكتاباتهم هى الأخرى مصادر هامة من مصادر المعرفة ولو أنها كتابات جدلية إلى حد كبير .

أما أحد الأعمال الشهيرة من الكتابات التاريخية الكنسية المنسقة فى عهد الآباء الأول للكنيسة ، فهو كتاب التاريخ الكنسى لمؤلفه ايزيبوس اسقف قيصرية ، وهو الذى سبق أن أشرنا إليه بوصفه صاحب التاريخ المعول عليه من المسيحية . وكان ايزيبوس من رجال الدين ذوى المكانة فى الدول ، وصديقاً للإمبراطور قسطنطين وموضع ثقته ، فضلاً عن كونه من رجال المسيحية القدامى المتعلمين . ثم إنه أعد نفسه لمشروعه بمزيد من القراءة ، وسعة الاطلاع ، وكثرة البحث فى مكتبة صديقه وأستاذه وصاحب الفضل عليه «بامفيلوس القيصرى» ، وهو الذى حكم عليه بالإعدام فى الاضطهادات التى قام بها ماكسيموس ضد المسيحيين . ولقد تأثرت نظرة ايزيبوس الدينية بأكبر علماء آباء الكنيسة الشرقيين وهو أورجن السكندرى . ويعتبر كتاب اوززيبوس عن تاريخ الكنيسة رواية لأصول المسيحية وانتصاراتها ، وسرداً لنمو الكنيسة المسيحية وتنظيمها فى عهود الحواريين وآباء الكنيسة الأوائل . والواقع أن ايزيفوبس كان من نوع العلامة اليونانى طيماوس ، ولكن فى قالب مسيحى بمعنى أنه كان عالماً وأثرياً ولغوياً أكثر منه فيلسوفاً تاريخيا . ولقد كان كما وصفه الأستاذ دفاراري Defarrari فى تلك العبارة التى لخص فيها مواهبه وما أسهم به فى ميدان الفكر فقال : «كان ايزيبوس هو أول من أدرك بوضوح المعنى العام لأدب مسيحى استخدم فيه الأساليب القديمة ، فحدد تواريخ الكتاب ، وصنف إنتاجهم ورتبه ، هذا إلى أنه ترجم منهج مدرسة الإسكندرية فى فقه اللغة إلى قالب مسيحى»[1]

وقد عالج ايزيبوس فى سجله التاريخى نشأة الكنيسة فى إيجاز ثم توسع فى ذلك الموجز وفصله تفصيلاً حقيقياً فى كتابه عن التاريخ الكنسى . وأنقسم عمله إلى الأقسام الرئيسية الآتية :

---

(1) In Peter Gulday and church Historians (Kenedy 1926) p. 24.

١ – سلسلة تتابع الأساقفة فى أهم الكراسى الأسقفية .

٢ – أشهر المعلمين والكتاب المسيحيين .

٣ – الحركات الهرطقية وزعماء الهراطقه .

٤ – ماحل باليهود من عقوباتٍ مختلفةٍ نتيجةً لصلبهم المسيح .

٥ – اضطهاد الرومان للمسيحيين .

٦ – الشهداء والمعجزات على أيام ايزبيوس نفسه .

أما وجهة النظر التى سادت الكتاب بأسره فكانت – كما هو متوقع – الدفاع المطلق عن المسيحية ، وإثبات أن التاريخ بأكمله يثبت ألوهية المسيح وصدق رسالته . على أن كتاب ايزبيوس يتضح فيه اعتدال لهجته ، وأتزانه وهدوءه ، مع أنه من أوائل الكتاب المسيحيين ، فضلا عن أنه شهد استشهاد أستاذه وصديقه المقرب «بامفيلوس» على يد حكومة الوثنيين . ويدل كتابه على سعة الأطلاع ، وتعمقه فى البحث . وفى الحق إن كتابه عن التاريخ يعتبر جامعا للوثائق الهامة المختارة فى التاريخ المسيحى الأول صنعت فى هيئة دليلٍ مرشدٍ ومنظم . ذلك أن تاريخ الكنيسة فى نظر ايزبيوس كان «مجموعة من التعالم تورث من السلف إلى الخلف» . ومع أن هذا الوضع بالنسبة لكتاب يعتبر مصدراً مثل كتاب ايزبيوس يجعل قراءته بطيئة ، إلا أن الوثائق التى يتضمنها ؛ لا غنى عنها لكاتبٍ فى عصرٍ متأخرٍ يؤرخ لتاريخ الكنيسة فى عصرها الأول . ذلك أن معظم الوثائق المتعلقة بذلك الموضوع قد ضاعت ، ولا تعثر عليها إلا فى تاريخ ايزبيوس . وهكذا حالت كثرة الوثائق فى كتابه دون أن تجعله مجرد كتاب فى فن صنعة الأدب ، فضلاً عن أن طريقته فى التحليق فوق الأحداث وعدم التركيز فى سردها ، لم تساعد على جعل الصورة التى يعرفها تتصف بالحيوية . وهكذا جاء كتاب ايزبيوس قبل كل شئ ، مرتبطاً بالتعمق فى دراسة تاريخ آباء الكنيسة . وقد راجع ايزبيوس كتابه أربع مرات ، أنتهى به فى المراجعة الأخيرة إلى حوادث سنة ٣٢٣ م .

وفى القرن الخامس أكمل مؤرخو الكنيسة ، سقراط ، سوزمن sozamen ، ثيودوريت Theodoret ، كتاب ايزبيوس المعروف «بالتاريخ الكنسى» . ولكن كان هناك تداخلٌ فى أعمالهم ، إذ تناول سقراط الفترة من ٣٠٦ إلى ٤٣٩ م ، وتناول سوزمن الفترة من ٣٢٣ إلى ٤٣٩ ، وأما ثيودريت فتناول السنوات من ٣٢٥ إلى ٤٢٧ ميلادية . ثم جمع العمل كله وأختصره وترجمه إلى اللاتينية «ابيتانيوس Epithanius» وأخرون معه ، تحت توجيه وإشراف كاسيدورس فى القرن السادس ، ووصلوا بالسرد حتى سنة ٥١٨ ميلادية . وكتب كاسيدورس بنفسه مقدمة للترجمة اللاتينية ، ومن المعتقد أنه أشرف شخصياً على المختصر ، كما

قرر بنفسه المادة التي تختار ونظمها . ويعرف هذا العمل الذي أنتجه كاسيدورس وتلامذته باسم التاريخ الثلاثي ((the Tripartite History)) . وأصبح هذا الكتيب عن التاريخ الكنسي هو الشائع استخدامه عبر العصور الوسطى . وعلى الرغم من كل مايقال عن هذا الكتيب من أنه غير مرتب ، وغير منسق ، وغير دقيق ، وكتيب حوليات ، فإنه يفوق في قيمته العلمية كتاب اوروزيوس عن التاريخ العلماني (الوثني) .

أما الكتاب التاريخي الوحيد عن الكنيسة المسيحية الذي كتب خلال عصر آباء الكنيسة الأول ، وله قيمته الأدبية فهو كتاب « التاريخ المقدس » لمؤلفه سولبيكيوس سفروس (Sulpicuis severus) وهذا الكتاب تاريخ مختصر مشوق للكنيسة يحوى ملخصا لتصور الفكر المسيحي لتاريخ العالم ، ويعتمد على مدونة اوروزيوس التاريخيه . ولقد وصل سولبيكيوس بالأحداث حتى سنة ٤٠٠ م . وكان هدفه من الكتابة استثارة اهتمام جمهور المتعلمين بتاريخ الكنيسة ، وأخرج عمله إخراج القادر المتمكن . وعلى الرغم من هذا كله ، فإن كتيبه ظل منسيا شبه مهمل طوال العصور الوسطى ، اذ طغى عليه وغمره التاريخ الثلاثي ، مع كونه مطولاً وغير مترابط . على أن كتاب سولبيكيوس لم يلبث ان عرف وأشتهر في أوائل عصر الحركة الإنسانية الحديثة عندما قدره الإنسانيون الأوائل لأسلوبه الرفيع .

ولعله من الواضح أن أكثر السقطات في هذا الكتب التاريخية الأولى عن الكنيسة ، هي فشلها في تحليل القوى العميقة والأحداث البارزة المرتبطة بتلك الحركة الدينية التي كانوا يصنعونها . ومرجع ذلك هو اعتقادهم أن المسيحية سادت بفضل من الله وحده . ومن ناحية أخرى ، إلى الحقيقة الخاصة بأن الكتاب جميعاً آمنوا بفكرة وجود قوى خفية ، ومعجزاتٍ وشهداء وقديس .

سير مسيحيه

اعتمد ازدياد نفوذ الكنيسة وتطورها بدرجةٍ كبيرةٍ على جهود المؤمنين بها ورجال الدين . ومن ثم فإنه ليس بالأمر المستغرب أن تحتل السير التاريخية دوراً مشهوراً في علم الكتابة التاريخية في عهد آباء الكنيسة . وكانت أول خطوة في هذا المجال هي الأجزاء الأولى من كتاب ابوزيبوس « التاريخ الكنسي » حيث سرد حياة رجال الكنيسة المرموقين وأعمالهم ، ولكن أول تجميع رسمي للسير المسيحية الشهيرة ، كانت في كتاب « مشاهير الرجال » الذي كتبه جيروم في بيت لحم سنة ٣٩٢ م . وكان سوتنيوس كاتب السير الرومانية قد أخرج كتاباً في سنة ١١٣ م

يحمل نفس العنوان ، حيث رتب فى قوائم كبار الشخصيات فى عالم الأدب اللاتينى مع وصف لهم ، حتى الوقت الذى أصدر فيه كتابه . ويميل الكتاب الوثنيون إلى التقليل من شأن الكتابة المسيحية ، وإظهار المسيحيين على أنهم جهلة وغير متعلمين . وكان ذلك مادفع جيروم إلى التصميم على أن يجمع قائمة بهؤلاء الذين اعتبرهم قد أسروا ضيعاً للكنيسة بأعمالهم الأدبية ، رداً على ادعاء الوثنيين ، وتحداهم بهذه المقارنة فى هذه الكلمات الآتية : «دع هؤلاء الرجال — مثل كلسوس Calsus ، بورفيرى ، جوليان وهم الطلاب المجانين الذين يتهجمون على المسيح ، دعهم وشركائهم الذين يتصورون أن الكنيسة ليس لها فلاسف ولا خطباء ولا أطباء — دع كل هؤلاء يرون قدرات وجهود الرجال الذين أسسوا الكنيسة وطوروها ونحتوها . دعهم يكفون عن اتهام عقيدتنا زوراً وبهتانا ، وبأنها ليس لها ما تبديه سوى بساطةٍ غير فنية ، بل دعهم يعترفون بجهلهم هم .»[1]

ولقد سرد جيروم قائمة الذين اعتقد أنهم كتاب مسيحيون مشهورون . من سيمون بيتر حتى وصل الى سرد اسمه هو ووصفهم فى صورة غير منسقة ويبدو أنه أخذ أكثر من نصف القائمة التى سردها عن ايزبيوس ، وحتى يجعل عرضه مؤثرا على قدر الأمكان ، وممتعاً ، أضاف أسماء بعض الكتاب المراطقة والغير مسيحين مثل يوسيفوس وفيلو ، وجستوس الطبرانى ، ولكنه فى القدر الذى خصصه لكل كاتب ، واللهجة التى عالج بها الموضوع ، أعتمد بصفة أساسية على إحساسه الشخصى تجاه كل كاتب .

ولقد مضى على منوال جيروم ، جنياديوس المنسوب الى مارسيليا (حوالى ٤٧٠ م) حيث جمع مجموعةً من التراجم حملت نفس العنوان الذى أعطاه جيروم لكتابه . وفى بداية القرن السابع الميلادى ، كان الأسقف ورجل الموسوعات الاسبانى ايزدور الاشبيلى (٥٧٠ — ٦٣٦ م) قد وصل بتجميع مادة السير والتراجم حتى العصر الذى عاش فيه ، مستخدماً نفس العنوان . وقد أتم عمله أحد مواطنيه ، هو الديفونسوس الطليطلى (ت ٦٦٧ م) . وفى القرن الثانى عشر مضى هونوريوس الذى ينسب إلى أوتون فى سرد سير رجال الكنيسة حتى عصره . واستمرت العناية بالسير والتراجم خلال العصور الوسطى ، حتى بلغت ذروتها فى الكتاب الذى وضعه يوحنا ترثميوس (١٤٦٢ — ٦٥١٦ م) باسم «الكتّاب الكنسيين» والذى جمع فيه ٩٦٣ ترجمة لرجال الكنيسة . ويبدو طابع السذاجة التى اتصف بها أكثر الساردين للسير تعلماً وإيمانهم بالخوارق والمعجزات ، فى كتاب من كتب جيروم أسماه «حياة بولس الناسك الأول» ، أو فى كتاب اثناسيوس «حياة القديس أنطون» على أن أعظم سيرة ذاتية كتبها فردٌ عن نفسه فى ذلك الدور ، كانت «الأعترافات» للقديس أوغسطين ، وهو الكتاب الذى فاق فى قوة وتأثيره أى كتابٍ آخر .

---

(1) Cited in pierre de Labriolle; History and Literature of christarity (Kmpof 1925) p. 362.

المـــراجع

1- **Shotwell**, Introduction to the History of History cheps xxiv-xxvi
2- **Thompson**, History of Historical writing vol, chaps viii.
3- **E.J. Goodspeed**, Ahistory of Early christian Literature, Uneversity of chicago press 1942.
4- **Miller Burrows:** The Dead sea scrolls, viking 1958
5- **T.H. Gaster:** The Dead sea scrptures, Doubleday 1956.
6- **M.A. Lerson:** The Religion of the Occident philsophical library 1959.
7- **E.F. Scotl:** The Literature of the new Testament, columsia unversty press 1932.
8- **C.J.M. Hayes:** An Introduction to the Sources Relalting to the Germanic Invasions, chaps x-xi Columbia unversity press 1909.
9- **Pater gilday, ed**, church Historians pp. 3-70 kenedy 1926.
10- **Ritter**, die Entwicklung-der-geschichtswissenchaf Book, chap.
11- **Gustav Krüger**, history of Early christion leterature london 1897.
12- **Pierre de Labriotte** History and literature of chistianety kruopf 1925.
13- **A.C. Me Giffert ed**, The Church History of Eusebuis «Nicene and post-Nicene and post-Nicene Fathers».
14- **I.W. Raymond ed**, seven Book of History aginst the Pagans: The Apology of paulus Brisius, columbia Unversity press 1936.
15- **J.C. Ayer**, Sowce Book for Ancent church History, Scribner 1913.
16- **R. L. P. Milburn**, Early christion Interpretations of History Harper 1954.

الفصل الرابع

الكتابة التاريخية خلال العصور الوسطى

وجهة النظر التاريخية خلال العصور الوسطى

أتضح من البحث السابق أن كتابات اورزيوس وكاسيدورس ، كانت المؤلفات التاريخية التى اعتبرت نماذج تحتذى فى الكتابات المسيحية خلال العصور الوسطى ، كما أتضح أن فسلفة آباء الكنيسة للتاريخ لم تحدث فجوةً واسعةً تحول دون استمرار الأساليب المعروفة فى دراسة التاريخ . وفى ذلك كتب الأستاذ بير Burr يقول : « لم تفصل العصور الوسطى ما بين التاريخ وعلم اللاهوت ، بل لجأت للحيلولة دون حدوث مثل ذلك الفصل إلى التمسك بقدرٍ من وحدة الفكر يحقق ضماناً ضد الآراء الهرطقية . وهكذا ظلت نظرة آباء الكنيسة ماثلة فى التاريخ حتى نهاية تلك العصور الوسطى التى عرفت باسم عصور الايمان »

ولقد كان رواد كتابة التاريخ فى العصور الوسطى – مثلما كان الحال بالنسبة لبقية جوانب النشاط الثقافى فى تلك العصور – من رجال الكنيسة فى صورة أخرى ، وإن كان غالبيتهم من الرهبان . واستمرت طوال العصور الوسطى الاتجاهات التى سادت العصر المسيحى الأول ، من إيمان بالخوارق الطبيعية ، وأعتقاد فى الجن ، فضلاً عن عدم اهتمامٍ نسبىٍ بالحقائق التاريخية التى هى مثار اهتمام المؤرخين اليوم ، وخاصة مايرتبط بقيام الدول واضمحلالها ، والحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية (والفكرية التى هى بمثابة العلامات التى تنتهى بها بعض عصور التاريخ ، وتبدأ بها عصور أخرى . و«الملحمة المسيحية » ظل لها وزنها الذى لم يعتريه تغيير طوال اثنى عشر قرناً من الزمان ، وإن كانت قد اهتزت قليلا فى أواخر العصور الوسطى نتيجة لحركة إحياء الدراسات الوثنية فى أواخر العصور الوسطى ، ونمو الحركة الإنسانية ، وماصحب ذلك كله من نقاشٍ وجدلٍ فى عصر النهضة . ومع ذلك فإن الملحمة المسيحية ظلت بمنجاةٍ من أن تتلقى ضربة بالغة العنف ، إلا فى القرنين

السابع عشر والثامن عشر ، حين كشف الربوبيون[1] الإنجليز Deists والفلاسفة الفرنسيون عن ضعف تلك الملحمة وما فيها من تضارب ، وذلك بما أثاروه حولها من نقدٍ في الصميم .

على أن الشئ الجدير بالذكر ، هو أنه حدث خلال القرون التي أعقبت الدور الأول للمسيحية أن شهدت الحياة العلمية تدهورا انعكست صورته على المفهوم التاريخي . ذلك أن كتاب العصور الوسطى لم يبقوا على مثالب العهد المسيحي الأول وعيوبه فحسب ، بل كان يعوزهم أنفسهم معرفةٌ بالعلوم الكلاسيكية ، ومزيدٌ من التعمق في علم اللاهوت ، وهو الأمر الذي كان متوفرا لدى آباء الكنيسة الأوائل . كذلك عبر كتاب العصور الوسطى عن نوعٍ من الثقافة التي ينقصها التهذيب والصقل ، وهو أمرٌ لم يكن هناك مفرٌ منه في الفترة التي أعقبت مباشرةً التخلص من البربرية . ولقد أجمل المؤرخ الألماني الذائع الصيت هنرخ فون سيبل Henrich von Sybel ، الخصائص البارزة لعلم كتابة التاريخ (في العصور الوسطى ؛ في صورة توضح الرباط القوى بينها وبين الكتابة التاريخية في العصر المسيحي الأول ، حيث قال : «ولم يكن في تلك الفترة معيار للأحكام التاريخية ، ولا إحساس بالحقيقة التاريخية ولا النذر اليسر من الحاسة النقدية ، بل ساد مبدأ الحكم المطلق ، والسلطة الدينية التي تحكم دون عائق ، وتمكنت هذه السلطة الدينية من أن تحمي كل ماهو مأثور ومتوارث من المذاهب والعقائد . ثم إن الناس في العصور الوسطى كان يميلون إلى تصديق كل مايقال ؛ بدلاً من البحث للتفرقة بين ماهو حقيقي وماهو غير حقيقي . واتسع أفق الخيال في كل مكان ، وصارت له اليد العليا على العقل والمنطق بحيث لم يصبح هناك فاصلٌ أو تفرقةٌ بين مايجب أن يكون وماهو قائمٌ فعلا ، أو بين الخيال والواقع . كذلك لم تصبح هناك تفرقةٌ بين الحقائق الشعرية والحقائق التاريخية ، فاعتبرت أشعار هومر التي تصور البطولات وتمجدها على أعلى أنواع كتابة التاريخ . وصلت الملاحم ، والأساطير ، والآداب الشعرية ، والشعر التصوري ؛ محل التاريخ ، ومع ذلك فقد ظهر هناك بصيصٌ من نورٍ خافتٍ ينبئٌ عن تطور تاريخي بطئٌ ، حين أخذ المعاصرون يدونون أحداثاً معينةً كبرى ، أو قضايا خاصةً بأشخاص معينين . ولكن أحداً من كتاب العصور الوسطى لم يمنعه ضميره من أن يحيط الأوضاع المحيطة بها لو من المجد العظمة (مستمدة الصور السالفة في سالف العصور والأزمان . ولجأ كتاب العصور الوسطى في تحقيق ذلك ، إلى اصطناع الأحداث ، وتلفيق الأخبار ، وتزوير الوثائق ، دون أن يحاول أحدهم التثبت من صحة الاختبارات المدونة إذ لم يكن هناك داعٍ لذلك ؛ طالما إن ماذكر جاء متمشياً مع الأوضاع القائمة والاعتقادات السائدة ، فضلاً عن تمشيها مع أهداف المعاصرين وميولهم »

---

(١) هم الذين يؤمنون بالرب دون الأديان (المراجع)

وثمة خاصية عامة أخرى للكتابة التاريخية فى العصور الوسطى ، هى سذاجتها الفكرية ، التى يمكن أن تقارن بالمستوى الفكرى عند الأطفال . وقد أكد هذه الظاهرة الأستاذ جورج جوردن كولتون George Gordon Coultor فقال : «يتصف المؤرخ فى العصور الوسطى – إذا ماقورن بالمؤرخ القديم والحديث – بأن له نفس ما للطفل من اهتمام بأمور الناس والأشياء ، ونفس اتجاه الطفل فى الملاحظة والتطور ، بل وكان له نفس الميل إلى الحقد الذى أحيانا عند الطفل نتيجة لما يسمع ويرى ، من ذلك أنه لايمكن الثقة باحصاءات المؤرخ فى العصور الوسطى ، كما كان يمكن أن يغفر له كل خطأ حسبما له من اتجاه عقائدى أو مهنى . هكذا يمكن مقارنة الكتابات التاريخية الصرفة فى العصور الوسطى – أى حتى القرن الثالث عشر الميلادى – بما كتبه الهنود الحمر عن طبيعة حياتهم حيث إننا نجد هذه الكتابات الأخيرة تتصف بالصدق والتزام الحقيقة ، طالما أنه تتعرض للأحداث اليومية المتعلقة بالصيد ، ولكنها فيما عدا ذلك تفتقر إلى القدرة الافتراضية ومحاولة إثباته بالحجة والبرهان . فضلاً عن الربط بين النتائج والأسباب » .

واذا كان من الضرورى أن نعترف بهذه القيود التى عرقلت سبيل الكتابة التاريخيه فى العصور الوسطى ، والعيوب التى اتصفت بها تلك الكتابة عندئذ ، فإنه من المناسب فى الوقت نفسه أن نبين الصعاب التى اعترضت سبيل الكتابة التاريخيه . ذلك أنه صحب انهيار الحضارة الرومانية اضطرابٌ وعنفٌ ، وأصبح التعلم عقيما ، وفقد قدرته الخلاقة وحيويته حتى ذبل تماما ، هذا فى الوقت الذى فقدت كل الكتب الهامة عن التاريخ الكلاسيكى القديم أو فقدت أجزاء منها . وكان لتعصب المسيحين ضد الوثنية وتراثها أثره فى تخريب وإفساد كثير من الكنوز الأدبية التى خلفها العصر الوثنى ، وهو الأمر الذى يتمثل بوضوح فى حريق مكتبة الإسكندرية . هذا إلى أن السفر صار مستعصيا ، باهظ التكاليف ، محفوفا بالمخاطر ، ومن ثم فقد اصطبغت الثقافة بصبغة محلية إقليمية ، واستبعدت تلك النظرة الواسعة عن مجتمع أوربى ، أو مجتمع عالمى . وكان أن أصبح الرهبان وهم الطبقة المتعلمة الوحيدة فى أوربا فى العصور الوسطى ، ومن ثم صاروا بالطبع هم مؤرخوها الوحيدون وإذا كنا ندين لجهودهم وإخلاصهم ، فإن خرافاتهم الدينيه وتطرفهم الدينى ، فضلاً عن تعصبهم العنيف لمكاسبهم ونفوذهم الدينى ، كل ذلك كان سبباً فى تحريف عملهم التاريخى وتشويهه . وإن ما يقال من أن معظم المدونات التاريخية فى الغرب خرجت من الأديرة ، ليس مرده فقط الى أن الرهبان كان لديهم الفراغ مثلما توافرت لديهم المكتبات . ذلك أن رجال الكاتدرئيات مثلاً ، كانوا متعلمين ولديهم مكتباتهم القيمة ، ومع ذلك فشلوا فى إتباع مدونات تاريخيه ، لكن رجال الأديرة كان لديهم الإحساس بأن التاريخ ظاهرة مستمرة ، فضلاً عن اعتزازهم الكبير بنظامهم الديرى ، والدير الذى ينتمون إليه ، والرهبان الذين يعيشون داخله .

وهناك من الاعتبارات الأخرى الهامة ما ينبغي أن توضع فى الحسبان عند الحديث عن الكتابة التاريخيه فى العصور الوسطى ، إذ كان المؤرخون مثل باقى الكتاب فى العصور الوسطى ، لديهم دوافع عديدة تختمر فى أذهانهم ، فضلاً عما كانوا يستهدفونه من تمجيد الرب وكسب رضاه ، ومن هذه الدوافع حرص المؤرخ على إرضاء طموحه الشخصى ، فضلاً عن تمجيد ولىّ الدير وحاميه ، وإظهار الولاء للمجموعة التى ينتمى إليها . أما منهجهم فى الكتابة التاريخية فقد تأثر بتعليمهم واتصالاتهم ، بالإضافة إلى المكتبات والكتب التى أُتيح لهم استخدامها والرجوع إليها ، إذ لم يكن هناك فى تلك الأوقات مصادر مكتوبة موحدة للرجوع إليها عند الكتابة ، مثلما نجد فى هذه الأيام . وقد لعبت الدوافع الشخصية دورها بالنسبة للإقدام على الكتابة . حقيقةً إن كثيراً من المؤرخين فى العصور الوسطى كانوا رهباناً نهضوا بمهام معينةٍ فى الحياة الديرية ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم زهدوا فى تحقيق جاهٍ أو صيت ، عن طريق إنتاج كتابٍ تاريخى له أهميته ، مما يؤدى إلى كسب التقدير والنفوذ الشخصى ، وهى الأمور التى قد يحققها تأليف كتاب فى أيامنا هذه وربما يشكل الدافع الشخصى للكتابة (فى العصور الوسطى) فى صورة حرص الكاتب على اكتساب مناصرٍ أو حامٍ له ، فتمجد شخصاً ما أو أسرته أو أسلافه فى الوظيفة . وظهر تأثير ذلك الدافع بصورةٍ كبيرةٍ فى المجتمعات البيزنطية والإسلامية ، حيث وجد كثيرون من الزعماء الدنيويين الذين قدروا قيمة الإنتاج الأدبى الراقى . وهكذا تأثرت المدونات التاريخيه فى العصور الوسطى بعامل الرعاية والحماية . وإذا كان المؤرخ فى أيامنا هذه يختص عادةً صنفاً معيناً من القراء بكتاباته ، فإن مؤرخ العصور الوسطى كان يكتب أساساً لسيده وراعيه ، أو لمجموعةٍ صغيرةٍ منتقاةٍ من القراء . وهناك نقطة هامة ترتبط بهذه الحقيقة ، وهى أن هؤلاء المؤرخين كانت تربط بينهم بطريقةٍ أو أخرى ، سجلات الأديرة التى اعتمدوا عليها فى الكتابة . ذلك أنهم كانوا أصحاب صفةٍ رسميةٍ فى الأديرة ، ومن ثم فقد كانوا رواد تنظيمات ديرية كبرى . ولم يكن هناك اختلاف فى الميول الدينية بينهم وبين غيرهم من العلمانيين ، فالكل يدين بالكاثوليكية ، ولكنه كانت هناك اختلافات فى المصالح الاقتصادية ليس بينهم وبين العلمانيين فحسب ، بل بينهم وبين الأساقفة ، فضلاً عن رجال الأديرة الأخرى ومن ثم فإن العامل الذى حدا بالراهب إلى التحمس لكتابة التاريخ وهو ولاؤه للجماعة ، كان هو نفس العامل الذى دفعه إلى الدفاع عن وضع المجموعة التى ينتمى إليها . ومن حين لآخر كان هناك من مؤرخى العصور الوسطى من يكتبون أساساً لإشباع دوافع الرغبة فى الابتكار ، ومن ثم ، فقد أخرجوا مخطوطاتٍ جميلةٍ ظهر فيها مدى إعجابهم بمقدرتهم الأدبية . وهناك فى كل عصر من الرجال من أوتى القدرة على التعبير عن مواهبه الخلاقة على هذا النحو .

الكتابة التاريخية خلال فترة الأنتقال
من العصور القديمة إلى ثقافة العصور الوسطى

يتصف تاريخ أوربا الثقافى بحقيقة أساسية ، هى عدم وجود فجوة واسعة بين الحضارة الكلاسيكية ، وثقافة العصور الوسطى ، إذ أخذت الحضارة الكلاسيكية فى الذبول تدريجياً ، بسبب ازدياد الشغف بالبلاغه والبيان ، مع عدم توافر الفكر الخلاق ، والرغبة فى مجرد تفسير كتابات السابقين وشرحها . ثم ما كان من تحول واضح فى الميول الثقافية ، نتيجة لأنتشار المسيحية[1] .

وهكذا بدأت الثقافة فى العصور الوسطى بخلفية محددة ، وإن كانت ذابلة من المعرفة الكلاسيكية ، وهى التى خضعت تدريجياً لمتطلبات الحياة الفكرية . وانعكست هذه الاتجاهات فى الكتابة التاريخيه فى فترة الانتقال من العصر القديم إلى العصر الوسيط . فنى الدور الممتد من عصر ثيودوريك إلى عهد شارلمان ، ظهر مؤرخون عبروا فى كتاباتهم عن بقايا الطابع الكلاسيكى والآخذ فى الزوال ، مثلما عبروا عن الاتجاهات الدينية والسياسية التى سادت مجتمع العصور الوسطى المبكر . وقبل أن نتجه إلى دراسة نتاج العصور الوسطى من حوليات ومدونات تاريخيه نموذجيه ، ربما كان من الأنسب أن نشير إلى بعض أعمال المؤرخين ذات الأهمية النسبية فى تلك الفترة الانتقالية ، على أن نضع فى الاعتبار أن هذه الفترة ليست ذات حدود واضحة المعالم وأن مؤرخيها ليسوا مجموعة محددة تحديداً واضحاً بحيث يمكن تمييزهم تمييزاً واضحاً عن سابقيهم ، أو عن معاصريهم ، أو عن خلفائهم من المؤرخين .

أما أول هؤلاء المؤرخين الذين نرى من المناسب الإشارة إليهم بوصفهم من أكثر الشخصيات أهمية فى تلك الفترة الانتقالية فى مجال الفكر المسيحى فهو ماركوس اوريلوس كاسيدورس Cassiodoras (٤٨٠ — ٥٧٠ م تقريبا) . وقد تمتع بمنزلة رفيعة عند ثيودوريك ، وشغل منصباً هاماً فى بلاط ملك القوط الشرقيين تقرب من رئيس المحكمة العليا . ولم يكن كتابة عن « تاريخ القوط » «History of the Goths» » أقيم ما كتبه فى التاريخ ، بقدر ما كان كتابه المسمى (Variac) وهو مجموعة رسائل

(1) F. Taylor, The Clessical Heritage of the Middle Ages and the Modieval Mind (Mcmillen 1925) VolI.

رسمية ، كتبها عندما كان فى خدمة ثيودوريك ، ولذا فهى وثائق رسمية ذات أهمية نادرة . ومع أنها معقدة ، ويتصف أسلوبها بالبلاغة ، فضلاً عما يبدو فى روحها من نزعة نحو التعالم ، مع الايجاز والتركيز الشديد ، والحرص على اظهار الولاء للثيودوريك وللقوط الشرقيين ، إلا أنها مصدرٌ هامٌ من مصادر المعرفة عن مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا . ذلك أن تلك الرسائل غطت جميع مظاهر النشاط فى ذلك العصر ، سواء من النواحي الاقتصادية ، أو الثقافية ، أو السياسيه ، فضلاً عن العلاقات الخارجية . على أن أكثر أعمال كاسيدورس التاريخيه ذيوعا بين الناس ؛ هو كتابه عن تاريخ القوط الذى وصفه فى أثنى عشر مجلداً ، واستغرق منه الفترة الواقعة ما بين سنتى ٥٢٦ ، ٥٣٣ م . وليست هناك نسخةُ أصليةُ كاملة ، باقية من هذا الكتاب وكل ما نعرفه عنه من معلومات ، إنما يستمد من ذلك الملخص الذى وضعه جوردان ، وهو راهب ضعيف الكتابة . ويبدو مما كتبه جوردان وغيره ، أن كتاب «تاريخ القوط» يتفق مع نفس اتجاه كتاب كاسيدورس السابقة ، من حيث التعبير عن الولاء لثيودوريك والقوط الشرقيين . وقد اعتمد كاسيدورس بصفة أساسية فى الحصول على مادة هذا الكتاب على مؤلف قوطى يدعى أبلافيوس Ablavius . وحاول كاسيدورس أن يعبر عن إعجابه وولائه لثيودوريك ، على أساس تقدير هذا الملك القوطى لثقافة روما اللاتينيه ، مبرراً هذه الظاهرة بترديد الأساطير الخيالية التى تدعى نسبة القوط إلى أصل رومانى ، ثم نسبة الرومان بدورهم إلى طروادة .

وقد سبق أن أشرنا إلى الكتاب المسمى «التاريخ الثلاثى» الذى أعد تحت إشراف كاسيدورس ، وهو ذلك الكتيب الغير سليم ، الغير دقيق فى مادته ، والذى ترجع أهميته إلى اتخاذه فى العصور الوسطى مرجعاً شعبياً عن تاريخ الكنيسة المسيحية .

وسبق أن أشرنا كذلك إلى أن ما نعرفه عن كتاب كاسيدورس عن تاريخ القوط ، إنما هو مستمد مما كتبه جوردان ذلك الراهب القوطى الذى حصل على القدر اليسير من المعرفة والتعليم . ذلك أن جوردان يحظى كتاب كاسيدورس عن القوط فى كتاب أعطاه اسم «أصول القوط وأعمالهم» . وتم وضع ذلك الملخص حوالى ٥٥٠ م . وأخبرنا جوردان أنه استطاع أن يطلع على كتاب كاسيدورس عن القوط لمدة أيام قلائل ، وهو أمر يشك كثيرٌ من الباحثين المحدثين فى صحته . وينحو جوردان منحىً خيالياً فى تناوله لأصل القوط ، وإن كان يبدو منطقيا فى وصفه للأحداث التى عاصرها فى حياته ، ثم إنه لم يكن بالحاقد على الرومان ، كما يتوقع الإنسان من رجل قوطى مثل جوردان ، بل كانت ثقافته وميوله العاطفية ذات صبغةٍ رومانيةٍ كاثوليكيةٍ واضحة ، كما كانت تتحوذ على عقله فكرة الطابع العالمى للإمبراطورية الرومانية ، وهى الفكر التى ربط بينها وبين التوراة فى أحداثها السالفة ، وتنبأ لها بمستقبل زاهر . ومهما يكن من أمر ، فإن كتابات جوردان ينقصها وضوح الأسلوب ، كما تفتقر إلى

عمق المعرفة والذكاء الفكرى .

فإذا ما انتقلنا للحديث عن المؤرخ البيزنطى الذى سجل حروب جستنيان وهو بريكوبيوس Precopius (٥٠٠ — ٥٦٥ م) نجده فاق كل من كاسيدورس وجوردان فى كافة النواحى . وكانت كتاباته باللغة الاغريقية[1] ، وعالج فى كتابه «تاريخ زمانه» History of His own Time . حروب جستنيان ضد الفرس وفى افريقيا وضد القوط . ورغم أنه حاول أن يقلد فى شئ من عدم المهارة كتاب الاغريق مثل ، هيرودوت وثيكوديدس ، فإن بريكبيوس كان كاتبا رقيقاً وحاذقاً . فضلاً عما توافر له من الثروة والتعليم وسعة النشاط ، وهو أمرٌ أتاح له الوقوف على بواطن الأمور ، مما لم يتح لكثيرين فى أيامه . ذلك أنه رافق القائد البيزنطى العظيم بليزاريوس فى معاركه . ومن ثم ، فإن كتابات بروكبيوس جاءت كتابات شاهد عيان ، لكن نقطة الضعف فيه كمؤرخ إنه كان قليل العناية والتمحيص فى استخدام مصادره . هذا إلى أنه فى كتابته كان متحيزاً للإمبراطورية البيزنطية ، كما كان شديد الإعجاب ببليزاريوس . وفضلاً عن هذا أو ذاك ، فقد كان مؤمناً برسالة روما الحضارية ، وبأن الدولة البيزنطية هى التى تنهض بمهمة إتمام هذه الرسالة . وأخيراً ، فإنه حرص على أن يقف موقف المدافع عن أرستقراطية المال والمنصب . ولبروكبيوس كتاب آخر مختصر أسماه التاريخ السرى [Secret History (Historia Arcana] . وهو يتضمن آراءه الخاصة حول مؤامرات القصر الإمبراطورى فى عهده ، والفساد الخلق الذى استشرى فى العاصمة البيزنطية . ويرى بيورى وغيره من المؤرخين أن هذا الكتاب اليوم يحوى قدارً كبيراً من المبالغة والتحيز . وكان أن تشكك بعض المؤرخين فى أن يكون بروكبيوس صاحب القصص التى وردت فى هذا الكتاب ، وإن كان يبدو أن الكتب الشبيهة بكتاب «التاريخ السرى» كانت كثيرةً ومتداولةً فى تلك الأيام . وأنتشر هذا النوع من الكتابة أوقات سيادة الحكم المطلق — مثلما كان عليه الوضع أيام الإمبراطور جستنيان — كنوع من التنفيس والتعبير عن الضيق المكبوت . ومثال ذلك ، ما هو معروف من ان بعض أفراد حاشيه لويس الرابع عشر فى فرنسا ، أفرج ما يشبه التاريخ السرى الذى كتبه بريكبيوس .

وربما كان أكثر من ينبغى الاهتمام بهم من المؤرخين فى تلك الفترة الانتقالية ، هو جريجورى الشهير أسقف مدينة تور (٥٣٨ — ٥٩٤ م) . ذلك أنه كتب أهم مؤلفٍ عن تاريخ الفرنجه فى ذلك الدور الحاسم الذى غزوا فيه غاليا ، وأقاموا دعائم الحضارة الميروفنجية على أساس خليطٍ من عناصر غاليةٍ رومانيةٍ من جهة ، وجرمانيةٍ من جهة أخرى . وقد سمى جريجورى كتابه «تاريخ الفرنجه» . وابتدأه بعرض غير محكم ولا دقيق للعالم منذ القدم حتى

(١) هناك ملخص واف عن بريكبوس أعده J.B. Bury فى الملحق الذى أضيف الى آخر طبعة لكتاب جيبون اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية (المؤلفة) .

القرن الخامس الميلادى . وبعد ذلك انتقل إلى علاج تاريخ الفرنجه من ٤١٧ حتى ٥٩١ م . ومن الملاحظ أن جريجورى عاصر الأحداث التى وصفها فى الخمسين سنة الأخيرة من تاريخه ، ومن ثم فقد اعتمد فى معظم ما يكتب على مصادر أصلية ، استطاع بحكم مركزه أن يطلع عليها لأنه كان من رجال الكنيسة ذوى المكانة والنفوذ ، كما كان صديقاً لكبار رجال الدولة من غير رجال الدين . ثم إنه تنقل كثيراً عبر غاليا ، حتى أصبح اسقفا لتور ، وعندئذ غدا على اتصال وثيق بالحجاج الكثيرين الذين قدموا لزيارة ضريح مارتن التورى .

وتعتبر الفقرات التى كتبها جريجورى التورى عن انحطاط مستوى الدراسات الأدبية فى غاليا بعد غزوات الفرنجه ، وتصميمه على أن يكتب بأسلوب لاتينى واضح بسيط ، يقرأه ويفهمه الرجل العادى المتوسط التعلم فى أيامه ، تعتبر هذه الفقرات من خير الكتابات الأدبية فى العصور الوسطى . ولكن على الرغم مما يظهره جريجورى من تواضع إزاء أسلوبه اللاتينى ، فإن تاريخه يعبر عن موهبةٍ أدبيةٍ شخصيته أكثر مما يعبر عن كتابةٍ تاريخيةٍ سليمةٍ ناقدة . ذلك أنه أحسن عرض الموضوع عرضاً مسرحياً ، وأتصف تاريخه بوجه عام بالطرافة والجمال ، والقدرة على أثارة مشاعر القارئ ، فضلاً عن صورته الزاهية . ومهما تكن أخطاؤه فى الإعراب ، فإن اللغة اللاتينية الدارجة التى استخدمها تبدو مفصلة كثيراً عن اللاتينية الفصحى المنمقة التى استخدمها كتاب مثل كاسيدورس حاولوا محاكاة الأسلوب الكلاسيكى القديم .

وترجع شهرة كتاب «تاريخ الفرنجة» الذى آلفه جريجورى التورى إلى سببين كبيرين ، يأتى فى المقام الأول منهما ، أن هذا الكتاب يعطينا الصورة الوحيدة الموحدة والكاملة تقريباً عن أصل الثقافة الميروفنجية ، التى جاءت نتيجة للمزج بين الثقافات الغالية الرومانية من ناحية ، والفرنجية من ناحية أخرى . ثم يأتى فى المقام الثانى أن هذا الكتاب يصور فى وضوحٍ تامٍ النفوذ المتزايد للكنيسة ، والدور الذى قدر لها أن تشغله فى حضارة العصور الوسطى ، هذا كله فضلاً عما يصوره من سذاجةٍ مطلقةٍ أتصفت بها عصور الإيمان . ذلك أن كتابه جاء مليئاً بالخرافات والمعجزات والكرامات المقدسة . وكان العنصر الذى أدى إلى وجود وحدة فى كتاب جريجورى من أوله إلى آخره ، هو تأكيده أهمية الكنيسة بوصفها المحور الرئيسى الذى دارت حوله الحياة فى غاليا على عصر الفرنجة .

على أن كتاب جريجورى لم يكن سرداً تاريخياً مباشراً دون حيدٍ عن القصد ، وإنما كان مليئاً بالاستطرادات والحكايات والفكاهات ، فضلاً عن المواعظ . واستخدم جريجورى الحوار ليضفى قدراً من التشويق على ما يسرده . ومع ذلك فقد اتصف كل ركنٍ من كتابه بالإخلاص والأمانة ووحدة الفكر . ولا يسع القارئ المنصف الذى لا يؤمن بالمعجزات الدينية والخوارق وما شابهها — سوى أن يعترف بأن جريجورى كان يسعى دائما ليقول الحق . هذا إلى أنه كان حريصاً على أن يطلع القارئ على المصادر الأساسية التى استقى منها معلوماته . وربما

كان أقوى ما امتاز به كمؤرخ قدرته على علاج الشخصيات ، حيث تبدو براعته السيكلوجية ، فضلاً عن قدرته الأدبية ، مما يجعله ندا لتاكيتوس . وخلاصة القول ، فإن جريجورى أمد القارئ الحديث بأحسن الكتب التاريخيه عن فترة الأنتقال من الثقافة الرومانية إلى ثقافة العصور الوسطى ، ويكمن أحد أسباب نجاحه فى ذلك ، فى أنه نفسه كان صورةً حيةً مكتملةً لتلك الفتره الانتقالية . وكان أن اختصر كتاب جريجورى وأكمل حتى ٧٦٨ ميلادية فى حولية فردجاريوس Fredegarius المزيفة ، وهى الحولية التى قام بها ثلاثة مؤلفين أحدهم برجندىّ والثانى من استريا والثالث فرنجى . وتخير فصول هذه الحولية هى التى تغطى السنوات ما بين ٦٣١ ، ٦٤٢ والسنوات ما بين ٧٤٢ — ٧٦٨ . ومع أن مادة هذه الحولية تتصف بعدم التنسيق ، إلا أنها المصدر الوحيد عن تاريخ الفرنجة خلال تلك الفترة ، ومنه نبعث فكرة الأصل الطروادى للفرنجة .

أما عن ايزدور الاشبيلى ، فمع كونه أكثر تعلما من جريجورى الا أن كتابه عن تاريخ القوط الغربين والوندال والسويفى ، لا يمكن أن يرقى إلى درجة المقارنة بكتاب جريجورى «تاريخ الفرنجة» . ذلك أن كتاب ايزدور مختصر ، ومادته غير أصلية وإنما مستقاة من كتابات مؤرخين ومعلقين سابقين . وقد ظهر خيال ايزدور الواسع فى تاريخه ، مثلما ظهر فى بقية إنتاجه الأدبى .

ويكاد يكون هناك إجماع عام على أن أفضل الكتب التاريخية التى ظهرت خلال تلك الفترة الانتقالية هو كتاب بيدى Bede وعنوانه «التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى» . ويزودنا هذا الكتاب بأدق قصة يمكن الاعتماد عليها حول تاريخ وانتصار المسيحية فى انجلترة ، وانتشار الثقافة الانجلو ساكسونيه فى تلك الجزيرة . ويبدأ بيدى كتابه بمقدمة تاريخية عامة غير مبتكرة وسطحية . ثم ينتقل بعدها إلى دراسة جادة تبدأ بوصول القديس أوغسطين إلى انجلترة سنة ٥٩٧ ، وهو الراهب الذى يرجع إليه الفضل فى التبشير بالديانة المسيحية فى انجلترا . ويواصل بيدى تاريخه حتى سنة ٧٣١ م ، وهى نفس السنة التى أتم فيها كتابه . واعتمد بيدى على البحث الدقيق ، فقرأ معظم المصادر الهامة المكتوبة واستشار عديداً من زعماء الكنيسة . وكان أميناً ومخلصاً فى كلامه عن طبيعة المصادر التى رجع إليها ، ومدى إمكان الاعتماد عليها . وبينما سرد الكثير عن الخوارق والمعجزات ، إلا أنه أبدى تحفظاً أكثر من جريجورى المحتوى فى تقبله لها كحقائق تاريخيه يمكن الاعتماد على صحتها . وإذا كان بيدى قد استهدف أساساً من كتابه إعطاء القارئ صورة لأنتصار المسيحية وتنظيم الكنيسة الإنجليزية ، فانه بالاضافة إلى ذلك عالج الأحداث السياسية التى أثرت فى انتشار المسيحية . أو فى التنظيم الكنسى فى انجلتره .

ونتج عن ذلك أن كتاب بيدى لم يمدنا بسجل المسيحيه الانجليزيه فى عهدها الأول فحسب ، بل أمدنا كذلك برواية معتدلة عن التداخل الذى تم بين الحضارة الأنجلو ساكسونيه وبين عناصر الحضارة الوطنية فى انجلترا ، فضلاً عن نشأة المجتمع الأنجلو ساكسونى . ولكتاب بيدى أهمية فى ميدان السير والتراجم ، إذ أنه ضمن كتابه تراجم الكثيرين من القديسين ورجال الكنيسة الإنجليز . واختتم بيدى كتاب بموجز للتاريخ الإنجليزى ، من أيام يوليوس قيصر حتى سنة ٧٣١ م مرتباً ترتيباً زمنياً .

ثم إن «بيدى» لم يكن مجرد سارد مجتهد للأحداث فحسب ، وإنما جاهد وتحمل كثيراً من العناء من أجل رسم إطار محدد لتاريخه . ونجح فى اقامة بناء متكامل محكم التنظيم لما أورده من معلومات . ثم إن كتابه اتصف بالوحدة والاتزان ، فضلا عن أسلوبه اللاتينى الذى جمع بين السهولة والحيوية . والحق أن بيدى كان من خيرة علماء عصره فى غرب أوربا الملمين بالدراسات الكلاسيكية . وإذا كان «بيدى» لم يصل إلى مستوى جريجورى التورى فى طلاوة الأسلوب وتنميق العبارات ، فإنه قد فاقه فى التزامه الفكرى ، فضلاً عن أن كتاباته التاريخيه يمكن الاعتماد عليها بدرجة أكبر من كتابات جريجورى التورى . وهكذا يبدو الاختلاف بينهما شبيهاً بالاختلاف بين هيرودوت وثوكيديدس . وقد تأثرت كثير من كتب التاريخ التى دونت بعد ذلك فى العصور الوسطى تأثراً كبيراً بكتاب «بيدى» «تقييم العصور» وهو الكتاب الذى قسم فيه تاريخ العالم إلى ستة عصور تبدأ بخلق الكون ، وتستمر حتى سنة ٧٢٩ ق . م .

وقام الراهب اللمباردى بولس وارنفريدوس Panles Warnerfridus (حوالى ٧٣٠ – ٨٠٠) وهو المعروف عادة بأسم بولس الشماس ، بوصف ظهور اللمبارديين على مسرح التاريخ الأوربى . وكان بولس هذا رجلاً من رجال الكنيسة الذين أوتوا حظاً طيباً من العلم والثقافة . فقام برحلات واسعة النطاق فى شمال ايطاليا وغاليا ، بصحبة المسئولين من رجال الدولة والكنيسة . وقد كتب كتابه عن «تاريخ اللمبارديين» فى أواخر سنى حياته ، عندما كان مقيماً بدير مونت كاسينو الشهير . ولم يقدر له أن يعيش حتى يكمل كتابه الذى عالج فى ستة أجزاء تاريخ اللمبارديين منذ نشأتهم التى تحيط بها الأساطير حتى سنة ٧٤٤ . واعتمد بولس على عدة مصادر منها ، «أصول شعب اللانجو بارديين»[1] لبلينى . كما رجع إلى الكتابات التاريخيه لسكوندسى الترنتى ، وجريجورى التورى ، ولما كتبه ايسيدور الاشبيلى و «بيدى» ، فضلاً عن تراجم رجال الكنيسة وكتابات جريجورى العظيم . هذا كله بالإضافة إلى المصادر التى حصل عليها من أسفاره ، والمجالات الشفاهية ، وما تواتر لدى الناس مما له

---

(١) اللانجو باردبون هو الاسم الاصلى الصحيح للشعب اللمباردى ، وكانوا يسكنون فى أول الامر فى شمال المانيا غربى نهر الألب (المراجع) .

ارتباط بأصل تاريخي . ولم يتمتع بمقدرة قوية فى ترتيب أو تنظيم هذا الحشد من المادة التى استقاها من المصادر ، فضلاً عن عدم محاولته نقد الأساطير اللومباردية الأولى . ولكن يبدو أنه كان من الناحية الفكرية أميناً ومخلصاً ، بحيث يمكن الاعتماد نسبيا على ما كتبه عن تاريخ اللمبارديين فى عصرهم الأخير . بل إن الاساطير التى أوردها عن العصور الأولى تعكس روح وثقافة هذه العصور .

ولقد كان كما كتب عنه الدكتور بالزانى Balzani : «وان كتاب بولس «تاريخ اللومبارديين» فى علاجه للأحداث الحقيقيه جدير بان يحظى بقدر كبير من الاعتبار والتقدير نظراً لما أتى به من شواهد وأدلة وبراهين لها أهميتها ، بينما نشعر من ناحية أخرى أنه فى تناوله للأساطير يسلك نفس مسلك اللومبارديين ، شأنه فى هذه الناحية شأن والتر سكوت ، عندما كتب بقلمه العجيب تاريخ اسكتلندا الأول كتابةً فاقت ما فعله أى مؤرخ آخر [1] .

لكن هناك نقطة ضعف رئيسية فى كتاب بولس ، هى عدم عنايته بعملية الترتيب الزمنى ، مما أدى إلى خلط كبير فى روايته . ومع ذلك فإنه دون كتابه بأسلوب واضح وغير مفتعل وامتازت بعض فقراته بطابع تمثيلي واضح ، مما جعل لهذا الكتاب شهرته التى أدت إلى انتشاره . ويزيد من قيمة هذا الكتاب أنه حفظ لنا عدة اسماء لمصادر ضاعت ولا نعثر لها على وجود .

أما أول رجل علمانى ألف كتاباً تاريخياً هاماً فى العصور الوسطى ، فهو نيثارد Nithard (٧٩٥ – ٨٤٣ م) الذى تلقى قسطاً طيباً من التعليم ، فى وقت كاد التعليم فيه يكون مقصوراً على رجال الدين . والحق إنه يعتبر أقدر مؤرخ ظهر فى أواخر العصر الكارولنجى . أما من ناحية الأصل ، فقد كان حفيداً غير شرعى لشرلمان ، أنجبه أحد مقدمى الأديرة العلمانيين من إحدى بنات شارلمان . ومهما يكن من أمر ، فقد كتب مؤلفاً أسماه «أربعة كتب فى التاريخ» عالج فيها الحروب الأهلية بين أحفاد شارلمان . وغطى الفترة فيما بين لويس التقى حتى ٨٤٣ ، وتناول بوجه خاص تفصيلات الأحداث فيما بين سنة ٨٣٨ ، ٨٤٣ ميلادية . ويزيد من أهمية ما كتبه نيثارد أنه كان شاهد عيان لمعظم ما وصفه من أحداث ، فضلاً عن أنه أجاد استخدام كل ما رجع اليه من مصادر مخطوطة . واتصفت كتابته بالوضوح ، والاستقامة ، وسهولة الاسلوب ، وبعده عن التلاعب البلاغى . ثم إنه فى كتابته لم يستسلم للاستطراد أو الحيرة عن الهدف الذى يتوخاه بقصد الاستثارة . ومع ذلك فإن كتابه

---

(1) Ugo Balzani: Early chroniclers of Europe: It aly (london 1883), p. 90.

يحظى بأهمية خاصة فى تاريخ اللغة ، حيث إنه مصدرنا الوحيد عن قسم ستراسبورج[1] . ومع أن نيثارد يبدو متحيزاً لشارل الأصلع بقدر ما كان قاسيا فى نقد لوثر الثانى ، الا أن كتاباته التاريخيه حظيت باستحسان المتخصصين من الباحثين الناقدين فى أيامنا هذه . بل إن أحكامه القاسية على لوثر أصبحت أمراً مقبولاً الآن بوجه عام .

أما اينهارد ، الذى عاش تقريباً بين سنى ٧٧٠ ، ٨٤٠ فكان خير كاتب للتراجم فى عصره ، بحيث لم يدانيه أحد فى مهارته . ويعتبر كتابه «حياة شارلمان» من أحسن التراجم التاريخيه الشهيرة فى العصور الوسطى بأسرها . والمعروف أن اينهارد كان له مركزه ومكانته المرموقة فى المجتمع ، إذ كان صديقاً لشارلمان وأحد المسئولين فى عهده ومقدماً على أحد الأديرة . وبذلك توافرت له من طول معاشرة شارلمان ولخليفته من بعده فرصة لم تتح لغيره ليجمع فى سهولة المعلومات الجديدة التى بنى منها ترجمته لحياة شارلمان . هذا إلى أنه جمع بين تلك الفرصة التى أتيحت له ، وقوة الملاحظة الشخصية من ناحية ، وبين ارتفاع مستوى تعليمه بالنسبة لتلك العصور من ناحية أخرى . فدرس الدراسات وتلقى خير صورة من التعليم كان من الممكن أن يتلقاها شخص معاصر ، وذلك فى مدرسة دير فولدا ، ثم فى مدرسة القصر التى زعمها «الكوين» . وقد حذا حذو سوتنيوس فى كتاباته ، خاصة فى كتابه عن حياة أوغسطين. هذا فضلاً عما يبدو من أنه اطلع فى مكتبة دير فولدا على كتابات عمالقة المؤرخين الرومان . ولاشك فى أن مكتبة دير فولدا بالذات ، كانت غنية بالمخطوطات التاريخيه . والحق ان كتاب اينهارد عن سيرة شارلمان ، جاء فى أسلوب لاتينى منمق بعيد عن تلك اللاتينية السهلة التى استخدمها جريجورى التورى فى كتابه «تاريخ الفرنجة» أو عن الأسلوب الفصيح الذى امتاز به كاسيدورس .

ومع أن كتاب اينهارد جاء من مختلف النواحى والجوانب وثيقةً تاريخيةً هامةً لا غنى عنها ، الا أنه لا يخلو من عيوب بارزة . فاذا كان قد حذا حذو سوتنيوس ، فانه كان صورة مشوهةً له ، لأنه فى تصويره لشارلمان قلد سوتنيوس تقليداً أعمى ، مما جعله يصور شارلمان فى قالب أوغسطينى . هذا الى أنه اتهم أتهاما لا يخلو من سند بأنه تخطى أو تعمد إغفال ذكر بعض الحقائق التى لا تشرف سيده شارلمان ، وخاصة فى الأدوار الأولى من حياته . وأخيراً فإنه مع اعترافنا بأهمية كتاب اينهارد ، الا أن هذا الكتاب جاء فى أساسه دعايةً للدولة الكارولنجية . وقد لجأ اينهارد فى محاولته لتأكيد أمجاد العصر الكارولنجى ، إلى المبالغة فى الحط من شأن العصر الميروفنجى وحكامه . وهناك بعض الظن اليوم بأن الميروفنجيين وبصفة خاصة ملوكهم

---

(١) يقصد بقسم ستراسبورج اليمين الذى اقسمه كل من شارل الأصلع ولويس الالمانى فى مدينة ستراسبورج سنة ٨٤٢ بقصد التحالف ضد لوثر . (المراجع) .

الأواخر قد تعرضوا فى التاريخ لسوء التقدير نتيجة للأحكام المستمدة من كتابات اينهارد عنهم . ومع هذا كله فإننا نستطيع أن نقول بوجه عام : إن المؤرخين شهدوا دائماً لاينهارد بان ترجمته لشارلمان تعتبر عملاً فريداً ذا طابع أدبى ، وعرضا تاريخياً للدور المبكر من أدوار العصور الوسطى .

وبعد ، فإننا نستطيع الآن أن نتناول الجانب الأقوى من الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى ونعنى بها الحوليات والمدونات التاريخية ، وقد بدأت جميعها بداية ساذجةً غير متقنة ، ثم تطورت ونمت حتى صارت تمثل الكتابة التاريخية المنظمة التى عرفتها العصور الوسطى .

الحوليات والمدونات التاريخية فى العصور الوسطى

من أهم ما أتسمت به ثقافة المراحل الأولى من العصور الوسطى ، هى ان طريقة « الحوليات » كانت الطريقة الشائعة فى كتابة التاريخ خلال القرون الأولى التى أعقبت انهيار الثقافة الكلاسيكية . وهذه الطريقة – طريقة « الحوليات » كانت هى الطريقة المتبعة فى مصر القديمة وبابل . وقد ظهر هذا النمط من الكتابة التاريخية فى أوائل العصر الكارولنجى ، وليداً للدافع الدينى فيما يتعلق بتحديد عيد الفصح تحديداً دقيقاً . ومن الواضح أن افتقار عامة رجال الدين يومئذ إلى المعرفة الدقيقة بعلم الفلك ، أو حساب الزمن ، جعل ذوى العلم منهم يوزعون على الرهبان والقساوسة جداول زمنية تحوى بياناً بموعد عيد الفصح لعدة سنوات تالية . وقد أدى الخوف من أن يخطأ القساوسة – بسبب قلة حظهم من العلم – فى تحديد موعد هذا العيد مما يترتب عليه تغيير مواعيد الأعياد التالية ، إلى تقرير مواعيد ثابتة لعيد الفصح . ويبدو أن تنفيذ هذه الفكرة بدأ فى نور ثمبيا بانجلترا ، ومنها انتشرت فى باقى انجلترا ، حتى حملها « الكوين » Alcuin معه وأتباعه من الرهبان إلى القارة الأوربية .

وثمة عادة شاعت فى جميع البلاد عندئذ ، هى تدوين – فى الهامش المقابل لكل سنة – الأحداث التى يعتبرها الكاتب مميزة لتاريخ الإقليم فى تلك السنة . وكان ان أمر شارلمان رجال الأديرة فى دولته أن يحتفظوا بحوليات منظمة ومرتبة . ولم تكن هذه الحوليات فى ذلك الدور المبكر من العصور الوسطى – شحيحة المعلومات الى حد كبير ، طالما أنها أشارت الى بعض الأحداث البارزة التى وقعت خلال كل سنة . ولكن ربما أضعف من قيمة تلك الحوليات أن كتابها كثيراً ما حرصوا على تدوين بعض الخوارق غير الطبيعية ، فضلاً عن

الاهتمام الفائق بأحداث – هى فى نظرهم ذات أهمية كبيرة – مثل نقل رفات قديس ، وكل هذه معلومات ذات قيمة ضئيلة للباحث الحديث المشتغل بالتاريخ ، اللهم سوى أنها تكشف النقاب عن المستوى الفكرى لمؤرخ العصور الوسطى ، وتعطينا فكرةً عن ضعف الحاسة التاريخية عنده .

ولقد أوضح الأستاذ هاسكنس هذه الحقائق بعرض بعض الأحداث التى وردت فى السنوات الأولى من حولية سانت جول :

سنة ٧٠٩ م شتاء قارس – وفاة دوق جوتفرد .

سنة ٧١٠ م عام مجدب ونقص فى المحصول .

سنة ٧١٢ م فيضان مرتفع .

سنة ٧١٤ م وفاة « بيبن » ناظر القصر .

سنة ٧١٨ م أنزل شارل مارتل خراب كبيراً بإقليم سكسونيا .

سنة ٧٢٠ م حارب شارل السكسون .

سنة ٧٢١ م طرد ثيو « السكسون » من إقليم اكويتين .

سنة ٧٢٤ م وفرة فى المحاصيل .

سنة ٧٢٥ م فى هذه السنة كان مجيئ المسلمين لأول مرة .

سنة ٧٣١ م مات « بدى » شيخ الكنيسة المبارك .

سنة ٧٣٢ م فى يوم السبت حارب شارل المسلمين عند بواتييه .

ومن هذا نجد – كما لاحظ الأستاذ ها سكنس – أن تلك الحولية أغفلت ذكر موقعة « تور » فى أحداث سنة ٧٣٢ م ، علماً بأنها إحدى المواقع الفاصلة فى تاريخ العالم . ومهما يكن من أمر ، فإنه مع مرور الوقت نمت هذه التسجيلات واتسع أفق كاتب الحولية ، حتى غدت الحوليات سجلاً له قيمته عند معالجة تطور أمة من الأمم ، على نحو ما نجده فى حوليات « روجر أوف هوفندن » التى كتبها فى بداية القرن الثالث عشر وأسماها حوليات التاريخ الانجليزى Annals of English History . ثم ظهرت بعد ذلك حوليات مفصلة قامت على أساس الحوليات الموجزة السابقة .

أما المدونات التاريخيه فترتبط من ناحية النشأة والتطور ارتباطاً مباشراً بالحوليات . ذلك أن الحوليات كانت فى أساسها سجلات سنوية قام بكتابتها بعض المعاصرين . أما

المدونات التاريخية (chronicle) فهي تلخيص لأحداث تاريخية لفترة من الفترات ، يقوم على أساس حولية أو أكثر ، مع الاحتفاظ بالتنظيم والترتيب الزمني للأحداث ، على نحو ما هو متبع في الحوليات التي نقل عنها . وقد يكون بعض ما ورد في هذه المدونات التاريخية من أحداث قد وقع قبل عصر المؤرخ ، ومن ثم فإنه يجمع المادة الخاصة بها بالرجوع الى عديد من الحوليات ، حتى يحقق في كتابه سرداً متكاملاً شاملاً . ولكى يحول الكاتب هذه المجموعة من الحوليات إلى مدونات تاريخية ، كان يلجأ عادة إلى وضع مقدمة — مثل تلك التي وضعها جيروم حين ترجم مدونة ايزبيوس التاريخية — ويستهدف من هذه المقدمة أن تتضمن سرداً لأحداث العالم ، منذ نشأة الخليقة حتى يصل الى العصر الذى يدون أحداثه . وهناك تباين كبير بين المدونات التاريخية بعضها وبعض في العصور الوسطى ، وذلك من ناحية طبيعتها أو من ناحية التأليف ، فبعضها كان حكايات شخصية عن تجارب المؤلف الخاصة ، والبعض الآخر تناول تاريخ البيئة المحلية ، في حين أن بعضها كان سجلاً لدير من الأديرة ، والحياة فيه ، وما كان بينه وبين العالم الخارجي من علاقات واتصالات .

وهناك من المدونات التاريخيه في العصور الوسطى ما أختص بعلاج تاريخ مدينة معينة وما تعرضت له من أحداث ، مثل تلك الحوليات الشهيرة عن لندن ، وفلورنسا ، وجنوا ، وكولونيا . هذا في حين اختص البعض الآخر بحدث ضخم مثل الحروب الصليبية . على أن غالبية المدونات التاريخية المرموقة سمت إلى مستوى العناية بتاريخ إقليم أو بلد معينة ، بل لقد بلغت شجاعة بعض كتابها الى التعرض للأحداث الدولية في أوربا كلها .

وقد أبدى الأستاذ « تاوت »[1] عدة آراء قيمة عن طبيعة المدونات التاريخية في العصور الوسطى ، منها : أن الهدف الأساسي الذى استهدفته هذه المدونات لم يكن إظهار الأسلوب الأدبي « فلم يكن هدفهم بصفة عامة انتاج قطعة إنشائية أدبية ، وإنما كان ذلك الهدف تحقيق حاجة عملية ، وتزويد القارئ بالمعلومات ، أو إثبات قضية معينة » .

والواقع أن كتاب المدونات التاريخيه في العصور الوسطى لم يهتموا كثيراً بتاريخ الماضي القديم ، فتعرضوا له في صورة تتفق وطبيعة مجتمع العصور الوسطى واهتماماته ، بذلك كانت تعوزهم « الحاسة التاريخية » بل لقد بلغ بهم الأمر الى درجة عدم القدرة على إخراج دراسة دقيقة عن فترة من العصور الوسطى سابقة على عصرهم ، فضلاً عن عدم قدرتهم على التمييز بين أهمية مختلف المصادر التي استخدموها في كتابتهم . وهكذا صبوا كل غايتهم على العصر الذى عاشوا فيه وشاهدوا أحداثه بأعينهم ، فوصفوها وصف شاهد عيان ، وحتى في وصفهم

---

(1) T.F. Tout, The Study of Medieval chomicles (London, Green, Co. 1922)

هذه الأحداث لم يجردوا أنفسهم عن الميول الشخصية والنزعات الخاصة . ولما كان معظم هؤلاء المؤرخين من الرهبان ، فإن وجهة نظر الرهبانية وطبيعة اتجاهاتهم كانت هي السائدة . والواقع إن الميزة الكبرى في هؤلاء الرهبان هي أنهم عاشوا حياةً مستقرةً آمنةً سالمة ، وسط ظروف من شأنها أن تساعد على التأليف . ولم يهتم أولئك المؤرخين في أول أمرهم اهتماماً كبيراً بعناوين كتبهم ، فكان يطلق على الكتاب اسم «حوليات» أو «مدونات تاريخيه» . ولكن لم يلبث أن ازداد الأهتمام فيما بعد بعنوان الكتاب ، وصار يراعى فيه نوع من التنميق ، ففي فترة من الفترات صار اسم «زهور التاريخ» هو الأسم المفضل ، وفي فترات أخرى كان اسم «الحوليات العديدة» هو الأسم الشائع لهذا النوع من الكتب التاريخيه .

ومع مرور الوقت اتسع نطاق الحوليات في مضمونها وتفاصيلها وشكلها ، عن طريقة الإيضاحات والزيادات مما عكس صورته على كتب المدونات التاريخيه لتصبح بدورها تاريخاً بالمعنى السليم . وهكذا حتى نجد أنفسنا أمام أنتاج تاريخي في العصور الوسطى ، يعتبر بحق مصادر أصيلة تمدنا بالمعلومات التاريخية عن تلك العصور ، ومن أمثلة هذا الإنتاج مدونة الانجلو ساكسون التاريخية وما كتبه هرمان راهب دير ريختو Reicheneau (ت ١٠٥٤) ، والوقائع العالمية التي كتبها «اكهارد» بدير أوراخ Aurach في أوائل القرن الثاني عشر ، والمدونة التاريخية التي كتبها «أوتو» راهب دير فريزنج (ت ١١٥٨) وأخيراً ، المدونة التاريخية الكبرى التي كتبها ماتيو باريس Mathew Paris (ت ١٢٥٩) .

ولما كان معظم المؤرخين المبرزين في العصور الوسطى من كاتبي الحوليات أو المدونات التاريخيه ، فإننا سنتعرض مرة أخرى لهذا النوع من الكتابات التاريخيه عندما نعالج أهم ما أنتجه عمالقة المؤرخين في العصور الوسطى . ولا يحول هذا دون أن نشير إشارة عابرة إلى بعض الحوليات والمدونات التاريخيه الهامة ؛ التي لا ترتبط ارتباطا قويا باحد مؤرخي العصور الوسطى المبرزين . ولما كان التكوين التاريخي للحولية أبسط من تكوين المدونة التاريخيه ، فإنه كان أمراً طبيعيا ان يأخذ النتاج التاريخي المبكر في العصور الوسطى شكل الحوليات . ولقد تناولت معظم هذه الحوليات العصر الكارولنجي والفترة التاليه له مباشرة . أما عصر شارلمان نفسه ؛ فقد عولج في الحوليات الكبرى التي تنسب إلى ديرلورخ Lorseh ، ثم جاءت تتمة هذا العصر حتى سنة ٨٢٩ فيما يعرف باسم الحوليات الملكية . وأبرز الحوليات التي تناولت الفترة منذ شارلمان حتى القرن العاشر هي حوليات ديرفولدا الشهيرة ، وحوليات ديرسانت برتين . وقد غطت هذه الحوليات الفترة فيما بين سنتي ٨٣٠ ، ٨٨٢ والتي كتبها بعض الكتاب أمثال ؛ برودنتيوس ، وهنكمار الذي ينسب إلى ريمس . وجاءت تتمة هذه الكتابات في حوليات سانت فاست ، التي تناولت قصة العالم منذ بدء الخليقة حتى سنة ٨٨٩ م ، أما

حوليات مبتز ؛ فقد تناولت احداث الفترة من ۸۸۳ حتى سنة ٩٠٣ ميلادية : ومن أهم الحوليات الضخمه التى ظهرت فى أواخر العصور الوسطى حوليات كولونيا الكبرى ؛ والتى مضت بالأحداث حتى ١٢٣٧ م ، ثم حوليات جنوا الشهيرة . وقد تناولت الفترة من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٢٩٣ ميلادية .

أما عن بعض ما يمثل إنتاج العصور الوسطى فى المدونات التاريخيه ، فلدينا بالنسبة لانجلترا تلك المعروفة التاريخيه العامة المودنه باسم الأنجلوساكسون وهى من الكتب القليلة التى دونت باللغة الدارجة ، وتناولت الأحداث التاريخية حتى ١١٥٤ ميلادية ، وإن كانت أهميتها تتناقص عندما نتعرض للفترة التى أعقبت الغزو النورمانى لانجلتره . هذا بالإضافة إلى مدونه فلورنس التى تنسب إلى وركستر Worcester ، والتى لها أهميتها فيما يتعلق بالفترة التى تبدأ بالغزو النورمانى حتى حكم إدوارد الأول . وثمة مدونه اسمها أعمال « استفن » كتبها أحد رجال الكنيسه وتعالج الملك ستفن . أما عن مدوّنه سانت البان التاريخة ؛ فهى على جانب كبير من الأهمية وتعالج الأحداث ، بين سنتى ١٢٥٠ ، ١٤٢٢ م .

وإذا ما انتقلنا إلى فرنسا وجدنا أنفسنا أمام عديد من المدونات التاريخيه العامة ؛ وقد تناولت الأحداث التاريخيه حتى ١٠٤٩ م ، ومدونه سانت دنيس الشهيرة ، التى دونت فى الدير العظيم الذى يحمل نفس الاسم بالقرب من باريس ، وتناولت الفترة من ١٢٥٠ حتى ١٣٨٠ م .

أما عن المدونات التاريخيه فى العصور الوسطى فى كل من المانيا وايطاليا ؛ فمعظمها كتبه بعض كبار مؤرخى تلك العصور ، ممن سنتعرض لهم بالحديث بعد قليل . والواقع ان المدونات التاريخية فى أواخر العصور الوسطى صارت بشكل مألوف إما مدنية ؛ أى تتكلم عن الاحداث التى تدور حول مدنية ذاتها ، أو وطنية قومية . ومثال ذلك المدونة التاريخيه Chronicle of London التى كتبت بالفرنسية عن لندن ، والتى تناولت الفترة ما بين السنه الرابعه والأربعين من حكم هنرى الثالث حتى السنه السابعة عشر من حكم ادوارد الثالث . وثمة مدونة أخرى كتبت بالإنجليزية ، وحذت حذو المدونة السابقة ، وقد جمعت مادتها فى عهد الملك هنرى السادس ، وتناولت الأحداث من عهد هذا الملك حتى عهد ادوارد الرابع . هذا فضلاً عن مدونة فلورنسا ، وهى مدونة قيمة تنسب إلى دينوكامبانى Dino Capagni (١٢٦٠ – ١٣٢٣ م) . أما عن باقى المدونات التاريخيه العظمى التى ترجع إلى العصور الوسطى ؛ فإننا سنشير إليها عند حديثنا عن المؤرخين البارزين فى تلك العصور

وقد فرقت بعض المؤلفات عن علم كتابة التاريخ فى العصور الوسطى مثل كتاب العلامة البارز ريجنالد لين بولْ Regnald Lane Poole — بين كتب المدونات التاريخيه فى العصور الوسطى وبين كتب التاريخ بمعناها المعروف ، وبنوا هذه التفرقة على أساس جودة ماتحتويه من مادة . فإذا كان الأثر التاريخى الذى يرجع إلى العصور الوسطى مجدباً وصعباً فهو من المدونات التاريخيه ، أما إذا كان سلس الأسلوب ومسلياً ، وتتصف أحكامه بالنزاهة والجدية ، فهو فى هذه الحالة تاريخ . وفى ذلك يقول الاستاذ «بول» مقتفيا أثر كتاب العصور الوسطى وهو «جريتز» المنسوب إلى كانتربورى : «يتفق المؤرخ مع كاتب المدونة التاريخيه فى أن كلاهما يستهدف هدفا واحداً ، ويستخدم نفس العناصر فى بناء مادته . ولكن يبدو الخلاف بينهما فى طريقة معالجة الموضوع ، وفى شكل الكتابه ، إذ يتبع المؤرخ أسلوباً واضحاً مهياً ، فى حين يستخدم صاحب المدونة طريقةً مبسطةً موجزة . وبينما يستهدف المؤرخ سرد الحقائق كما حدثت فعلاً مستخدماً أسلوباً أدبياً ؛ وبذلك يدخل السرور على قلوب القراء بما يقدمه لهم من أوصاف شيقة للرجال والتقاليد ، إذ بكاتب المدونه يقصر مهمته على سرد السنين وذكر الشهور والأيام ، مكتفياً بالاشارة فى إيجاز إلى أعمال الملوك والامراء ، وتسجيل الأحداث والنذر والمعجزات»

ومع أن هذا القول قد يبدو طريفاً ، إلا أنه لا يمكن الاخذ به تماماً وخاصة فيما يتعلق بذروة العصور الوسطى . ذلك أنه قد يكون صحيحاً عند المقارنه بين كتب المدونات التاريخيه فى أوائل العصور الوسطى وفى أواخرها ، أو حين المقارنه بين مجرد جامع للمعلومات وبين كاتب يتمتع بحاسة فلسفة التاريخ . ولكنه من الصعب علينا عندما نجد قصةً جافة أن نقول عنها : إنها من كتب المدونات التاريخيه ، وعندما نجد قطعةً أدبيةً ممتازةً من التاريخ ترجع إلى العصور الوسطى نقول : إنها تاريخ وليست مدونه تاريخه وربما كان أقرب إلى الصواب أن نقول : إننا نلمس الكتابة التاريخيه الحقه فى العصور الوسطى عندما يخرج الكاتب عن طريقة الحوليات واتباع نظام السنوات فى سرد الأحداث ؛ إلى حيث ينظم مادته العلمية تنظيماً موضوعياً وفقاً لوحدة الموضوع ، أو لعهود الملوك والحكام . ولم يكن ذلك قبل نهاية العصور الوسطى عندما ظهرت الطريقة الموضوعية فى كتابة التاريخ فى صورة منظمة ، وكان ذلك فى حالات نادرة مثل كتابات ميكافيللى . أما الكتابات التاريخية التى ظهرت فى العصور الوسطى ، والتى قامت على أساس عهود الملوك والحكام ، فليس لها إلا القليل من الروح التاريخيه ، حيث إنه قام بها النسابون .

وهكذا يبدو لنا أن معظم المؤرخين فى العصور الوسطى كانوا بصفة أساسية من كتاب المدونات التاريخيه الذين اتبعوا طريقة السنين فى تنظيم عرض الأحداث ، ولم يستطع الخروج

عن هذه الطريقة سوى عدد قليل مثل ، روجر المنسوب إلى هوفدن Hoveden ،
وما تويو باريز ، وفيلها ردوان ، ولامبرت المنسوب إلى دير هرسفلد ، وآلهارد المنسوب الى
اوراخ ، واوتو المنسوب الى فريزنج Otto of Freising . وحتى هؤلاء الكتاب كانوا اساساً
إخباريين من كتاب المدونات التاريخيه ، مع شئ من اتساع الأفق وشمول وجهة النظر مما
ميزهم عن معاصريهم . ولذا فإن معظم كتاباتهم قامت على أساس علاج الأحداث سنة بعد
أخرى .

بعض زعماء المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى

تبدأ كتابة التاريخ فى انجلترا العصور الوسطى بكتاب تعلوه مسحة من الكآبة ، كتبه الراهب الصريح جيلداس Gildas (٥١٦ – ٥٧٠ تقريبا) والمعروف باسم « شكوى بصدد تخريب بريطانيا » وقد كتب هذا الكتاب بلغة قوية ؛ على الرغم من أن أسلوبه اللاتينى كان يمثل نوعاً عتيقاً بالياً من بلاغة شيشرون . ويتعرض الكتاب لتمزق وانهيار الثقافة الانجليزية نتيجة للغزو الانجلوسكورنى لذا يعتبر هذا الكتاب المصدر الوحيد الدائم الذى – يمدنا بمعلومات عن تلك الفترة . وتتضح نظرة جيلداس وتقديره للأمور من وصفه لنزول السكون على أرض انجلترا ، إذ يقول ؛ ثم تدفق من عرين اللبؤة المتوحشه أشبال كثيرون فى ثلاثة صنادل كما يسمونها فى لغتهم ، أو ثلاث سفن طويلة كما نسميها نحن فى لغتنا ، وقد نشرت أشرعتها على سطح الماء ، يصحبون منهم ما يتفاءلون به ، والنبوءات التى بشرتهم بأنهم سيحتلون الأرض التى اعتادوا أن يترددوا عليها عن طريق البحر طوال ثلثمائة عام ، وأنهم سيقضون فيها نصف هذه المدة ، أى مائة وخمسين عاما ، ينهبونها ويدمرونها ويسلبون خيراتها »[1]

ومع أنه لا يمكن الاعتماد على التفاصيل التى ذكرها جيلداس فى قصته ، إلا أن معظم المشتغلين بالدارسات التاريخيه اليوم يتقبلون الصورة العامة التى رسمها لحالة الاضطراب والفوضى التى صحبت الفرد التيوتونى لانجلترا ، ولو أنهم يرفضون الأخذ بما قاله جيلداس ؛ من أن ذلك الفرد ترتب عليه تدمير الثقافة التى كانت سائدة بانجلترا قبل الغزو الأنجلو سكسونى تدميراً شاملاً .

ويتمثل المصدر الرئيسى للفترة التى تلت تلك التى تناولها جيلداس ، فى تاريخ « بيدى » Bede الذى سبق أن ناقشناه آنفا . هذا فى حين تغطى مدونة الأنجلو ساكسون التاريخيه بقية العصر الانجلو ساكسونى فى انجلترا .

---

(1) Janes Gairdner, Early chronicles of Europe, England (London 1883) p. 6.

أما تاريخ الكنيسة الانجليزية من عهد إدجار إلى هنرى الأول ، بما فى ذلك العلاقة بين الدولة والكنيسة ، فقد عالجه راهب من كانتربورى عاش بين سنتى ١٠٦٠ ، ١١٢٤ م تقريبا ، اسمه (ايدمر) وسمى كتابه «تاريخ زمانه» . وهذا الكتاب الذى يقع فى ستة مجلدات يعتبر مصدراً لا غنى عنه للموضوع وللعصر الذى تناوله . ويتصف أسلوبه بالرقى والوضوح ، وإن كان قد تحامل على وليم الثانى عندما عالج علاقته مع الكنيسة . وثمة كتاب آخر يعتبر إضافة هامة لتاريخ الكنيسة فى انجلترا ، ونعنى به كتاب «تاريخ كنيسة درهام» الذى ألفه سيمون أسقف درهام (ت ١١١٩ م) . وقد كتب درهام كتاباً آخر أسماه «تاريخ الملوك» تناول فيه تاريخ نورثمبريا من سنة ٧٣١ م وهى بداية السنة التى توقف عندها المؤرخ «بيدى» . وإذا كان هذا الكتاب تجميعاً لما جاء به المؤرخون السابقون ، فإنه مع ذلك يحوى كثيرا من المعلومات القيمة .

على أنه ربما كان أقدر المؤرخين الانجليز الذين يمكن الاعتماد على كتابتهم فى العصور الوسطى هو وليم راهب دير مالمسبورى ، الذى عاش بين سنتى ١٠٩٦ ، ١١٤٣ م تقريبا ، وكتب كتاباً كبيراً أسماه «أعمال الملوك الإنجليز» عالج فيه الأحداث التى بدأت بالغزو السكسونى لانجلترا حتى سنة ١١٢٨ م ، ثم أكمله بكتاب آخر أسماه «التاريخ الحديث» تناول فيه الأحداث التاريخية حتى سنة ١١٤٢ م . ولما كان وليم ينحدر من أصل نصفه انجليزى ونصفه نورمانى ، فإنه استطاع أن يحتفظ بقدر كبير من التوازن عند علاجه للعصر السابق للغزو النورمانى والعصر التالى له ، وهو ما جعله يزهو بنفسه . والواقع إنه قلّ أن نجد بين مؤرخى العصور الوسطى من يدانى «وليم» فى وعيه عند استعانته بمختلف المصادر التى أمكنه الرجوع إليها ، إذ يبدو أنه لم يترك مصدراً بارزاً أمكنه الرجوع إليه الا ورجع اليه قبل أن يكتب كتابه . ومع ذلك فإنه لم يكن مجرد جامع مادة بطريقة جافة ، فلقد أحسن تنظيم كتابه ، وتوفر لديه من رقى الذوق ورقة الحس ما جعله ينجح فى تصوير الشخصيات تصويراً طيباً وافر الدقة . وإذا كانت أحكامه التاريخية تنم عن تبصر وذكاء غير عاديين ، فإنه أظهر مقدرة كبيرة فى تتبع تطور نظم الحكم . هذا فضلاً عن أنه[1] أسهم بصورة جدية فى خدمة تاريخ انجلترا الكنسى ، بأن ألف «قصة الكنيسة الانجليزية» وهو الكتاب الذى استعرض تاريخ انجلترا الأسقفى والديرى حتى سنة ١١٢٥ م ، محاكياً فى غير دقة تاريخ «بيدى» .

وهناك مؤرخ عاصر وليم وأبرز قدرة على النقد واستقلال الرأى ، هو هنرى هانتنجدون («Henry of Huntin gdon») الذى عاش ، بين سنتى ١٠٨٤ ، ١١٥٧ م تقريبا . وعالج فى كتابه «التاريخ الانجليزى» تاريخ انجلترا حتى تتويج

---

(1) Gairdner p. 99

هنرى الثانى سنة ١١٥٤ . وقد أحب هنرى مهنته كمؤرخ ، وآمن بأنها مهنه ذات فوائد عملية فكتب يقول : «ليس هناك فى هذا العالم ما هو أعظم متعة من العمل على استقصاء شئون العالم فى دقة . إن التاريخ يجعلنا ننظر إلى الماضى وكأنه فى الحاضر ، ويساعدنا فى الحكم على المستقبل بتصويرنا للماضى أمام أعيننا»[1] . ثم أن هنرى تحققت له المقدرة على نقد وموازنة كل الأساطير والمعجزات التى تنسب الى القوى الغير طبيعية ، مع الجرأة على إبداء التشكك فيها ، مما لم يتوافر لأى مؤرخ آخر فى عصره ، وذلك كله بالاضافة إلى كونه (مؤرخاً دقيقاً ومتزناً ممتع الأسلوب . وقد شهد عصر هنرى الثانى مولد أول كتاب باللغة العامية الدارجة فى ذلك الحين ، وهو الكتاب الذى كتبه «ما ستروبز» المنسوب الى جيرس Master Wace of Jersey وقد كتبه نظماً ، أشبه بسائر الكتابات الوطنية التى كتبت باللغة الدارجة عندئذ . ويفوق هذا الكتاب فى أهميته بكثير ما كتبه بعد ذلك عن تاريخ انجلترا حتى سنة ١٢٧٠ روبرت المنسوب الى جلوكستر ، وهو كتاب كتب باللغة المحلية الدارجة . ويعتبر مصدراً هاماً عن تاريخ انجلترا ما بين سنتى ١٢٥٦ ، ١٢٧٠ م ، فضلا عن أهميته بالنسبة لفقه اللغة الانجليزية .

ثم نأتى على ذكر كتابى جرفيس المنسوب الى كانتربرى ، فى أواخر القرن الثانى عشر تقريبا وهما «المدونة التاريخية ، والمنجزات الملكية» . وقد أمدنا هذان الكتابان بمعلومات هامة عن الصراع بين الكنيسة والدولة ، كما أنهما من المصادر الأساسية عن الملوك النورمان الأواخر ، وقيام البيت الأنجوى (اسرة بلانتاجنت) فى حكم انجلترا ، حتى عهد الملك حنا . وإذا كانت كتابته ينقصها جودة الأسلوب ، فإنها تدل على جهد كبير وتجميع حى ، وتحوى قدراً كبيراً من المادة التى يمكن الاعتماد عليها .

أما المؤرخ النورماندى الشهير اوردريكوس فيتاليس (١٠٧٥ تقريبا - ١١٤٣) فكان راهبا ، ولد بانجلترا ولكنه قضى معظم حياته فى نورمنديا . ومن ثم فإنه يعتبر مؤرخا انجليزيا وفرنسيا فى آن واحد . ويعتبر كتابه «التاريخ الكنسى» تاريخا مجملا للعالم من وقت المسيح حتى أيامه ، وإن كان لم ينهج نهجا تفصيلياً إلا فى الفترة التى أعقبت الغزو النورماندى لأنجلترا . ويعالج المؤلف فى هذا الكتاب شئون النورمانديين ، لا فى نورماندى فحسب ، بل فى إيطاليا وصقلية أيضا . هذا الى أنه ضمن كتابه كثيراً من الجوانب السياسية ، على نحو أكثر مما فعل «بيدى» فى كتاباته . على أن هناك مآخذ عديدة تؤخذ على أوردريكوس فى كتابته ، منها ، أنه لم يوفق فى رسم خطة عامة محكمة لكتابه ، مثلما فعل «بيدى» . ثم إن عمله جاء غير متناسق ، ينتقل من نقطة الى أخرى دون تخطيط أو نظام ، الأمر الذى أوقعه فى التكرار والتناقض . هذا الى أنه لم يهتم بمراعاة الترتيب الزمنى ، مما أوقعه فى أخطاء تسبب للقارئ ارتباطا كبيرا . أما أسلوبه فى الكتابة فيغلب عليه التعقيد والتحذلق . ومع كل ذلك فانه يحتل مكانة هامة

كمؤرخ ، بسبب بعد نظره واتساع أفقه ، وتعرضه لعديد من الجوانب فى بحثه .

وقد قال عنه الاستاذ شارل دافيد David : «إنه لا يوجد مؤرخ آخر معاصر يدانيه فى اتجاهاته الإنسانية الكبيرة ، أو فى حاسته لاستقصاء أدق تفاصيل الأمور . لقد اهتم بكل ما هو جديد وكل ما هو إنشانى سواء فيما يتعلق بالأمور المحلية الخاصة بالدير الذى عاش فيه ، أو فيما يتعلق بالأحداث البعيدة فى انجلترا وايطاليا أو الشرق ، مرية كانت تلك الأحداث أوكنيسة أو دينيه أو أدبيه أو فنيه . وقد أولى الشعوب اهتماما خاصا ، فرأى ونفذ الى حياة كافة الطبقات ، بحيث لا يوجد كاتب آخر فى عصره بلغ تلك الدرجة من الاقتدار فى تصوير الصبغة المحلية»[1].

أما عن عصر ريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، فان المؤرخ الانجليزى الرئيسى الذى نعتمد عليه فى دراسة تلك الفترة ، هو «ريتشارد» المنسوب الى مدينة ديفزيس Richard of Devizes (حوالى ١١٩٠ م) . وقد عرف هذا المؤرخ بروح اللامبالاة وعدم الاكتراث . وجاء كتابه دقيقا ومتعمقا ، كما أنه نجح نجاحا بارعا فى تصوير روح ذلك العصر ، وله أهمية خاصة فى تصويره الانفعالات والأحاسيس التى صاحبت الاستعداد للغزوة الصليبية الثالثة ، وفى تصوير أحوال الدولة بعد أن تركها الملك ريتشارد متجها الى الشرق على رأس حملته الصليبيه . هذا وإن كان أسلوب ريتشارد جاء متكلفا بعض الشئ ، واختلط كلامه بالكثير من الاقتباسات عن الأقدمين ، واذا كان ريتشارد قد عنى بوصف الأوضاع السياسية والحربيه فى عصره ، فان الصورة التى رسمها أتمها كاتب انجليزى آخر هو جوسلين ، المنسوب الى بريكلاند (حوالى ١٢٠٠) وهو الذى كتب سجلا لدير سانت ادموند سبورى . ويعتبر هذا السجل فى حد ذاته دراسة فريدة للأحوال الاجتماعية والحياة الديرية فى انجلترا فى القرن الثانى عشر . هذا الى أنه مصدر قيم لا غنى عنه للوقوف على النظم الإدارية المتعلقة بالأديرة فى العصور الوسطى . ثم إن جوسلين أثناء كتابته أثبت مهارة نادرة فى كتابة سيرته والترجمة لنفسه ، وبذلك أعطانا صورة حية لأفكار وأعمال راهب مجد قدير .

وثمة مؤرخ آخر لايدانية أحد فى انجلترا فى العصور الوسطى من ناحية قدرته على الخداع ، هو جوفرى المنسوب إلى مونماوث (١٠٠ م — ١١٥٤ م تقريبا) ، أنه بلغ من خداعه أنه زور الحقائق الخاصة بأصل وطبيعة كتابه وتاريخ ملوك انجلترا ، فادعى أنه ترجمه إلى اللاتينية عن أصل أنجلو سكونى قديم غير معروف ، يتناول تاريخ بريطانيا فى أيامها الأولى — ومن أعماله القبيحة الذائعة الصيت ، الأسطورة التى زعمها عن الأصل الطروادى للشعب الإنجليزى . على انه مهما تكن القيمة التاريخية لكتابه تافهة ، فإن لهذا الكتاب أهمية من

(1) In Guilday, Church Historians pp. 121-22

ناحية تأثيره على أدب الفروسية والبطولة فى انجلترا . فمن كتاباته بالذات اقتبست بعض القصص الشهيرة مثل ؛ الملك لير ، والنبى الساحر مرلين ، فضلاً عن معظم القصص الخرافية عن الملك آرثر .

ولقد هاجم جيرالدوس كمبرنسس Giraldus Cambransis (عاش ما بين سنتى ١١٤٦ - ١٢٢٠ م) جيوفرى ، ووصفه بأنه كذاب أفاك ، ولكن جيرالدوس نفسه حشا كتابه عن غزو ايرلندا - وهو الكتاب الذى أسماه «التاريخ التنبؤى لغزو الجزيره» - بكثير من المعجزات والأعمال الخارقة للطبيعة . وعلى الرغم من تعصبه لوطنه وخياله الواسع ، وسذاجته ، فإن كتابه من خيرة الكتب فى العصور الوسطى بالنسبة للموضع الذى تناوله ، فضلاً عن أنه كان أحد الموهوبين بلاغة الأسلوب بين كل المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى ، فامتاز أسلوبه بالوضوح والبساطة والبلاغه ، مع قدرته الممتازة على تحليل الشخصيات والسلوك ، وهى خاصية ميزته على أقرانه من المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى . وقد تضمنت كتابات جيرالدوس كثيراً من المعلومات عن السلوك والعادات والتقاليد والمشاهد العامة . هذا فضلاً عن أهتمامه بالجغرافيا التاريخية كما وضح ذلك فيا كتبه عن «طوبوغرافيه ايرلندا» وعن «دليل المسافر فى ويلز»

وربما كان وليم راهب دير مونموث أقوى أثراً بوصفه ناقداً ، جيوفرى . وقد ولد وليم هذا حوالى ١١٣٥ ميلادية ، وتناول كتابه «تاريخ انجلترا» الفترة من عهد الملك استيفن حتى نهاية حكم الملك هنرى الثانى ، متخذاً «بيدى» نموذجا يقتفى أثره فى كتابة التاريخ . وهكذا أخرج وليم كتاباً بالدقة والوضوح والتشويق ، وامتاز بأحكام تدل على قوة الادراك . ثم كان أن استطاع روجر المنسوب إلى هوفدن Roger of Hoveden (ت حوالى ١٢٠ م) أن يخطو بكتابه التاريخ خطوةً واسعةً عندما كتب «حوليات التاريخ الإنجليزى» ، وهو الكتاب الذى أكمل به تاريخ «بيدى» حتىَ أيامه . واستطاع روجر فى هذا الكتاب أن يخرج عن المنهج الحولى فى الكتابه ، وكان نجاحه فى ذلك أكثر من أى مؤرخ آخر فى عصره ، حيث أنه أخرج كتاباً جيد التنظيم ، وتناول بالتفصيل تاريخ حكم الملك هنرى الثانى وريتشارد الأول وبداية عصر الملك حنا . وامتاز روجر بوفرة المعرفة والأهتمام بالشئون الخارجية .

واستطاع عدد من رهبان دير سانت الباتز أن يخلدوا أسماءهم بوصفهم من أقدر المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى . ومن هؤلاء نذكر روجر المنسوب إلى وندوفر Roger of Wendover (ت ١٢٣٦ م) وله كتاب . مختصر لكنه غزير المعلومات عن تاريخ العالم سماه «أزهار التاريخ» تناول أحداث التاريخ منذ بدء الخليقة حتى ١٢٣٥ م ، وعالج بصفة خاصة أحوال انجلترا بعد الغزو النورماندى . ويعتبر هذا الكتاب من

أحسن المصادر عن حكم الملك حنا وهو يمتاز عموماً بطرحة الأسلوب ووضوحه وقوة التعبير واتزان الأحكام .

ومهما يكن من أمر، فهناك شبه إجماع على أن ماثيوباريس الذى عاش من ١٢٠٠ — ١٢٥٩ م تقريبا ، والذى أكمل كتاب روجر السابق الاشارة إليه ، هو أقدر المؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى . ذلك أن ماثيو استطاع بدرجة لايدانيه فيها مؤرخ معاصر غيره — أن يحرر عقله من تأثير العقيدة الدينية والأساطير الخرافية ، مركزاً عنايته فى تاريخه على التطور السياسى . ولذ جاء كتابه المصدر السند الصحيح لكل ماهو خاص بتطور الأنظمة الدستورية الإنجليزية ؛ مابين العهد الأعظم ونشأة البرلمان الإنجليزى . واحتوى كتابه كثيراً من الوثائق العامة ذات الأهمية الكبيرة . وثمة ميزة كبرى امتاز بها كتابه ؛ هو اهتمامه بإبراز أثر الأحوال والعلاقات الخارجية فى التاريخ السياسى الداخلى لانجلترا . والحق إن ماثيو يتصف فى كتابته بالبساطة والاستقامة ، والقدرة على الاحتفاظ باستقلال الرأى ، وإصدار الأحكام القويمة حتى فيما يتعلق بتصرفات ملوك انجلترا وسياستهم . لذلك لاعجب إذا وصفه « توت » بأنه أكثر المؤرخين استقلالاً برأيه ، واعتداداً بنفسه ؛ فى العصور الوسطى . وقد أكمل كتابه على يد أحد رهبان دير سانت الباتز ، فوصل بأحداثه حتى وفاة هنرى الخامس . ومن بين الكتاب الذين أتموا عمل رهبان دير سانت الباتز أيضا ؛ روبرت ويدنج الذى توفى سنة ١٣١٨ ، وهو أحد رهبان وستمنستر ، وأظهر ولاء واضحاً لإيرل لانكستر .

ويعتبر توماس والسنجهام Thomas Walsin gham. آخر المؤرخين العظام الذين ينتمون إلى دير سانت الباتز (جاء بعد ١٤٠٠ تقريبا) ذلك أن توماس راجع أعمال المؤرخين السابقين ، ومضى بالتاريخ فى كتابه « التاريخ الإنجليزى » حتى وفاة هنرى الخامس (١٤٢٢ م) . وبرغم معاداته للحركات الراديكالية فإن كتابه يعتبر خير مرجع عن حركة « ويكلف » و « وات تيلر » . هذا إلى أن كتابه له أهمية فيما يتعلق بتطور النظم الدستورية .

وهناك مصدر هام عن عهد الملك ادوارد الأول ؛ هو الكتاب الذى كتبه الراهب الدومينكانى نيقولا تريفت ؛ الذى عاش بين سنتى ١٢٥٨ م ، ١٣٢٨ م تقريبا . وقد بلغ نيقولا مستوى لا بأس به فى الدراسات القديمة ، وتعتبر روايته عن التاريخ الانجليزى فى هذه الفترة (عهد ادوارد الأول) دقيقةً نسبياً واتصفت بصعوبة الأسلوب ، وضحالة الفكر . ولكتابه من خصائص الكتب التعليمية أكثر من معظم كتب ذلك العصر . وجاءت معالجته لتاريخ الشئون الخارجية خلاصةً لكتاب المؤرخ الألمانى « مارتن » المنسوب إلى تروباو .

ثم نأتى على ذكر المؤرخ الإنجليزى والتر همنبورج Walter Heminburgh المتوفى ١٣١٥ تقريباً ، الذى تناول فى كتابه « تاريخ انجلتره » الفترة ما بين الغزو النورمانى لها

وحكم الملك ادوارد الثالث . ويعتبر هذا الكتاب أعظم مصادرنا أهمية عن آل ادوارد الأوائل ، ويمكن الاعتماد على روايته ، كما أنه أسلوبه يتصف بالقوة والوضوح ؛ على الرغم من أنه ضمن كتابته عديداً من الوثائق والنصوص مثل ؛ العهود والمراسلات ، وبعض أوراق الدولة الرسمية . هذا إلى أن أحكامه عادلة وآرائه معتدلة غير متحيزة .

وعن حكم الملك ادوارد الثالث وحتى ١٣٥٦ م ، لدينا كتاب تاريخي هام كتبه روبرت المنسوب إلى افزبرى Robert of Avesbury (حوالى ١٣٥٠) ، وهو أحد المؤرخين القلائل من غير رجال الدين فى أوربا فى العصور الوسطى ، وكان الأمين على سجلات كانتربرى . واهتم روبرت فى كتابه بالتاريخ الحربى ؛ خاصة الحروب مع فرنسا منذ ١٣٣٩ حتى ١٣٥٦ م ، ولذا لم يعط قدر ضئيل من العناية لشئون السياسة الداخلية ، أو التاريخ الدستورى ، أو تاريخ الكنيسة فى انجلترا . وكان يوصفه مؤرخاً لشئون الحرب رقيقاً شديد الرقة فى بحثه ، وغير متحيز فى أحكامه . ولكتبه أهمية خاصة ، نظراً لما تضمنه من عديد الوثائق الأصلية والمراسلات الهامة التى تضمنها .

ومن الروايات التاريخية المعاصرة ما كتبه رالف هيجدن (١٢٩٩ – ١٣٦٤ م تقريبا) وهو راهب عاش فى عهد الملك ادوارد الثالث . وكتابه «التاريخ الشامل «Polychronicon» محاولةٌ لسرد تاريخ العالم فى صورة موجزة ، وهو منقسم إلى سبعة مجلدات وفقاً للأيام السبعة التى خلق الله فيها الكون . كذلك تضمن كتابه معلومات مفصلة عن الجغرافيا التاريخيه على نحو ما كانت معروفة فى تلك الأيام . والحق إن هذا الكتاب – وعلى حد قول جردنر – ليس له مثيل فيما احتواه من مادة ، وفى تكامله وفى الفائدة التى تعود منه ، ولايدانيه إنتاج آخر مثله حاز الإعجاب على نطاق واسع . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب قليل القيمة كمصدر لتاريخ أى عهد من العهود هذا وإن كانت أهمية تكمن فيما يتضمنه من مفاهيم مبتكرة ، وما يعبر عنه مستوى ذلك العصر من معلومات جغرافيه وعلمية ولغويه . وأخيراً ؛ فإن هناك توليفة لكتابة التاريخ فى العصور الوسطى قام بها أحد الإنجليز وهو روبرت فابيان (ت ١٥١٢ م) فى كتابه «تطابق التواريخ» الذى لم يعتمد فى كتابته على كبرى المدونات التاريخية الإنجليزية فحسب ، بل أيضاً على ما كتبه أهم المؤرخين الفرنسين فى العصور الوسطى .

أبرز المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى

يعتبر ريشر الذى عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى أول المؤرخين أهمية فى فرنسا العصور الوسطى . ذلك أنه تناول فى كتابه المسمى تاريخ عصره History His Own times الفترة من ١٨٨٧ إلى ٩٩٨ م . وقسم ذلك الكتاب إلى أربعة أجزاء . وعلى الرغم مما يتصف به فى بعض فقراته من إطناب مخل وأسلوب انشائى ، وتحيز فى الأحكام ، إلا أنه بصرف النظر عن ذلك كله مصدر أمين يعطى صورة صادقةً للعصر الذى يؤرخ له . والواقع ؛ إنه مصدر لاغنى عنه فى دراسة عصر الإضمحلال للبيت الكارولنجى وظهور اسرة كابيه . وثمة مصدر آخر من كتب التاريخ أقل أهميةً وسابقة هو كتاب راؤول جلابر (أو رالف الأصلع Ralph the Bald) المتوفى حوالى ١٠٥٠ م . وقد تناول هذا الكتاب تاريخ الفترة مابين عامى ٩٠٠ م ، ١٠٥٦ م . على أن هذا الكتاب يتصف بعدم الدقة ، فضلاً عن إكثاره من ذكر الخرافات والأساطير ، ومنه استقينا الخرافة التى شاعت فى ذلك الحين ، والتى رددت بأن موجة من الرعب ستجتاح العالم المسيحى عند حلول السنة الألف بعد مولد المسيح .

ولم تلبث هذه الخرافة أن ترددت فى كتب التاريخ عبر ما كتبه بارونيوس ، روبرتسون ، ميشليه . ومع ذلك فإن كتاب الف له أهمية نظراً لندرة المادة التى كتبت عن ذلك العصر . وهناك كتابان آخران من الكتب التى صدرت فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ويعتمد عليها إلى حد بعيد فى دراسة تاريخ ذلك العصر هما : كتاب أدهمار المنسوب إلى شابامنس Adhemer or Chabanmes ، وكتاب وليم المنسوب إلى بواتو ؛ وهو الكتاب المسمى باسم أعمال وليم الفاتح ، والاخير مصدر لاغنى عنه فى دراسة تاريخ النورمان .

أما سيجبرت المنسوب إلى جمبلو (عاش بين ١٠٣٠ - ١١١٢ م تقريباً) فقد ألف تاريخاً عاماً للعالم ؛ استخدمه على نطاق واسع من جاء بعده من الكتاب . كان سيجبرت راهباً فى دير من أديرة بلجيكا وهو دير جمبلو . وتبدأ مدونته التاريخية التى أتم كتابتها حوالى ١١٠٦ م ببدء الخليقة ، لكنه أخذ يميل إلى الإسهاب عندما وصل إلى أحداث ٣٨١ م ، ثم توقف بها

عند عام ١١٠١ ميلادية . ويلاحظ أنه أعتمد إلى حد كبير على ماسبق أن كتبه المؤرخ ماريانوس سكوتس . كما يلاحظ أن الأقسام الأولى من هذا الكتاب ليست لها قيمة من الناحية التاريخية ، وإن كانت فصوله الأخيرة ذات قيمة أكبر ؛ رغم عدم عنايته باستشارة المراجع فى هذا الجزء[1]. وهناك أكثر من تكلمة لهذا الكتاب كتبها بعض الكتاب الذين ظهروا بعد ذلك ، كما استفاد منه بعض الكتاب بوصفه دليلاً زمنياً لأحداث التاريخ .

والحق ؛ إن هذا الكتاب الذى لخص تاريخ العالم كأن أكثر الكتب من نوعه شيوعاً فى العصور الوسطى . وقد كتب روبرت المنسوب إلى تورجينى المتوفى سنة١١٨٦ م . وكان مقدم مونت سانت مايكل ؛ ذيلاً لكتاب سيجبرت غطى فيه أحداث الفترة ، بين سنتى ١١٥٤ ، ١١٨٦ ميلاديا . ولهذا الكتاب أهمية سواء فى الأحداث التاريخيه التى عالجها ، أو فى تاريخ الكتبة . وهو واحد من أهم المصادر عن حكم الملك هنرى الثانى فى انجلترا . وثمة مؤرخ أخر قدير ؛ هو روبرت المنسوب إلى أوكسر Auxerre الذى عاش بين عامى ١١٥٦ م ١٢١٢ م . وقد سمى كتابة « تاريخ العالم » واستبق معظم ما ذكره من أحداث حتى ١١٨١ م مما كتبه سيجبرت وأخرون . وبرغم ذلك فإن هذا الكتاب له أهمية بالنسبة للفترة ما بين ١١٨١ ، ١٢١١ م بوصفه مصدراً اساسياً معاصرا . هذا فضلاً عن أهميته بوصفه مصدراً للمعرفة عن حياة فيليب أوغسطس والحروب الصليبية . ذلك أن روبرت كان قارئا مثابراً تتصف أحكامه بالاتزان ، ولذا فإنه يعتبر من خيرة المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى .

ومن المعروف أن الفرنسيين نهضوا بدون قيادى فى الحروب الصليبية ، وأن هناك عدداً من المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى إلى جانب روبرت السابق ذكره ؛ شاركوا بجهودهم فى تزويدنا بمعلومات من ذلك العصر . ومن هؤلاء فولشيه Foulcher المنسوب إلى شارتر (١٠٥٨ م ١١٢٧ م) ، وقد كتب كتاباً عن تاريخ الحروب الصليبية أمرنا بكثير من التفصيلات عن المراكز الأولى التى أقامها الصليبيون فى الشرق الأدنى ، وإن كانت كتابته تتصف بالغرور والتعصب . وربما فاق هذا الكتاب فى الشهرة ماكتبه جبرت المنسوب إلى توجنت (١٠٥٣ م ١١٢٤ م) ، واسم كتابه «ماحققه الحرب على أيدى الفرنسيين ، Deeds of God through the French . وقد بنى هذا الكتاب فى أساسه على قصة نورمانديه ، ولذا نرى المؤلف يعانى صعوبةً بينةً فى الكتابة ، بعد أن تنتهى القصة التى بنى عليها كتابه . ومع أن أسلوبه يتصف بالتكليف والتصنع ؛ إلا أنه مرجع قيم عن الحملة الصليبية الأولى . أما تاريخ الحملة الصليبية الثانية فنجده فى كتاب «تاريخ حملة لويس السابع » الذى ألفه اودو المنسوب إلى ديبل Odo of Deuil المتوفى

---

(١) يحظى سيجبرت بقدر أكبر من التقدير فى نظر بعض الكتاب ، فيعتبره موليير فى كتابه مصادر التاريخ الفرنسى الجزء الثانى ص ٢١٠ خير من كتب فى تاريخ العالم فى العصور الوسطى (المؤلف) .

سنة ١١٦٢ م . وهذا الكتاب مختصر العبارة ، يتصف بالبلاغة عندما يصف بطولة المحاربين الصليبيين ، وهو كتاب مشوق لحيويته ، وخاصة عندما يصف القسطنطينيه وأهلها ، وإن كان هناك وصفه هذا ينم عن روح الكراهية والعداء . ولعل أحسن ماكتبه الفرنسيون عن الحروب الصليبية هو كتاب وليم الصورى ، الذى عاش من ١١٣٠ ١١٩٣ م . وكان وليم رئيس أساقفه مدينة صور ، وتناول كتابه تتابع الأحداث التى شهرتها الأرض المقدسة فى فلسفة منذ ١٠٩٥ ١١٨٤ م . والملاحظ أنه جمع مادته بعناية ، واستقى معلوماته من أوسع نطاق ، فضلاً عن أنه كان دقيقا فيما كتب وغير متطرف فى تعصبه وتحيزه . وقد مضى عدد من المؤرخين الذين اعقبوا فى تكلمة ماتوقف عنده سرد الأحداث فى هذا الكتاب .

أما كتاب «غزو القسطنطينية» الذى كتبه جوفرى فيلهاردوان (١١٦٧ م – ١٢١٣ م) تقريبا فيعتبر من خبرة الانتاج التاريخى الذى قدمته العصور الوسطى . ولعله أول كتاب تاريخى هام فى العصور الوسطى يكتب باللغة العامية المحلية الدارجة . وفيما يتصف المؤرخ بالتواضع عند حديثه عما قام به نفسه من أعمال ، إذا بالكتاب يتضمن دفاعاً عن سياسة فيلهاردون نفسه فى الحملة الصليبية الرابعة . ومازال هذا الكتاب . خير مصور تتعرف منه على روح الغزاة الصليبين فى تلك الحملة التى اعتبروها حرباً مقدسة . وقد كتب بأسلوب يجمع بين الموضوع والإيجاز ولكنه ملئ بالحقائق ، يفيض بالإحساسات الشخصية والاعتبارات الإنسانية . ويقول عنه جوستاف ماسون : «إن نظرة عابرة إلى أسلوب فيلهاردون النثرى ليقتنع القارئ أنه لايدانيه مؤلف فرنسى فى العصور الوسطى فى وضوح أسلوبه ، ودقة فى أختيار مادته ، ومهارته فى تصوير الشخصيات»[1] أما عن فلسفتة السياسية فكان فيلهاردون مدافعاً عن الفروسية والإقطاع .

أما أكبر الكتب التاريخيه التى كتبت فى فرنسا فى العصور الوسطى ، فهو القسم التاريخى من الموسوعة الكبيرة المسماه «المرآة الكبرى» Speculum majus للراهب الدومنيكانى «فنان» المنسوبة الى دير بوفيه Vin cent of Beauvais ولقد جاءت هذه الموسوعة فى ٣١ كتابا ، واشتملت على ٣٧٩٣ فصلا ، وهى توازى بحجم الكتب الحديثة فى أيامنا ، عشرين مجلدا . وتناولت هذه الموسوعة كل تاريخ البشر منذ بدء الخليقة حتى عهد القديس لويس (التاسع) ، وأختيرت مادتها من عدد كبير من الكتب التاريخيه التى دونت فى العصور الوسطى . وإذا كانت غير مبتكرة فإنها تجميع ماهر حاذق ، كما أنها خير ماكتب عن الصناعة فى العصور الوسطى .

---

(1) Gustave Masson, Early chromichers of Europe: Fran ce (London 1883) p. 129

أما المؤرخ وليم المنسوب إلى نانجيس Gillaume de Nangis (ت حوالى ١٣٣٠ م) فإن كتابه تناول الاحداث التاريخية منذ بدء الخليقة حتى حكم فيليب الجميل. وقد اعتمد فى مقدمته التاريخيه العامة التى وصل بها الى حوالى سنه ١٣٠٠ م على كل من كتابات المؤرخين ايزيبوس، جيروم، وسيجبرت المنسوب الى جميلو وهذه المقدمة ليس لها اهمية خاصة. أما الجزء الذى يأتى بعد ذلك فهو مبتكر فى مادته. ويعتبر أحسن مالدينا عن الدور الأول من حكم فيليب. وقد مجد المؤلف النظام الملكى وسياسة الملك فيليب فى الحكم المركزى. وقد أكمل كتاب وليم بعد ذلك «حنا دى فينيت» المولود حوالى ١٣٠٨، وهو كاتب امتاز باستقلال الرأى فى أحكامه وروحه الناقدة. ولم يكن مجرد كاتب حوليات ؛بل كان مؤرخا تجاوز أفق مادته. ذلك أنه أنتقد فى صراحة الملكية والأمراء والاقطاعيين الذين اختصهم بقدر كبير من نقده. ومع أنه لم يكن ديموقراطياً، فإنه كان يعتقد أنه ما دام الشعب يدفع ضرائب باهظة، فمن حقه إذن أن ينعم بالعدالة والأمن.

ومن أخصب المؤرخين الفرنسيين انتاجا فى العصور الوسطى برنارد جاى الذى عاش بين سنتى ١٢٦١ - ١٣٣١، وكتب بوجه خاص عن محاكم التفتيش فى العصور الوسطى. ومن أبرز كتاباته كتاب «زهرة المدونات التاريخية». ولهذا الكتاب أهمية كبيرة بالنسبة للعصر الذى دون فيه. وبالأضافه إلى ما كتبه عن محاكم التفتيش فإن له كتباً مختصرة عن البابوات والأباطرة وملوك فرنسا وأمراء تولوز.

أما أحسن المؤرخين وضوحا فى أسلوبه بين المؤرخين الفرنسيين فى العصور الوسطى، فهو المؤرخ الفرنسى حنا فرواسار Jean Froissart الذى عاش من ١٣٣٧ م الى ١٤١٠ م. وكان شاعراً ومؤرخا، وكتب كتباً عن فرنسا وفلاندرز وانجلترة واسكوتلنده واسبأنيا، تعتبر جميعها من الكتب الممتعة للقارى. ذلك انه لم يقف عند حد تسجيل الأحداث التاريخية وفقاً للترتيب الزمنى، وإنما كانت له مقدرة فى تجسيد المناظر المثيرة وتصوير الشخصيات، وفى ذلك يقول ماسون: «لا يقارن بفروسار هذا سوى شكسبير فى مجال طلاوة الاسلوب والقدرة على تصوير المجتمع»[1]. ولقد أعاد كتابة كتابه ثلاث مرات وفى كل واحدة منها كانت تختلف عن الاخرى. فالنسخة الأولى تتصف بأنها أكثر حيوية، كما أنه كان مناصرا للإنجليز، فى حين نجده فى النسخة الأخيرة ينحو نحواً فلسفيا، ويتحامل على الانجليز. وقد اهتم بالمسببات ونتائجها وأعطانا كثير عن السلوك والعادات والأنظمة السائدة فى تلك العصور على أن فروسار لم يكن مؤرخا قوميا، وإنما أخذ يدافع عن الفروسية فى فترة انهيار الاقطاع. هذا الى أنه لم يكن بالدقة الكافية فى تمحيصه للحقائق، مما أوقعه فى أخطاء كثيرة عند ذكره

(1) Masson op. cit, p. 176.

للتواريخ ، وهى أخطاء مربكة للقارئ . ومع ذلك فإن عمله خير المصادر المعاصرة لحرب المائة سنة ، كما يصور عصر الفروسية ومثلها فى صدق وأمانة .

ويختلف عن هذا الكتاب فى الاسلوب والنغم ، الكتاب الذى الفه انجيران مونستريليه Enguerrand de Monstrelet (١٣٩٠ م - ١٣م - ١٣ م - ١٤٥٣ م) . وذلك أنه تناول الأحداث التاريخية من سنة ١٤٠٠ م - ١٤٤٤ م فى أسلوب رصين ، وأبدى كثيراً من الاحاسيس إزاء ما أحدثته حروب النبلاء من تخريب وفوضى . ثم أنه جاوز الكثيرين من معاصريه برفضه تقبل وجود المعجزات والخوارق الغير طبيعية ، والسحر والعجائب وما شابهها . لكن يؤخذ عليه نظرته الضيقة المحلية أذ أنه اتجه إلى تمجيد الأحداث التى وقعت فى فلاندرز لغير سبب معقول سوى أنه من أبناء ذلك الاقليم . وقد قام بأكمال ما توقف عنده كتابه من أحداث حتى سنه ١٤٦١ م «ماثيو دى سوس» Mathieu de Coucey المولود حوالى ١٤٢٠ م . وكان هذا الكاتب واضح الأسلوب ، ويقارن فى بعض النواحى بفروسار . ولكنه كان أكثر حرصا منه ودقة فى تناوله للمادة التاريخيه . هذا الى أنه جمع بين رصانة الاسلوب والأمانه فيما يقول ، وكان يعترف بندرة المصادر ، وهو على حق فى ذلك . ولكتابه أهمية خاصة لاسيما بالنسبة للفترة الأخيرة من حكم شارل السابع .

ومن الكتابات اللاذعة فى العصور الوسطى ، الكتاب الذى دونه توماس باسن Thomas Basin (١٤١٢ م - ١٤٩١ م) واسم الكتاب «تاريخ عصر شارل السابع ولويس العاشر» وهو مشبع بروح الكراهية للإنجليز من ناحية وللنظام الملكى من ناحية أخرى ، فضلاً عن أنه قاس فى حكمه على طغيان لويس . واذا كان المؤلف قد عنى بما ساقه من حقائق ، إلا أنه عكس انطباعاته الذاتية على حكمه على الأمور .

أما كتاب «الوقائع المخزية» لمؤلفة حنا المنسوب الى تروى Trays فقد تناول الفترة من ١٤٦٠م - ١٤٨٣م . ولكنه حوى قدراً من اللغو والثرثرة أكثر مما طواه من الفضائح والأحداث المخزية . ولذا جاءت معظم مادته سطحية تافهة يعوزها الابتكار والجدة ، وإن كانت لها قيمتها من حيث الاضواء التى تلقيها على الحياه فى باريس فى ذلك الدور .

أما آخر المؤرخين الفرنسيين اللامعين فى العصور الوسطى وأقدرهم ،فهو فيليب دى كومين (١٤٤٥ م - ١٥٠٩ م) الذى تعبر مذكراته عن بداية النقلة الى المرحلة الحديثة فى كتابة التاريخ . وتتسم هذه المذكرات بالحيوية ، فضلاً عن كثير من الخصائص التى تتصف بها الطريقة الحقة فى كتابة التاريخ ، مثل القدرة على استقصاء الحقائق وتحليل الدوافع تحليلاً دقيقا ، ووضع الجوانب الثقافية موضع الاعتبار ، ثم الخروج بأحكام عامة مدعمة .

ولقد ابدع كومين عند علاجه المؤامرات السياسية والديبلوماسية المعقدة . وأكد

الأهمية السياسية والفنية والعملية للتاريخ . ثم نصح رجال الدولة والسياسة بأن «يدرسوا التاريخ جيدا ، حيث أنه مفتاح معرفة كل أساليب الغدر والخداع والأكاذيب» . ولقد تناول كومين فى مذكراته الأحداث من ١٤٦٤ م – ١٤٨٣ م ، ومن ١٤٨٨ م الى ١٤٩١ م . ويعتبر كتابه من خير المصادر عن عهد لويس الحادى عشر وشارل الثانى . ويبدو من كتابته أنه كان مجاملا ، ويذكرنا كلامه وتمجيده للملك لويس وللدور الامير فى السياسة بما كتبه ميكافللى . ويقول المؤرخ الانجليزى هلام Hallam عن كومين إنه أول كاتب يمثل العصر الحديث ... ذلك أنه أظهر بنجاح وحصانة فى دراسة طبيعة الرجال ومعرفة نتائج أعمالهم . وكانت لديه القدره أن يعطى لملاحظاته واستنباطه صفة التعميم ، وذلك باتباع اسلوب المقارنة والتطبيق .

بعض أهم المؤرخين الأيطاليين فى العصور الوسطى

كان بولس الشماس أعظم المؤرخين الإيطاليين أهمية فى العصور الوسطى . وقد سبق أن أشرنا اليه بوصفه أحد الكتاب الذين يمثلون نموذجاً للكتابه التاريخيه فى الفترة الانتقالية ما بين العصور القديمة والوسطى . ومن المعروف أن إيطاليا ظلت البلد الذى يضم العاصمة الدينية للغرب المسيحى فى العصور الوسطى وذلك إذا استثنينا فترة الأسر البابلى التى أنتقلت فيها البابوية الى أفنيون ، وهى فترة قصيرة فى أواخر العصور الوسطى . ولذا فإن الكتابة عن البابوات صارت أمراً له أهميته فى الكتابة التاريخية الايطالية فى العصور الوسطى . وأكثر الكتب أهمية فى هذا المجال «كتاب عن البابوات» الذى بدأ بحوادث القرن الرابع بذكر بعض حقائق مختصرة عن الحياة الرسمية لكل «بابا» من البابوات ، ثم انتقل تدريجيا ليأتى بتراجم مفصلة عن البابوات .

وثمة كتاب آخر له أهميته عن التاريخ الكنسى ؛ هو تاريخ أساقفة «رافنا» من العصر الرسولى حتى منتصف القرن الثامن ، وألف هذا الكتاب انجلوس الرافنى الذى ولد فى ٨٠٥ م وكما هو متوقع ضمن كتابه العديد من الخوارق والأساطير الى جانب مابه من مادة تاريخيه سليمة .

أما أول المؤرخين البارزين فى ايطاليا ممن يمكن اعتبارهم صورة صادقة لمؤرخى العصور الوسطى ، فهو «ليتوبراند» «أسقف كريمونا (٩٢٤ م — ٩٧٢ م تقريبا) وكان أقدر المؤرخين الأيطاليين فى عصره بل ربما كان أكفأ كتاب التاريخ فى أوربا العصور الوسطى طوال القرن العاشر وله ثلاث كتب تاريخية هامة .وأشهر هذه الكتب وأكثرها فائدة هو الكتاب الذى سماه «كتاب الجزاء» وقد عالج فيه الفترة من ٨٨٨ م الى ٩٥٠ م . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب اختص بتاريخ ايطاليا ، إلا أنه تضمن الكثير عن ألمانيا والدولة البيزانطية والتاريخ الاسلامي . وكان عنيفاً فيما كتبه عن الملك برنجاريوس Brengarius ، وهو الملك الذى نفاه . وجاء عنوان الكتاب متماشيا مع ما استهدفه من تحامل على هذا الملك والكتاب فى جملته غنى بالمادة والتفاصيل ، وإذا قورن ليتوبراند بأى كاتب أخر فى عصره ،

نجده أقلهم أيماناً بالخوارق والاساطير. أما كتابه الثانى «تاريخ اوتو» فهو صورة تامه للفترة ما بين سنه ٩٤٠٠ م — ٩١٤٤ م ، وهى فترة عاشها وشهد احداثها . وأخيرا يأتى كتابه الثالث واسمه «قصة سفارة ا الى القسطنطينية» ويتضمن صورة ممتعة ولكنها لا تخلوا من هجاء للبلاط البيزنطى .. ههذا كله فضلا عن أن ليتوبراند كان محيطا بالدراسات الكلاسيكيه القديمة ، وهذه ظاهرة نادرة فى عصره ولا وجود لها بين المؤرخين المعاصرين له . وقد إتخذ لوتبراند بوثيوس نموذجا يقتدى بأسلوبه ، كما أنه دأب على الاستشهاد ببعض فقرات كلاسيكية ، بل أنه إقتبس بعض نصوص من الكتاب الإغريق ، وكتبها كما هى بالاغريقية . وربما كانت نقطة الضعف الرئيسية فيه هى استجابته للمشاعر العاطفية فى كتابته مثل التحيز ، والتحامل والكراهية ، كما يبدو ذلك من تحامله على الملك برنجاريوس لكراهيته له . ثم أنه كان يميل إلى أن يضفى على مادته طلاء جديداً ، مما جعل إحكامه فى بعض الأحيان تتصف بالتهور والاندفاع . ومع هذا كله فإن ليتوبراند يحتل مكان الصدارة بين بقية المؤرخين المعاصرين .

وهناك مؤرخ إيطالى آخر أسهم بنصيب هام فى الدراسات التاريخية فى العصور الوسطى فى القرن الحادى عشر ، هو جريجورى كاتينو صاحب سجل دير فارفا . ذلك أنه نظم «أرشيف» ذلك الدير وجمع محتوياته فى كتاب واحد ، واستنفذ هذا العمل منه نحواً من خمس عشرة سنة ، وتمكن بفضل خبرته من نقد هذه الوثائق نقداً تاريخيا . وقد كتب جريجورى بعد ذلك كتاباً فى صورة سرد تاريخى ، استند فى مادته على السجل السابق . وأخيراً ، فإن ثمة «نظماً» على جانب من الأهمية التاريخية كتبه وليم الأبولى ويتناول غزو النورمان لجنوب ايطاليا .

أما التاريخ الذى كتبه ليو أوستينيس Leo Ostiensis (ت حوالى ١١١٦ م) — هو تاريخ رسمى لدير مونت كاسينو العظيم ، فيعتبر إضافة ثمينةً لتاريخ إيطاليا الدينى والثقافى فى العصور الوسطى . ذلك أن ليو هذا كتب تاريخاً كاملاً عن ذلك الدير ونشاطه منذ تأسيسه حتى سنة ١٠٧٥ م . ويعتبر كتابه من خيرة نماذج الكتابة التاريخية فى إيطاليا خلال العصور الوسطى بأسرها ، لأنه أتسم بالنظام وعدم التحيز ، ووفرة المعلومات التى دونت بأسلوب ممتع . ثم إن ليو كان شديد الحرص والحذر عند تعرضه لإحدى الاساطير أو المعجزات . وقام بمهمة إكمال كتابه والوصول باحداثه حتى سنة ١١٣٨ م بطرس الشماس المتوفى حوالى ١١٤٠ م . على أن عمل هذا الأخير جاء أقل إحكاماً من عمل «ليو» لأن بطرس كان مغروراً بنفسه ، دا نزعه انفعاليه ، ولم يحاول أن يتعرض بالنقد لما صادفه فى تاريخه من أساطير وخرافات .

أما «بونيزو» Bonizo – أسقف سوترى المولود حوالى ١٠٦٠ م فقد كتب مؤلفاً أسماه «كتاب إلى صديقه» عالج فيه تاريخ البابوية على أيامه. وساعده على كتابة هذا التاريخ إلمامه الكبير بالشئون الكنسية، مما جعله يكتب هذا الكتاب ليقف إلى جانب البابوية فى رحلة النزاع حول التقليدى العلمانى، وخاصة الصراع العنيف بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع. وهو فى كتابته عن الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى إنما كان شاهد عيان لما كتبه، كما كان يجنح نحو الاعتماد على نصوص من الكتاب المقدس والقانون الكنسى لتأييد وجهة نظره.

وأما عن تاريخ صقلية وخاصة فى عهد النورمان فكان موضع اهتمام «هوجو فالكاندوس». وقد ولد هوجو هذا فى فرنسا ولكنه عاش فترةً طويلةً فى صقلية وإيطاليا، وأتم تأليف كتابه سنة ١١٦٩ م. وعلى الرغم من أنه كان من أشد أنصار النبلاء النورمان الإقطاعيين فى صقلية، إلا أنه استطاع التجرد عن الهوى، وإصدار أحكام سليمة ومحايدة. وتضمن كتابه مادة «قيمة» عن الأنظمة والتقاليد والعادات فى صقلية فى العصور الوسطى، فضلاً عن أن هذا الكتاب كتب بأسلوب واضح منسق.

وهناك كتاب من أهم الكتب التاريخية فى إيطاليا العصور الوسطى؛ وهو كتاب كتبه أحد الرهبان الفرانسسكان ويدعى فراسالمبين Fra Salimbene (١٢٢١ م – ١٢٩٠ م). وكان سالمبين قد قام بكثير من الأسفار الواسعة واختلط بمختلف أصناف الناس من البابوات والملوك حتى عامة الناس والمساكين. ولذا جاء كتابه وصفاً روائياً استطرادياً غير منظم؛ لكل ما رآه وسمعه حتى سنة ١٢٨٨ م. وعلى الرغم من طبيعة الكتاب المتشعبة فإن سالمبين كان شاهد عيان لأحداث عصره، وقاصاً وراوياً بسليقته. ومن ثم فإن عمله جاء مهماً للغاية، وذا أهمية كبيرة فى إعطاء صورة لعادات وسلوك وملابس وثقافة أهل عصره. هذا مع التركيز على بعض الأحداث السياسية فى عصره، وخاصة ذلك الصراع بين فردريك الثانى والمدن الإيطالية. وكتب كتابه بأسلوب قوى ولكن بلاتينية العصور الوسطى الغير أصيلة.

وعلى النقيض من سالمبين فى منهجه التاريخى؛ كان فيروتوس Ferretus of Vincenza (ولد حوالى ١٢٩٥ م) الذى يغطى «تاريخ الشئون الإيطالية» تاريخ إيطاليا وعلاقاتها الخارجية من ١٢٥٠ م حتى سنة ١٣١٨ م. ولقد أحكم رسم خطة لكتابه، ذلك أن هذا الكتاب امتاز بحسن التخطيط وبراعة التنظيم، والمقدمة الكبيرة على انتقاء الحقائق، أما مادته فقد دونت بلغة لاتينية سهلة. وربما كان العيب الوحيد فيه هو ميله إلى الطريقة التمثيلية فى كتابته، مما جعله فى بعض الأحيان يمط فى الحقيقة كى يبدع فى الوصف.

ومن المعروف أنه من أهم الأحداث السياسية التي تعرضت لها إيطاليا في العصور الوسطى ؛ ذلك الصراع بين الجلفيين والجبلليين . ومن أحسن الكتب التاريخية التي تناولت هذا الصراع كتاب «التاريخ الجليل» لمؤلفه البرتينوس موساتوس Albertinus Mussatus (١٢٦١ م – ١٣٣٠ م تقريبا) . وكان البيرتينوس هذا جنديا وسياسيا قام بأسفار واسعة في البلدان الأوربية . وكتب كتابه بأمانة وغير تحيز وبأسلوب لاتيني جميل .

أما عن البندقية وتاريخها في العصور الوسطى فقد شدت انتباه كثير من المشتغلين بكتابة التاريخ ، فكتب مارت دي كانال Martin de Canale والذي لانعرف عن حياته سوى القليل تاريخاً للبندقية حتى سنة ١٢٧٥ م . والواقع إن كتابه جمع بين الكتابة القصصية وكتابة التاريخ ، ولكنه على أي حال له قيمة في وصفه للسلوك والعادات وبعض جوانب الفن في البندقية . وهناك كتاب آخر عن تاريخ البندقية في العصور الوسطى ، ويمكن الاعتماد عليه أكثر من الكتاب السابق ، ونعني به كتاب تاريخ البندقية لاندريا داندولا (١٣٠٩ – ١٣٥٤ م تقريبا) . وكان اندريا رجلاً من رجالات الدولة ، فضلاً عن كونه فقيهاً ومشرعاً ومؤرخا . وقد درس في عناية كل الكتب التي عالجت تاريخ البندقية في دوره الأول ، ونقل عنها كثيراً من الوثائق التي يرجع الفضل إليه في حفظها وعدم ضياعها . هذا إلى أنه كان كاتباً منصفاً يمكن الاعتماد على المادة التي وردت في كتابه ، فيما عدا الأجزاء الأولى من كتابه والتقويم الزمني للأحداث . ويعتبر كتابه مصدراً لاغنى عنه للوقوف على الحياة العامة والنظم السائدة في البندقية في العصور الوسطى وبخاصة مايتعلق بالتطور الدستوري فيها .

أما مدينة جنوا فكان لها الأخرى مؤرخوها من أمثال ؛ كفارو ، اوبرتوس ، أوجريوس بانيس Caffaro, Obertus Ogerius panis . ويعتبر كفارو بالذات أحد مؤرخي الحروب الصليبية في العصور الوسطى الذين تمتاز كتابتهم بالاستقامة ، ولذا يمكن الاعتماد عليه أكثر من غيره . وتعتبر حولياته فضلاً عن كتاباته الخاصة بالحروب الصليبية – مرآة طيبةً لعصره .

على أن كتابة التاريخ في إيطاليا لم تصل ذروة نضجها في العصور الوسطى إلا في مدينة فلورنسا في أواخر تلك العصور . وخير ما يمثل هذا المستوى الراقي لكتابة التاريخ في فلورنسا هما دينو كامباني (١٢٦٠ م – ١٣٢٣ م تقريبا) ، وجيوفاني فيلاني (ت ١٣٤٨ م) ويمدنا كتاب دينو عن «تاريخ فلورنسا» بعرض مختصر عن أصول نشأة تلك المدينة ثم يقدم سردا مطولاً لتاريخها منذ ١٢٨٠ م إلى ١٣١٢ م وهي الفترة التي اهتم بها دينو اهتماماً خاصا . ولم يكن دينو مجر سارد حوليات فحسب ، بل كان يأتي في معظم الأحيان بالتفسيرات الدقيقة التي اعتمد فيها على نفسه ولم يستمدها من غيره . وتعلو كتاب دينو مسحة من الاعتزاز بمدينته ، كما أنه

كتب بأسلوب تصويرى يتصف بالوضوح . ويقول بلزانى عن روح هذا الكتاب : «لقد عاش الكاتب بين الأحداث التى كان يكتب عنها ، وتنفس فى جوها ، وتجول بين أنحائها ، ولانعرف مؤرخا حديثاً له نفس القدرة على نقل كل أحاسيسه إلى قرائه مثلما فعل دينو .»[1]

أما زميله المؤرخ جيوفانى فيلانى فهناك شبه إجماع على انه أعظم مؤرخ إيطالى فى العصور الوسطى ، وبفضله دخلت كتابة التاريخ فى إيطاليا مرحلتها الحديثة . وكان جيوفانى رجلاً عسكرياً ورحالةً وموظفاً ذا شأن فى فلورنسا . وقد تناول فى كتابه «تاريخ فلورنسا» كل الفترة الممتدة من نزول الإنجيل حتى ١٣٤٦ م . ولكن أهمية تقتصر فقط على الفترة التى عالج فيها تاريخ العصور الوسطى . وفى كتابته عن أصل فلورنسا ؛ اتجه فيلانى إلى الأخذ بالقصص الأسطورى . وجاء أكثر شمولاً من كتاب دينو ؛ سواء من ناحية الفترة التى تناولها أو الجوانب والمواضيع التى عالجها .هذا إلى أن كتابه أمدنا بصورة كاملة عن تاريخ فلورنسا فى العصور الوسطى ، فضلاً عن تاريخ أوربا بصفة عامة فى تلك العصور . ثم إنه بنى كتابه على اطلاع واسع ، ودراسة ناقدة للمؤلفات السابقة التى درسها . والحق إنه كان فى كتابته معتدلا منصفا ، بصرف النظر عن عطفه على الجلفيين ، مما جعله يقف إلى جانب طبقة التجار . هذا إلى أنه أحسن تنظيم كتابه والتخطيط له ؛ وكانت لديه قدرة فائقة على إصدار الأحكام الناقدة غير المستقاة من أحد . وقد وصفه الأستاذ فردنياند شيفل «بأنه يمتلك إحساساً صادقاً بوقائع الأمور ، وهذه صفة لم تتوافر بنفس الدرجة لدى أى كاتب آخر فى العصور الوسطى»[1] . أما أسلوبه فكان رصيناً واضحاً ، هذا إلى أن الكتاب لايتوقف عند حد سرد تطور فلورسا ، وإنما يلقى أيضاً أضواء على مجتمع تلك المدينة وثقافتها . وكما يقول الاستاذ شيفل إن أعظم ماحققه هذا المؤرخ هو وصفه الدقيق لفلورنسا كما رآها بعينيه ، وماوراه عن تجارتها والصناعة فيها ، وعن بنائها الاجتماعى وتقاليدها الدينيه ، وعلاقتها بجيرانها ، وما كان يحتدم داخلها من منازعات وصراعات لا تنتهى ، وهذه كلها أمور لا يمكننا فى العصور التالية أن نجحف بحقه فيها»[2] ويعتبر الكتاب أحد الأعمال القليلة فى العصور الوسطى التى اشتملت على معلومات إحصائية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . وقام كل من ماتيو وفيليبو فلانى بإتمام هذا الكتاب حتى سنة ١٣٦٤ م .

(i) Balzanai: Early chroniclers of Europe: Italy pp. 321-32.

Ferdemand Schevill: A History of Florence (Harcourt Brace, 1936) p. xiv.
ihid, p. xv

زعماء المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى

عندما نذكر المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى ؛ علينا أن نضع فى قائمتهم كتابا أمثال ؛ جوردان ، اينهارد ونيثارد ، وآخرين من الذى اعتبرناهم مؤرخين للفترة الانتقالية ؛ بين الكتابة التاريخية فى العصرالقديم والعصور الوسطى .

وربما كان فلودارد Flodoard أول مؤرخ ألمانى يستحق الأهمية فى العصور الوسطى . وكان فلودارد قسيسا فى ريمز وتوفى ٩٦٦ م . وقد جمع عدة حوليات مليئة بمعلومات قيمة عن الفترة من ٩١٩ م إلى ٩٦٦ م . وتبدو هذه الحوليات وكأنه كان يقوم بكتابتها عند وقوع أحداثها . ومن ثم ؛ فإنه يعتبر شاهد عيان للأحداث التى وصفها . وقد نظر إليه المؤرخين بوصفه أحد الذين تحروا الدقة فى سردهم للحقائق ويعتبر كتابه مصدراً هاماً عن أواخر العصر الكارولنجى وقيام أسرة كابيه فضلاً عن قيام أصل الأسرة السكسونيه فى حكم المانيا . وثمة مصدر آخر جدير بالاهتمام ؛ عن الفترة الأخيرة من القرن العاشر ، ونعنى كتابات الشاعرة الراهبة هورسوثيا Horswitha التى كتبت مجموعة من القصائد الشعرية التاريخية عن عصرها ، وأشهر هذه القصائد ؛ تلك الملحمة الشعرية عن أسرة أوتو ، والتى أسمتها «أنشودة حول مآثر أوتو» . وتناولت فيها الأحداث حتى سنة ٩٦٨ ، كما أنتجت عدداً آخر من الكوميديات .

ثم شهد الجيل الذى تلا جيلها ؛ المؤرخ ويدوكند Widkund (ت ١٠٠٤ م) وهو راهب «بندكتى» من رهبان دير كورفى . ويعرف كتابه الرئيسى فى التاريخ باسم «أعمال السكسون» وقد قسمه إلى ثلاثة أجزاء ، تناول فيها الفترة منذ أصل السكسون حتى وفاة أوتو الكبير فى سنة ٩٧٣ م . وكان علاجه للدور الأول من التاريخ المبكر للسكسون ذا صبغة أسطورية إلى حد كبير ، ولكن لكتابه قيمته الكبيرة بالنسبة لتاريخ هنرى الصياد واوتو الكبير وقد بدأ يدون كتابه حوالى سنة ٩٦٨ م فى قمة حكم أوتو ، وكان شديد الإعجاب بالأباطرة السكسون ، وأثنى بدرجة كبيرة على مآثرهم وأعمالهم . أما أسلوبه فقد حكى فيه المؤرخين القدامى وخاصة سالوست . ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطع أن يحافظ على قواعد اللغة اللاتينية بشكل سليم

وجاء بعده ثيتمار Thietmar أسقف مدينة مرسبرج ، الذى انتهى فى سنة ١٠١٨ من كتابة التاريخى العظيم الذى غطى فيه عهود أوتو الأول والثانى والثالث ، فضلاً عن هنرى الثانى . أما عهد هنرى الثالث ، فكانت أكثر الكتب التى عالجته أهمية هو كتاب هيرمان راهب دير ريخناو ، الذى عاش من ١٠١٣ م إلى سنة ١٠٥٤ م . كان هيرمان عالماً متعدد المواهب قادراً على معالجة مسائل كثيرة فى وقت واحد ، فضلا عن كونه مؤرخا ماهراً ، واشتهر أيضاً بكتاباته فى الرياضة والفلك والموسيقى . أما كتابه فى التاريخ فهو تاريخ عام لأوربا من بداية العصر المسيحى حتى سنة ١٠٥٤ م . وبعد ذلك جاء تلميذه بيرثولد Berthold فمضى فى تكملة كتابه حتى سنة ١٠٨٠ م . وخلاصة القول : إن هرمان كان من أقدر المؤرخين فى عصره ، ولكتابه قيمته الكبيرة بالنسبة للعصر الذى عاش فيه ، فضلاً عن أهميته بالنسبه للقرن السابق (القرن العاشر م) لاعتماده على مصادر ذات قيمة كبيرة فقدت منذ ذلك الحين .

وثمة مؤرخ ألمانى آخر هو لامبرت المتوفى حوالى ١٠٨٠ م ، وكان راهباً بندكتياً فى ديرهرسفيلد ، استمد إلهامه من ليفى وسالوست ، وأخرج كتابا يعتبر أكثر الكتب التاريخية المعاصرة فى كافة البلدان الأوربية إحكاما ، وأدقها أسلوبا . وتعتبر الحوليات التى وصفها لامبرت من أهم الإضافات التاريخية التى تلقى أضواء على تاريخ العلاقات بين ألمانيا والبابوية . ويبدأ هذه الحوليات بجدول زمنى للأحداث ، امتد منذ بدء الخليقة حتى ١٠٤٠ م ، ويعتبر ما جاء به عن هذه الفترة تكراراً لما ورد فى الكتب العامة المعروفة عن تاريخ العالم ، وبالإضافه إلى ما أخذه من حوليات دير هرسفيلد القديمة . ولكن منذ ١٠٤٠ م فصاعداً ، تتخذ حوليات لامبرت أهمية خاصة لما تحويه من معلومات مبتكرة ، حتى تصل تلك الحوليات إلى ذروة حسنها فى آخر أجزائها ، عندما تعالج السنوات من سنة ١٠٦٩ م حتى ١٠٧٧ م. ويلاحظ أن لامبرت فى هذا الجزء الأخير يعدل عن الطريقة الحولية فى كتابة التاريخ حسب ترتيب السنوات ، ويرتفع إلى مستوى المؤرخ الحق . والواقع ، إنه نجح أكثر من معاصريه فى الإلمام بالأبعاد الزمنية للتاريخ ومجالاته فلم يقف عند حد تسجيل الأحداث فحسب ، وإنما ناقش موضوع السبب والأثر على مجرى التطورات التاريخية . كذلك امتاز بقدرة عالية على وصف المناظر التاريخية . ومن ثم ، فإنه ليس غريباً أن يحظى لامبرت بإعجاب كبير طيلة ثلاثة قرون ، منذ طبعت حولياته لأول مرة سنة ١٥٢٥ م . على أنه ، كاد يتعرض لنقد ليوبولدفون رانكه سنة ١٨٥٤ حتى أهتزت مكانته وفقد كثيراً من أهميته . وبعد مرور جيل على فون رانكه ، قام هانز ولبروك بفحص ما كتبه لامبرت فحصاً أكثر دقة وأوضح أن الأخطاء التى وقع فيها كانت عادة بالنسبة للحقائق التاريخية البسيطة ، وأنه كان منحازا بلا جدال لضعف البابوية ، مما أثر على روايته عن الصراع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى ، وأنه

أهمل أو هوّن من شأن القانون العلماني دوره فى ذلك الصراع . وينسب إلى لامبرت أنه مخترع الرواية القائلة بتذلل هنرى الرابع أمام البابا جريجوى الثامن فى قلعة كانوسا . ولكنه على الرغم من هذا كله ، فإن العمل الذى قام به لامبرت يحظى بأهمية تاريخية فائقة ، ويفوق فى قيمته أى إنتاج آخر معاصر فى ميدان الكتابة التاريخية .

أما دير كونستانس ، فقد أخرج كتابين فى التاريخ على جانب من الأهمية فيما يتعلق بعهد هنرى الرابع وصراعه ضد الكنيسة . أما الكتاب الأول فقد دونه برثولد Berthold الراهب بذلك الدير ، والمتوفى ١٠٨٨ م ، وقد عالج فيه الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى ، متخذاً جانب البابا ضد هنرى . أما الكتاب الثانى فقد كتبه راهب آخر من دير كونستانس ، هو هرمان الذى عاش من ١٠٤٦ م – ١١٣٢ م ، وهذا الكتاب أكثر قيمةً وأكثر حياداً من الكتاب الأول ، وإن كان هو الآخر معاديا للإمبراطورية .

أما برنو Bruno فتعد كتب «تاريخ ثورة سكسونيا» وهو كتاب له أهميته بالنسبة لأحداث ألمانيا على عهد هنرى الرابع . أما آدم المنسوب إلى «بريمن» فقد كتب فى أواخر القرن الحادى عشر كتاباً يعالج الأحداث من ٧٨٨ م حتى ١٠٧٢ م ، واسم هذا الكتاب «تاريخ هامبورج وبريمن الكنسى» . ويمدنا بمعلومات هامة عن أحوال شمال ألمانيا . ولقد تثقف آدم فى الكتب الكلاسيكيه ، ويحوى كتابه مادةً ثقافيةً ومعلومات عن تاريخ الكنيسة ، فضلاً عن أخبار غزو السلاف لإقليم نهر الألب ، هذا كله بالإضافة إلى ما به من معلومات هامة عن حكم هنرى الرابع . ولآدم كتاب هام آخر عن تاريخ اسكندناوه القديم ، وعن تجارة الشماليين فى عصرهم الأول .

وهناك تاريخ عام للعالم كتبه ماريانوس سكوتس الذى عاش من ١٠٢٨ م – ١٠٨٤ م ، وهو أحد علماء ماينز ، وإن كان ايرلندى الأصل . ويقع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء ؛ يختص الأول بالتاريخ القديم ، والثانى يصل بالأحداث حتى حياة المسيح وعصره ، والثالث يمتد حتى العصور الوسطى . على أن القيمة الحقيقة لهذا الكتاب تنحصر فى الفترة المعاصرة لحياة المؤلف . وقد تضمن كثيرا من المعلومات عن التاريخ الايرلندى ، فضلا عن تاريخ مدينة ماينز . ولقد كان ماريانوس عالماً فى الرياضيات ومؤرخا ولذا فإن كتابه حوى أبحاثا طريفةً عن مشاكل التقويم التاريخ ، وقد أكمل هذا الكتاب فلورنس المنسور إلى وركستر فى انجلترا ، ثم استفاد فيه على نطاق واسع سيجبرت المنسوب إلى جمبلو وفى كتابه عن تاريخ العالم .

أما أكثر الكتب شمولاً كتب التاريخ العامة فى العصور الوسطى ؛ فهو كتاب «تاريخ العالم» الذى بدأه فروثولد مقدم دير ميشلزبرج Fruthold of Michelsberg فى القرن الحادى عشر ، وشرع فى اتمامه سنة ١١٠١ م ايكهارد Ekkehard الراهب بدير اوراخ ، وقد مضى به حتى الأحداث التى وقعت سنة ١١٢٥ م وهى سنة وفاته . وقد استعان فى إتمام هذا العمل بمصادر موثوق بها ، وعنى بجمع مادة كتابه عناية فائقة ، وراجعه عدة مرات ؛ حتى أخرجه بحثاً متكاملاً دقيقاً فى تناوله للفترة التى عاصرها . هذا إلى أنه عالج موضوع النزاع حول التقليد العلمانى بروح معتدلة ، ونهج نهجاً مفصلاً وموضوعياً فى علاجه للحملة الصليبية الأولى . وكان واسع الأفق ، وتواترت لديه معرفة واسعة عن أحداث البلاد الأخرى خارج ألمانيا . ثم إن اكهارد كان أكثر حياداً من لامبرت فى علاجه للأحداث وبدت سلامة أحكامه فى حسن أتقانه للمادة العلمية . وقد قسم كتابه عن تاريخ العالم إلى خمسة أجزاء ؛ خصص الثلاثة الأولى منها للفترة حتى عهد شارلمان ، أما الجزءان الآخران ؛ فقد تناول فيها الأحداث منذ شارلمان حتى حكم هنرى الخامس . وفى الجزء الأخير عالج عهد هنرى الخامس ، وهو أهم أجزاء كتابه ، ومن أحسن ما يمكن الاعتماد عليه فى موضوعه ، بل إنه أفضل المصادر عن أعمال هنرى . ويعتبر كتابه من المصادر القيمة فى معلوماته التاريخيه عن شمال المانيا فى العصور الوسطى . ومع أن أسلوب ايكهارد ليس مصقولاً ؛ شأنه شأن أسلوب لامبرت ، فان أسلوب ايكهارد اتسم بالوضوح والسهولة ، كما اتصف بالوضوح وعدم الغموض فى مادته . وقد طلب منه الإمبراطور هنرى الخامس أن يكتب تاريخاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ شارلمان فصاعدا ، ولكن هذا العمل الذى أنجزه ايكهارد جاء أقل قيمةً من كتابة السابق .

وهناك مصدر قيم عن تاريخ ألمانيا والمرحلة الأولى من مراحل الحروب الصليبه ، هو الكتاب الذى كتبه البرت المنسوب إلى آخن ، وهو رجل لا نعرف عن حياته سوى القليل ؛ فيما عدا ما كتبه عن نفسه قبل ١١٥٨ م . وجاء كتابه فى أثنى عشر جزءا ووصل فيه بالأحداث حتى سنة ١١٢١ م . وهو من الكتب الهامة ، وخاصة فى الأبحاث التى حواها عن الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس الصليبية . وقد رجع الصورى إلى كتاب لامبرت واعتمد عليه كثيرا .

أما أهم المؤرخين الألمان وأوسعهم شهرة فى العصور الوسطى ؛ فهو اوتو أسقف فريزنج الذى عاش بين سنتى ١١١٤ م - ١١٥٨ م تقريبا ، وهو عم الإمبراطور فردريك الأول (بارباروسا) . ذلك أنه لم يكن مجرد مؤرخ قدير سارد للاحداث ، وإنما كان أيضاً أول فيلسوف للتاريخ يستحق الذكر فى العصور الوسطى . وأكثر كتبه أهمية كتابان هما : «كتاب المدينتين» و «أعمال الإمبراطور فردريك الأول» . وقد مضى بالأحداث التى سردها فى الكتاب

الأول حتى سنة ١١٤٦ م ، ويعتبر أول فلسفة هامة للتاريخ فى العصور الوسطى . وفى هذا الكتاب اتبع طريقة اورزيوس ومنهجه فى كتابة التاريخ ، على حين اتبع أوغسطين فى فلسفته للتاريخ . وقد استند الكتاب على نظرية أوغسطين الخاصة بإبراز التناقض بين « مدينة الله » و « مدينة الشيطان » . وقد أوضح اوتو الصراع بينهما على نفس النمط الذى وصفه اورزيوس — ومضى فى تلك القصة منذ بدء الخليقة حتى عصره هو . وقد أتم عمله راهب آخر ، هو اوتو الراهب بدير سانت بلاسن Blaisen الذى مضى بالقصة حتى سنة ١٢٠٩ م . وتم هذا العمل فى ثمانية أجزاء ، خصص الأخير منها ليوم الحساب وقيام القيامة . وكان هذا الكتاب — على حد قول بلزانى — أول محاولة يقوم بها مؤرخ فى العصور الوسطى « يضع فيها قصة الإنسان بأكملها داخل إطار محكم من الأسباب والنتائج » على أن النهج الفلسفى الذى اتبعه اوتو قلل من القيمة التاريخية لكتابه من ناحيتين : الناحية الأولى ، هى أنه جعلته ينحاز ضد النواحى العلمانية والوثنية ، والناحية الثانى ؛ أن اهتمامه الأساسى بفلسفة التاريخ جعلته أحياناً يهمل سرد التفاصيل . ولقد ساعد على عدم عنايته بذكر الحقائق والتفاصيل حرصه على الجانب البلاغى فى كتابته ، وتصوير المتناقضات المثيرة ، مما جعل الشكل لايقل عنده أهمية عن الجوهر .

وهكذا نجد روايته عن اتفاقية « ورمز » الهامة سنة ١١٢٢ تحوى عنواناً خاطئاً وتفاصيل مختلة . ولكن على الرغم من هذا كله ، فإن المادة التى احتوتها كتابات اوتو ذات قيمة كبيرة ، وخاصة كلما اقتربت الأحداث من عصره وقد اعتمد فى هذه المادة على مصادر موثوق بها ، وخاصة ماكتبه إيكهارد . ولا يوجد مؤرخ آخر معاصر يناظره فى الاهتمام بشرح الحاضر فى ضوء الماضى .

أما كتابه الثانى عن أعمال الإمبراطور فردريك فهو أقل وقعًا من كتابه السابق وإن كان أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ المعاصر لأنه لاغنى عنه لمعرفة العلاقة بين فردريك والكنيسة ذلك أن اوتو كان شاهد عيان ومُلمّ تماماً بتلك الأحداث ، وعلى معرفة كاملة بالعمل الذى أقدم عليه . وقد حالت وفاته المبكرة دون إتمام هذا العمل فتوقف به عند ١١٥٨ م وكان متحيزاً للإمبراطورية الالمانية وفكرة توسعها على حساب الإيطاليين ، ولكن نشأته وصفته الدينية قادته إلى الوقوف بجانب البابا . وقد أكمل هذا الكتاب مساعد لأوتو اسمه راهوين Rahewin

ويظن أن اوتو كتب كتاباً عن تاريخ النمسا لكنه فقد . أما من ناحية الأسلوب ؛ فقد كان اوتو صاحب أسلوب مصقول ومثير ، اتسم بالبلاغة وقوة التأثير . ولقد كتب أحد المعجبين باوتو ، وهو الناقد الكاثوليكى فرانز اكس فيجيل يقول عنه ويثنى عليه : « لم تشهد المانيا لعدة قرون كاتباً له ما لأوتو أسقف فريزنج من موهبة أدبية فائقة . وإذا كان لامبرت الراهب بديرهر سفيلد قد فاق اوتو فى قدرته على رواية الأحداث ، فإن اوتو فاقه بنظرته

الفلسفية العميقة الجادة الواسعة الأفق ، وذات الطابع العالمي ، فضلا عن سمو وجهة نظره في المسائل التي عالجها . ومهما يكن الحكم على فلسفته ، فيكفي أنه كان المؤرخ الألماني الوحيد في العصور الوسطى التي توفرت له القدرة على أن يتناول بطريقة فلسفية مسيرة التاريخ العالمي ، محاولاً أن يعرض هذه المسيرة عرضاً حكيما . هذا بالإضافة إلى مكانته بوصفه من أقدر رواة التاريخ في أيامه . »[1]

أما جود فري المنسوب إلى دير فيتربو Geod Frey of Viterbo (١١٢٠ م – ١١٩٦ م) فيعتبر كل من الألمان والإيطاليين أنه منهم . ويبدو انه ولد وتلقى تعليمه في ألمانيا ، ولكنه توفي في دير فيتربو حيث قضى السنوات الأخيرة من عمره . وقد عمل في حاشية فردريك الأول بوصفه واعظاً لرجال جيشه ثم سكرتيراً ، كما أوفد في عدة بعثات دبلوماسية هامة . وتناول في كتابه التاريخي الرئيسي أعمال فردريك الأول في الفترة من ١١٥٥ م – ١١٨٠ م ومعظمه كتب نظما . وقد عالج فيه بصفة رئيسية أحداث إيطاليا التي رواها في قالب قصصي ، فما جعل كتابه دون مستوى الكتب التاريخية التي دونت في ألمانيا في العصور الوسطى والتي سبق أن أشرنا إليها .

وثمة كتاب غريب شائع ، كتبه مارتن المنسوب إلى تروباو (ت ١٢٦٨م) وأسماه « تاريخ البابوات والأباطرة » . وكان مارتن هذا راهباً من الرهبان الدومنيكان ، ثم صار أسقف فيما بعد . وقد عمل في خدمة البابا فترة من الزمان ، ودون كتابه بناء على أوامر منه . ووجه الغرابة في كتابه ، أنه نظمه بطريقة خاصة بحيث وضع البابوات والأباطرة في صفحات متقابلة فاحتوت كل صفحة على خمسين سطرا لكل سنة سطر واحد . وقد استمرت هذه الخطة بصورة منتظمة حتى سنة ١٩٧٦م ، وهي السنة التي شهدت قيام ثلاث بابوات . ولذا اضطرا مارتن إلى العدول عن خطته ، وأخذ يناقش الأحداث الكبرى المعاصرة ، والواقع أن عمله لا يمكن الاعتماد عليه كثيراً ، ولكنه مع ذلك حظى بشعبية واسعة . وكثيرا ما رجع إليه من جاء بعد ذلك من المؤرخين مثل ، المؤرخ نيقولا تريفت في انجلترا .

---

(1) F.X. von Wegele, Geschichte der deutschen Historiagraphie seit dem Aufreten des Humanismus (leipzig 1885) p. 20

التراجم التاريخية فى غرب أوربا خلال العصور الوسطى

تناولت بعض خيرة الكتابات التاريخية سير وتراجم زعماء السياسة ورجال الدين . ذلك أن النجاح الذى حققته بعض الشخصيات العظيمة – السياسية والعسكرية – فى العصور الوسطى ؛ جعل من الممكن أن تصبح هذه الشخصيات موضوعات جذابة لتراجم تاريخية . وكان يحدث عادة أن يظل الملك مؤرخ سيرته بعطفة ليضمن ثناء المؤرخ عليه وعلى أعماله . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الكتابة المتصفة المجردة عن الهوى لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى ، وأنه يمكن أن نضيف الملق والمداهنة إلى جانب بقية العيوب التى اتصفت بها كتابه التاريخ فى تلك العصور . هذا فضلاً عن أن الصبغة الدينية التى صبغت الحياة الفكرية فى العصور الوسطى ؛ جعلت كاتب التراجم فى غالب الأحيان ، يصور الشخصيات العلمانية العظيمة فى عصره على أنه وليدة العناية الآلهية فى ذلك العصر .

ومن بين سيرتين أو ثلاثة بلغت القمة فى كتابة التراجم فى العصور الوسطى ؛ تحتل ترجمة شارلمان التى كتبها اينهارد بعنوان « حياة شارلمان » – والتى سبق أن تعرضنا لها بالإشارة – مكان الصدارة . ويرتبط أيضاً بكتابة التراجم التاريخية فى العصور الوسطى ؛ كتاب اوتو أسقف فريزنج عن « أعمال الإمبراطور فردريك الأول » على أنه ربما كان أول ترجمة تاريخية يمكن اعتبارها نموذجاً لكتابة التراجم فى العصور الوسطى ؛ هى ما كتبه « آسر »

عن « حياة ألفرد » . وكاتب هذه الترجمة قسيس من ويلز ، عاش فى أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن العاشر للميلاد . وتبدأ الترجمة بسنة ٨٤٩ ميلادية وهى السنة التقليدية التى تحدد مولد صاحب السيرة . على أن تلك الترجمة تجاوزت الحدود المعروفة لسيرة « ألفرد » فتناول الأحداث العظمى فى عهده . واستعان المؤلف فيما دونه من سيرة وفيما رواه ؛ بكتاب تارين السكسون . ولكن الكتاب جاء مليئا بالأحداث الطريفة ، و تتجه نغمته نحو إطراء ألفرد . أما أسلوبه فيتصف بالسهولة والتشويق . وقد أضاف له بعض الكتاب المتأخرين إضافات كثيرة ، وتضمنت هذه الإضافات بعض قصص قديمة عن « آرثر » مثل تلك الأسطوره القائلة بإهمال نسب إلى آرثر تسبب عنه احتراق طعام أحد قطعان البقر . وقد نقل فلورنس المنسوب إلى وركستر (ت ١١١٨ م) كتاب « آسر » بأكمله .

وربما كان أكثر وضوحا بالنسبة لنا ، تلك الترجمة التي كتبها شوجر Suger مقدم دير سانت دينس ، ومستشار الملك لويس السابع ؛ عن حياة الملك لويس السادس - أو السمين - أحد الملوك الأوائل المبرزين في أسرة كابيه . ولم يكن كتابه حولية فحسب ، وإنما كان ترجمة للملك لويس . ومن ثم فإنه ينبغي على من يريد الوقوف على كافة الأحداث في ذلك العصر أن يرجع إلى كتب أخرى . وكان شوجر في كتابته متحيزاً للملك لويس بصفة عامة ، ولكن ليس بالدرجة التي تعكس الحقائق . هذا إلى أنه كان منصفاً للإنجليز في كتابته . وإذا كان جافاً ، إلا أنه كان يأخذ طابعا مشوقاً جذاباً في روايته للأحداث المثيرة أما قواعد النحو اللاتيني ، فلا جدال في أنها بلغت حدا كبيراً من السوء في ذلك الكتاب . أما عن ترجمة الامبراطور كونراد الثاني (١٠٢٤ م - ١٠٣٩ م) التي كتبها قسيسه ويبو Wippo فهي سيرة فذة متكاملة على الرغم مما فيها من إفراط في تملق كونراد .

ومن أكثر الشخصيات الكنسية البراقة التي استهوت كتاب السير والتراجم في العصور الوسطى ؛ كان البابا جريجوري السابع ، الذي وجد من ترجم له في شخص القس الايطالي بولس المنسوب إلى برنريد Bernried . فكتب كتابه «تاريخ جريجوري السابع» وأتم ذلك الكتاب سنة ١٢٢٨ سنة م . وقبل أن يقدم بولس على كتابة هذه السيرة ؛ أعد نفسه بدراسة واسعة ، فضلاً عن تقصي الحقائق والرجوع إلى كثير ممن شهدوا الأحداث وعاصروها . وكانت نتيجة ذلك أن خرج كتابه من أحسن الكتب التاريخية التي كتبت في إيطاليا عن النزاع حول التقليد العلماني . هذا إلى أن بولس اعتمد على مصادر طيبة ، ودرس كثيراً من الوثائق الرسمية . ومن الثابت أنه لم يقم بنقد أو تقنين تلك الوثائق التي رجع إليه ، مما أوقعه في بعض أخطاء كبيرة ، فضلاً عن استعداده للاعتراف بالخوارق والأساطير . ولكن حتى في هذه المواضع يستطيع القارئ بسهولة أن يميز بين ما أخذه بولس من الأساطير ؛ وبين ما استقاه من مصادر تاريخية حقيقية . والكتاب يؤيد البابا جريجوري تأييداً قويا ، ويؤكد في صفحاته النفوذ الأدبي الكبير لذلك البابا .

أما ملك فرنسا القدير ذو الشخصية البراقة «فيليب أوغسطس» فقد ترجم له كل من ريجورد المتوفى حوالي سنة ١٢٠٧ م ، ووليم بريتون حوالي ١٢٢٧ م . أما ريجورد فكان مثل شوجر ، أحد رهبان دير سانت دنيس . وبدأ كتابة عن «حياة فيليب أغسطس» حوالي سنة ١١٩٠ م . واستغرق في كتابته عدة سنوات ، حتى غطى فيه الفترة مابين ١١٧٩ ، ١٢٠٧ م .وقد أدخل بين ثنايا سرده بعض القصص القديم أو الأسطوري ، مما يرتبط بأصل الأمة الفرنسية ، كما ضمن كتابه أيضاً جداول زمنية بملوك فرنسا . والواقع ، إن ريجورد لم يكن رجلاً كبير العقل ، ولا مؤرخا عظيما ، لكن تحيزه لفيليب أرضى هذا الملك ، ودفعه إلى رعاية كتابه . أما وليم بريتون ، فكان أحد القساوسة في بلاط فيليب ، ووافق ريجورد إلى حد

يعيد فى كونه مؤرخا ناجحا . وقد عهد إليه بعدة بعثات ديبلوماسية وسياسية ، وصاحب الملك فيليب فى كثير من حروبه . وقد قام بإكمال كتاب ريجورد حتى سنة ١٢١٩ م ، وكتابه لاغنى عنه ، خصوصاً عند دراسة الفترة من ١٢٠٩ م حتى سنة ١٢١٩ م . أما شعر وليم الذى نسبه إلى فيليب ؛ فيلقى كثيراً من الضوء على النواحى الجغرافية ، وعلى تقاليد وعادات ذلك العصر .

وربما كانت الترجمة الوحيدة فى العصور الوسطى ؛ التى تناظر أو تفوق ما كتبه اينهارد عن حياة شارلمان ، هى تلك التى كتبها جوانفيل Joinville (١٢٢٤ — ١٣١٩ م) عن لويس التاسع . ذلك أن جوانفيل كان صديقاً ومستشاراً للملك لويس التاسع ، وموضوع ثقته . ومن المحتمل أنه شرع فى تدوين أو إملاء كتابه «تاريخ القديس لويس» بعد أن تقدم به السن . وتكاد تكون الحملة الصليبية السابعة هى محور الكتاب ، والاطار الاساسى لأحداثه ، حيث إنه ركز على أحداث الفترة من ١٢٤٨ م إلى ١٢٥٤ م . وقد استهدفت المادة التاريخية — مع كونها سليمة ويمكن الاعتماد عليها نسبيا — تأكيد ما للملك لويس التاسع من صفات القداسة . وكان جوانفيل أقل تشككا من فيلهاردون فى المعجزات . أما فلسفته السياسية . فتتجه نحو الدفاع عن تركيز السلطة فى يد الملوك ، مثلما كان فيلها ردون مدافعاً عن الإقطاع والفروسية . وقد كتب جوانفيل كتابه فى أسلوب جميل ممتع ، سواء كان موضوع حديثه وصفا ، أو مدحا ، أو قدحا .

أما سيرة ماتيلدا أميرة تساكنيا ؛ فقد كتبها نظماً باللاتينية فى القرن الحادى عشر دونيزون Donnizone فى كتاب اسماه «حياة ماتيلدا» وهو الكتاب الذى يعتبر أول ما أسهمت به إيطاليا بشكل فعال فى ميدان التراجم التاريخية فى العصور الوسطى . كذلك أنجبت إيطاليا فى القرن الرابع عشر كتاباً غُفْلاً من اسم صاحبه بعنوان «حياة كولادى ريترى» Life of Cola de Rienzi ، وهو أعظم الكتب التاريخية شهرة فى روما خلال القرن الرابع عشر بأسره . ذلك أن مؤلفه أظهر مهارة فائقة فى علاج مشكلة عويصة ؛ هى تصوير شخصية كولا ذات التركيب المتناقض ، وتصوير تطور نفوذه وشخصيته . ولهذا الكتاب أهمية خاصة ؛ من ناحية أنه يكشف النقاب عن المؤمرات المعاصرة داخل الكنيسة والدولة ، مما يجعله فى جملته كتاباً شيقاً للقارئ .

ويأتى فى المرتبة التالية لكتاب جوانفيل من ناحية الأهمية بين كتب التراجم الفرنسية فى العصور الوسطى ؛ الكتاب الذى كتبه حنا جوفينال (١٣٣٨ م — ١٤٧٣ م) عن حياة شارل السادس .

ومؤلف هذه الترجمة كان محامياً بارزاً ورئيساً لأساقفة ريمس . ومن ثم فإنه كان قوى الصلة بالأوضاع الكنسية والسياسية المعاصرة . وتناول كتابة الفترة من ١٣٨٠ م — ١٤٢٢ م وهى مدة حكم شارل السادس بأكملها : وكتابته لها قيمتها الكبيرة بالنسبة لأمور الدولة والكنيسة جميعا . ويتصف أسلوبه بأنه ممتع وسهل ، ومشوق فى جملته للقراء بدرجة كبيرة ، هذا إلى ان المؤلف امتاز بنظرة محايدة عميقة إلى أمور عصره .

ومن بين التراجم الذاتية فى العصور الوسطى يبرز الكتاب الذى كتبه عن نفسه « ابيلار » وهو من أذكى مواهب تلك العصور . وهناك كتاب يقترب من هذا الكتاب ، وله نفس شهرته ولكنه دونه فى الجودة ، هو كتاب « اعترافات القديس أوغسطين » الذى يرجع إلى عهد آباء الكنيسة ، وهو العهد الأول الذى سبقت الإشارة إليه .

وهناك بالإضافة إلى ذلك ، مادة تاريخية نجدها فى العصور الوسطى فيما كتب من شعر أو أغانى ، أو دعوات دينية ، أو قصص قصيرة ، أو أساطير خرافيه ، أو عهود وبراءات ومراسيم عامة ، مما لا يسمح المجال بدراستها هنا ، مع اعترافنا بأهميتها كمصدر هام للمعرفة التاريخية

المؤرخون البيزنطيون فى العصور الوسطى

ساد إلى وقت قريب اعتقاد خاطئ فى أن التاريخ الوسيط هو بوجه عام تاريخ أوربا اللاتينية خلال تلك العصور . ومن ثم ؛ فإن الكلام عن المؤرخين فى العصور الوسطى كاد لا يتعدى ذكر أسماء المؤرخين الغربيين فى أوربا ، مع إهمال كثيرين من عمالقة المؤرخين فى الشرق ، سواء مؤرخى الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطيه ، أو المؤرخين المسلمين . وسنشير فيما يلى باختصار إلى هؤلاء المؤرخين فى العصور الوسطى .

أما عن الدولة البيزنطية ، فقد سبق أن أشرنا إلى بعض مؤرخيها الذين ظهروا فى دور مبكر من تاريخها ، ومن أمثلة هؤلاء المؤرخين الكنسيين ؛ ايوزيبوس ، وسقراط وسوزرمين ، ثيودوريت . ومن المؤرخين العسكريين السياسين ؛ سبق أن ذكرنا بروكوبيوس . وربما كان أول المؤرخين العلمانين فى الشرق البيزنطى هو اوتريبوس ؛ السكرتير العسكرى للملك قسطنطين . وقد توفى هذا المؤرخ بعد ٣٧٨ م بقليل . وكتب هذا المؤرخ تاريخه باللاتينية ، وذلك قبل أن تصبح اللغة الإغريقية هى اللغة الرسمية فى الدولة البيزنطية . وأهم كتبه التاريخية كتاب أسماه « مختصر عن قيام الدولة الرومانية » ألقى فيه نظرة مجملة على التاريخ الرومانى حتى أيام الامبراطور فالنز . وقد استخدم هذا الكتاب وأضاف إليه « بولس الشماس » فيما بعد . ومن بين أهم المؤرخين البيزنطيين الأوائل ؛ يبرز اسم « زوسيموس » الذى لمع اسمه حوالى منتصف القرن الخامس . وقد سمى كتابه « التاريخ الجديد » وتناول الأحداث التى وقعت منذ أيام أوغسطس حتى سنة ٤١ م . وكان زوسيموس وثنياً ، وكان يحس ؛ إحساساً يفيض بالألم ؛ بضعف الإمبراطورية الرومانية وضياع هيبتها . وأرجع سبب ذلك إلى قيام المسيحية ، وإرساء قواعدها فى الإمبراطورية الرومانية . ولذلك كان قاسياً على قسطنطين ، ومتحيزاً إلى « جوليان المرتد » عن دين المسيحية . وكانت نظرته إلى التاريخ تتعارض مع نظرة اورزيوس ، وكانت الحاجة إليها ماسة لتصحيح الفكرة عن أبعاد التاريخ ومجالاته .

أما كتاب بردكوبيوس ؛ فهو تاريخ هام لحروب الإمبراطور جوستنيان ، ويتضمن إشادة بعبقرية القائد الحربى بلزاريوس . وقد جاء متمما لهذا الكتاب ؛ كتاب عن تاريخ

الإمبراطورية الرومانية حتى عهد جوليان المرتد ، وكتبه معاصر لبروكيبوس اسمه «بطرس الشريف» وهو محام بيزنطى ، وأحد رجال السياسة . وفى عهد جوستنيان قام هسخيوس الملطى بوضع أول كتاب بيزنطى عن تاريخ العالم ، تناول فيه أحداث العالم منذ التاريخ الأشورى حتى ٥١٨ م . ثم أكمله هسخيوس ، فألقى نظرة تاريخية على عهد جستين الأول ، والشطر الأول من حكم جستنيان . وقد فقد معظم هذا الكتاب وهناك كتاب معاصر للكتاب السابق كتبه حنا مالالاس John Malalas (٤٩١ م – ٥٧٨ م) اسمه «سجل تاريخ العالم» ، تناول فيه الأحداث التى وقعت فى العالم ؛ منذ التاريخ المصرى القديم حتى عهد جستنيان ، وضمن كتابه كثيراً من الأساطير والخرافات . والواقع ؛ إن ما قام به لم يتعد سرد موجز للتاريخ حتى الجزء الخاص بتاريخ جستنيان نفسه ، واتخذ مدينة أنطاكية محوراً لتاريخه . ويفهم من كتابه أنه كان متحمساً ومؤيداً للكنيسة والملكية . وعلى الرغم مما يحتويه هذا الكتاب من مادة تاريخية لايعتمد عليها ؛ إلا أنه حصل على شهرة واسعة ، وذلك نظراً لأنه أول كتاب تاريخى فى الدولة البيزنطية يكتب بلغة دارجة بقصد الاستهلاك العام .

وعن عهد جستنيان بالذات وخاصة الفترة من ٥٥٢ م إلى ٥٥٨ م ، كتب أحد علماء ميرينا بآسيا الصغرى ، هو المحامى العلامة اجثياس الذى عاش فى أواخر القرن السادس ؛ كتاباً اسماه «تاريخ عهد جستنيان» . وقد قام ميناندر المحامى باكمال هذا الكتاب حتى سنة ٥٨٢ م ، أى بداية حكم الإمبراطور موريس (٥٨٢ م – ٦٠٢ م) ، ولكن هذه التكملة جاءت على مستوىً ضعيف ، وإن كان العمل فى ذاته لا يخلوا من أهمية ، نظراً لما تضمنه من معلومات جغرافية ، وعن السلالات والأجناس . كذلك كتب ثيوفانس البيزنطى فى أواخر القرن السادس للميلاد ؛ كتابا عن الفترة من عهد جستنيان حتى عهد موريس ، وهو الكتاب الذى شاءت الصدفة وحدها أن تجعل منه أحد المصادر الهامة عن الأتراك .

وينتمى إلى نفس هذا الجيل من المؤرخين ؛ العالم ايفاجريوس المسورى المولود حوالى ٥٣٦ م ، وهو الذى أتم التواريخ الكنسية التى كتبها سقراط ، وسوزمين ، ثيودوريت ، فعالج تاريخ الكنيسة فى الفترة من ٤٣١ م إلى ٥٩٣ م وذلك فى كتابه «التاريخ الكنسى» وأما عن حكم الإمبراطور البيزنطى موريس ؛ فإن من أقيم الكتب فى هذا المجال كتاب «ثيوفيلاكيت سيموقطا» وهو علامة مصرى ؛ حوالى سنة ٦٣٠ م . وجاء كتابه «تاريخ الإمبراطور موريس» فى ثمانية أجزاء . وقد اتسم بالبلاغة فى الأسلوب مع شئ من التكلف ، ولكنه المصدر الهام المعاصر الوحيد الذى عالج عهد الإمبراطور موريس . وكان كاتبه معاصراً لعهد هذا الإمبراطور . وفى عهد موريس أيضاً جمع حنا المنسوب إلى أفسوس ، المتوفى حوالى ٥٨٦ م – باللغة السريانية كتابه «التاريخ الكنسى» وتناول فيه التطورات الدينيه منذ أيام يوليوس قيصر حتى سنة ٥٨٥ م . ولهذا الكتاب أهمية خاصة ، حيث إنه حكى آخر حلقات

صحوة الوثنية حتى تم القضاء عليها نهائيا ، فضلاً عما يتضمنه الكتاب من وصف للتاريخ السياسى والحضارى للإمبراطورية الشرقية فى القرن السادس .

أما بالنسبة لعهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦١٤ م) فلدينا التواريخ التى كتبت نظاما عن حروب هذا الإمبراطور ضد الفرس والآفار ، وقد قام بنظمها جورج المنسوب إلى بيسيديا ، وهو معاصر عاش فى أيام تلك الحروب . ولدينا عن هذه الفترة أيضاً ، ما كتبه حنا الأنطاكى ، وقد تناول فى كتابه عن تاريخ العالم ؛ الفترة منذ أيام آدم حتى سنة ٦١٠ م . وقد أتى كتابه أكثر تكاملاً وشمولاً من كتاب حنا مالالاس . ولم يكن حنا الأنطاكى متحمساً للأساطير والخرافات ، وإنما امتاز بنظرة تاريخية واسعة الأفق ، مع عناية باستخدام المصادر . أما العصر « اللاأيقونى » فقد شهد ثلاث أعمال تاريخية هامة ، أولا : كتاب جورج سينكلوس الذى توفى فى أوائل القرن التاسع . وقد عالج علاجاً سريعاً أحداث التاريخ منذ بداية الخليقة حتى عهد دقلديانوس . وقضى مضى فى تكملة كتابه التاريخى « ثيوفانس المعترف » (٧٥٨ م - ٨١٨ م) . وقد أتى ثيوفانس بقدر كبير هام من المعلومات عن الصراع اللاأيقونى . وكان موقفه إلى جانب اللاأيقونيين . ومن أفضل ما عمله ثيوفانس ؛ أنه استخدم عدداً من المصادر الهامة القديمة ، وبذلك صان مادتها من الضياع . وقد رجع إلى كتابه عدد من المؤرخين البيزنطيين الذين جاءوا من بعده .

أما البطريرق نقفور - بطريرق القسطنطينية (٧٥٨ م - ٨٢٩ م) فقد كتب موجزاً قيما عن التاريخ البيزنطى فى الفترة من ٦٠٢ م إلى ٧٧٠ م ، وهو واحد من أهم المصادر التى تصف ظهور « البلغار » على مسرح التاريخ فى البلقان . وإلى جانب ذلك ؛ فإن البطريرق نقفور كتب جدولاً زمنيا موجزاً ؛ لخص فيه الأحداث منذ عهد آدم حتى عصره ، ولكن هذا الكتاب أقل قيمةً من سابقه .

وفى أواخر عصر الحركة اللاأيقونيه - أى حوالى سنة ٨٥٠ م ؛ كتب جورج هامارتولس كتابه الذى عرض فيه تاريخ العالم منذ آدم حتى ٨٤٢ م . وكان المؤرخ شاهد عيان للأحداث التى ذكرها فى الأجزاء الأخيرة من كتابه ، ولذا فإن كتابته تضمنت قدراً ثميناً من المعرفة الثقافية ، والدينية ، والفنية عن ذلك العصر . هذا فضلاً عن أهمية الكتاب نتيجةً لما ألقاه من أضواء على الحياة الديرية فى الشرق . وقد حظى التاريخ الذى كتبه هامارتولس Hamaftolus باهتمام المؤرخين البيزنطيين فى الوقت المتأخر ، وتأثر به إلى مدىً أبعد ؛ المؤرخون الروس فى أواخر العصور الوسطى .

وفى عهد قسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٨ م) كتب « يوسف جنسيوس » كتاباً أسماه « تاريخ القسطنطينية » عالج فيه الفتره من عهد ليو الخامس حتى ليو السادس (٨١٣ م -

٨٨٦ م) . وقد صدر هذا الكتاب فى أربعة أجزاء . ويمكن الأعتماد على المادة التاريخية التى تضمنها ، والتى جاءت بأسلوب واضح مبسط .

وفى أوائل القرن العاشر كتب سيمون ميتافراستس Simon Metaphrestis وهو أحد السياسين ذوى النفوذ فى توجيه مصائر الأمور فى الدولة البيزنطية ؛ كتابه الشهير «حياة القديسين» . وثمة كتاب نسب إلى الامبراطور قسطنطين السابع ؛ عن حياة الإمبراطور «باسل الأول» . ومن المحتمل أن يكن قد كتب هذا الكتاب أحد العلماء تحت رعاية الإمبراطور قسطنطين السابع . ومهما يكن الأمر ، فإن هذا الكتاب يحوى معلومات كثيرة عن الأوضاع التشريعية والتاريخ الحربى لذلك العصر .

أما التاريخ الذى كتبه ليو الشماس ، أهم ما كتب عن الفترة من ٩٥٩ م حتى ٩٧٥ م ، وبخاصة فيما يتعلق بحروب البيزنطيين ضد المسلمين والبلغار . على أنه لا جدال فى أن أعظم أعلام الثقافة البيزنطية هو ميخائيل قسطنطين بسيللوس الذى عاش بين سنتى ١٠١٨ — ١١١٠ م . ذلك أنه كتب تاريخاً علمياً قيماً عن الفترة مابين ٩٧٦ م ، ١٠٧٧ م ، ضمنه ما سبق أن كتبه ليو الشماس . ويعتبر أسلوبه نموذجا طيبا لأسمى ما بلغته الكتابه اليونانية من بلاغة فى العصر البيزنطى وثمة كتاب تاريخى آخر يرجع إلى القرن الحادى عشر ؛ هو الكتاب الذى ألفه ميخائيل أتالياتا (حوالى سنة ١٠٧٥ م) ، وعالج فيه الفترة منذ ١٠٣٤ م حتى ١٠٧٩ م ، ولما كان ميخائيل هذا مشرعاً قديراً ، فإن كتابه التاريخى هذا عنى عناية قوية بالتطورات القانونية والإدارية . وقد كتب حنا سكتليتزا تاريخاً دسما للسنوات من ٨١١ م حتى ١٠٥٧ م . ثم قام جورج كدرينوس بتضمين كتابه عن تاريخ العالم (حوالى سنة ١١٠٠ م) الكتاب الذى كتبه حنا سكليترا .

وفى نفس هذه الفترة ؛ ظهر كتابان تاريخيان فى التاريخ العالمى ، فكتب جورج كدرينورس Cedrenus فى سنة ١١٠٠ م كتابه الذى سبق أن أشرنا إليه ، وتناول فيه أحداث العالم منذ بدء الخلق حتى سنة ١٠٥٩ م فى حين كتب حنا زوناراس Zanaraus (ت ١١٣٠ م) وهو من أقدر المؤرخين البيزنطيين فى العصور الوسطى — تاريخاً حقيقياً للعالم فى ثمانية عشر جزءاً ؛ تناول فيها تاريخ العالم منذ بدأ الخلق حتى سنة ١١١٨ م .

ولم يلتزم فى كتابه هذا بالمنهج التقليدى لمؤرخى العصور الوسطى ، وإنما اعتمد على الحقائق الثابتة وخاصة بالنسبة للفترة الأخيرة التى تناولها فى كتابه . وقد استعان على نطاق واسع بما سبق أن كتبه الكتاب القدامى من الإغريق والرومان . ثم إن زوناراس كتب مؤلفات أخرى أقل أهمية عن تاريخ الكنيسة الشرقية . أما ما كتبه ميخائيل جليكوس فى القرن الثانى عشر عن تاريخ العالم فيعتبر من أكثر الكتابات التاريخية التى صدرت فى الدولة البيزنطية شيوعاً فى العصور الوسطى .

وثمة كتاب طريف عن الإمبراطور الكسيوس الأول كتبته أبنته آنا كومننا Anna Comneta المولودة سنة ١٠٨٣ م . وكانت آنا هذه قد دبرت مؤامرة لتخلف أباها على العرش ، لكن مؤامرتها باءت بالفشل وعندئذ عوقبت بالنفي فعكفت في منفاها على كتابة تاريخ حياة أبيها الكسيوس الأول وحكمه الذي امتد من ١٠٨١ م حتى ١١١٨ م . وكتبت كتابها هذا بأسلوب بلاغي على نمط كتابات المؤرخين الإغريق القدامى . وقد دفعتها الرغبة في تملق أبيها واستعطافه إلى المبالغة في إظهار الحماسة نحوه وتضخيم أعماله ، مما ترتب عليه إهمالها بعض الأحداث العامة الكبرى المعاصرة . ومع أن التاريخ الذي كتبته آنا كومننا به كثير من نواحي النقص والعيوب ، إلا أن له أهمية بخاصة من ناحية كونه من المصادر البيزنطية الأولى عن الحركة الصليبية في دورها المبكر .

وقد ظهر في اسرة كومنين أحد المؤرخين البيزنطيين المبرزين تجدر الاشارة إليه وهو السكرتير الإمبراطوري حنا كيناموس John Cinamus (جاء بعد ١١٧٥ م تقريباً) ، ذلك أنه تعمد محاكاة طريقة اكزنيفون وبروكبيوس ، من المؤرخين القدامى . ويقع ما كتبه في ستة أجزاء تناولت حكم حنا الثاني ومانويل الأول ، وتضمنت أحداث الفترة من ١١١٨ م إلى ١١٧٦ م . وقد أثنى كثيراً على الإمبراطور مانويل ، كما دافع عن الإمبراطورية البيزنطية ضد مطامع البابا والكنيسة الكاثوليكية الغربية . وجاء ما كتبه في أسلوب رائع متين .

ومن الواضح أن الحروب الصليبية وخاصة الحملة الرابعة منها أثارت اهتمام المؤرخين البيزنطيين كثيراً، وأبرز الأعمال في هذا المجال ما كتبه نيقتاس أكوميناتوس Nicetas Acominatus الذي توفى سنة ١٢١٦ م ، وهو الذي على وجه التقريب شبيه بالمؤرخ نيلهاردون الذي أرخ عن العصر البيزنطي .ويقع ما كتبه في ٢١ جزءاً ، تناول فيها الفترة من ١١٨٠ م إلى ١٢٠٦ م وتضمنت وصفا لحصار الصليبيين للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ م . وهذا الكتاب من بعض النواحي عبارة عن عدة دراسات عن حياة الأباطرة المعاصرين . ويعتبر خير ما كتب عن الحقائق الخاصة بحكم عمانويل الأول وسقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م . ويناقش المؤلف في طريقة محببه تفوق الحضارة البيزنطية على ما أسماه واعتبره بربرية الغرب والواقع أنه كان أكثر إدراكاً لطبيعة وأصول العلاقات بين الشرق والغرب من أي مؤرخ آخر معاصر في أي بلد من بلدان العصور الوسطى .

وثمة مؤرخ بيزنطي آخر هو نقفور بلميدس Nicephorus Blemmydes برز في النصف الأول من القرن الثالث عشر وترجم لنفسه في سيرة شهيرة . وقد تضمنت هذه السيرة وصفاً طيباً لتطور الحياة الكنسية في ذلك العصر فضلاً عن الأحوال السياسية

والاجتماعية المعاصرة . وجاء تلميذه وهو رجل السياسة جورج اكروبوليتا George Acropoliwa (١٢١٧ – ١٢٨٢ م) فكتب كتاباً من أعظم الكتب التاريخية البيزنطية «تاريخ الإمبراطورية البيزنطية من ١٢٠٣ م إلى ١٢١٦ م» وهو خير ما كتب عن الفترة الحرجة منذ سقوط القسطنطينية حتى بعث الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى . وكان جورج هذا شاهد عيان لكثير من التطورات والأحداث التى كتب عنها ، وامتاز أسلوبه فى الكتابة بالمستوى الراقى الذى امتازت به محتويات الكتاب . وأما عن الفترة التالية ، فهناك كتابات جورج باخميروس George Pachumeres (١٢٤٢ – ١٣١٠ م) التى عالجت تاريخ الإمبراطورية البيزنطية من ١٢٦١ م إلى ١٣٠٨ م . وعلى الرغم مما تتصف به كتاباته من ادعاء وتظاهر بالعلم والمعرفة ، مقلداً فى ذلك المؤرخين القدامى ، فإن هذه الكتابات لها قيمتها الكبرى بوصفها مصدراً للمعلومات والمعرفة عن الصراعى الدينى والمذهبى فى هذا العصر . وقد جاء ما كتبه غير متحيز إلى حد ما بالنسبة لما كانت عليه الكتابة فى عصره .

ولدينا من المؤرخين فى القرن الرابع عشر نقفور جريجوراس (١٢٩٥ م – ١٣٦٠ تقريبا) واسم كتابه «التاريخ البيزنطى من ١٢٠٤ م – ١٣٥٩ م» . وقد جاء هذا الكتاب فى ثمانية وثلاثين جزءاً بمثابة دراسة مفصلة للدين ، والفلسفة ، والعلوم : أما ما كتبه فى التاريخ فله قيمته حيث أنه ألقى ضوءاً على حضارة الدولة البيزنطية ، ومانشب داخلها من منازعات دينية عقب صحوتها فى القرن الثالث عشر .

أما عن العصر الأخير فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وهو العصر الذى انتهى بغروب شمسها وسقوطها فى يد الترك ، فقد عالجه ثلاثة مؤرخين شهدوا جميعا تلك الأحداث ، أولهم دوقاس (١٤٦٠ م تقريبا) وهو من رجال الحاشية فى البلاط البيزنطى ومن رجال السياسة ، وقد تناول فى كتابته الفترة من ١٣٤١ م – ١٤٦٢ م . وأما جورج فرانتزيس George Phrantzes (١٤٠١ م – ١٤٧٨ م تقريبا) فقد عالج أحداث الفترة من ١٢٥٨ م إلى ١٤٧٦ م . أخيرا يأتى لايونيكاس – خالكونديليس Laonikas Chalkondyles (حوالى ١٤٦٠ م) الذى عالج الفترة من ١٢٩٨ إلى ١٤٦٣ م . ويعتبر كتاب فرانتزيس أحسن الكتب الثلاثة السابقة فى تصوير نهاية الإمبراطورية الإغريقية ، ذلك أنه كتب كتابه بوصفه شاهد عيان وبطريقة مشوقة وجاء بمادة يعتمد عليها . اما خالكونديليس فكان أول من فطن إلى خطر ظهور الترك على مسرح التاريخ وإلى تقييم قوتهم فى القرن الخامس عشر . ويجدر بالذكر أيضاً أن نشير إلى ما كتبه المؤرخ البيزنطى كريتو بولس المنسوب إلى امبروس وذلك عن عهد السلطان محمد الثانى حتى سنة ١٤٦٧ م .

وأخيرا ، فإننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن المؤرخين البيزنطيين فاقوا نظراءهم من المؤرخين الغربيين فى سعة العلم والمعرفة . ذلك أن التراث الكلاسيكى القديم كانت له جذوره وسلطانه فى الإمبراطورية البيزنطية أكثر مما كان فى الغرب الأوربى . ولكن هذا الأثر للتراث الكلاسيكى خفف منه وأضعف من نفوذه إلى حد ما الطابع الجديد المتنوع للأدب البيزنطى . وهكذا ظل الكتاب فى الدولة البيزنطية يحاكون فى هذا الشكل والجوهر الكتاب القدامى فى العصر الكلاسيكى دون أن تتاح له فرصة للتجديد والابتكار بالدرجة التى اتيحت لكتاب الغرب الأوربى . ففى العصور الوسطى كانت الحياة الثقافية فى غرب أوربا تتطور من مستوى منحط قريب من مستوى البربرية إلى مستوى حضارى راقد نوعاً ما . أما فى الشرق البيزنطى فكانت الثقافة تتدهور من المستوى الكلاسيكى القديم لتصبح ضحلة صورية . وهكذا فى الوقت الذى كانت ثقافة الغرب تنمو وتتألق إذا بثقافة الشرق تجف وتذبل . وفى كلتا الحالتين سواء فى الشرق أو فى الغرب كانت فلسفة العالم المسيحى تدفع الكتابة التاريخية بطابع خاص ، وهنا نجد أن البيزنطيين فى الشرق جرفهم تيار الخلافات العقائدية أكثر مما حدث فى الغرب المسيحى .

أما عن كتابة التاريخ فى روسيا فى أواخر العصور الوسطى فقد تأثرت بشكل عميق بما كانت عليه فى الدولة البيزنطية . والواقع أن روسيا لم تعرف سوى القليل من الكتابة التاريخية فى بداية العصور الوسطى نظراً لحالة الجهل وعدم المعرفة بالقراءة والكتابة ، باستثناء الجنوب . وقد ظهرت عدة كتب تاريخية مجهول أصحابها منذ منتصف القرن الحادى عشر وأهم هذه الكتب «التاريخ النسطورى و التاريخ الفالسى» فى القرن الثالث عشر ثم وضح بعد سنة ١٤٠٠ م تأثر المؤرخين الروس بالمؤرخين البيزنطيين وخاصة بالمؤرخ هاماركولس . ولم يلبث أن أصبحت الكتب التاريخية التى كتبها المؤرخون الروس بعد ذلك مجرد مجاميع رسميه . وفى أواخر العصور الوسطى جمعت فى روسيا كثير من الكتابات عن حياة القديسين وهى كتابات مليئة بالمعجزات والأساطير .

بعض المبرزين من المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى

كانت حضارة الشعوب الإسلامية لا الحضارة المسيحية هى أرقى حضارات العالم وأكثرها تقدماً فى العصور الوسطى . ويبدو صدى هذه الحقيقة فى الجانب الثقافى ، الأمر الذى ترتب عليه ظهور عدد من المؤرخين يعتبرون من أقدر المؤرخين الذين عرفتهم العصور الوسطى . وعلى رأس هؤلاء المؤرخين يأتى ابن خلدون الذى فاق تماما أى مؤرخ مسيحى فى العصور الوسطى ، وذلك فى إدراكه لأصول التطور البشرى والثقافى والعوامل التى تتحكم فى ذلك التطور ، ولم يستطع مؤرخ آخر فى العالم المسيحى أن يضارع ابن خلدون فى تلك المكانة حتى عهد فولتير فى القرن الثامن عشر الميلادى . وإذا قارنا المؤرخين المسلمين فى مجموعهم بالمؤرخين المسيحيين نجدهم يمتازون بالقدرة على استنباط أحكام مستقلة ، كما يمتازون بسعة الأفق وعدم التعصب فضلاً عن تفوقهم فى الإلمام بأساليب التقويم والترتيب الزمنى للأحداث ، الأمر الذى مكنهم من التأريخ للأحداث على نحو أدق بكثير مما فعله الكتاب المسيحيون . .

وتنحصر البواعث الرئيسية التى شجعت المسلمين على العناية بكتابة التاريخ فى القرون الأولى التى أعقبت البعثة النبوية فى الرغبة فى تزويد الخلف بتراث الإسلام ، والحماسة لإثبات صلة النسب بالرسول (علية السلام) والحرص على تمجيد الفتوح الإسلامية وإعلاء شأن المجاهدين المسلمين . وظل التوثيق التاريخى عند المسلمين يقوم على أساس روايات متصلة يرويها الخلف عن السلف وتتناول أصل العقيدة الإسلامية وإنتشارها . ولم تكن الدراسة التاريخية والنقد أمراً أساسياً عند نقلة الروايات والمأثور من الحديث والسنة . وعلى هذا الأساس فقد بدأت كتابات التاريخ عند المسلمين فى شكل العناية بالتاريخ الدينى والسياسى ولم يعن بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى سوى أقدر المؤرخين المسلمين واعظمهم ابتكارا . ثم إن المؤرخين المسلمين آمنوا بالنظرية نفسها التى آمن بها المؤرخون المسيحيون ، وهى نظرية العناية والمشيئه الالهية وأثرها فى تطور أحداث التاريخ . وكل ما هناك هو الله عز وجل حل محل يهوه اله العبرانيين . ثم إن طريقة الكتابة عند المؤرخين المسلمين تأثرت إلى حد كبير بالأساليب الفارسية كما يبدو ذلك من بعض كتابات الفردوس (٩٣٥ — ١٠٢٠ م) التى ترجمت بسرعة إلى العربية .

ومن الطبيعى أن تنحصر أولى الأعمال التاريخية عند المسلمين فى السيرة النبوية من ناحية وفتوح البلدان على أيدى المسلمين من ناحية أخرى . وكان أول كتاب يسترعى الاهتمام من كتب السيرة النبوية هو كتاب ابن إسحق المتوفى سنة ٧٦٨ م ، ويتصف هذا الكتاب بأنه محاولة جادة لجمع الحقائق المرتبطة بالسيرة النبوية من ناحية وأصول الإسلام من ناحية أخرى . والواقع أنه من خيرة الكتب التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة الفترة التى أعقبت البعثة النبوية ، ولذا اعتمد عليه المؤرخون المسلمون الذين جاءوا بعد ذلك ، كما ضمنه ابن هشام (ت ٨٣٤ م) كتابه المشهور عن السيرة النبوية . ومن أوائل الكتب الهامة التى تكلمت عن الفتوحات الإسلامية كتاب الواقدى (٧٤٧ م - ٨٢٣ م) ، وهو المؤرخ الذى حظى بمكانة كبيرة فى بلاط الخلفاء العباسيين .

ثم خطت كتابة التاريخ خطوة واسعة على يد البلاذرى (ت ٨٩٢ م) الذى كتب تاريخا نموذجياً لحروب المسلمين وفتوحاتهم الأولى وسمى كتابه « فتوح البلدان » وينتمى إلى نفس جيل البلاذرى مؤرخ آخر هو الدينورى (ت ٨٩٥ م) الذى كتب كتاب « الأخبار الطوال » وهو مؤلف هام يعالج تاريخ العرب والفرس . أما خير ما كتب عن الخلافة العباسية فى بغداد فهو كتاب « تاريخ بغداد » لأمين أبى الطاهر المتوفى سنة ٩٠٢ م .

أما عمدة المؤرخين فى التاريخ السياسى ورواية الأخبار فى الإسلام فهو الطبرى (٨٣٨ م - ٩٢٣ م) الذى تنقل وتجول كثيراً ودرس الشريعة الإسلامية وعلومها . وقد تناول فى كتابه « تاريخ الرسل والملوك » أحداث التاريخ حتى ٩١٥ م . والواقع أنه أجاد فى كتابه التاريخ كتابة حولية ، فشاع كتابه وتداوله المؤرخون المسلمون الذين جاءوا من بعده ، وحاكوه واتخذوه نموذجاً لهم ، حتى شبهه البعض بأنه صار عند المسلمين فى منزلة المؤرخ ليفى عند الرومان . على أن هذا التشبيه غير دقيق لأنه أدق من ليفى وإن كان دونه فى بلاغة الأسلوب . والواقع أن كتاب الطبرى عبارة عن تجميع لحشد ضخم من المادة التاريخية ، مع قليل من التنظيم والتنسيق ، مما يجعل أهميته تنحصر فى كونه مصدراً ينهل منه المؤرخون من بعده .

أما المسعودى المتوفى سنة ٩٥٦ م فلم يكن مجرد أحد مؤلفى الموسوعات فى الإسلام ، وإنما كان أيضاً واحداً من رواد المؤرخين المسلمين . ذلك أنه نبذ طريقة الطبرى فى التأريخ الحولى ورتب تاريخه وفقا لتسلسل الخلفاء والأسرات الحاكمة والموضوعات . واحتوى كتابه « مروج الذهب » على كثير من المعرفة والمعلومات الخاصة بعلم الأنساب والسلالات فضلاً عن الجوانب الثقافية والاجتماعية ، كل ذلك بالإضافة إلى الأحداث السياسية . وإذا كان المسعودى قد وصف بأنه « هيرودوت العرب » فأن هذا الوصف جاء سليما عادلاً ، لأنه كانت

له نفس القدرة على الاستطلاع والتامل والحماسة فى جمع المعرفة مثلما كان «لأبى التاريخ» ولكنه كان أكثر أنقيادًا من هيرودوت فى تقبل الأساطير والعجائب .

أما ابن مسكويه (حوالى ٩٧٠ م) فكان من أقدر المؤرخين المسلمين وأشدهم إعجاباً بالطبرى ذلك أنه جمع بين الذكاء النادر والإلمام الكامل بكثير من المعلومات الجديدة الحية وخاصة فيما يتعلق بالأمور الإدارية والحربية . وامتاز كتابه «تجارب الأمم» بصدق الأحكام والبعد عن الهوى والصراحة حتى فيما يقوله عن أعظم حكام المسلمين . لذلك لاعجب إذا قال عنه الأستاذ مارجليوث عند حديثه عن المؤرخين المسلمين «إن كتابه التاريخ بلغت ذروتها على يد مسكويه» . هذا وإن كان ابن مسكويه لم يرق إلى مستوى ابن خلدون فى فلسفة التاريخ .

وثمة مؤرخ آخر من مؤرخى المسلمين هو أبو على التنوخى (٩٣٩ م - ٩٩٤ م) الذى دون كتابه «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» فيما بين سنتى ٩٨٢ م ، ٩٩٤ م وجمع فيه قدرً كبيراً من النوادر والقصص التاريخية . أما عن دمشق وعن أعلام المسلمين بها فلدينا كتاب «تاريخ دمشق» لعلى بن محمد المعروف بابن عسكر (١١٢١ م - ١١٩٣ م) . أما أغزر المؤرخين المسلمين معرفة وأعاظم بحثاً فى أصول مصر الإسلامية فهو المؤرخ المقريزى (١٣٦٠ م - ١٤٤٢ م) . ولم يكن المقريزى عالماً مبتكراً بقدر ما كان رجلاً ضعيفاً فيما جمع من مادة غزيرة ، وأهم كتبه كانت أبحاثه فى خطط مصر فى كتابه «الواعظ» ، وهو كتاب لايناظره مصدر آخر عن أخبار القاهرة فى العصور الوسطى . كذلك كتب كتاباً عن تاريخ خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك وموسوعة كبيرة عن تراجم أعيان مصر[1] .

وهناك كتب تاريخية أخرى موسوعة فى التاريخ منها ما كتبه أبو الفرج الأصفهانى (٨٩٧ - ٩٦٧ م)[2] وابن الأثير المتوفى ١٢٣٤ م وأبو الفدا (١٢٧٣ - ١٣٣١ م) . ونخص بالذكر ابن الأثير بالذات بوصفه أحد المؤرخين المسلمين السباقين إلى النظر إلى التاريخ نظرة فلسفية على أساس تقييم التطور التاريخى فى ضوء الأسلوب والنتائج .

---

(١) من الواضح أن ثمة لبس وقع فيا المؤلف ، حيث إن للموسوعة الكبيرة التى كتبها المقريزى فى التاريخ وهى كتاب السلوك لم يعالج فيها تاريخ الفاطميين ، وإنما عالج تاريخ الأيوبيين والمماليك . وإذا كان المقريزى قد تعرض للفاطميين وتاريخهم ، فإن ذلك جاء عرضاً فى كتابه «المواعظ» السابق الإشارة إليه فى المتن ، فضلاً عما جاء فى كتاب «إغاثة الأمة» ، وهو كتاب صغير يعالج فيه المقريزى الجانب الاقتصادى والمجاعات والأوبئة التى تعرضت لها مصر على مر عصور التاريخ وأسبابها . كذلك لم يكتب المقريزى كتاباً مستقلا عن تراجم أعيان مصر ، وإنما جاءت هذه التراجم فى ذيل كل سنة من السنوات التى أتى على أحداثها فى كتاب السلوك (المراجع)

(٢) مرة أخرى لم يوفق المؤلف فى اختيار كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ليكون مثالاً للموسوعات التاريخية بالمئات عند المسلمين . فمع اعترافنا بأهمية كتاب الأغانى كموسوعة أدبية ضخمة ومع اعترافنا بوفرة ما فيه من مادة تفيد المؤرخ إلا أن أهميته فى خدمة علم التاريخ تأتى دون شك بعد كتاب مثل موسوعة «نهاية الارب» للنويرى مثلاً (المراجع)

أما أقدر المؤرخين المسلمين وأبعدهم شهرة فى علم كتابة التاريخ فهو المؤرخ ابن خلدون (١٣٣٢ م – ١٤٠٦ م) . وترجع أهميته إلى قدرته على تعقل موضوع التاريخ وتطبيق ذلك المذهب العقلى على مناهج التاريخ وأهدافه . ونستطيع أن نقول عن ابن خلدون إنه «روجر بيكون» العصور الوسطى بالنسبة لعلم كتابة التاريخ . لقد آمن بأن التاريخ ينبغى اعتباره علماً وأن هذا العلم عليه أن يعالج التطور الاجتماعى ، وهو ذلك التطور الذى يعتبر فى رأيه نتاجا للتفاعل بين البيئة والطبيعة وبين حياة الإنسان ككل . واستطاع ابن خلدون فى المقدمة الشهيرة التى وصفها لكتابه «العبر» أن يعرض بطريقة منسقة تلك الآراء والنظريات وأن يخلق تمييزاً واضحاً بين الكتابة الحولية التقليدية أو القائمة على اتباع نظام العهود والعصور من ناحية وبين التاريخ كما تصوره هو من ناحية أخرى ، إذ تصور ابن خلدون علم التاريخ بوصفه علم نشأة المجتمع والحضارة وتطورها . وبذلك سبق ابن خلدون كلاً من فيكو وترجو فى قوله بوحدة التطور التاريخى واستمرار ذلك التطور . وكان لابن خلدون إدراك كبير لمفهوم الزمن وأثره على تطور سنن الحياة وشرائعها . وفى معرض مقارنة ذلك بالمفاهيم الثابته أو المتطورة عند المؤرخين المسيحيين المعاصرين له ، تبرز نظرية ابن خلدون عن «تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال تبدل الأعصار ومرور الأيام .. وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأمصار فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول . وأوضح ابن خلدون الدور الذى تلعبه العوامل النفسية وعوامل البيئة على تطور الحضارة . وبذلك يكون ابن خلدون قد سبق ماركس عندما قال بأن ما تضعه الشعوب من شرائع ونظم يقوم على أساس ما تختاره هذه الشعوب من نظم وعادات . وقد طبق ابن خلدون فى كتابه «العبر وديوان المبتدا والخبر» وهو كتاب كبير فى سبعة أجزاء – هذه النظرية عن التاريخ خصوصاً عن تطور العرب الاجتماعى الثقافى ولقد قيم روبرت فلنت عمل ابن خلدون فى الكلمات التالية :

«لقد كان محمد بن خلدون أول كاتب يعالج التاريخ بوصفه علماً له خصائصه الخاصة . وسواء أكان يمكن اعتبار ابن خلدون لهذا السبب هو المؤسس لعلم التاريخ أم لا ، فإن هذا قول قد يكون محل اختلاف بين وجهات النظر ولكن أى قارئ أمين لمقدمته لا يستطيع أن ينكر أنه أحق بهذا اللقب من أى كاتب آخر ظهر قبل فيكو.»[1]

أما عن كتابة التراجم والسير فقد كانت مجال اهتمام عدد كبير من المؤرخين المسلمين . ولقد سبق أن أشرنا إلى أهم الكتب التى تناولت سيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) . ومن السير التاريخية الهامة أيضاً سيرة صلاح الدين للمؤرخ الإسلامى بهاء الدين ابن شداد (١١٨٥ م – ١٢٣٤) وطبقات ابن سعد (ت ٨٥٤ م) الذى أخرج لنا أول مجموعة تاريخية

(1) Robert Flint, The philosophy of History in France (Scribner 1894) pp. 158 f.

منظمة من التراجم لها قيمتها عن أعلام المسلمين الأوائل . ثم لدينا ياقوت الحموى (١١٧٩ م - ١٢٢٩ م) وهو أحد الجغرافيين المسلمين المبرزين ، فقد جمع معجم الأدباء وضمنه تراجم عدد كبير من مفكرى الإسلام . على أن العمل الضخم الأكثر أهمية فى مجال التراجم هو الكتاب الكبير الذى كتبه ابن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢ م) وأسماه وفيات الأعيان ، وضمنه ما لايقل عن ٨٦٥ ترجمة لمشاهير الأعلام فى التاريخ الإسلامى . ويشبه هذا العمل ما قام به ترثيميوس فى العالم المسيحى . أما الآثار الإسلامية فقد عالجتها بعض كتب مثل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وكتاب تاريخ مصر لابن إياس وقد تناول فيه تاريخها حتى الغزو العثمانى . أما العالم الاسلامى الذى يعتبر من علماء الموسوعات فضلا عن كونه من المبرزين فى الرياضيات وعلم الفلك فهو البيرونى (٩٧٣ م - ١٠٨٤ م) ويعتبر كتابه «الآثار الباقية» من خيرة كتب التقويم التاريخى الإسلامى ، إذا حاول أن ينقى هذا التقويم مما علق به من شوائب وأن ينظمه على أسس فلكية . ولم يظهر فى العالم المسيحى حتى زمن سكاليجر علم من أعلام التقويم التاريخى يضاهى البيرونى فى مكانته العلمية .

ملحوظات ختامية عن كتابة التاريخ فى العصور الوسطى

مع أننا لا نميل إلى المبالغة فى انحطاط مستوى الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى عند مقارنتها بما هى عليه فى العصر الحديث ، إلا أننا لا نستطيع أن نجامل مؤرخى العصور الوسطى - وخاصة فى الغرب الأوربى - إلى مدى بعيد . فالنماذج الجاهزة أمامنا للكتابة التاريخية فى تلك العصور ، مثل كتابات أوروزيوس وكاسيدورس كانت منحطة فى مستواها . ولم يكن هناك تجميع منظم مرتب للمصادر ، كما أنه لم يكن هناك تطبيق منظم للدراسة والبحث بل إن النظم والقواعد المتبعة فى الدراسة التاريخية كان من شأنها أن تعوق البحث وتفسده أكثر مما تخدمه . ثم إن تبادل المعلومات بين المجتمعات كان ضعيفاً بسبب ضعف الاتصالات فيما بينها وبين بعض ، الأمر الذى جعل من الصعب على الكاتب أن يلم بأطراف أى موقف من المواقف إلماماً عاماً شاملاً . هذا إلى أن مؤرخى العصور الوسطى نظروا إلى الحياة نظرة بدائية مليئة بالأوهام والخرافات مما جعلهم غير مسئولين عما يكتبون . ولم تكن هناك علوم طبيعية يستندون إليها فى مقاومة الخرافات والمعجزات ، وكذلك لم يكن هناك علم اجتماع يمكنهم من نقد أوضاع المجتمع الذى يعيشون فيه .

وتحت تأثير كل هذه الظروف ، ربما استثار عجبنا وصول مؤرخى العصور الوسطى إلى ماوصلوا إليه فعلاً . ومن عرضنا السابق الوجيز لعلم كتابة التاريخ فى العصور الوسطى تبرز

عدة حقائق يأتى فى المقام الأول منها أن الكتابة التاريخية فى تلك العصور على غرار ما كانت عليه فى العصور القديمة – تناولت الأحداث التى عاصرها المؤرخ وكانت معالجة الفترات البعيده عن عصره تأتى فى صورة رديئة مختصره . والحقيقة الثانية أنه كان من المستحيل التفرقة بين الكتابة التاريخية كما هى فى المدونات التاريخية وبين الكتابة التاريخية السليمة المنتظمة وبين السير التاريخية وذلك استناداً إلى مناهج عامة ثابتة موحدة . ويلاحظ بعد ذلك أن الغالبية العظمى من المؤرخين من رجال الكنيسة كانوا فى معظمهم من رجال الدين وخاصة الرهبان ، وهؤلاء لا يمكن أن نلومهم فى عنف على تجاهلهم للمناهج التاريخية ، فضلاً عن أنه ينبغى أن نذكر أنه لولاهم لكانت المؤلفات التاريخية فى العصور الوسطى أسوء مما هى عليه فعلاً . وبعد ذلك تأتى الحقيقة الرابعة وهى أنه ينبغى فى أول نظرة أن يكون واضحاً أن كتابة التاريخ فى العصور الوسطى فى معظمها اتبعت نظام العهود والفترات ولم تتسم تلك الكتابة بالتحليل العميق للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى أثرت فى التطور التاريخى . وأخيراً يمكن للباحث أن يدرك الحقيقه الخاصة بأن الرغبة فى مزيد من الثقافة فى أثناء الحروب الصليبية وما بعدها كان من شأنها أن يزيد فى إنتاج المؤرخين وأن يصاحب تلك الزيادة فى الكم رقى فى الكيف وهو الأمر الذى أنبأ بالعودة إلى المستوى الذى كانت عليه الكتابة التاريخية فى العصور الكلاسيكية القديمة .

المـراجـع

1- **Hayes:** An Introduction to the Sources Relating to the Germanic Invasion chaps VIII-XV.
2- **Guilday:** church Historians pp. 71-127
3- **Rlter** Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book chaps ii-iii.
4- **Thompson:** History of Historical Writing vol I. Books II-IV
5- **Charles Gross:**Sources and Literature of English History (Ma cmillan 1915)
6- **M.L.W. Lastner:** Thought and Letters in western Europe (A.D. 500-900) Dial press 1931.
7- **R.L. Poole:** Chronicles and Annals, Oxford Unversity press 1926
8- **C.H. Jenkins:** The Monastic chronicler London 1922
9- **Maire Schulz:** Die Lehre von der Historischen Mathode bei den Geschichtschreibern des Mittelaters, Berlin 1909.
10- **James Gairdner:** Early chroniclers of Europe England London 1883.
11- **Gustov Masso:** Early chroniclers of Europe France London 1883.
12- **Ugo Bulzani:** Early chromiclers of Europse Italy London 1883.
13- **Wilhelm Wattenbach:** Deutschlands Geschichtsquellen im Mittelater, bis zur Mitte der dreizehnten jahrhunderts Berlin 1893-49 2 vols.
14- **Ottokar Lorenz:** Deutschlands Geschichtsquellen in Mittelater Seit der Mitte des dreizehnten Jahrhunderots. Berlin 1886-87- 2 vols.
15- **A.A. Vasiliev:** History of the Byzantine Enpire «Unveristy of Wisconsin Studies» Madison Wis, 1978-29. u Vols.
16- **Karls Krumbacher:** Geschichte der byzantischen Letter atur munich 1897.
17. **D.S. Margolouth:** Lectures on Arabic Historians. Calcutta 1930
18- **R.A. Nicholson:** Literary history of the Arabs Machiullan 1929.
19- **Nathaniel Schmidt,** Ibn Khaldoun Columbia Unversity press 1930.
20- **J.H. Robinson ed.,** Readings in European History Vol1 Ginn 1904 2 vols
21- **J.A. Giles ed.,** Six Old English chronicles London 1888.
22- **L.R. Loomis ed;** The Book of the popes. Colunhia univ. press 1916.
23- **Ernest Brehaut ed.,** The history of the Franks by Gregory Bishop of Tours. Columbia univ. press 1916.
24- **C.C. Mierow ed.,** Two cities by Otto, Bishop of Freising. Columbia univ. press 1929.
25- **P.K. Hitti and F.C. Murgotten eds.,** The Origins of the Islamic state (Translation of Al Baladhuri) Colunhia Unvieristy press 1916, 1924
26- **J.N. Hussey** Church and learning in the Byzntine Empire. Oxford Univ. Press 1937.
27- **Heinz Quirin** Einführung in des Studium der mittelaterlichen Geschichte. Brunswick 1961.

الفصل الخامس

الحركة الإنسانية والكتابة التاريخية .

طبيعة الحركة الإنسانية وتأثيرها العام على الكتابة التاريخية

لقد أدى البحث الحديث والنظرة الناقدة للتيارات الفكرية فى التارخ الأوربى إلى تعديل آراء يعقوب بيركهاردت Jacob Burckhardt ، حنا أدنجتون Johm Adington وهى آراء مبالغ فيها عن علاقة الحركة المعروفة «بحركة النهضة» بتطور الفكر والثقافة فى أوربا . ذلك أن البعض أوضح أن حركة النهضة هذه على الرغم مما فيها من سمات عظيمة لم تمثل تقدماً مباشراً وملموساً نحو الوصول إلى المفاهيم الحديثة . وكل ما هنالك هو أن هذه الحركة جاءت وليداً طبيعياً للعصر السابق لها وهو العصر الوسيط . ولاشك فى أن هذه الحركة تمثل إحياء للعناية بالحضارة القديمة التى كانت فى كثير من جوانبها الرئيسية تتعارض مع النظرة الحديثة للحياة . لكن هذا الإحياء أسهم بطريق غير مباشر فى تطور النظرة الحديثة . وخاصة عن طريق الخروج من نطاق الجمود الذى فرضته الكنيسة على الفكر فى العصور الوسطى وعلى إبراز الاهتمام بالأمور الدنيويه .

وصار متفقا عليه الآن أن يطلق أسم (الحركة الإنسانية) على الجانب الأدبى من حركة النهضة هذه ، وليس معنى ذلك إحياء الاهتمام بالأدب القديم فحسب ، بل أيضاً تجدد استحسان وتذوق ما فى الأدب الوثنى من اهتمامات إنسانية عريضة ونظرة علمانية إلى الحياة . فهذه الحركة الإنسانية جاءت رد فعل عاطفى وشعرى للاتجاهات الروحانية المتزمتة التى تمسك بها علماء اللاهوت ، دون أن تكون ثورة حقيقية أو ملموسة على اللاهوت نفسه أو الفلسفة الاجتماعية . والفكر الذى ينتمى الى المذهب الإنسانى إنما يمثل اتجاهاً وسطاً فى ميوله ومُثله بين الفكر المدرسى فى العصور الوسطى والفيلسوف الاجتماعى أو الإنسان المتشكك فى العصر الحديث .

ومن الطبيعى أن يكون هناك تباين كبير من ناحية طبيعة ونوع حصيلة المؤرخين فى تلك الفترة ، مثل ذلك التباين الذى يبدو بين مؤلفات بوجيو Poggio ، وبين كتابات جويكاردينى Guicardini . ومع ذلك فإن هناك خصائص رئيسية لعلم كتابة التاريخ عند أصحاب المذهب الإنسانى وهى خصائص عامة وشاملة الى حد كبير مما يجعل من الضرورى حصرها والإشارة اليها .

ولقد جاء تأثير الحركة الإنسانية على الكتابة التاريخيه متمشياً تماماً مع المظاهر الرئيسية لتلك الحركة بوجه عام . فهذه الحركة بالنسبة للتاريخ كانت تعنى البحث عن النصوص القديمة ثم مقارنة ونقد وتصحيح ما تم الوقوف عليه منها . وكان أن خلق نقد النصوص التى حوتها الكتب إحساساً أولياً بقيمة المعالجة الناقدة للوثائق التاريخية .

هذا إلى أن الحركة الإنسانية كان لها أثر هائل فى تضاءل عنصر المعجزات فى عملية تفسير أحداث (التاريخ) فضلاً عن تضاءلُ «الآثار العاطفية» «للملحمة المسيحية» . ومع ذلك لا ينبغى أن نتصور أن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين أو المتشككين فى الديانة المسيحية . وإنما الغالب – أنهم تجاهلوا – ولم ينكروا – مزاعم اللاهوت والجدل الدينى . ويرجع ذلك إلى حد ما إلى وداعة النزعة الكاثوليكية .

وهكذا قدر للتاريخ الوثنى أن يستعيد إلى حد ما مكانته البارزة التى فقدها على أيدى الكتاب المسيحيين بصفة عامة وأوغسطين وأورزيوس على وجه الخصوص . ويرجع هذا إلى حد ما إلى إعجاب الإنسانيين بالثقافة الكلاسيكية فضلاً عن حقيقة هامة هى أنه لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية صار معظم المؤرخين البارزين من العلمانيين وعامة الناس بعد أن كانوا من رجال الكنيسة ورجال اللاهوت . وكان من الطبيعى أن تكون النماذج القديمة المكتوبة فى التاريخ لها أثرها الكبير فى تحسين الأسلوب من ناحية ، ثم فى شد الانتباه إلى القوى والأحداث السياسية ، وهذا أمر له أهميته . وكل هذا يعنى فى إيجاز العودة بالتاريخ الى الاتجاه العلمانى ، وهو الأمر الذى زاد من قوته النعره الاستقلالية عند المدن الإيطالية التى أخذت تظهر فى صورة جمهوريات تعتز بكيانها ، فضلاً عن ظهور بوادر القوميات الحديثة .

وكان أن بدأت كتابة التاريخ فى عصر الحركة الإنسانية فى إيطاليا بالذات ، واتخذت لنفسها طابعاً محلياً بحيث انحصرت فى دائرة تسجيل منجزات المدنية وأعمال أمرائها . ولكن لم تلبث القوميات الحديثة الناشئة أن أثرت فى كتابة التاريخ مما أدى الى اتساع دائرتها السياسية . وأخيراً فإنه على أيدى الإنسانيين ازداد الطابع التاريخى لعلم التاريخ وضوحاً ورسوخاً . ذلك أن اهتماماتهم تركزت أساساً فى حضارة الماضى البعيد ، ومن ثم لم يقصروا كتاباتهم التاريخيه على

التاريخ المعاصر أو مجرد إطالة فيها إضافات منوعة لما كتبه جيروم . والحق أن ثمة محاولات لا بأس بها لكتابة تاريخ العالم ظهرت فى كتب سابيلكوس ، جيوفانى ، فرانسوا بلفورست ، يوحنا كلوفر ، سير والتر رالى .

والواضح أن الحركة الإنسانية أحدثت تقدماً أدبياً وثقافيا فى الكتابة التاريخية أكثر مما أحدثت من تقدم فى المنهج العلمى . ذلك أن هذه الحركة ساندت التاريخ وزودته بدفعة هائلة بوصفه نوعاً من الأدب لا بوصفه علماً اجتماعياً أو علماً ناقداً . وهكذا حرص مؤرخو الحركة الإنسانية على أن يأتوا بأئمة البلاغة من أمثال ايسقراط ، ليفى ، تاكيتوس ، بلوتارك ، سوتونيوس ، لا بأئمة التاريخ من القدامى أمثال ثيكوديدس ، وبوليبوس . وإذا كان مؤرخو المدرسة الإنسانية قد نبذوا المعجزات التى آمن بها مؤرخو العصور الوسطى فإنهم أبدوا كثيراً من التبجيل للخرافات المأثورة عن الأقدمين وإن لم يستوعبوها دائما ببساطة وسذاجة . وكثيراً ما كانت تشوه الحقائق والمواقف التاريخيه فى عصر الحركة الإنسانية حتى تتمشى مع متطلبات البلاغة وقواعد الخطابة . كذلك كان يتم تفسير الحقائق التاريخية وعلى سبيل المثال أحداث سنة ١٥٠٠ م — بنفس مفاهيم الحضارة القديمة والعكس صحيح مع عدم العناية بروح التاريخ فى الحالتين .

كذلك لم تحقق الحركة الإنسانية للكتابة التاريخيه — كما كان مفروضاً بصفة عامة — تحرراً كاملاً من سيطرة المصالح المتبادلة والرغبة فى محاباة أصحاب السلطة . وكل ما فعلته أنها حررت التاريخ الى حد ما من الاتجاه الدينى . ولكنها أتت فى الوقت نفسه بقيود علمانيه لم تكن أقل خطراً على الموضوعية والدقة التاريخية . من ذلك أن تمجيد الأبطال استمر على ما هو عليه ، وإذا كان مؤرخو العصور الوسطى قد مجدوا رجال الكنيسة والشهداء والعذارى ومن إليهم ، فإن مؤرخى الحركة الإنسانية قد مجدوا أعمال أمراء المدن ومن جاء بعدهم من ملوك الدول القومية . ويوضح الأستاذ بير Burr هذه الحقيقة بقوله :

« يجب أن نعترف بأنه عندما آذنت العصور الوسطى على نهايتها ، لم يؤد إحياء دراسة القدماء فى أول الأمر ولا قيام جمهوريات علمانية تمجد الآداب والعلوم والفنون إلى تحرير كتابة التاريخ بشكل ملحوظ . ذلك أن الكاتب فى عصر الحركة الإنسانية إذا كان يعمل فى بلاط أمير فإنه كان لا يعنى إلا بكتابة ترجمة لذلك الأمير أو لتاريخ أسرته . أما إذا كان مكلفاً من قبل السلطة الحاكمة فى المدينة بكتابة تاريخ تلك المدينة ، فإنه فى هذه الحالة كان لا يجد قدراً من الحرية ، مثلما كان الحال مع المؤرخ من رجال الكنيسة . لأن الأخير لم يخش سيطرة أمير ورث سلطانه عن آبائه ولم يجرفه تيار الغرور والزهو بمدينته . وكان القارئ هو الآخر من الإنسانيين ، ومن ثم فإن سطوة البلاغة — وهو الشئ الذى لم يتبدد كلية خلال العصور

الوسطى – عادت لتؤكد نفسها فى عصر الحركة الإنسانية ، وصار لها من السلطان ضعف ما كان لها من قبل . وهكذا ركز أولئك المؤرخون اهتمامهم فى أن يجعلوا من أمجاد أمرائهم ومدنهم أداة يستعرضون بها أسلوبهم اللاتينى الذى نالوا بفضله ما وصلوا إليه من وظائف ومناصب . ولما كان التاريخ على هذه الصورة قد أصبح مرة أخرى فنا ونوعاً من فروع الأدب يتناول الأمور الدنيوية ويعرض عن التنويه بالمعجزات الكنيسيه بل ويتناسى فكرة الخلاص ، فقد كان لابد له أن يأخذ عن الأقدمين ما تمتعت به كتابتهم من ذكر للنبوءات «المسائل الخارقة للطبيعة»[1] .

وعلى الرغم من عدم وجود علاقة مباشرة أو عارضة بين الحركة الإنسانية واختراع آلة الطباعة فقد جاء الاثنان فى عصر واحد . وكان اختراع هذه الآلة أكبر حافز على تأليف الكتب فى مجال التاريخ وغير التاريخ من المجالات الأدبية الأخرى . ولا يقل أثر اختراع هذه الآلة على مستقبل كتابة التاريخ عن أثر إتقان فن الكتابة فى الماضى ، بحيث اننا لا نبالغ إذا قلنا إن اعمال ثيكوديدس ، بوليبوس ، بلوندس ، مابليون ، فون رانكه لم تكن أكثر شأناً أو أقوى أثراً من عمل ذلك المخترع العظيم الذى اخترع للعالم آلة الطباعة فى الوصول بعلم كتابة التاريخ الى مكانته الحالية .

(1) Burr, loc. cit. p. 261.

وقبل أن نتناول بالحديث مؤرخين بعينهم من الإنسانيين ينبغى أن نتحدث قليلاً عن جانب معين من تلك الجوانب التى أسهموا بها فى خدمة علم التاريخ ، وعلى وجه التحديد جانب البحث بهمة وحماسة عن المخطوطات القديمة فى الأديرة والأماكن الأخرى غير المطروقة وقد تزعم حركة البحث هذه رجال مثل بوجيو ، انوك الاسكولى . وهكذا خرجت الى النور مخطوطات كانت تعتبر مفقودة لشيشرون ، كونتيليان ، نيوس ، بلاوتوس ، مارتيال ، أوفيد ، بلينى ، فارد ، تاكيتوس . وكان لأكتشاف انوك الاسكولى للمخطوط الذى كتبه تاكيتوس بأسم جرمانيا أهمية خاصة . ذلك أن هذا المخطوط صار – كما رأينا – مثار جدل كبير وسط كل الوثائق التاريخية المعاصرة . وهكذا ظهرت إلى النور مصادر تاريخيه هامة وبدأ نشرها ، وكان هذا إيذاناً بمولد حركة واسعة تستهدف النشر والنقد على أسس علمية .

أما النقلة فى الكتابة التاريخيه إلى مثل الإنسانيين وطرقهم ، فتبدو فى إنتاج ألبير تينوس موساتوس Albertinus Mussatus (١٢٦١ م – ١٣٣٠ م) الذى كتب فى مطلع القرن الرابع عشر عن زعماء إيطاليا وأحداثها بلغة لاتينية رائعة . هذا بالإضافة الى إنتاج جيوفانى فيلانى Giovanni Villani الذى سبقت الإشارة اليه . على أن فرانسسكو بترارك Francesco petrarch (١٣٠٤ – ١٣٧٤ م) كان دون منازع الأب الحقيقى للحركة الإنسانية فضلاً عن كتابة التاريخ فى إيطاليا فى عصر تلك الحركة . كان بترارك يكتب بأسلوب لاتينى رفيع مركزاً اهتمامه فى التاريخ على ثقافة العصر الكلاسيكى القديم وشخصياته البارزة خاصة فى روما . فعرض فى كتابه Liber de viris illistribus عرضا لتاريخ روما عن طريق الترجمة لعظمائها ، وترجم لواحد وثلاثين بطلاً من الأبطال التقليديين فى التاريخ الرومانى منذ عهد روميولوس حتى عهد قيصر . كذلك أورد فى كتابه الأخر Rerum memorandum مجموعة من القصص الطريفة عن هؤلاء الأبطال . وعلى الرغم من أنه لم يتشكك فى الأساطير المتواترة فى كتاب العصر الكلاسيكى القديم ، مثلما تشكك فى أساطير العصور الوسطى المرتبطة بروما ، فإنه مع ذلك لم يأخذ ببعض أساطير العصر الكلاسيكى القديم مثل قصة هوراتيوس عند جسر نهر التيبر . هذا الى أن نظرة بترارك الى

التاريخ وإدراكه له كان يشوبها نقص واضح حيث أنه كان يؤمن بأسطورة وجود عصور مظلمة طويلة أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، كما أنه كان يقيم الثقافة الرومانية بمعايير عصره .

ثم كانت الحصيلة الهامة التالية من نتاج الحركة الإنسانية فى علم تدوين التاريخ كتاباً اسمه (اثنى عشر كتاباً فى تاريخ فلورنسا) ألفه ليونارد وبرونى (١٣٦٩ - ١٤٤٤ م) الذى كان محاميا وسكرتيراً للبابوية وأحد كبار الموظفين فى فلورنسا . وفى هذا الكتاب كما فى كتابه الآخر الذى أسماه (التعليقات) نتبين كثيراً من خصائص الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية وعلى رأسها الالتزام بقواعد الأسلوب الذى سار عليه رجال البلاغة الإغريق والرومان ، فضلاً عن التمسك بفكرة أن الثقافة الكلاسيكية القديمة تفوق الثقافة المعاصرة كمصدر للإلهام التاريخى ، وأخيراً ، فإن ليوناردو برونى حرص فى كتابته على حذف كثير من المعجزات والأساطير المسيحية والوثنية ، واهتم بصفة أساسية بالتحليل العملى للأحداث السياسية والنشاط السياسى . لكن إذا كان برونى قد رفض بوجه عام المعجزات والأساطير بما فى ذلك كثيراً من تلك التى أحاطت بأصل فلورنسا ، فإن الذى كسبه فى هذا المجال خسره فى مجال آخر حيث أقحم فى كتاباته قصصاً خطابية من تلك التى يتشدق بها رجال البلاغة ، مع تكييف الحقائق التاريخيه لتتمشى مع مقتضيات البلاغة . كذلك لجأ برونى إلى استخدام المصطلحات الرومانية عند وصف الحقائق المرتبطة بعصر النهضة . هذا إلى أنه نظر بعين الاعتبار إلى أهمية نقد المصادر التى استخدمها . والحق أنه كان فى إمكانه أن يصل إلى مستوى أعلى مما وصله لو أنه لم يستسلم للقواعد البلاغية التى سادت العصر القديم . وكانت فلورنسا فى روايته مركز العالم على الرغم من أنه كان على درجة من الإنصاف جعلته يقر بأن أهل فلورنسا لم يكونوا جميعاً معصومين من الخطأ ، وكذلك سياسة فلورنسا نفسها . كذلك وضع برونى الاتجاه الإنسانى الذى يعزى الاحداث السياسية الى أسباب شخصية ويضور بشكل مثير أعمال زعماء السياسة وشخصياتهم .

وكان لنهج برونى واتجاهاته أثر كبير على أول مؤرخى المدرسة الإنسانية فى البندقية وهو ماركانتونيو كوشيو Marcantonio Coccio (١٤٣٦ م - ١٥٠٦ م) الشهير باسم ذى صبغة كلاسيكية هو سابيكلوس . وعرف عن سابيلكوس هذا أنه أستاذ للخطابة ، كلفته حكومة البندقية بوضع تاريخ رسمى للمدينة . وكان أن فعل هذا ، فجمع فى قصة محبوكة مختلف القصص المأثورة بتاريخ البندقية فضلاً عن الوقائع الخاصة بذلك التاريخ ، معتمداً بصفة خاصة على ما كتبه داندولا Dandola ، وحرص على أن يضفى على هذا التاريخ كثيراً من الزخارف البلاغية والخياليه . والواقع أن هذا التاريخ الذى وضعه سابيلكوس جاء ضعيفاً هذيلاً لأنه تجاهل كلية التاريخ الكنسى والاقتصادى وهما جانبان لها أهمية خاصة لمن

يدرس تطور البندقية بالذات . كذلك كتب سابيلكوس بحثاً امتدح فيه ليفى . على أن أهم ما قام به سابيلكوس هو محاولته كتابة تاريخ العالم وهو التاريخ الذى أطلق عليه اسم « التاسوع » ويمثل أولى محاولات المدرسة الانسانية فى هذا المجال .

والحق أن سابيلكوس لم يكن معداً من الناحية المهنية لمثل هذا العمل . وإذا كان قد نجح فيه فإن هذه حقيقة تبين كيف ساعدت الحركة الإنسانية على تنمية الحاسة التاريخية عند المعاصرين . حقيقة إنه كان بين مؤرخى العصور الوسطى علماء عظماء ، لكن نظرتهم المعادية للماضى الوثنى وتعسفهم ضده كانا عاملين كبيرين أديا الى تضاءل قيمة كتاباتهم عن فترة ما قبل العصور الوسطى . وعلى الرغم من أن سابيلكوس استمد تقويمه للأحداث بصفة أساسية من إيزيبيوس ، وجيروم ، فإنه أعاد إلى تاريخ العصور القديمة بعض ما يستحقه من الاعتبار ، وخصص فى مؤلفاته مساحة كافية لمعالجة عديد من الأمم القديمة . هذا الى أنه أبى أن يتقبل ما فى التاريخ العبرانى من أشياء غير معقولة ، مثلما فعل غيره من السابقين طوال ألف عام . ولم يكن ذلك هو التناقض الوحيد بين كتاب (التاسوع) من ناحية والكتب التاريخية فى العصور الوسطى من ناحية أخرى ، بل كان سابيلكوس متشككا فى معجزات الكتاب المقدس نفسه ووضعها فى نفس المرتبة مع القصص الكلاسيكى القديم ، حتى إنه اعتبر شمشون هرقل العبرانين . كذلك لا نجد فى كتبه أى ذكر « للممالك الأربع » الشهيرة على الرغم من معرفته الجيدة بالتاريخ الذى كتبه جيروم . وواضح أن سابيلكوس لم يسترشد إلا بأعمال عدد قليل نسبيا من المؤرخين القدامى عندما كان يكتب تاريخه عن العصر القديم . ولكنه حاول أن يخلق انطباعاً زائفاً بسعة علمه ، فتظاهر بأنه رجع إلى كافة المصادر التى استخدمها مرشدوه . كذلك وقع فى خطأ عام من أخطاء المدرسة الإنسانية وهو النظر الى أجزاء كثيرة من التاريخ القديم بعين رومانية . ونجد تقدما كبيراً عند كتابته عن العصور الوسطى نتيجة لاستخدامه مؤلفات المؤرخين الممتازين أمثال بولس الشماس ، فلافيوس بلوندوس . ولكن كتابه جاء ضعيفاً فى معالجته للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . أما من ناحية اللهجة والمحتويات فنجد أن هذا الكتاب يمثل تقدماً ملحوظاً عن أوروزيوس وكتاب العصور الوسطى الذين عالجوا التاريخ القديم والوسيط . ولم يكن سابيلكوس هو المؤرخ الوحيد من عصر الحركة الإنسانية الذى كتب عن تاريخ العالم وإنما هناك جيوفانى دوجليونى Giovanmi Daglioni وهو مؤرخ من البندقية كتب موجزاً لتاريخ العالم (١٦٠١ م) . ويعتبر هذا الموجز أكثر نضجاً من كتاب سابيلكوس فى مجال التاريخ العلمى :

وإذا كان برونى هو هيرودوت الحركة الإنسانية فى علم كتابة التاريخ وسابيلكوس هو ديودورس تلك الحركة فإن بوجيو براتشيولينى Poggio Bracciolini (١٣٨٠ م - ١٤٥٩ م) كان ايفورس تلك الحركة . كان بوجيو - شأنه شأن برونى - سكرتيراً بابويا

وصاحب منصب رفيع فى فلورنسا فضلاً عن أنه كان يستهدف التفوق على سلفه كمؤرخ ، وان يظهر براعته بصفة خاصة فى الكتابة باللغة اللاتينية القديمة . ويصور مؤلفه « ثمانية كتب فى تاريخ فلورنسا » التأثير الواضح للبلاغة الكلاسيكية على الكتابة التاريخية فى عصر الحركة الإنسانية . ولهذا فنحن نتفق مع فيوتر فى رأيه « إن ما حققه بوجيو كأديب خسره كمؤرخ » . ومع ذلك فإن بوجيو تميز بقوة الملاحظة وجاء عمله أكثر اتساعاً وموضوعية من عمل برونى . وكان فى استطاعته أن يحقق تفوقاً أكبر لو أنه فلح فى تخليص نفسه من الرغبة الملحة فى محاكاة كبار الكتاب فى العصر القديم . كذلك حال منصبه الرسمى دون جعله أكثر صراحة وتعمقاً فى تحليله للسياسة الداخلية لفلورنسا . على أن ذلك كله لا ينبغى أن يجعلنا ننسى نشاط بوجيو وأن نشيد بنجاحه كبحاثة متحمس فى النصوص القديمة .

ويختلف عن إنتاج بوجيو اختلافاً كبيراً فى طبيعة ما كتبه لورنزو فالا (١٤٠٧ – ١٤٥٧ م) أول مؤرخى المدرسة الإنسانية فى نابولى وأبرز النقاد التاريخيين الإيطاليين فى تلك الفترة . والملاحظ أن المؤلف الوحيد المنسق من إنتاج فالا هو كتاب عنوانه « تاريخ فرديناند الأول ملك أرغونه » . لكن هذا الكتاب لم يلق نجاحاً كبيراً . ففيه يبدو المؤلف وكأنه تاجر فضائح وليس مؤرخاً يعمل فى مجال السرد التاريخى . كذلك لم يهتم فالا إلا قليلاً بالأمور السياسية والعسكرية . وربما كانت أبرز نواحى الضعف فى هذا الكتاب هى أنه جاء الى حد كبير تاريخاً « رسمياً » وهو عمل لا يتفق وعقلية فالا الناقدة .

أما العمل الذى حقق لفالا شهرة كبيرة ومكانة قوية كناقد فكان ما قدمه من أدلة قاطعة على زيف الوثيقه التى تعرف بأسم (هبة قسطنطين) Donation of Constantine [1]. وكان كوزانوس Cusannus قد أعلن تشككه فى صحة هذه الوثيقة . كذلك قام الأسقف رينالد بيكوك Regionald peacock فى إنجلترا بإثبات عدم صحتها . ولكن كما يقول فيوتر اكتسب فالا شهرة كبيرة لا بسبب ما كان للوثيقة التى هاجمها من طبيعة هامة فحسب ولكن أيضاً بسبب المهارة والمعرفة الجمة التى اتضحت من تحليله لها . والحقيقة أن هذا الهجوم الذى شنه فالا على صحة هذه الوثيقة ينم عن شجاعته أكثر مما يكشف عن قدراته كناقد – تلك القدرات التى يعلو إلى مستواها كثير من كتاب المدرسة الإنسانية . وكما يقول إمرتون : إن أمتع شئ فيما جاء به فالا هو السهولة المذهلة لما عرضه ، وهو أمر لا يثبت ما تمتع به الكاتب من علم ومهارة لأن كلاهما لم يكن شيئاً مطلوباً . ففى اللحظة التى يعرض فيها

(١) هبة قسطنطين : هبة يقال إن الإمبراطور قسطنطين الأعظم منحها للبابا سلفتر الأول (٣١٤ – ٣٣٥ م) وخلفائه تعطيهم سيطرة روحية كاملة على كافة البطاركة وسلطة مطلقة فى أمور العقيدة والعبادة وكذلك سلطة زمنية على روما وإيطاليا وسائر أرجاء العالم الغربى وكان الدافع على ذلك هو عرفان الإمبراطور بجميل البابا الذى شفاه من البرص بمعجزة وأدخله فى الدين المسيحى والمعتقد الآن أن هذه الهبة مزورة . (المترجم)

الحقائق عارية امام جمهرة العلماء يتمزق تلقائيا النسيج الكامل للسخافات التي حيكت فيها تلك الوثيقة »[(١)] .

ولقد أظهر فالا مهارة أكثر وأصالة أكبر في كتابه الذي أسماه (مدينتا تاركويني)[(٢)] Duo Tarquinii الذي كان هجوما على الطريقة التي عالج بها ليفي أجزاء معينة من التاريخ الروماني المبكر . ولقد وضح في كتابه أن أكبر المصادر العلمانية القديمة ذات المكانة الكبيرة لم تسلم من الفحص الناقد الذي قام به فالا ، شأنها شأن تلك الوثائق الكنسية التي كانت تتمتع بهيبة كبيرة واحترام عظيم . والحق أن التشكك في أمر الأساطير الكلاسيكية القديمة كان يحتاج الى قدر من الشجاعة من جانب الكاتب الإنساني أكبر من القدر الذي يتطلبه المتشكك في المعجزات التي حوتها بعض كتابات العصور الوسطى . واذا كان معظم الكتاب الإنسانيين قد تشككوا في معجزات وأساطير العصور الوسطى فإن قلة منهم هم الذين جرءوا على انتقاد المصادر الكلاسيكية القديمة الكبرى من أمثال كتابات ليفي . والحق أن المدرسة الإنسانية لم تنجب حتى عهد ارازموس ناقداً على نفس مستوى فالا في الكفاية والمقدرة .

ولقد طبق أحد معاصري فالا من أهل البندقية وهو برناردو جويستنياني Bernardo Giustiniani (١٤٠٨ – ١٤٨٩ م) نفس منهجه في تفنيد الأساطير المرتبطة بنشأة مدينة البندقية وذلك في كتابه «أهل مدينة البندقية ونحوها حتى ٨٠٩ م» كان جويستنياني رجل سياسة أكثر منه أديباً من أدباء المدرسة الإنسانية ، ومن ثم فإنه تحاشى القيود البلاغية التي اتصفت بها الكتابة التاريخيه في تلك المدرسة . على أنه لم يكن يكتب تاريخاً رسمياً . ولذا فإنه فكر وكتب بعقلية مستقله تماماً .

أما فلافيوس بلوندوس Flavius Blondus فكان أعظم علامة في التاريخ أنجبته الحركة الإنسانية في إيطاليا . وقد عاش فلافيوس من ١٣٨٨ م – ١٤٦٣م وكان اسمه الايطالي الحقيقي فلافيو بيوندو Flaviu Biondu ويعتبر «طياوس» الحركة الإنسانية . ذلك أنه كرس حياته لدراسة آثار روما القديمة وقيام دول العصور الوسطى . واعتمد فيما كتبه عن التاريخ الروماني على الآثار والمخلفات القديمة . وكانت كتبه «إيطاليا في صور» و «تأسيس روما» و «انتصار روما» بمثابة أول ما أسهمت به المدرسة الإنسانية في مجال طوبوغرافية وآثار روما القديمة . كذلك يبدو أن كتابه «تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية» يعنى بصفة

(1) Ephraim Emerton: The Beginnings of Modern Europe (Ginn 1917) p. 504.

(٢) تاركويني : مدينة قديمة في سهول تسكانيا لها شهرتها في فجر تاريخ روما (المراجع) .

أساسيه على الآثار القديمة . وكان يقيس عظمة كل عهد أو عصر من عصور الإمبراطورية الرومانية فى ضوء مقدار ما حظى به ذلك العهد أو العصر من أمن وسلام من ناحية وازدهار فكرى وثقافى من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أهمية كتاب بلوندوس عن الآثار الرومانية فقد كان أعظم ما أسهم به هو نظرته الأصلية والمبتكرة إلى تاريخ العصور الوسطى وتصويره الدقيق نسبياً لها . وفى هذا المجال جاء كتابه الرئيسى «حلقات من التاريخ منذ اضمحلال قوة الرومان» (٤٧٢ — ١٤٤٠ م) الذى ظهر فى واحد وثلاثين مجلداً . وبصرف النظر عما فى هذا الكتاب من دراسة تتسم بالجهد والعناية فإن أهم ما يميز هذا الكتاب هو نظرة المؤلف المبتكرة فى تقييمه للعصور الوسطى . وفى هذا يقول الأستاذ بور Bürr «إن العنصر الجديد فى اتجاه بلوندوس هو أنه بدلاً من أن ينظر إلى العصور الوسطى على أنها امتداد لتاريخ الإمبراطورية الرومانية فإنه ترك روما بماضيها وتناول قصة الشعوب الجديدة التى حلت محلها[1] . ويقول فيوتر عن بلوندوس إنه أضاف لمعلوماتنا عن العصور الوسطى وعن العصر الرومانى القديم أكثر مما أضافه سائر كتاب المدرسة الإنسانية مجتمعين[2] .

ولعل خير ما يصور المثل التى سادت الحركة الإنسانية أن بلوندوس — وهو الذى كان أعظم مؤرخيها فى إيطاليا — لم يعط حقه من التقدير والتبجيل ولم يقدر عمله العظيم حق قدره لأنه لم يكن يمتلك أسلوبا أدبياً رائعاً . ولكن الحقيقة أن أعمال بلوندوس صادفت فيما بعد حقها من التقدير والتقييد . فمن بين كل حصيلة الدراسات التاريخيه فى ذلك العصر صار كتاب بلوندوس قبلة الكتاب اللاحقين الذين أخذوا عنه واقتبسوا منه الكثير ، وعن هذا الطريق أسهم بلوندوس إسهاما غير مباشر فى تقدم الدراسة التاريخيه فى عصر الحركة الإنسانية . والواقع أن المعاصرين لم يقدروا العلم لذاته وكما يبدو بوضوح فى حالة بلوندوس — وربما كان هذا هو السر فى أنه ليس له إلا تلميذ واحد هو تريستان كالشى Trirten calchi (١٩٤٢ م — الى حوالى ١٥١٦ م) مؤرخ ميلانو الفذ المعروف باستقلاله فى الرأى يضاف إلى ذلك أن بلوندوس كان الرائد الحقيقى سلفاً لكل من ليبنتز ، ومابيلون ، وتيلمونت .

وعندما نتكلم عن التاريخ والمؤرخين فى عصر الحركة الإنسانيه ، يجدر بنا أن نذكر البابا إيناس سلفيوس بيكولوميني Aenas Sylvius piccolomini وذلك نظراً لأهميته المستمدة — لا مما أسهم به فى مجال الكتابة التاريخية المنسقة أو أدخله من تحسين على المنهج التاريخى فحسب — وإنما أيضاً وبدرجة أكبر بحكم طبيعة مهنته وما كان له من تأثير على

---

(١) جاء ذلك فى رسالة إلى المؤلف

(2) Eduard Fueter: Histoire de l'Historiographie pariss 1914 p. 131

الكتاب الألمان اللاحقين . ومن بين أعماله العديدة التاريخية « تعليقات على مجمع بازل » ، « تاريخ أوربا » ، « تاريخ العالم » ، « التعليقات » . ويشوب هذه الكتب كما يشوب ترجمته التى كتبها عن نفسه كثير من السطحية والأفتقار إلى النظرة الفلسفية العميقة ، وكذا عدم إتمام ما تهض به من كتابات فى أغلب الأحيان . والواقع أنه لا يرقى إلى مستوى برونى كناقد ، وليس هناك ما يدعو إلى مقارنته بفالا أو بلدوندوس . ومع ذلك فإنه بلغ درجة من المهارة فى إدراك أبعاد السياسة تجعله على مستوى ثيكوديدس ، بولثيوس ، تاكيتوس . ولم يكن هناك بين معاصريه من هو أكثر منه علما بالسياسة والثقافة الأوربية . ولعل أقيم ما فى كتاباته التاريخيه ، امتلاؤها بالذكريات الشخصية . وقد فاق فى اهتمامه بالتاريخ الألمانى والثقافة الألمانية أى معاصر له فى إيطاليا وذلك نظراً لكونه عضواً فى المحكمة الإمبراطوريه العليا على يد فردريك الثالث من ناحية ولعلاقاته الكنسية مع الإمبراطورية فيما بعد من ناحية أخرى . وتكمن أهميته بالنسبة لتطور علم كتابة التاريخ فى استخدامه مؤلفات المؤرخين السابقين من الألمان ، إذ استعان فى كتابة تاريخ فردريك الثالث بالكثير مما كتبه أوتو المنسوب إلى فريزنج Otto of Fressing بذلك لفت أنظار معاصريه إلى هذا المؤرخ . كذلك استعان بمؤلفات جوردوان مما ترتب عليه إحياؤها وإكسابها شهرة . وربما كان كتابه تاريخ بوهيميا أول محاولة يقوم بها مؤرخ من المدرسة الإنسانية لإدخال علم وصف الأجناس البشرية فى مجال الكتابة التاريخية . وأخيراً فإن كتابيه « تاريخ أوربا » ، « تاريخ العالم » يمثلان محاولة جادة لإبراز العلاقة بين علمى التاريخ والجغرافيا . وكان تأثيره كبيراً فى هذا المجال وبصفة خاصة على المؤرخين الألمان اللاحقين . وفى هذا يقول فيوتر : « يعتبر إنياس سلفيوس المسئول الأول عن ذلك الاتجاه الذى التزم به كثير من المؤرخين الألمان اللاحقين والذين يضمن المؤلفات التاريخية أبحاثاً عن نشأة القانون وتطوره وعن أثر الجغرافيا فى تطور التاريخ فضلاً عن وقوفه موقفاً يوصف على الأقل بأنه نصف ناقد من الأساطير التى أحاطت بأصول الأجناس البشرية ، يضاف إلى هذا كله أنه اظهر غلواً فى الوطنية فى المسائل التى تمس الاتجاه القومى »[1]

أما خير مايصور الأنتقال بعلم كتابة التاريخ فى إيطاليا من المذهب الإنسانى البحت إلى بداية الكتابة التاريخيه الحديثة ذات الطابع السياسى والقومى ، فهى تلك المؤلفات التى كتبها المؤرخان الفلورنسيان البارزان ماكيافللى وجويكارديني . وكان من الطبيعى أن يؤدى تفوق فلورنسا الحضارى ونشاط الحياة إلى خلق مناخ مناسب لإنتاج مؤلفات تاريخيه ذات قيمة عاليه . ولم يكن ميكافللى وجويكارديني أقل من بلوندوس من ناحية عنايتهما بالحقيقة أكثر من البلاغة ، لكنهما اختلفا عن بلوندوس فى بقائهما مغمورين غير مشهورين لأنهما تجنبا الإطالة وكثرة الكلام والإكثار من التفاصيل بقصد ادعاء العلم والتظاهر به . وقد أصبح التاريخ على

(1) Feuter op, cit p.143

أيتيهيا برواية للأحداث العلمانيه واقتصر أساساً على السرد والتحليل المباشر للأحداث السياسية . هذا إلى أنهما قاما ببعض المحاولات لإحلال التفسيرات المادية والنفسية لأحداث التاريخ محل القوى الخارقة للطبيعة والمعجزات التى لم يعد هناك سبيلاً للأخذ بها .

ويشرح الأستاذ شيفل اهتمام ميكافللى وجويكارديني الكبير بالحكومات عامه وبحكومة فلورنسا خاصة فيقول :

« لقد رقيا إلى مستوى تلك النظرة نتيجة لتأثرهما بمن احتذوا حذوهم من الأقدمين ، لكن ذلك جاء أساسا نتيجة للتطورات الفعلية التى حيرت الأذهان فى بلادهم . وعلى مدى عدة أجيال منذ انهيار الإقطاع فى القرن الثالث عشر ظهرت فى طول إيطاليا وعرضها إلى الوجود حكومات تزعمها أفراد وجماعات ، لكن هذه الحكومات كانت سرعان ما تتبدل قبل أن يمضى على قيامها سنة أو حتى شهر — ويحل محلها وضع جديد يستبشر به الناس أكثر من سابقه »

كان نيقولا مكيافللى Nicola machiavelli (١٤٦٩ — ١٥٢٧ م) أولا وقبل كل شىء فيلسوفاً سياسياً لايكن للتاريخ عاطفة معينة ولا يهتم إلا بالقدر الذى يمكنه من استغلاله لصالح النظرية السياسية . وكان هذا الاتجاه هو الذى أعطى كتاب ميكافللى « تاريخ فلورنسا » وهو الكتاب الذى كتبه على عجل وأصدره فى ثمانيه أجزاء — خصائصه المميزة . والواقع أن هذا الكتاب لا يرقى من ناحيتى الأسلوب والدقة — إلى مستوى بعض المؤلفات التاريخيه الأخرى المعاصرة . ولكنا نعتقد أن أى مؤرخ سابق منذ بوليوس — الذى عرفه ميكافللى — كان له مثل قدرته من حيث إدراكه لطبيعة العوامل السياسية التى تحرك التاريخ أو من حيث عرضه صورة واضحة لعملية التطور السياسى . وتبدو عبقرية ميكافللى بوصفه مفكراً سياسيًّا وفى قدرته على تنظيم العوامل المسببه لتطور المدنيه ، وربما بدت قدرته فى هذه النواحى أكثر منها فى رواية الأحداث السياسية بطريقة موضوعية . ويشير الأستاذ شيفل إلى أن هذا الاهتمام بالانعكاس السياسى من جانب ميكافللى قد نجم عن الوضع الغريب الذى ساد إيطاليا حيث كانت لها الزعامة فى المجال الثقافى ولكنها كانت عاجزة سياسيًّا بصورة يصعب عليها الدفاع عن نفسها ضد أى هجوم أو غزو « وكان من نتيجة ذلك أن جعل ميكافللى كتابه ، معملاً سياسيًّا وضع فيه مذاهب الأقدمين ومذاهبه هو نفسه موضع الاختبار العملى »[1]

والحق إن ميكافللى أوتى من نفاذ البصيرة بالعوامل التاريخيه المستمرة التى تحرك التطورات السياسية مالم يتوافر لأى مؤرخ آخر من المدرسة الإنسانية حتى عهده . ذلك أنه أدرك العلاقات المتداخلة بين التيارات السياسية الداخلية والخارجية وبين الأنشطة العسكرية

(1) Sohevill, op cit p. xviii

والتطورات السياسية ، وبوضع فلورنسا فى تاريخ إيطاليا بوجه عام ، وتحمس للفكرة المثالية الخاصة بتحقيق الوحدة الإيطالية وقيام دولة إيطالية متحدة . ولذلك فإنه مجد الرجال والجماعات الذين حبذوا قيام هذه الدولة ، وفى الوقت نفسه فإنه وقف موقفاً معادياً من البابوية التى اعتبرها عقبة كئوداً فى طريق الوحدة الإيطالية . ولعل هذا يفسر الترجمة المليئة بالرومانسية التى وضعها لكاستراكانى وهو قائد بعض فرق الجند المرتزقة . على أن ميكافللى كان يعمل بوجه عام إلى الإقلال من العنصر الشخصى بوصفه أحد العوامل المحركة للتاريخ . ويقول فيوتر فى هذا الشأن . لا يوجد كاتب منذ أيام بوليبوس ذهب ابعد مما ذهب إليه ميكافللى فى جعل التاريخ « تاريخاً طبيعياً للسياسة »[1] وهكذا حلت نظرية مادية صريحة لتعليل التاريخ محل النظرية القديمة التى فسرت التاريخ فى ضوء قوى ماوراء الطبيعه أو عبادة الأبطال . وتعكس هذه الفلسفة التاريخيه المبادئ والآراء التى ضمنها ميكافللى كتابه « الأمير » . كذلك نبذ ميكافللى إلى درجة كبيرة الترتيب الحولى للمادة التاريخيه وهو الترتيب التقليدى فى تلك العصور ونظم كتابته على أساس موضوعى . هذا إلى أنه تحاشى الأسلوب البلاغى الجامد وكتب بطريقة واقعية خاطئة . وإذا كان ميكافللى لم يستخدم سوى عدد قليل من المصادر ، إلا أنها كانت من النوع الطيب ، وخاصة مؤلفات بلوندوس ، وجيوفانى ، وفيلانى ، وسيمونيتا . وأفضل أجزاء كتابه ذلك الجزء الذى تناول فيه تطور السياسة الداخلية فى فلورنسا . وفيه نجد وصفاً مفصلاً للأحداث وكثيراً من التعليقات الشخصية « وانطباعات عديدة عن الحكومة والأحزاب وأعمال القادة الذين كانت تحركهم مشاعر الغيرة والحماسة والطموح وسائر الانفعالات التى توارثها الإنسان «والواقع أن الزاوية فى كتاب ميكافللى كانت أقل أهمية من ، هذه التعليقات المستفيضة »[2] . أما إذا نظرنا إلى ميكافللى على أنه مؤرخ راو . فإننا وفق مستويات البحث الحديثة – نجد كتابهُ مليئاً بعديد من الأخطاء فى الحقائق وينقصه الاستناد إلى الوثائق والحجج » .

أما فرانسسكو جويكاردينى Francesco Guiccardini (١٤٨٣ – ١٥٤٠ م) فإنه وإن يكن فيلسوفاً على مستوى ميكافللى ، فإنه فاقه كمؤرخ حقيقى . ذلك أن كتابه « تاريخ فلورنسا » الذى كتبه فى شبابه – جاء أحد الأعمال المبتكرة فى مجال كتابة التاريخ . إذ خرج الكاتب فيه عن نطاق كل من الكتابة التاريخية الدينية والإنسانية فى مراحلها الأولى – وكذلك خرج عن التقاليد التاريخية القديمة بأن استبعد نص الأحاديث المباشرة التى تأتى على لسان أبطال الرواية التاريخيه ولا نجد فى أسلوبه السلس – المتحرر نسبياً من الإسهاب والتفاصيل الخارجه عن الموضوع – أثراً للمحسنات البلاغية . كذلك نلاحظ أن اهتمامه الكبير

(1) Fueter, op. cit. pp. [illegible]
(2) Schevill, op. cit. pp. [illegible]

بالتاريخ السياسي المعاصر دفعه إلى أن يتخلى فى الجزء الأخير من مؤلفه بصورة واضحة عن النظام الحولى الذى ساد الكتابة التاريخيه فى عصره . وكانت محاولته فى تحليل التاريخ تحليلاً فلسفيًا أقل توفيقاً من ميكافللى .وإن كان قد كرس نفسه بصفة رئيسيه لوصف الأحداث وصفاً قويًا قاطعاً وللنقد الصريح للأشخاص والاتجاهات . وكانت لديه قدرة نادرة على انتقاء الحقائق الأساسية . وإذا جاز أن تكون لديه نظرية خاصة فى التاريخ ، فإن هذه النظرية كانت على أساس الأفتراض العقلانى القائل بأن الظروف السياسية فى مرجعها فى النهاية الحساب والتآمر . وكان فرانسسكو نفسه لا يؤمن بالأوهام والخرافات ، الأمر الذى أدى إلى اتزان كتابته وعدم تحيزة نسبيًّا . وتبدو اللمسة الساخرة نوعاً ما فى كتاباته من بعض ملحوظاته ومنها قوله « لا عيب فى فرديناند ملك أرغونه سوى شحه وعدم وفائه بالعهد » أما ميوله الشخصية فكانت إلى الأسر القديمة والجماعات الحاكمة فى فلورنسا . ويقول فيوتر إن كتاب « تاريخ فلورنسا » يمثل البداية الحقيقية فى التاريخ للكتابة التاريخيه التحليلة الحديثة والاستنتاج السياسى »[1] ويتفق معظم النقاد على أن الكتابة التاريخية فى أوربا الغربية استعادت بفضل هذا الكتاب المستوى الذى كانت قد بلغته على أيدى ثيكوديدس وبوليبوس . ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يكن له تأثير كبير على علم تدوين التاريخ فى عصر النهضة لأنه لم ينشر حتى سنة ١٨٥٩ م .

وثمة كتاب آخر كبير ألفه جويكارديني عنوانه « تاريخ إيطاليا » وقد كتبه فى مرحلة النضج . ومع ذلك فإنه جاء أقل أصالة من ناحية الأسلوب والتنظيم إذ كان المؤلف قد تشرب التقاليد البلاغية للمدرسة الإنسانية وهو الأمر الذى لا وجود له فى مؤلفه الأول . ومن هذه التقاليد مثلاً اهتمامه بالمعارك الحربيه على نطاق كبير والحرص على إثبات الحوار المباشر ونصوص الخطب . ومع ذلك فإنه نظراً لاتساع مجال كتابه الثانى وطريقته المبتكرة فى معالجة الموضوعات فإنه يعتبر بداية مرحلة جديدة فى الكتابة . فلأول مرة منذ العصور القديمة استطاع مؤرخ أن يخرج عن نطاق ما هو مألوف وأن يحرر نفسه من الاتجاه السائد فى التاريخ ، وهو الاتجاه الذى يستهدف الاهتمام أساساً بدولة أو أسرة حاكمة معينه — وأن يكرس جهده لمجال أكثر اتساعاً « وهو تاريخ وحدة جغرافيه » . لذا فإن هذا الكتاب — تاريخ إيطاليا — الذى يعتبر أول تاريخ عام لإيطاليا ، أتاح لمؤلفه فرصة عظيمة لدراسة نشأة الدول واضمحلالها وتفاعلها فيما بينها وطبيعة العلاقات الدولية وعملية التطور السياسى . ومن جهة أخرى فإن مادة الكتاب هيأت إمكانيات نادرة لدراسة تاريخ العالم وإعادة كتابته على نطاق محدود . وعلى الرغم من أن جويكاردينى كانت تعوزه بصيرة ميكافللى وتحليله الفلسفى للأمور الاجتماعية والسياسية . وهو الأمر الذى لم يتمكن بسببه من وضع تحليل دقيق للتطور الاجتماعى

(1) Feuter op. cit p. 88

والسياسي ، فإن المجال الذى تناوله جويكارديني والجديد الذى أتى به يمثلان بالتأكيد تقدماً كبيراً فى المنهج التاريخى ومفهوم التاريخ .

وربما أنكر قليلون أن كتب جويكارديني قد بلغت أعلى مستوى للكتابة التاريخيه بعد العصر القديم الكلاسيكى وحتى عهد كامون ، ثاونس ، كلارندون . ويمكننا أن نتبين مقدار التقدم الهائل الذى كان لا بد منه لمولد التاريخ السياسي العلمى الحديث لو تأملنا النقد القاسى الذى وجهه ليوبولد فون رانكه – أول رائد مميز للمدرسة العلمية الحديثة – إلى جويكارديني . ذلك أن صفوة مؤرخى عصر النهضة أنفسهم أمثال ميكافللى جويكارديني كان يعنيهم فى المقام الأول « الانطباعات السياسية والاستنتاجات والحكم » وبعد ذلك يأتى فى المقام الثانى الاهتمام بتحرى الدقة فى الحقائق » وغالباً ما كانوا يبقون على ما اقتبسوه من الكتاب السابقين دون تغيير كلمة واحدة ، حتى ميكافللى وجويكارديني سلكا طريقاً إذا حكمنا عليه بالمعايير الحديثه – يضعها فى موضع الادانه الواضحة بانتحال ثمرة أفكار غيرهما من الكتاب ، هذا إلى أنهما لم يميزا تمييزاً دقيقاً بين الرواة الذين يأتون فى المرتبة الثانية والذين أخذوا عنهم وبين الوثائق الأصلية التى استخدموها ، ولم يظهر هذا التميز فى كتابة التاريخ على أسس علمية فى أعمالها إلا فى شكل أولى[1]

ولقد كان من الممكن بلوغ المستوى الحديث فى الكتابة التاريخيه بسرعة أكبر لولا ما تسببت فيه حركة الإصلاح الدينى من نكسة عرقلت تقدم هذه الكتابة ، إذ بعثت تلك الحركة من جديد الاهتمامات بعلوم اللاهوت والجدل الدينى بعد أن كانت الحركة الإنسانيه قد أضعفت منها تدريجيًّا وسلميًّا وهكذا صار إحراز التقدم غير مستطاع حتى تم سحق ذلك التحكم الدينى بفضل ازدهار الحركة العقلانية فى القرن الثامن عشر وازدياد الاتجاهات العلمانيه قوة وتدعيماً نتيجة للتوسع الأوربى والثورة التجارية ونشأة الأمم الحديثة[1]

وقد ظهرت البداية الحقيقة للتراجم التاريخيه فى المدرسة الإنسانية فى كتاب ، حياة دانتى ، الذى ألفه جيوفانى بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٣١٣ – ١٣٧٥ م) وهو كتاب كانت له أهميته فى فهم دانتى بوصفه أديبا فناناً . ومع ذلك فإن بوكاشيو كان ضعيفاً فى معالجته لاهتمامات دانتى السياسية . ويعزى ذلك إلى قلة اهتمام بوكاشيو نفسه بالسياسة .

أما الخطوة الثانيه فى هذا المجال فقد خطاها فيلبوفيلانى Filippo Villani (حوالى ١٣٢٥ م – ١٤٠٥ م) . وقد اتخذ فيلانى بوكاشيو مثلاً يحتذ به ، وكان أول عهده بهذا المجال هو نشرة كتاب «حياة دانتى» الذى ألفه بوكاشيو . ولم يلبث أن دفعه ذلك إلى

(1) Schevill op. cit pp xxi-xxii.

(١) انظر الفصل السابع (المؤلف) .

إعداد سلسلة من التراجم لأبرز رجالات فلورنسا. وأصبح هذا العمل نموذجاً لمن جاء بعده من كتاب التراجم فى المرسة الإنسانية. الذين جاءت أعمالهم فى صورة مشابهة لعمل فيلانى. ولقد حوت هذه الأعمال كثيراً من خصائص سوتنيوس وأسلوبه، وهو الذى كان ينظر إليه كتاب التراجم فى المدرسة الإنسانيه بوصفه النموذج الكلاسيكى الذى عليهم أن يحتذوه.

ثم كان أن تحطمت سيطرة الأسلوب البلاغى القديم بدرجة كبيرة على يد أشهر كتاب التراجم الإنسانيين وهو جيورجيو فاسارى Giorgio Vasari (١٥١١م — ١٥٧٤م) صاحب الكتاب الخالد «حياة أبرز الرسامين والنحاتين والمعاريين». كان فاسارى نفسه رساماً ومهندساً معمارياً ولذا ظهر اهتمامه الكبير بحياة كبار الفنانين الإيطاليين فى عصر النهضه وأعمالهم. وشجعه على إصدار سلسلة تراجمه الكاردينال فارنيز Farnese، وباولوجيوفى Paolo Giovi وغيرهم والواقع أنه كان مؤهلاً تماماً لمثل هذا العمل لأنه تجول كثيراً وتحدث إلى كثير من الفنانين المعاصرين وسجل عديداً من ملحوظاته. واستمر على هذا النحو يدرس الصور والتماثيل والمنشآت العظيمة التى تميزت بروعة جمالها، مع استعداد لاستيعاب كل شئ. ويرجع إلى المعلومات الكثيرة التى جمعها السر فيما اتصفت به أعماله من سحر وضعف فى نفس الوقت. وقد صدر كتابه لأول مرة سنة ٥٥٠ م ولكنه استمر بعد ذلك يتنقل ويقابل كثيرين، مما تطلب منه إصدار كتابه مرة أخرى فى صورة مفخمة سنة ١٥٦٨ م.

ويعتبر كتابه هذا أول تاريخ هام وشامل للفن، وهو موضوع لايوجد لدينا أى سجل عنه فى تاريخ الكتابة التاريخيه. هذا إلى أن فاسارى على دراية بأساليب الفن وعالج موضوعاته علاج المتمكن، ومن وجهة نظر المتمرن. ثم إن ما كتبه جاء لا نظير له فى روعته وجاذبيته، إذ كانت له قدرة نادرة على جعل شخصياته تنبض بالحياة. أما طريقته فاتصفت بالعدل وعدم التميز حتى فى المواضع الكفيلة بأن تغرى الكاتب على التميز والتعصب. ولا غنى إطلاقاً عن دراسة تاريخ الفن فى عصر النهضه عن ذلك القدر الضخم من المعلومات التى جمعها فاسارى. ومع ذلك فإنه لم يكن حريصاً فى غربلته للمصادر والأخذ منها، ويتبين ذلك من تقبله لقدر كبير من الشائعات والحقائق المشكوك فى صحتها. كذلك يؤخذ عليه عدم الدقة فى تحديد التواريخ ويحوى كتابه كثيراً من المتناقضات، اذ كان يأتى أحياناً بمعلومات مستفيضة عن فنانين تافهين فى الوقت الذى لم يعط البعض الآخر من المبرزين حقهم من المعالجة. وعلى الرغم من كل هذه العيوب، فإن كتابه يعتبر من أشهر التراجم التى أتمتها المدرسة الإنسانية لا فى إيطاليا فحسب بل فى أوربا كلها، وهو يمثل بحق بداية مرحلة رئيسية فى تاريخ الفن. أما أبرز التراجم لنفس هذه المدرسة الإنسانية فهو ما كتبه بنيفونتو شيللنى Benovenuto cellini (١٥٠٠م — ١٥٧١ م) ويعتبر كتابه صورة رائعة لشخصيته وعصره

الكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية فى خارج إيطاليا

صادفت الحركة الإنسانية خارج إيطاليا قبولاً من كثيرين . شايعوها وناصروها ، ومن هؤلاء غير قليل ظهر فى ميدان التاريخ . ولقد سار المؤرخين الإنسانيون على وجه العموم فى مجال الكتابة التاريخيه على نفس الأسس والمبادئ التى عرفت فى إيطاليا مع شئ من التنويع والتغير الذى اقتضته الظروف الثقافيه المحلية المحيطة .

ولما كانت الحركة الإنسانية جاءت متأخرة نوعاً فى مناطق ما وراء جبال الإلب ، فإن هذه الحركة عاقت من تقدمها الصراعات الدينية التى صاحب حركة الإصلاح الدينى ، ومن ثم فإنها أعطت شيئاً من الاهتمام للجدل الدينى الذى لم يكن له وجود فى كتابة التاريخ بإيطاليا فى القرن الخامس عشر . هذا إلى أن ثمة تغير طرأ على تذوق الأدب الكلاسيكى ، ففى غمرة الحماسة للكتابة البلاغية المنمقة والحرص على الأسلوب اللازع الساخر صار تاكيتوس أقرب من ليفى إلى العقول والقلوب ، بل لقد صار تاكيتوس بمثابة النموذج الذى تميز به كتاب الحركة الإنسانية فى شمال أوربا فى القرن السادس عشر كذلك أدى الشعور بالروح القومية التى جاءت نتيجة لحركة الإصلاح الدينى ولحركة الاستعمار الأوربى ولنشأة الرأسمالية إلى صبغ الكتابة التاريخيه للمدرسة الإنسانيه فى شمال أوربا صبغة وطنية قومية . ففى ظل الأنظمة السياسية الجديدة نشأت الصراعات الحزبية ، وبالتالى فإن الكتابة التاريخيه الإنسانيه أخذت تبدو بين طياتها الملامح السياسية التى نلحظها فى الكتابة الحديثة للتاريخ .

وفى سويسرا كان أقيم ما أنتجته كتابات المدرسة الإنسانية هو كتاب تاريخ دير سانت جالى St Gall وكتاباً عن المقاطعات السويسرية ذات الغابات التى وصفها يوافيم فون وات Joachim von Watt (١٤٨٤ م — ١٥٥١ م) المشهور بفاديانوس Vadianus . وكثيراً ما نظر إلى فاديانوس على أنه يفوق بلوندوس كمؤرخ ، لأنه لم يمتاز عليه فى قدرته على نقد النصوص فحسب ، ولكنه تقدم عليه خطوة واقترب بشكل أكبر من فون رانكه عندما أظهر تقدماً أولياً فى النقد الداخلى أى فى مجال فحص ميول كاتبى الوثائق واتجاهاتهم . والواقع أنه كان ماهراً بصفة خاصة فى تتبعه للأساطير الدينية وتفنيدها لرفضها .

وكذلك تمكن فاديانوس من أن يجمع بين المعرفة الفريدة والأسلوب القومى الواضح وأن يبرز العوامل الرئيسية فى التطور التاريخى . ثم إنه تميز بدرجه عالية من القدرة على إصدار أحكام مبتكرة ، وكانت أفكاره وآراؤه خالية من الشطط ومعقولة إلى حد كبير . ومع ذلك فإنه يقف فى الصف الأول بين المؤرخين الإنسانيين لقدرته على تتبع تطور النظم الدينيه والسياسية وإبرازه فكرة التطور الاجتماعى . يضاف إلى ذلك أنه تبنى نظرية السببية التاريخيه أى تعليل أحداث التاريخ وذكر مسببات لها ، بصورة تنم عن سعة الأفق ، مع رفض الاتجاه التقليدى الذى يعزى التطورات التاريخيه إلى الشخصيات أو الأحداث التافهة دون غيرها : ويرى فيوتر أن ما جاء به فاديانوس يمثل أقصى ما بلغه إنتاج المدرسة الإنسانية من سعة الأفق وذلك لما تميز به ذلك الكاتب من ذكاء وحيدة . وما اتصفت به كتبه نفسها من ضخامة فى مجال موضوعاتها وتنوع اهتماماتها .

ومع ذلك فقد تعرض كتاب فاديانوس للنسيان فترة أطول أكثر مما تعرض له كتاب جويكاردينى عن « تاريخ فلورنسا » ، حيث إن الكتاب الأول لم ينشر حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر .

أما فى ألمانيا فقد بدأت قائمة المؤرخين الإنسانيين البارزين باسم ألبرت كرانتز Albert Krantz (١٤٥٠م — ١٥١٧م) الذى اتبع نفس منهج إنياس سلفيوس فى تطبيق المناهج التاريخيه والأدبية للمدرسة الإنسانيه على دراسة الشعوب البدائية التى عالج تاريخها فى كتبه ، مثل السكسون والونديين الأوائل . ويفوق كرانتز فى الشهرة المؤرخ جوهانز تورير Johamnes Turmaîr المعروف بافنتيوس Aventius (١٤٧٧ ـ ١٥٣٤م) صاحب كتاب «حوليات دوقات بافاريا » . وفى هذا الكتاب كما فى كتاب آخر كتبه تورمير عن تاريخ ألمانيا المبكر نجده يحاول الجمع بين القواعد الأدبية التى حرص عليها برونى والعلم الغزير الذى تميز به بلوندوس ، وإن كان لم يوفق فى الوصول إلى مستوى أى منها . هذا إلى أن تعقبه الشديد للمذهب البروتستانتى منعه من معالجة موضوع الكنيسة الكاثوليكية أو البابوات وغير ذلك من الشئون المعاصرة بطريقة موضوعية ، فضلا عن تحمسه لقوميته الألمانية وتعصبه لبافاريا والبافاريين على وجه الخصوص . وعلى الرغم من أنه اجتهد اجتهادا غير عادى فى جمع مصادره فإنه لم يكن ناقدا بدرجه بارزة عند استخدامه لها ، بالإضافة إلى أن أعماله شابها نوع من عدم التناسب والتناسق ، فنجده يفسح مجالاً كبيراً فى كتاباته للأباطرة الرومان كما لو كان يكتب تاريخاً عالميا . أما المزايا الرئيسية لكتابه فهى أنه وضع له مقدمه عبارة عن وصف للبلاد والشعوب التى تناولها فضلاً عن قدرته النادرة على وصف سلوك وعادات الشعوب التى قام بدراستها يضاف إلى هذا كله أسلوبه الذى امتاز بالوضوح وتعبيراته التى اتصفت بالقوة .

وبعد ذلك يأتى اولبرخ هوتن Ulrich von Hutten (١٤٨٨ — ١٥٢٣م) الذى ترجع شهرته الواسعة إلى حملته القوية ضد التعصب الدينى أكثر مما ترجع إلى كتاباته فى مجال التاريخ . والواقع أنه قام بعمل هام جدًا يعتبر إضافة قيمة للمعرفة التاريخية ، هو إحياؤه للمنشور الذى أصدره الإمبراطور هنرى الرابع ضد البابا جريجورى السابع ويعتبر هذا المنشور فى حد ذاته سلاحاً قوياً استخدمه البروتستانت ضد البابوية وروما ، فضلا عن كونه إضافة هامة للمعرفة التاريخية .

أما بيتوس رينانوس Beatus Rhenenaus (١٤٨٦ — ١٥٤٧م) فهو الوحيد الذى يعتبر أبرز ممثلى الاتجاه الناقد الذى عرف به بلوندوس والميل نحو المعرفة الغزيرة . وذلك فى مدرسة المؤرخين الإنسانيين فى ألمانيا . كان رينانوس صديقاً وتلميذا لإيرازموس وفى كتابه « أحوال ألمانيا » تولى فحص مصادر التاريخ الألمانى فى دوره الأول بنفس الطريقة العلمية الموضوعية واللغوية التى فحص بها إيرازموس السجلات والوثائق الكنسية . ويعتبر رينانوس من أكثر الباحثين فى التاريخ جهدا وصبراً وبلغت على يديه الكتابة التاريخية على عصر الحركة الإنسانية فى ألمانيا أعلى درجاتها .وكان يرجع دائماً إلى المصادر الأصلية ويفحصها بدقة كبيرة كما كان يتقل منها فى أمانه بالغة . كذلك كان متشدداً فى رفضه للأساطير الكلاسيكية قدر تشدده فى نبذ الأساطير الدينية ، هذابالإضافة إلى ما امتاز به من حب حقيق للبحث التاريخى وحكم سليم عندتقييمه لما توصل إليه فى بحثه عن نتائج . وعلى الرغم من مشاعره القومية فإنه لم يدع شعوره الوطنى يؤثر على أحكامه . وربما يتمثل عيبه الرئيسى فى عجزه عن صهر مادته كلها فى سرد كامل محكم ، كما كان تاريخه عن الألمان غير مترابط ووصل به حتى الأباطرة الساكسون فقط ، فى حين أنه كان متكاملاً إلى حد معقول فيما يتعلق بسيطرة الرومان وغزواتهم .

ومن بين عديد من كتاب القانون الدولى والشرعيه الذين لهم مكانتهم فى كتابات المدرسة الإنسانية الألمانيه يبرز اسم صمويل بوفيندورف Samuel Pufendorf (١٦٣٢ — ١٦٩٤م) بوصفه رائد هؤلاء الكتاب فى ميدان التاريخ ، ومن جملة كتبه كتاب « تاريخ السويد » وكتاب « تاريخ شارل جوستاف العاشر » وكتاب « تاريخ فردريك ولیم الناخب الأعظم » ومقدمة « لتاريخ القوى والدول التى تزعمت أوربا » . وامتازت كتابة بوفيندورف بطابعها الرفيع وأسلوبها المميز الواضح الراق . ولكن ربما كان هذا للأسف هو خير ما جاء فى كتاباته التاريخية . ولما كان يرتب مادته فى أغلب الأحيان طبقاً لتاريخ الوثائق التى استخدمها وطبيعة تلك الوثائق فإنه أخفق فى إعطائنا سرداً تاريخياً واضحاً خالياً من التناقض . هذا إلى أنه حرص إلى أبعد حد على أن يفسر التاريخ فى ضوء سير الأشخاص والتراجم ، كما

كانت أعمالهم — من وجهة نظرة أيضا — هي التي تحدد مجرى الأحداث التاريخيه . كذلك لم يفسر الأحداث التاريخيه فى ضوء الحركات التاريخيه العامة التى صاحبته ولم يوضح العلاقة بين السياسة الداخلية والشئون الخارجية . ثم إنه يبدو فى صورة المؤرخ الرسمى ، حيث إنه أخفى كثيراً من الحقائق والمعلومات . وكان يكتب أساساً بهدف تعريف من هم خارج ألمانيا وتعليمهم ، ومن ثم فقد صوَّر ألمانيا فى صورة إمبراطورية موحدة ومماسكة ، دون أن يذكر سوى القليل عن التناقض السياسى بين مختلف الولايات الألمانيه ، وما اكتنف شئون ألمانيا الداخلية من تعقيد وتداخل . لذلك فإن فيوتر أصاب إلى حد بعيد عندما قال عنه « إن بوفيندورف كتب للإمبراطورية أكثر مما كتب عنها »

وعالج .بوجسلاوى فيليب دى شمنتز Bogislaw philippe de Chemnitz (١٦٠٥ — ١٦٧٨ م) مملكة السويد وعلاقاتها الخارجية وبصفة خاصة حرب الثلاثين عاما فى ألمانيا وذلك على غرار ماكتبه جويكارديني عن سياسة فلورنسا وعلاقاتها الخارجية وماكتبه بوفيندورف عن براند نبرج والإمبراطورية الألمانيه . وقد رجع بوفيندورف إلى هذا الكتاب عندما تعرض لشئون السويد فى كتابته .

أما فى هولندا فإن أبرز شخصية بين مؤرخى المدرسة الإنسانية كان هوجو جروتيوس Hugo Grotius (١٥٨٣ — ١٦٤٥ م) . الذى اشهر بأنه أب القانون الدولى والذى كتب عدة مؤلفات تاريخية عن القوط والوندال واللمباورديين فضلا عن تاريخ بلجيكا وهولندا . وقد حاكى فى أسلوبه تاكيتوس . ولذلك جاءت كتابته مليئة بالحشو المطول والمعقد ، وإن فاق كثيرين غيره ومن بينهم تاكيتوس — من حيث مقدرته على استخدام علم النفس فى تحليل المواقف التاريخية . وبدت هذه المقدرة بصفة خاصة فى استقصائه للأسباب الحقيقية الكامنه للحروب بين أسبانيا وهولندا . وكان يرفض دائما أن يقرن تفسير التاريخ بالأشخاص والأحداث ، وهو التفسير الذى وجده بوفيندورف مناسباً جداً ، كذلك اتخذ جروتيوس موقفاً غير متعصب بوجه عام تجاه المشكلات الدينية واتفق مع ثاونس فى أن الحروب الدينية تمثل خطرا كبيراً على النظام العام ورفاهية الشعوب عموماً أما فى معالجته للسياسة الداخلية فإن كتابة جروتيوس تدل على أنه كان ارستقراطيًا اكثر منه جمهوريا متحمسا

وثمة مؤرخ أكثر مقدرة هو بطرس كورنيلسن هوفت Cornelissen Hooft (١٥٨١ م - ١٦٤٧) الذى فاق جروتيوس فى إعجابه بتاكيتوس حيث قام بترجمة أعماله إلى اللغة الهولندية ، وسار على نهجه فى الطريقة والأسلوب . ولكنه فاق تاكيتوس فى نهجه العلمى ، إذ دأب على فحص المصادر التاريخية بكل دقة ، واتصفت كتاباته بالبعد عن التحيز فى أحكامها . وقد تناولت كتاباته بصفة اساسية التاريخ الفرنسى والهولندى ، كما تضمنت تاريخاً لهنرى الرابع وأسرة ميدتشى بالإضافة إلى تاريخ هولندا فى النصف الثانى

من القرن السادس عشر . أما المؤرخ يوحنا كلوفر Johannes Clüver الذى ألف كتاباً باسم مجمل تاريخ العالم (١٦٣٧ م) فإن كتابه يعتبر من الكتب الموثوق بها عن تاريخ العالم

فإذا ما انتقلنا إلى إنجلترا وجدنا كتابة التاريخ فى عصر الحركة الإنسانيه مرتبطة أرتباطا وثيقاً بأصول الحركة الأدبيه فى إيطاليا . وأول مثال لهذا النوع من أعلام الكتابة التاريخيه فى إنجلترا هو بوليدور فيرجيل (١٤٧٠ — ١٥٣٥م) الذى كتب كتاباً عن تاريخ إنجلترا يتصف بإحكام الأسلوب وغزارة المادة . وكان فيرجيل من رجال الكنيسة الإيطاليين وأحد أصدقاء أرازموس ثم اتخذ إنجلترا موطناً له . ولم يكن فى عصره فى الجزر البريطانية من يفوقه فى اتساع العلم والمعرفة حتى أيام كامدن أى بعد عهد فيرجل بحوالى قرن من الزمان . هذا إلى أنه أظهر فى كل أجزاء تاريخه قدرة عظيمة على النقد ، ولم يقف عند حد شن هجوم عنيف على الأساطير التى امتلأت بها كتابات جوفرى المنسوب إلى مونمادث عن أصل الشعب البريطانى ، وإنما استطاع أن يقدم خير ما كتب عن حكم هنرى السابع .

أما سير توماس مور (١٤٧٨ م — ١٥٣٥ م) فهو أول مؤرخ بارز من أهل إنجلترا ينتمى إلى المدرسة الإنسانيه ، وظهر أسلوبه المصقول فى كتابه الموجز «تاريخ الملك ريتشارد الثالث» . وقد كتب مور كتابة هذا مرتين ، إحداهما باللغة الإنجليزية والأخرى باللاتينة ووصل فى كليتهما إلى أعلى مستوى فى فن الكتابه . وتتمتع النسخة الإنجليزية من كتابه بأهمية خاصة حيث إنها تمثل أول كتابة بلغة محلية طبقت أساليب المدرسة الإنسانية فى صورتها النقية الخالصة . ومع ذلك فإن الصورة الزاهية التى رسمها مور بشخصية ريتشارد الثالث لم تكن دقيقة تماماً وكان يشوبها بعض من خرافات وأساطير ذلك العصر . وبرغم ذلك فقد اعتمد عليها شكسبير مما جعلها مصدر الانطباع العام عن ريتشارد الثالث فى نظر الناس منذ أيام مور حتى عصرنا هذا .

أما أصول الدراسة العلمية لتراث الأقدمين فى انجلتره فقد أرسى اساسها جون ستو John Stow (١٥٢٥ م — ١٦٠٥ م) وحنا ليلاند John Leland (١٥٠٦ — ١٥٥٢ م) وقد تجولا كثيراً فى طول البلاد وعرضها بحثاً عن المادة التى تفيد فى كتابة التاريخ والآثار لكل من إقليمى إنجلترا وويلز . ومع ذلك فإن الكتابات التى بنيت على هذه الرحلات لم تنشر إلا فى مطلع القرن الثامن عشر .

أما سير والتر رالى — وهو من رجال البلاط الإنجليزى وأحد دعاة الاستعمار المتصفين بالشجاعة والجرأة (١٥٥٢ — ١٦١٨ م) فقد ألف كتاباً بعنوان «تاريخ العالم» بينما كان مسجوناً فى برج لندن . ويجمع هذا الكتاب بين ما درج عليه كتاب المدرسة الإنسانية من حب لتراث القدامى وما هو معروف عن البيورتان من ميل للإنجيل والحرية . ومع أن رالى كان ملماً

بأعمال عطاء المؤرخين القدامى إلا أنه كان شديد التأثر بيلوتارك على وجه الخصوص . على أن هذا الكتاب برغم مايمتاز به من تشويق وأسلوب رفيع ، فإنه لم يضف شيئاً لمعلوماتنا ولم يأت بجديد فيما يتعلق بتاريخ الماضى . وقد خصصت الفصول الأخيرة منه بصفة رئيسية للتاريخ الانجليزى .

ويمثل مدرسة بلوندرس الناقدة ذات المعرفة الواسعة من المؤرخين الإنجليز مؤرخ البلاط وليام كامدن . William Camden (١٥٥١ م – ١٩٢٣ م) الذى كان شديد الإعجاب بوليبيوس . ويعتمد كتابه «بريطانيا» من الكتيبات الرائعة التى تناولت تاريخ الجزر البريطانية وجغرافيتها وآثارها ورددكامدن فى سخرية لطيفة الأساطير التى أحاطت بأصل البريطانيين . وأوضح فى كتابه حوليات التاريخ الإنجليزى الأيرلندى فى عهد الملكة إليزابيث » مثل ما أوضح معاصره الفرنسى ثاونس – أن التاريخ السياسى للقرن السادس عشر لا يمكن فصله عن المسائل الدينية . ولكنه كان أقل حياداً من بلوندوس فى كتاباته التاريخية حيث إنه كان ملكيًا محافظاً ومن أنصار الكنيسة الرسمية فى انجلتره .

أما العلامة الفيلسوف فرانسس باكون (١٥٦١ – ١٦٢٦ م) فيعتبر مريداً فى إنجلترا لكل من ميكافللى وجويكارديني . والواقع أن هناك تشابهاً كبيراً بينه وبين أولئك الفلورنسيين السابقين له فى الأسلوب ووجهات النظر . وجاء مؤلفه التاريخى الرسمى «تاريخ عهد الملك هنرى السابع» كتاباً رافعاً فى خطته وتعبيره وروحه الفلسفية ، مع أن أحكامه القاسية كانت موضع نقد شديد من جانب النقاد الذين جاءوا بعده . ولقد أظهر باكون احتراماً يثير الدهشة للكنيسة ، مع ما كان عليه من نزعة علمية . ولكن باكون كان رجلاً إنجليزيًا مهذباً قبل أن يكون فيلسوفاً مما دفعه إلى احترام الكنيسة الإنجليزية . أما نظرته إلى التاريخ فهى أكثر أهمية من أى إنتاج له فى مجال الكتابة التاريخية . وتبدو هنا النظرة وذلك الإدراك الكامل للمفهوم التاريخى حين يؤكد «أننا نحن القدماء» «وستعرف أيامنا هذه بالعصور القديمة ذلك عندما يشيخ العالم على مر السنين . إن عصرنا نحن أكثر قدماً من الزمن الذى أحصيناه وراءنا وذلك إذا بدأنا بعصرنا هذا وقسنا عليه المستقبل » . [1] وحين يؤكد باكون هذه الآراء يتضح كيف كان ينظر إلى التاريخ نظرة شاملة واسعه . وعلى نفس المستوى من الأصالة والأهمية كانت دعوة باكون الفلسفية لكتابة تاريخ أوربا الثقافى والفكرى . [2] وكان أول من نهض بهذا العمل أكثر النقاد قسوة على باكون وهو أستاذ العلوم الأمريكى حنا وليم درابر John William Draper

---

يؤكد باسكال وجهة النظر هذه بصورة قاطعة . انظر بريزند سميث (المؤلف) .

(2) Preserved Smith «A History of Modern Culture (Holt 1930) 1,255.

وفى إنتاج سيلدن وكلارندون وبورنت امتزجت الكتابة التاريخية فى عصر الحركة الإنسانية لكتابة التاريخ الحديث السياسى والحزبى . ذلك أن حنا سيلدن (١٥٨٤ – ١٦٤٥ م) كتب مقالات مستقلة عن القانون ونظام الحكم فى إنجلترا بما فى ذلك نظم الحكم التى سبقت الفتح النورمانى ، وتاريخ الألقاب وضرائب العشور فى إنجلترا . ولقد سجنه الملك جيمس الأول فترة من الزمن لمعاداته النظام الملكى ولتمجيده إطلاق الحريات .

وكانت الحرب الأهلية التى وقعت فى السنة الأخيرة من حياة سلدن خير حافز له على كتابة التاريخ السياسى وتاريخ الأحزاب فى إنجلترا . أما كتاب تاريخ الثورة والحروب الأهلية فى انجلتره الذى وصفه إيرل كلارندون (إدوارد هايد) (١٦٠٩ – ١٦٧٤ م) فيشبه فى نظامه العام إلى حد كبير «المذكرات» الفرنسية . وعلى الرغم من أن كلارندون كان سطحيًّا للغاية فى تحليله للأسباب الرئيسية – الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية — للحرب الأهلية الأولى فى انجلترا ، إلا أنه لا يوجد مؤرخ سبقه سواء من الإنسانيين أو القدامى استطاع أن يفوقه فى قدرته على وصف وتحليل الشخصيات . وعلى الرغم من أنه كان يعطف على الملكية لأنه من أنصارها ، إلا لم يجحف هاميدون وكرومويل وغيرهما من قادة الثورة حقهم «فأعطى للشيطان حقه» . وقد فسر الحرب الأهلية على أنها منبع القانون الدستورى لكن نظريته فيما يتعلق بالسببية التاريخية كانت من النوع الشخصى الأخلاق التى وإن ناسبت فنه فى تصوير الشخصيات فإنها لم تكن مناسبة للموضوع .

ثم يأتى بعد ذلك الأسقف جلبرت بيرنت Gilbert Burnet (١٦٤٣ – ١٧١٥ م) الذى كان أول مؤرخ عالج الدسائس الحزبية والمناقشات البرلمانية ، وهما موضوعان قلما عرض لهما مؤرخ سابق . وقد عالج بيرنت هذين الموضوعين فى كتابيه «حركة الإصلاح الكنسى فى انجلترا» و «التاريخ المعاصر» ولذلك يعتبر بيرنت أحد رواد التاريخ السياسى الحديث مثلما هو أحد تلاميذ المدرسة الإنسانية . وعلى الرغم من أن كتابه عن تاريخ حركة الإصلاح الكنسى فى انجلترا يعبر عن تحيز واضح للبروتستانت ، كما أنه غير دقيق فى كثير من تفاصيله ، إلا أنه عالج الموضوع على أساس دراسة الأسباب والنتائج ، كما أنه فاق كلارندون فى فهم الإطار العام – الفكرى والاجتماعى – للتطورات الدينية . أما كتابه «التاريخ المعاصر» فيحوى عرضاً سريعاً ممتازاً للمسرح السياسى السريع التبدل والتغير فضلاً عن الدسائس الحزبية والنميمة داخل البلاط وهو أيضاً دفاع رائع متحمس عن حزب الأحرار وقد احتوى هذا الكتاب على قدر كبير من التاريخ الثقافى . ويلاحظ فيه أن الكاتب يؤمن بتدخل القوى الإلهية فى صنع أحداث التاريخ . وعلى الرغم من أن بيرنت قد قبل منصب أسقف فى الكنيسة الانجليزية فإنه كان دائما منصفا لفئة المنشقين عن تلك الكنيسة ، كما كان يكتب بأسلوب بالغ الوضوح والسلاسة .

أما أبرز كتاب المدرسة الإنسانية فى اسكتلندا فهو العلامة جورج بوخنان Buchanan (١٥٠٦ – ١٥٨٢ م) الذى كان شاعراً بارزاً ومؤرخاً وفيلسوفاً سياسياً ومصلحاً دينيًا وزعيماً حزبيًا . ولا يدانيه فى نقاوة أسلوبه اللاتينى وقوة ووضوح سرده سوى قليل من أحسن الكتاب الإيطاليين . والكتاب الرئيسى الذى كتبه بوخنان هو كتاب «تاريخ اسكتلندا» (من أقدم الأزمنة حتى ١٥٠٨ م) تميز بروعة الأسلوب وإن كانت تشوبه نغمة التحزب وعدم دقة الرد . ثم انه عند علاجه للدور المبكر من تاريخ اسكتلندا اتخذ موقفاً شديد العداء لانجلترا واضح التعصب لاسكتلندا . وعلى الرغم من أنه استطاع تحليل المعجزات والأساطير إلا أنه لم يكن متحمساً لنبذها . ومع أن الكتاب عظيم فى معالجته للفترة المعاصرة ، إلا أنه حتى فى ذلك الدور كان منحازاً إلى جانب اسكتلندا وكنيستها المشيخية . كذلك لم ينجح فى إعطاء صورة لنوكس Knox ولحركة الإصلاح الدينى فى اسكتلندا . ولقد كان بوخنان معاديا للعقلانيين من المفكرين الأحرار وأيضاً للملكيين ، كما كان من ألد خصوم النظام الكوبرنيقى .

أما فى فرنسا فإن أثمن ما أنتجته المدرسة الإنسانية هو ما كتبه العلامة الفرنسى جوزيف جستوس سكاليجر Joseph Justus Scalger (١٥٤٠ – ١٦٠٩ م) صاحب كتاب «تصحيح التقويم التاريخى» Restoration of chronology Emendatione Temporum وجاء هذا الكتاب محاولة جريئة لتقويم التاريخ على أسس علمية ، وذلك بمراجعة التأريخ «المقدس» فى ضوء شواهد مستقاة من تواريخ الأمم الماضية الأجنبية الوثنية . وقد احتوى الكتاب على عرض لكل التقاويم المعروفة وطرق حساب الزمن . أما كتاب «سجل التواريخ» فهو عمل علمى رائع يشمل كتاب ايوزيبوس المفقود بعد أن استمده من جيروم ومن كتاب يونانى . ويعتبر هذا العمل أهم تقويم يمكن الاعتماد عليه للتاريخ القديم وذلك حتى ظهرت أبحاث دوم كلمنت وأبحاث المتخصصين المحدثين .

وعاصر سكاليجر القانونى الضليع حنا بودين (١٥٣٠ – ١٥٩٦ م) صاحب كتاب «طريقة لفهم التاريخ بسهولة» (١٥٦٦ م) وهو يمدنا بأول بحث مطول عن منهج التاريخ ، معتمدا على شرح وتفسير ما جاءت به المصادر من ارتكازه على نقدها . وقد اهم بودين كثيراً بإيضاح تأثير العوامل الجغرافية على تطور التاريخ . وبهذا فتح طريقاً أمام مونتسكيه وريتر . كذلك فإن كتابه – وليس كتاب ليبربوخ – يسجل شبعاً على الفصل الأول من كتاب باكل «تاريخ الحضارة فى انجلترا» . أما عن الطريقة التى عالج بها مؤرخو الحركة الانسانية تاريخ العالم ، فتبدو واضحة فى كتاب «تاريخ العالم» (١٥٧٧ م) الذى كتبه فرانسودى بلفورست .

وعلى الرغم من أن فكرة بودين الخاصة بتأثير العوامل الجغرافية قامت على أساس عام من التنجيم ، فإن مغزاها كان كبيراً وهاماً . ذلك أنه أظهر بوضوح طبيعة فلسفة التاريخ وقيم

تطور الإنسان تاريخياً إلى ثلاث مراحل : مرحلة الشعوب الشرقية ، مرحلة شعوب البحر المتوسط ، ومرحلة شعوب أوروبا الشمالية . ثم إنه عرض فى البداية نظرية أوليه للتقدم كانت متبعة فى الكتابة التاريخية المسيحية ومؤداها التشكك فى الاعتقاد السائد وقتذاك والخاص بالانحدار من عصر ذهبى أو الابتعاد عن الجنة . فى رأيه أن الإنسان قد أحرز الكثير من التقدم المطرد منذ بدأت الخليقة على الأرض .

وفى النصف الأخير من القرن السادس عشر تحولت الكتابة التاريخية عند الإنسانيين فى فرنسا إلى دراسة السياسة الفرنسية والحروب الدينية ويتضح هذا الأمر فى كتاب « تاريخ العالم » الذى ألفه ثيودور اجريبادى اوباين Theodore Agrippa d'Aubigné (١٥٥٢ – ١٦٣٠ م) الذى كان بروتستانتيا ، ولذا أمر برلمان باريس بحرق نسخ من كتابه القيم .

وفى أعمال المؤرخ جاك أوجست دى ثو المعروف عادة بثاونس (١٥٥٥ – ١٦١٧ م) نجد استكمالاً للغرض التاريخى الخاص بهذه الفترة . ذلك أن ثاونس يعتبر على الأرجح أبرز مؤرخ فرنسى أسهم فى الكتابة التاريخية المنظمة خلال الحركة الإنسانية . وكتابه « التاريخ المعاصر » قصد به أن يكون استكمالاً لكتاب بنفس العنوان لأحد مؤرخى الحركة الإنسانية فى إيطاليا وهو بولس جوفيوس (١٤٨٣ – ١٥٥٢ م) . ويصف هذا الكتاب الحروب الأهلية والدينية فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر (١٥٤٦ م – ١٦٠٧ م) وصفاً أملته روح كاثوليكى فرنسى مستنير معتدل . ولقد أدخل ثاونس على الكتابة التاريخية الاتجاهات العظيمة التى أتى بها فى عالم السياسة مولاه وصديقه الملك هنرى الرابع . وكما هو متوقع من مشرع اشترك فى صياغة مرسوم نانت [1] لم يكن ثاونس منصفاً لبيت جويز ، أعداء البروتستانت الألداء فى فرنسا ، وكذلك للحزب الكاثوليكى المتطرف . ولكن منهجه كان يعبر عن روح سامية نبيلة من أجل التسامح الدينى فى سبيل مصالح فرنسا الكبرى . ذلك أنه حث الملوك الفرنسيين على التسامح والسلام كذلك فإن أعماله تكشف عن قدرة ذهنية عظيمة وعن قدرة على التعبير . وكان من الممكن أن يتساوى ثاونس مع ميكافللى وجويكاردينى لو أنه لم يدافع عن نظرية التوجيه الإلهى للتاريخ ، ولو أنه امتلك الخيال التاريخى البناء الذى يمكنه من تنظيم العمل التاريخى فى سرد محكم . ومع ذلك يمكن أن يقال إنه قد فاقهما فى ناحية معينة وهى إيضاح أهمية بل ضرورة مناقشة الأمور الدينية للتوصل إلى فهم كامل للتطورات السياسية والدستورية . وكان أسلوب ثاونس على درجة كبيرة من الوضوح ، ولكن يغلب عليه كثرة التصنع والحرص على تقليد النماذج الكلاسيكية . .

---

(١) : صدر هذا المرسوم سنة ١٥٩٨ وهو يسمح لغير الكاثوليك من الفرنسيين بالحرية المذهبية الدينية وفى سنة ١٦٨٥ أبطله لويس الرابع عشر وأمر بحرق كنائس البروتستانت (المترجم) .

أما ما أسهم به اسحق كوسبون Isaac Casaubon المعاصر لثاونس ، فسوف نتناوله فى مجال آخر . والواقع أن خلفاء ثاونس فى فرنسا كانوا أقل منه كثيراً فى القدرة الدقة ، وأولهم هو انريكو كاتيرنيو دافيلا Enrico Caterino Davila (١٥٧٦ – ١٦٣١ م) الذى كان جنديًّا شارك فى الحروب الدينية الفرنسية ، ثم هاجر إلى إيطاليا وكتب باللغة اللاتينية تاريخاً معروفاً للحرب الأهلية فى فرنسا . وقد كان فهمه سطحيًّا لحركة الهجنوت وهم بروتستانت فرنسا فى ذلك العصر . ويليه فى الأهمية فرانسوا ايود الشهير بميزراى Mezeray (١٦١٠ – ١٦٨٣ م) صاحب كتاب «تاريخ البرجوازيين فى فرنسا» سنة ١٦١٠ ولم يكن دقيقاً فى تفاصيله التى لا يعتمد عليها ، ويعكس عواطف الطبقة البرجوازية ومشاعرها الطيبة نحو الملكية القوية فى فرنسا ، ولذا فإنه يمجد الملوك الفرنسيين وخاصة الأقوياء منهم . وجاء هذا الكتاب بلغة فرنسية مصقولة .

أما التحفة الأدبية بالنسبة للكتابة التاريخية للمدرسة الإنسانية الفرنسية فهى مذكرات دوق سان سيمون (١٦٧٥ – ١٧٥٥ م) التى تتناول فرنسا فى عهد البوربون . والواقع ان سان سيمون كان لا يتمتع بصفة العلامة المتعمق الدقيق أو المؤرخ الفلسفى ، فهو لم يلتزم الدقة فيما يتعلق بالتفاصيل ولم تكن لديه القدرة على تقدير القيمة الحقيقية للمادة التى توافرت له ، كما أنه كان متحيزاً لطبقة النبلاء التى ينتمى هو نفسه إليها . يضاف إلى ذلك قلة اهتمامه بالسياسة الخارجية وشغفه بالدسائس والنميمة : ولكنه مع ذلك كله كان عظيما فى تصوير الشخصيات والمناظر المسرحية عن دوائر البلاط وشخصياته ، مما جعل كتابه من أكثر الكتابات التاريخية متعة . ويقول عنه جورج بيبودى جوخ «بأنه له تأثيراً مغناطسيا» وينوه «بمركز المؤلف فى البلاط وعلاقاته الوثيقة بشخصياته الرئيسية وقدرته التى لا تبارى على اعطاء تفاصيل كاملة وكذلك قدرته الغير عادية على الملاحظة وتصويره الرائع للشخصيات وأسلوبه الواضح» . هذا وان كان رواد المدرسة الناقدة أمثال شيروبل وبواز ليزل Boislisle لم يغفروا لسان سيمون عدم توخيه الدقة فى كتاباته .

أما فى اسبانيا فقد كان للمدرسة الإنسانية ثلاثة كتاب على جانب من الأهمية هم دايجو هورتادودى مندوزا Diego Hurtado de Mendoza (١٥٠٣ – ١٥٧٥ م) ، وجيرونيمو دى زوريتا (١٥١٢ – ١٥٨٠ م) وجوان دى مارينا (١٥٣٥ – ١٥٧٥ م) . كان مندوزا كاتباً ذا خبرة إدارية وعسكرية كبيرة ، صار فى يوم ما من الشخصيات المقربة لفيليب الثانى ولكنه طرد بعد ذلك من البلاط . وأدى هذا الحدث إلى تزويده بالأساس السيكلوجى للاتجاه الناقد وهو الاتجاه الذى ظهر فى كتاب تاريخ حرب غرناطة ، الذى يعتبر سرداً قائماً بذاته ممتازاً يتضح منه أن المؤلف كان متمكناً بدرجة كبيرة من مادته وكان صريحاً متزناً ومتعمقا فى أحكامه على نحو ما كان عليه جويكاردينى ، باكون. هذا

وان أدى تعطشه مثل بقية رجال المدرسة الإنسانية إلى تقليد القدماء إلى عدم وضوح كتاباته والانتقاص من قيمتها . وكان هدفه دائماً أن يقلد سالوست ، وتاكيتوس . ولكنه لم يفعل ذلك بمهارة ولم يحقق نجاحاً فيما ذهب إليه ، لأنه مزج ملاحظاته الدقيقة بعبارات وتركيبات قديمة مستمدة من تاكيتوس . ثم إنه لم يكتف بهذا بل ذهب إلى حد تناول المواقف التاريخية المعاصرة بنفس أسلوب تاكيتوس وطريقته مما أفسد كتابته وشوه الصورة التى أرادها وجعلها بعيدة عن أن تكون سرداً مباشراً له قيمته الكبرى .

وربما كان جيرونيمو دى زوريتا Geronino de Zurita المؤرخ الرسمي لمملكة أرغونه وأبرز تلامذة بولوندوس بين المؤرخين الأسبان فى ذلك الدور وأكثرهم إخلاصاً له . ويتناول فى كتابه حوليات لمملكة أرغونه وتاريخ هذه المملكة منذ نشأتها حتى سنة ١٥١٦ م . ولعل أهم شئ فى هذا الكتاب هو أن مؤلفه كان أحد المؤرخين الأوائل الذين استفادوا بدرجة كبيرة من الأرشيفات والمراسلات الديبلوماسية ، استغل ذلك فى وضع سجل جديد للأحداث السياسية منذ الماضى البعيد كذلك فإن كتابه له قيمة خاصة بالنسبة لدراسة عهد فرديناند .

أما الكاتب الأسبانى ماريانا الذى ينتمى إلى المدرسة الإنسانية فكان فيلسوفاً سياسياً معارضاً لاستبداد الملكية . وهو أشهر المؤرخين الإنسانيين فى أسبانيا ، ودفعته نزعته الوطنية إلى أن يهدى أسبانيا عملاً تاريخياً يليق بها ويكشف للأجانب عن عظمة بلاده فتناول فى كتابه «تاريخ أسبانيا » منذ الفترة التى يقال إن أحد أحفاد نوح حط رحاله فيها حتى عصر اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ . وبعد ذلك أكمل ماريانا هذا الكتاب بشكل مختصر حتى وصل إلى سنة ١٦٢١ م . ومع انه استخدم المصادر المعروفة إلا أنه لم يكن ناقداً أو مدققا فى استخدامها على نحو ما كان عليه زوريتا . كذلك كان ميالاً لتقبل المعجزات والأساطير التى جاء بها الأقدمون والمسيحيون الأوائل . ولكنه مع ذلك كان لبقاً فى تناوله للسياسة الأسبانية ، وخاصة فى الفترة الأقرب لعصره هو . واحتوى سرده على قدر كبير من الوعظ السياسى والتنويه بدروس التاريخ وضرورة الاستفادة منها . ويبدو أنه كان يبغى الحصول على شعبية وشهرة ، ولذا كتب بأسلوب واضح سلس معبر مما جعله يعرف – بأنه بوخنان الأسبانى ولهذه الشهرة ما يبررها . وإذا لم يكن ماريانا فى مستوى بوخنان الأسكتلندى العظيم من ناحية الأسلوب الرفيع فإنه يفوقه كمؤرخ علامة .

ولابد فى هذا المقام من أن نشير إلى المؤرخ فيقولا أنطونيو (ت ١٦٨٤) والذى كتب أول تاريخ للأدب الأسبانى .

ولقد سبق أن أشرنا إلى الخلافات الدينية التى نشأت فى القرن السادس عشر بقيام حركة الإصلاح الدينى البروتستانتية وردود فعل هذه الحركة ، ولذا فإن دراسة هذه الحركة وردودها سيكون موضوعنا التالى ويعتبر فيلب ميلانكتون (١٤٩٧ - ١٥٦٠ م) خير من يمثل كتاب الفترة الانتقالية من الحركة الإنسانية إلى عهد الإصلاح الدينى .

المــراجع

1. Articles «Humanism and Renaissance in Encyclopaedia of the social sciences
2. **Hulme**: The Renaissance The Protestant Revolution and the Catholic Reformation in continental Europe Chaps V, XXXIX, century 1915.
3. **E.P. Cheyney**: The Dawn of a New Era 1250 - 1453 Hapers 1936.
4. **Thompson**: History of Historical Writing Vol. 1 chaps XXVIII - XXIX
5. **M.P. Gilmore**: The World of Humanism (Harper) 1957.
6. **Will Durant**: The Renaissance, Simon and Schuster 1953.
7. **James Gairdner**: Early chroniclers of Europe England chap. VII.
8. **Ugo Balzani**: Early chroniclers of Europe Italy chap. VII
9. **Ritter**: Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book II.
10. **Preserved Smith**: A History of Modern Culture 1, 252, 270, Holt 1930
11. **Robert Flint**: Historical philosophy in France pp. 183 - 207. Scribners 1894.
12. **John Morley**: Critical Miscellanies IV, 1 - 108. Machillan 1908.
13. **Ferdinand Scheill**: A History of Florence, Introduction. Harcourt, Brace, 1936.
14. **W.K. Ferguson**: The Renaissance in Historical Thought (Houghton Mifflin), 1948.
15. **Eduard Fueter**: Histoire de l'Historiographie moderne Books 1 - 11 Paris 1914.
16. **F. X. Von Wegele**: Geschichte der deutschen Historiographe Seit dem Auftreten des Humanismus Book, Lepzig 1885.
17. **Paul Joachimsin**: Geschichtsauffassung und Geschichtschreilung in Deutshland unter dem Einfluss des Humanismus Berlin 1910.
18. **A.A. Tilley**: The Literature of the French Renaissance Macmillan 1904. 2 Vols.
19. **A.W. Wasd and A.R. Waller ads, Cambridge**: History of English Literature, Vols III-VI. Macmillan 1907 - 17. 15 Vols.
20. **J.E. Spingarn**: History of Literary Criticism in the Renaissance. Columbia University press 1908.
21. **Sin J. E. Sandys**: History of Classical Scholurship, Puntam 1906-8 3 vols.
22. **Merrick Whit combs**: Literary Source Book of the renaissance University of Pennsylvania press 1904.

الفصل السادس

الكتابة التاريخية الكنسية خلال عصر الإصلاح الديني والحركة المضادة

الأثر العام لحركة الإصلاح الديني والحركة المضادة فى الكتابة التاريخية

حدث فى نفس السنة التى نهض فيها ميكافيللى بكتابه «تاريخ فلورنسا» أن أقدم مارتن لوثر على حرق المرسوم البابوى فى وتنبرج[1] . وبهذا أنطلقت الثورة البروتستانتينيه . وهكذا تعرضت الحركة الإنسانية لهزة عنيفة ، فى الوقت الذى أخذت تلك الحركة تسلك فى ميدان الكتابة التاريخية طريقاً دنيوياً صحيحا . ومرة أخرى أخذت الأهتمامات التاريخية تنحصر فى دائرة المهاترات والجدل الدينى التى حاول المؤرخون منذ عهد بترارك وبوكاشيو تحرير أنفسهم منها . ونعود مرة أخرى للاقتباس مما قاله الأستاذ بير فى هذا الشأن :

لقد تعرضت حرية التاريخ لصدمة مفاجئة عند ظهور رد الفعل الدينى العظيم الذى نسميه حركة الاصلاح الدينى . ومرة أخرى نجد مصالح البشر وقد غاصت فى قاع النسيان ، لأن ماأعطته آراء لوثر وكالفن الدينية من اهتمام بالجهد البشرى وتقدير له كان أقل مما أعطته الكنيسة فى قديم عهدها . حقا إن لوثر قدر التاريخ حق قدره ، ولكنه فعل ذلك بوصفه درساً سماوياً مقدساً كذلك أخذ ميلانكتون[2] يتلمس يد الله فى التاريخ وكيّف تعاليمه كلها وفق احتياجات العقيدة البروتستانتينيه . وسواء كان على الكاثوليك أو البروتستانت أن يحققوا وحدة للعالم المسيحى ، فإن التاريخ صار عليه مرة أخرى أن يصبح صنيعة اللاهوت[3]

---

(١) تم ذلك فى العاشر من ديسمبر ١٥٢٠ وكان البابا حينئاك هو البابا ليو العاشر (تولى البابوية من مارس ١٥١٣ — ديسمبر ١٥٢٦ م) وقد أعلن لوثر أنه يحتقر البابوية واتهمها بأنها قوة معادية للمسيحية (المترجم)

(٢) بعد وفاة لوثر ١٥٤٦ تولى ميلانكتون زعامة حركة الإصلاح الدينى فى أوربا وكان رائد علماء اللاهوت فى جامعة وتنبرج ومثل اللوثريين فى كل المفاوضات للوصول لأتفاق مع الكاثوليك فى أوربا (المترجم) .

(3) Burr, loc. cit., p. 262.

ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة والمنظمات الدينية هي صاحبة المقام الأول والأكبر فى مجال البحث التاريخى . بل أن التاريخ العالمى صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان بعد أن حلت « مدينتان جديدتان للشيطان » محل المدينة الوثنية التى عرضها القديس أوغسطين وأورزيوس ، وهما على التتابع « وكر الشيطان فى روما » و « اتباع الراهب المجنون فى ويتنبرج » . وهكذا اقتصر الصراع فى ذلك العصر على العالم المسيحى الذى أصبح بيتا منقسم على نفسه واستخدمت اساليب أورزيوس فى تلك « المعركة العائلية » التى تعرض لها الوطن المسيحى .

وغنى عن القول أن احياء النزعة الدينية فى مجال الاهتمامات التاريخية كانت ضربة قاصمة للموضوعية الخالصة التى لمسناها فى كتابات بعض المؤرخين من أمثال جويكارديني ، بقدر ما كانت بالغة الضرر بالنسبة للحفاظ على الاتجاه الدنيوى فى كتابة التاريخ ، وهو الاتجاه الذى كانت تمثله المدرسة الفلورنسية . كذلك ترتب على أحياء تلك النزعة ضعف الاعتقاد بأن دراسة التاريخ تتم بدافع من حب الاستزادة من المعرفة وزيادة حصيلة المعلومات عن الماضى ، وهو الأمر الذى أضفى بوليبيوس نفسه من أجله ، ذلك لأن التاريخ فى تلك الظروف الجديدة أصبح أداة عملية بدرجه لا تقل عنفاً عما كان عليه أيام القديس أوغسطين وتلاميذه . وبعبارة أخرى فأن النظرة الى الماضى فى ذلك العصر جعلت « ترسانة » شاسعة ومتنوعة يستمد فيها الفريقان المتخاصمان أسلحة وذخيرة لا حدود لها لاستخدامها فى تشوية صورة خصومهم . كذلك ظهر هناك تجاهل خفيف لمبادئ النقد التى أحياها خيرة كتاب المدرسة الانسانية . ذلك أن أتباع كل مذهب من المذاهب الدينية كان يحاول أن يجد فى الماضى ما يؤيد وجهة نظره ويظهر معارضيه فى أقبح صورة ، وبالتالى لم يعد الحكم على مصادر المعلومات ينبع من حيث مدى امكان الاعتماد على صحتها ، ولكن من حيث قدرتها على المساهمة فى الجدل القائم . وهكذا حل الجدل الصاخب الملئ بالاتهامات والعنف محل السرد الهادئ الرتيب . ونتج عن ذلك كله أن تضاءلت لفترة طويلة بعد حركة الاصلاح الدينى . الفرصة لدراسة العصور الوسطى دراسة كاملة حرة بعيدة عن التحيز . ففى فترة كهذه شهدت انقسام العالم المسيحى الى حزبيين دينيين كبيرين لم يكن هناك مجال للتحليل الهادئ غير العاطفى . .

على أننا نبتعد عن الدقة إذا ما أعتقدنا أن حركة الاصلاح الدينى تسهم فى دفع عجلة البحث التاريخى ، اذ لم يوجد فى اخصب الكتابات التاريخية القديمة أو تلك التى تنتمى الى المدرسة الأنسانية مثل ما وجد فى حركة الاصلاح الدينى من طاقة محمومة تجلت فى التنقيب والبحث الدقيق فى سجلات الماضى وبعبارة أخرى فأن العيب الرئيسى لم يكن فى اضمحلال النشاط أو ضعف الاهتمام بالبحث ، وإنما كان فى طبيعة الدوافع التى أدت الى هذا النشاط

الكبير فى البحث عن العلومات . وفى الطريقة التى استغلت بها هذه المعلومات بعد جمعها . فالمؤرخون البروتستانت التمسوا العون من إله القديس بولس فى بحثهم عن أدلة قاطعة لا تقبل الشك تثبت أن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها بما تتصف به من تقصير ومماطلة تحوى الكثير مما لا يوجد له أصل فى الكتاب المقدس وأنها أقرب الى الوثنية ، وأن البابا نفسه هو خصم المسيحية الخارج على المسيح وتعاليمه . أما الباحثون الكاثوليك فقد التمسوا العون والتوجيه من « السيدة العذراء » ليثبتوا أن الكنيسة وكافة أجهزتها هى التطبيق الصحيح الكامل للإنجيل ، وأن البروتستانت سيحل بهم العقاب الشديد جزاء ما كسبت أيديهم من خطيئة فى حق الدين وفى حق كنيسة القديس بطرس التى أقامها تنفيذا لكلمة المسيح .

ولعل أهم ما أسهم به دنث الجدل فى مجال التاريخ هو إحياؤه ونشره للوثائق المباشرة الهامة عن الكنيسة وتاريخها بعد أن أمضى كل من الطرفين فى نقده للطرف الآخر ، الأمر الذى استغله أصحاب المذهب العقلانى بعد ذلك بقرن من الزمان فى هدم المعسكرين المتنازعين جميعاً .

إن حكمى الأخير هو أنه على الرغم من أن رواية هذا المؤرخ البندقى جنحت نتيجة للتعصب عن الحقيقة الكاملة فى بعض أجزائها ، إلا أن هذا الكتاب من ناحية الدقة يعلو فى مستواه أى نموذج آخر للكتابة التاريخية فى عصره »[1] على أن الآراء اختلفت بالنسبة لتقدير ساربى وعمله ، فمثلاً يعتبره ماكولاى — أحد كبار الأحرار — من خيرة المؤرخين فى أوائل العصر الحديث ، فى حين يقول عنه المؤرخ الكاثوليكى البارز لورد آكتون إنه لم يعد كونه طائرا سجيناً .

كان أول عمل هام أنتجه المعسكر البروتستانتى هو كتاب « حياة بابوات روما » الذى ألفه روبرت بارنز (١٤٩٥ — ١٥٤٠ م) . وكان بارنز لوثرى أنجليزى فر إلى المانيا طلباً للحماية وألف كتابه تحت رعاية لوثر نفسه وإشرافه المباشر . وفيه حاول أن يلقى على البابوات والكنيسة الكاثوليكية مسئولية كوارث العصور الوسطى ، كما امتدح فضائل المعارضين العلمانيين للبابوات . وهكذا أنقلبت طريقة أورزيوس ومنهجه لتصبح سلاحا ضد الكنيسة نفسها .

وثمة وسيلة أخرى أختارها البروتستانت هى إلقاء الضوء — ولو بشكل مبالغ فيه إذا ما اقتضى الأمر على أضطهاد الأحزاب الكاثوليكية للمصلحين الدينيين فى دول أوربا المختلفة وهكذا أستفادت البروتستانتينية من الشهداء الذين سقطوا ضحية الأضطهاد الكاثوليكى واستغل البروتستانتى هؤلاء الشهداء فى دعايتهم للتشهير بالكاثوليك ، بالضبط مثلما استفادت الكنيسة الكاثوليكية فى عصرها الأول من شهداء المسيحية الذين ذبحهم الرومان الوثنيون . وكانت أولى المؤلفات التى ظهرت فى هذا المجال «كتاب الشهداء» The Book of Martyrs الذى ألفه حنا كرسبين Jean Crespin وهو بروتستانتى فرنسى ونشر سنة ١٥٥٤ م . وكان هذا الكتاب جدلاً صريحاً مصوراً ليس فيه ماينم عن أهتمام كبير بالدقة التاريخية . وقد وضح فيه على أى حال الأمكانيات المتعددة فى هذا النوع من الكتابة التاريخية . والحقيقة أنه كان مخططاً بطريقة ماهرة ليستثير المشاعر ويزيد من تأييد أعداء روما للحركة البروتستانتينية .

أما كتاب المؤلف الأنجليزى جون فوكس John Foxe (١٥١٦ — ١٥٨٧ م) الذى صدر بعنوان أعمال الشهداء المسيحيين وآثارهم فكان ثانى كتاب من هذا النوع وهو أكثر تكاملا وتحقيقا لهدفه من سابقه . ولقد صمم بحيث أتخذ كتاب كرسبين بصورة قاطعة نموذجاً له . وفيه يبدأ فوكس بالمصلح الأنجليزى حنا وكلف وتتبع سجل الشهداء البروتستانت بطريقة تمثل النضال الدينى القائم فى ذلك الوقت وكأنه صراع بين نقاوة المسيحية وانحرافها ، او بين المسيح وخصومه وقرر فوكس بعد شئ من التفكير أن يوسع كتابه ويجعله

تاريخاً عاماً وناقداً للكنيسة المسيحية ومن ثم وجد نفسه يسرق على نطاق واسع من كتاب مثويات ماجدبرج ، Matthias Vlacich Illyricus والذى سوف نتعرض له بعد قليل . وبفضل ماتمتع به فوكس من مواهب أدبية وقدرة على التأثير فى الدهماء – فأنه أكتسب شعبية كبيرة لدى مجموعة ضخمة من القراء المتحمسين له والمتشيعين به . وإذا كانت المصادر التى اعتمد عليها قد تعرضت لنقد لاذع من جانب الكتاب الكاثوليك ، فان الدراسات اللاحقة وبخاصة تلك التى قارن فيها الأستاذ بريزرفد سميث بين أعمال فوكس والمصادر التى أستخدمها قد أثبتت أن أخطاؤه أقل بكثير مما أدعى أعداؤه ، وإن كان ينبغى أن يؤخذ ماجاء فى كتابه بتحفظ شديد .

أما فى اسكتلندا فقد وجدت البروتستانتينية بطلها فى شخص من أتباع كالفن يدعى حنا نوكس John Knox (١٥٠٥ — ١٥٧٤ م) وهو صاحب كتاب تاريخ الاصلاح الدينى فى أسكتلندا وقد ألف نوكس كتابه ليثبت أن الشيطان وحده هو التصير الكبير للكاثوليك . وعلى الرغم مما فى هذا الكتاب من تميز واضح للبروتستانتينية فضلاً عن كثرة حديث المؤلف عن نفسه ، ألا أنه أعظم بكثير من كتاب «مثويات ماجدبرج» وكتاب نوكس . والواقع أن هذا الكتاب يمثل من ناحية قيمته الأدبية والتاريخية عملاً فذاً يكشف عن دقة مذهلة وكفاءة تامة فى أختيار التفاصيل المثيرة الهامة وعرضها . وإذا مانظرنا إلى المؤلف بوصفه كاتباً جدلياً نجده يتميز بموهبة لا مثيل لها وحاسة فكاهية ، تبدو فى سخريته وأسلوبه اللاذع . ولم يفت نوكس أن يدين بشدة أولئك الذين أعتنقوا مذهب كالفن لأتخاذه وسيلة لتحقيق أغراض ذاتيه مادية وكذلك أولئك الذين لجئوا الى العنف باسم الدين من أجل الأنتقام الشخصى أو السياسى وعلى الرغم من أن نوكس كان ينظر الى الحقائق بعين متميزة فإنه لم يعمد إلى تزويرها أو حجبها .

أما أكثر الكتب طموحاً وأشهرها بين كتب البروتستانت الجدلية فهو ذلك المجلد الضخم بعنوان «مثويات ماجدبرج». الذى وضع خطته وأصدره ماتياس (متى) فلاكيش الإليرى Matthias Vlacich Illurius (١٥٢ — ١٥٧٥) الشهير باسمه اللاتينى فلاكيوس Flacius وقد ساعده فى هذا العمل عدد من العلماء البروتستانتى أمثال أليمان Aleman ، كوبس Copus ؛ ويجاند Wigand ، وجودكس . وكان منهجهم هو نفس منهج أويزيوس ولكن على صورة أكبر وموجه ضد الكنيسة الكاثوليكية . وشغف المؤلفون فى هذا الكتاب بإبراز كل حقائق التاريخ الكنيسى التى تدين الكاثوليك والبابوات . كما أستعرضوا تاريخ الكنيسة والعقيدة المسيحية قرناً بعد قرن على التوالى حتى سنة ١٣٥٠ م . وذلك بهدف الوصول إلى سند تاريخى لموقف لوثر وإثبات أن

مبادئ الكاثوليك ونظمهم ليست إلا أتجاهاً دخيلاً ، وهو أتجاه غير مقدس بعيد كل البعد عن المسيحية فى صورتها النقية التى جاء بها الحواريون . وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب مابين سنتى ١٥٣٩ ، ١٥٤٦ ميلادية . وعلى الرغم من أن خطة المؤلفين الأصلية كانت دراسة تاريخ الكنيسة المسيحية بأكمله فإنهم قصروا أهتمامهم على تاريخ العقائد والمذاهب المسيحية وبذلك أضعفوا من شأن التاريخ السياسى والقانونى للكنيسة بل أساؤا تفسيره . وعلى الرغم مما أبدوه من مقدرة فائقة فى تفنين معتقدات البابوية وآرائها فإنهم برعوا فى الخداع وسوء النية عندما تقبلوا المصادر والروايات الغير صحيحة ليدعموا جانبهم فى الجدل مع خصومهم . وفى الوقت نفسه فإنهم نظروا الى المعجزات نظرة ذات وجهين فأعتبروا المعجزات معجزات أصلية . أما تلك التى كانت تؤازر الكاثوليك فأعتبروها زائفة خداعه . وهكذا بلغت مقدرتهم على النقد ذروتها عندما كان النقد فى صالحم كما هو الحال عندما نقدوا المراسيم البابوية المزورة المنسوبة إلى ايسيدور المزور .

ومهما يكن من أمر فإن اهمية كتاب « مئويات ماجدبرج » تكمن فى أنه أرسى أسس التاريخ الكنيسى فى صورته الحديثة .

أما مؤلفات سليدانوس وبولينجر Sleidanus & Bullinger عن حركة الاصلاح الدينى فكانت أقل طموحاً من الكتاب السابق ويمكن الاعتماد عليها بدرجة أكبر بالنسبة للجانب البروتستانتى وذلك فى مجال الجدل بين البروتستانت وخصومهم .

والواقع أن خير ما كتبه الكاثوليك أو البروتستانت عن تاريخ لحركة الاصلاح الدينى قبل عهد الأسقف جلبرت بورنت هو كتاب ، شروح الاحوال السياسية والدينية فى عهد الامبراطور شارل الخامس ١٥١٧ — ١٥٥٥ م الذى وضعه حنا سليدان John Sleidan (١٥٠٦ — ١٥٥٦ م) المشهور باسمه اللاتينى سليدانوس Sleidanus وقد تمتع هذا الكاتب بحصيلة فكرية تشبه ما كان لعلماء الحركة الانسانيه وما كان لطلاب الدراسات التاريخية فى أواخر العصور الوسطى . كان سليدانوس تلميذاً فى حياته المبكرة لارازموس . وقبل أن يكتب عن حركة الاصلاح الدينى قام بترجمة أعمال فرواسار وكومنيز . وساعده ذلك على تزويده بنظرة أكثر اتساعاً وأوسع أفقاً من نظرة أى مؤرخ آخر من المؤرخين الجدليين العاديين ، ومعرفته بما ينبغى أن تكون عليه مثل الكتابة التاريخية السليمة . ذلك أن أحداً لا يستطيع أن يترجم كومنيز إلا إذا نظر إلى التاريخ نظرة مستقلة تفسيرية . هذا الى أنه جمع معلومات أصلية عن حركة الإصلاح الدينى بطريق مباشر من خلال عمله كدبلوماسى ومشرع . مضيفا الى ذلك أنه قضى قرابة عشر سنوات فى جمع المادة التاريخية اللازمة لتاريخة عن حركة الإصلاح الدينى . وقد أذكى من خبرته كسياسى ومشروع دراسته لمبادئ كالفن وآرائه .

وتكمن أهمية كتاب سليدانوس فى حقيقة انه كان أول تحليل سياسى لحركة الاصلاح الديني والثورة البروتستانتينية . ذلك أن سليدانوس كان المدافع الرسمى القانونى عن المناطق التى اعتنقت المذهب اللوثرى فى شمال ألمانيا . بحيث جاءت مهمته تبرير شرعية انفصال الأمراء البروتستانت عن الكنيسة تبريرا شرعيا يرضى الرأى العام . وبهذا يكون قد عالج تاريخ حركة الإصلاح الدينى من وجهة النظر السياسية والدستورية . وفى نفس الوقت من وجهة النظر الدينية . لذلك التزم باستخدام الوثائق الموثوق فى صحتها فجاء كتابه تأييداً معتدلا للبروتستانتينية . وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن من النوع الجدلى . فإنه كان نوعا من المرافعة المتزنه لمحام رتب بعناية أدلته التاريخية التى استند اليها فى القضية . وكما هو متوقع فى مثل هذه الحالة تميز كتابه بترتيب المادة وحسن عرضها . كما امتاز بروعة التعبير وسمو الطابع . حيث أن خطته وضعت بهدف مخاطبة الجماهير المثقفة فى أوربا . وعلى الرغم من أنه لم يجد شيئا من الحماسة الدينية الرومانية التى ميزت كتاب فون رانكه فى كتابه أو شيئا من تلك الدراسات الاجتماعية التى قام بها جانسين janseen أو التحليل الاقتصادى الذى تلمسه فى كتابه وبر weber وسومبارت . فإن كتاب سليدانوس كانت له أهمية كبرى بوصفه نذيرا مباشرا للنظرية التى وضعها الأستاذ جيمس هارفى روبنسون والتى تلقى اليوم قبولاً واسعاً وهى النظرية القائلة بأن الثورة البرو تستانتينة كانت حركة سياسة أكثر منها دينية . وأنها كانت تسعى إلى إجراء تعديلات سياسية فى صلح أو جزبرج ومعاهدة وستفاليا أكثر مما كانت تهدف إلى الانتصار العقائدى الدينى وحده .

والواقع أن سليدانوس سبق أن توصل إلى هذا التفسير لا بطريقته العامة فى معالجة المشكلة فحسب . بل بتعليقاته المحددة عن المراحل السياسية البارزة للثورة . أو كما يقول هو نفسه عندما كنت أصف الأمور الدينية لم أكن قادرا على أستبعاد الجانب السياسى لأن الدين والسياسة كما سبق أن ذكرت يتداخلان ويتفاعلان معا بصفة دائمة . ولا يمكن الفصل بينهما . على الأقل فى عصرنا هذا[1] .

وخلاصة القول أن عمل سليدانوس لم يكن تاريخاً كاملاً أو عميقاً يعالج أسباب حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى أو بطبيعتها أو مبادئها . إنما كان يفوق نسبيًا غيره من الكتب المعاصرة الأقل فى المستوى . ولقد تمتع كتابه بأهمية دائمة نظراً لأنه أكبر الحقيقة الرئيسية الخاصة بالجوانب السياسية للحركة البروتستانتينية . فضلاً عن أنه زاد من إهتمام المؤرخين السياسيين أمثال كاميرون . ثاونس بالتطورات الدينية . وكان من المتوقع أن يتعرض سليدانوس لهجوم شديد من جانب المتطرفين الكاثوليك والبروتستانت على السواء وذلك نظرا

---

(1) Preserved Smith The Age of the Reformation (Holt 1920) p. 705

لتسامحه واتزانه ، فقال العلامة اللوثرى ميلانكتون عن كتابه أنه لايصلح لأن يتداوله الشباب البروتستانتى فى حين كان الكاثوليك أقل تقديراً له .

أما المصلح الدينى السويسرى هنريخ بولينجر Henrich Bullinger (١٥٠٤ — ١٥٧٥ م) فكان أحد تلاميذه زونجلى ومن أقدر الكتاب البروتستانت الذين عالجوا فترة حركة الإصلاح الدينى . وفى كتابه «تاريخ حركة الإصلاح الدينى ١٥١٩ — ١٥٣٢ م» نلمس تأثيراً واضحاً باتجاهات سليدانوس وآرائه ، كما نشعر بأن المؤلف يؤرخ عن معرفة تامه لتاريخ السنوات المبكرة من الحركة ، ولهذا فهو يختلف فى نغمته عن أعمال فوكس ومؤلفى كتاب «مئويات ماجدبرج» وهذا الكتاب وأن كان تاريخاً بروتستنتيناً متحيزاً إلا أنه يبدو فى صورة رسالة دفاعية ، وليس حواراً كتاريخ فوكس . ومع ذلك فإن بولينجز يشابه فوكس فى عنايته الفائقة باستقاء الحقائق والألفاظ فضلاً عن أنه كان معتدلاً فى اتجاهاته . وقد أراد بوجه عام أن يكون أميناً وعادلاً ، ومع هذا كله فإنه لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقاوم أغراء حجب بعض الحقائق المخجلة التى حدثت خلال الحركة البروتسعانتينه . والواقع أن بولينجر كان مجتهداً فى جمع الحقائق واتبع نفس طريقة بولوندوس فى نسخ وثائق بأكملها ولكن مع فارق بينهما إذا كان بولينجر ينسج تلك الوثائق بمهارة داخل السرد العام . ولكونه سويسرياً وطنياً فإنه حاول أن يصور حركة الإصلاح الدينى فى سويسرا بأنها مستقله عن الحركة الألمانية . هذا بالإضافة إلى أنه قصر معالجته على الأمور الدينية فقط دون أن يستعرض النواحى السياسية إلا بالقدر الذى تضمنه برنامج زونجلى .

أما فى فرنسا فإن تاريخ حركة الإصلاح الدينى قد وجد من يكتبه ببراعة فى شخص أحد أتباع كالفن وهو العلامة الأنسانى تيودور بيزا Theodore Beza (١٥١٩ — ١٦٠٥ م) صاحب كتاب التاريخ الدينى لإصلاحات الكنيسة فى المملكة الفرنسية الذى صدر سنة ١٥٨٠ وهو الذى يقدم عرضا كاملا لنشأت الحركة الكالفينية فى فرنسا . ويعتبر بيزا خليفة كالفن وجاء كتابه أستمراراً وتكمله لكتاب كريسبين «كتاب الشهداء» ، ومع ذلك فإن هذا الكتاب لايتصف بالطابع العلمى الذى كنا نتوقعه من كاتب فى مثل علم بيزا وثقافته . وعلى الرغم من أن كتابه صدر دون أن يحمل اسم مؤلفه فإن كل الدلائل تشير إلى إن مؤلفه هو بيزا نفسه[1]

أما الرد الكاثوليكى على كتابه «مئويات ماجدبرج» فكان كتاباً أكثر أسهاماً ألفه الكاردينالى قيصر بارونيوس «١٥٣٨ — ١٦٠٧ م» تحت عنوان «الحوليات الكنيسية» ولم يكن الأسلوب والمنهج اللذان أتبعها الكاردينالى قيصر فى وضع هذا الكتاب بأحسن من تلك التى أتبعها مؤلفو كتاب «مئويات ماجدبرج» وعلى الرغم من أستعانته بعدد أكبر من الوثائق

(١) لاتزال هناك فى المصادر الحديثة حول صاحب هذا الكتاب ومؤلفه .

حيث أن مكتبة الفاتيكان كانت تحت تصرفه . ذلك أنه كان هو الآخر أقل أمانة فى ذكر مصادره وتنسيقها فى مواجهة المسائل الصعبة بأسلوب مباشر وفى هذا يقول بريزرفد سميث وهو مصدرنا الرئيسى عن حركة الإصلاح الدينى مهما يكن من ضعف كتاب « مئويات ماجدبرج » فإن أقل مايمكن أن يتصف به مؤلفوه هو أنه فى ترتيب مصادرهم وهذا أمر لم ينطبق تماما على قيصر بارديبنيوس الذى جاء كتابه الحوليات الكنيسية بمثابة الرد الرسمى العنيف على كتاب « مئويات ماجدبرج » وعلى الرغم من أن نقد بارونيوس لم يكن بأى حال أحسن من نقد مؤلفى كتاب « مئويات ماجدبرج » فإن بارونيوس استخدم سياسة ماكرة أنتشرت على الأسف أنتشاراً واسعاً منذ أيامه وهى سياسة تجاهل الحقائق المسيئة لوجهة نظره وحجبها بدلاً من وصفها أو تنقيتها من الشوائب التى علقت بها .. وأدت قدرته على تحويل الانتباه الى مسائل فرعية وعلى تعقيد المشكلات بدلاً من السعى لحلها إلى أن أسماه البروتستانت وهم على حق فى هذا « المخادع الأكبر »(1)

وقد تلقى بارونيوس تعليمه الدينى ودرس تاريخ الكنيسة على يد فيليب نيرى الشهير . ومنذ وقت مبكر قرر أن يكرس حياته لكتابة تاريخ الكنيسة وألقى محاضرات حول هذا الموضوع قبل أن يشرع فى كتابة حولياته . وإذا كان قد بدأ يلقى محاضراته حوالى سنة ١٥٥٩ م فإنه يمكن القول إنه كرس قرابة نصف قرن من حياته لدراسة تاريخ الكنيسة المسيحية وبعد سنة ١٥٥٩ م أصبح الأمين الأول لمكتبة الفاتيكان . ويتناول كتابه « الحوليات الكنيسية » تاريخ الكنيسة منذ البداية حتى ١١٩٨ م . وظهر هذا الكتاب فى عدة أجزاء بين ١٥٨٨ ، ١٦٠٧ م . وأتبع الكتاب الطريقة الحولية أى أنه عالج الأحداث سنة بعد أخرى ، وكان لهذه الطريقة أهميتها فى إثبات التزامه التاريخى ، ولكنها مزقت سرد القصة الواحدة ، وحالت دون موضوع الرواية التاريخية وتسلسلها . وكان بارونيوس باحثاً لايكل فى بحثه عن المادة ، ففحص كل ماكتب تقريبا عن تاريخ الكنيسة المسيحية دون أن يمنعه ذلك حتى من الرجوع إلى كتب التاريخ فى العصر الوثنى . ولذلك أشتمل كتابه على قدر كبير من المعلومات المستخدمة من الوثائق التى لم يسبق نشرها . ونلمس فى هذا الكتاب بوجه عام قدراً من الحماسة الشخصية والطلاوة والجاذبية أكثر مما تمتع به كتاب « مئويات ماجدبرج » .

وأظهر بارونيوس أحتراماً كبيراً للمصادر المسيحية التى عالجت القرون الأولى لتلك الديانة . ولكن قدرته على النقد برزت فى صورة اكبر عندما تعرض للمادة التاريخية الخاصة بأواخر العصور الوسطى . فبينما هو يتقبل رأى فالا فى نقد هبة قسطنطين ، وما يحيط بها من أوهام وخيال هنا إذا به لا يبالى بمناقشة رأى « مئويات ماجديرج » فى المراسيم البابوية المزودة

(1) Preserved Snith. The Age of the Reformation p. 585.

وهو الراى الذى فوض تلك المراسيم المنسوبة الى يسلور المزور . ومن الواضح أن الحوليات التى كتبها بارونيوس عبارة عن كتاب يدافع عن الكاثوليكية ، أختار بارونيوس مادته بالشكل اللذى يحقق له هذا الغرض تماماً مثلما فعل مؤلفو كتاب « مثويات ماجدبرج » ولكن مع فارق كبير هو أن بارونيوس كشف النقاب عن دائرة أكثر أتساعا من المصادر التاريخية التى ساعدته على تحقيق غرضه ، ولعل هذا هو خير مايميز عمله الكبير ، أما عيوبه الرئيسية فقد أنحصرت فى ميله لتجاهل الدولة المعارضة لرأيه وأبتداعه أسلوب التهرب من النقاط الحرجة والتحايل على إبراز النقاط الأقل أهمية ، وهو ذلك الأسلوب الذى شاع بين اليسوعيين الجدليين . هذا الى انه بذل قصارى جهده فى تحاشى الأصطدام فى مسائل محرجة ، ولذلك حجب النقط الرئيسية وحول كتابته إلى مناقشة مسائل ثانوية لاعلاقة لها بالمجرى الرئيسى للموضوع . هذا وقد قام أودوريكوس ريناالدوس Odericus Raynaldus بإكمال حوليات بارونيوس على نحو أفضل ، حتى إنه فاق بارونيوس فى نشر وثائق جديدة هامة .

ويأتى دون بارونيوس فى المقدمة والشهرة نيقولا ساندرز ، وهو إنجليزى كاثوليكى كتب كتاباً عن حركة انفصال الكنيسة الإنجليزية عن روما سنة ١٥٨٥ وكيف نشات أحداث ذلك الانقسام وتطورت . وجاء هذا الكتاب أكبر حشد لحملات التشهير التى ظهرت فى تاريخ الجدل الدينى كله فى ذلك العصر ، إذ ذهب ساندرز إلى حد اتهام الملك هنرى الثامن بأبشع أنواع الزنا بأن أشاع أن آنا بولين كانت فى الحقيقة ابنة هنرى نفسه ، ولم تلبث طريقة ساندرز هذه فى التشهير أن جعلت البروتستانت يحرفون اسمه ليصبح « دكتور سلاندرز » .

ونعود مرة أخرى إلى كتاب « مثويات ماجدبرج » لنذكر أنه حتى ذوى الفطنة وأهل الثقة من البروتستانت لم يترددوا فى انتقاده . ونذكر على سبيل المثال جوتفريد أرنولد صاحب كتاب « التاريخ المحايد للكنيسة والهرطقة » الذى ظهرت سنة ١٦٩٩ . وكان أرنولد رجلاً تقياً ورعاً يكره العنف بقدر ما كان يكره الجوانب السياسية للحركة الثورية وكان نقده خاصاً بالعقيدة والأخلاق أكثر من نقده للجانب التاريخى ، شأنه فى ذلك شأن كتاب « مثويات ماجدبرج »

ثم كان أن كشف أحد علماء الحركة الإنسانية الفرنسيين وهو إسحق كازوبون (١٥٥٩ – ١٦١٤ م) عن كثير من الزيف والأخطاء التى احتواها كتاب بارونيوس . فرأى أن نقط الضعف عند بارونيوس ترجع إلى عدم إلمامه باللغة اليونانية بشكل واضح . وأمضى إسحق السنين الأخيرة من حياته فى تأليف كتابه الذى أسماه « دراسات حول كتاب بارونيوس »

وفيه نقد كتاب بارونيوس ولخص ما به من آراء بتحريض من الملك جيمس الأول ملك إنجلترا . كان كازوبون من الهجونت — أى بروتستانت فرنسا — المعتدلين لم يتشككوا فى

صحة السيرة المسيحية ، وهذا هو السر فى أن نقده أقتصر على الأخطاء التاريخية والشكلية فى النصوص وفى اللغة وما شابه ذلك . ثم إنه آمن فى سذاجه بالأساطير والعجائب التى أوردها الكتّاب القدامى مثلما آمن بارونيوس بالمعجزات المسيحية . ولو كان له بالإضافة إلى علمه قسط من مقدرة بايل او فولتير لاستطاع ان يهدم كل ما جاء فى كتاب بارونيوس الواسع من تلفيق واختلاق .

أما باولو سارپى فهو راهب وسياسى من أهل البندقية (١٥٥٢ - ١٦٢٣ م) فكان من أقدر مؤرخى عصر الجدل الدينى وأكثره متعة . وعلى الرغم من أنه تعرض لكراهية المحيطين بالبابا بدرجة شديدة حتى إنه أصيب فى مؤامرة دبرها له بعض أفراد حاشية البابا لأغتياله إلا أنه مع هذا كله كان كاثوليكياً حقاً ، يريد إصلاح أحوال الكنيسة ومن ثم فقد ناصب حاشية البابا العداء ، وانتقد الخرافات والمظالم والمساوئ السياسية التى عمت الكنيسة الكاثوليكية . ثم إنه أراد أن يدفع قدما بمبدأ الاستنارة والتسامح الدينى وتحقيق النقاوة داخل جهاز الكنيسة الكاثوليكية ، الأمر الذى جعل من سارپى «دولنجر القرن السابع عشر» . وفى سبيل ذلك شن سارپى معركة مريرة ضد البابوية حتى دهمه سنة ١٦٠٧ بعض المترمتين المتدينين فوق أحد الكبارى الصغيرة العديدة فى البندقية ،، وتركوه وقد أشرف على الموت . ولكن شاءت الأقدار له أن يشفى ليعاود نضاله بحماسة أكبر . فكانت نظرية سارپى أن حركة الإصلاح الدينى حدثت بسبب مساوئ الكنيسة الكاثوليكية ومظالمها فضلاً عما وقع من غيرة وخلاف بين الرهبان الأوغسطنطيين والدومنيكان .

وقد كتب سارپى عدة مقالات ، لكن كتابه الرئيسى هو تاريخ مجمع الترنت History of the council of Trent (١٦١٩ م) الذى بدأه بمقدمة عالج فيها اسباب حركة الإصلاح الدينى ومظاهرها - واعتمد فى هذه المقدمة على سليدانوس . ثم أخذ سارپى بعد ذلك يشن هجومه على مجمع الترنت الذى أدانه بوصفه مثلاً من أمثلة انحراف البابوية وصورة معبرة عن الدسائس التى دبرها اليسوعيون . ولعل نقطة الضعف الرئيسية فى مؤلف سارپى هى أنه فى غمرة اهتمامه الكبير بتفاصيل ذلك المجمع المسكونى والروح التى سادته ، لم ينجح فى أن ينظر إلى ذلك المجمع من زاوية تاريخية سليمة . فهو لم يقدر قضاياه حق التقدير كما أنه لم يقدر رد فعله بالنسبة لطبيعة الكنيسة الكاثوليكية ومنهجها . ولكنه مع ذلك كان يكتب بأسلوب واضح ينم عن بصيرة سيكلوجية نفاذة ، كما دافع فى حرارة عن ضرورة الحرية والاستنارة . ولهذا تعرض كتابه لهجوم عنيف من جانب الكاثوليك الذين سبق لبعضهم أن هاجموا جد مؤلف هذا الكتاب . ولقد تولى (بريزفد سميث) فى تقييمه الأخير الدفاع عن سارپى إذ يقول :

وقد رد على ساربى أحد المؤرخين اليسوعيين المعاصرين هو الكاردينال سفورزا بالافيكينو (١٦٠٧ – ١٦٦٧ م) الذى كتب كتاباً بعنوان «تاريخ مجمع الترنت» وظهر الكتاب سنة ١٦٥٧ . وجاء هذا الكتاب بمثابة رد مستفيض على ساربى لتنفيذ آرائه ولكن رده كان أقل إحكاماً ولا يمكن الاعتماد على ما به من معلومات مثل كتاب ساربى . والواقع أن هذا الكتاب جاء أشبه بعمل محام يهاجم الملخص الذى جاء به خصمه نقطة بعد أخرى . ورجع بالافيكينو Pallavicino إلى كثير من المصادر ، ولذا جمع قدراً من المادة أغزر من تلك التى توفرت لساربى . ومن ثم لم يكن من المستغرب أن نراه يتفوق على ساربى بإبراز تفاصيل كثير من المسائل المتناهية فى الدقة . ولكنه أبهم المسائل الكبرى بل تجنب ذكرها كلية مما جعله يتفوق فى حجب الحقائق المحرجة ، ويفوق الجميع فى هذا الشأن بما فى ذلك بارونيوس نفسه .

أما بطرس جيانون (١٦٧٦ – ١٧٤٨ م) فكان فى عداوته المكشوفة للكنيسة الكاثوليكية أشد قسوة من ساربى . وكان بطرس هذا – مثل المؤرخ فالا – ينتمى إلى مدينة نابولى وقد هاجم بطرس بلا هوادة ما قامت به الكنيسة من اغتصاب للسلطة السياسية بصفة عامة وذلك فى كتابه «التاريخ المدنى لمملكة نابولى» . واستنكر فى سخرية شديدة لاذعة امتيازات الكنيسة فى نابلى . ومع ذلك فإن أهمية هذا الكتاب الكبيرة بالنسبة لعلم كتابة التاريخ لا تكمن فى هجومه اللاذع على الكنيسة ، وإنما فى الحقيقة الخاصة بأن مؤلفه كان أول مؤرخ يجعل من تاريخ القانون والنظم ميداناً مشروعاً من ميادين البحث والدراسة التاريخية . ولكى يثبت رأيه فيما يختص باغتصاب الكنيسة للسلطة السياسية ولكى يبرهن على عدم شرعية هذا العمل ، اضطر جيانون إلى التعرض لتاريخ القانون وتاريخ الدساتير والإدارة . وكان أن ساعده ذلك – وبطريقة عارضة – على إيضاح أن الكنيسة الكاثوليكية كانت منذ البداية ذات نزعة سياسية بغض النظر عما إذا كان هذا أمراً شرعياً أو لا واستطاع جيانون فى مهارة جمع أبحاث المتخصصين فى تاريخ القانون والإدارة ووصفها جميعاً فى رسالة تاريخيّة عامة . واتصفت كتابته بالوضوح والحيوية بهدف اكتساب أكبر عدد من القراء .

وثمة هجوم شديد على المذهب اللوثرى شنه أحد اليسوعيين الفرنسيين هو لويس ميمبورج (١٦١٠ – ١٦٨٦ م) وقد ضمنه ذلك فى كتابه عن «تاريخ المذهب اللوثرى» . وقد جمع ميمبورج معظم نواحى الحوار الكاثوليكى التقليدى ضد اللوثرية ولكن دون أن يتبع المنهج القاتم الكئيب الذى كان شائعاً فى ذلك العصر . وأهم ما تميز به هذا الكتاب هو أسلوبه اللاذع الذى كان يرضى الذوق الأدبى فى ذلك العصر ويجتذب فى نفس الوقت جمهوداً

(1) History of Modern Culture 1, 267.

كبيراً من القراء . ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً باهراً بوصفه صورة شعبية محببة للجدل التاريخي الديني . ولكن أهميته تتضاءل إذا نظرنا إليه بوصفه بحثاً قائماً بذاته . هذا وقد ألف ميمبورج كتاباً آخر عن مذهب كالفن بعنوان «تاريخ مذهب كالفن» ولكن هذا الكتاب أقل شأناً من سابقه من ناحية النقد والمادة . وإذا كان ميمبورج من المؤرخين الذين ناصبوا البروتستانتية العداء إلا أنه لم يكن بوقاً من أبواق البابوية المخلصين لها . ذلك أنه دافع بقوة عن حرية الكنيسة الفرنسية الأمر الذى حدا بالبابا إلى طرده من هيئة اليسوعيين سنة ١٦٨٢ م ، ولكن الملك لويس الرابع عشر قرر له معاشاً .

ثم كتب لودفيج فون سيكندورف Ludwig von Seckendorf (١٦٢٦ – ١٦٩٢ م) من إقليم ساكس جوثا (فى بافاريا) كتاباً كبيراً بعنوان «شرح تاريخي ودفاع عن اللوثرية وحركة الإصلاح الديني» صدر فيما بين سنتى ١٦٨٨ م – ١٦٩٢ م . وينتمى سيكندورف إلى مدرسة سليدانوس . ولا يحوى كتابه كثيراً من المادة المبتكرة ومع ذلك فإنه تلخيص طيب وسليم لموقف البروتستانت . ولم يهدف سيكندورف من وضعه إلى الرد على ميمبورج فحسب بل منازلة عدو أكثر خطراً يتمثل فى مشكلة التشكك وعدم المبالاة بالأسس الرئيسية الخاصة بحركة الإصلاح الديني . وكان أن وضع الأمراء السكسون كل سجلاتهم تحت تصرف سيكندورف ، وبهذا استطاع أن يستخدم مصادر لم يقترب منها من قبل أحد المؤرخين البروتستانت . وجاء كتابه فقرة بعد فقرة دحضاً للآراء التى جاء بها ميمبورج مستنداً إلى المصادر ، ومضيفاً الكثير على سبيل التوضيح والشرح والتعليق . ووضع سيكندورف كتاباً مفيداً عن تاريخ الكنيسة لأغراض الدراسة الجامعية باسم «موجز التاريخ الكنسى» .

وإذا كان بارونيوس قد استعان فى دفاعه عن الكاثوليكية بتاريخ الكنيسة فإن ثمة مؤرخ آخر دافع عن الكاثوليكية مستعيناً بالتاريخ أجمع ونعنى به الأسقف جاك بنيامين بوسويه Jacque Benigne Bousset (١٦٢٧ – ١٧٠٤) صاحب كتاب «تاريخ الخلافات بين الكنائس البروتستانت» وقد حاول فى هذا الكتاب أن يقنع البروتستانت أنهم سائرون فى طريق خاطئ بأن وضح لهم أن الانقسامات الطائفية لا يمكن أن تنتهى وأن النتيجة النهائية الحتمية لمثل هذا الانفصال هى الالحاد والفوضى وانحلال الأخلاق . وتلمس بوسويه مبررات كافيه لتبرير وجهة نظره فى مجرى تاريخ الحركة البروتستانية ذاتها من بدايتها حتى أيامه . وتكمن أهمية بوسوية فى أنه الوحيد بين رجال الجدل الكاثوليك والبروتستانت على السواء – الذى استطاع أن يغوص إلى مستوى أعمق من مستوى الشخصيات والأحداث وأن ينظر إلى الصراع فى أعمق مظاهره الفلسفية بوصفه صراعاً بين الحرية والسلطة . وكان معنى انتصار الحرية فى هذا الصراع بالنسبة له هو انتصار اللامبالاه والإلحاد والفوضى الدينية . ولقد بذل بوسويه جهداً عظيماً حتى يكون متزناً فى عمله فوجه كتابه مباشرة إلى القراء البروتستانت

الذين كان ينشد عودتهم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . لذلك نراه يعترف بأن هناك بعض البابوات المنحرفين وأن الكنيسة فى أيام لوثر كانت محتاجة فعلاً إلى الإصلاح وأن لوثر نفسه كان يتمتع بكثير من الصفات الطيبة ولكن بوسويه كان حريصاً فى الوقت نفسه على أن يستغل كل ما وجه للبروتستانت من اتهامات لتدعيم آرائه .

ولقد بان واضحاً فى كتاب بوسويه الذى اسماه «حديث عن تاريخ العالم» رجوعه إلى دراسة كل تاريخ البشرية . وتتبين فى هذا الكتاب أن بوسويه اعتنق آراء القديس أوغسطين ومنهج أوروزيوس . ولذلك قيل عنه حقا إنه «أوروزيوس الحركة المضادة للإصلاح الدينى» . وعلى الرغم من أن كتابه عن تاريخ العالم يفوق فى مستواه ونظرته الفلسفية كتاب «سبع أسفار فى التاريخ ضد الوثنية» الذى كتبه أوروزيوس ، إلا أنه كان من وجهة النظر التاريخية دون مستوى كتاب سابيلكوس . ويقول فيوتر عن كتاب بوسويه إنه لم يكن عملاً تاريخياً إذ لم يعد كونه مجموعة من العظات الدينية استبدلت فيها نصوص الإنجيل بمادة تاريخية[1] وواضح أن الكاتب بذل جهداً كبيراً ليؤكد القدرة الإلهية فى صنع التاريخ . لقد اعتقد بوسويه أن أحداث التاريخ الدينى كانت من صنع الله شأنها شأن التاريخ الدنيوى ، وإن كانت القدرة الإلهية تبدو بصورة مباشرة وواضحة فى صنع التاريخ الدينى . وقسم بوسويه كتابه إلى ثلاثة أجزاء رئيسية ، فاستعرض فى الجزء الأول التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عهد شارلمان وتناول فى الجزء الثانى تاريخ العقيدة المسيحية مبيناً أنها كانت دائما تحت الرعاية والتدبير الإلهى . ثم وصف بوسويه فى الجزء الثالث والأخير قيام الإمبراطوريات وسقوطها مبيناً أن ذلك كان رد فعل لرضاء الله أو غضبه .

وهكذا نرى أن كتاب بوسويه عن تاريخ العالم ، يمثل إحدى المحاولات الأخيرة الجادة لتفسير تاريخ العالم فى ظل العناية الإلهية وذلك بمنطق اللاهوت القديم . وبعد أن أصدر فولتير كتابه عن سلوك الأمم وروح الشعوب فى منتصف القرن التالى لبوسويه لا نجد سوى قليلاً من مشاهير المؤرخين توافرت لهم الجرأة للإقدام على إحياء مبادئ أوروزيوس وبوسويه

---

(1) Futer op. cit p. 360.

اليسوعيون (الجزويت)

ظهرت فى أعقاب الحركة البروتستانتية كرد فعل أخطر ما يكون لحركة الإصلاح الدينى حركة أطلق على رجالها «مجتمع يسوع» وتعرف الآن عادة باسم «اليسوعيين» ولقد أسهمت هذه الحركة بقدر هائل فى كتابة التاريخ الكنسى ، ولهذا وجب علينا أن نقف عند بعض مؤلفاتها الرئيسية .

كانت أحسن التراجم الشخصية فى ذلك الوقت بأجمعه هو ما كتبه عن نفسه مؤسس الحركة اليسوعيه وهو إجناتيوس لويولا الذى أملى مادته فى الفترة ما بين سنة ١٥٥٣ ، ١٥٥٦ م فجاءت تحفة رائعة من التحليل الذاتى المساير للعقل ولقد أقدم لويولا على هذا العمل بعد أن أعد نفسه له ، فقضى سنوات فى التأمل والعبادة . ومع أن أى محلل نفسانى حديث سوف يفسر خبرات لويولا الشخصية بطريقة مخالفة تماماً للطريقة التى فسرها هو بها ، إلا أن كتابه يعتبر عملاً فريداً بالنسبة لعصره .

أما أحسن التراجم التى كتبت عن لويولا فى ذلك العصر فهى ما كتبه بطرس ريبادنيرا Pierre Ribadeniera وهو يسوعى من الإنسانيين (١٥٢٧ – ١٦١١ م) . ويعتبر فيوتر هذا الكتاب أحسن التراجم التى كتبها المؤرخون من رجال المدرسة الإنسانية . ذلك أنه تعمد الابتعاد عن طريقة كتاب التراجم فى العصور الوسطى وهم الذين كانوا يقبلون الحقائق على علاتها ، واستبعد المعجزات غير المعقولة ونسخ فى كتابه هذا أجزاء مما كتبه لويولا عن نفسه ، محاولا أن يضعه فى المكان اللائق به فى تاريخ الكنيسة ، وخاصة فى مجرى تطور الكنيسة الكاثوليكية . والواقع أن بطرس ريبادنيرا كان من أنصار الكنيسة الكاثوليكية ومن أشد المعجبين بلويولا ، ولكنه لم يترك ما جاء به من مادة تاريخية معلقة وحدها فى فضاء التاريخ ، وإنما ربطها لويولا بالتطورات التى حدثت فى عصره وساعده على ذلك براعته فى الكتابه بأسلوب لاتينى رفيع واضح .

وثمة كتاب آخر عن لويولا وإن كان أقل فى مستواه بكثير عن الكتاب الأول ، ونعنى به الكتاب المسمى القديس اجناتيوس لويولا وعاداته الذى ألفه جيامبترو ماف Giampietro Maffi (١٥٥٣ – ١٦٠٣ م) . ومن العيوب الظاهرة فى هذا الكتاب سطحيته

وتمجيده لشخص لويولا إلى حد العبادة ، ونسبه كثير من المعجزات إليه مستخدما اسلوب بلاغياً محاكياً فيه أسلوب شيشرون .

أما أول كتاب جيد عن تاريخ المجتمع اليسوعي فهو ذلك الكتاب الذى ألفه يسوعى من فلورنسا يدعي نيقولا أورلانديني Niccolo Orlandini (ت ١٦٠٦ م) وكان نيقولا هذا مؤرخا قديراً استطاع بكتابه هذا أن ينتج عملاً ينم عن مقدرة عظيمة . أما من الناحية الفكرية فكان يميل نحو الشك المعتدل الذى اتصفت به المدرسة الإنسانية فى أواخر عصرها فى إيطاليا . ولذا فإنه فقد الغالبية العظمى مما نسب إلى لويولا من معجزات وأعمال خارقة ، هذا مع احتفاظه بصفة الأمانه إلى الحد الذى جعله يكشف النقاب عن النشاط السياسى لليسوعيين ، كما أعطى اهتماماً كبيراً لنشاطهم الثقافى وخاصة فى مجال التربية والتعليم . أما أسلوبه فكان مثل اسلوب رياردنيرا — أسلوباً لاتينياً سليماً راقياً .

على أن أعظم ما أسهم به اليسوعيون فى الدراسة التاريخية فى ذلك العصر كان العمل الذى بدأه هربرت روزويد Herbert Rosweyde (١٥٢٩ — ١٦٢٩ م) والذى جمع فيه عدداً هائلاً من تراجم القديسيين جمعاً مرتباً منظماً . وكان أهم من اشتركوا فى هذا العمل العظيم حنا بولاند اليسوعي (١٥٦٩ — ١٦٦٥ م) وهو من الأراضى المنخفضة الاسبانية[1] . وعرف هذا الكتاب قبل أن يستكمل بعد باسم «أعمال القديسين» وفيه رتب القديسون بترتيب أعيادهم وهى تواريخ وفاتهم التى تعتبر تواريخ ميلادهم بالنسبة للحياة الأخرى . توضع فى المقدمة جميع القديسين الذين وافتهم المنية فعلاً أو الذين روت الأساطير أنهم ماتوا فى أول يناير . أما أولئك الذين توفوا فى ٣١ ديسمبرا فيأتون فى المؤخرة . ويعتبر هذا الترتيب مربكا من الناحية التاريخية ويفضل عليه الترتيب التاريخى المعتاد . ولقد تم فى حياة بولاند إتمام الأجزاء التى تتناول القديسين الذين توفوا فى شهرى يناير وفبراير وظهر أول جزء منه سنة ١٦٤٣ م . وبعد ذلك قام تلامذته : هنشن ، بابيروخ بتكملة الكتاب . وتكمن أهمية هذا الكتاب فيما اشتمل عليه من حشد هائل للقديسين ، كما أنه يستوعب مادة ضخمة للتراجم جمعت فى مكان واحد ، هذا بالإضافة إلى أنه أسهم ولو بقدر محدود فى تطوير مبادئ النقد التاريخى . ذلك أن الكاردينال روبرت بالرماين Robert Bellarmine الذى نذكره بالعرفان لما كان من أمر صداقته لجاليليو كان قد حذر من أن كثيراً من الحقائق المتداولة عن حياة القديسين فى دنياهم الحقيقة تبعث على الفكاهة أكثر مما تبعث على الاقتناع والإيمان . ولهذا رفض بولاند ومساعدوه كثيراً من المعجزات التقليدية واحتفظوا فقط بتلك التى تحوى قدرا من الإقناع والإيمان .

---

(١) تعرف الآن باسم بلجيكا (المؤلف) .

وكان أن اقترب عصر الجدل الديني من نهايته عندما ظهر اتجاه جديد كان بمثابة البداية للتاريخ العلمي للكنيسة . واتضح هذا الاتجاه فى أعمال يوحنا فون موشيم jahannes von Mosheim (١٦٩٤ م – ١٧٥٥ م) وهو أستاذ جامعي بارز فى علم اللاهوت وتاريخ الكنيسه . وقد ألف عدداً من الكتب فى حقل تخصصه ، ولكن أتم هذه المؤلفات كان كتابه « مبادئ وأسس التاريخ الكنسى القديم والحديث » الذى ظهر سنة ١٧٥٥ م . ذلك أنه جمع فى كتابه هذا بين طول الباع فى المعرفة بتعاليم المذهب البروتستانتى والنظرة البروتستانية إلى تاريخ الكنيسة،وأخرج ذلك فى مجلد ضخم قصد به أن يكون مرجعاً للدراسة الجامعية فى ذلك الميدان وتميز هذا الكتاب باعتدال لهجته واقترب نوعاً من المذهب العقلانى ، ولو أنه لم يشارك مطلقاً العقلانيين فى نقدهم لأسس العقيدة المسيحية . هذا إلى أن موشيم رفض الأخذ بفكرة أن نظام الوجود صادر مما فوق الطبيعة Supernaturalism وهى الفكرة التى أخذ بها الكاثوليك والبروتستانت تاريخ الكنيسة . والملاحظ . أنه كان ضعيفاً فى معالجته للعصور الوسطى ليس فقط بسبب نظرته إلى تلك العصور من الوجهة البروتستانتية ، وإنما لأنه تجاهل أموراً بالغة الأهمية مثل قانون الكنيسة ونظم إدارتها . هذا إلى أن روايته عن أسباب حركة الإصلاح الدينى وتطورها اعتمدت تماماً على تفسيرات البروتستانت . ومع ذلك فإن حديثه عن الثورة البروتستانتية جاء معتدلاً ومتزناً . والحق أن كتابه هذا أتم كتاب فى موضوعه قدمه مؤرخ بروتستانتى سابق ، أو أنه على حد قول فيوتر « يمثل انتاج أستاذ قدير وكاتب متمرس ولكنه لايمثل عمل مؤرخ عظيم أو مفكر مبتكر . »[1]

ومع ذلك فإن علاج تاريخ حركة الإصلاح الدينى من زاوية الجدل أو من زاوية ماوراء الطبيعة لم يتوقف بعد وفاة موشيم . ولعل أشهر تاريخ يحتفظ بالطابع البروتستانى من ناحية وبطابع مافوق الطبيعة من ناحية أخرى ، هو ما كتبه المؤرخ السويسرى حنا هنرى ميرليه دى او بينه Jean Hènri Merle d'Aubignè (١٧٩٤ – ١٨٧٢م) الذى يعتبر كتابه . تاريخ حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر (١٨٣٥ – ١٨٥٣) عملاً واسع الشهرة إجتذب كثيراً من القراء ، بل إنه كان آخر صدى عظيم لروح كتاب « مثويات ماجدبرج »

وإذا كنا قد تعرضنا للأسقف بورنت فى مناسبة سابقة ، إلا أنا لا ينبغى أن يفوتنا هنا أن نشير إلى كتابه . تاريخ حركة إصلاح الكنيسة الإنجليزية ، بوصفه – على الارجح – خير إنتاج تاريخى تناول كل مرحلة من مراحل حركة الإصلاح الدينى من بدايتها حتى أيام موشيم وترجع أهمية هذا العمل بصفة خاصة إلى عنايته بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى حركت موجة الإصلاح الدينى أو التى نتجت عنها .

---

(1) Fueter op. cit. 336.

وبعد ، فانه لا يفوتنا فى هذا الفصل الذى تناولنا فيه التاريخ والجدل الدينى فى عصر حركة الإصلاح الدينى والحركة المضادة أن نقول كلمة عن الجدل الذى دار حول التقويم التاريخى ، وهو الجدل الذى استحوذ على اهتمام المؤرخين منذ البداية والذى حاول أن يضع حلاً له بالنسبة للمسيحين كل من ايوزيبوس ، جيروم ، بيدى .

والواقع أن كل التقديرات والحسابات التاريخية فى العالم المسيحى كانت على أساس ماجاء فى الإنجيل عن بدء الخليقة ، ومن ثم فقد صار من المفروض أن يبدأ تاريخ البشرية بعهد آدم . ولكن هناك تقدير عبرى مقبول يحدد بداية الخليقة لسنة ٣٧٦١ ق . م . وقد عدل المؤرخون المسيحيون هذا التاريخ بحيث يتفق مع مفاهيمهم التاريخية ونظرتهم الى التاريخ وفكرتهم عنه ، تلك الفكرة التى قامت أصلاً على وجود سبعة عصور رمزية للانسان – تكون فى مجموعها مايعرف بالأسبوع الكونى – ويمتد كل عصر منها الى ألف سنة . وعلى هذا حدد المسيحيون بداية الخليقة لسنة ٤٠٠٠ ق . م ، وكان الاعتقاد السائد هو أن العصر المسيحى سيستمر ألفى سنة أخرى وبعدها تأتى الألف سنة الأخيرة ، وكان أن أقر لوثر هذا التقدير واعتبره مقدساً وقال إن نوح جاء سنة ٢٠٠٠ ق . م . أما العلامة سكاليجر الذى عنى بدراسة التقاويم فكان يرى أن بداية الخليقة حدثت سنة ٣٩٤٧ ق . م وأن المسيح ولد فى السنة الرابعة ق . م ، وأن آدم قد خلق فى ٢٣ أبريل . وبالاعتماد على علم الفلك والكتاب المقدس توصل يوحنا كبلر إلى تقدير بداية الخلق لسنة ٣٩٩٢ ق . م وقال إن ميلاد المسيح تم فى السنة الخامسة ق . م .

ومهما يكن من أمر فإن أكثر هذه التقديرات قبولاً وشيوعاً هو تقدير الأسقف جيمس أوشر الذى بلغ درجة هائلة من الدقة فى كتابه «حوليات العهدين القديم والجديد» (١٦٥٠ – ١٦٥٣ م) فقال إن أسبوع الخلق بدأ يوم الأحد ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م وأن آدم خلق يوم الجمعه ٢٨ أكتوبر من نفس السنة بينما ولد المسيح فى السنة الرابعة ق . م . ثم أجرى لايتفوت lightfoot بعض التغيير على هذا التقدير ليجعله أكثر دقه بأن حدد

إلى جانب الأيام الساعات فذكر أن آدم خلق فى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعه ٢٨ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م .

ولم يلبث أن ظهر الرواد الأوائل لعلم الجيولوجيا فأتوا بأفكار ومعلومات جديدة جعلت كل التقديرات الدينية تبدو غاية فى الحماقه والعجز والبعد عن المنطق الطبيعى برغم مابذل من جهد .

وأخيراً ، فإن الكتب والمؤلفات التى ذكرناها فى حديثنا فى هذا الفصل ليست إلا أبرز ما كتب عن الجدل الدينى من بين عدد ضخم من المؤلفات التاريخية الأقل أهمية عن عصر حركة الإصلاح الدينى والحركة المضادة لها . ومع ذلك فهى تكفى لتصوير الاتجاهات العامة فى منهج التاريخ وتفسيره على ذلك العصر . والواقع أن الجدل لم يتوقف كلية فى الزمن المعاصر ، كما يتضح عند مقارنة بين إنتاج فون رانكه وسكاف من ناحية وبين ما كتبه دولينجر ، ويانسين من ناحية أخرى . وبينما أهل الجدل من الإنسانيين ورجال الدين يواصلون كتاباتهم ، إذا بأوربا تتطور لتأخذ شكلاً جديدا بتأثير التوسع الجغرافى والثورة التجارية وهى العوامل التى تجمعت عن الحضارة الحديثة وما صحبها من مولد كتابة تاريخية على اسس علمية عقلانية.

المـراجع

1. **Preserved Smith:** The Age of the Reformation pp. 579 - 88, 699, 750
2. **A History** of Modern Culture 1, 258, 69, 11, 24. 16.
3. **Guilday:** church Historians, pp. 153-211.
4. **Thompson:** History of Hisorical Writing Vol. 1 chaps XXX-XXXVI
5. **Will Durant:** The Reformation, Simonand Schuster 1958.
6. **H.O. Taylor:** Thought and Expression in the Sixteeth century 2 vols.. Macmillan.
7. **T.M. Lindsay:** History of the Reformation 2 vols (Scribner 1928).
8. **A.C. Mc Giffert:** Protestant thought before kant (Scribner) 1915.
9. **R.H. Tawrey:** Religion and the Rise of Capitalism (Harcourt Brace) 1926.
10. **Piene Janlles:** The Catholic Reformation, Bruce, 1949.
11. **J.H. Robinson:** «The Study of the Lutheran Revolt» American Historical Review, January 1903 pp. 205 - 16.
12. **Fueter:** Histoire de l'historiographie moderne pp. 303 - 06.
13. **Wegele:** Geschichte der deutschen Historiographie Books 1 - 11.
14. **Hippolvte Delehaye:** The Work of the Bollandists through Three centuries, 1615 - 1915 (Princetion University press 1927.
15. **Gustav Wolf:** Reformation geschichte: Gotha, 1915 - 22 2 vols.
16. **Heinrich Boehmer:** Luther and the Reformation in the light of Modern Research. London 1930.
17. **F.C. Bauer:** Die Epochen der Kirklichen Geschichtsbriehung, Tubingen, 1852.
18. **K. Völker:** Die Kischenges chichtss chreibung der Auflklärung, Tubingen 1921.
19. **Eberhard Gothein:** Schriften Zur Kulturgeschichte der Renaissance, Reformation and Gegenreformation, Munich 1924.
20. **Adolph Harnach:** History of Dogma 7 vols bound as 4 vols Dover publications Inc. 1961. vol. 111.
21. **I.F. Mozley:** John Foxe and His Book Macmillan 1940.
22. **Emil Menke - Glückert;** Die Geschichtss chreibung der Reformation und Gegenreformation Leipzig 1912.
23. **Amabel Kerr:** Life of Cesare Card, Baronius London 1898.
24. **George Goyan:** Le Catholicisme et L'histoire Ecclesia, paris 1927.
25. **J.M. Headley:** Luther's view of church History Yalr university press 1936.

الفصـــل الســابع

نشأة التاريخ الاجتماعي الثقافي

عصر الكشوف الجغرافية ونمو الحركة العقلانية

الأثر العام لحركة التوسع الأوربي على الكتابة التاريخية

ظل التاريخ فى العهود القريبة جدًّا يمثل دائرة تخصص الأدباء ورجال اللاهوت ، الأمر الذى نتج عنه اعتبار عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى بداية المرحلة الحديثة فى تطور الكتابة التاريخية . وإذا كان هناك اليوم شبه إجماع على اعتبار التاريخ من أوسع معانيه فرعاً من العلوم الاجتماعية الأمر الذى جعله من حيث نوعيته ينتمى إلى أسرة العلوم بوجه عام ، لذلك بات من الضرورى أن نبحث فى مكان آخر عن الأسباب التى أخرجت الكتابة التاريخية الحديثة إلى حيز الوجود . وهناك نجد أن أصول الكتابة التاريخية الحديثة تكمن فى النتائج الفكرية التى ترتبت على فترة التحول العظيمة التى تمثل بداية الوضع الاجتماعى والفكرى الحالى ، ونعنى بهذه الفترة « التوسع الأوربى » . ونعنى بهذا الاصطلاح الأخير تلك الفترة التى امتدت خلال قرون ثلاثة من ١٤٥٠ م إلى ١٧٥٠ م ، والتى شهدت اكتشافات جغرافية هائلة كان لها أكبر الأثر على الفكر الأوربى والأنظمة الأوربية [١] . ولم يعد من الممكن أن تساير حياة العزلة والحياة الرئيسية المألوفة والاستقرار فى ظل العزلة الإقليمية الوضع الجديد الذى تميز باتصال واسع بين الحضارات المختلفة . وهو الاتصال الذى كان أقوى العوامل الباعثة على تحويل الفكر وتنشيط البحث والحث على إحداث تغيير فى كل مجال .

ويتضح تأثير حركة التوسع الأوربى على الكتابة التاريخية أكثر مما يتضح فى ذلك الطابع الثورى الذى أحدثته هذه الحركة بالنسبة لدائرة اهتمام المؤرخ . ذلك أنه لم يعد من الممكن أن تستمر الدائرة الضيقة التى دارت حولها الكتابة التاريخية على ماهى عليه ، كما لم يعد

---

(1) H.C. Brarnes A History of Western Civilization vol 11 part 1. (Harcourt Braee 1935) 2 Vols.

من الممكن كذلك أن يظل البحث التاريخي يتسم بالسطحية على النحو الذى استمر عليه منذ أيام ثيكوديدس واورزيوس . وكان العهد الجديد يحمل فى ركابه بشيراً بمضى المؤرخ قدما فى نفس الطريق الذى سبق أن مضى فيه هيرودوت . ولذلك نرى الكتاب فى ذلك العهد وقد توقفوا إلى حد ما عن معالجة التاريخ معالجة سطحية لاتتعدى جوانبه السياسية والكنسية ، ونراهم قد اهتموا لأول مرة بدراسة الحضارة البشرية بوصفها وحدة متكاملة . وإذا كانت الحركة الإنسانية قد أحيت عند المؤرخ سعة الأفق واتجاهه لدراسة الأمور العلمانية فإن هذه الحركة الجديدة أكدت هذه المعانى وأعطتها قوة دفع جديدة وحددت له معالم الطريق . ذلك أن الأمر لم يقتصر على مجرد العثور على رصيد ضخم جديد من المعرفة نجم عن الاتصال بحضارات الشرق القديمة ، وإنما عثر المؤرخون والفلاسفة فى ثقافات الشعوب الأخرى على « الإنسان الطبيعى » Natural man الذين كانوا يعتقدون أنه ليس له وجود إلا فى العهود الأسطورية التى سبقت عهد الطوفان . وليس هناك أفضل لإيضاح أثر حركة الكشوف الجديدة بالنسبة للمؤرخ من أن نقارن بين مجالات اهتمام مؤرخ مثل بوفيندورف ومجالات اهتمام مؤرخ آخر مثل جومارا .

يضاف إلى ذلك أن اتساع دائرة نشاط علم التاريخ وازدياد مجالات اهتمام المؤرخ أتاح مزيداً من الفرص للابتكار والتجديد فى عالم الفكر ، وذلك لعدم وجود سوابق مليئة بالأخطاء فى هذه المجالات الجديدة يمكن أن يستشيرها الباحث ويعتمد عليها ويستمد منها . فنحن لا نجد مثلاً أى حديث واضح يعتمد عليه بخصوص عادات الزواج فى بورنيو أو العلاقة بين الناس فى اركواز فيما كتبه ثيكوديدس أو بوليبيوس أو ليفى ، ولا عند أوغسطين واكويناس ، إذ لم تتعد كتاباتهم من هذه الناحية أكثر من ذكر « لدولة الطبيعة » التى تناقلوا فكرتها عن الرواقيين والمحامين الرومانيين ، التى بدا عندئذ فى عصر الكشوف أن لها أساس عملى فى حياة السكان الأصليين فى البلاد المكتشفة .

والواقع أن حركة التوسع الأوربى كان لها تأثير كبير وإن كان غير مباشر على الكتابة التاريخية وذلك نظراً لما صاحب هذه الحركة من تغيرات فكرية واجتماعية ، ثم انعكاس هذه التغيرات على الاهتمامات والمناهج التاريخية . ومع ذلك فقد كان لهذه الحركة أيضا نتائج مباشرة سريعة ظهرت فى الكتابة التاريخية التى كتبها أولئك الذين تناولوا موضوع الكشوف ، إذ نلاحظ فى هذا النوع من الكتابة تغييرات جذرية فى الأسلوب وطريقة العرض . ذلك أن الطريقة الحولية فى كتابة التاريخ لم تعد مناسبة للمقام بعد أن اصبحنا أمام ظواهر تتطلب أن تكون الكتابة عنها وصفاً شاملاً لا بمجرد عملية تأريخية . هذا إلى أن الغالبية العظمى من المؤرخين الأول لحركة الكشوف كانوا رجال أعمال عمليين فكتبوا بأسلوب مباشر بعيد عن الاتصال وعلى الرغم من وجود ميل لدى بعض الكتاب الذين جاءوا بعد قليل مثل هيرارا نحو

محاكاة طريقة الإنسانية فى الكتابة ، فإن الكتابة التاريخية فى ذلك العلم ابتعدت تماماً عن الطريقة التقليدية من حيث الشكل والأسلوب ، فضلاً عن أن ماتضمنته هذه الكتابة من مادة جاء مخالفاً تماماً عن سابقه .

وهكذا لم تعد الكتابة التاريخية مجرد سرد للمؤامرات والدسائس فى مجال السياسة والأوساط الدينية بل أصبحت وصفاً شاملاً لعادات الشعوب وسلوكها . وكان لهذا الاتجاه تأثيره القوى حتى على الكتاب الذين اقتصرت كتاباتهم على شعوب أوربا والمسائل الأوربية . من ذلك أن العالم الإسبانى جوان بايز دى كاسترو وهو من أعلام الحركة الإنسانية فى منتصف القرن السادس عشر – أوضح القيمة التربوية التعليمية من مقارنة سلوك شعوب ماوراء البحار وعاداتها بشعوب أوربا . وبعبارة أخرى فإن ماكتبه جيروم فى تاريخه لم يعد أهم ما يمكن أن يصدر به كتاب التاريخ ، وكذلك شجرات أنساب الملوك والأسرة الحاكمة . وصار لابد من أن يحل محل هذا كله وصف البلاد والشعوب . ولأول مرة منذ عهد المؤرخين الأيونيين فى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد . احتل علم الجغرافيا ووصف الشعوب مكاناً مرموقاً فى كتابة التاريخ وذلك باستثناء ماكتبه عدد محدود من المؤرخين أمثال جيرالدوس ، كامبرنسيس ، رالف هيجدن فى انجلترا ، إيتاس سلفيوس وتلاميذه فى ألمانيا . وأخيرا وعلى الرغم من أن الرواد الأول لهذه المدرسة الجديدة كانوا فى المحل الأول من جامعى المعلومات الخاصة بوصف الشعوب وعاداتها ، إلا أنهم أصبحوا بعد ذلك من النوع الناقد المحلل . وفى أعمال فولتير وهيرور تبدو محاولات لكتابة تاريخ العالم وفق المنهج الجديد وبصورة اتسمت بالشمول واتضح فيها جانب التحليل والإستنتاج .

ولقد ظهر مقدمات آثار حركة الكشوف والتوسع الأوربى على المعرفة التاريخية وكتابة التاريخ فى أدب الرحلات الذى أنتجه رحالة العصور الوسطى ومغامروها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أمثال حنا بلانو كاربينى ، وليم روبروك ، وماركوبولو ، وحنا مونت كورفينو وابن بطوطه ، وظهر هذا الأثر على التاريخ أشد مايكون وضوحاً فى الكتاب الشهير الذى كتبه ماركوبولو عن رحلاته (١٢٥٤ م – ١٣٢٤ م) وكذلك فى كتاب رحلات حنا دى مانديفيل ، وهى ممتعة حقًّا على الرغم مما فيها من خيال ، وقد ظهرت بعد منتصف القرن الرابع عشر بقليل .

أما ماركوبولو فقد قضى عشرين سنة فى الشرق الأقصى شغل خلالها مناصب هامه مكنته من أن يدرس عادات أهل الشرق مما أفاده فى كتاباته . وفى السنوات التى أعقبت سنة ١٢٨٩ م ، وبينما كان ماركوبولو سجينا فى جنوه بعد عودته من الشرق أملى ماركوبولو ما تذكره من رحلاته ومشاهداته على رفيقه فى السجن ، روستيكانو البيزى Rusticiano of pisa الذى كان لحسن الحظ ذا كفاية أدبية عالية . وهكذا ظهرت رحلات

ماركوبولو التي تعتبر من أهم ماكتب في موضوعها . وفي هذا تقول إلين باور Eileen Power «من المستحيل أن نبالغ في الحديث عن مدى اتساع نطاق مشاهدات ماركوبولو ووقتها حقيقة إن كان يعيد بعض حكايات الرحالة السابقين الدارجة وأنه عندما كتب اعتمد على السماع مما أوقعه في أخطاء هنا وهناك ، ولكنه سجل كل مارآه بعينيه بكل دقة ، إذ كانت لديه فرصة عظيمة للمشاهدة وكان رائعا في استغلال هذه الفرصة أعظم استغلال »[1] .

أما كتاب رحلات السير جون دي مانديفيل فكان ذا طبيعة مختلفة إذ غلب عليها الطابع الميداني الخيالي المستمد بطريقة عشوائية من أعمال السابقين وموسوعاتهم أمثال بليني ، ومما جمعه رجال العصور الوسطى أمثال فنسانت المنسوب إلى بوفيه Vincent of Beavaies فضلاً عن تقارير الرحالة المغامرين الذين جابوا الشرق الأقصى . وعلى الرغم من أن هذا العمل لم يكن سوى خليط نادر من الحقيقة والخيال فإنه أخذ بألباب الناس ، وكان له أكبر الأثر في زيادة فضولهم بالشرق وبثرواته وعجائبه وثقافاته . ومهما يكن من أمر ، فإنه يحسن بنا ألا نخرج كثيراً عن الموضوع الأساسي الذي نعالجه في هذا الباب وهو الكلام عن مؤرخي حركة الكشوف وحركة التوسع والاستعمار بعد سنة ١٤٩٢ م .

أما أول هؤلاء فهو كريستوفر كولمبس الذي لم يستطع ان يكمل ما كان يطمع فيه من وصف العالم الجديد ، ولكنه كتب بإسهاب عن اكتشافاته ، ودفعته رغبته في تمجيد نفسه تحت تأثير الغرور إلى المبالغة واختلاق أشياء ووقائع خيالية لا أساس لها . وعلى الرغم من ذلك فإنه وصف مشاهداته وصفاً على درجة معقولة من الدقة والاعتدال والموضوعية . ولعل ما أشيع عنه من أنه «تاجر أساطير» إنما يرجع إلى وصفه أشياء لم يكن قد رآها فعلاً . أما أهم وصف لطبيعة العالم الجديد وثقافته فجاء في التقارير التي كان يرسلها إلى أسبانيا هرناندوكورتز Hernando Cortez الذي غزا المكسيك . ذلك أن تقاريره تضمنت وصفاً غاية في الوضوح برغم ما فيها من اختصار وإيجاز ، وكل ما يشوبها هو حرص كاتبها على تبرير أعماله . ويقارن فيوتر هذه التقارير بتقارير يوليوس قيصر ، وهي مقارنة لها بعض ما يبررها . وبإمكاننا الآن أن ننتقل إلى عرض لقوائم المؤرخين الذين أمدونا بأول وصف تاريخي دقيق للكشوف والفتوحات .

فإنه من الطبيعي أن يكون المؤرخون الأوائل لهذه الفترة من رجال المدرسة الإنسانية الذين استثارت الحركة الجديدة انتباههم فطرأ تغيير ملحوظ على أسلوبهم وطريقة عرضهم للمادة . ولسوف نبدأ بمناقشة الكتابات التاريخية للمؤرخين في أسبانيا وإيطاليا والبرتغال في ذلك الدور .

---

(1) In A.E. Newton, Travel and Travellers in Middle Ages (Kropf, 1926) p. 135

كان أول المؤرخين ذوى الأهمية الذين كتبوا عن العالم الجديد هو بطرس مارتر دى الجيرا Pietro Martire d'Anghiera (١٤٥٥ - ١٥٢٦م) الذى اشتهر باسم بطرس مارتير . Peter Martyr كان هذا المؤرخ من رجال المدرسة الإنسانية فى إيطاليا ومن تلامذة إينياس سيلميوس وبوجيو . ولكنه هاجر إلى أسبانيا ليعيش فيها حتى إذا ما كانت سنة ١٥٢٠ عين المؤرخ الرسمى لمجلس جزر الهند الغربية . وفيما بين سنتى ١٥١٦ ، ١٥٣٠م ظهر كتابه « عشرات السنين فى العالم الجديد » الذى كتب بطريقة فريدة عبارة عن رسائل أخبارية . وقد ظهر فى الكتاب براعة مارتير الأدبية وقدرته الفائقة على الوصف ، كما تظهر فيه أيضاً حرصه على البعد عن مناهج المدرسة الإنسانية كلما عن له ذلك . وبرغم افتقار الكتاب إلى العمق والنظرة الناقدة فإن كتابه زودنا بملخص واف للتقارير التى كانت ترسل عن شعوب العالم الجديد حتى سنة ١٥٢٥ . وتنحصر أهمية هذا الكتاب بالنسبة لكتابة التاريخ فى أنه أول عمل من نوعه يصف ثقافة الشعوب ويبتعد تماماً عن الشكل السابق التقليدى فى كتابة التاريخ داخل إطار الحوليات السياسية والدينيه .

أما كتاب « التاريخ العام الطبيعى لجزر الهند » الذى كتبه جونزالو فرناندزدى أوفيدوفلدس وهو أسبانى كان مهتما بدراسة العلوم الطبيعية ثم تحول إلى دراسة التاريخ (١٤٧٨ - ١٥٥٧م) ، فهو وإن كان دون كتاب مارتير من الناحية الأدبية فإنه يعلوه من ناحية القيمة التاريخية ، لأن فالدس قضى أكثر من عشرين سنة فى أمريكا يؤلف كتابه هذا فجاءت معلوماته دقيقه حيث إنه استمدها بنفسه ومن مشاهداته . ولقد تميز هذا الكاتب بمنهجه الموضوعى الذى يشبه منهج العلماء الطبيعيين ، ومن ثم اتصفت كتاباته بالدقة التى لا يرقى إليها الشك .

والملاحظ أن معظم الكتاب الذين تناولوا حركة الكشوف والتوسع الأوربى كانوا كثيراً ما يمجدون الغزاة فى كتاباتهم ، ولكننا نجد كاتباً كالأسقف الدوفيكانى بارتوليم دى لاس كاساس Bartoleme de Les Casas (١٤٧٤ - ١٥٦٦ م) لا ينسى أن يشيد ببطولة المواطنين الأصليين من الهنود كما يبدو ذلك فى كتابه « عرض موجز لتخريب جزر الهند » وكتابه الثانى « تاريخ للدفاع عن جزر الهند » ثم كتابه الثالث « تاريخ جزر الهند » . ولعل عطفه على الهنود فى كتاباته هو الذى أوحى بفكرة « الهمجى النبيل » Noble Savage عند الأوساط الهندية الأوربية فى القرن الثامن عشر . وكان أن استخدم الإنجليز والهولنديون تعليقاته الناقدة كدعاية ضد الأسبان فى عدم اهليتهم لامتلاك وأدارة المستعمرات الجديدة .

أما فرانسيسكو لوبيز دى جومارا (١٥١١ - ١٥٦٠) فقد وصف فتح بيرو والمكسيك فى كتابه « التاريخ العام لجزر الهند » وقد ركز الحديث على فتح المكسيك حيث كان يعمل فى خدمة أسرة كورتز وإذا كان فيوتر يعتبره أقدر مؤرخى عصر الكشوف ، فإن الأستاذ ويلجس

Wilgus يعارضه فى ذلك ويعتبر جومارا كاتباً اعتمد على الاستماع أكثر مما اعتمد على الوثائق ولجأ فى بعض الأحيان إلى الاختلاق .

أما جوزى دى اكوستا José de Acosta (١٥٣٩ - ١٦٠٠ م) الذى كان من الرجال اليسوعيين المسئولين فى بيرو . فهو كاتب لا يشك فى صحة كتابته ودقتها . وقد ألف كتابه «التاريخ الطبيعى والأخلاقى لجزر الهند» واعتمد فيه إلى حد كبير على معلومات أصليه جمعها بنفسه ، وإن كان قد أضفى عليه روح اليسوعيين كما برزت فيها النزعة الأخلاقية .

وثمة كتاب آخر تناول وصف الكشوف الجغرافية هو كتاب جوان لويز دى فيلاسكو الذى سماه «جغرافيه جزر الهند ووصفها العام» (١٥٧٤) وجمع مادته من الوثائق التى وضعها - مجلس جزر الهند تحت تصرف المؤلف . أما رحلة ماجلان فقد وصفها أحد بحارته وهو انطونيو بجافيتا (١٤٨٠ - ١٥٣٤ م) فى كتابه «رحلة ماجلان حول العالم» .

ومن أهم الكتب عن أمريكا اللاتينية فى القرن السابع عشر كتاب وضعه انطونيو دى هيريرا توردسيلاس وأسماه «التاريخ العام» . وقد ألف كتابه هذا تحت رعاية الملك فيليب الثانى وظهر ما بين سنة ١٦٠١ وسنة ١٦١٥ م . وفيه تعرض للأحداث الهامة فى العالم الجديد حتى سنة ١٥٥٧ م . ولم يعتمد مؤلف هذا الكتاب على الوثائق اعتماداً واسع النطاق ولكنه سرق كثيراً وبطريقة مباشره من أعمال لاس كاساس . ويبدو أنه كان معجباً بمنهج المدرسة الإنسانية ، فجاءت أعماله مليئة بالبلاغة والمحسنات اللفظية . وعلى الرغم من اعتماد هذا الكاتب على مؤلفات لاس كاساس ، فإنه لم يشاركه احترامه للسكان الأصليين . وقد استغل هذا الكتاب الشهير على أنه دعاية أسبانية وترتب عليه تشويه الرأى العام الأسبانى عن الفتوحات . أما كتاب برنابية كوبو دى بيرالتا اليسوعى (١٥٨٢ - ١٦٥٧ م) فهوا أعظم قيمة من كتاب هيريرا حيث إن بيرالتا اعتمد أساساً على مشاهداته وملحوظاته الخاصة .

وتمخض القرن الثامن عشر عن عدة كتابات هامة عن العالم الجديد . ففى سنة ١٧٧٢ م ظهر كتاب انطونيو دى اولوا Antonio de Uiloa بعنوان «ملحوظات عن الامريكتين» وهو غنى بالمعلومات القيمة عن أمريكا الأسبانية وبخاصة بيرو ، وأكوادور . وفى سنة ١٧٨٩ أصدر انطونيو دى الكيدو بكسارافو (١٧٣٦ - ١٨١٢) كتابه المعجم الجغرافى والتاريخى لجزر الهند الغربية الأمريكية ، ويحوى وثائق فى خمسة مجلدات ويعادل هذا الكتاب فى دقته كتاب جوان بوتستا مونوز Juon Bautista Munoz (١٧٤٥ - ١٧٩٩ م) وعنوانه «تاريخ العالم الجديد» وقد ظهر سنة ١٧٩٣ م .

ثم إن هناك مؤلفات عديدة تتناول مراحل معينة محدودة من حركة الكشوف

والاستعمار فى أمريكا اللاتينية منها الكتاب الذى ألفه أوغسطين دافيلا باديلا (١٥٦٢ - ١٦٠٤ م) وهو أول كتاب هام عن الإرساليات الأسبانية فى دورها الأول بعنوان تاريخ مقاطعة سانتياجو بالمكسيك .أما الونزو فرناندز فقد حكى جهود الكنيسة الكاثوليكية فى تبشير أهالى تلك البلاد بالديانة المسيحية وذلك فى كتابه الذى ظهر سنة ١٦١١ والذى أسماه التاريخ الكنسى للعصور الحديثة . ولم تقف جهود المؤرخ (جيل جونزالز دافيلا) عند حد تناول دور البعثات التبشيرية ، بل تعرض كذلك لعقائد الهنود أهل البلاد الأصليين . أما جوكان دى ريبادينيريا يبارنتوس Ribadeneira y Barrentos فقد جمع فى كتيبه الذى صدر سنة ١٧٥٥ كل الوثائق الكاثوليكية المتعلقة بالتبشير فى أمريكا اللاتينية . كذلك قام جوان دى سولرزا نو بيريرا (١٥٧٥ - ١٦٥٥) بجمع القوانين السائدة فى أمريكا اللاتينية فى أيامها الأولى فى كتابه الذى أسماه «تحرى الحقيقة حول قوانين جزر الهند» أما عن القانون التجارى فى ذلك العصر فلقد كتب جوزيه دى فتيا ليناج سنة ١٦٧٢ كتابه الذى أسماه «قواعد التجارة الأسبانية فى جزر الهند الغربية» وقد أمدنا برناردو دى فارجاس ماشوكا (١٥٥٧ - ١٦٦٢ م) بأحسن وصف للنواحى العسكرية فى أمريكا اللاتينية .

وهناك مؤلفات كثيرة عن المناطق التى احتلها الأسبان والبرتغاليون فى العالم الجديد وكان أول كتاب هام عن البرازيل هو كتاب عن «آسيا» الذى كتبه جوادى باروس (١٤٩٦ - ١٥٧٠ م) وهو مبنى على وثائق أصلية ، وصدر فيما بين عامى ١٥٥٢ ، ١٦١٥ م . وقد تناول أحداث اكتشاف البرازيل وغزوها بأسلوب واضح قوى ، كما عالج نفس الكتاب الغزوات البرتغالية فى جزر الهند الشرقية . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه ساعد كثيراً على محو الخرافات التى سادت فى هذا العصر عن تلك الجزر . وهناك كتاب هام آخر عن البرازيل وجزر الهند الشرقية وهو «التاريخ العام للهند الشرقية» (١٦٠٣) كتبه انطونيو دى سان رومان . وثمة كتاب ثالث لا يقل أهمية عن الكتابين السابقين هو كتاب . مانويل دى فاريا Manuel de Fariay Sousa (١٥٩٠ - ١٦٤٨ م) وأسماه «موجز تاريخ البرتغال» وقد تناول فيه أحوال البرازيل والمستعمرات البرتغالية فى جزر الهند الشرقية أما كتاب «تاريخ المجتمع السياسى فى البرازيل» الذى صدر سنة ١٦٦٣ فقد كتبه سيمان دى فاسكونسيلى اليسوعى Siman de Vasconcellos (١٥٩٧ - ١٦٧١ م) . كذلك من المؤلفات الهامة والمفيدة التى ظهرت فى البرازيل فى القرن الثامن عشر كتاب سيبا ستيوروخابيتا (١٦٦٠ - ١٧٣٨ م) واسمه «تاريخ أمريكا البرتغالية» سنة ١٧٣٠ م .

وأما بيرو فكتب عنها فرانسيكودى اكسرسيس (ولد ١٥٠٤ م) سكرتير بيزارو كتابه المشهور «نبذة صادقة عن فتح بيرو» (١٥٣٤) وقد كتبه بناء على طلب بيزارو نفسه كذلك يوجد تاريخ شامل لبيرو هو كتاب «تاريخ فتح بيرو» الذى ألفه بدرو دى جيزادى ليون (١٥١٨ - ١٥٦٠ م) . ومن أشهر الكتاب الأوائل الذين كتبوا عن بيرو جاركيلاسو دير

لافيجا (١٥٣٩ - ١٦١٦ م) صاحب كتاب «تعليقات على قبائل الانكا.» و«التاريخ العام لبيرو»، ومع ذلك فقد أختلف النقاد فى تقدير قيمة أعماله إذ وصفها فيوتر بأنها كتابة غير ناقدة هدفها تقريظ قبائل الانكا. وفى نفس الوقت وصفها وليجاس بأنها «خير مصدر نستمد منه معلوماتنا عن التاريخ المبكر لهذا البلد». وفى سنة ١٥٧١ أصدر ديجو فرنانذز (ولد ١٥١٠م) تاريخ بيرو وهو خير ماكتب عن الحروب الأهلية فى بيرو. كذلك وصف جوزى دى آريجا (١٥٦٢ - ١٦٢٢ م) انتشار الديانة المسيحية الكاثوليكية بين هنود بيرو فى كتابه الذى صدر سنة ١٦٢١ بعنوان «استئصال الوثنية من بيرو».

وخير ما كتب عن شيلى فى ذلك الدور المبكر ما كتبه الونزو دى اوفال Alonso de Ovalle (ت ١٦٥٠ م) كذلك كتب انطونيو رويزدى مونتويا (١٥٩٣ - ١٦٥٢ م) عن انتشار المسيحية فى بورجواى. وكان انطونيو هذا يحس تجاه السكان الأصليين نفس الأحاسيس التى كان يحس بها كاساس.

ولقد آثار فتح المكسيك (أسبانيا الجديدة) اهتمام عدد من أقدر المؤرخين أمثال برنال دياز ديل كاستيلو Bernal Diaz del Castillo (١٤٩٢ - ١٥٨١ م) صاحب كتاب «التاريخ الحقيقى لفتح أسبانيا الجديدة». وكان كاستيلو جندياً شجاعاً كفئاً، استهدف تأليف كتابه الثناء على الجيش الأسبانى وضباطه وليبرز أعمال الجيش وبطولته الفذة. كذلك يتضمن هذا الكتاب سرداً رائعاً لأحداث الفتح الأسبانى للمكسيك ووصفاً للمكسيك والمعدات الحربية التى استعملها الغزاة، بالإضافة إلى ماورد به من ملحوظات ومشاهدات عن العالم الجديد وسكانه الأصليين. ولايقل أهمية عن هذا الكتاب كتاب برناردو ساها جون Bernardo Sahagun (ولد ١٥٩٠) واسمه «التاريخ العام لاحتلال أسبانيا الجديدة». أما خير وصف كتب فى ذلك العصر عن غزو المكسيك فقد جاء فى كتاب «تاريخ غزو المكسيك» الذى ألفه انطونيو دى سوليس ريفادنييرا (١٦١٠ - ١٦٨٦) وهو كتاب تفوق قيمته الأدبية قيمته التاريخية. وقام فرناندودى آلفا اكستليلز شيتل Fernando de Alva Iktiblzochitl (١٥٦٨ - ١٦٤٨ م) بتصوير وحشية الغزاة تصويراً دقيقاً، وذلك فى كتابه «قوة غزاة المكسيك المثيرة». ومن خيرة ما كتب عن غزو المكسيك كذلك ما كتبه جاسباردى نيلاجرا (ت ١٦٢٠ م) فى كتابه «تاريخ المكسيك الجديدة) وأما عن كاليفورنيا الأسبانية فإن أقيم ما كتب عنها كتاب «نبذة عن كاليفورنيا» (١٧٥٧) لمؤلفه ميجويل فينجاس Miguel Venegas وعن فلوريدا، لدينا كتاب «نبذة وتعليقات» لمؤلفه ألفار نتز كابيزا دى فاكا Alvar Nunez Cabeza de Vaca (١٤٩٠ - ١٥٦٤ م). كذلك كتاب «فلوريدا بلد ألانكا» لمؤلفه جارسيلاسو دى لافيجا وهذا الكتاب عبارة عن سرد رومانتيكى غير ناقد لفتوحات سوتو.

ولم يكن الكتاب فى شمال أوربا أقل اهتماماً بحركة الكشوف الجغرافية . فمن هولندا ظهر لدينا أول عمل ذو قيمة فى هذا الصدد وهو ما كتبه جوان دى ليت Joannes de Laet (١٥٩٣ - ١٦٤٩ م) تحت اسم « العالم الجديد أو جزر الهند الغربية » . وقد عنى فيه بعلاج التاريخ الطبيعى للعالم الجديد وعادات السكان الأصليين فضلاً عن حركة الأستعمار . وهناك أيضاً ارنلدوس هونتانوس (١٦٢٥ - ١٦٨٣ م) الذى تناول فيه فى « عالم جديد مجهول » حركة الكشوف فى أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية والبرازيل . وفى سنة ١٦٧٨ أصدر حنا اسكوميلين (هندريك سميكس) كتاب « الرحلات البرية إلى أمريكا » الذى يعتبر واحداً من أحسن الكتب التى تناولت موضوع القراصنة وقطاع الطرق . ومن خير ماظهر فى هولندا فى ذلك العصر أيضاً عن الرحلات البرية ذلك الكتاب الذى أصدره بطرس فان در آزا Pieter von der Aa سنة ١٧٠٧ ويقع فى ١٢٧ مجلداً .

وظهرت فى ألمانيا كذلك عدة كتب عن حركة الكشوف والاستعمار فى العالم الجديد من أشهرها كتاب جاسبار إن Gaspar En « تاريخ الهند الغربية » (١٦١٢) وكتاب جوهان لودفيج جوتفريد « العالم الجديد وتاريخ أمريكا » (١٦٥٥) .

أما فى فرنسا فإن أول كتاب ينبغى الإشارة به عن الرحلات كتاب بعنوان « مجموعة روايات عن رحلات غريبة متنوعة » وقد صدر فيما بين سنتى ١٦٩٣ - ١٦٩٦ م لمؤلفه ملشيدش ثيفينو Melechise dech Thevenot وفى سنة ١٧٠٧ أصدر الأب بيلجارد كتاباً بعنوان « التاريخ العالمى للرحلات » وقد أعطى فيه اهتماماً خاصًّا لرحلات الأسبان إلى أمريكا . أما الموسوعات التى كتبها شارلفوا عن الكشوف الجغرافيه فستعرض لها فيما بعد ومن أعظم الكتابات الفرنسية التى تناولت حركة الكشوف والاستعمار كتاب التاريخ العام للكشوف الجغرافية الذى ألفه أنطوان بريفوست دى اكزيل (١٦٩٧ - ١٧٦٣ م) prevost d'Exiles وعلى الرغم من أنه مجرد تجميع مادة ومشروع لناشر إلا أنه حوى قدراً هائلاً من المعلومات . وقد ظهر فى عدة مجلدات ما بين سنتى ١٧٤٦ - ١٧٥٤ م . وأهم ما نلاحظه على هذا الكتاب هو أنه يثنى على السكان الأصليين لكنه ينتقد حماسة لاس كاساس الساذج ، ثم إنه يعكس وجهة نظر مونتسكييه الخاصة بالنظر إلى الثقافة والنظم من وجهة مقارنة وملاحظة تأثير المناخ على الأنظمة الاجتماعية ومما يلاحظ على هذا العمل كذلك أنه أفسح مجالاً كبيراً للتحليل النفسى ونمو المجتمعات فى العالم الجديد . أما عن التاريخ الدينى للعالم الجديد فهناك كتاب شامل يقع فى أربعة عشر مجلداً صدر سنة ١٧٧٠ م وألفه انطوان تورون بعنوان « التاريخ العام لأمريكا منذ اكتشافها » .

أما أول كتاب فى إنجلترا يتناول حركة التوسع الأوربى هو كتاب ريتشادر إيدن وعنوانه « العالم الجديد فى بضع عشرات من السنين » وقد صدر سنة ١٥٥٥ م . واستند مؤلف هذا

الكتاب إلى حد ما إلى ما كتبه بطرس مارتر . وبعد ذلك ظهر كتاب ريتشارد هاكولويت وعنوانه الملاحة والرحلات والكشوف الرئيسية عن الامة الإنجليزية . وقد ظهر لأول مرة سنة ١٥٥٨ م ثم صدر مرة ثانية فى صورة موسعة سنة ١٦٠٠ م . ويكمل هذا الكتاب كتاب آخر أصدره بعد ذلك بربع قرن صمويل بيرشاز عن رحلاته وأسفاره . كذلك كتب توماس جاج كتاباً بعنوان « وصف جديد لجزر الهند الغربية » (١٦٤٨) وقد كتبه المؤلف ليضمنه ثمرة إقامته فترة طويلة فى جزر الهند الغربية . وهناك بحث أشمل منه كتبه حنا أوجلبى John Ogilby (١٦٠٠ - ١٦٧٦ م) بعنوان « أمريكا : أحدث وأدق وصف للعالم الجديد » (١٦٧١) واستقى بعض معلوماته مما كتبه الهولندى مونتانوس .

ومع مطلع القرن الثامن عشر أصدر أونشام تشرشل Aunsham Churchil كتابه المشهور « مجموعة من الرحلات والأسفار » سنة ١٧٠٤ م ثم غد ذلك بعام كتاب جون هاريس « مكتبة الرحلات البحرية والبرية » . كذلك أصدر جون كامبل سنة ١٧٤٢ كتاب التاريخ الموجز لأمريكا الأسبانيه وقد أعطى اهتماماً خاصاً للتجارة والعلاقات الخارجية . واختص الكتاب الإنجليز مناطق معينة من العالم الجديد باهتمامهم . وخير مثل لذلك ما كتبه روبرت سوثى Robert Southey (١٧٧٤ - ١٨٤٣) « تاريخ البرازيل » الذى هو جزء من كتاب أكبر شرع فيه ولكنه لم يكمله وهو كتاب « تاريخ البرتغال » . وكان سوثى وافياً أنصف فى بحثه جميع السكان الأصليين من الهنود فضلاً عن ما قاهرىهم من الأوربين واستحوذت على مشاعره فكرة المستقبل المرموق المتوقع للبرازيل .

أما أول مؤلف مشهور عن تاريخ الاستعمار الإنجليزى فهو كتاب الكابتن جون سميث وعنوانه « التاريخ العام لفرجينا و « نيو انجلاند » ويؤخذ على هذا الكتاب الذى صدر سنة ١٦٢٤ مسحته الخيالية وإحساسه بالزهو . والواقع أن سميث لم يؤلف سوى جزء بسيط من هذا الكتاب الذى يحمل اسمه فى حين أن ذلك الجزء الأعظم منه ليس إلا تجميعاً لبعض القصص القديمة وذكريات المهاجرين الإنجليز الذين استقربهم المقام فى العالم الجديد . ومن بين ما اختلقه سميث أسطورة البوكاهونتاس التى تحتل مكانة مشهورة على قدم المساواة مع أسطورة شجرة الكرزبين أساطير التاريخ الشعبي الأمريكى . ويصف الدكتور ج . ف . جيمسون عمل سميث هذا فى سخرية دقيقة . فيقول « إن ما يحويه هذا الكتاب من معلومات تاريخية ليست من عمل سميث ، أما العمل الذى قام هو نفسه به فلا يمت للتاريخ بصلة . »[1]

أما كتاب روبرت بيفرلى « تاريخ فرجنيا » الذى صدر سنة ١٧٠٥ م فهو كتاب من طبيعة أخرى مختلفة كتبه صاحبه تلبية لرغبة أحد باعة الكتب فى لندن ، وهو عبارة عن ملخص ممتاز للوثائق والسجلات المبكرة فى أسلوب واضح يتصف بالحيوية . وثمة كتاب آخر

وليم ستيث Stith «أكتشاف فرجنيا لأول مرة» وقد صدر سنة ١٧٤٧ م . ويتفوق هذا الكتاب على كتاب بيفرلي من ناحية أنه أعظم منه في معلوماته وأدق منه وإن كان أقل منه تشويقاً للقارئ . وكان أول ما كتب عن تاريخ «نيو إنجلاند» في أيامها الأولى في صورة جديرة بالتصوير والاهتمام هو ما كتبه اثنان من حكامها هما وليم برادفورد وجون ونيثروب . وقد سمى الأول كتابه «تاريخ الزراعة في بلايموث» ، في حين سمى الثاني كتابه تاريخ «نيو انجلاند» . واتصفت رواية برادفورد (١٥٩٠ – ١٦٥٧ م) بالسهولة والصراحة وغبت عليها مسحة من التفوق تدل على تأثره بالنظرية الإلهية في تفسير التاريخ ، هذا إلى أنه قضى أعواما طويلة في جمع الوثائق الخاصة بكتابه مما جعل مادته لايرقى إليه شك . وأهم ما جاء فيه وصفه لحركة استقرار المهاجرين الإنجليز في مستعمرة بلايموث حتى سنة ١٦٤٦ م . أما ونيثروب فجاءت روايته الرائعة على طريقة الحوليات ، فسرد تاريخ مستعمرة خليج ماسوشت حتى سنة ١٦٤٨ . والواقع أن كتابه ليس تاريخاً لنيوانجلاند على طول الخط ؛ ولذا قام أحد الناشرين في لندن بتغيير عنوان الكتاب فيما بعد ليزيد اهتمام القارئ به ، وبالتالى يزداد رواجاً . والحق أن هذا الكتاب هو أحسن كتاب بيورتانى في تاريخ العالم الجديد .

ثم يأتي بعد ذلك كتاب مثير للفزع والعجب معا ذلك هو كتاب التاريخ الكنسي لنيوانجلاند تأليف كوتون ماثر Cotton Mather (١٦٦٣ – ١٧٢٨ م) وهو بحق موسوعة شاملة تتناول جوانب كثيرة من الحياة الدينية والثقافية للنازحين الجدد ، بما في ذلك النبوءات الدينية المزعومة والخاصة بتعمير «نيو انجلاند» والاستيطان فيها ، ويمضي في روايته حتى يتناول تاريخ التعليم العالي في ماسوشست . ويتضمن هذا الكتاب حياة الحكام والمعلمين والوزراء وسائر الشخصيات البارزة ، كما يتناول كذلك تاريخ كلية هارفارد وتاريخ الحروب الهنديه ودلائل العناية الإلهية على طول التاريخ لنيوانجلاند وفي هذا الجانب نجد ماثر يطبق نفس النظريات التي أخذ بها بوسويه ولكن على نطاق أصغر .

وهنا بالإضافة إلى ذلك كتاب توماس برينس Thomas Prince «تاريخ نيوانجلاند» (١٧٣٦) الذي يعتبر أحسن ملخص لتاريخها المبكر حتى سنة ١٦٦٣ م . ولا يفوقه في اتساع المفهوم والقدرة الأدبية سوى كتاب توماس هتشنسون (١٧١١ – ١٧٨٠ م) تاريخ مقاطعة خليج ماسوشست ، الذي ظهر في ثلاثة أجزاء كان هتشنسون أستاذاً أمريكياً وفي نفس الوقت آخر حاكم ملكي لماسوشست ولذا كان متأثراً بالمدرسة العقلانية في كتابة التاريخ . والحق أن كتابه من المصادر التي يعتمد عليها لأمانته وحيدته ، وهو أيضا من أحسن الكتابات التي تناولت موضوع التطورات التشريعية والدستورية .

---

(1) J.F. Jameson: The History of Historical Writing in America (Honghton Mufflin 1891) p. 16

وثمة عدد من الكتاب البريطانيين تناولوا بالبحث الهنود فى أمريكا الشمالية والجنوبية وحاولوا أن ينقلوا إلى أهل أوربا الحقائق المتعلقة بهم . هناك مثلا آدم فيرجسون الذى عالج فى كتابه «تاريخ المجتمع المدنى» الحياة الاجتماعية للهنود الحمر فى أمريكا بشئ من الإنصاف فكان كتابه انعكاساً مقبولاً لفكرة «الهمجى النبيل» وعلى العكس نجد كاتباً مثل ج . ه . وين J. H. Wynne يهاجم بعنف مثل هذا التفسير لثقافة الهنود الأمريكيين فى كتابه «التاريخ العام للإمبراطورية البريطانية فى أمريكا» (١٧٧٠) . وادعى فى هذا الكتاب أن أية محاولة لتعليم الهنود وتهذيبهم ليس إلا مضيعة للوقت . ويقصد (وين) فى هذا الاتجاه كل من وليم روبرتسون فى كتابه «تاريخ أمريكا» و س .ه . ارنولد فى كتابه التاريخ العالمى المحايد للأمريكتين الشمالية والجنوبية (١٧٨١ م) وتفتقد هذه الكتب الثلاثة السابقة الاشارة إليها كل تقريظ للسكان الأصليين فى الأمريكتين .

وثمة اتجاه وسط بين أصحاب فكرة الهمجى النبيل وبين الناقدين لها فى عنف . ويتزعم هذا الاتجاه الوسط جيمس آديار Adair صاحب كتاب «تاريخ الهنود الأمريكيين» (١٧٧٥ م) الذى استخدم فيه طريقة مونتسكييه فى كتابه «رسائل فارسية» وذلك للرد على ناقديه الأوربيين الذين تناولوا موضوع الهنود . وقد نحا وليم راسل هذا الاتجاه الوسط فى كتابه «تاريخ أمريكا ١٧٧٨» الذى عرض فيه الجوانب الحسنة والسيئة من حياة الهنود وثقافتهم ، ودعا راسل الأوربيين الذين افزعتهم القسوة الوحشية التى نسبت إلى الهنود فى غاراتهم على البيض أن يقارنوها بحروب أوربا فى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث أو يقارنوها بحروب أوربا فى العصر القديم أو حتى ما جاء ذكره فى الإنجيل من غزوات وحروب .

أما فيما يختص بالكشوف الفرنسية فى حوض المسيسبى فإن أول مؤلف هام كان كتاب ماركويت «الرحلات والكشوف» (١٦٨١) ثم تلاه كتابان للمبشر البلجيكى لوى هيبنين Louis Hennepin (ولد ١٦٤٠ م) هما «الكشوف الجديدة» و«ووصف لويزيانا» .وهذان الكتابان على قدر عظيم من الأهمية لما يتضمناه من معلومات وافية عن الكشوف الأمريكية وعن السكان الأصليين على الرغم من كذب ما ادعاه هيبنين من أنه تتبع نهر المسيسبى حتى مصبه .

على أن أشهر الكتب عن الكشوف الفرنسية والاستعمار الفرنسى فى أمريكا هو كتاب «التاريخ العام والوصف الشامل لفرنسا الجديدة» الذى ألفه الرحالة الفرنسى اليسوعى بطرس فرانسوا كزاميزدى شارلفو Franceis xJavier de charlevoix (١٦٨٢ - ١٧٦١ م) . ويمتاز هذا الكتاب بأن مؤلفه رجع فيه إلى السجلات والوثائق ولكنه اعتمد إلى حد كبير على ما جمعه بنفسه من معلومات . وعلى الرغم مما فى هذا الكتاب من إسهاب وثرثرة وادعاءات كثيرة مع افتقاره إلى النظرة الناقدة ، إلا أنه يعد أكثر الكتب تشويقاً ومتعة ومن ثم كان من

أكثرها رواجاً . وهناك كتب أخرى لشارلفوا تناولت جهود اليسوعيين فى التبشير فى اليابان والشرق الأقصى على غرار أعمال كايمفر وغيره . هذا كله بالإضافه إلى ما كتبه من أوصاف شهيرة لجزر هايتى وبرجؤاى .

ولعل أقيم كتاب تناول بالوصف والتحليل ثقافة الهنود الأمريكيين فى ذلك العصر هو كتاب جوزيف فرانسوا لافيتو Lafititeau (١٦٨١ - ١٧٤٦ م) وعنوانه «مقارنة عادات الأمريكان الهمج بما كان عليه الناس فى الأزمنة القديمة» . وكان لافيتو مبشراً يسوعياً فرنسياً وقد أسهم بأبحاثه الطيبة عن قبائل Hurons and Iroquois فى وضع الأسس التى ساعدت على نشأة علم دراسة الأجناس البشرية من النواحى الاجتماعية والثقافية .

أما المؤرخ الإنجليزى وليم روبرتسون وهو من رجال الحركة العقلانية فقد ألف كتاباً سنشير إليه فيما بعد عنوانه «تاريخ أمريكا» يعتبر أبرز كتب التاريخ العامة التى كتبت عن العالم الجديد قبل مطلع القرن التاسع عشر .

وفيما يتعلق بتاريخ الشرق الأدنى نجد أن أشهر كتاب فى هذا المجال هو ذلك الذى وصفه ريتشادر نول Richard Knolle تحت عنوان التاريخ العام للأتراك (١٦٠٣) وقد أثنى عليه كل من صمويل جونسون وهنرى هالام لما تميز به من صدق الوصف وروعة الأسلوب . وهناك كتاب آخر عنوانه «رحلات فى فارس وجزر الهند الشرقية» كتبه حنا تشاردن على فترات فيما بين ١٦٨٦ ، ١٧١١ م وقد استفاد منه مونتسكيه كثيراً . أما الكتاب العظيم الذى وصفه السيرجون مالكولم بعنوان «تاريخ فارس» «١٨١٥» فقد جمع مادة من المصادر ومما حصل عليه مباشرة من معلومات . كذلك هناك كتاب داود بريس Dauid price «تأملات فى التاريخ الإسلامى» (١٨٢١) . وقد ساعدت هذه الكتب وغيرها على خلق اهتمام عظيم بالثقافة الإسلامية والأدب العربى وهو الاهتمام الذى ازداد كثيراً بترجمة قصص «ألف ليلة وليلة»

وفيما يتعلق بالاتصالات المبكرة بين أوربا من ناحية واليابان والشرق الأقصى من ناحية أخرى ، فإن أول رواية منذ أيام ماركوبولو عن تلك الاتصالات تبدو فى كتاب «تاريخ اليابان» الذى ألفه الطبيب الألمانى انجلبرشت كامبفير Engelbrecht Kaempfer . (١٦٥١ - ١٧١٦) وهو الكتاب الذى ظل لمدى قرن أو أكثر المصدر الرئيسى لمعلومات أوربا عن اليابان مثلما كان كتاب دى باروس مصدراً عن جزر الهند الشرقية . كذلك ساعد كتاب وليم مارسدن «تاريخ سومطرة» ، (١٧٨٣ م) على إلقاء مزيد من الضوء على جزر الهند الشرقية وتميز هذا الكتاب بنزعة عقلانية تاريخية واضحة . وثمة كتاب . يعتبر من الكتب العالمية فى الرحلات ووصف البلاد ، ونص به الكتاب الذى كتبه ديرك دى براى Dirk de Bry بعنوان «رحلات إلى جزر الهند الشرقية والغربية» وصدر فى

فرانكفورت فيما بين سنتى ١٥٩٠ م ، ١٦٣٤ م . أما كتاب روبرت أورم orme بعنوان «تاريخ العمليات الحربية للأمة البريطانية فى هندوستان منذ ١٧٤٥ م» (١٧٧٨ م) فنجد فيه وصفاً دقيقا للمراحل المتأخرة من الفتوح البريطانية فى الهند . وقد اهتم فيه المؤلف بالعمليات الحربية اهتماماً كبيراً . وعن شركة الهند الشرقية البريطانية فلدينا كتاب حنا بروس «حوليات عن تاريخ شركة الهند الشرقية الموقرة» (١٨١٠) Annals of the honourable East Irdia Company " واستند المؤلف فيه على الوثائق التى تجمعت لديه .

على أن أول عمل كامل تناول الكشوف والاستعمار فى الهند هو الكتاب المفصل الذى كتبه جيمس ميل Mill بعنوان «تاريخ الهند البريطانية» (١٨١٨) ومؤلف هذا الكتاب من فلاسفة المذهب النفعي . وقد ضمن كتابه معلومات كثيرة وعظيمة كما تناول الحضارة الهندية والحكم البريطانى فى الهند بكثير من النقد ويشابه ما كتبه ميل فى تقييمه السلبي للحضارة الهندية ما كتبة من بعده كاترين مايو بعنوان «الهند الأم» . على أن ميل قام فى نفس الوقت بتقييم لإدارة شركة الهند الشرقية مستخدما معايير بنتام ، فوجد أنها تفتقر إلى الكفاية فضلاً عن العدل والاقتصاد وهناك كتب أخرى ألقت مزيداً من الضوء على جزر الهند الشرقية أمثال كتاب الاستعمارى الإنجليزى السير توماس ستانفور رافلز وعنوانه «تاريخ جاوة» (١٨١٧) وكتاب حنا كروفورد «تاريخ الجزر الهندية» وكلاهما غنى بأوصاف عادات وسلوك السكان المحليين .

ونجد اقيم المعلومات وأهمها عن جنوب أفريقيا فى كتاب «رحلات فى إفريقيا الجنوبية» الذى ألفه السير جنا بارو (١٧٦٤ — ١٦٤٨ م) . وقد جمع هذا المؤلف بنفسه أول مجموعة تامة تضم بياناً بكل الجهود غير الموفقة التى بذلت للتوصل إلى طريق يوصل إلى الهند من جهة الشمال الغربى . وجاء ذلك فى كتابه «رحلات للكشف والبحث فى المناطق القطبية» .

ومع مطلع القرن التاسع عشر ظهر اتجاه جديد لربط أدب الرحلات بعلم الجغرافيا ، واتضح هذا فى بعض الكتاب مثل الكسندرفون همبولدت Humboldt ، كارل ريتر Karl Ritter ويبدو ان التأثير العام لحركة الكشوف الجغرافيه على المؤرخين أقوى ما يكون فى كتاب «التاريخ الفلسفى والسياسى للمستوطنين الأوربين وتجارتهم فى جزر الهند الشرقية» الذى ألفه الصحفى وليم توماس رينال (١٧١٣ — ١٧٩٦) وظهر هذا الكتاب سنة ١٧٧١ مبيناً تأثير حركة التوسع والكشوف على الفكر الأوربى . وقد ردد بعد ذلك فرانسو حنا شاستيللو Jean Chastellaux (١٧٣٤ — ١٧٨٨) آراء رينال الفلسفية فى كتابه «بحث عن مزايا وأضرار اكتشاف أمريكا» . أما تأثير المعلومات الجغرافيه الجديدة على مفاهيم التاريخ

فى ذلك العصر فقد عبر عنها نيقولا لينجلت وفرسنوى (١٦٧٤ - ١٧٥٥م) وخاصة فى كتابيه «طرق دراسة التاريخ» ، «طرق دراسة الجغرافيا» .

وبعد ، فإنه يتبين مما سبق ذكره أن بعض من تناولناهم من الكتاب كان لهم دور هام فى تغيير أسس الأسلوب التاريخى ومجال اهتمامات المؤرخ ، ولكنا نتبين كذلك أن تأثير حركة التوسع الأوربى على المؤرخين بكل ما فيها من عمق لم يكن أقوى من تأثير نفس الحركة على بقية معظم مجالات الحياة والفكر فى أوربا فى القرون التى تلتها . ذلك أنه ترتب على هذه الحركة بطريق مباشر أو غير مباشر نشأه ونمو اتجاهات جديدة ومن ثم حدوث تغييرات عظيمة فى المفاهيم والمناهج التاريخيه .

ليس هناك من بين المؤثرات الغير مباشرة لحركة التوسع الأوربى على الكتابة التاريخيه ماهو أكثر أهمية ووضوحاً من مساعدتها فى وجود الفلسفة الطبيعية الناقدة التى يمثلها أصدق تمثيل كل من بيكون ، وديكارت ، ولوك . ذلك أنه ترتب على استكشاف ذلك الجزء الأعظم من سطح الأرض أن عرف الناس أن هناك بقاعاً شاسعه فى هذه الكرة الارضيه تصلح لسكناهم ، وأكثر من هذا ثبت لهم أن المزاعم التى كانت تحيط بالأجزاء غير المعروفة من أعاجيب وأمور مثيرة للذعر إنما هى نوع من الأساطير التى لا أساس لها من الحقيقه فى شئ .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه داجاما ، كولومبوس ، وماجلان يقومون بالكشف عن امتداد الكرة الأرضية وطبيعتها ، كان هناك آخرون كرسوا أنفسهم للكشف عن الكون كله . وكان لكل من العملين من النتائج ما عصف بالتقاليد والمعتقدات الدينية القديمة . لقد كشف كوبرنكس ، برونو ، جاليلو ، تيكوبرا عن عظمة الكون واتساعه . كما وضع جاليلو وكبلر ونيوتن أفكاراً جديدة أهمها مايختص بالنظام الكونى وحركة الكواكب . ويضاف إلى هذا ماحدث من تقدم رئيسى فى العلم بتفسير كافة الظواهر الطبيعية فى كل مجال من مجالات العلم الطبيعى فى القرن السابع عشر ، وهى الظواهر التى تعتبرها اليوم شيئاً عاديًّا معروفاً فى حياتنا المعاصرة . وكانت النتيجة النهائية لكل هذا التقدم العلمى أن واجه التفسير الدينى القديم للعالم تحديًّا خطيراً وهو التفسير القائل بوجود آله متحكم يقوم دائماً بتغيير أو إيقاف قوانين الكون ليعاقب أمير عاق أو يستجيب لصلوات ودعوات أسقف مخلص .

وكان أن استطاع كل من فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وجون لوك أن ينظم مغزى الاكتشافات العالمية السابق ذكرها فى فكر فلسفى مستقيم . لقد أوضح باكون بصفة خاصة ضرورة اتباع طريقة الاستقراء . أما ديكارت فقد فسر حركة الكون تفسيراً آلياً فى حين حاول لوك أن يبنى المعرفة والحقيقة على الخبرة البشرية . وهكذا نجد أن الكشوف العلمية والفلسفة الجديدة كانت تميل نحو إيجاد تفسير عقلانى للظواهر الطبيعية والاجتماعية وهو الأمر الذى كان

يمثل تحدياً كبيراً للآراء القديمة والذى كان مقبولا حتى ذلك الوقت والذى كان أساسه تفسير الظواهر الطبيعية على أنها معجزات وعجائب وهو ما رأيناه بوضوح فى كتابات المؤرخين المسيحيين فى العصور الوسطى . ومن بين المفكرين الإنجليز الربوبين ـ الذين آمنوا بالله وأثبتوا وجوده عن الخصوص تذكر ولستون ، وهيوم[1] وتشكك هؤلاء جميعاً ـ وشاركهم فى ذلك المتعلمون من معاصريهم فى مبدأ المعجزات والعجائب . ولم يلبث أن انهارت تماماً فلسفة لعجائب والمعجزات عندما هاجم هوبز ، سبينوزا ، واسترولك ، وريماروس ، والجن الآراء التقليدية حول محتوى العهدين القديم والجديد . ولم تكن الدلائل والبراهين العلمية الجديدة هى وحدها السبب فى حدوث ذلك الانهيار ، بل إن هناك أيضاً الشك الذى أثير حول صحة الكتابات التى حوت تلك المعجزات . وفى القرن الثامن عشر أمكن التعبير بحرية أكثر عن كل هذه الآراء وخاصة فى إنجلتره وهولندا حيث سادت روح الاعتدال والتسامح الفكرى ، وبالتالى ازداد شيوع تلك الأفكار .

ثم إنه كان من الطبيعى أيضاً أن يكون هناك رد فعل عميق للاكتشافات العلمية الجديدة والفلسفة الجديدة للطبيعة على الفلسفة الاجتماعية المعاصرة فى ذلك الحين . وهكذا ظهر مفكرون أمثال فيكو ـ هيوم ، ترجو عرض فكرة استمرار المجتمع وتطوره تطوراً منتظما شأنه فى ذلك شأن الطبيعة . ومعنى ذلك أن الفكرة القديمة عن التطور الاجتماعى والتى مؤداها تدهور المجتمع البشرى من عصر أولى ذهبى تبدلت بمفهوم التقدم المستمر من المراحل الدنيا فى الحضارة إلى المراحل الأعلى . وظهر هذا المفهوم الجديد على وجه الخصوص فى كتابات فونتيل ـ بيرولت ـ فيكو ـ فولتير ـ هيوم ـ تيرجو ، وكانت ، وجودوين ، وكندورسيه . وفى ضوء هذا المفهوم تضاءلت الحاجة إلى المعجزات لتبرير أحداث التاريخ وغيره من العلوم الأخرى التى تناولت النشاط الإنسانى . وكان سبب هذا التضاؤل ازدياد نمو فكرة الإيمان بالله عن طريق العقل وحدة عند الربوبين . ثم افتراض مبدأ تأدب الانسان وحسن سلوكه ، وهو المذهب المناقض تماماً للآراء القديمة التى اعتنقها آباء الكنيسة الأول واعتنقها كالفن نفسه والتى كانت تؤكد فساد الإنسان وعدم طهارته . وأخيراً فإن الاكتشافات الجديدة وخروج الفلسفة الطبيعية والدينية عن النطاق الدينى المحدود كان لها أكبر الأثر فى توسيع دائرة اهتمامات المؤرخ التى ظلت مقتصرة حتى ذلك الحين على مجالى السياسة والدين .

وفى كتابات فولتير ، رينال ومونتسكييه ، وهيرين يتضح فى صورة أكبر الاتجاه نحو توسيع مجال التاريخ ، ليس عند الذين تناولوا مراحل حركة الاستعمار والتوسع فحسب بل عند

(١) ان وجهة نظر ميدلتون تجاه المعجزات أكدت فى عمق آراء إنكار جبون عن المسيحية (المؤلف)

كثيرين غيرهم . هذا مع ملاحظة أن ظهور الاتجاه القومي كان من بين العوامل التي اعترضت طريق هذا الاتجاه السليم لأن القومية حددت الاهتمام بالتاريخ السياسي . ومع ذلك فإن هذا الاتجاه الجديد استطاع أن يثبت أقدامه وخاصة بعد أن دعمه الاهتمام بالموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وهو الأمر الذي تجدد وازداد قوة في الفترة التي أعقبت الثورة العلمية والصناعية في القرن التاسع عشر .

وكان أن ظهر تأثير هذه الفلسفة الطبيعية وكذلك رد فعل الفلسفة الاجتماعية على كتابات التاريخ في كتابات « المدرسة العقلانية » للمؤرخين . وعلى الرغم من أن كتابات هذه المدرسة اختلفت فيما بينها اختلافات شتى بحيث أصبح من المعتاد أن يقسم كتابها إلى مجموعات عديدة ، فإنها تميزت بوحدة أساسية ظهرت في المنهج والطريقة والاهتمامات ، مما أمكن معه وضع خواص موحدة لكتابة التاريخ لدى المدرسة العقلانية في القرن الثامن عشر .

والواقع أن أهم ما جاءت به هذه المدرسة من جديد هو اتجاهها العام نحو توسيع مجال التاريخ بحيث يتعدى مجرد سرد دسائس الكنيسة والدولة وبحيث يشمل تاريخ المجتمع والتجارة والصناعة والحضارة في أوسع معانيها . وإذا كان مؤرخو عصر الكشوف قد أخذوا بنفس هذا الاتجاه فإن أعمالهم اقتصرت على معالجة العالم الجديد ولم يصبحوا أصحاب مدرسة بمعنى الكلمة . بينما نرى أن المؤرخين العقلانيين بذلوا جهودهم للتوصل إلى مدخل ثقافي عريض للتاريخ بغض النظر عن الفترة أو البلد التي يعالجونها ، ولذلك حاولوا جادين أن يدخلوا بعض الأسس الاجتماعية عند تحليلهم للتاريخ .

ولا يقل أهمية عما سبق محاولتهم عدم الأخذ بالخرافات والنظريات اللاهوتية لتفسير أسباب التاريخ وأحداثه ، وإنما أرجعوا ذلك كله إلى العوامل الطبيعية . هذا إلى أن المؤرخين العقلانيين اخذوا بفكرة أن الكون والمجتمع يسيران آليا وهي الفكرة التي كان قد توصل إليها الربوبيون استناداً إلى ما قدمه نيوتن من حقائق فلكيه . وإذا كان الله يوجه الكون فإنه يفعل ذلك من خلال ما وضعه هو نفسه من قوانين للطبيعية . إن كل شئ في التاريخ البشرى هو نتاج علاقة محددة بين السبب والأثر . ولكن هذا لم يمنع المؤرخين العقلانيين من الاعتقاد في إرجاع بعض أحداث التاريخ إلى أسباب شخصية ذات طبيعة ثانوية ، بل لقد اقتربوا في بعض الأحيان من نظرية أن الكوارث تصنع التاريخ وبها تعلل أحداثه ، وذلك عندما فسروا الحركات الكبرى والخيوط الرئيسية للسياسة على أنها نتاج لعمل شخصى فردى . وهكذا التزموا بوجه عام بنظرية أن العوامل الفكرية – أو بمعنى آخر الأفكار هي العنصر البارز المسيطر في التاريخ ، ومن هنا ركزوا اهتمامهم على التاريخ الفكرى .

ثم أن هؤلاء المفكرين ككل – اعتقدوا في أن العقل البشرى لا يختلف أساساً من مكان إلى آخر في العالم . وأن مايوجد من اختلافات يعزى إلى اختلاف البيئة الاجتماعية أي

أنماط السلوك والعادات . وقد عزا بعض المؤرخين اختلاف عادات الشعوب إلى اختلاف ظروف البيئة الجغرافية وخاصة المناخ . ويركز مونتسكيه ومدرسته أهمية خاصة على تأثير هذه العوامل الجغرافية . فى حين أوضح فولتير أن هناك ثلاثة عوامل رئيسية تؤثر على تشكيل عقل الإنسان ، وهى المناخ ونظام الحكم والديانه . كذلك اعتقد المؤرخون العقلانيون أن التقدم أمر حتمى وأن أعظم خطوة اتخذها الإنسان فى تاريخه هى تحرير عقله من الخرافات والخوف مما وراء الطبيعه ، ومن ثم فقد شعر هؤلاء المؤرخون بالرضا والفخار بعصرهم الذى فاق أى عصر سابق من عصور تاريخ البشر . فالعقل قادر على محو المفاسد المترسبة عن الماضى . على أن يقود البشر الى حياة أفضل . وإذا كان التقدم قد ظل بطيئاً نسبياً حتى القرن السادس عشر فأن معدل الاستفادة البشرية تزايد بسرعة بعد ذلك .

ثم أن العقلانين أضفوا على التاريخ السياسى أيضاً ثوباً جديداً وضاءً ، فلم يعد يقتصر على الدفاع عن التصرفات السياسية، ولكنه أصبح بحق تاريخاً سياسياً ناقداً . كذلك لم يعد يحتكر كتابه هذا النوع من التاريخ أفراد الطبقات الحاكمة أو ممن يحظون بعطفهم ، بل صار كتابة التاريخ فى ذلك الوقت فى أيدى الطبقة البروجوازية الجديدة أو الطبقة الثالثة التى لم يكن لها نفوذ كبير فى الحكومات الأوروبيه . وهكذا غدا التاريخ أداة للنقد السياسى وحافزاً على الإصلاح ولكنه لم يصبح أداة للثورة إلا فى القليل النادر . وكان هناك اعتقاد عام بأن من شارك بقدر أو بآخر فى الشئون العامة أقدر من غيره على معالجة التاريخ السياسى ، فإذا لم يكن المؤرخ من رجالات الدولة أو الدبلوماسيين فلا أقل من أن يكون ممن نطلق عليهم رجال الإعلام . .

وينبغى أن نذكر أن النقد البناء الذى جاء به العقلانيون انحصر أساساً فى نظرتهم العامة إلى مادة التاريخ دون أن يكون لمصادر المعلومات نصيب كبير من ذلك التقدم . أما عن دراسة المخطوطات والمصادر المطبوعة ونقدهم لها فإنهم لم يتخطوا ما وصلت إليه مدرسة مابيلون . وعموماً فإنهم استخدموا بشئ من القدرة والتمييز المصادر المطبوعة التى توفرت لديهم .

وكذلك عنى المؤرخون العقلانيون عناية كبرى بالناحية الأدبيه فى أعمالهم ، وهم فى هذا يشاركون مؤرخى المدرسة الإنسانية برغم ما بين المدرستين من خلاف واسع حول مدلول الفن الأدبى . فالمتعقلون لم يحاولوا الكتابة بأسلوب بلاغى لاتينى مصطنع ، محاكين شيشرون وليفى وتاكيتوس ، وإنما كتبوا بأسلوب مباشر واضح وبلغات بلادهم ، وفى هذا يقول الأستاذ بلاك :

« لم تكن المسألة مجرد إيجاد الكلمات المضبوطة أو وصل الجمل ببعضها بشكل يجعل الترابط بينها سهلاً ، بل لقد كان الهدف الدقيق بناء فقرات وفصول بأكملها بحيث يمكن

ضبط المعنى وبحيث يكون هناك ربط بين التفاصيل بطريقة فنية»[1]

وكان أبرز مظاهر الكتابة التاريخيه للمدرسة العقلانيه هو ما استهدفته من ربط الحقائق التاريخيه بالإطار الاجتماعي الفلسفي للمدرسة الإنسانيه وهو مايمكن أن نصفه اليوم بهذه الكلمات .

«مهما يكن من قصور عند مؤرخي القرن الثامن عشر فإنهم من غير شك قد توصلوا إلى حكم قوى واضح على الماضي ذلك أن القارئ لفولتير وهيوم يستطيع أن يفهم ماذا يريد كل منهما أن يقول دون لبس أو غموض . فوضعا حقائق التاريخ الهامة في إطار عريض وأوضحا انعكاسها على الإطار الأخلاقي العام وقيامها على أسس اعتبراها نهائية ، سواء كانا على صواب أو خطأ في ذلك . وعلى هذا فإن وأولئك الذين ينظرون إلى التاريخ بوصفه أكثر من مجرد سرد للحقائق والذين يعتقدون أن الحقيقه التاريخيه لا يمكن تذوقها أو تقديرها إلا إذا وضعت في إطارها الفلسفي ، هؤلاء و أولئك لن يملوا استحسان مؤرخي عصر التعقل الذين ضربوا على مر الزمن أروع الأمثلة التي تبين كيف يمكن ربط ثقافة البشر ربطاً بقيداً بالماضي الذي نظر إليه الكثيرون. وكأنه شيء لاحياة فيه ولا قيمة له[2] »

أما عن الفلسفة التاريخية الخاصة بالمدرسة العقلانية وهي تلك الفلسفة التي ارتبط بها كل كتاب تلك المدرسة والتي كانت إحدى دعائم كتاباتهم التاريخيه كما حددت كثيراً من أهدافهم ومنهجهم في كتابة التاريخ ، فإنها توضح لنا لماذا ركز كتاب المدرسة العقلانية كثيراً على فكرة أن التاريخ فلسفة تعلم عن طريق المثل **Philosophy teaching by example** ، وهي العبارة التي تنسب إلى بولنجبروك وهو أحد السياسيين من رجال المدرسة العقلانية . ذلك أن حماسة رجال هذه المدرسة للتاريخ نبعت أساساً من اهتمامهم بالفلسفه الطبيعية الجديدة ومن رغبتهم في حل التناقض الظاهر بين أفتراض وجود الشر في الكون وبين نظريتهم القائلة بطبيعة الإنسان الخيرة . وازاء صعوبة إثبات صحة عقيدتهم بالنسبة لقوانين الطبيعة وطبيعة الرب ، اضطروا إلى تحكيم العقل فلجئوا إلى فحص خبرات الإنسان في الماضي على سطح الأرض فحصاً شاملاً دقيقاً أو حاولوا أن يثبتوا أنه حتى إذا كان الشر موجوداً في الكون فإن الشر في الإنسان لا يوجد ألا إذا اعتنق الإنسان ديانة أو عقيدة خاطئة دون تعقل وكان أن ظهر لهذا الشر عند الإنسان في الماضي في تلك ، العصور التعسة ، عندما سيطرت عليه ناحية الديانة وخاصة المسيحيه وطمست طبيعته الخيرة . وعلى العكس فإن خبرة الإنسان في العصور السعيدة عندما لم تستطع الديانة ولا الكنيسة أن تسيطر عليه — توضح مايمكن أن

---

(1) J. B. Black. The Art of History (F. S. Crofts and conpany 1926) pp. 17-18.

(٢) المراجع السابق ص ٧ ..

يصل إليه الإنسان من مستوى عال وسلوك طيب فى ظل الظروف الطبيعية . وهكذا نتبين أن للتاريخ «فلسفة ذات مثل الأمر» الذى ساعد على إظهار الجانب الأخلاقى فى المذهب العقلانى . ويمكن وصف هذه المدرسة بأنها تناقض طريقة أورزيوس وأوغسطين .

ومن هنا ينبع اهتمام المؤرخين العقلانين البالغ « بالصينى السعيد » والهنود الامريكين وغيرهم ممن كانوا بعيدين عن قيود الكنيسة وسيطرتها ، فضلاً عن اهتمامهم الزائد بالإسلام والثقافة الإسلامية . وعلى الرغم مما تميزت به المدرسة العقلانية من موضوعيه فإن المغزى الأخلاقى من سردهم للتاريخ ظل ثابتاً لا يتغير سواء أكان الموضوع هو تاريخ إنجلترا أو انهيار الإمبراطورية الرومانية أو العصور الوسطى . لقد كانت استنتاجاتهم العامة موضوعة مقدماً قبل أن يبدأوا أبحاثهم . وكانت لديهم فكرتهم عن الإنسان قبل لجوئهم إلى التاريخ يستمدون منه المعلومات التى تساير أفكارهم وتؤيدها .

يعتبر فرانسوا آرويه François Arouet المعروف بفولتير (١٦٩٧ - ١٧٧٨) مؤسس المدرسة العقلانية فى علم التاريخ ، بوصفه العقل الكبير الموجه لها . والواقع أن أعماله جاءت محققة لبعض ماتطلع إليه منذ زمن فرانسيس باكون وفينلون ، وآخرون من ضرورة وجود كتب تعالج التاريخ الفكرى والثقافى والاجتماعى . أما العوامل الرئيسية الكائنة وراء فلسفة فولتير السياسية والتاريخية فهى إيمانه بالعلم والعقل وإعجابه الشديد بالحضارة الإنجليزية فى عصره وقدرته التى لا مثيل لها فى النقد . لقد رأى فى انجلترة على عهد والبول مثله الأعلى فى السياسة والدولة ، لأنه جعل من نفسه مدافعاً عن نظم الحكم المستنيرة التى تسمح للطبيعة البرجوازية بأن تتطور ثقافياً واقتصادياً تطوراً حرًّا . لذلك ارتبط حرصه على وجود حركة إصلاح فى فرنسا بالرغبة القوية فى أن تأخذ هذه الحركة بما هو موجود فعلاً فى إنجلترا . ويرى فولتير أن العقل يمكن المؤرخ من علاج الماضى علاجاً يتسم بالذكاء والقدرة على الاستفادة منه ، كما يمكن رجل السياسة فى الحاضر من العمل لخلق عالم أفضل أمام الإنسان . ولايوجد فى أى عصر من يدانى فولتير فى عظمته كناقد ، لأنه لم يُكِن فى نفسه أى احترام زائف لأى نظام . ومن ثم فقد كانت لديه الحرية التامة لأن يعبر عن تحديه لكل مظاهر الركود الفكرى .

وأول كتاب تاريخى هام لفولتير هو كتابه الذى كتبه سنة ١٧٣١ م عن حياة الملك شارل الثانى عشر ملك السويد . وعلى الرغم مما يفتقر إليه هذا العمل من تقدير لمنطق الأحداث والنظم الدستورية - وهى النواحى التى أسهمت فى هزيمة شارل أكثر مما أسهم به بطرس الكبير - على الرغم من هذا فإن الكتاب يعتبر تحفة أدبية رائعة ، ويعطينا وصفاً لا مثيل له لشخصية شارل . ويقول عنه الأستاذ بلاك :

« لا يوجد فى هذا الكتاب ما يمكن اعتباره مادة زائفة لا لزوم لها ، فضلاً عن أنه بعيد عن المغالاة فى الاستنتاجات ، والمبالغة فى المحسنات دون محاولة من الكاتب لإقحام آرائه . إن كل سطر فيه يتميز بالاختصار والدقة وسهولة الفهم ، الأمر الذى جعل شخص الملك شارل الثانى عشر يبرز من المتن وكأنه منقوش على لوح من الصلب. »[1]

(1) Black, op. cit pp. 63-64.

أما أروع أعمال فولتير التاريخية فهو كتابه الذى صدر سنة ١٧٥١ بعنوان عصر الملك لويس الرابع عشر ، ويصف فيوتر هذا الكتاب بأنه . «أول كتاب تاريخى بالمعنى الحديث» . فى هذا الكتاب نجد فولتير وقد تخلى تماماً عن طريقة الكتابة على منهج الحوليات ، أو حتى الالتزام بتتابع زمنى معين ، بل نظم كتابه تنظيماً موضوعياً . ولأول مرة نجد فى هذا الكتاب وصفاً لحضارة دولة أوربية عظمى من جميع جوانبها وعناصرها . لذلك يعتبر هذا الكتاب من وجهة النظر الناقدة من أعظم الأعمال . ويتضح منه أن فولتير قرأ كثيراً وبإمعان وذكاء قبل أن يشرع فى تأليف كتابه . كما أنه لم يترك مصدراً من مصادر ذلك العصر إلا ورجع إليه واستفاد منه .

ثم إن عرض فولتير لعصر لويس الرابع عشر لم يكن مجرد تجميع ماهر للحقائق والأحداث ، وإنما كان محاولة كبرى لعرض تيارات التطورات الرئيسية فى حياة دولة (فرنسا) لها جوانب قوتها ، فضلاً عن أنه دراسة لمجتمع مثقف مع ربط ذلك كله بالنواحى السياسية السائدة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الكتاب اتصف بما كان للمدرسة العقلانية من نظرة دولية ، فجاء بعيداً عن روح العصبية الوطنية وهى الروح التى شوهت أعمال المؤرخين السياسيين فى القرن التالى . كذلك أبرز فولتير محاسن ومساوئ لويس وعصره بقدر متعادل من الوضوح والصراحة . فنراه يدين بشدة حروبه وتعصبه الدينى الممقوت ، كما نراه يثنى على النشاط الثقافى فى فرنسا . والحق أن كتابه هذا يعتبر تحفة أدبية رائعة ، وإن كان أهم ما يؤخذ عليه هو أن فولتير لم ينجح فى ربط عصر لويس بالتطور العام للحضارة الأوربية ، ولم يحاول أن يضع هذا العصر داخل الإطار العام لتطور الثقافة الحديثة ككل .

أما كتابه «مقاله فى سلوك الأمم وروحها» (١٧٥٦) ، فهو وإن كان أقل شمولاً من الكتاب السابق ، إلا أنه لا يقل عنه أهمية . ذلك أنه يعتبره أول تاريخ عالمى بالمعنى الحقيقى للعبارة ، ووضعت خطته على أساس أن يكون تاريخاً شاملاً لثقافة كل العصور وكل الشعوب . وعلى الرغم من أن فولتير لم يكن لديه من الوقت والمعرفة ما يؤهله لتنفيذ هذه الخطة بنجاح ، وعلى الرغم مما بهذا الكتاب من عيوب وثغرات خطيرة ، إلا أنه يعتبر من أهم العلامات على طريق تطور الكتابة التاريخية . ذلك أن هذا الكتاب يعتبر فعلاً أساس تاريخ الحضارة بمعناه الحديث ، فضلاً عن أنه أول عمل ينصف غير المسيحيين وخاصة الشرقيين والمسلمين ، ويقر بدورهم الذى أسهموا به فى تطور الحضارة الأوربية . هذا إلى أنه من أوائل الكتب التى أوضحت علاقة التاريخ السياسى بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى إطار التطور العام للبشرية . وأخيراً فإن هذا الكتاب قضى نهائيا على فكرة تفسير أحداث التاريخ فى ضوء التدابير الإلهية وهى الفكرة التى سادت منذ عهد أورزيوس حتى بوسويه .

وثمة ميزة أخرى اتسمت بها أعمال فولتير وهى عدم تقيده بتلك الدائرة الضيقة التى

التزم بها المؤرخون والتى جعلتهم ينظرون إلى الأحداث من وجهة نظر أوربية بحتة . ذلك أنه لم يكتف بمعالجة الحضارات القديمة وأنما تناول كذلك الشعوب البدائية التى اكتشفت مؤخرا ، كما أنه ساعد على تحطيم الاتجاه الذى ساد على أيدى رجال المدرسة الإنسانية لتقديس كل ما هو كلاسيكى . كذلك لم يحفل بالمصلحين البروتستانت لأن اعتقادهم فى قوى الغيب وتعصبهم الدينى جعله ينفر منهم . ولكن عصر التعقل هو الوحيد الذى حظى باحترامه وتقديره وان كان لم يصل للحديث عنها فى المقالة السابقة لأنه أنهاها بحكم لويس الثالث عشر . وينظر فولتير إلى التاريخ على أنه فى أساسه نتاج احتكاك الأفكار والحضارات . فالمسيحية جاءت لتتحدى الوثنية ، والإسلام دخل فى صراع مع المسيحية ، والمذهب البروتستانتى ظهر ليتحدى الكاثوليكية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى . أما عصر فولتير نفسه فقد تغلب فيه العقل على كل الخرافات وشتى البدع . ولعل العيب الأكبر فى كتابه «المقالة» هو عدم اكتماله وافتقاره إلى الوحدة . كذلك فإنه لم يربط حديثه عن الثقافة البدائية وثقافة الشرق القديم ببقية حديثه عن الثقافات فجاء الحديث عنهما بالخروج عن الموضوع الأصلى فى بداية الكتاب . هذا إلى أن فولتير مر سريعاً على العصور الموغلة فى القدم ، ولم تأخذ روايته وضعها الصحيح إلا منذ عهد شارلمان . أما علاجه لفترة العصور الوسطى فجاء غير متناسق تنقصه الوحدة .

وكان أبرز تلاميذ فولتير من الفرنسيين هو الفيلسوف ايتين دى كونديلاك (١٧١٥ - ١٧٨٠) الذى نشر كتابين هما «التاريخ القديم» و «التاريخ الحديث» . وفى هذين الكتابين نجد قدراً من المادة فى مجال الفكر والثقافة والاجتماع وأكثر مما جاء به فولتير . ذلك أن ايتين تناول العصر العقلانى تناولا شاملا ، وصاغ بوضوح ودقة آراء العقلانين حول المسببات التاريخية ، فضلاً عن أنه ركز كثيراً على الفنون والعلوم ، بل لقد تناول بالتفصيل فى كتاب خاص تأثير التجارة على السياسة والحكومة .

ولم تلبث طريقة فولتير فى معالجة التاريخ أن صار لها صدى هام فى انجلتره واسكتلنده على أننا نلاحظ فرقاً واضحاً وهاماً ، بين فولتير والمؤرخين الإنجليز ، وهو أن أولئك المؤرخين لم تكن لديهم دوافع قوية للإصلاح وكانوا قانعين تماماً بالأحوال التى سادت ذلك العصر ، ومؤمنين بأن النظم الإنجليزية تتميز بالكمال والتمام ، وهو الأمر الذى ظهر جلياً فى مؤلفات بلاكستون عن القانون ، وهى المؤلفات التى أثارت غضب بنتام فيما بعد . وربما نجد تفسيراً جزئياً لهذه الظاهرة فى الحقيقة الخاصة بأن الثورة البرجوازية فى إنجلترا جاءت متأخرة إلى حد ما لأنها لم تتم إلا فى القرن السابع عشر . أما فى فرنسا فإن الثورة كانت أمراً محتما بحكم رضوخها تحت حكم ملكى مستبد ونظام إقطاعى متداعى ، ومن ثم كان اهتمام المفكرين والمؤرخين الفرنسيين بالإصلاح كبيراً وعميقاً ، فضلاً عن أن إبتعادهم عن السياسة جعلهم يركزون على مسائل الفكر حتى يصلوا إلى حرية الرأى .

وخير مثال يعبر عن اتجاهات الكتابة التاريخية فى انجلتره فى ذلك العصر هو إدوارد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦ م) مؤلف كتاب «تاريخ إنجلترا من غزو يوليوس قيصر حتى ثورة ١٦٩٨» . ولم يكن هيوم أحد أولئك المؤرخين الذين قلدوا فولتير لأنه فرغ من كتاباته التاريخية قبل أن يكتب فولتير كتابه «عصر لويس الرابع عشر» وكتابه «المقالة» ولكن الحقيقة هى أن كليهما كان متأثراً إلى حد بعيد بذلك الحشد الهائل من الأفكار التى سادت عصر الاستنارة . كما لاحظ أحد النقاد فإن هيوم كتب مؤلفاته فى التاريخ كما يتلو السحرة تعاويذهم ، بمعنى أنه ابتدأ من عصره ثم جعل يعود إلى الوراء . فمثلاً ظهرت المجلدات الخاصة بتاريخ ملوك أسره استيوارت (١٦٠٣ - ١٦٨٨) فى سنة ١٧٥٠ ونظراً لما أثارته هذه المجلدات من عاصفة فقد كتب بدافع عنها سنة ١٧٥٩ فجاءت كتاباته عن أسره تيودور بعد ذلك . وحتى يكمل الصورة ويستمر فى جذب أنتباه القراء كتب عن الجزء المبكر من تاريخ انجلترا من عهد قيصر حتى عهد الملك هنرى السابع (١٧٦٢) . ومهما يكن من أمر فان ما كتبه هيوم يعتبر فى مجموعه أول تاريخ «قومى» كامل لانجلترا . وكان لهذه الحقيقة ، بالإضافة إلى أسلوبه المشوق ومذهبه العقلانى المشهور أثر فى رواج كتابه بصورة لا مثيل لها مما جعل له تأثيراً ثقافيًّا هائلاً

ولم يقم هيوم بجمع مادته بنفس الطريقة الشاملة الحاشدة للمعلومات التى استخدمها فولتير فى كتابه المقالة أو بشكل أوضح فى كتابه عصر لويس الرابع عشر وإنما كل الذى فعله هيوم هو أنه قرأ جيداً أعمال المؤرخين السابقين . وكان متأثراً بصفة خاصة ولسوء الحظ بما كتبه كلارندون عن تاريخ الحرب الأهلية الكبرى . لذلك نلمس من الناحية الأكاديمية تقصيراً بالغاً فى أعمال هيوم كما نلحظ كذلك اخفاقة فى تقديم سرد منظم للقارئ ، حتى إن كتاباته تبدو فى بعض الأحيان وكأنها مذكرات غير منظمة . وظهر ذلك بصفة خاصة فى الأجزاء التى تناول فيها الأفكار والعادات والسلوك ، وهى الأجزاء التى كان ينبغى أن تظهر فيها براعته وقوته . وعلى العموم فإنه يمكن القول بأن قدرة هيوم الذهنية فاقت بدرجة كبيرة قدرته على الإنتاج كمؤرخ محترف ، بحيث امتلأت كتبه بالمسائل الفلسفية والملحوظات القوية وروح التشكك أكثر مما امتلأت بحقائق التاريخ ولعل هذا هو الذى أعطى هذه الكتب قيمة دائمة . أما إذا نظرنا إليها من زاوية التاريخ فإننا نجدها عرضاً فقيراً للتاريخ الإنجليزى . ولم تكتسب هذه الكتابات صفة الخلود إلا نتيجة لقدرة هيوم الذهنية وهى القدرة التى جعلت المادة التاريخية طيعة بين يديه يصوغها كيف شاء .

لقد اعتبر هيوم التاريخ سجلاً لأفكار البشر من الناحيتين الثقافية والأخلاقية ، ولكنه آثر فى نفس الوقت أن يكتب تاريخاً سياسيًّا . ولذلك سارت كتاباته على نمط ثابت يستهدف إبراز الحقيقة الخاصة بأن الأفكار والأخلاق والدين هى التى تشكل السياسة . فهو يحكم على السياسة من وجهة نظر العلم والفلسفة والدين والأخلاق . ولم تكن لديه رغبة فى تهيئة الناس

للثورة إذ استهدف من كتاباته أن تكون ممتعة وذات قيمة ثقافية لاغير ، أو باختصار أراد أن يرفع مستوى السفسطة المهذبة ، لقد كان عداؤه للخرافات وتزمت المسيحية مبعث احتقاره للعصور الوسطى التى اعتبرها ألف سنة من الفراغ الثقافى أو منخفض هائل فى الخط البيانى للتقدم البشرى . وأثر هذا الاتجاه على نظرة هيوم إلى حركة الإصلاح الدينى والصراع الإنجليزى الدستورى فى القرن السابع عشر . ودفع هيوم لاتخاذ موقف معاد من حركة الإصلاح الديني ومن الصراع البيورتانى ضد الملكية الإنجليزية نتيجة لتعصب المصلحين البروتستانت والأفكار الأخلاقية البيورتانية التى تنم عن ضيق الأفق . ولهذا اتهم بأنه من أنصار المحافظين فى السياسة والتاريخ ، وهو أمر يخالف الحقيقة . حقيقة أن هيوم وقف موقفاً معارضاً من حزب الأحرار ، ولكن ذلك مبعثه كان تحرره الأخلاقى والديني ورفضه لفكرة الثورة . وعلى الرغم مما تعرض له تاريخ هيوم للقرن السابع عشر من نقد مرير فإنه ليس هناك عمل آخر وصل إلى ما وصل إليه عمله ، وذلك بسبب نظرته للحركة نظرة لا تتغلب عليها نظرة تاريخية متحيزة . وعلى حد قول الأستاذ بيردون عنه :

«لقد حاول هيوم فى كتبه عن اسرة استيوارت أن يعالج صراعات القرن السابع عشر بروح محايدة مع العناية بدرجة كافية بالاطار الذى تمثلت فيه مطالب الملك والبرلمان وادعاءات كل فريق . واعتقد هيوم أن كثيراً مما بدا للملك من أسره استيوارت أنه قانونى ودستورى اعتبر هجوماً على الحريات العامة فى القرن التالى . وأكد كذلك أن الدستور لم يكن واضح الخطوط حتى سنة ١٦٨٨ . وبهذا أضفى هيوم شيئا من الواقعية على روح الحزبية التى كانت تسود جو المناقشات فى القرن السابع عشر .»[1]

يضاف إلى ذلك أن نظرة هيوم إلى الدين ساعدت على توضيح الحقائق التاريخية لأن هذه النظرة صححت ما سبق ظهوره من تاريخ متحيز متعصب للكنيسة الإنجليزية ، وما كتبه المتزمتون من الكاثوليك والبروتستانت عن التطور الدينى فى إنجلترا . وأخيراً فإن ما نختم به حديثنا عن هيوم هو ما كتبه الأستاذ بلاك ملخصاً أهمية أعمال هيوم وقيمتها الدائمة :

«إننا نقرأ هذه الأعمال اليوم بنفس الاهتمام واللذة اللذين قرأت بهما عندما ظهرت فى عصر هيوم . وهناك كثير من الدارسين ، داخل أو خارج نطاق محترفى دراسة التاريخ وكتابته يرون فى أعماله غذاء ومتعة . وإن سلاسة الأسلوب الذى كتبت به هذه المجلدات وقوته ووضوحه ، فضلاً عما تحويه من عمق وحكمة وخبرات مركزة جعلت منها ما كان يرجوه لها هيوم وهى أن تكون كتابات مشوقة تزود القارئ بالعلم والثقافة لأقصى درجة»[2]

---

(1) T.P. Peardon, The Transition in English Historical Writing 176 - 1830 (Columbia University press 1933). p. 20.

(2) black Op. cit. p. 116.

أما المؤرخ الأسكتلندى وليم روبرتسون (١٧٢١ - ١٧٩٣ م) فقد فاق هيوم مقدرته الفنية حتى إنه يعتبر أقدر المؤرخين فنيًا فى المدرسة العقلانية الإنجليزية بحيث لايدانية فى قدرته سوى جيبون . والواقع أن روبرت اتصف بكافة المواهب التى يمكن أن يتحلى بها عالم ، فعمل فى جد ودأب ليتمكن من مادته واستخدم مصادره استخدام المتمكن ، كما تميز بتبجيله للحق . ويشهد له الأستاذ بلاك فيقول « تميزت كتابات روبرتسون التاريخية بالدقة والصدق »

ثم إن روبرتسون كتب بطريقة واضحة ومؤثرة متحررة من التصنع البلاغى ، واتخذ من سويفت وديفو Defoe نموذجين يحتذيهما فى الأسلوب الأدبى . ويكفى أن نشير إلى أن إعجاب جيبون باسلوب روبرتسون كان أحد الأسباب التى دعته إلى وضع مؤلفة التاريخ العظيم . كذلك كان روبرتسون يؤمن بأن التاريخ يعالج المسائل العظيمة ويسرد أعمال الشخصيات الكبرى فضلاً عن الشخصيات العادية التى لها مكانتها الهامة وهذا ما جعل من الصعب عليه أن يعطى اهتماماً كافياً للتاريخ الثقافى والاقتصادى والاجتماعى ، حيث إن جانباً كبيراً من هذه النواحى تتناول أموراً عادية وعامة سواء من ناحية الأحداث أو من ناحية الأشخاص . ومن ثم فإننا نجد أن التاريخ السياسى لا يمكن أن يكون غير دراسة سطحية للجوانب السياسية والعسكرية .[1] ومع ذلك فإن روبرتسون لم يغفل وجود العناصر الثقافية والاقتصادية والاجتماعية فى التاريخ ، فيشير إليها كثيراً وإن لم تكن المادة الأساسية لأعماله . ويلاحظ أن روبرتسون كان من أقل مؤرخى المدرسة العقلانية فى إنجلترا أقلهم تمسكاً بأصول هذا المذهب ، لأنه أمضى شطراً من حياته قسيساً بروتستانتيا وكان يعتقد أن حركة الإصلاح الدينى هى أصلا من تدبير العناية الإلهية . وعلى الرغم من أنه لم يكن بروتستانتيا متعصباً فإن استحسانة للمدرسة العقلانية ظهر بصفة رئيسية فى تناوله لتاريخ الكنيسة الكاثوليكية .

وأعمال روبرتسون الرئيسية هى «تاريخ اسكتلندا (١٧٥٩)» و «تاريخ عهد الإمبراطور شارل الخامس» (١٧٦٩) «وتاريخ أمريكا (١٧٧٧ - ١٧٩٤)» ، «دراسة تاريخية عن الهند فى العصور القديمة» . (١٧٩١) . ويجمع معظم النقاد على أن كتابه عن تاريخ الإمبراطور شارل الخامس هو أحسن ما أنتجه روبرتسون . ولكن الأستاذ بلاك وهو أكبر حجة بين النقاد الإنجليز عن روبرتسون يميل إلى تفضيل كتاب «تاريخ أمريكا» . على أن كتاب «تاريخ اسكتلندا» باعتباره كتاباً تاريخياً كاملاً ومتكاملاً - لابد أن يأتى على رأس القائمة مثلما يحتل كتاب فولتير «عصر لويس الرابع عشر» الصدارة بين مؤلفاته وخاصة «المقالة» بوصفه كتاباً متكاملاً يتسم بالوحدة والترابط . ذلك أن روبرتسون فاق مؤرخى عصره عندما عالج تاريخ اسكتلندا ، إذ اطلع على معظم المصادر المتوفره واستقى منها مارآه مناسباً وعالج مادته بطريقة معقولة تتسم بعدم التحيز . ثم استطاع أن ينسج كل شئ فى أسلوب مبسط شيق رفيع ، مما جعل الهوة سحيقة بين أعماله وأعمال بوشنان Buchanan

---

(١) بالنسبة للدفاع المعاصر عن هذا الاتجاه بالنسبة للتاريخ انظر
W.C. Abbott: Adventures in Reputation (Harvard University press 1936

أما عظمة كتابه «شارل الخامس» فترجع بدرجة كبيرة إلى تحليل روبرتسون الفلسفى للعصور الوسطى ، وهى الدراسة التى ظهرت فى صورة جزء مستقل لتكون بمثابة مقدمة لدراساته التى بدأت « القرن السادس عشر . وقد سميت هذه الدراسة «نظرة على حالة المجتمع فى العصور الوسطى» . وتفوق هذه الدراسة فى مستواها العلمى وفى حجمها الأجزاء التى كتبها فولتير عن العصور الوسطى فى كتابه «المقالة» . والواقع أنه ليس هناك ما يفوق نظرة روبرتسون وشرحه للعصور الوسطى بين كل كتابات القرن الثامن عشر سوى أعمال جيبون . والحق أن روبرتسون كان قاسياً إلى حدما فى نظرته إلى العصور الثقافى فى العصور الوسطى على الرغم من أنه لم يتطرف فى الحكم عليها كما فعل هيوم . كذلك لم يتطرف فى عدائه ضد الكاثوليكية مثلما فعل فولتير . هذا إلى أنه من أوائل المؤرخين الذين أوضحوا طبيعة التطور السياسى وتطور النظم فى العصور الوسطى فأبرز دور العوامل الاقتصادية والثقافية التى أسهمت فى تقدم تلك العصور ومن بين هذه العوامل الحروب الصليبية والتطور التشريعى ونمو المدن والنشاط التجارى وما شابه . ذلك كذلك يلاحظ أن روبرتسون كان مبالغاً بعض الشئ فى تصوره لأثر الحروب الصليبية وأنه أحيا أسطورة العام الألف والتى ابتدعها رالف الأصلع وانتقلت عنه عبر حوليات بارونيوس . وإذا كان كتاب روبرتسون عن «شارل الخامس» كتاباً طويلاً ويبعث على السأم إلى حد ما — فإن أهم ما فيه هو ذلك الاهتمام الذى أبداه الكاتب بالأسباب «الثانوية» لحركة الإصلاح الدينى ، وهى على وجه التحديد : فساد الكنيسة ، وزيادة الضرائب البابوية زيادة كبيرة ، وإحياء العلوم ، واختراع الطباعة وما إلى ذلك . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يعط اهتماماً كافياً لعنصر القومية فضلاً عن عناصر أخرى مثل نشاط التجارة وظهور الطبقة الوسطى ، فإنه أحسن الكتب التى عالجت حركة الإصلاح الدينى والتى ظهرت ما بين قيام هذه الحركة وعصر روبرتسون . ومما لا شك فيه أن روبرتسون كان من أتباع مارتن لوثر ذوى النفوذ والمكانة وأنه كان يشايع سائر المصلحين الدينيين

أما كتاب روبرتسون «تاريخ أمريكا» ، فإنه يعتبر بحق أكثر أعماله دقة وابتكاراً ويفوق غيره من ناحية المعالجة المثيرة والمعبرة عن الموضوع . وكانت طبيعة المادة التى تناولها تدفع به إلى عدم التقيد بمستوى الكتابة التاريخية التقليدية والاهتمامات التاريخية المألوفة . فاتجه إلى الإفاضة فى الحديث عن السلوك والعادات والأصول الجغرافية للثقافة الأمريكية فى مراحلها الأولى فضلاً عن مغامرات المكتشفين والفاتحين . ومع ما هنالك من ضعف ملحوظ فى مناقشات الكتاب لموضوع السكان الأصليين . فإنه يعطينا عرضاً رائعاً لحياة ومغامرات المكتشفين والفاتحين . والواقع أنه أحسن كتاب ظهر فى ذلك العصر وعالج طبيعة النظام الاستعمارى الأسبانى وتطوره وكان روبرتسون أول من أثار فكرة أن الهنود الأمريكيين نزحوا إلى أمريكا عن طريق مضايق بيرنج وألاسكا ، وهى الفكرة التى أصبحت تمثل الرأى المقبول فى هذه

القضية . والملاحظ أن روبرتسون وضع كتابه « دراسة عن الهند » فى شئ من العجلة ، ومع ذلك فهو عمل له أهمية لما يلقيه من ضوء على أهمية ومدى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فى الأزمنة القديمة والعصور الوسطى .

أما أبرز الكتاب بين مؤرخى المدرسة العقلانية فهو المؤرخ والكاتب إدوارد جيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤ م) . ومع أن جيبون كان أقل ابتكاراً وتأثيراً من فولتير على مجرى الكتابة التاريخية فى العصور التالية ، كما أنه لم يكن على مستوى روبرتسون فى علمه ، إلا أن شهرته بين جماهير المثقفين – غير المؤرخين المحترفين – فاقت شهرة كل من فولتير وروبرتسون . ويرجع ذلك إلى عدة ظروف أولها : أن موضوع بحثه الخاص ؛ بانهيار الحضارة الرومانية والأنظمة الإمبرياليه كان مقصوداً به أن يأخذ بألباب الجماهير ، ولهذا فإن كتابته عن هذا الموضوع أخذت شكل الملاحم . ثم إن جيبون نظم عمله بطريقة فذة ، وكان أسلوبه رفيعاً ومؤثراً يدخل البهجة على نفس قارئه ، فضلاً عن أن عمله تميز بدقة متناهية وهو أمر مدهش بالنسبة لعصر جيبون . ولقد ظل كتابه مرجعا يهتدى به ومصدراً لا يرقى إليه الشك طوال قرن ونصف . وعلى هذا فإن كتاب « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » لم يكن كتاباً ناجحاً مشهوراً فحسب بل وعملاً خالداً .

وعلى عكس كثير من أعلام مؤرخى المدرسة العقلانية ، كرس جيبون حياته بصفة رئيسية لدراسة التاريخ وكتابته . فعلى حين كان فولتير أديباً ومصلحاً وزعيماً شعبياً ، وكان هيوم فلسفياً كما كان روبرتسون رجل دين ومدير جامعة ، إذا بجيبون يعد نفسه منذ البداية لمهنة المؤرخ . ولهذا قرأ كثيراً عن التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى وإن اعتمد أساساً على المصادر المطبوعة ، كما أن اهتمامه بالبحث فى المخطوطات كان ضئيلاً . ثم إن جيبون كان يعتبر المؤرخ مهندساً عظيماً يقوم بمشروع أدبى علمى ، ولم ينظر إليه أبداً كمجرد ناسخ للوثائق أو كاتب أبحاث ، وهو ما آل إليه أمر المؤرخ فى أيامنا هذه . وبينما هو يعتقد فى سمو المؤرخ الحقيقى على غيره من الكتاب الذين اهتموا بجمع المادة عن موضوع بعين ، فإن جيبون لم يدرك تماماً أن الكتب التاريخية فى شكلها الحديث لم تكن لتوجد لولا ماقام به هؤلاء الذين جمعوا الحقائق فى الماضى .

وقد تبحر جيبون فى تاريخ روما القديم ، وكانت خطته الأصيلة هى أن يكتب تاريخاً لروما حتى عهد أوغسطس . ولكنه قرر فى سنة ١٥٦٤ م أن يتناول تاريخ روما منذ عهد أوغسطس حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية ١٤٥٣ م . وكانت النتيجة مؤلفه الرفيع المعظم الذى أسماه « تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦ – ١٧٨٨) . وجاء كتابه مليئاً بالتفاصيل عن الفترة من سنة ١٨٠ م إلى ٦٤١ م ، ثم قدم بعد ذلك عرضاً مختصراً عن التطورات منذ سنة ٦٤١ م حتى سنة ١٤٥٣ م . أما ماتلا ذلك من

أحداث فقد عرضه جيبون عرضاً سريعاً فثلاً أعطانا ملخصاً سريعاً لنتائج حركة الإصلاح الديني وتأثيرها على الثقافة والنظم .

كانت الروح الفلسفية أقل ظهوراً في كتاب جيبون مما كانت في كتب غيره من مؤرخي المدرسة العقلانية أما كتابته فكانت أقرب إلى الملاحم الأدبية ، لأنه اهتم بالأسلوب والشكل أكثر من اهتمامه بالمغزى الفلسفي العملي . وتركت الصورة العامة لكتابه أثراً بالغ العمق في عقول الناس ، حتى وصفه كثيرون من رجال الأدب والبيان أوصافاً مختلفة عند رجوعهم إليه ، فوصفوه بأنه « انتصار لروما » و « ختام رائع لتاريخ الإمبراطورية » و « أشبه بكاتدرائية قوطية عظيمة » أو « أشبه بقاعة استقبال فاخرة في قصر لويس الرابع عشر » أو بأنه « قمة جبل شامخ يختلف منظرها باختلاف الضوء والظل » ، و « صخرة عظيمة تتحطم عليها أمواج الزمن » وغير ذلك من الأوصاف . أما أسلوب جيبون فنال كل إعجاب واستحسان فكتب فردريك هاريسون عنه فيقول :

« تربع جيبون فوق قمة الفن الأولى ، إذ كانت له القدرة على أن يجعل جبالاً من البحث الدقيق إلى كتلة متماسكة تنبض بالحياة في كل جزء من أجزائها . إنه لكتاب رائع إذا ما نظرنا إليه ككل » ولعل أحسن تلخيص لمواهب جيبون الأدبية التي تشكل ركناً هاماً بارزاً في كل أعمال ما كتبه الأستاذ بلاك : « إن سمو الأسلوب وعظمته وجاذبيته تمشى تماما مع عظمة الموضوع وسموه ... فجيبون لايأتي بالحقيقة عارية بطريقه يسهل فهمها على النحو الذى تتراءى له ، وإنما لابد وأن تدخل في سلسلة من تفاعلات غامضة ومعقدة تخرج بعدها في صورة يشهد لها الجميع بأنها مصقولة منمقة وسمة ذات زخرف بديع . ومن يقرأ كتاب « اضمحلال الإمبراطورية وسقوطها » كما أراده صاحبه أن يقرأ – أى بإمعان وتأمل وتقدير ومراعاة لذكاء المؤلف الفذ – فإنه لن يجد في العالم كله وثيقة أكثر منه روعة وأخذاً بالألباب . حقيقة إنه كتاب مطول يفيض بالحصانة والمعرفة التي قد يتحير القارئ في فهمها ويقف عاجزاً أمامها ولكن خفته وحيويته لاتبارى . إن جاذبية أسلوبه قادرة على استيعاب أى شئ في حديثه عن الحروب الفارسية والبيزنطية التي لانهاية لها إلى الخلافات الدينية داخل الكنيسة في أيامها الأولى إلى إصلاحات جتينان الدينية »[1] .

ويبدو أن جيبون تأثر كثيراً بمؤرخي روما العظام . فمن المؤرخ الروماني الأشهر ليفي أخذ جيبون فكرة السرد الملحمي الفصيح ، ومن تاكيتوس أخذ النظرة الفلسفية العملية إلى مادة التاريخ ، ومن بوليبيوس أخذ مراعاته الدقة والتزامه لها وتقديسه إياها ، فضلاً عن الوعي التام للأمور العامة . ومن ناحية أخرى نراه متأثراً بآراء هؤلاء المؤرخين عن المادة التاريخية . فهو يرى

---

(1) Black op. cit, 144, 175.

أن الحروب وإدارة الشئون العامة ينبغى أن تكون الموضوع الرئيسى للتاريخ ، وعلى الرغم من أننا نجد فى كتابه بعضاً من التاريخ الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، إلا أن ذلك كان أمراً عارضاً تماماً . هذا إلى أن أسلوبه الرفيع لم يكن يتناسب مع معالجة هذا النوع من الكتابة التاريخية .

وعلى الرغم من أن جيبون كرس جهده بإخلاص لروما وتاريخها واعتبر سقوطها كارثة عالمية وعالج تاريخ روما علاجاً مطولاً ، إلا أنه لم يأت بتحليل علمى منظم . حقيقة إنه ذكر معظم الأسباب التى أدت إلى سقوط روما التى أقرها اليوم المتخصصون فى التاريخ ، لكنه لم يحسن صياغة هذه الأسباب ولم يؤلف بينها فى نظرية واحدة تفسر سقوط الإمبراطورية الرومانية . وأكثر تفسيراته الجامعة والتى استقاها من مونتسكيه هى أن الإمبراطورية الرومانية أصبحت شاسعة جدًّا ولكنه لم يوضح أن هذا الاتساع كان مميتاً لها لسبب رئيسى وهو افتقار الإمبراطورية للأساليب الحديثة فى الصناعة وإلى طرق النقل والاتصال المعاصرة ربما كان لجيبون العذر ، كان يكتب فى وقت لايسمح له بالإحساس بأهمية هذا العامل .

ومن أبرز عناصر التجديد التى أدخلها جيبون على كتابة التاريخ علاجه لأصول المسيحية . وهو أمر كان مهيئاً له تماماً بحكم دراسته وخبراته الشخصية . ذلك أن جيبون كان على التعاقب بروتستانتيًّا ثم كاثوليكيًّا ثم ربوبيًّا آمن بوجود الله عن طريق العقل وحده . وقد ألف كتابه العظيم وهو فى هذه الحالة الأخيرة . لكن اعتراضه على المسيحية لم يكن بتلك الدرجة الكبيرة التى صورها بيورى وآخرون من ناقدى جيبون . والواقع أن جيبون شارك هيوم رأيه فى أنه ينبغى النظر إلى الدين كما ننظر إلى أى نظام اجتماعى آخر - أى بطريقة طبيعية . ولذا فإنه عالج نشأة المسيحية لأول مرة بطريقة موضوعية بحتة وعلل نموها وتطورها بنفس الطريقة التى كان يستخدمها لو أنه تعرض لتطور أى ديانة أخرى أو أى نظام علمانى . وخلاصة القول إنه عالج المشكلة من الناحية التاريخية لا من الناحية الدينية وأنكر وجود شىء خارق فيها أو أى تأييد من قوى ماوراء الطبيعة . وكان جيبون عنيفاً فى نقده للآثار التاريخية الخاصة بالمسيحية فاعتبر أن الإمبراطورية الرومانية أعظم ما أنتجه الجنس البشرى وأن المسيحية قد لعبت دوراً هاماً فى اضعافها وتقويضها ، ومن ثم فإنه ناصبها العداء . ومع ذلك فإنه أشاد بقوة هذه العقيدة وتماسكها وخاصة بعد الوهن الذى أصاب الدولة . كذلك لم يغفل جيبون الخدمات الثقافية التى أدتها الكنيسة خلال العصور الوسطى. وذلك على الرغم من انتمائه إلى المدرسة العقلانية التى لاتنظر باحترام كبير إلى عصور الإيمان. هذا كله بالإضافة إلى أن جيبون كان واحداً من أوائل الكتاب فى العالم المسيحى الذين تناولوا بطريقة عادلة موضوع نشأة الإسلام وفضل المسلمين على الحضارة . وبغض النظر عن الأخطاء التى وقع فيها جيبون عند تفسيره للتاريخ البيزنطى ، فإن معالجته لهذا الموضوع أمر جديد لأن معظم مؤرخى العصور الوسطى فى الغرب لم يحفلوا به .

ولعله مما يخلد اسم جيبون ويوضح مكانته العلمية ويؤكد عظمة إنتاجه أن كتابه وقد مضى على كتابته أكثر من قرن ونصف لايزال يعتبر من أحسن وأمتع ما كتب عن الإمبراطورية الرومانية .

وهناك أعمال عديدة أخرى أقل شأناً مما سبق ذكره يتضح منها أثر المدرسة العقلانية على الكتابة التاريخية فى إنجلترا . من ذلك كتاب ريتشارد هنرى (١٧١٨ – ١٧٩٠ م) «تاريخ انجلترا» وقد رسمت خطته على أساس صورة فى عشرة مجلدات وقصد به أن يكون مجلداً لتاريخ الحضارة مع العناية بالتاريخ الثقافى والاجتماعى والاقتصادى . وتمكن صاحبه من أن ينفذ خطته فجاء كتابه بعيداً تماماً عن التاريخ السياسى المألوف . ولكن يعاب عليه أنه جاء سرداً حرفيًا مما جعله يبدو وكأنه دائرة معارف وليس كتاباً فى التاريخ . وترتب على ذلك أفتقار الكتاب إلى عنصر التشويق شأنه شأن سائر الكتب الجامعة المحشوة بالمادة . وعلى الرغم من أن هنرى كان من العقلانيين المتشككين فى المسيحية فإنه أظهر سذاجة كبيرة عند تعرضه للأساطير والقصص الوثنية والدينيه المتواترة . وتوقف بكتابه عند أحداث سنة ١٥٤٧ وبعدها قام جيمس بتيت اندروس بتكملته حتى سنة ١٦٠٣ م .

كذلك أصدر وليم راسل كتاباً من أجل الشباب عن تاريخ أوربا من وجهة نظر العقلانيين تحت عنوان «تاريخ أوربا الحديث من سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى ١٧٦٣» وقد ظهر فيما بين سنة ١٧٧٩ م ، ١٧٨٤ م . وجاء هذا الكتاب فى صورة رسائل من أحد النبلاء إلى ابنه ، ويتضمن كثيراً عن التاريخ الثقافى والاجتماعى ولكن ليس بالقدر الذى وعد به الكاتب . ومع ذلك فإن شهرته ككاتب تناول موضوعاً معيناً ظلت قائمة فترة تزيد عن نصف قرن .

ويماثل كتاب راسل روحاً وشهرة كتاب «عناصر التاريخ العام» الذى ألفه الكسندر فريزر تيتلر وصدر سنة ١٨٠١ . واختلف الكسندر عن راسل فى أنه تناول فى كتيبه تاريخ العالم وبذل محاولة لم تنجح كثيراً فى تفسير التاريخ السياسى فى ضوء العوامل غير السياسية . وثمة محاولة مثيرة استهدفت التوفيق بين الفلسفة العقلانية وتلك الفلسفة القائمة على اساس تفسير التاريخ تفسيراً دينياً تمت فى كتاب «محاضرة فى التاريخ» الذى ألفه العالم والفيلسوف الموحد يوسف بريستلى (١٧٧٣ – ١٨٠٤ م) . أما عن آدم فيرجسون فستناول أعماله بعد قليل .

ومن بين الأعمال العظيمة الأخرى كتاب وليم جودوين (١٧٥٦ – ١٨٣٦ م) وهو من رجال المدرسة العقلانية المبرزين وقد صدر كتابه فى أربعة أجزاء تحت عنوان «تاريخ الكومنولث الإنجليزى» وعالج فيه الحرب الأهلية الكبرى فى إنجلترا . وتميزبالصراحةفى التعبير عن أحكامه وهى أحكام امتازت بالحيدة وبأنها غير مستقاه من أحد بحيث إنه وجه نقده لكلا الجانبين اللذين اشتركا فى الحرب الأهلية . ومع إحساسه بأن شارل الأول كان أحد كبار

المذنبين المجرمين فى هذا العالم ، إلا أنه اعتقد أن إعدامه كان خطأ استراتيجياً ساعد على جعل عودة الملكية أمراً محتماً . كذلك اعتقد أن كرومويل خان أصدقاء الحرية والجمهورية ، ولكنه أشاد بقدراته وعبر عن إيمانه بأنه لو عاش لفترة عشر سنوات أخرى لأمكنه إنشاء أسرة حاكمة جديدة فى انجلترا .

أما وليم روسكو Willaim Rocsoe (١٧٥٣ - ١٨٣١ م) فكان أحد تلامذة فولتير الإنجليز الجديرين بالانتماء إليه . وكان يأمل فى ملء الفراغ بين مؤلفات جيبون وروبرتسون ولذلك كرس حياته لدراسة أسرة الميدتيشى وبابوات عصر النهضة الذين أعجب بهم لاهتمامهم بالعلوم والفنون . وأهم أعماله الرئيسية هى تراجم لورنزو دى ميدتش والبابا ليو العاشر ولكن هذه الأعمال تضمنت أيضاً عرضاً لتاريخ العصر وثقافته . وقد أوضح روسكو التناقض بين أمجاد تلك الفترة وبين ما اعتبره ظلام وتعصب كل من كاثوليكية العصور الوسطى وبروتستانتية حركة الإصلاح الدينى .

يأتى بعد ذلك هنرى هالام (١٥٧٧ - ١٨٥٩) الذى حذا حذو جيبون ورجال المدرسة العقلانيه رغم أنه كان فى أول أمره من المؤمنين بأن التاريخ من صنع وتدبير العناية الإلهية . ونظر هالام إلى الماضى نفس نظرة جيبون الفلسفية ، فرأى أن تاريخ الماضى يعطى درساً للحاضر . كما شارك العقلانيين فى تحقيرهم من شأن ثقافة العصور الوسطى ، وأبدى إهتماماً حقيقياً بتاريخ المجتمع والفكر والثقافة . ثم إن هالام يشبه جيبون وروبرتسون فى سعة الأفق والمعرفة والمكانة العلمية ، فكان رجلاً مهذباً متعلما ، ثقف نفسه بطريقة تلقائية دون كلفة ، ودون أن يتبع أساليب مدرسة النقد الجديدة التى ظهرت فى القارة الأوروبية مثلما فعل نيبهور Neibuhr وفون رانكه ومع ذلك فإن بلغ درجة واسعة من الاطلاع التاريخى حتى إنه فاق فى ذلك كل من جيبون وبرتسون كلما فاقهما فى دقة اعتماده على المصادر .

كان أول كتاب مرموق لهالام هو كتابه «نظرة على حالة أوربا فى العصور الوسطى (صدر سنة ١٨١٨) ويقع فى ثلاثة مجلدات ، ويعالج الفترة منذ عهد كلوفيس حتى شارل الثامن . وهذا أول عمل تاريخى فى غرب أوربا ينافس كتاب جيبون سواء فى حجمه أو فى قوة التأثير على القراء . ومع أنه لايدانى كتاب جيبون فى الأسلوب والتصوير إلا أنه يفوقه فى كونه تاريخاً للنظم الاجتماعية والسياسية فى العصور الوسطى . وقد استبعد هالام القصص الدارجة والخرافات الشائعة وتفسير أحداث التاريخ تفسيراً غير موضوعى ، ووجه عنايته نحو تتبع تطور النظم . ولعل العيب الرئيسى فى كتاب هالام هو عدم وجود دراسة مقارنة للنظم الأوربية فى فترة العصور الوسطى وذلك فى الفصول التى تناولت دولاً عديدة ، وإنما جاء علاجه للموضوع فى صورة دراسات منفصلة لنظم كل دولة على حدة . وعلى الرغم من أن حكمه على العصور الوسطى لم يكن شديد القسوة ، فإنه كان حكما لا أثر للعواطف فيه ، واتصف بعدم الانفعال وذلك باستثناء إنجلترا التى خصص لها جزءاً كبيراً من الكتاب . وقد دفعه إلى ذلك

إعجابه بها ، مما يعتبر مظهراً للشعور القومى فى كتابه . هذا إلى أنه أبدى إيماناً بالفلسفة العقلانية للتاريخ فى الجزء الأخير من كتابه الذى تناول فيه الطبيعة العامة للحضارة الأوربية .

ويعتقد معظم النقاد أن أهم وأقدر أعمال هالام هو كتابه «التاريخ الدستورى لإنجلترا» الذى ظهر فى جزئين عام ١٨٢٧ وتناول فيه الفترة منذ عهد الملك هنرى السابع حتى عهد الملك جورج الثالث . وهو كتاب يمثل وجهة نظر حزب الأحرار وإن كان قد كتب من زاوية منفصلة تميل إلى التشكك فضلاً عن حرصه على عرض وجهتى نظر الفريقين المتنازعين . وإذا قورن بهيوم فإنه يفوقه فى المعرفة وصدق البصيرة . وقد بلغ التاريخ الدستورى وتاريخ الحياة الحزبية فى إنجلترا أرقى مراتبه فى هذا الكتاب ويتضح ميله إلى وجهة نظر الأحرار من أنه فى كتابه يؤكد دائما حقيقة أن إنجلترا كانت دائماً وبصفة أساسية ملكية دستورية تتعرض بصفة دورية لفترات من الاستبداد والفوضى . أما خير ما أسهم به هالام فى تاريخ الفكر والثقافة فهو كتابه الذى صدر فى أربعة أجزاء بعنوان «مقدمة للأدب الأوربى» فى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر» . ويعتبر هذا الكتاب بالنسبة لعصره من الكتب التى لا ينافسها كتاب آخر عن تاريخ أوربا الفكرى والثقافى .

وأخيراً ، يبقى الجناح المتطرف من كتاب المدرسة العقلانية فى إنجلترا هنرى توماس بكل الذى سنتعرض له عندما نتكلم عن نشأة فلسفة التاريخ .

أما فى ألمانيا فكان لفولتير ثلاثة أتباع رئيسيه هم فون شولزر ، شميلت ، سبتلر وكان الأول — وهو أوجست لودفيج فون شولزر — (١٧٣٥ — ١٨٠٩) صاحب كتاب «التاريخ العالمى» وهو كتاب منهجى متداخل التفاصيل أخذ فيه مؤلفه بالقول الدارج التقليدى حول تاريخ الخلق .وقد ركز فيه على الدول السلافيه فى أوربا حيث وجد فيه خير نموذج للملكية المستبدة المستنيره فى شخص كاترين الثانية . وإلى جانب هذا الكتاب ظهر لشولزر كتابان آخران هما : «تاريخ روسيا» وقد ظهر سنة ١٧٦٩ م و «التاريخ العام لبلاد الشمال» وقد نشر سنة ١٧٧٢ . وهذان الكتابان هما على الأرجح — أحسن الكتب عن السلاف الصقالبة فى أوربا . ويلاحظ أن قدرة شولزر على النقد كانت محددة ، خصة فيما يتعلق بما ورد فى الإنجيل . وكان شولزر أبرز المدافعين عن الملكية المستبدة المستنيرة بين المؤرخين العقلانيين .

أما المؤرخ الألمانى ميخائيل اجناتز شميلت Michael Ignatz Schmidt (١٧٣٦ — ١٧٩٤) فكان دوره فى ألمانيا شبيه بدور فولتير فى فرنسا ، هيوم فى إنجلترا ، روبرتسون فى اسكتلندا . ذلك أن كتابه «تاريخ ألمانيا» الذى تناول فيه تاريخ ألمانيا حتى سنة ١٦٦٠ يعتبر من أبرز ما أنتجته المدرسة العقلانية فى مجال الكتابة التاريخية . وامتاز هذا المؤرخ بأسلوبه الرائع ودقته وحذره فى استخدام المصادر وبعده عن روح التعصب لوطنه . هذا فضلاً عن أن

شميدت كان واحداً من أوائل الكتاب الذين تناولوا حركة الإصلاح الديني في ألمانيا بطريقة لا تحيز فيها . وهو يشبه فولتير في أن كلاهما كتب تاريخاً حقيقياً للحضارة .

أما الدويلات الألمانية الصغيرة والكنيسة المسيحية فقد وجدت في لودفيج تيمو ثيوس سبتلرLudwig Timotheus Spittler (١٧٥٢ — ١٨١٠ م) مؤرخها الذي ينتمي إلى المدرسة العقلانية . وسبتلر هذا هو صاحب كتاب «عرض لتاريخ الدول الأوربية» الذي ظهر سنة ١٧٩٣ «وتاريخ الكنيسة المسيحية» الذي صدر سنة ١٧٨٢ . وبلغ سبتلر ذروة عظمته كمؤرخ عندما عالج الفترة القريبة من عصره . ونجده في كتاباته يمجد العصور الوسطى . وإليه يرجع الفضل إلى حد ما في أنه وضع أساس النظر إلى العصور الوسطى نظرة مشرقة مليئة بالرومانسية واعتبار تلك العصور عصوراً نشطة شهدت حياة الفروسية وبرز فيها الفرسان وشعراء التروبادور فضلاً عن شعراء الألمان الفنانين . ثم إن سبتلر كان أول مؤرخ يعالج تاريخ الكنيسة علاجاً كاملاً من وجهة النظر العقلانيين ، وكان نقده لها معتدلاً نسبيًّا . وقد تبنى فكرة الحكم على الكنيسة من زاوية أنها اداة لدفع قضية الرومانسيه قدما . وكما يقول فيوتر كان هذا الاتجاه منه إسهاماً في مجال التسلية التاريخية أكثر منه إسهاما في مجال البحث التاريخي وإلقاء ضوء على التاريخ .

وثمة مؤرخ اقدر من سبتلر في كتابته عن الكنيسة هو جوتيليب يعقوب بلانك Gottleib iakab planck (١٧٥١ — ١٨٣٧ م) . وإذا كان سبتلر قد عالج تاريخ الكنيسة من وجهة نظر شخصية ومن زاوية تناولت الأحداث الهامة . فإن بلانك عالجها من زاوية تاريخ الفكر والنظم . ويعتبر كتابه History of the christian constition of society دراسة طيبة للتنظيم السياسي لكنيسة العصور الوسطى وعلاقة الكنيسة بالدولة ثم جهود الكنيسة في تأكيد سيادتها وسموها على الدولة . كذلك كتب بلانك كتابة مفصلة عن تاريخ العقيدة والمذهب البروتستانتي مؤكداً بصفة خاصة آراء البروتستانت عن الديانة المسيحية . وبذلك يعتبر بلانك اول من وضع اساس الدراسة المقارنة عن طوائف البروتستانت وأبطل بعمله هذا ما كتبه بوسويه من كتابات معادية غير محايدة . هذا إلى ان بلانك كان من اشد مؤرخي المدرسة العقلانية تطرفاً في الإيمان بنظرية الصدفة في التاريخ . وكان يعتقد فيما يختص بحركة الإصلاح الديني ان طبيعتها تثبت أنها كانت تحظى برضاء العناية الإلهية .

مدرسة مونتسكييه

لم تستطع مدرسة فولتير التي كانت أكثر تقدما في المذهب العقلاني أن تحظى بقبول عام وأن تحافظ على مكانها في القرن الثامن عشر إلا بمشقة كبيرة ، نظراً لأنها كانت أكثر تقدماً من المستوى العام للفكر المعاصر لها . هذا إلى أن هذه المدرسة لم تسلم من بعض القيود التي اقترنت بمحاولتها الأولى والجريئة في إعادة صياغة التاريخ وإيجاد تناسق بينه وبين التقدم المعاصر في الفكر العلمي والفلسفة الاجتماعية وكان من الطبيعي أن يتولد رد فعل ضد كثير من نظرياتها ومناهجها بسبب تجدد حالة من الخمول الذهني من ناحية ثم بسبب ما بذل من جهد لتصحيح بعض العيوب في مدرسة فولتير من ناحية أخرى . وكانت مراحل رد الفعل هذه متدرجة وواضحة المعالم تدرجت من تعقل مونتسكيه المعتدل والمحافظ إلى عاطفة روسو اللاعقلانية ، ثم انتهت إلى تخيلات الرومانسية المثالية الغامضة . ولم تفق مدرسة فولتير إلى نفسها إلا بعد أن أحيتها الجهود الكبيرة التي بذلها كل من باكل ، وليكي ، وليزلي ستيفن ، ودرابر ، وهويت ، وروبنسون وذلك نتيجة لرد الفعل الذي أحدثته الحركة العلمية في القرن التاسع عشر والحركة الفكرية الناقدة في الكتابة التاريخية .

وعلى الرغم من أن أعمال مونتسكيه نفسه لم تكن ذات قيمة عظيمة في ميادين البحث والنقد التاريخي ، فإنه يمثل مكانة بالغة الأهمية في مجال مناهج البحث ذلك أنه لم يكن متطرفاً أو عنيفاً في نظريته السياسية وكان أقرب إلى المدرسة الإنسانية من المدرسة العقلانية . ومع ذلك فإنه قدم اتجاهات فكرية جديدة فاقت ما جاء به فولتير . فمع أن مونتسكيه تقبل مذهب فولتير القائل بوجود بعض الشعوب التي تتسم بالعبقرية إلا أنه حاول أن يفسر هذه الظاهرة ، فقال بأن هذه العبقرية إنما ترجع إلى تفاعل القوى الطبيعية وعلى الأخص تأثير المناخ . كذلك فإنه وضع لأول مرة وفي وضوح فروضاً أساسية وهي أن الحكم على الأنظمة الاجتماعية يجب ألا يكون حكماً مطلقاً وعلى نطاق عام وإنما في ضوء ملاءمة تلك الأنظمة لروح الشعب الذي وضعت من أجله .

ولا يقف الفرق بين مونتسكييه وفولتير عند هذا الحد ، فعلى حين أن فولتير وأتباعه لم يقدموا سوى بعض الملحوظات العابرة فى مجالات معينه ، إذا بمونتسكييه يقدم تحليلاً وربطاً بين العوامل المختلفة التى يتأثر بها التاريخ فى تقدمه وتطوره . وإذا كان ما قدمه مونتسكيه فى هذا الشأن يعوزه الصقل والتكامل ، فإنه يعتبر تقدماً هائلاً فى مناهج البحث . وأخيراً فإنه إذا كانت مدرسة فولتير قد اكتفت بمجرد اقتراح دراسة العوامل الاقتصادية وعلاقتها بالتطور السياسى ، فإن مونتسكييه وأتباعه اهتموا اهتماماً كبيراً بتأكيد التأثير العميق للنشاط الاقتصادى والمالى على الدولة . وأوضحت مدرسة مونتسكييه فى صدق أثر الثورة التجارية على الكتابة التاريخية فى أوربا .

وكانت أبحاث مونتسكييه الرئيسية فى التاريخ هى دراسة مطولة بعنوان «أسباب عظمة الرومان» واضمحلالهم» وظهر سنة ١٧٣٤ ومع أن هذا العمل ليس به ما ينم عن بلوغه شأواً بعيداً فى مجال نقد المصادر أو اتساع المعرفة ، فإنه كشف عن قوة مذهلة فى تفسير الاتجاهات والعوامل الرئيسية فى تقدم المجتمع الرومانى واضمحلاله . وبهذا الكتاب يكون مونتسكييه قد سبق العلماء المحدثين المهتمين والمتخصصين فى دراسة نمو وتفكك السياسة الرومانيه وقوتها الإمبراطورية ، حيث إنه أكد حقيقة هامة هى أن الإمبراطورية اتسعت كثيراً إلى الحد الذى لم يضمن لها السيطرة على اقتصادياتها . كان مونتسكيية فى كتابته مثل السائر وسط غابة لكنه لم يدع أشجارها تحول بينه وبين الوصول إلى هدفه . هذا إلى أن آراءه الخاصة باضمحلال الإمبراطورية الرومانية كان لها تأثير كبير على كتابات جيبون .

ولما كان مونتسكييه فليسوفاً سياسيًّا أكثر منه مؤرخاً ، فإن تلاميذه من أصحاب النظريات السياسية كانوا لا يقلون عدداً عن تلاميذه من المؤرخين البارزين . ومثال ذلك ما كتبه ج . ل . لولم عن دستور إنجلترا ، وآدم فيرجسون عن تاريخ المجتمع المدنى اللذان يعكسان بوضوح آراء مونتسكييه فى مجال الفلسفة السياسية .

أما كتاب «دستور انجلترا» فقد نشر لأول مرة سنة ١٧٧٠ واتبع مؤلفه نهج مونتسكييه فى التحليل الخيالى وذلك بتوضيحه ما يتسم به الحكم الإنجليزى من فصل أكيد بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وما يراه فى ذلك الفصل من ضمان لحرية الفرد . وقد اعتقد دى لولم أن المواطن يتحقق له الأمن التام إذا تساوى الناس أمام القانون وإذا تحددت دائرة السلطة التنفيذية . ولهذا فإنه عارض بشدة فكرة روسو القائلة بالحكم عن طريق الحصول على تفويض شعبى لأنه يرى أن الناس يكونون دائماً «ضحايا التآمر الصامت القوى النشط من جانب الحكام» .

وأما آدم فيرجسون وهو الفيلسوف الاجتماعى الاسكتلندى فقد كتب سنة ١٧٨٢ تاريخ ازدهار الجمهورية الرومانية ونهايتها ، وينافس فيرجسون مونتسكييه فى قدرته على

استخلاص جوهر ما يريد أن يقوله ويشرحه . كذلك أشار بوضوح إلى ما يحويه التاريخ الرومانى فى عصره الأول من معلومات موضع شك وبعيدة عن اليقين . وقد أكد بصفة خاصة تأثير الفتوح الرومانية على الأنظمة القائمة وأوضح أن النظام الجمهورى لم يعد قادراً على مواجهة الأزمات التى وجدت فى ذلك الحين . وكان إيمان فيرجسون القوى بنظرية حرية الإرادة حائلاً بينه وبين القدرة على إصدار حكم عادل على أولئك الذين أرادوا أن يطيحوا بالجمهورية ويخلقوا النظام الإمبراطورى المطلوب . وأكثر ما يبعث على السخرية فى كتاب فيرجسون هو التماسه الأعذار لمجلس السناتو الرومانى فى القرن الأخير من العصر الجمهورى ، وهو ذلك المجلس الذى تميز بقصر النظر والدس .

وكان فيرجسون قد أصدر قبل ذلك سنة ١٧٦٥ كتاباً بعنوان «تاريخ المجتمع المدنى» وهو أفضل عرض للتطور الاجتماعى كتب حتى ذلك الحين ، كما يعتبر البداية الحقيقية لدراسة علم الاجتماع التاريخى . ويؤكد فيرجسون فى هذا الكتاب أهمية الحروب فى المراحل الأولى من التطور السياسى .

وإذا كان تلاميذ مونتسكييه قلة بين أوساط المؤرخين المحترفين فإن حبه تلميذه العظيم أرنولد هيرمان لودفيج هيرين (١٧٦٠ — ١٨٤٢ م) وهو أحد أساتذة جامعة جوتنجن العظام فى عصره وخير ما أنتجه هو كتاب «صور لسياسة الأمم الكبرى فى العصور القديمة وعلاقاتها وتجارتها» ويعكس هذا الكتاب نفس مبادئ مونتسكييه ، إلا أنه يمتاز ببعض التحسن ازاء تحليله العلمى للجانب الاقتصادى وهو الجانب الذى تجسم فى انتاج آدم سميث . ذلك أن هيرين حاول فى مهارة فائقة أن يعيد دراسة الحياة التجارية القديمة ليبين أثرها على مجرى تاريخ العديد من الأمم القديمة . والحق أن هيرين كان واحداً من أقدر مؤرخى عصره ، ولم يحرص على المحسنات البلاغية مما جعل كتابه عملاً فكريًا واضحاً ومتماسكاً . ووصفه إدوارد ميار وهو حجة بين المؤرخين عن العصور القديمة — بأنه يتزعم أولئك الذين تناولوا بالبحث نفس المجال الذى كتب فيه . ولم تلبث طريقة هيرين فى ربط التاريخ بالمناهج المدرسية المعاصرة أن ظهرت مرة أخرى فى كتاب ويلهلم فون هايد «تاريخ التجارة مع الشرق فى العصور الوسطى» الذى ظهر سنة ١٨٧٩ م. أما طريقة مونتسكييه فى علاج المسائل السياسية عن طريق ربطها بالعوامل الجغرافيه فقد انعكست فى كتاب هيرين «تاريخ نظم الدول الأوربية ومستعمراتها» ويكفى فى نهاية حديثنا عن هيرين أن نذكر أنه ألهم بيرتز فى دراسته لمصادر العصور الوسطى وألهم بيرتز فيما ألفه عن التاريخ الدستورى وأثار اهتمام ريتر بالجغرافيا السياسية .

وهناك كاتبان بريطانيان أبرزا اهتمام مونتسكييه بتأثير التجارة ، هما آدم اندرسون دافيد ماكفرسون . أما الأول فهو صاحب ذلك الكتاب المفيد وعنوانه «المفهوم التاريخى والزمنى لنشأة التجارة» . وقد أعاد دافيد ماكفرسون فى بداية القرن التاسع عشر كتابه الأجزاء الخاصة

بالعصور الوسطى فى ذلك الكتاب . والف ماكفرسون كتاباً آخر أكثر شمولاً واتساعا وهو «تاريخ التجارة الأوربية مع الهند» الذى ظهر سنة ١٨١٢ ويشبه الجزء الأخير من هذا الكتاب ماكتبه رينال عن علاقة التوسع الأوربى بالحضارة الأوربية ورفاهية الجنس البشرى .

ومن بين تلاميذ مونتسكيه كذلك المؤرخ الاسكتلندى الفذ «جلبرت ستيوارت» (١٧٤٢-١٧٨٦) الذى عاب على كل من هيوم وروبرتسون نظرتهما غير الطيبة تجاه العصور الوسطى . ففى كتابه «رسالة فى التاريخ» تناول موضوع الدستور الإنجليزى كما نجد فى كتابه «نظرة على المجتمع الأوربى» النظم الديمقراطية السياسية التى نسبها إلى الجرمان الأوائل وذهب إلى أن انجلترا الأنجلوساكسونية كانت تيوتونية بحته . كذلك اعتقد أن الدستور الإنجليزى وضعت بذوره فى أرض ألمانيا وغاباتها ، وبذلك يكون قد سبق المدرسة الألمانية التى ظهرت فى إنجلتره فى القرن التالى .

ثم إن إعجاب استيورات بالشطر الأول من العصور الوسطى فاق إعجابه بالشطر الأخير منها . وأخيراً فإنه وضع سلسلة كاملة من الكتب عن تاريخ اسكتلندا بهدف تفنيد آراء روبرتسون التى تضمنها كتابه «تاريخ اسكتلندا» ومناقشة تفسيراته حول ذلك الموضوع .

تلاميذ روسو

وثمة اتجاه آخر للمدرسة العقلانية أضعف من الاتجاه السابق يمثله أولئك الذين اتبعوا روسو ، وهم الذين يصورون مرحلة التحول المنطقى من العقلانيه إلى الرومانسية . والواقع أن هناك عدداً من الفروق الهامة بين روسو وفولتير من ناحية نظرة كل منهما للمشكلات التاريخية والاجتماعية ففولتير كان فى المقام الأول كاتباً ناقداً لا تحركه العاطفة ولا يتأثر بها . أما روسو فكان فى معظم الأحيان عاطفياً إلى درجة المرض ، يشارك الناس أحاسيسهم ويعطف عليهم . ومن ناحية أخرى كان فولتير واقعياً وعميقاً ، فى حين كان روسو مثالياً خيالياً . وأخيراً فإن فولتير كان يكتب من وجهة نظر بورجوازيه ، فامتدح الاستبداد المستنير ، دون أن يثق كثيراً فى مقدرة الجماهير الجاهلة فى شئون السياسة . أما روسو فكان يكتب فى قوة مؤيداً ضرورة تحرير الجماهير من نير القوة السياسية المستبدة .

ولم تلق آراء روسو حتى قيام الثورة الفرنسية رواجاً كبيراً ، ولكنها وجدت فى ألمانيا كثيراً من المتحمسين لها . وكان أول تلاميذ روسو الألمان هو إسحاق ايزيلين (١٧٢٨ - ١٧٨٢ م) مؤلف كتاب «فروض فلسفية حول تاريخ الانسانية» وقد ظهر فى جزئين . وعلى

الرغم من إعجاب ايزلين بنظريات مونتسكيه السياسيه فإن تأثير روسو عليه يبدو أكثر وضوحاً وخاصة فى اهتمامه الزائد بالمجتمع البدائى . ويعتبر كتابه — باستثناء كتابات لافاتيه Lafateau أحسن ماكتب عن تحليل ثقافة العصور البدائية ونظمها ، على الرغم من أن الكاتب حاول على غير أساس أن يميز بين الحياة الطبيعية التى حياها الإنسان وبين حياته الهمجية . كذلك تأثر إيزلين بمونتسكيه فى ناحية أخرى هى أهتمامه البالغ بالتحليل المقارن لحضارة الشعوب الكبرى فى التاريخ وعاداتها وسلوكها .

أما أعظم تلاميذ روسو الألمان فى مجال التاريخ فهو الشاعر المسرحي والمؤرخ فردريك شيلر (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) الذى كانت أهم أعماله تاريخ ثورة الأراضى المنخفضة ضد الحكم الأسبانى ، ثم كتاب «تاريخ حرب الثلاثين عاما» . وتضم هذه الأعمال خليطاً من عواطف وخلجات روسو والقوى الأصيلة لشاعر وكاتب مسرحى عظيم . فى علاجه لتاريخ ثورة الأراضى المنخفضة رآها فى صورة ملحمة بطولية تدور حول الرغبة فى التخلص من الطغيان ، بينما فى وصفه لحرب الثلاثين سنة رأى فى جوستاف أودلف ، والنشتين بطلى مسرحية تاريخية عظمى : ولسنا فى حاجة إلى أن نشير إلى أنه فى خضم هذا العمل المسرحى الفذ ، لم يكن هناك مجال،متسع لوصف العوامل الاقتصادية والثقافية وصفاً نثرياً . ولكن يعوض ذلك قوة الكاتب الهائلة على اعطاء تحليل أولى واضح للحركات السياسية مثل عرضه الرائع لظروف حرب الثلاثين عاماً . ولكن ما أن تبدأ القصة حتى نجد صفاته الشاعرية والمسرحية تتغلب تماماً على صفاته كمؤرخ . وعلى هذا فإن شيلر مثله مثل كارليل — تنتمى أعماله إلى الأدب الرفيع اكثر من انتمائها إلى التاريخ بمعناه العلمى . هذا فضلاً عما يلاحظ على أسلوبه من أنه يتبع المدرسة الإنسانية أكثر من تبعيته للمدرسة العقلانية .

أما يوحنا مولر Johannes Müller (١٧٥٢ — ١٨٠٩ م) فهو من أبرز المؤرخين المعاصرين لشيلر وأقدرهم وإن كان لايصل الى مرتبته فى كل النواحى . كان مولر يعتبر فى وقت ما أقدر المؤرخين الألمان فى عصره ، فى حين أنه كان يعتبر نفسه تاكيتوس الثانى . وكما أن تاكيتوس مجّد الجمهورية الرومانية ، فإن مولر فعل نفس الشئ بالنسبة للعصور الوسطى فتغنى بعظمتها وتزعم الرأى المنادى بالعودة إلى مثلها وأنظمتها . واشهر مؤلفات مولر هو كتاب «تاريخ الاتحاد السويسرى» . وعلى الرغم من أن مولر كان ينافس ماكولاى فى قوة ذاكرته ويضاهى فوستيل دى كولانج فى حماسته لدراسة المصادر التاريخية ، فإنه كان يفتقر تماماً إلى مقدرة ماكولاى على التحليل والتنظيم والسرد ، وإلى قدرة فوستيل على النقد . حقيقة أنه قرأ كل المصادر المتوافرة لديه ولكنه لم يكن يملك القدرة على حسن استخدامها أو استيعابها ، بل كان مفتقراً أيضاً إلى المقدرة الناقدة التى تجعله قادراً على اكتشاف وبالتالى استبعاد مافى سرده

من تناقض واضح ، وهو ذلك التناقض الذى يعزى بصفة رئيسية إلى طبيعة الكاتب فى التنقل السريع من عقدة إلى أخرى ومن هدف إلى آخر .

ولقد أضاف مولر إلى تمسك روسو بالحرية وولائه لها شيئاً آخر وهو تقليد الأسلوب البلاغى الكلاسيكى تقليداً مفصلاً . ذلك أن مؤلفه عن تاريخ سويسرا جاء بمثابة ملحمة عن الحرية تجمع بين طريقتى روسو وتاكيتوس . وبعد ذلك أصبح من المعجبين بنابليون الفاتح . وقد أدى علاج مولر لتاريخ ألمانيا وسويسرا فى العصور الوسطى إلى اتجاه نحو عبادة الأبطال فضلاً عن تفسير العصور الوسطى تفسيراً محليا لا عالمياً — وهى الأتجاهات التى ازدادت شيوعاً بفضل كتابات كل من شاتوبرياند ، والترسكوت الإبداعية من اتباع المذهب الرومانسى هذا كله بالأضافة إلى إعجاب مولر بالكنيسة الأم فى العصور الوسطى ترى هكذا ان كتابات مولر تمثل مرحلة انتقال من المدرسة العقلانية إلى المدرسة الرومانتكية فى الكتابة التاريخية . ويعتبر كتابه « أربعة وعشرون سِفْرا من التاريخ العام » الذى وضع خطته ولم يكمله على جانب عظيم من الأهمية لسببين هما اتساع مجاله وتأكيده فكرة أن التاريخ من صنع الرب وتدبيره.

أما يوحنا جوتفريد هردر Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣م) فهو وإن كان من تلاميذ روسو إلا أنه يمثل بصورة أكبر بعض أوجه الكتابة التاريخية عند العقلانين ، فضلاً عن أنه مؤرخ له أهميته بوصفه أحد مؤسسى فلسفة التاريخ . ولقد أحتوى كتابه الهام « آراء حول فلسفة تاريخ البشرية » عديداً من المبادئ والآراء السائدة فى ذلك العصر ، فهو يجمع بين حماسة روسو المتطرفة للعودة بالإنسان إلى حياته الطبيعية الأولى وتحريره من السلطة الحاكمة وقيودها وبين مفهوم فولتير الخاص بحقيقة الطابع القومى ودوامه ، فضلاً عن عقيدة مونتسكييه التى تؤكد العلاقة بين الشخصية القومية والظروف الطبيعية والمفهوم الخيالى الذى تبناه هيجل بعد ذلك عن تطور الإنسانية تدريجياً نحو حالة الحرية . وعلى ذلك فإن جوتفريد كانت له نظرة متطورة حتى إنه يعتبر أب الحاسة التاريخية ، فى المانيا . ولقد كان فى إصراره على تميز الشخصية القومية والوحدة العضوية للتطور الثقافى مايؤكد ويثبت رومانتيكيته فضلا عما فى ذلك من تأكيد الاتجاه نحو تقدير العواطف القومية عند كتابة التاريخ . ووسناقش فلسفته التاريخية فى مكان آخر من هذا الكتاب .

أما المؤرخ فردريك كريستوف شلوزر Freidrich christoph Schlosser (١٧٧٦/١٧٧٧ — ١٨٦١ م) فقد استوعب مفاهيم روسو عن طريق الإيمان بنظرية كانت عن « الأمر المطلق Categorical imperative . ففى كتابه تاريخ الأباطرة الا إيقونيين » وفى كتابه الذى لم يتمه عن تاريخ العالم وفى كتابه الضخم العظيم « تاريخ القرنين الثامن عشر والسادس عشر ، نجده وقد سبق لورد أكتون فى وضع مبدأ أن التاريخ ينبغى أن يحكم على

الرجال طبقاً لمعايير أخلاقية سامية . وعلى هذا الأساس حكم شلوزر على الأحداث التاريخية والشخصيات العامة طبقاً لمبادئ (كانت) الخاصة بمعايير الأخلاق الفردية . وازاء حبه الجم لكتاب دانتى «الكوميديا الإلهية » اتسم عمله بمسحة من الكآبة فضلاً عن انتقادات سريعة ذات صبغة غير موضوعية بحته . هذا على الرغم من انه لم يكن كاتباً ناقداً وإن علاجه للتاريخ السياسى كان علاجاً سطحياً ، فى الوقت الذى أغفل التاريخ الإجتماعى الاقتصادى . إما أهميته كمؤرخ فتكمن فى كونه أحد أوائل الكتاب المرموقين الذين أكدوا الأهمية السياسية للأدب القومى وأثر ذلك الأدب . ولم تتضح القيمة العظيمة لنظرة شلوزر إلى التاريخ إلا بعد سنوات عديدة عندما استخدمها الباحثون فى تصحيح أفكار بيركهاردت ، سيموندس عن استقلال حركة النهضة وانفصالها التام عن ثقافة العصور الوسطى .

أما كارل فون روتيك Karl von Rotteck (١٧٧٥ — ١٨٤٠ م) فهو يعكس فى كتابه المطول عن تاريخ العالم إيمان روسو الشديد بالحرية ، كما هاجم فى عنف كل الحركات التى استهدفت كبت الحريات على طول التاريخ البشرى . وكان يهدف من ذلك الى معارضة سياسة نابليون ومن بعده الرجعيين من أعضاء مؤتمر فينا فى الانتقاص من الحريات . لذلك غدا كتابه بفضل أسلوبه الحماسى الرائع إنجيل أوربا الحرة ، فصدرت منه خمسة وعشرون طبعة حتى سنة ١٨٦٦ وتمت ترجمته إلى عدد كبير من اللغات . وكرس روتيك حياته فى أواخرها لدراسة العلوم السياسية .

وثمة مؤرخ من أقدر المؤرخين العقلانين يصعب وصفه بأنه من أتباع هذه المدرسة أو تلك وهو المؤرخ السويسرى حنا تشارلز ليوناردو سيموندى سيسموندى (١٧٧٣ — ١٨٤٢ م) الذى شارك فولتير فى إعجابه بالطبقة البرجوازية كما كان متأثراً برأى مونتسكيية الخاص بتأكيد أهمية العوامل التجارية والاقتصادية فى تطور الحضارة . وفى نفس الوقت تأثر كثيرا بحب روسو للحرية وحماسته لها فضلاً عن انه كان معجباً إلى حد بعيد بأسلوب جيبون . ومع ذلك فإنه لم يشارك كل من فولتير وجيبون احتقارهما للعصور الوسطى كما أنه رفض رأى مونتسكييه الذى يؤكد تأثير العوامل الجغرافية وأهميتها ولم تعجبه فى نفس الوقت آراء روسو الديمقراطية . أما نظرته إلى مجال التاريخ فكانت أوسع من نظرة جيبون . وهوفى كتابه «تاريخ الجمهوريات الإيطالية فى العصور الوسطى » اثنى على روح الاستقلال التى تمتعت بها تلك الدويلات الإيطالية وبين أثر هذا الروح فى تفوقها التجارى . وكان يرى أن نشأة لقوميات الإيطالية جاءت بمثابة انبثاق الحرية الإنسانية وسط فساد الأقطاع الحقير ومظاهر الطغيان . كذلك أهتم سيسموندى بالعوامل التجارية والأقتصادية أكثر مافعل أى كاتب آخر

من المدرسة العقلانيه باستثناء هيرين ، ومع ذلك فإنه لم يكن واضحاً فى عرض تأثير العوامل الاقتصادية على الحياة السياسية فى العصور الوسطى ، ولم يستطع أن يوضح أثرها الكامل على سياسة المدن الإيطالية فى تلك العصور . وكل الذى فعله هو أنه أخذ بنظرة الثورة الفرنسية إلى ايطاليا العصور الوسطى وإيطاليا عصر النهضة مثلما فعل ميكافللى وجويكارديني فى نظرتهما إلى عصرهما بروح عصر النهضة . أما كتاب سيسموندى عن تاريخ الفرنسيين فجاء عرضاً شيقاً فيما يتعلق بالعصور الوسطى . وفيه يتضح بجلاء نظرة الكاتب الواسعة الأفق إلى مادة التاريخ . ويعتبر كتابه هذا أول تاريخ كامل نسبياً عن فرنسا . وكان لسيسموندى بالإضافة إلى ذلك اهتمام كبير بالأدب ، فألف كتاباً هاماً عن تاريخ الأدب فى جنوب أوربا ، وهو كتاب يصور تأثير مدام دى ستايل عليه . كذلك يتضح من هذا الكتاب مدى تعلقه بالمدرسة الرومانسية ، وذلك بتصويره الأدب كنتاج للشخصية القومية ، والواقع أن سيسموندى كان عالما شديد العناية بعصره ، وإذا كان لاينافس جيبون فى موهبته الأدبية الفنية ، فحسبه أنه كتب بأسلوب واضح رائع .

من بين التطورات الهامة التي مرت بها الكتابة التاريخية في فترة أنتشار المذهب العقلاني والكشوف ازدياد الأهتمام بالتاريخ العالمي . وإذا استبعدنا السجلات التاريخية العالمية المعقدة والتي مضت على وتيرة واحدة التي كتبها افريكانوس (الافريقي) ، وايوزيبيوس ، وجيروم ، فإن أول كتب عن تاريخ العالم هي تلك التي ظهرت في غرب أوروبا التي كتبها اورزيوس فضلاً عما كتب في عصر الحركة الإنسانية على يد سابيلكوس ودوجليوني في إيطاليا ، وفرانسوادي بلفورست في فرنسا ، يوحنا كلوفر في هولندا ، والسير والترراني في انجلترا . وكلها كانت محاولات هزيلة لكتابة تاريخ عالمي .

وبعد ذلك وفي حوالي منتصف القرن الثامن عشر بدأت الكتب التي تعالج تاريخ العالم تظهر بأعداد ضخمة وفي مجلدات كبيرة . وساعد على نمو هذا الاتجاه عدة عوامل : أهمها ما أثارته الحركة الأنسانية من اهتمام كبير بالماضي القديم وما أثارته حركة الاصلاح الديني والحركة المضادة لها من زيادة الاهتمام بتاريخ الكنيسة المسيحية ، فضلاً عن أن الكتب التاريخية التي ظهرت عن الكشوف أعطت المؤرخين مجالاً فسيحا للرؤيا بحيث أخذوا ينظرون إلى العالم كله بطوله وعرضه . هذا بالأضافة إلى أن العقلانيين فتحوا باباً عريضاً للأعمال التاريخية الطموحة . وكان من الطبيعي أن يأمل كل كاتب صاحب خيال قوي في أن يعالج في كتاب تاريخي واحد قصة الانسان كاملة على هذه الأرض .

وكانت أول محاولة لإصدار كتاب عن التاريخ العالمي من النوع التعاوني عندما اشترك عدد من الكتاب معظمهم من الإنجليز — في وضع كتاب تاريخ العالم منذ بدايته حتى الوقت الحاضر وهو الكتاب الذي ظهر بين سنتي ١٧٣٦ م — ١٧٦٥ م . وممن أشتركوا في وضع هذا الكتاب جون كامبل ، جورج سيل ، يوحنا سوينتون ، ارخبالدبور ، جورج بزالمانزر . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يكن ممتازاً أو مبتكراً ، فإنه حوى قدراً هائلا من المعلومات عن كل الشعوب في كافة العصور ، بما في ذلك شعوب ماوراء البحار . وقد كتب أساسا من وجهة النظر المسيحية المتزمتة وبالتالي لم يتعرض بالنقد للمسائل المتعلقة بالكتاب المقدس والأساطير

القديمة إلا نادراً . ومع ذلك فإنه أول تاريخ كامل عن العالم . وقد ساعد بدرجة كبيرة على خلق مفهوم أكثر شمولاً لتاريخ الجنس البشرى ، مما حقق له نجاحاً لا بأس به .

وقد سبق لنا فى معرض حديثنا عن المؤرخين العقلانين ذكر أعمال أخرى هامة تناولت تاريخ العالم بأكمله ونكتفى هنا بالأشارة إليها وإلى غيرها لنعطى فكرة ولو عامة عن عددها ومقدار طموحها .

فى المقام الأول يأتى كتاب جنا أدمز John Adams «نظرة على التاريخ العالمى» (١٧٩٥) وكتاب الكسندر تيتلر Alexander Tytler «عناصر التاريخ العام» (١٨٠١) وكلاهما من الإنجليز . وبعد ذلك يأتى كتاب أوجست شولزر ـ محاضرات فى التاريخ العالمى (١٧٧٢) وكتاب يعقوب دانيال ويجلين «التاريخ العالمى» (١٧٧٥) وكتاب يوحنا مولز الذى لم يستكمل فى أربعة وعشرين جزءاً فى التاريخ العام (١٧٧٩) وكتاب يوحنا كريستوف جاتيرر «التاريخ العالمى» وقد صدر ما بين ١٧٨٥ ـ ١٧٨٧م ، ثم هناك كارل روتيك «التاريخ العالمى» وقد صدر ما بين ١٨١٢ ، ١٨٢٧ . وكتاب سيزار كانتو «التاريخ العالمى» (١٨٣٧) ثم كتاب فردريك شلوزر «التاريخ العالمى للشعب الألمانى» (١٨٤٢ ـ ١٨٥٦م) وكتاب ليوبولدفون رانكه «تاريخ العالم» الذى أكمله أحد تلاميذه بعد وفاته ، وكتاب فرانسوا لورنت Franeois Lurent «دراسات فى تاريخ البشرية (١٨٧٠) . وكانت بعض هذه الكتب مطولة للغاية فمثلاً كتاب روتيك يقع فى أحد عشر مجلداً وفى كتاب لورنتس يقع فى ثمانية عشر مجلداً ، بينما يقع كتاب شلوزر فى تسعة عشر مجلداً . وتوجد كتب أخرى غير ما سبق ذكره ، لأن ما ذكرناه ليس سوى نماذج محددة . هذا إلى أننا سنشير فيما بعد إلى الاهتمام الجديد بمثل هذه الأعمال والاقبال على انتاجها .

اتساع المعرفة وأثره فى التقويم التاريخى

أمتد الاتجاه الناقد للنشاط العلمى إلى البحث فى المادة التاريخية التى كتبت فى العهد الوثنى فضلاً عن ثقافة الأقدمين . ذلك أن الباحثين واصلوا العمل على الذى سبق أن بدأه سكاليجر ، كاسوبون وآخرون فى فترة الحركة الإنسانية . ثم كانت جهود ريتشارد بنتلى (١٦٦٢ — ١٧٤٢ م) الذى ينسب إليه ذلك التقدم الكبير فى علم نقد النصوص وتطبيقه على كتاب العصر القديم ، فضلاً عن أنه أصدر طبعات ممتازة لمؤلفات هومر وغيره من كتاب العصر الوثنى . أما ج . أ . فابريكيوس فقد وضع الاسس العلمية لدراسة الأدب الأغريقى ، كما أن برنارد دى مونتفوكون Montfaucon (١٦٥٧ — ١٧٤١ م) جمع مختارات عامة

من الأدب القديم فى كتابه شرح الآداب القديمة . وكان لنشأة المذهب التقدمى الفضل فى التحرز من النظر إلى الماضى الوثنى بعين الاحترام التقليدى وهو ذلك الاحترام الذى فرضه رجال المدرسة الإنسانية أصحاب النظرة العاطفية . على أن هذا الاتجاه الجديد لم يكن شبيهاً بعداء أوزوبوس للماضى الوثنى ، وإنما كان يمثل نظرة عاقلة شذبتها النظرة التاريخية والاعتقاد فى تقدم الثقافة . وسنناقش فيما بعد الدراسة الناقدة لمصادر التاريخ القديم فى ذلك الدور التى قام به سيجونيوس Sigonius, ، بويلى Pouilly, ، بيروزنيوس Parizonius, وبيفورت Beaufort ، ذلك فى معرض حديثنا عن نشأة المدرسة التاريخية الناقدة .

أما الدراسات المرتبطة بالتقويم التاريخى فاستمرت على نفس الاسس التى وضعها سكاليجر ، أوشر . وقد أعطى إسحاق نيوتن اهتماماً كبيراً للمشكلة فى كتابه التقويم الزمنى للممالك القديمة وعدل فية تاريخ الخليقة بطريقة خاطئة اذ قربه خمسمائة سنة عن التاريخ الذى أعطاه سكاليجر وأوشر . وهناك آخرون ممن أحرزوا تقدما ضئيلاً فى سبيل الوصول إلى تقدير سليم لعمر الأرض . أما العلماء الربوبيون الذين آمنوا بالله عن طريق العقل وعلى رأسهم شارل بلاونت فكانوا يميلون إلى اعطاء تقديرات للزمن أطول من تلك التى اعطاها أوشر وأتباعه ، وذلك بسبب تحررهم من قيود المفاهيم المسيحية المترمتة من ناحية ولتأثرهم الشديد بالعلم الجديد من ناحية أخرى . وكان أن أوضح علماء التاريخ الطبيعى وعلماء الجيولوجيا أن تاريخ بداية الخليقة كما تحدده المفاهيم المترمتة لا يتمشى مع الأفكار الجديدة بالنسبة لتاريخ الأرض وعمرها والحياة عليها . وهكذا قدر العالم الطبيعى الفرنسى العظيم بوفون Buffon أن عمر الارض لا بد وأن يكون ٧٥ ألف سنة .

وشهد ذلك العصر كذلك مولد تقسيم التاريخ إلى عصور وهى الفكرة التى مازالت تلقى قبولاً عاماً . فمن وجهة نظر المسيحية نجد اهتماماً عاماً على تقسيم ماضى البشر الى عصرين أساسيين : العصر الوثنى ، والعصر المسيحى . ثم تحول هذان العصران تدريجياً إلى ماعرف بالتاريخ القديم والعصور الوسطى . وأشهر الكتاب الذين أسهموا فى ذلك التعريف الجديد هما أوتو أوف فريزنج ، فلاتيوس بلوندوس . وقد سبق أن أشرنا إلى تقسيم بودن Bodin للتاريخ إلى ثلاث مراحل : تاريخ الشرق القديم ، تاريخ حوض البحر المتوسط ، تاريخ أوربا . ولكن قيام الحركة الإنسانية وحركة الأصلاح الدينى البروتستانتى أوحيا إلى كتاب آخرين عاشوا بعد تلك الأحداث بأن عهداً جديداً قد بدأ فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وبأن هذا العهد الجديد يمكن أن يعرف بالعصر الحديث فى التاريخ . ومازال هذا التقسيم الثلاثى للتاريخ مصطلحاً عليه ، وقد ظهر لأول مرة فى كتابات جيزبرت فوتيوس Gisebert Voëtius (١٥٨٨ — ١٦٧٨) عندما كان يعالج تاريخ الكنيسة . ذلك أنه ذهب إلى أن الفترة القديمة أنتهت عند أوغسطين ، وأمتدت الفترة الوسيطة من عهد أوغسطين إلى

عهد لوثر ثم بدأت الفترة الحديثة منذ عهد أوغسطين وامتدت الفترة الوسيطة من عهد أوغسطين إلى عهد لوثر ثم بدأت الفترة الحديثة منذ عهد لوثر وطبقت نفس هذه الفكرة على التاريخ الدنيوى بواسطة أحد رواد المدرسة الإنسانية فى هولندا وهو كريستوف كيلر الشهير بكرستيان كيلاريوس (١٦٣٤ — ١٧١٧ م)، إذ اعتبر أن التاريخ القديم يبدأ من بدء الخليقة وينتهى عند عهد قسطنطين. واعتبر أن العصور الوسطى تمتد من عهد قسطنطين حتى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك سنة ١٤٥٣. وأن التاريخ الحديث يبدأ منذ سنة ١٤٥٣ م. ومازال هذا التقسيم يلقى قبولاً عاماً واسعاً يفوق أى تقسيم آخر. وجعل كثير من الكتاب فى عصر رينال أن الكشوف الجغرافية التى حدثت بعد سنة ١٤٩٢ أكثر أهمية من حركة النهضة وحركة الإصلاح الدينى بالنسبة لتحديد معالم البداية للعصور الحديثة. ولكن الفكرة لم تلق قبولاً كبيراً حتى القرن العشرين.

ومن أهم واعظمها أسهم به ذلك العصر فى مجال اهتمام الدراسات التاريخية بماضى البشرية - ظهور نظرية التقدم ظهوراً تدريجياً . ذلك أن ثمة حقيقة بارزة لها أهميتها - هى أن أكثر من تسعة وتسعين فى المائة من عمر الانسان على الأرض مضى دون أى إدراك للتقدم الذى حققته الحضارة البشرية فى تلك الحقبة . والحقيقة هى أن التقدم البشرى حتى القرن السابع عشر كان يتم طبيعياً وتلقائياً . ولم يكن بأى حال نتيجة جهد جماعى لتحقيق تقدم جنسى أو حضارى بدافع من وعى وإدراك للوصول إلى حالة مثالية

وقد تمسك العبرانيون القدامى بنظرية خروج الإنسان من الجنة نتيجة لترديه فى الخطيئة . ومن ثم اعتقدوا أن الكمال كان للإنسان فى ماضيه . وأنه لاخير فى مستقبله . وظهرت عند الوثنيين القدامى فكرة مشابهة إلى حد ما وهى فكرة الانحدار من عصر ذهبى . أما الإغريق والرومان فقد شاع بينهم الاعتقاد فى تطور الحضارة البشرية فى حركة دائرية . فهى تعلو ثم تعلو حتى تصل إلى نقطة معينة وبعدها تأخذ فى الهبوط حتى تصل إلى مستوى أقرب مما بدأت منه . ومرة أخرى تبدأ تعلو لتنخفض .. وهكذا فى صورة دورات متكررة .

اما المسيحيون فأخذوا بأراء العبرانيين بالنسبة لتردى الإنسان . وربطوا بين هذه الفكرة وما ردده الوثنيون من الانحدار من عصر ذهبى . وخرجوا من ذلك بأنه ليس للإنسان أن يتوقع دولة مثالية على هذه الأرض . وأن حالة النقاء والطهر الكاملين لن يصل اليها الإنسان إلا فى العالم الآخر . ومن وجهة النظر المسيحية . وكما جاء فى سفر الرؤيا فإن قيام القيامة ونهاية الحياة سوف يسبقه نذر على الأرض بالغة الرعب والفظاعة . ثم نشأ تدريجياً اعتقاد بأن القدر يدخر للإنسان مستقبلا أفضل على هذه الأرض . وقد أوضح روجر بيكون فى القرن الثالث عشر مايمكن أن يفعله العلم التطبيقى من أجل الانسان . كما عرض مونتين Montaigne فكرة جديدة عندما اقترح بأنه ينبغى أن تهتم الفلسفة بسعادة البشر على هذه الأرض أكثر من اهتمامها بالخلاص فى الحياة الأخرى . وأشترك فى نفس الوقت كل من فرانسس بيكون . وباسكال . وديكارت فى الدعوة للتخلص من نفوذ الماضى وسيطرته على الحاضر . لقد أعتقد

كل من بيكون ، وباسكال أن الشعوب الحديثة أرقى من الشعوب القديمة وعرضا فكرة أن الوصول إلى الدولة المثالية يصبح سهلاً ممكناً إذا ما أستخدم العلم فى حل مشكلات البشر .

وبدأ ظهور نظرية التقدم بمعناها التقليدى فى كتابات بعض المؤرخين مثل برنارد دى فونتنيل (١٦٥٧ — ١٧٥٧ م) . الذى لم يخرج فى كتابه «حوار الموتى» (١٦٩٣) عن فكرة أن القدامى لم يكونوا أحسن حالاً من المحدثين . ولكنه اتخذ بعد ذلك بخمس سنوات موقفاً أكثر تقدماً فى كتابه «حديث مطول عن القدماء والمحدثين» يتشابهون بصفة أساسية من الناحية البيلوجية التى لم يطرأ عليها أى تقدم . أما فى الفنون الجميلة التى هى أساساً تعبير تلقائى عن الروح والنفس الإنسانية ، فإن فونتنيل يرى أنه ليس هناك أى قانون للتقدم . إذا كان للقدامى أعمالهم العظيمة فى هذا المجال ، وإن أحسن أعمال المحدثين فى الفن والشعر والخطابة لاتقل عظمة عن أكمل وأحسن ما أنتجه القدماء ، ثم قال إن الأمر يختلف تماماً فى ميادين العلم والصناعة ، إذ حدث فيهما تقدم وتطور ولايزال العالم ينتظر فى تلك الميادين مزيداً من التقدم فى المستقبل ويضيف فونتنيل أن الإعجاب بالقدماء الذى لايسانده عقل أو منطق إنما هو عقبة رئيسية فى طريق التقدم . ومن المشكوك فيه أن يكون هناك من استطاع على مر الزمن بما فى ذلك زماننا أن يعالج نظرية التقدم بمثل ما عالجها فونتنيل من نجاح وتوفيق .

أما شارل برولت (١٦٢٨ — ١٧٠٣) وهو أحد معاصرى فونتنيل ، فقد أورد نفس الآراء فى كتابه «مقارنة بين المحدثين والقدماء» وهو الكتاب الذى صدر بين سنة ١٦٨٨ ، ١٦٩٦ . وكانت تستحوذ عليه فكرة أن ثقافة جيله بلغت مرحلة الكمال مما جعله غير حريص على أن يأمل تقدماً أكثر فى المستقبل . وقد اتخذ مقدم دير القديس بطرس موقفاً أكثر إيجابية بالنسبة للتقدم المنشود فى المستقبل وذلك فى كتابه «حديث حول التطور» الذى ظهر سنة ١٧١٨ م ، فأوضح أن التقدم أمر واقعى وحقيقى وأن ماتحقق فى عصره أبرز مما تحقق فى عصر أفلاطون وأرسطو . وكان مهتماً بصفة خاصة بالتقدم الاجتماعى فرأى ضرورة إنشاء أكاديمية للعلوم السياسية لرعاية التقدم الأجتماعى . وأظهر ثقة كبيرة فى قدرة الحكومة الرشيدة على تحقيق ذلك التقدم . وبذلك يعتبر هذا الأب سابقا فى آرائه على كل من هلفتيوس والفلاسفة النفعيين . أما هلفتيوس الذى بلغت شهرته ذروتها فى منتصف القرن الثامن عشر فكان من الكتاب الفرنسيين المتفائلين فى إمكان تحقيق الإصلاح الاجتماعى . وقد أعتقد أنه إستطاعة البشر أن يصلوا إلى ذروة الكمال ، ورأى أن السبيل لذلك هو استنارة عامليه وتعليم عقلانى . هذا إلى أنه أعتقد فى المساواة بين البشر وأن التفرقة القائمة عندئذ يمكن التغلب عليها بنشر التعليم والتربية .

وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر ظهر فليسوف التاريخ الإيطالى جيوفانى باتستافيكو (١٦٦٨ — ١٧٤٤) بمفهوم جديد للتقدم ، إذ عبر عن اعتقاده فى أن التقدم

البشرى لا يحدث بطريق مباشر أو فى خط مستقيم وإنما يأخذ شكلاً لولبياً . وأوضح أنه على الرغم مما قد يبدو من وجود دورات للتطور ، فإن هذه الدورات لاتعود إلى النقطة التى بدأت منها لأن كل دورة تكبر وتعلو عن سابقتها .

ثم كان أن ظهر فى فرنسا بعد فيكو بفترة بسيطة نظرية للتقدم أكثر واقعية وصاحبها هو جاك تيرجو Jacques Turgot (١٧٢٩ — ١٧٨١ م) الذى كان من الزعماء الذين أسهموا فى خلق فلسفة التاريخ . ذلك أن تيرجو أكد بصفة قاطعة فكرة استمرار التاريخ والخاصية المتطورة للتقدم ، كما أوضح انه كلما ازدادت الحضارة تعقيداً كلما ازدادت سرعة التقدم البشرى ، ولذا فإن التقدم كان بطيئاً للغاية فى العصور البدائية ثم ازدادت سرعته فى العصور الحديثة .

أما كوندرسيه Condorcet وهو الكاتب الفرنسى البارز فى فترة الثورة الفرنسية فكان له رأى اكثر تفاؤلاً إذ أنه لم يكتف بالتعبير عن اعتقاده فى أن التقدم أمر حقيقى ، وإنما قسم تاريخ الحضارة إلى عشر حلقات كل منها تمثل مرحلة من مراحل تطور الجنس البشرى والحضارة البشرية . وأوضح أن تسعا من هذه المراحل قد أنقضت فعلاً ، وأن الثورة الفرنسية والعلم الحديث قادا الجنس البشرى إلى حافة المرحلة العاشرة التى سوف تخلق عهداً من السعادة والرخاء لم يعرف مثله من قبل .

ومن بين آخرين كثيرين أسهموا بآرائهم فى فكرة التقدم يبرز الفيلسوف الألمانى هردر الذى حاول أن يصنع قوانين للتقدم مبنية على العمل المشترك للطبيعة والعناية الإلهية . كذلك هناك عمانويل كانط الذى حاول إثبات حقيقة التقدم الأخلاقى . أما الانجليزى البارز وليم جودوين (١٧٥٦ — ١٨٣٦ م) فقد أعتقد أنه يمكن الوصول إلى الكمال عن طريق إلغاء الدولة والحيازة والتملك وبث المنطق فى العقول عن طريق التربية الخاصة . وهناك أيضاً هنرى دى سانت سيمون (١٧٦٠ — ١٨٢٥ م) الذى سار على نفس منهج الأب مقدم دير القديس بطرس ، والذى أكد ضرورة وجود علم اجتماع يوجه التقدم البشرى .

وأخيراً تبلورت كل هذه الأفكار وتجسمت فى الفلسفة التاريخية وعلم الاجتماع كما تناولها أوجست كانط (١٧٩٨ — ١٨٥٧ م) الذى أوجد نظاماً شاملاً للقوانين الخاصة بالتقدم الفكرى ، وصاغ فلسفة عريضة للتاريخ ، مقسما الماضى إلى عدد كبير من الفترات وأجزاء الفترات ، وموضحاً أن كل فترة ترتبط بمرحلة معينة تميزها عن مراحل التقدم الثقافى .

وعلى الرغم من أن نظرية التقدم أحتفظت بذلك التأييد الحماسى الذى حظيت به منذ عهد كانط ، إلا أن بعض الاتجاهات غير المتفائلة أخذت فى الظهور ذلك أن بعض المفكرين من أمثال الفلاسفة الألمان فردريك نيتشه ، وأزوالد سبنجلر ، عادوا إلى الاخذ

بفكرة قريبة من نظرية الدورات التي كانت معروفة في العصور القديمة. ومن الأمور التي شاعت كذلك الاتجاه نحو استبدال فكرة التغيير بالتقدم، بمعنى أن الأشياء آخذة فعلا في التحسن، ولا تستطيع الآن أن تقطع بصحة هذا القول، لكننا ندرك تماما أن هناك تغيراً يأخذ سبيله في كل مجالات الحياة والفكر. وأهم من ذلك أننا نعترف بسرعة هذا التغيير في مجالات العلم والحضارة المادية، وبطئه الشديد في النظم والأخلاق. وهذا التفاوت في سرعة التقدم بين كل من الحضارة المادية والنظم الاجتماعية هو مايعبر عنه اليوم، بالتخلف الثقافي، وهو أن من شأنه أن يضع الحضارة الحديثة على طريق محفوف بالمخاطر.

المـراجع

1- **J.E. Gillespie:** A History of Geographical Discovery 1400-1800. Holt, 1933.
2. **M. W. Spiphauz:** The background of Geography, Liyopin cott, 1935.
3. **A. P. Newton ed...:** Travel and Travellers of the Middle Ages. Knopf, 1926.
4. **Guilday:** Church Historians, pp. 128 - 52.
5. **Smith:** A History of Modern Culture vol. 11 chaps VII - VIII.
6. **Flint:** Historical philosophy in France, pp. 334 - 339.
7. **Ritter:** Die Entwicklung der Geschichtswissenschaft Book IV.
8. **Wegele:** Geschichte der deutschen Historiogrephie, Book III.
9. **Fueter:** Histoire de l'historiographie moderne pp. 361. 80. 415. 516.
10. **T.P. Peardon:** The Transition in English Historical writing, 176 - 1830. Columbia University press, 1933.
11. **Adolf Rein:** Das Problem der europärischen Expansion in der Geschi chtsschreibung, Hamburg 1979.
12. **Geoffrey Art Kimson,** Les Relations de vogages du XVII siecle et l'evolution des idées, paris 1925.
13. **Glbert Chinard:** L'Amérique et la rêve exotique dans la litterature française au xvii et xviii siecle paris 1934.
14. **A. C. Wilgus:** Histories and Historians of Hispanic America pan American Union 1942.
15. **J.B. Black:** The Art of History, Grofts 1926.
16. **Thompson:** History of Historical writing vol. 11 chaps XXX VIII-XXXIX
17. **H.L. Bond:** The Literary Art of Edward Gibbon, oxford university press 1960.

18. **Ferdimand Scheill:** Six Historians pp. 93-122 University of chicago press 1956.

19. E.T. Oliver: Gibbon and Rome, Sheed and Ward 1959.

20. **F.E. Manuel:** The Age of Reason, Cornell university press 1951.

21. The Eighteenth Century confronts the Gods. Harverd University press 1959.

23. **Roman Rolland et al..:** French Thought in the Eighteenth Century David Mc Kay 1953.

22. **J.S. Spink:** French Free Though from Gassendi to vollaire, Oxford University press 1960.

24. **J.H. Brumfitt:** Voltaire: Historian. Oxford University press 1957.

25. **R.R. Palmer:** Catholics and unbelievers in Eighteenth Century France. Pincerton University press 1939.

26. **F.C. Green:** Jean - Jacques Rousseau. Cambridge University press 1955.

27. **Freidrich Meinecke:** Die Entsenhung des Historismus, Munich 1936. 2 vols.

28. **G. M. Young:** Gibbon. Appleton, 1933.

29. B. Pier, Roberston als Historiker Und Geschichtsphilosoph, lepzig 1929.

30. **W. C. Lohmann, Adam:** Ferguson and the Beginnings of Modern Sociology. Columbia University press 1930.

31. **J. B. Bury:** The Idea of progress. Dover 1955.

32. **C. L. Becker:** The Heavenlycity of the Eighteenth century philosophers. Yale University press 1932.



الفصل الثامن

الرومانسية وفلسفة التاريخ

الرومانسية بوصفها رد فعل للمذهب العقلاني

كشفت كتابات تلاميذ روسو الذين أشرنا إليهم فى الفصل السابق عن رد فعل مباشر لآراء فولتير العقلانية القديمة ،وظهر رد الفعل هذا حتى قبل أن يصدر لويس السادس عشر مرسومه الملكي بإجراء انتخابات لإختيار أعضاء مجلس طبقات الأمة . والواقع ان قيام الثورة الفرنسية جاء عاملا مدعما لهذا الاتجاه ضد المذهب العقلانى ، إذ بدت أحداث الثورة الفرنسية بالنسبة للعنصر المحافظ من الناس وكأنها تهدم ما نادى به العقلانين من آراء تافهة تجعل الكوارث هى التى تصنع التاريخ ، وأنه من الممكن تغيير النظم الاجتماعية عن طريق الاستجابة لمدى العقل وتوجيهاته .

على أن سوء الحظ شاء أن تؤدى المحاولة العظيمة التى بذلت لتصحيح ما فى مبادئ روسو من تصنع إلى رد فعل عكسى إتسم بأنه أقرب إلى الصحة والثبات من النظريات العقلانية . ذلك أن الرومانسية فى الكتابة التاريخية تعنى ارتداداً مؤكداً نحو الجهل ، وكانت هذه الحركة مرتبطة أشد الارتباط بما تعرضت له الفلسفة السياسية والإجتماعية من رد فعل أقترن أساسا بأسماء : بيرك Burke ، دى بونالد ، دى ميستير De Maistre, فون هالر Von Haller [1].

وكانت القاعدة الأساسية فى كتابة التاريخ عند الرومانسيين هى الاعتقاد بأن التطور الثقافى لأية أمة إنما تدريجيا ولا شعوريا . هذا إلى أن الرومانسيين آمنو بأن كل مقومات الثقافة القومية ترتبط فيما بينها ارتباطاً أصيلا وتتخذ فى تطورها طريقا واحدا . وإمتاز تفكيرهم بعنصر خيالى جعلهم يتصورون أن هذه القوى الخلاقة اللاشعورية تتحرك وتعمل بشكل غامض

(1) F.W.A.Dunning, A History of political Theories from rosseau to Spencer (Macmillan 1920) chap. V.

يتحدى أى تحليل فكرى مباشر . ومعنى هذا أن تطور ثقافة أية أمة ونظمها انما يخضع لتأثير تلك القوى الروحية الغامضة ، التى اطلق عليها فون رانكه فيما بعد اسم (روح العصر) Zeitgeist . وأعطى الرومانسيون أهمية خاصة للتقاليد القومية والأفكار السائدة التى تشكل روح العصر والأمة . وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه المفاهيم إلى عقيدة (القدرية السياسية) وهى العقيدة التى تصور الأمة عاجزة أمام عظمة القوى الروحية الخلاقة . وهكذا صوروا الثورة على أنها عمل آثم لا جدوى من ورائه ، تنبغى إدانته وبالتالى فقد بدأت تبرز فلسفة «الهدوء السياسى» التى لاءمت ملاءمة تامة التيار الذى نادى به انصار مبدأ الحرية من أصحاب النظريات الاقتصادية والسياسية .

وانبثق عن هذا الاتجاه ــ خاصة فى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ــ تلك الخرافة الخادعة الممجوجة التى تصور الشعوب الأنجلو ساكسونية .كأحسن مثال للشعوب المتسمة بالهدوء السياسى ، وأنها شعوب تتسم بمقدرة سياسية أصيلة . ثم برز اعتقاد لا يقل فى خطئه عن سابقه يصور الفرنسيين فى صورة النموذج الصرف للأمة الثورية غير المستقرة التى تفتقر تماما إلى القدرة السياسية[1] وكان هذا الاعتقاد الخاطئ فى أساسه سببا ــ أكثر من غيره ــ فى تشويه الدقة التاريخية والفلسفة السياسية فى القرن التاسع عشر . واستحال التغلب عليه تماما حتى يومنا هذا .

ثم ان انتشار فكرة ان الثقافة القومية ذات طبيعة نقية لها صبغتها الوطنية الخاصة وذاتها المستقلة ، ادت إلى تضييق وإنحسار النظرة العالمية الممتازة التى كانت لدى اصحاب المذهب العقلانى ، مما ركز الإهتمام بالتاريخ القومى[2] . ولم تلبث أن اصبحت العصور الوسطى هى أهم ما تدور حوله البحوث التاريخية عند كل الأمم ازاء النظرة إلى هذه العصور بوصفها ذات خصوبة خاصة بالنسبة للبحث التاريخى ، فضلا عن أن العصور الوسطى شهدت إنبثاق مختلف الثقافات القومية . هذا بالإضافة إلى أن تعاطف الرومانسية مع كثير من ردود الفعل العقلانية فى العصور الوسطى فيما يتعلق بمشاكل الوجود والتطور الثقافى . ومما قوى هذا الاتجاه الأخير أن كثيرا من الرومانسيين كانوا إما كاثوليك أو ممن رجعوا إلى الكاثوليكية . وأعتقد الرومانسيون ان اللغة هى أعظم سمات الشخصية الفريدة للثقافة القومية ، وهو الاعتقاد الذى تأصل فى ألمانيا حيث كانت اللغة هى الرباط الرئيسى للأمة ، مما أدى إلى وجود أبحاث عظيمة فى فقه اللغة إقترنت بأسماء هامبولدت ، وولف ، وجريم ، لاشمان .

---

(١) رغم ان الرومانسيين كان اتجاههم إلى التركيز على الناحية القومية فإنه كانت هناك نغمة عالمية فى فلسفتهم ترجع إلى حد ما إلى ان اهتمامهم بالثقافة الفلسفية التاريخية كان لها نطاقها العالمى . ولذلك هردر وقد جمع مادة عن روح الأغانى عند كل الشعوب وشيجل كتب عن الأدب العالمى (المؤلف)

(٢) Cf. H. G. Ford, the Anglo - saxson Myth American Marcury, Septemer 1924- and J. T. Shotwell' The political capacity of the Franch' in political science quartcrty March 1909.

وعلى الرغم من أن الكتابات التاريخية للمدرسة الرومانسية كانت تمجد الأمة التي إنتمى إليها أولئك الكتاب ، فإنها لم تزد عن كونها مجموعة من التراجم . ويرجع ذلك إلى حقيقة ما أحسوا به من سحر الحديث عن شخصية من الشخصيات . هذا إلى أن التراجم كانت تتفق مع افقهم الأدبي العريض . ويبين لنا هذا الاتجاه الذى بدأ — حتى فى المرحلة المبكرة من الرومانسية — كيف شاعت نظرية الشخص العظيم وإنتشرت قبل عهد كارليل بوقت طويل .

وازاء ما آمن به أصحاب المدرسة الرومانسية من أنه لا أمل يرجى وراء التحليل الفكرى المفصل لتعليل أحداث التاريخ ، فان فلسفتهم التاريخية دارت فى حلقة مفرغة . فبدون إعطاء أى تفسير علمى لتطور روح الأمه نجدهم يعزون خصائص النظم القومية وشرائع الأمة وآدابها ونظام الحكم فيها إلى عبقرية الأمة . وصورت خصائص القومية على أنها النتاج الفنى والأدبى والتشريعى والتنظيمى لبناء هذه القومية . وعلى الرغم مما يبدو من اتجاه معاد من أصحاب المدرسة الرومانسية لحركة الاستنارة ، وعلى الرغم كذلك من أفكارهم الفلسفية المتطرفة ، فانه من الانصاف لهم أن نقرر ما أكدوه من أهمية العنصر اللاشعورى على التطور التاريخى فضلاً عن تأكيدهم لحقيقة هامة وحيوية ، هى الترابط الأصيل بين مقومات الثقافة القومية . ولا يمكن أن نغفل الحقيقة الخاصة بأن اصحاب المدرسة الرومانسية كان مفهومهم عن تطور الثقافة وتطور الأنظمة أكثر سلامه وأوسع أفقا من مفهوم المؤرخين العقلانين بوجه عام . وإذا كانوا قد بالغوا فى خيالهم عن طبيعة العصور الوسطى وأهميتها ، فإنهم كانوا أصحاب الفضل فى تصحيح نظرة العقلانين الى تلك العصور ، وهى نظرة كانت مفعمة بالازدراء . ولم يبق على لامبرخت الذى جاء بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان أن يتناول كل ما هو قيم حقا فى المذاهب الرومانسية وأن يصيغ منها نظريته الشهيرة عن التطور التاريخى بوصفه عمليه تحول وتغيير بالنسبة للأمة والبشرية جميعا .

الرومانسية والكتابة التاريخية

كان أثر الرومانسية على الكتابة التاريخية كثيرا ومتشعبا ، ذلك أن مبادئها دخلت فى مجال البحث فى الأصول القانونية على يد أدموند بيرك ثم استخدمها فى نفس المجال بعد ذلك بطريقة منتظمة كل من كريستيان هوبولد (١٧٦٦ — ١٨٢٤ م) وكارل فردريك ايخهورن (١٧٨١ — ١٨٥٤ م) . وقد تناول ايخهورن فى كتابه (تاريخ القوانين والنظم الألمانية) نشأة القانون الألمانى بالمدرسة . وكان ايخهورن إبنا لأحد الأوائل الذين درسوا الحضارة

الشرقية دراسة علمية ، وأخذ عن أستاذه جوستاف هوجو (١٧٦٤ — ١٨٤٤) فكرة أن القانون هو نتاج موهبة قومية . والواقع أن ايخهورن نفسه كان وطنيا متحمسا ، بحكم أنه عاصر الفترة النابوليونية ، وساءه ما لحق ببروسيا حين إمتشقت الحسام ضد نابليون من هزائم فى موقعتى يينا واورشتاد سنة ١٨٠٦ . وقد شرع فى تطبيق تلك الآراء القومية فى دراسة مسهبه قام بها عن أصول القانون الالمانى . وقد عالج فى هذه الدراسة القانون الألمانى ككل وتناول سوابقه واتضح تأثير كل جوانب الثقافة القومية على تطور هذا القانون وأكد بصفة خاصة الطبيعة المتطورة للقانون . وقد مجد فى عمله هذا القومية الألمانية ووجه الانظار نحو الدراسات القانونية الألمانية .

وسار فردريك كارل فون سافينى (١٧٧٩ — ١٨٦١ م) فى نفس اتجاه ايخهورن ، فوضع كتابا بعنوان تاريخ القانون الرومانى فى العصور الوسطى وأوضح تأثيره على الثقافة والنظم . ولسافينى الفضل كذلك فى تأسيس الجمعية العلمية التى نسبت إليه والتى نشرت زبدة الدراسات الخاصة بتاريخ القانون . وعبر سافينى عن آراء المذهب الرومانسى واتجاهاته فى مناظرة شهيرة جرت بينه وبين ثيبو حول موضوع تقنين القانون الألمانى . ولما كانت هذه الفكرة ضد الاتجاه الرومانسى فإن سافينى عارضها بشدة . ويمثل دوره فى هذه المناظرة الخالدة أعظم وأقدر دفاع عن المفهوم القائل بأن القانون ليس إلا نتاج العبقرية القومية لأى شعب من الشعوب[1] . ثم كان أن تجسدت نفس وجهة النظر هذه فى كتاب ألفه عالم عظيم فى فقه اللغة هو يعقوب جريم (١٧٨٥ — ١٨٦٣) بعنوان الآثار التشريعية للشعوب الجرمانية ، وفيه استغل المؤلف معرفته الواسعة باللغة والعادات ليثبت أن القانون نتاج لروح الشعب .

والملاحظ ان اهتمام الرومانسيين حتى ذلك الحين بالقانون كان إهتماما ذا طبيعة تاريخية بحتة حتى جاء إدوارد جانز Eduard Gans (١٧٩٨ — ١٨٣٩) وخرج على التقاليد التى وضعها سافينى وأدخل لونافلسفيا على المناقشة التاريخية الخاصة بالقانون متأثرا فى ذلك بفلسفة هيجل . وعلى هذا الأساس قام جانز باستقصاء الحقائق المرتبطة بقوانين الميراث ، وذلك منذ أيام الصين القديمة حتى القانون الجرمانى فى العصور الوسطى . كذلك كتب جانز عن القانون الرومانى ودخل فى مناقشات عديدة مع سافينى حوله . وبدأت فى ذلك الدور حركة تناولت جوانب الثقافة للقومية المختلفة بإرجاع أصولها الى العصور الوسطى . وقد تناولت هذه الدراسة كذلك أصول الثقافة الميروفنجية وتضمنت دراسة المساكن والمدن والطوائف الحرفية وماشابه ذلك . والملاحظ أن الكتاب الألمان كانوا يميلون إلى تأكيد نظرية سيادة الاصل التيوتونى فى حين قال الفرنسيون بأن ثقافة العصور الوسطى ونظمها أساسها غالى رومانى .

---

(1)Aiw Small: Oregins of Socabgy (Cunwessity of chicago pncss 1925) Chap

أما فى ميدان الأدب وعلم الجمال فقد ظهرت وجهة النظر الرومانسية فيما كتبه رفقاء جريم واعنى شاتوبريان ، ومدام دى ستايل ، وفيليمن ، وجرفينوس ، وهم الذين جمعوا فى عمل فاق غيره من كافة النواحى عددا هائلا من القصص الشعبى والخيالى وما شابهه مما يعرف بأدب مارشن Marchen . أما فرانسو رنييه أوغسط دى شاتوبريان (١٧٦٨ — ١٨٤٨ م) فعلى الرغم من ميوله المحافظة فأنه عبر عن عملية تحول فكرى ملحوظ عندما كتب أول مؤلف هام له تحت عنوان « بحث تاريخى سياسى وأخلاقى حول الثورات » (١٧٩٧) وجاء مؤلفه هذا من وجهة نظر معارضة للثورة الفرنسية . وقد استعرض فيه اثنى عشر ثورة كبرى من الثورات التي قامت فى الماضى يثبت عدم جدواها وشراستها وإنها عمل تافه لم يخلد شيئا . ومع ذلك فانه اعترف إن الثورة الفرنسية كانت امرا لامفر منه . وفى عمله هذا نجده يشارك النظريات الفلسفية الفرنسية فى عدائها للمسيحية ، وإن كان قد تحول سنة ١٧٩٩ مثلما فعل أوغسطين الى الولاء للديانة المسيحية على أثر وفاة أمه . وهكذا مر فرانسو فى تحول فكرى جارف وتمكنت عواطفه من أن تنطلق من معاقلها ليخرج سنة ١٨٠٢ كتابة « عبقرية المسيحية » الذى أكد فيه ما أحدثته المسيحية من إلهام قوى للفن والشعر وكيف أنها دفعت البشرية نحو التقدم والكمال . وتميز هذا الكتاب بالاستعارات والتشبيهات الجميلة خاصة فيما جاء من وصف للطبيعة . وإستفاد شاتوبريان من زيارته للعالم الجديد ومما شاهد وحصل عليه من معرفة فضلا عن انه إستغل خياله أحسن إستغلال . ثم ظهر كتابه الثانى عن المسيحية فى عصرها الأول بعنوان الشهداء (١٨٠٩) وهو الكتاب الذى كان أبعد فى مسحته التاريخية من الكتاب السابق ، اذ إمتاز بمسحة الورع التى برزت فيه وتمجيده للمسيحية فى أيامها الأولى ، فضلا عن وصفه الرائع لغابات بلاد غاليا القديمة وللحياة التى عاشها المسيحيون الأوائل والمقابر التى دفن بها شهداؤهم ، كما تناول بالوصف الحضارة الرومانية فى ظل الامبراطورية . والواقع أن شاتوبريان كان له أكبر الأثر فى خلق الإهتمام بالوصف التصويرى وابتكار صورة عاطفية عن أصل المسيحية وتطورها . وكان لأعماله التى أشرنا اليها أخيرا أثر أكبر من غيرها فى القضاء على فكرة المتعقلين فى العصور الوسطى . وإمتاز كتابه (الشهداء) بنغمة قوية مما ادى الى رواجه ، اذ نجد شاتوبريان المسيحية الفرنسية . هذا الى أن ما كتبه عن ملك فرنسا الاسطورى فاراموند يعتبر من أروع وأبدع ما كتب . والحق أن مواهب شاتوبريان كانت أدبية أكثر منها علمية ويقول عنه الاستاذ رايت « أن شاتوبريان » واحد من أعظم الكتاب الذين يدعون لأنفسهم ماليس لهم وينسبون لأنفسهم نتاج غيرهم ، ولكنه أمتلك من الصفات ما غفر له كل ذلك ، اذ أنه ترك أثرا فى عصره لم يكن لأى شخص آخر منذ ايام روسو ، فضلا عن أنه يعتبر أب الرومانسية الفرنسية [1] .

---

(1) C.H.C. Wright - A history of French leter a ture (Oxford).

ثم يأتى الحديث عن مدام آن لويز دى ستايل (١٧٦٦ - ١٨١٦) Madame Anne Louise destaef كانت ابنة ينكر وزير مالية فرنسا فيما قبل الثورة . عشقت المذاهب الحديثة للثورة الفرنسية بتأثير من أفكار روسو . لكنها كرهت نابليون كعدو مزعوم للثورة والجمهورية . لذلك تركت فرنسا وسافرت فى طول البلاد وعرضها . وتأثرت بآراء شليجل وكونستانت . ويسبق عملها عن الثورة بما جاء به دى توكوفيل De Tocqueville من إنها (الثورة) نتاج طبيعى لظروف فرنسا فى القرن الثالث عشر .

أما أعظم كتاب لها فهو ما اسمته بالأدب وعلاقته بالظروف الاخلاقية والسياسة للأمم ، والذى صدر سنة ١٨٠٠ فقد استخدمت تاريخ الأدب لتؤكد نظريتها عن أن النماذج والأنماط الأدبية هى نتاج مباشر للمحيط الإجتماعى الذى يتأثر هو الآخر فى عمق بالوضع الجغرافى وخاصة المناخ . وقد استقت هذه الفكرة الأخيرة من مونتسكيو . وأكدت أن الديمقراطية هى نموذج إجتماعى جديد يحتاج إلى لون جديد من النماذج الأدبية . ولقد أوضح آخر وأطول أعمالها عن ألمانيا والذى صدر سنة ١٨١٠ أنها تأثرت كثيرا بالرمانسية المسيحية . وحاولت فى كتابها الأخير أن تبث المثل الفرنسية عن القومية فى ألمانيا وأن تثير أهتماما بالأدب الألمانى لدى القراء الفرنسيين .

ثم لدينا ابل فرانسو فيلامين Abel François Villemain (١٧٩٠ - ١٨٦٧) كان استاذا للأدب فى السوربون وواحدا من مؤسسى الدراسات الأدبية العملاقة فى فرنسا . وكانت محاضراته واحدة من المحاولات الأولى العملاقة فى الأدب الأوروبى المقارن . وطبع أجزاء منها فى مقتطفات من الأدب الفرنسى فى العصور الوسطى ومقتطفات من هذا الأدب فى القرن الثامن عشر . وقلد مدام دى ستايل وأكد بصفة خاصة القول باعتماد الأدب فى كل وقت على الأفكار السائدة فى المحيط الحضارى . وتبع هذا سانت بيف وتاين Saint Beuve and Taine

وسوف نتناول فيما بعد الكاتب جرفينوس بوصفه نموذجا للكتابه التاريخية الرومانسية ، ونكتفى هنا بالاشارة إلى كتابه الهام « تاريخ الشعر الألمانى » الذى حاول جاهدا فيه أن يبين العلاقة بين كل مرحلة من مراحل الأدب والشعر الألمانى من ناحية وبين الثقافة التى انبثق منها من ناحية أخرى . وثمة دافع سياسى معين دفع جرفينوس إلى تأليف هذا الكتاب وفضلا عما برز فيه من اتجاه خاص نحو الأدب الألمانى فقد كان يرغب فى أن يحث كبار مفكرى عصره للتخلص من الاهتمام بالشعر وتحويل جهودهم نحو العناية بدراسة موضوعات الاصلاح السياسى فى المانيا وأعتناق المذهب الليبرالى . وهكذا يبدو أنه بينما امتدح كبار الشعراء الألمان فى الماضى ، اذا به يخالف نفسه ويقول إن الألمان استنفذوا طاقتهم الخلاقة فى مجال الشعر وأن جوته يمثل آخر العباقرة الالمان فى ميدان الشعر .

وفى انجلترا كان أبرز كتاب المدرسة الرومانسية فى مجال التاريخ والأدب هو السيروالتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٣٢ م) الذى جاء انتاجه فى الأدب أكبر وأهم مما كتبه عن تاريخ الأدب ولا يوجد هناك أديب فعل أكثر مما فعله سكوت بما فى ذلك شاتوبريان نفسه وذلك فيما يتعلق باثارة الاهتمام بحياة العصور الوسطى ونظام الفروسية فيها . وتجلت مقدرته الأدبية الفنية فى المقدرة على اعادة صياغة الماضى فى صورة تتفق والصبغة المحلية الإقليمية . وكانت لكتبه « ايفانهو » و « تاليزمان » كذلك لرواياته عن اسكتلندا فى العصور الوسطى أثر كبير لا فى مجال الأدب وتذوقه فحسب بل على نظرة المؤرخين الى العصور الوسطى منذ أيام اوغسطين تيرى حتى اندرو و هوايت . ثم إن سكوت أخرج بعض الأعمال التاريخية البحتة مثل مؤلفه الطويل بعنوان حياة نابليون ، ولكنها جاءت ضئيلة الاهمية اذا ما قورنت بتأثير رواياته التاريخية على فكر المؤرخين الجادين .

وبينما جرت العادة على إرجاع بداية الكتابة التاريخية الرومانسية إلى عهد تلاميذ والترسكوت ، شاتوبريان ، اذا بالأستاذ بيردون وآخرين يؤكدون أن هذا النوع من الكتابة التاريخية بدأوها فى انجلترا قبل عصر سكوت وشاتوبريان . ودعم هذا الاتجاه الإيمان بالحياة الطبيعية البدائية فضلا عن الورع والخيال اللذين سادا بريطانيا فى العصور الوسطى . كذلك لعبت العنصرية دورا هاما فى هذا المجال إذ استبدلت الآراء التى سادت العصور الوسطى عن الأصل الطروادى للبريطانيين بنظرية جرمانية مفادها أن كل الأجناس الأوربية الهامة انحدرت من أصل قوطى بحيث يكون الحديث عن التاريخ الانجلو ساكسونى أمرا ثانويا إلى جانب بطولات القوط واعمالهم المجيدة .

وكان أن ظهر الاهتمام الجديد بانجلترا الأنجلوساكسونية فى عدد من المؤلفات ، أهمها تلك التى وضعها حنا ويتكر John Whittaker ، شارون تيرنر . أما عن ويتكر فكان أحد النقاد والمتحاملين على كل من هيوم وروبرتسون وجيبون . استهدف أن يعيد كتابة تاريخ العصور الوسطى فى انجلترا بشكل جاد . وحاول أن يحقق ذلك فى كتاب مطول عنوانه تاريخ منشستر (١٧٧١ — ١٧٧٥ م) . ولكنه لم يتم منه سوى الأجزاء الخاصة بعصر ماقبل الرومان . وحاول أن يرجع الخواص المميزة للنظم الانجليزية مثل البرلمان ، والاقطاع وحرية المواطنين ، إلى عصر ماقبل النورمان ، وبذل كل جهده ليبرز السحر الرومانسى ، لذلك الدور المبكر من التاريخ الانجليزى ، كما نافس بوسويه إلى حد كبير فى قدرته على تلمس القدرة الألهية فى صنع التاريخ .

أما شارون تيرنر الذى جاء بعد ذلك ، فهو أكثر مقدرة من ويتكر ووضع كتابه الرئيسى بعنوان « تاريخ الانجلو ساكون » (١٧٩٩ — ١٨٠٥) وفيه حث على ضرورة زيادة الأهتمام الدقيق بتاريخ بريطانيا المبكر وأوصى بدراسة الأنجلو ساكون قبل مجيئهم إلى انجلترا

دراسة دقيقة . وقد أثنى على الانجلوساكسون ومجدهم وقارنهم بأسلافهم الرومان الذين كانوا قد اصابهم الوهن والانحلال . وهنا نلمس البوادر الأولى لفكرة تفوق الانجلوساكسون على الرومان وهي بداية النعرة الجرمانية العنصرية التي وجدت التعبير الكامل عنها في كتاب شارلزكنسجلي (الرومان والتيوتون) . ومع ذلك فان كتاب تيرنر أول كتاب دقيق واضح عن انجلترا الانجلو ساكسونية وأدت به حماسته للانجلوساكسون إلى وقوعه في عدة أخطاء مثل محاولته إرجاع أصل البرلمان الانجليزي الى ما كان موجودا في انجلترا الانجلوساكسونية من مجالس تضم أساقفة وحكام المقاطعات وبعض مندوبي الملك ، ومحاولته ايضاح أن نظام المحلفين كان موجودا في انجلترا الانجلو ساكسونية وجاء هذا بادرة لتسرب الروح الجرمانيه لدى مؤرخي النظم الانجليزية . أما كتاب تيرنر عن التاريخ الانجليزي من الغزو النورماني حتى القرن السادس عشر فجاء أقل مستوى وإن كان إهتم إهتماما غير عادي بثقافة العصور الوسطى وآدابها ، وأوضح فيه علاقة بريطانيا بالقارة الأوربية . وكان يشارك هويتاكر إعتقاده بأن الرب هو صانع التاريخ يدير أحداثه ، وأننا في دراسة التقدم البشري نجد يد الله هي الموجهة والصانعة والراعية له .

ويمكننا كذلك ان نلمس بوضوح في اعمال جون بنكرتون ، ويوسف سترت أكثر من محاولة لتمجيد الثقافة البريطانية في العصور الوسطى وتصويرها تصويرا رومانسيا . ففي كتاب بنكرتون تاريخ اسكتلندا الذي ظهر بين سنتي (١٧٨٨ ـ ١٧٩٧ م) حماسة بالغة لإحصاء وتمجيد أدب بريطانيا في العصور الوسطى وخاصة الشعر في تلك العصور . وكان بنكرتون من أوائل زعماء الدعوة العنصرية ، اذ اعتقد في الأصل القوطي للشعوب الأوربية الرئيسية ، وشبه القوط بشعب اسكثيا الذين ورد ذكرهم في الكتابات التاريخية القديمة على أنهم أصل الشعوب القديمة . بل لقد ذهب إلى حد القول بأن البكتيين وهم شعب اسكتلندا كانوا من أصل قوطي . والواقع أن هذا التمجيد للقوطية لم يكن سوى نوع من الآرية المبكرة في القرن الثامن عشر . أما يعقوب سترت **Jacob Strutt** فأنه اتجه بالرومانسية لدراسة تاريخ العصور الوسطى من الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وهما الجانبان اللذان سبق أن ايدى أصحاب المدرسة العقلانية اهتماما بدراستها . وله في ذلك كتابان هما نظرة شاملة على ملابس الشعب الانجليزي وعاداته ، وقد ظهر هذا الكتاب بين سنتي ١٧٩٦ ـ ١٧٩٩ م) وكتاب « رياضة الشعب الانجليزي ووسائل التسلية عنده » وقد صدر سنة ١٠٨١ . وكان سترت مبتكرا ومعقولا في اعتقاده ان الألعاب الرياضية تعكس روح الشعب أفضل مما تعكسه الحروب التي يخوضها ذلك الشعب أو سياسته الدستورية والديبلوماسية .

ودخل الاتجاه الرومانسي الى تاريخ الكاثوليكية البريطانية في العصور الوسطى على يد مؤرخ كاثوليكي هو يوسف بيرنجتون (١٧٤٦ ـ ١٨٢٧) **Joseph Barington** فضلا عن اخويين من أسرة ميلز من اتباع الكنيسة الانجلية . أما بيرنجتون فكان قسيسا شارك الرومانسيين

حماسهم للحرية . ومثلما حاول سبتلر أحد رجال المدرسة العقلانية من جعل كنيسة العصور الوسطى الكاثوليكية تخدم المذهب العقلانى وتؤيده ، كذلك حاول بيرنجتون أن يبين أن الكنيسة الانجليزية الكاثوليكية فى العصور الوسطى كانت تؤيد بحماسة مبدأ حق المواطنين فى الحرية ، وركز على أحداث معينة لأثبات وجهة نظره ، مثل قضية توماس بكت . كذلك لجأ بيرنجتون فيما كتبه من أبحاث وكتب أخرى مثل ما كتبه عن ابيلارد ، وهلواز Heloise إلى تحميد كاثوليكية العصور الوسطى فى بريطانيا والقارة الأوربية . ومع ذلك فإنه ينتقد فى كتابه تاريخ الأدب فى العصور الوسطى الذى ظهر سنة ١٨١٤ الأدب والعلوم فى تلك العصور . أما يوسف واسحاق ميلز فقد أظهرا فى كتابهما (تاريخ كنيسة المسيح) الذى ظهر ما بين ١٧٩٤ – ١٨٠٩ حماسا للكاثوليكية الرومانية على الرغم من أن كتاباتهما جاءت من زاوية الكنيسة الأنجيلية ، ذلك أنهما حاولا جاهدين أن يوضحا أن المسيحية الحقيقية – أى تعاليم يسوع – هى التى كانت سائدة بصرف النظر عن شكل الكنيسة الخارجى ومذهبها ، وخرجا من ذلك إلى القول بأن العصور الوسطى شهدت كثيرا من خيرة المسيحيين الكاثوليك . ومن هنا فانهما حرصا على هدم وجهات نظر البرتستانت والعقلانيين سواء فيما يتعلق المسيحية فى العصور الوسطى . وكان موقفهما الرئيسى يتلخص فى أن المسيحية خرجت إلى الوجود فى (ثوب رومانى) وأن المؤرخ الوفى للمسيحية لا ينبغى أن يتأثر بهذه الحقيقية عندما يعالج تاريخ الكنيسة .

ولم يقف اصحاب المدرسة الروائية من المؤرخين الرومانسيين عند حد التأثر بالنظريات العامة والأراء التى اوردوها فحسب ، بل أنهم تأثروا كذلك باللون الأدبى الذى تضمنته روايات والترسكوت التاريخية بما تحويه من تأكيد وتركيز مستمرين على إبراز الطابع الإقليمى والمحلى . والحق ان هذا الاتجاه ليس الاتجاه السليم للتاريخ لأنه كان يستهدف اساسا تصوير أحداث من الماضى بطريقة تجعلها تبدو فى صورة الأحداث المعاصرة فى وضوحها والعيش فى أجوائها ، ومن ثم فإن إنتاج أصحاب هذا الأتجاه جاء عملا أدبيا أكثر منه كتابة تاريخية بالمعنى العلمى الصحيح . ومع ذلك فإن أثر هذا الاتجاه على الكتابة التاريخية السليمة يكمن فى أن عنصر التشويق الأدبى فيه أثار اهتماما كبيرا بالتاريخ فى شكل لم يسبق له مثيل . وكان أن انضم إلى ميدان الكتابة التاريخية فى الوقت المناسب كثير من العلماء البارزين أمثال ليوبولدفون رانكه الذى كانت جهوده وحده فى ميدان التاريخ أفضل من كل ما أسهم به رجال المدرسة الروائية الرومانسية بأسرها . ومن أهم ما أنتجته هذه الباقة المتنوعة فى مجال الكتابة التاريخية الرومانسية ، يحتل كتاب اوغسطين تيرى Augustine Thierry (١٧٩٥ – ١٨٥٦ م) عن تاريخ الغزو النورمانى لإنجلترا وقصص عن العصر الميروفنجى أهمية خاصة . هذا فضلا عن كتاب آمابل دى بارانت (١٧٨٢ – ١٨٦٦ م) – تاريخ الدويلات الأيطالية – تاريخ الأراضى المنخفضة والتاريخ العالمى لهنريخ ليو (١٧٩٩ –

١٨٧٨) وكتاب تاريخ القرن التاسع عشر لمؤلفه جورج جوتفريد جرفينوس (١٨٠٥ — ١٨٧١ م) .

أما عن ثيرى Thierry فقد تأثر فى شبابه بقراءة كتاب الشهداء لشاتوبريان ثم روايات والترسكوت التى قرأها بعد ذلك ببضع سنوات ، مما جعله يعطى اهتماما خاصا لإبراز الجانب المحلى فى كتاباته . وعندما أخذ يكتب كانت لديه فلسفة سياسية معينة خلاصتها الاخلاص للبرجوازية والنظام الجمهورى مع كراهيه للأرستقراطية وهو الشعور الذى كان قد استقاه إلى حد ما من سانت سيمون ، ثم أنه كان يعتقد ان الطبقات الأرستقراطية قامت على القهر والغزو ومساندة الغزاة الأجانب . وعبر فى كتاباته عن العصور الوسطى لكراهيته الشديدة للأرستقراطية الفرنسية القائمة فى أيامه ، فصور طبقة النبلاء فى العصور الوسطى فى صورة جماعة وحشية مستغلة غير مهذبة . اما فى كتابه عن الغزو النورماندى فقد وجد فى تاريخ وليم الفاتح والغزو النورماندى ما يدعم آرائه . كذلك فى كتابته عن الميروفنجين تتبع أصول الأرستقراطية الفرنسية وبين انها تنحدر من سلسلة من الدخلاء الأجانب تبدأ بالفرنجة ثم النورمان . ولا شك فى أن تعصبه العنصرى زاد من كراهيته للطبقات الأرستقراطية . على أن ثيرى لم تتوافر لديه قدرة ناقدة كبيرة عند رجوعه إلى المصادر التاريخية ، فعلى الرغم من انه استبعد المصادر الثانوية التى لايعتد بها ، إلا أنه لم يكن على قدر من الكفاية تمكنه من التحقق من صحة مختلف الروايات . ومع ذلك فإنه تمتع بخيال تاريخى بناء خصب وحاسة فنية وأسلوب سلس جذاب ، وكان لفلسفته السياسية الفضل فى جعل كتاباته التاريخية مقبولة لدى المفكرين البورجوازيين فى فرنسا . واذا كانت كتبه قد لاقت رواجاً هائلا عند صدورها الا أنها غير مقبولة اليوم بوصفها لا تعبر عن كتابة تاريخية حقيقية متزنة عن فرنسا أو انجلترا فى العصور الوسطى أما كتاباته عن الكومونات الفرنسية فى العصور الوسطى فإنها تعبر تماما عن ميوله البرجوازية .

أما بارانت فكان بوصفه مؤرخا أقل كفاية من ثيرى ، ولكنه كان أعظم منه فى قدرته على تصوير الصبغة المحلية للتاريخ ، وكان متأثرا بسكوت شأنه شأن تيرى واتجه فى انتاجه إلى تقديم سرد روائى ممتع جذاب يقوم على اساس تاريخى . واختار لدراسته تاريخ مقاطعة برجانديا فى العصر الذى تناولته أقلام كبار المؤرخين فرواسار وكومين . ومن المعلومات التى استقاها من المصادر المعاصرة لتلك الفترة حاول اخراج رواية رائعة . وعلى هذا الأساس يمكن القول ان عمله كان اعادة صياغة لحدث من الأحداث بأسلوب بلاغى . ومع ذلك فقد كانت تنقصه القدرة الناقدة التى تمكن الكاتب من تقدير مدى صحة المصادر التى استند اليها . ولم يسمح بارانت لآرائه الخاصة أن كان لديه شيئ من هذه الآراء — أن تترك انطباعها على سرده التاريخى ، ولذلك فان عمله جاء خاليا تماما من أية تأملات أو تفسيرات أو شرح أو نظرة فلسفية . ومع ذلك فإن أسلوبه الساحر كان كفيلا بأن يجذب إليه جمهرة كبيرة من القراء المتحمسين .

أما عن ليو Leo فانه خير نموذج يعبر عن اتجاه المدرسة الروائية فى الكتابة التاريخية الرومانسية فى ألمانيا . وكانت أهم اعماله هى تلك التى تناول فيها المدن الإيطالية المستقلة فى العصور الوسطى فأعاد تصويرها مبرزا اللون المحلى الذى إصطبغت به كتابات المؤرخين فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من تأثر ليو فى شبابه بالمذهب الليبرالى Liberalism فانه تحول بعد ذلك إلى الجانب المحافظ . ومع أنه أحتفظ بمذهبه البروتستانتى من الناحية الشكلية ، الا أنه سرعان ما أصبح منحازاً من الناحية العاطفية الى كاثوليكية العصور الوسطى ، الأمر الذى جعل له نفس روح شاتوبريان تقريبا . ولم يظهر هذا الاتجاه عند دراسته للعصور الوسطى فحسب ، ولكن ظهر أيضا فى حكمه القاسى على اليهود وعلى لوثر وعلى حركة الإصلاح الدينى وعلى الثورة الهولندية ضد أسبانيا الكاثوليكية . ولكنه فقد شعبيته أثر نزاعه مع فون رانكه وغيره من الأعداء الذين دخل معهم فى صراع مرير . وأما اسلوبه فقد أتصف بالوضوح وتفوق على كل من ثيرى وبارانت فى استخدامه المصادر بشئ من القدرة على التفضيل بينها .

أما جرفنيوس فكان تلميذا لشلوزر وكانت أكثر أهتماماته بالناحية السياسية على حين أنه كان أقل اهتماما بالجانب الأخلاقى من استاذه . وكان شاغله السياسى هو تحرير ألمانيا ، ولذا فإن غرضه السياسى الواضح من وراء كتابه عن تاريخ الشعر الألمانى هو إثبات أن ألمانيا انتجت مايكفيها من روائع الشعر وأنه لم تعد هناك حاجة للمزيد منه ، وأنه على شعراء عصره أن يحولوا أنتباههم إلى السياسة . وكانت أهم أعمال جرفينوس كتاب بعنوان «تاريخ القرن التاسع عشر» تتبع فيه بصفة خاصة الحركات والاتجاهات الدستورية والديمقراطية والجمهورية . وقد اعتبر المعركة من أجل الحرية نضالاً للأفكار الديمقراطية التى صحبت حركة الإصلاح الدينى وتحدت الأرستقراطية الموروثة عن كنيسة العصور الوسطى من ناحية وعن النظام الملكى وطبقة النبلاء فى تلك العصور من ناحية أخرى . ويوضح ذلك أن تفهمه لحركة الإصلاح الدينى كان محدودا لأن هذه الحركة فى بعض نواحيها جاءت تدعيما للحق الألهى للملوك والملكية المطلقة . ولم يكن يحفل بالوحدة الألمانية حيث أن تحقيقها يتم على اساس التضحية بالحرية .

وثمة تأكيد للجانب الموضوعى فى المدرسة الروائية ، يبدو فى اعمال مجموعة من الشعراء الغنائيين الموضوعيين أمثال ميشليه ، وكارليل ، وفرويد Froude وهم الذين يعبر انتاجهم عن محاولة لإبراز الطابع المحلى على سير الأحداث التى يسردونها وفى نفس الوقت إبراز الإنطباعات والاتجاهات الذاتية للمؤلف . وقد استهدفوا تصوير الاحداث للقارئ وكأنها تدور فعلا أمام عينيه حتى يشارك الكاتب إحساساته وانطباعاته .

ويعتبر كتاب تاريخ فرنسا الذى ألفه جولس ميشيله Jules Michelet (١٧٩٨ - ١٨٧٤ م) من أعظم الكتب الأوروبية التى كتبت عن تاريخ فرنسا فى أى عصر

سواء من ناحية فصاحته او من ناحية عرضه المثير . ذلك أن المؤلف تملكته مشاعر حب جارف لوطنه وتوافرت لديه قدرة خيالية خلاقة رائعة ، وكتب بأسلوب اتسم بروعته وقدرته على استخدام الكلمة والتأثير بها فضلا عن المهارة فى استخدام الرمزية . وظلت نظرة ميشيله الرومانسيه وطريقته فى كتابة التاريخ ثابتة دون أن يطرأ عليها تغيير طوال حياته ، وإن كانت اتجاهاته السياسية والدينية فضلا عن مزاجه قد انتابها التغييرات الكثيرة مما أثر على نغمة كتاباته التاريخية . ذلك أنه بدأ كاثوليكيا مخلصا ولكنه تحول بعد ذلك إلى الليبراليه وعشق العلم والمعرفة

وقد اقنعته دراسته وترجمته لكتاب فيكو عن العلم الجديد أنه من الممكن التوفيق بين العلم والعقيدة ، وبهذه الروح خرجت كتاباته المبكرة ذات اهمية ضئيلة . ثم أنه نتيجة لاعتناق تلك الآراء انتقد نفسه فى كتابه الكبير الذى ألفه تحت عنوان (تاريخ فرنسا) . وبعد ذلك أمن مبادئ الثورة الفرنسية وروحها ولعب دورا بارزا فى سياسة فرنسا التحررية . ولما كانت الكنيسة الكاثوليكية تقف من وراء الرجعية السياسية فى فرنسا ، فان ميشليه لم يتحول تدريجيا إلى ديموقراطى حر متطرف فحسب بل إلى عدو للكنيسة وبهذه الروح كتب الأجزاء الخاصة بالعصر الذى عقب العصور الوسطى من كتاب (تاريخ فرنسا) . ويعلل هذا الاختلاف الواضح بين روح الكتابة فى الأجزاء الأولى وبين روحها فى الأجزاء الاخيرة من كتابه .

كان ميشليه يعتبر التاريخ الرواية التى تحكى مأساة الحرية الانسانية ، ولذا لم يهتم اهتماما كبيرا بفلسفة التاريخ بقدر ما اهتم بالتعبير الفنى الكامل عن الدراما الانسانية فى ماضى العصور . وكتب ذات مرة يقول :

« رأى أوغسطين تيرى فى التاريخ رواية تسرد ورأى فيه جيزو تحليلا للاحداث أما أنا فاعتبره بعثاً . » وكانت وطنيته قد تبلورت فى صورة حب قوى « لروح الشعب الفرنسى » . والواقع أنه فعل أكثر مما فعل أى مؤرخ رومانسى فرنسى آخر لإذكاء القومية الفرنسية . ولم يفعل ذلك فى كتابه عن تاريخ فرنسا والثورة الفرنسية فحسب ، بل ايضا فى كتابه الشعب الذى يعتبر مثالا رائعا للقومية الرومانسية وعلى الرغم من ان ميشليه قد قلَّب مصادر التاريخ الفرنسى بإجتهاد كبير وعلى نحو أشمل مما فعله أى مؤرخ فرنسى روائى آخر ، فانه لم يقم بغربلة تلك المصادر وتقييمها مثلما فعل فون رانكه . وكل ما فعله هو أنه تناول هذه المصادر بحثا عن لون محلى يضفيه على سرده وهو نفس ما فعله برانت . وكان ميشليه يعتقد أن خير ما تجمع منه المادة الخام للدراما التاريخيه هى المصادر . وكان كتابه « تاريخ فرنسا » عبارة عن مناظر مثيرة عظيمة متتابعة أكثر منها سردا محكما منتظما . ومن القطع الرائعة التى تستحق اهتماما خاصا تلك التى كتبها عن الرواية وعن جان دراك . وعلى الرغم من اهتمامات الرومانسية والأدبية ، فان علاجه للأسس الجغرافيه والتاريخ الفرنسى جاء خير ملخص كتبه مؤرخ حتى الأزمنة القريبه . هذا إلى ان ما كتبه ميشليه عن العصور الوسطى جاء عرضا مشحونا بالعاطفه عن اصول الأمة

الفرنسية ، كما أنه يتضمن فى نفس الوقت إشادة بالكاثوليكية الفرنسية بصورة تجعل القارئ يتذكر شاتوبريان الذى اثنى عليه ثناء عاطراً .

ثم كان أن حدث تغيير فى مزاج ميشليه فترك العصور الوسطى فى نهايتها لينتقل فجأة إلى الثورة الفرنسية . وكان كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » تحفة ادبيه رائعة وجدلا حرا مضادا للكنيسة . وقد فسر الثورة الفرنسية على أنها العمل النبيل للشعب الفرنسى المتحرر ، وأثنى بصفة خاصة على دانتون . وصور الثورة فى صورة انتصار عظيم على طغيان الكنيسة والملكية على السواء . وبعد أن انتهى من هذا الكتاب بدأ يملأ الفراغ الذى كان قد تركه فى كتابه عن تاريخ فرنسا من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية . وفى هذا الجزء انتقد الملكية والارستقراطيه الفرنسية انتقاداً شديدا ، كما انتقد كذلك الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . وكان جريئاً وجدداً فى إدانته لمذبحة سانت بارتولوميو وإلغاء مرسوم نانت . وكلا الحدثين يرتبط بالتراث القومى للأمة الفرنسية ويفخر به الفرنسيون جميعا ويوضح ذلك مدى سلطان المذهب الكاثوليكى على النظرة التاريخية الفرنسية فى ذلك العصر . ومن الطبيعى أن يكون حقد ميشليه على المستبدين مصحوبا بالعطفة على الذين وقع عليهم الغبن .

أما الكاتب الانجليزى توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١ م) فهو لا يرقى إلى مستوى سابقيه من الكتاب ، وليست له أهمية كمؤرخ ، بل إنه على النقيض من ميشليه - لم يكن يقيم وزنا كبيرا للجماهير فى الوقت الذى بالغ فى أهمية الشخصيات الكبرى فى التاريخ . وكان كارليل يعتقد أنه « لا بد من تدريب قطيع العامة ولا بد من قيادتهم وأن يلقوا عقابهم على أيدى من هم اسمى وأرق منهم » كذلك كان يعتقد أن التاريخ ليس إلا « ترجمة جماعية » للشخصية العامة البارزة على مر العصور[١]

ويعتبر كارليل مسئولا مثل اى مؤرخ آخر عن عدم الاهتمام والاحتقار التقليدى الذى صار سكينه المؤرخ الحديث لأمور الحياة اليومية العادية وهى الأمور التى كان لها فى غالب الأحيان تأثير التطور الاجتماعى أكثر مما كان لكبار الشخصيات . وعلى الرغم من السمو الأدبى الذى تتكشف عنه تراجمه للشخصيات التى تناولها ، الا أن اهتمامه ظل مركزا حول مدى ما أنجزته هذه الشخصيات من أعمال عادت بالنفع على الجميع . ومن كتبه (رسائل وخطب كروموبل) و (تاريخ فردريك الكبير) و (الثورة الفرنسية » وقد ضمنها جميعا آراءه فى مهارة فائقة . وعلى الرغم من أن هذه الأعمال ليس لها إلا قيمة متوسطة حيث انها مصادر المعرفه

(١) قامت نظرية كارليل على اساس ان التاريخ تجميع لعدد هائل من التراجم الخاصة بالعظماء والحقراء. من هو صاحب الفضل العظيم ذلك الذى كسب معارك كاناى وتراسمين أم ذلك الفقير المهجول الذى كان أول من صنع لنفسه فأسا من الحديد . ولكن من الناحية العلمية أعطى كارليل اهتماما للعظماء وتجاهل الوضعاء وان لم يعبر عن احتقاره لهم .(المؤلف)

وعلى الرغم من تحيز الكاتب الواضح وإفتقار كتبه الى المنهج الناقد وقلة إعتماده على المصادر جيدة النشر والترتيب ، فانه كان على الرغم من هذا كله صاحب شهرة كبيرة « كأعظم كاتب انجليزى فى تصوير الشخصيات » .

ثم ان كتاب كارليل عن كروموبل يمثل جهدا عظيما فى الدفاع عن شخصية كروموبل . وقد نجح المؤلف فى ذلك الدفاع تماما . ولكنه لم يأت فى هذا الكتاب بجديد فى مجال التاريخ الدستورى كما أن التوفيق خانه كلية فى تحليل العوامل الإقتصادية والإجتماعية التى لازمت الحرب الأهلية وقيام الكومنولث . أما كتابه الخاص بترجمة حياة فردريك الكبير فقد جاء فى صورة صندوق جمع فيه صورا عديده من أعظم صور البلاغة التاريخية . وقد إحتوى هذا الكتاب على تصوير لأبرز الشخصيات العامة فى عهد فردريك أو مع ذلك فإنه عجز عن أن يجعل من كتابه مرجعا لتاريخ النظم فى عصر الملكيات المستبدة المستنيرة أما كتاب « الثورة الفرنسية » فانه مجموعة من « الشخصيات المصورة » مجردة عن أى فهم عميق لأصول تلك الحركة العظيمة وطبيعتها وسيرها . هذا إلى أنه يقر الرأى غير السليم القائل بأن الثورة الفرنسية كانت من بدايتها من عمل الغوغاء القوميين الهمجيين . ثم إنه لم يلتزم الدقة لا فى كثير من التفاصيل فحسب ، بل وفى الفكرة العامة . ومع ذلك فان كتابه قطعة أدبية ممتازة ويناقش كتاب ميشليه الذى يمتاز عنه بشروحه وفى تفسيره للأحداث . وقد لاقى كتاب كارليل رواجا كبيرا فى عصره ومازالت له نفس الشهرة لدى جماهير القراء الذين يبتغون المتعة أكثر من المعرفة . وأحسن حكم على كارليل هو ذلك الحكم المختصر الذى أصدره ليزلى ستيفن عندما قال عنه . إن هناك فرقا بين من يصنع العبارة وينمقها ويضفى عليها الجمال وبين من يستهدف البحث لذاته .

ونتطرق بعد ذلك الى الحديث عن أحد تلاميذ كارليل وهو جيمس انطونى فرويد James Anthony Froude (١٨١٨ – ١٨٩٤ م) الذى اقترن اسمه بعدم الدقة فى السرد التاريخى وإن كان أكثر كفاية من استاذه كمؤرخ . وترجع أخطاء جيمس الى ضعف ذاكرته وإهماله المستمر ، لكنه لم يتعمد الخطأ وعدم الدقة بل كان يقدر القيمة العظيمة لمنهج النقد . وقد أنتج أول كتاب مطول فى التاريخ الانجليزى ، اعتمد فيه بصفة اساسية على الوثائق غير المنشورة . ولايقر خيرة الناقدين له اليوم وأكثرهم حيدة التهمة التى رماه بها معاصروه ومن بعدهم فيوتر من أنه كان يغير من مصادره ويزورها عمداً لكى تتوافق مع معتقداته . وجاء كتابه (تاريخ انجلترا منذ سقوط ولزلى حتى هزيمة الارمادا الاسبانى) عبارة عن ملحمة انجليزية تصور الخلاص من عبودية روما . ويبدو تأثيره بمنهج استاذه كارليل فى حرصه على تناول الشخصيات الكبرى ، ومن ذلك علاجه لشخصية كل من هنرى الثامن ، بيرليه ، نوكس . ولانجد من يدانيه بين مؤرخى المدرسة الروائية الانجليزية سوى ماكولى وفى

هذا يقول جوش Gooch : «ليس هناك مؤرخ آخر سوى فرويد يملك أسلوبا سهلا سلسا نقيا مثل إسلوبه» .

ولقد مرفرويد شأنه شأن ميشليه بتقلبات نفسيه عميقة ولكنها غدت واضحة قبل أن يبدأ وضع مؤلفه التاريخي الكبير . ففي بداية أمره كان يعطف على الحركة المؤيدة لسلطان الكنيسة العليا فى اكسفورد لكن ذلك أدى به الى اتجاه مضاد لاتجاه كل من مانتج ونيومان . فأصبح عدوا لروما ومؤيدا لحركة الإصلاح الدينى فى انجلترا وشجعه كارليل على أن يكتب أول عرض مطول لثورة الكنيسة الأنجليزية على سلوك البابوية فى روما باستخدام المصادر الأصلية . وكانت هناك ثلاثة خيوط حددت الطريق الذى سار فيه أولها : حرصه على إبراز مفاسد الكنيسة فى روما ، ثم ما تشربه من استاذه كارليل من تقديسه للشخصيات الكبيرة ، وأخيرا إعجابه بماكولى كروانى . والحق انه فانه كل من كارليل وماكولى فى اثارته للانفعالات النفسية . هذا إلى أنه جمع الى حد ما بين قدرة ماكولى الروائية ومقدرة كارليل على تصوير الشخصيات ، فضلا عن أنه كان فى سرده أشبه بالمحامى الذى يرتب مرافعته الطويلة المليئة بالأدلة . وقد دافع بحرارة عن هنرى الثامن ولكنه لم يظهره فى صورة الجدير بالثناء والمديح فى مجال السياسة الواقعيه ، كما أنه لم يوضح ما قام به هذا الملك فى الميادين الاقتصادية والسياسية . ولم يعط فرود للملكة اليزابيث وزنا كبيرا وإنما عزا عظمتها إلى بورليه . ونظر الى جون نوكس على انه الرجل الذى ساعد حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا فى حين أن نظرته كانت عدائية الى مارى ملكة الاسكتلنديين . وعلى الرغم من كافة أخطائه فان انتاج فرويد يمثل اكمل تاريخ مبتكر قام به مؤلف على حدة لحركة الإصلاح الدينى فى انجلترا . ولعلنا نجد تبريرا جزئيا لما إتسم من تطرف ومبالغة فى الحقيقة الخاصة بأن حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا تعرضت على أيامه لهجمات فيها الكثير من الزيف من جانب السلطات الكنيسة العليا والمرتدين الجدد الى الكاثوليكية .

واذا ما أنتقلنا الى الحديث عن الكتابة التاريخيه المتأثرة بالرومانسية فى روسيا نجد هناك كتاب نيقولا كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦م) بعنوان (تاريخ الدولة الروسية) وهو يحكى قصة الروسى حتى سنة ١٦١١م ويعزى التقدم الذى حققوه الى عبقرة الشعب الروسى نفسه ، خاصة تلك العبقرية التى استمدها من تراثهم الشرقى وكنيستهم الشرقية كذلك إنتقد كارامازين المذهب الحر (الليبرالى) والثقافة الغربية مما حقق لكتابه رواجا فر دوائر مدرسة الفكر الروسى المعادى للغرب .

وفى بولندا وضع المؤرخ القومى الشهير جواكيم ليلويل Joachim Lelewel (١٧٨٦ - ١٨٢٦) كتاب بعنوان (تاريخ بولندا فى العصور الوسطى) وهو يتفق فى مادته مع المفهوم الرومانسى عن التطور الثقافى . أما فى إيطاليا فهناك كذلك سمات

رومانسية عديدة فى أعمال بعض الكتاب الإيطاليين أمثال كارلو ترويا ، مويجى توستى ، سيزار باليو ، سيزار كانتو ، وسوف نتناول أعمالهم فى مجال آخر .

أما فى الولايات المتحدة فكان أبرز ممثل مدرسة كارليل وفرود هو حنا لوثروب موتلى (١٨١٤ – ١٨٧٧ م) الذى كان صديقا لبسمارك وزميلا له فى الدراسة . وقد كرس حياته لسرد نضال الأراضى المنخفضه ضد اسبانيا وقيام الجمهورية الهولندية . وكان عشقه للحريه ودفاعه عنها قد فاق كل من ميشليه وفريمان ، فوجد فى تتبع الثورة الهولندية وقيام الجمهورية الهولندية مادة مناسبة تماما للدفاع عن الحرية . ولا يوجد من المؤرخين الانجليز سوى كارليل من يدانيه فى التصوير اللفظى وروعة الوصف ووضوحه هذا إلى ان موتلى تتلمذ فى صباه على يد بانكرفت ، وتعلم اللغه الالمانيه ووجد من شجعه على الذهاب إلى المانيا للدراسة فيها . وفى جوتنجن قابل بسمارك . ولقد دفعه تأثره بآراء بانكروفت وما كتبه هذا الكاتب عن الثورة الأمريكية إلى الحديث عن الحرية وتقصى نشأتها ونشأة الثورة الهولندية وعلى الرغم من ان موتلى من الموحدين المسيحين فانه لم يكن من البروتستانت المتعصبين انما كان مقتنعا بطغيان سلطة الكنيسة فى روما ، ومن ثم فأن كتابه قيام الجمهورية الهولندية ، جاء جدلا فصيحا مؤيدا مبدأ الحرية والنظام الجمهورى ، وإستمراراً للهجوم على الكاثوليكية والإستبداد الاسبانى . وكان وليم الصامت يمثل شخصية البطل فى هذا الكتاب ولذا قارنه موتلى بالزعيم الأمريكى فى واشنطن . أما دور الاشرار فى كتابه فقد قام به فيليب ، الفا Alva ثم أتبع موتلى هذا الكتاب بكتاب آخر لا يقبل وضوحا عنوانه ، تاريخ هولندا المتحدة ، ثم كتاب ثالث عنوانه حياة بارنفلدت ونهايته ، وتعرض هذا الكتاب الأخير للنقد من جانب اتباع المصلح الدينى كالفن فى هولندا بسبب مهاجمة تطرف اتباع كالفن فى تقرير شاتولور ، وموريس . والواقع أن موتلى نقب طويلا بين المصادر فى صبر ولذا كان عمله دقيقا نسبيا . واذا كان هناك خلاف حول مدى تعصبه وتحيزه ، فأنه لا يوجد خلاف حول القيمة الأدبية الكبرى لأعماله الرائعة فضلا عن قدرته على تصوير الشخصيات .

وبعد ، فأنه اذا كانت المناهج الرومانسيه قد استحوذت بعض الشئ على عقول كبار العلماء أمثال فون رانكه ، فأن تلك المفاهيم ساعدت على زيادة اهتمام الكاتب بالتاريخ أكثر مما أضرت باهتمامه بالبحث . هذا الى أن الرومانسية بما أكدته من عبقرية الأمة وبما لها من اساس عاطفى كان لها أثر كبير وبعيد فى دفع عجلة التاريخ القومى الذى هيمن على الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر .

لم تنشأ فلسفة التاريخ لأول مرة فى العصر الرومانسى ، وإنما وجدت تلك الفلسفة داخل إطار نظرية التقدم التى ظهرت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر والتى عالجناها فى الفصل السابق . والواقع أن المؤرخين المسيحيين من إيزيبوس حتى بوسويه كانت لهم فلسفة تاريخيه محددة قائمة على الملحمة المسيحية . وظهرت هذه الفلسفة فى أروع صورها فى أعمال كل من أوتو الفريزى ، بوسويه . ولكن الرومانسية هى التى أمدت فلسفة التاريخ بطاقه كبيرة ودفعتها دفعة قوية . ولم يلبث هذا التأثير أن تخطى دائرة الرومانسيين الصرفة الى دائرة العقلانين الذين جاءوا بعد ذلك . والواقع انه كانت لدى الرومانسية اسباب كافية ووجيهه للإهتمام بالفلسفة المرتبطة بتاريخ الانسانيه ، اذ أدى اهتمام العقلانين والرومانسيين على السواء بالتاريخ إلى توفير كمية هائلة من المعلومات التاريخية العملية التى يعتمد عليها والتى يمكن منها التوصل إلى أحكام وعموميات كثيره . ثم كان أن أكد الرومانسيون بصفة خاصة فكرة الترابط والوحدة الأصلية بين أفرع الثقافة القومية ومبدأ التطور فى الثقافة والنظم . هذا كله بالأضافة إلى أن نظرة الرومانسية إلى باقى البشرية وهى نظرة يشوبها بعض الغموض والعاطفه خلقت جوا فكريا مثاليا للتفاعل فى ذلك الوقت .

وثمة جدل طويل دار حول تحديد من هو الأب لفلسفة التاريخ ، ورشح لنيل هذا الشرف العظيم عدد كبير من المؤرخين من هيرودوت حتى هيجل . ولكن يبدو من المناسب أن نرجح أكثر الأراء قبولا وهو اختيار فيكو بوصفه أول كاتب له أنتاج قيم فى الفلسفة التاريخية وقد سبق أن أشرنا الى رأيه الخاص بأن التقدم يتم على شكل دائرى حلزونى ، بمعنى أن التطور التاريخى فى رأيه عبارة عن عمليات خلق وتغيير فى فكر البشر بصفة عامة وتغيرات فى سمات الروح الانسانية من عصر لآخر . وحدد فيكو ككثير من فلاسفة التاريخ اللاحقين ثلاث مراحل رئيسية للتطورالتاريخى ، وهى بالنسبة له المراحل آلألهية والبطولية والانسانية . اما المرحلة الألهية فأنها تميزت بسيطرة المشاعر والعواطف الجياشة فى عالم الروح ، كما أن من سماتها سيادة الثيوقراطيه فى عالم السياسة . اما المرحلة البطولية فهى مرحلة ظهور قوة الخيال الشعرى وسيطرتها على الفكر الجماعى ، وقد افسحت هذه المرحلة المجال للأرستقراطيه فى عالم السياسة .

وأخيرا تمثل المرحلة الثالثة المعرفة الايجابيه فى الفكر الجماعى وهى التى انجبت الحركة السياسية التى تجسدت فى الملكيات الدستورية والجمهوريات . وكان فيكو كما سبق أن أوضحنا يعتقد أن هذه الدورات الثلاث تعيد نفسها ولكن ليس على نفس المستوى ، اذ أن هناك تقدم حلزونى الشكل فى ثقافة الجنس البشرى . ومن الواضح أن أفكار فيكو جاءت متوافقة فى كثير من النواحى الرومانسيه ، وعلى الأخص فكرته عن التغيرات التى تطرأ على الروح الجماعية للجنس البشرى وفكرته عن يد الله فى صنع أحداث التاريخ . هذا الى أن فيكو كما سبق أن أشرنا مصدر وحى والهام مباشر لواحد من أبرز المؤرخين الرومانسيين هو ميشليه .

ما أسهم به الالمان فى مجال فلسفة التاريخ

اذا كانت هناك تأملات فلسفية هامة حول التطور التاريخى فى كتابات روسو ، تيرجو ، كوندرسيه وغيرهم ، إلا أن يوحنا جوتفريد فون هردر هو صاحب أول جهد هام فى وضع فلسفة للتاريخ ، وهو الأمر الذى تم فى كتابه المكون من أربعة أجزاء بعنوان (أفكار حول فلسفة تاريخ الجنس البشرى) . والواقع أن منهج هيرور كان حدا فاصلا بين مدرسة روسو العقلانيه من ناحية والمدرسة الرومانسية من ناحية أخرى ، حتى ان البعض يضعه فى قائمة العقلانيين فى حين يضعه البعض الآخر فى قائمة الرومانسيين . واعتقد هردر أن مسيرة التاريخ هى نتاج للعمل المتداخل والتزاوج الذى يتم بين الظروف الخارجيه المحيطة وبين ما يعرف بالجوهر أو الروح Geist وهى الحصيلة الدينامكية للدوافع الشخصية . وليس لهذه الكلمة الألمانية Geist مقابل فى الانجليزية دقيق . كذلك اعتقد هردر أن كل حضارة تنمو ثم تزدهر وبعد ذلك تخفت وتنحدر طبقا لقوانين النمو الطبيعية .

وقد أجمل روبرت فلنت آراء هردر الرئيسية فى فلسفة التاريخ على النحو التالى :

١ — إن آخر مراحل الطبيعة البشرية هى المرحلة التى تعرف بالمرحلة الإنسانية ولتحقيق الوصول إليها وضع الله مصائر الشعوب فى ايديهم هم ..

٢ — لابد على مر الزمن من خضوع القوى المدمرة فى الطبيعة للقوى التى تصون وتحفظ ، بل لابد فى النهاية من تسخير هذه القوى المدمرة نفسها لكى تبلغ البشرية مرحلة الكمال .

٣ — قدر للجنس البشرى أن يمر بدرجات مختلفة من الحضارة وبثورات عديدة ولكن رقيه الدائم ووفاته يكمنان أساسا فى الاعتماد على العقل والعدل .

٤ — لابد على مر الزمن من أن يزداد التعقل والعدل رسوخا بين الناس وذلك طبقا لطبيعة

العقل البشرى ذاته ، وهو أمر يساعد مرحلة الانسانية على أن تقوى وترسخ جذورها .

٥ — هناك قوة خيرة عاقلة تحدد مصير الجنس البشرى ، ولذلك فانه ليس شيئا أجدر ولا سعادة أفضل من تمكين هذه القوى العاقله من ان تتصرف وتخطط لمصير البشرية .[١]

ومنذ أيام هردر حتى زمن هيجل ظلت الفلسفة التاريخية تتأثر بآراء ونظريات المفكرين الألمان من اتباع المذهب المثالى التجريدى German Transcendental Idealists . ولم يفعل أصحاب هذه النظريات والآراء الثقيلة النطق الا الشئ القليل أكثر مما عمله اتباع لوثر وبوسويه . وكل ما هنالك هو انهم ادخلوا تغييرات على مصطلحاتهم . فالوجود المطلق عندهم هو الله عند السابقين عليهم ، والكشف عن اسرار الكون تقابل ما عبر عنه اتباع لوثر وبوسويه بأنه القدرة الالهية وتصرف الله فى هذا الكون .

وبعد مرور سنوات قليلة من قيام هردر بنشر أول نبذه عن فلسفته التاريخيه ظهر رأى آخر عن نفس الموضوع ينسب الى أعظم الميتافزيقين الألمان عما نويل كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤ م) ذكره فى كتابه (فكرة عن التاريخ العالمى) . وهو الرأى الذى أوضحه كانط فى كتاب لاحق بعنوان « السلام الدائم » . أما خلاصة هذا الرأى فهى ان ديناميكية التاريخ ترجع الى الصراع القائم بين كل من شخصية البشر والمجتمع أو بين الأنانية والإيثار أو بين الفردية والجماعية . فالاولى ينجم عنها التقدم والثانية هى التى تحدد نظام المجتمع البشرى . وتتولد الحضارة من المزج بين الأثنين . والدولة المثالية أو التى بلغت مرحلة الكمال هى تلك التى تجمع بين الحد الأقصى من الفرديه الخلاقه والحد الأدنى من سيطرة أو رقابة الدولة فى سبيل ضبط النظام . وواجب رجالات الدولة وسلطاتها هو تيسير السبيل لهذا الجمع والترابط . ويتطلب النجاح فى ذلك إنتشار السلام حتى يمكن تسخير كل خبرة جميع المواطنين وذكائهم لحل هذه المشكلة . ولهذا ذهب كانط الى أن نبذ الحروب وإلغائها أمر ضرورى لتحقيق حالة مثالية من الحضارة .

ومن ناحية أخرى ظهر مفهوم غاية فى التجريد لفلسفة التاريخ فى كتاب بعنوان (خصائص العصر الحالى للفيلسوف الألمانى جوهان جوتليب فيخته (١٧٦٢ – ١٨١٤م) . وقد نجح هذا الفيلسوف الى حد ما فى فصل فلسفة التاريخ عن التاريخ نفسه . اذ كان يعتقد أن ترتيب العصور ترتيبا تاريخيا كما أرادها الله تكمن فى خمس فقرات :

١ – عصر البراءة وكان العقل يظهر فيه بشكل غير معقول فى صورة غريزة عمياء

(1) Robert Flint, The Philosopny of History in France and Germany (Scibner 1874) p. 386.

ويتضح وجهة نظر هردر وعبقريته الفذه فى أول كتابه الذى صدر سنة ١٧٧٤ بعنوان
Auch eine phiosaphic Geschichte

٢ ـ عصر السلطة وهو الذى تطلب ان يكون العقل عاملاً ثانويا بالنسبة للطاعة السلبية .

٣ ـ عصر اللامبالاة بالحقيقة وهو الذى ألغى فيه تحكيم العقل .

٤ ـ عصر العلم الذى تجلت فيه الحقيقة وعلت فيه كل شئ وبدأ الانسان يشعر فى هذا العصر بقيمة العقل .

٥ ـ عصر الغنى وفيه اصبحت الانسانية حرة وبدأت تضفى على نفسها من الابداع والرونق ما يناسب عصر العقل المطلق .

وقال فيخته فى كتابه (رسائل الى الأمة الالمانية) (١٨٠٧) ان الامل فى المستقبل معقود على الشعوب الألمانية ، فهذه الشعوب مكونة من عنصر نقى غير مختلط له معين لا ينضب من الحياة الروحية ومن القوة ، اما الشعوب اللاتينيه فهى نتاج إختلاط اجناس بعضها ببعض وبالتالى فقد ازدهرت حضاراتها قبل الأوان : وكانت على عهد فيخته فى طريق انحدارها الفعلى . وليس عجيبا ان تكون آراء فيشيت قد ساعدت على سرعة نمو القومية فى المانيا[1] .

أما عن فلسفة فردريك ويلهلم جوزيف فون شيلنج (١٧٧٥ — ١٨٥٤) فقد جمعت ما بين مذهب الباطنية الرشيدة وبين الإيمان بالتقدم عن طريق الرعاية السماوية . كان فون شيلنج متأثرا الى حد بعيد بآراء فيخته . ففى كتابه (النظام المثالى التجريدى) إسترسل فى الجهد الذى بذله فيخته فى سبيل الجمع بين خبرة البشرية وذكائها وبين الطبيعة ومؤثراتها وبيان تعاونهما فى سبيل الكشف عن الوجود المطلق . «فالطبيعة روح منظورة والروح طبيعة غير منظورة . وكلاهما يتقدم بصفة مستمرة فى تتابع منتظم وعلى مراحل وصور متدرجة» . والتاريخ ليس إلا عملية رؤيا ذاتيه للوجود المطلق . وفيه يتبين شيلنج ثلاث مراحل :

١ ـ المرحلة التى تحكمت فيها عوامل القدر أو المصير وهى فترة الإمبراطوريات القديمة .

٢ ـ ثم هناك المرحلة التى أفسح فيها القدر المجال للطبيعة مما أدى الى انتظام أمور البشر ، وبدأت هذه المرحلة بتوسع روما وفتوحاتها .

٣ ـ مرحلة المستقبل الذى سوف تثبت فيها تولى العناية الإلهية لأمور البشر .

أما يوحنا جويرس Johann Goerres (١٧٧٦ — ١٨٤٨ م) فتعتبر آراؤه سبقا غير دقيق للنظرية التى وصفها ارنست هيكل Ernest Hqeckel ،

(1) C.F.H.C Englebrecht: Johann Gott lied fichete (Colmbia Press 1933)

ج. ستانلى هول والتى تقول ان الجنس البشرى يمر فى نفس مراحل التطور التى يمر بها الفرد .
ومن ثم فقد وجد جويرس أربع مراحل فى التاريخ تمثل التقدم نحو النضوج وهى :

١ ـ المرحلة التى كان البشر يتجمعون فيها تجمعا طبيعيا طبقا لما تفرضه العوامل الجغرافيه عليهم.

٢ ـ مرحلة الأجيال ذات الخصائص المميزة وفيها أخذ الناس ينفصلون الى اجناس وقبائل وأمم.

٣ ـ المرحلة الأخلاقية السياسية التى بدأت بقيام دول متحضرة يحكمها القانون .

٤ ـ المرحلة الدينيه وهى التى صار الإنسان فيها قادرا على إدراك الوحى الالهى ومشيئة الله .

وثمة تفسير فلسفى هام آخر للتاريخ جاء فى كتاب بعنوان (فلسفة التاريخ) ألفه كارل ويلهلم فردريك فون شليجل (١٧٧٢ — ١٨٢٩م) وهو الذى ذهب الى ان المشكلة الرئيسية فى الفلسفة هى التوصل الى كيفية إعادة الوحدة والانسجام لحياة الانسان الباطنيه ، وكيف يستطيع الانسان فى شخصيته البشرية ان يتصور الرب فى صورته المفقودة . وأوضح شليجل ان مهمة التاريخ الأساسية هى تتبع ما بذله الجنس البشرى من محاولات لتصحيح تصوره للإله . كذلك أوضح نفس الفيلسوف ان الغرض الرئيسى من فلسفته التاريخيه هو أظهار جهود الانسانية فى إحياء الصورة المفقودة للإله ، وذلك عن طريق دراسة ما بذلته العناية الالهية من جهد فى سبيل خلاص البشرية وظهرها على مر العصور منذ الوحى الالهى الأول حتى الخلاص الأوسط (مجيئ المسيح) ومنه الى الكمال النهائى . وازاء ذلك تتبع شليجل التاريخ من العصر الصينى المبكر حتى ايامه بهدف تتبع حب البشر لله وروجوعه إليه . وقد اعتنق الكاثوليكية وهو بصدد البحث عن تأكيد لآرائه من الوجهة العاطفية ، وعند علاجه للعصور الوسطى مجدها الى مدى بعيد . وكما هو متوقع من كاتب مثله كان نقده لاذعا للبروتستانتية واعتبرها من عمل الانسان فى حين كانت الكاثوليكية فى نظره من عمل الله .

وأكثر الفلسفات الألمانية للتاريخ شهرة فى تلك الفترة كانت تلك التى وصفها أحد رجال الجدل المدينى وأشدهم أثرا وهو ويلهلم فردريك هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١م) الذى جاء كتابه (فلسفة التاريخ) عملا ينم عن ذاتيته الى حد كبير . ذلك أن هذا الكتاب عبارة عن سجل لعملية الكشف عن الشعور الذاتى بالحرية فى الروح البشرية . ولعل أحسن ملخص وضع له هو ذلك الذى كتبه روبرت فلنت منذ أكثر من نصف قرن :

«ان مدار الشمس رمز لمدار الروح واذا كان ضوء الشمس كما هى معروفة لنا فى الطبيعة يتحرك من الشرق الى الغرب ، فان ضوء شمس النفس البشرية بذاتيتها يتحرك فى

نفس الاتجاه . فآسيا هى بداية تحرك هذه المعرفة أو البداية المطلقة للتاريخ . وأوربا هى الغرب الفاصل أو نهاية التاريخ . والتاريخ مر بثلاث مراحل أو عصور عظيمة هى : عصر المشرق ، العصر اليونانى ، الرومانى ، والعصر الحديث أو الجرمانى . وكانت الروح فى العصر الاول تغط فى نوم عميق نتيجة للجهل وعدم الدراية بالحرية التى هى جوهر هذه الروح ، ومن ثم فقد خضعت الروح لاستبداد دينى ودنيوى ، حيث ان فرداً واحداً هو الذى نعم بالحرية فى حين ان حقوق الأفراد لم تكن معروفة . ثم تنبهت الروح فى العصر الثانى لبعض هذه الحقوق ولكن ليس لها جميعا ، فتحرر بعض الأفراد ولكن ليس كلهم . وأخيرا جاء العصر الثالث لتعرف الروح طبيعتها تماما وتقدر ضرورة هذه الحرية وتعرف ان للجميع حقوق أصيلة فى حرية الفكر »[1].

وكانت هناك دوافع قومية قوية وراء فلسفة هيجل مثلما كان الحال مع فلسفة فيخته للتاريخ . ذلك أن فلسفة هيجل نادت بأن الألمان فى عصر ما بعد حركة الإصلاح الدينى قد عهد الله اليهم بمهمة إيصال نعمة الحرية الى الجنس البشرى . وتكشف هذه الحقيقة عن الشكل العام لنظرة هيجل للتاريخ ، إذ يرى أن التقدم نتيجة الاحتكاك والتركيب . ويرى هيجل أن الحركة أو الفكرة أو النظرية تخرج الى الوجود ثم يظهر بعد ذلك عكسها ، ونتيجة للاحتكاك بين الفكرة ونقيضتها يتولد الشكل النهائى الّذى هو بمثابة خطوة الى الأمام على طريق الحقيقة . ثم يتخذ هذا الشكل النهائى صورة نظرية أخرى ويظهر لها هى الأخرى نقيض ، وهكذا تستمر العملية . والواقع أن نظرية هيجل هذه عن التقدم صار لها أثر كبير على الفكر التاريخى اللاحق ، خاصة من خلال تبنى كارل ماركس لها وتسخيرها لخدمة فلسفة التاريخ المادية[2] . وكان لهيجل أيضا أثر كبير فى ظهور أعمال أخرى هامة فى مجال البحث التاريخى وخاصة تلك الدراسات الكبرى الخاصة بالفلسفة اليونانيه التى قام بها ادوارد زيلر ، والأبحاث الخاصة بالاصول المسيحية التى قام بها فرديناند كريستيان . واذا كان تأثير هيجل على التاريخ قد ظهر فى اتجاهين متضادين هما الماركسية والقومية ، فإن تأثيره فى المجال الثانى أقوى اليوم وأكثر ظهورا ، حتى أن الاحتفال بالذكرى المئوية لوفاته سنة ١٩٣١ كان احتفالا قوميا بحتا .

وكان لظهور علم الأحياء وفكرة الكيان العضوى للمجتمع – أى التشابه بين الكيان العضوى للفرد والمجتمع – أثر كبير على فلسفة التاريخ . وقد بين ذلك شارل كريستيان فردريك كروز (١٧٨١ – ١٨٣٢ م) فى كتابه (الفلسفة العامة للتاريخ) . كان كروز تلميذا لكل من فيشت شيلنج ، وإعتقد أن البشرية تمر بمراحل من التطور من المفيد جدا مقارنتها بحياة

(1) Flint, Op. cit 515. C. F. G. S. Morris, Hegel's philsopho of the state and of History scott - Foresmand (1892).

(2) CF. Sidney Hook, From Hegel to Marx (Reynal and H it ch 1. cock) 1936.

الإنسان . فنجد فى البداية المجتمع البدائى الذى يقابل عصر البراءة أو الطفولة عند الإنسان يليه عصر الشباب والنمو ، ويمكن تقسيمه الى ثلاثة عصور فرعيه : عصر الاشراك بالله ويمتد من الشرق القديم الى عصور اليونان والرومان ، ثم عصر التوحيد والسيادة الكنسيه وهى على وجه التحديد العصور الوسطى ، وأخيرا عصر الحرية وقد زالت فيه كل سلطة خارجة على العقل . اما العصر الثالث من عصور البشرية فهو ذلك العصر الذى يسيطر فيه الانسان على كل من الطبيعة والمجتمع . وبذلك يتحقق وحدة كل الشعوب فى دولة عالمية عظيمة يسودها الرخاء . ونستطيع أن تلمس فى هذا الرأى عن تطور للبشرية سابقة خاصة على آراء هـ .ج .ولز .

أما الرد على فلسفة التاريخ الرومانسيه والمثالية فى المانيا سواء بالتأييد أو المعارضة ، فقد ظهر فى فلسفة فردريك نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) وهى فلسفة تشاؤميه مضادة للمسيحيه ولكن نيتشه إشترك مع الرومانسين فى سمة واحدة هى عبادة الانسان الاعلى أو الأسمى .

انعكس المفهوم الرومانسى للتاريخ فى فرنسا فى مؤلفات عدد من الكتاب منهم فكتور كوزين (١٧٩٢ - ١٨٦٧ م) الذى تتلمذ على هيجل، وعمل على ادخال آراء هذا الفيلسوف الألمانى إلى فرنسا وقد أوضح كوزين فى محاضراته التى ألقاها سنة ١٨٢٨ عن فلسفة التاريخ إن هناك ثلاث مراحل رئيسية فى التطور البشرى :

١ - مرحلة اللانهائية Infinite وكان الإنسان فيها يثق فى الألهة ويعتقد فيها اعتقاداً كلياً

٢ - مرحلة المحدود (التناهى) Finite : وفيها نشأ التأمل الذى خلق إحساسا بالحرية الشخصية والقوة، الأمر الذى جلب الفوضى للجميع .

٣ - مرحلة الدمج والربط والإتحاد : وهى التى نجمت عن إندماج المرحلتين السابقتين إندماجا مثاليا . فتم الاتحاد بين الإعتقاد فى وجود توجيه الهى وبين شك الإنسان بحريته .

ونهج كوزين نهجا دينيا وكان من أنصار فكرة أن التاريخ من تدبير الله وتوجيهه فقال ان تاريخ البشر هو أساسا كشف عن قدرة الله ونظام حكمه لهذا العالم وهو الأمر الذى يظهر للعباد تدريجياً . وكان كوزين كذلك من أنصار نظرية اهتمام التاريخ بالانسان الأسمى وهو ما نادى به معاصره الانجليزى توماس كارليل . كما كان يرى أن عظماء الرجال يعكسون روح عصرهم وفيهم يكمن تاريخ الفرد والتاريخ العالمى وبناء على ذلك فان تناول حياتهم يعنى تقدم الانسان . فالتاريخ العالمى هو عدة تراجم لشخصيات عظيمة يتم الربط بينها جميعاً .

أما ثيودور جوفروى (١٧٩٦ - ١٨٤٢) فقد نهج، كتابه «فلسفة التاريخ» على فلسفة التاريخ فلسفة فكرية . كان جوفروى يعتقد - وهو سابق لعصر دراون - ان الفرق الأساسى بين الإنسان والحيوان هو ان الحيوانات لا تتغير، بينما يتقدم الانسان ويتطور . وكان يرى ان التغيير فى أفكار البشر يحدد كل مراحل التطور البشرى الأخرى . ولهذا فان فلسفة التاريخ فى جوهرها ما هى إلا ملاحظات وتحليل التعديل الذى يطرأ على الأفكار وتأثيره على حقائق التاريخ الخارجية، أى على السلوك والعادات والنظم والدول . ويذهب جوفروى إلى أنه كانت هناك ثلاث أنظمة رئيسية للحضارة فى تاريخ البشرية وهى الأنظمة البرهمية

الاسلامية والمسيحيه . وأكد أن النظام المسيحي سيتفوق على باقى النظم . وهناك فى العالم المسيحي ثلاث أمم ينسب لكل منها رسالة معينة تؤديها من أجل تقدم الحضارة : الأمة الألمانية وهى أمة العلم والثقافة والمعرفه وتمد البشرية بالحقائق . والأمة الفرنسيه التى تركزت مواهبها فى الفلسفة – أى تفسير الحقائق التى يجئ بها الألمان . أما الأمة الإنجليزية فهى الأمة العملية التى تستغل الحقائق والنظريات الفلسفية فى الصناعة والنظم الدستورية والروح العامة . وواجب هذه الأمم الثلاث هو ان تدرك صفاتها ومواهبها الخاصة وأن تتعاون جميعا من أجل خير البشرية .

ثم عادت أفكار هردر وهيجل إلى الظهور مع شئ من التعديل والمرونة المبتكرين ، وذلك فى مقدمة لترجمة هردر بعنوان (مقدمة لفلسفة التاريخ) وهى الترجمة التى قام بها ادجار كونيت (١٨٠٣ – ١٨٧٥) ذلك أن هذا المترجم شارك جوفروى رأيه بأن الأفكار هى العامل الرئيسى المسبب للتاريخ البشرى والتطور الإجتماعى . هذا إلى أنه جمع فى كتابته بين تعلقه الشديد بالحرية وإخلاصه الجم للنظام الجمهورى . وكان يعتقد أن مهمة النظام الجمهورى هى حماية الحرية . ومن ثم فإن كتابه «المسيحية والثورة الفرنسية» جاء شديد النقد لعصر الارهاب الذى مرت به فرنسا أثناء الثورة وكان كونيت Quinet ينظر إلى التاريخ على أنه أداة لتحقيق التقدم فى مجال الحرية والارادة الحرة . كالتاريخ من البداية للنهاية عرض وتطور للحرية ، وبيان مستمر لاحتجاج عقل الجنس البشرى ضد العالم الذى يطغى عليه ويقيده ، وتنال الروح حريتها عبره ، وتوسع دائرة نطاق هذه الحرية . على أن كونيت كان متحمسا للبروتستانتيه قدر حماس شليجل للكاثوليكيه ، وكان ينظر إلى البروتستانتيه بوصفها سبيل التحرر الرئيسيه فى الأزمنة الحديثة . وكان يعتقد أن الثورة الفرنسية فشلت لأنها لم تحتضن فى المقام الأول البروتستانتيه وإختارت أن يكون العقل دينها وعقيدتها .

أما بقية الكتابات الهامه التى أسهم بها الفرنسيون فى فلسفة التاريخ فهى من تراث عصر العقلانيين من ذلك ما جاء به تيرجو فى كتابه الذى صدر فى السوربون (حديث حول التقدم التاريخى للعقل البشرى) إذ سبق فيه تقسيم أوجست كونت الشهير للتقدم الفكرى للجنس البشرى إلى ثلاث مراحل : اللاهوتيه ، الميتافزيقيه ، العلمية . يقول تيرجو :

«وقبل التعرف على علاقة الحقائق الطبيعية بعضها ببعض ، كان من الطبيعى جدا أن نفترض من هذه الحقائق صنعتها وأنتجتها كائنات ذكية غير منظورة . فكل شئ حدث دون تدخل الإنسان كان له ربه وصانعه الذى عبده خوفا منه أو رجاء فيه ، وهذه العبادة أشبه ما تكون بالاحترام الذى نكنه للرجال الأقوياء الأشداء البأس . وما الآلهة سوى رجال أكثر أو أقل قوة وكمالا طبقا لما أضفاه عليهم العصر الذى وجدوا فيه ودرجة الاستنارة التى توافرت فى ذلك العصر وهى التى بها تبلغ الإنسانية درجة الكمال . ولكن عندما تبين للفلاسفة استحالة

قبول العقل لهذه الخرافات بدأو – دون التوصل إلى معرفة حقيقيه بتاريخ الطبيعه — يعللون الظواهر تعليلا خياليا وذلك بتعبيرات مجردة ، بالجوهر وبالقدرة العقلية (الملكة العقلية) . وإزاء عجزهم عن هذا السبيل فى تفسيرها أخذوا يناقشونها كما لو كانت وجوداً حقيقيا . وأخيراً فقط ، أمكن من خلال ملاحظة تأثير الأجسام المتجانسة بعضها مع بعض وضع فروض أخرى استطاعت الرياضة تطويرها والخبرة اثباتها وتأكيدها . »

وقد أخذ بنفس هذه الفكرة الفيلسوف الفرنسى المبرز كونت كلود هنرى سانت سيمون (١٧٦٠ – ١٨٢٥) الذى تميزت أفكاره بالابتكار والخصوبة ، ولا يوجد فى عصره من يسبقه فى هذا الشأن سوى بنتام Bentham ، وان كان ذا قدرة ضئيلة على ابراز الآراء والعقائد وشرحها . وذهب سانت سيمون إلى هناك فترتين رئيسيتين فى التطور الفكرى للجنس البشرى وهى فترة الظن والتخمين اللاهوتى (Theological Conjecture) غير المبنى على أدلة كافيه وفترة الإيجابيه التى بدأها بيكون ، وديكارت ثم أخذ سانت سيمون بالنظرية الآلية لتطور التاريخ مؤكدا التشابه بين تطور الفرد وبين تطور المجتمع . ففى عصور التاريخ المنتظمة يتحد المجتمع ويترابط سلميا بفعل مجموعة من الآراء والنظم . ثم يأتى بعد ذلك فترة نافدة تمهد للتغيير والتقدم وتتميز بالنقد الإجتماعى والمدارس الفكرية المعارضة وعدم الاستقرار العام بالنسبة للأنظمة القائمة فى المجتمع ..

وفى فلسفة التاريخ التى وصفها فيليب بوشيز (١٧٩٦ – ١٨٦٦ م) وهو أحد تلاميذ سانت سيمون ، نجد اتجاها لاهوتيا واضحا خاصة فى كتابه (مقدمة لعلم التاريخ) ذلك ان بوشيز أكد تأثير العامل الجنسى على تطور الأمم والأفراد . وسبق هربرت سبنسر عندما بين ان التقدم له صفاته العالية والبشرية . ولكنه لم يوافق سبنسر ايمانه بمذهب الطبيعة aturalism ؛ بل كان شأنه شأن بوسويه فى اعتقاده الجازم فى ان التوجيه الإلهى وقدرة الله هى الموجهة لتطور البشرية والحضارة . وكان بوشيز يعتقد كذلك ان هناك اربع مراحل رئيسية فى التاريخ تتميز كل منها بظاهرة أساسية :

١ ـ مرحلة آدم وهى التى إلى قيام النظم الإنسانية .
٢ ـ مرحلة نوح وهى التى شهدت نشأة القبائل والأجناس .
٣ ـ المرحلة التى تنسب لنبى غير معلوم من أبناء سام ، وهى تتضمن نشأة الاحساس بالرغبة فى الاتصال والارتباط بين بنى البشر والمساواة فيما بينهم والتخصص فى العمل .
٤ ـ مرحلة الكشف عن الحقيقة والحياة عن طريق يسوع المسيح .

أما بطرس ليرو pierre leraux (١٧٩٨ – ١٨٧١) وهو من تلاميذ سانت سيمون ايضا فقد جاء بعقيدة التضامن الإنسانى وبأن التقدم ذو طبيعة عالمية مستمرة وقد شرح ذلك فى كتابه الأنسانية ؛ Humanity

وتحوى كتابات أوغسط كومت Auguste Comte (١٧٩٨ – ١٨٥٧) جهدا يتم عن دقة فى البحث – إذ جمع بين آراء سانت سيمون وبين ما ابتكره هو من أفكاره . وأهم ما ألفه كونت هو كتاب ، مبادئ فلسفة إيجابية ، ومبادئ النظام الإيجابى . أما الكتاب الأول فقد استعرض فيه كونت آراءه عن التطور الفكرى فى حين أنه تناول فى كتابه الثانى وهو الأطول – آراءه عن التطور الفكرى والإجتماعى جميعا . وكان يعتقد أن التطور الفكرى للجنس البشرى من خلال ثلاث مراحل : اللاهوتية ، والميتافزيقيه ، والعلمية أو الإيجابية . وقد تميزت المرحلة الأولى بحكم قوى ما وراء الطبيعة . وإمتازت الثانية بالاعتماد على المقولات والإفتراضات الميتافزيقيه فى حين تميزت الفترة الثالثة بازدياد تأثير الفلسفة الناقدة والمعرفة العلمية

وقسم كونت علاجه لعلم الإجتماع إلى قسمين : الإجتماعيات الساكنة والاجتماعيات المتحركة وتناول فى علم الإجتماع المتحرك مناقشة مشكلة التطور الإجتماعى وبين ثلاث مراحل للتطور الاجتماعى والفكرى جميعا . المرحلة الأولى وهى أساسا مرحلة المجتمع الشرقى القديم

وكانت ذات صبغة دينية فى نشاطها العقلى والفكرى كما كانت ذات صبغة عسكرية فى نشاطها السياسى والاجتماعى . ثم تلتها المرحلة الميتافزيقيه والقانونية وهى مرحلة الإغريق والرومان فى العصور الوسطى . وقد استمرت هذه المرحلة النظرة العسكرية ولكن الصناعة وحصول المواطنين على حريتهم المدينية مضيا قدما بتطور الفكر الفلسفى وساد القانون . وأخيرا وبمجىء الثورة الصناعية وتطور العلم الحديث جاءت المرحلة العلمية الصناعية التى بددت الأوهام والخرافات وكرست الجهود للتطور الصناعى . وقد اقتبس العالم الاجتماعى الأمريكى البارز فرانكلين هنرى جيدنجز (١٨١٠ – ١٨٨٧) نفس فلسفة كومت مع ادخال تعديلات طفيفه عليها ، كما كان لهذه الفلسفة تأثير على المؤرخ الألمانى المشهور كارل لامبرخت .

أما بلجيكا فقد أنجبت واحدا من أبرز فلاسفة التاريخ وأكثرهم أنتاجا هو العلامة فرانسوا لورنت (١٨١٠ – ١٨٨٧) الذى قضى فترة طويلة استاذا فى جامعة غنت . وعبر عن فلسفته التاريخيه فى الجزء الأخير من كتاب صدر فى ١٨ جزءا بعنوان «دراسات فى تاريخ البشرية» . والواقع إن كتابه جاء تاريخا عالميا فيه من الجهد الشئ الكثير . كما كان لدى المؤلف من المعرفة التاريخية أكثر مما توافر لأحد غيره ممن كتبوا عن فلسفة التاريخ حتى عصره . وعلى ذلك فانه فشل فى استغلال هذه المعرفة العريقة التى توافرت لديه عند تناوله لفلسفة التاريخ ، مثل الفلسفة التى بلغت فيها نظرية القدرة الإلهية فى تسير دقة التاريخ ذروتها . وقد انتقد لونت فلسفات التاريخ السابقة لما فيها من اعتراف بمذهب القضاء والقدر ، فكان فيكو فى نظره صاحب النظريات القديمة فى القدرية وفولتير وفردريك الأعظم دعاة قدرية الصدفة ، أما مونتسكيه فصاحب النظريه القائله بقدرية المناخ ، فى حين ان هردر كان من المؤمنين بقدرية

الطبيعة . ورينان بقدرية الجنس . أما هيجل فكان يؤمن بالقدرية الأحدية بمعنى ان الله والكون شئ واحد . أما كونت فكان من دعاة القدرية الايجابيه . وبا كل من القائلين بقدرية القوانين العامة[1] . أما فلسفة التاريخ عند لورنت فكانت تمطا متطرفا من الإيمان بالله بناها على أساس فكرة أن التاريخ يبرز عظمة الله وأنه «الله» هو الذى يدفع الإنسان قدما نحو الحضارة الحديثة ويعطينا لورنت بذلك مثلا رائعا للقدرية اللاهوتيه ولعل أهم مظهر لفلسفة التاريخ وأكثرها متعة عنده هو تأكيده لتطور مبدأ القومية وما أسهمت به هذه القومية فى مجال التطور الفكرى والأخلاقى للجنس البشرى . وقد دافع لورنت دفاعا نبيلا عن فكرة وحدة أمم العالم المعاصر وتعاونها .

أما الايطاليون فكان لهم أيضا نصيب كبير فى فلسفة التاريخ وعلى رأس فلاسفة التاريخ الإيطاليين يلقى قيصر بالبو (١٧٨٩ – ١٨٥٣) الذى كان يرى أنه من حق البابوية تزعم حركة الوحدة الايطالية ، وتتضمن كتابة (تأملات تاريخيه) آراءه فى فلسفة التاريخ . وهى صدى لما سبق أن ردده بوسويه فقال بنظرية الرعاية الإلهية فى توجيه أحداث التاريخ .

وهناك أيضا جوسيب فيرارى (١٨١٢ – ١٨٧٦) الذى كان شديد التأثر بفيكو . وقد وضع فيرارى فلسفة للثورة الغرض منها التجسيم لفكرة أنه ينبغى النظر إلى الثورات على أنها جهود بناءة وليست مدمرة فى مجال التطور البشرى . أما أفكاره التى ضمها كتابه (نظرية العصور السياسية) الذى ظهر سنة ١٨٧٤ فكانت أكثر أهمية ، إذ قال فيها إن التقدم البشرى جاء نتيجة جهود عوامل رئيسية معينة وقد أمكن لكل عامل من هذه العوامل أن يسود فترة ١٢٥ عاما . ولقد مرت عملية سيادة كل عامل من هذه العوامل بمراحل أربعة : الإعداد والتحضير ، الازدهار ، الارتداد،التحلل والإنحلال . وسنشير فيما بعد إلى آراء بندتو كروس .

فلسفة التاريخ فى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية

لم يكن هناك فلاسفة تاريخ بالمعنى المعروف فى إنجلترا . حقيقة إنه ظهر فى إنجلترا اتباع للمدرسة الفلسفية المثالية التجريدية كما كان فيها اتباع لهيجل وكونت ، ولكن عملهم لم يتعد دائرة إدخال تلك الأفكار الفلسفية إلى انجلترا وان كان بعضهم قد جاء ببعض الشروح والتأويلات التى أتقنوا بحثها ودراستها ، على نحو ما فعله فردريك هاريسون ورجال فلسفة المجتمع اليقينى أو الوضعى من حيث إدخال آراء الفيلسوف كونت إلى انجلترا ونشرها فيها [2] .

ولكن ليس معنى هذا ان دور الفلاسفة الانجليز اقتصر عند هذا الحد فهناك كتاب

1) Flint Op. Cit. p. 324.

2) J. E. Mc Gree, Crusade for Humanity: The History of organized posirivism in England (Watts 1931).

انجليز أتوا خلال القرن التاسع عشر ببعض آراء متطقة بفلسفة التاريخ ، كانت أعظم وأقيم من كثير مما إدعاه رجال الدين أو العقلانين الذين إستعرضنا جهودهم فيما سبق باستثناء عمل أوغسط كونت الذى لا يدانيه أحد فى قوة آرائه . هذا إلى ان معظم أبحاث الإنجليز فى هذا الصدد جاءت متأثرة بالمذهب المادى الجديد والمذهب الطبيعى فضلا عن فلسفة النشوء والتطور .

ونجد فى كتابات هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) ربطا بين تاريخ الإنسانية وتطور الثقافة البشرية خاصة فى الجزء الثانى من كتابه «المبادئ الأولى» وفى كتابه «مبادئ علم الاجتماع» ذلك أنه كان يرى أن التطور الاجتماعي والثقافى يتفق مع قوانين التطور الكونى - فهناك تكامل تدريجى للمادة يعقبه تمييز تام بين الأجزاء . كذلك حرص سبنسر بصفة خاصة على تخليص التاريخ البشرى من نظرية ان احداثه من صنع الله وتدبيره . ثم انه يرى ان التطور الاجتماعى لا يتم بتوجيه إلهى ، وان الإنسان نفسه لا يستطيع تخطيطه أو التحكم فيه ، فتطور المجتمع عمليه طبيعية تماما كتطور الكون فى مجموعه . وأوضح سبنسر ان هناك ثلاث مراحل رئيسيه للتطور الاجتماعى :

١ - مرحلة المجتمع القبلى الذى نشأ من الجماعات الصغيرة المنتشرة .
٢ - عصر القوة العسكريه الذى اندمجت فيه الجماعات القبلية الصغيرة عن طريق الحرب لتكن دولا .
٣ - العصر الصناعى وفيه كرس الجهد الاجتماعى قبل كل شئ لتحقيق الأهداف الصناعية والإنتاجية .

أما هنرى توماس باكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) فكان أحد الإنجليز من اتباع المدرسة العقلانية فضلا عن أنه تأثر بمذهب كونت فى الفلسفة اليقينية (الوضعيه) ومذهب الطبيعة الاحيائية الجديد . لقد صاغ باكل فى كتابه «تاريخ الحضارة فى إنجلترا» بعض القوانين الطبيعية الخاصة بالتطور التاريخى وطبقها تفصيليا على تاريخ إنجلترا ولكنه توفى قبل ان يكمل هذا العمل . وكان باكل شأنه شأن هولباخ Holbach يعتقد أن الإنسان عموما ليس إلا جزءا من الطبيعه ، ومن ثم فان قوانين التطور التاريخى يمكن اخضاعها لقوانين الطبيعة . وهذه القوانين يتم تحديدها على النحو التالى :

١ ـ القوانين الطبيعية التى تتعلق بتأثير التربة والمناخ والثروة وسائر جوانب الطبيعة على الإنسان . وخلاصة هذه القوانين أن التأثيرات الجغرافية تتناسب تناسبا عكسيا مع نمو الذكاء . فالذكاء كان أقوى ما يمكن فى المجتمع البدائى وأضعف ما يكون فى الحضارات المتقدمة .
٢ ـ القوانين الأخلاقية وهى ثانية لا تتغير . وقد فشل باكل فى تقدير إتجاه التطور فى هذا

المجال .

٣ ـ القوانين الفكرية وهى التى تؤكد أن التطبيق المطلق للمنهج العلمى كان نافعا للإنسان دائما كما أنه ساعد مساعدة فعالة فى التعجيل بتطور الحضارة .

وقد صور باكل هذه القوانين بأسلوب مبسط مستشهدا بتاريخ كل من فرنسا وأسبانيا واسكتلندا ولكن المنيه عاجلته وحالت دون اتمام خطته الكبرى ألا وهى تطبيق هذه القوانين بالتفصيل على تاريخ الحضارة الإنجليزية .

ولعل أعظم محاولة قام بها كاتب إنجليزى لتطبيق مبادئ دارون على التطور البشرى كانت تلك التى قام بها الاقتصادى والترباجهوت Walter Bagehot (١٨٢١ – ١٨٧٧) فى كتابه « العلوم الطبيعية والسياسية » وقد حاول فيه الاستفادة من مذهب دارون فى التوصل إلى تفسير نفسى للتطور البشرى فقال ان هناك ثلاثة أدوار بارزة فى التقدم البشرى :

١ ـ دور تكون العادات أو دور المجتمع البدائى .

٢ ـ دور التصارع بين العادات أو عصر تكون الأمم وهى الفترة التى نجمت عن الحروب التى كان من شأنها اندماج الجماعات القبلية وتكوين دول فيها .

٣ ـ دور البحث والنقاش حيث أمكن بهذا البحث التخلص من المعتقدات والشعائر الجامدة واخضاع كل ذلك لمنطق وإحكام المناقشة الحرة .

وأوضح باجهوت ان العصر الذى تكونت فيه الأمم قد شهد قيام إمبراطوريات الشرق القديمة ، أما عصر المناقشة فقد بدأ فى اليونان وروما ولكن حدث نكوص فى العصور الوسطى وإرتداء إلى شيئ أشبه ما يكون بالرجوع إلى عصر تكون الأمم فى الزمن القديم . كذلك أوضح باجهوت أن نظام الحكم الديمقراطى – وهو الذى يرجع فى اصوله إلى نظام الجمعيات القبلية لدى الألمان القدماء – قد احيا عصر المناقشة .

أما سير ليزلى ستيفن (١٨٣٢ — ١٩٠٤) كاتب المقالات الشهيرة والمحرر والناشر البارز فقد حاز شهرة عريضة بما بذله من جهد لتخليص التاريخ من فكرة إرجاع أحداثه إلى توجيه إلهى ، فضلا عن إدخال وجهة نظر لا أدرية على الفلسفة التاريخية . وأبرز أعماله فى هذا الصدد كتابه (علم الاخلاق) الذى حاول فيه أن يبتكر نظرية طبيعية وتفسير طبيعى للأخلاقيات على أساس آراء دارون كما حاول أن يدافع عن فكرة أن الغرض الرئيسى من قوانين وشرائع السلوك السليمة هو المحافظة على حياة الجماعة ودفع عجلة التطور الاجتماعى

أما روبرت فلنت (١٨٣٨ – ١٩١٠) فيتمتع بأهمية خاصة لما له من دراسات تاريخية خاصة بتطور التاريخ وفلسفته فى العصور الحديثة . وخاصة انه كان استاذا للاهوت فى جامعة أدنبره . وأهم مؤلفاته فى هذا الصدد كتاب باسم (فلسفة التاريخ فى أوربا وألمانيا » وقد صدر

سنة ١٨٧٤ م . كما صدرت له دراسة عن فلسفة فيكو سنة ١٨٨٤ م . ثم وسّع الفصول الخاصة بكتابه عن فلسفة التاريخ فى أوربا وهى الفصول التى تناول فيها الحديث عن فرنسا وبلجيكا ، وكون منها مجلدا بعنوان (فلسفة التاريخ فى فرنسا) وقد صدر له سنة ١٨٩٣ م . وكان من المتوقع أن يتبع هذا المجلد بمجلدات أخرى عن فلسفة التاريخ فى ألمانيا وغيرها من الدول وأن يضمنها آراءه بالنسبة لفلسفة التاريخ ولكنه لم يصدر شيئا منتظما عن هذا الأمر . وإستطاع فلنت فى تعليقاته الناقدة أن يجمع ببراعة بين إيمانه الراسخ بالله وبين أراء المذهب التجريبى الإنجليزى هذا إلى انه عارض فى صرامه الفلسفه المثالية التجريديه وآراء هيجل . ولعل أهم ما أسهم به فى مجال فلسفة التاريخ هو إثارة اهتمام القراء الإنجليز والأمريكين بما كتبه لآخرون عن هذه الفلسفة .

ثم كان أن ظهر خلط عجيب بين المذهب الطبيعي العلمي وبين معاداة التقدم الفكرى فيما كتبه بنيامين كيد Berjamir Kidd (١٨٥٨ – ١٩١٦ م) وخاصة فى كتابه (التطور الاجتماعى) . وكانت نظرة كيد إلى التاريخ تشبه إلى حد ما نظرة (كونت) له ، بمعنى انه كان يعتبر التاريخ صراعا بين ما يسعى إليه الفرد من مبادرة وتحرر وبين ما يفرضه المجتمع من قيود وسيطرة . ولكن بينما كان (كونت) يعتقد أن الحوافز الرئيسية للتقدم هى الدوافع الفردية فانه كان من رأى (كيد) أن ما تفرضه الجماعة من قيود على الفرد هى المصدر الرئيسى للتطور البشرى . هذا إلى ان كيد رأى أن اتباع ما يمليه العقل يقوى روح الفردية ومن ثم يبعث على الفوضى ولذلك نادى بأهمية وجود قيود اجتماعية ، وضرورة ارتكاز هذه القيود على قوة أو دعامة تفوق سلطان العقل ، وهى – فى نظره – قوة الدين .

ثم ان كيد تقبل آراء سبنسر عن التطور الاجتماعى ومراحله الحربية والصناعية ، ورأى أن المسيحية انقذت البشرية من خضوعها للمرحلة العسكرية (الحربية) عن طريق ما لهذه الديانة من سلطان يفوق سلطان العقل ، وعن طريق هذه العقيدة للسلوك السليم ، فضلا عن نظامها الأخلاق المبنى على عدم إيثار النفس . ولكن كان ينبغى على الكاثوليكية بعد أن ادت مهمتها وقامت بواجبها ان تفسح الطريق للبروتستانتية التى أطلقت العنان لفيض من الإيثار ظل حتى ولذلك الحين مكبوتا أو وجه توجيها خاطئا . وقد تشربت الطبقات الحاكمة بهذا الأيثار حتى وجدت نفسها غير قادرة على مقارنة الحركة التى استهدفت الديمقراطية والعدالة الاجتماعية . وهكذا يبدو أن كيد كان يسعى إلى انكار أوحجب النظرية الماركسية القائلة بأن المكاسب انما تحققت عن طريق كفاح الطبقات الدنيا ضد سادتهم .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد شهدت إهتماما كبيرا بفلسفة التاريخ وخاصة ما ظهر فيها من حماسة لآراء هيجل وكومت وغيرهم . والملاحظ ان المؤرخين المحترفين خاصة بعد

عصر اندرو . و . هوايت لم يهتموا كثيرا بفلسفة التاريخ[1] ، وكل ما فعله موريس ، وهاريس ، ورويس وغيرهم هو نشر فلسفة هيجل ، كما تولى حنا فيسك ترويج مذهب هربرت سبنسر الخاص بتطور الكون . كذلك طبق حنا ديوى فى نفس الوقت نظريات دارون على الفلسفة ، كما أقتبس فرانكلين هـ . جيدنجز رأى كونت فى تفسير التطور الاجتماعى . أما هنرى آدمز فقد اقترح اخضاع المعلومات التاريخية للقوانين العلمية خاصة القانون الثانى من قوانين القوة الحرارية الخاص بإستثناء الطاقة . أما اخوه بروكس آدمز فكانت أفكاره أقوى ألرا ، وهى الأفكار التى ضمنها فى كتابيه (قانون الحضارة والتدهور) و (نظرية الثورة الاجتماعية) . وهناك اخيرا ج . د . فورست الذى جمع بين صيغة معدلة من فلسفة هيجل وبين المعرفة الكاملة بالحقائق التاريخية وذلك فى كتابه (تطور الحضارة الغربية)

والواقع ان الحركة التاريخية ذات الطابع العلمى لم تقدم فى الولايات المتحدة إلا فى وقت متأخر جدا . لذلك نجد أن المؤرخين من رجال الفكر كانوا مهتمين فيها بتفسير التاريخ أكثر اهتمامهم بنظريات فلسفة التاريخ[2] .

الاتجاهات الحديثة

وهناك أبحاث أخرى فى مجال فلسفة التاريخ غير تلك التى استعرضناها بايجاز فيما سبق فمثلا أقتبس كارل ماركس نظرية هيجل لكى يخلق تفسيرا ماديا للتاريخ حيث يصور العوامل التكنولوجية والاقتصادية بأنها العناصر الحاسمة فى التطور البشرى والاجتماعى . وقد بين ماركس ان الصراع الطبقى كان أقوى هذه العناصر الاقتصادية تأثيرا وان طبقة البرولتياريا (العمال) سوف تطيح فى النهاية بالرأسماليين المستغلين وتخلق مجتمعا تذوب فيه الطبقات[3]

أما عالم الجمال الإيطالى البارز بنديتوكروس Bendetto Croce فقد أخذ بوجهة نظر هيجل للتاريخ ، ولكنه إستبدل المنطق بالفن[4] فالتاريخ بالنسبة له ابراز الحقيقة فى الوقت الحاضر إبرازا يحمل بين طياته انطباعات الماضى ، ويضم بين ثناياه بصيص نور المستقبل . ورأى

---

(1) G.B Adans History and the philosophy of History in American Historical Review, January 1909.

(2) CF. shotwell: Inroduction to the History of History, Chap XXVII

(3) M. M. Boher Karl Marx Interpretation of History (Harvard University press 1927).

American Historical January 1934 p. 230.

وانظر كذلك كتاب ركوس بعنوان History: its theory and practice (Hareourt, 1921)

تأرجح كروس بين اتجاهات مختلفة وكان أحد هذه الاتجاهات بعيداً كل البعد عن الصبغة التاريخية (المؤلف) .

كروس أن مهمة الفلسفة هي تفسير ما غمض من حقائق كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي ، ولذلك نجده ينادى بالتوفيق بين التاريخ والفلسفة . وعلى هدى الفكرة المثالية التى تقول بأنه ليس هناك حقيقة منفصلة عن العقل أو الروح ، أعلن كروس أن التاريخ فى جوهره ليس إلا قصة العقل البشرى . ويبدو ذلك فى نظريات الفن وأعماله وفى التصرفات العملية والأخلاقية ، ولقد أشتهر كروس بجدله المنطق فى مجال فلسفة التاريخ . فقد أوضح أن هؤلاء الذين يرفضون الفروض الفلسفية الراقية ويصدون فى وجهها الأبواب سرعان ما يجدون أنفسهم وقد انغمسوا فى فلسفة ضحلة وضيعة ، ولذلك يطالب كروس بأنه من الخير أن نلتزم صراحة بفلسفة التاريخ السامية ذات المكانة الراقية .

وثمة كتاب مطول ظهر بعد الحرب العالمية الأولى إحتوى من النقاش حول فلسفة التاريخ الشئ الكثير ألفه اوزوالد سبنجلر وأسماه « أضمحلال الغرب » ويستعرض المؤلف فى هذا الكتاب غزارة علمه ، ولكن فلسفته التى يعرضها تتصف فى بعض جوانبها بطابع تشاؤمى يبدو تأثرها بآراء يتنشه كما يبدو فيها التأثر بنظرية التطور الدائرى الحلزونى للتاريخ . لقد أوضح سبنجلر أربعة أنماط عظيمة للحضارة على الرغم من ذكره لأنماط أخرى كثيرة . وهذه الأنماط الأربعة هى :

١ — الحضارة الهندية التى بدأت حوالى سنة ١٨٠٠ ق . م
٢ — الحضارة القديمة وقد بدأت حوالى سنة ٩٠٠ ق . م
٣ — الحضارة العربية التى بدأت فى العهد المسيحى وشملت قيام المسيحية والإسلام .
٤ — الحضارة الغربية وهى التى خرجت إلى حيز الوجود حوالى سنة ٩٠٠ م .

وقال ان كل حضارة من هذه الحضارات مرت بدورة رباعية كاملة : الربيع والصيف والخريف والشتاء . وأوضح سبنجلر ان الحضارة الغربية تمر الآن بشتاءها وقد تسلم هذه الحضارة الغربية الزمام إلى الجنس الأصفر .

وعلى الرغم من أن الفلسفة العامة لكتاب سبنجلر موضع شك واستنتاجاتها محل جدل كبير فانه لابد وان نقر أن هذا الكتاب كان له أثر كبير وأنه جاء بآلاف الفروض المثيرة ، مما ترك أثر فى عقول كثير من القراء . كذلك نشر سبنجلر كتاباً صغيرا عنوانه (الإنسان والتقدم الفنى) أحدث دويا كبيرا ، وظهر فيه جهله التام بأوليات علم الأحياء والأجناس البشرية[1] . وتولى الفيلسوف الألمانى لودبج شين الرد على سبنجلر فى كتابه « التطور والتفاؤل » .

ثم ظهر تطور جديد فى فلسفة التاريخ فى أعمال المؤرخ وعالم الاجتماع الألمانى بولس

(1) Henry Hazlett. in the narion, February 24, 1932.

بارث (١٨٥٨ — ١٩٢٢ م) . قام بارث بدراسة فلسفة هيجل وأتباعه دراسة عميقة وحاول أن يفصل بين فلسفة التاريخ والتاريخ ذاته ، وان يربط بين فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، حيث انه اعتبر ان فلسفة التاريخ هي جوهر علم الإجتماع ولذلك جاء كتابه الهام المطول « فلسفة التاريخ كعلم اجتماع » لا بحثا هاما لفلسفة التاريخ فحسب بل جدلا قويا لتأييد فكرة ان فلسفة التاريخ هي علم الاجتماع ، وهي فكرة رحب بها المؤرخون التقليديون .

اما كيرت بيريزج Kurt Breysig فهو احد أتباع لانبرشت وأحد العلماء المرموقين في مجال التاريخ الإجتماعي . وقد تعرض لموضوع التاريخ في كتابه (مع التفسير التاريخي) وفيه صبغ فلسفة هيجل بالفلسفة الماركسية مؤكدا أثر العوامل المادية من ناحية والمثل من ناحية أخرى . ومما تجدر الاشارة إليه تركيزه على أهمية القيادة ودورها .

أما أهم بحث في مجال فلسفة التاريخ في العصر الحديث فهو كتاب المؤرخ ارنولد . ج . توينبي بعنوان « دراسة التاريخ » وهو كتاب عملاق ظهر في اثني عشر جزءاً فيما بين سنتي ١٩٣٤ ، ١٩٦١ . وهناك كتاب بيترم سوركن Pitririm Sorokin بعنوان القوى الاجتماعية والثقافية وقد ظهر في أربعة أجزاء بين ١٩٣٧ ، ١٩٤١ .

وقد درس توينبي قيام وسقوط اثني وعشرين حضارة وانتهى إلى حيث انتهى يوسف هيرجشمير Joseph Hergesheimer بأن يدفن الكون في ساحة أحد الكنائس الإنجليزية أما سوركن فقد صور التطور الاجتماعي بأنه يتذبذب بين فترات إزدهار وفترات ذبول وتدهور .

المـــراجـــع

1- G.B. **Adams** «**History and the philosophy of History in American Historical Review january 1902.**

2- **D.S. Mugzey ed,** Essays in Inlelleotual History Dedicated co James Harvey Robinson chapsiv - x - XIII- Harper 1929.

3- **Fueter:** Histoire de l'historiographie moderne, pp. 517-73-647-57.

4- **R. Flint:** The Philosophy of History in France and Germany Scribner 1874.

5- **Flent:** The philisophy of History in France.

6- **G.P. Gooch:** History and historians in the Nineteenth century claps II-IV, IX-X-xvii-xxvi- Longmans, Green 1952.

7- **Thompson:** History of Historical Writing vol 11. Chaps XI-XIIV-XIVII-

8- **Reinhold Aris:** History of Politcal thought in Germany from 1789-1813. London 1936.

9- **R.T. Clark Herder:** His life and thought univeristy of calfornia press 1955.

10- **H.C. Englebrecht:** Johamn Gottleib Fichte, Columbia un. press 1955

11- **J.C. Herold:** Mistress to an Age: A life of Madame de stael. Bobhsmeril 1958.

12- **L.M. Young:** Thomas Carlyle and the Art of History Univ. pa. press 1939.

13- **T.P. Donovan:** Henry Adams and Brooks Adams, univ. of Okla press 1961.

14- **Wegele:** Geschichte der deutschen Historiographie Book IV, V.

15- **Rudolph Haym:** Die Romantische Schule, Berlin 1914.

16- **K.H. Poetzach:** Studien zur Fruhroncntischen Politk und Geschichlts auffassung. Leipzig 1907.

17- **Gott freed Salomon:** Das Mittelater als Ideal in der Romantik Munich 1922.

18- **Peardon:** The Transition in English Histoucal Writing.

19- **Kenneth Bell and G.M. Margan:** The Great Historians Mac millen 1925.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤/٣٢٧٢

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٣٥٧ - ٨

يعتبر هذا الكتاب مدخلا لتاريخ الكتابة التاريخية،والكتابة التاريخية هى أحد مظاهر التاريخ الفكرى للجنس البشرى .

والحق أن التاريخ يعمل فى محيط أصعب من المحيط الذى يعمل فيه أى علم معروف مثل الجغرافيا أو الفيزياء أو الكيمياء . فان المهمة الرئيسية للمؤرخ أن يفحص كل الوثائق بكافة أنواعها ليميز الصحيح منها من الزائف ثم ينتقل إلى التأليف التاريخى بناء على ما توصل اليه من النتائج .

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب الذى يدرس تاريخ الكتابة التاريخية .

٢٨٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



تاريخ الكتابة التاريخية

تأليـف

هارى إلمر بارنـز

ترجمـة

ا.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعـة

ا.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجـزء الثـانى



١٩٨٧

تاريخ الكتابة التاريخية

الإخراج الفنى : سهير معطى شنودة

المراجعة والإشراف الفنى : عفـاف توفيق

تاريخ الكتابة التاريخية

تأليف

هارى إلمر بارنز

ترجمة

ا.د. محمد عبد الرحمن برج

مراجعة

ا.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

الجزء الثانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الفصل التاسع

الكتابة القومية تحت تأثير التحرر والقومية
القومية والكتابة التاريخية

لم يقتصر أثر حركة التوسع الأوربي على كونها عاملاً كبيراً في إثارة الاهتمام بتاريخ الشعوب غير الأوربية وكونها دافعاً قوياً على تطور العلم الطبيعي الحديث ، وما صاحبه من فلسفة الشك ، بل كانت كذلك القوة الرئيسية التي ساعدت على خلق الدول القومية الحديثة التي قامت على أنقاض الملكيات الإقطاعية التي وجدت في أواخر العصور الوسطى . هذا إلى أن حركة التوسع الأوربي هذه أسهمت في زيادة رؤوس الأموال ومصادر المادة التي غدت تحت تصرف الملوك ، كما ساعدت على خلق طبقة متوسطة موالية لهم مما مكن الملوك من تكوين جهاز من الموظفين الحكوميين وإقامة قوة عسكرية ثابتة استطاعوا بها سحق معارضة طبقة النبلاء الاقطاعيين وإدخال نظام الدولة القومية .

ولم تلبث أن أدت الحماسة الوطنية في الدول الحديثة إلى زيادة انتاج الكتب التي تمجد ماضي كل دولة وتاريخها القومي . وهكذا حدث نشاط هائل في جمع الوثائق التي لا تقدر بثمن والتي تسجل تاريخ كل دولة منذ ماضيها البعيد . وعلى الرغم من أن المرحلة المبكرة لحركة الجمع والنشر هذه كانت قد بدأت في القرن السادس عشر ، فإنها أخذت شكلها الحديث بعد أن أسهمت الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وحركة بعث روسيا بدرجة كبيرة في خلق شعور قومي قوي في معظم الدول الأوربية ثم ازداد هذا الشعور القومي قوة بفعل الحركة الرومانسية وهي التي أكدت دائماً أهمية الشخصية القومية و « عبقرية الشعب التي لا تندثر أبداً » .

وكان لمذهب التحرر كذلك أثر كبير على كتابة التاريخ خاصة فى تلك البلاد التى لم يكن النظام الملكى ولا الاتجاهات الاستبدادية ، المطلقة على درجة كبيرة من القوة . وازداد الاتجاه التحررى قوة وعمقاً بفعل الثورات الإنجليزية فى القرن السابع عشر والثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وحرب التحرير فى بروسيا فضلاً عن ثورات سنة ١٨٣٠ ، سنة ١٨٤٨ م .

ويتضح أثر مذهب التحرر على نشأة التاريخ القومى فى كتابات عديد من المؤرخين أمثال روتيك ، جرفينوس ، ودهلمان ، وثيرى ، ومشيليه ، وكوينت ، وماكولى ، فريمان ، وبانكروفت ، وموتلى .

وفى منتصف القرن التاسع عشر ازداد الدافع القومى عمقاً وقوة نتيجة لرد الفعل القوى لكتاب ظهر سنة ١٨٥٤ بعنوان « بحث حول عدم تكافؤ الأجناس البشرية » بين فيه مؤلفه الكونت جوزيف أرثر جوبنيو Joseph Arthur of Gobineau (١٨١٦ - ١٨٨٢ م) تأثير السلالات على التطور التاريخى ، وأكد سمو الجنس الآرى على بقية الأجناس ، وأعلن رأيه الخاص بأن تدهور هذه السلالة جاء نتيجة اختلاطها بسلالات أخرى أقل منها شأناً . وكان أن لقيت هذه الآراء غير المستساغة الآن قبولاً وانتشاراً فى ذلك الوقت لدى جماهير المؤرخين والساسة القوميين فى ألمانيا[1] . وبلغت هذه العقيدة ذروتها فى ملاحم هوستون ستيورات شامبرلين ، وأعمال موريس بايه وأناشيد النصر السكسونية ، التى نظمها كيلنج وهو مرلى . وهكذا لم يلبث أن أدى هذا الاعتقاد إلى إذكاء روح التعصب الوطنى خاصة عند الأمم والأسر الحاكمة مما ترتب عليه اضطهاد الأمم التى كانت أقل شأناً وهو الاضطهاد الذى كان سبباً فى إذكاء عواطفها القومية ومشاعرها الوطنية[2] .

---

(١) على عكس ما كان معتقداً ، ولم يكن لجوبينه اتباع كثيرون فى فرنسا ، اذ كان ينظر إليه على أنه نيتشه الفرنسى أى شخص غير متدين يقف ضد العقيدة وضد القومية والديمقراطية . ولم يظهر أول تاريخ لجوبينه بالفرنسية إلا حديثا (المؤلف) .

(2) CF.F.H.Hankins, The Racial Basis of Civilizatoin (Knopf 1926) Chaps I- V and Theophile Simar, The Race Myth (Boni 1925).

الكتابة التاريخية القومية فى ألمانيا

بدأت البذور الأولى لكتابة التاريخ على أسس قومية فى ألمانيا على عهد المدرسة الإنسانية وعهد الإمبراطورية القديمة . ذلك أن الإمبراطور المثقف مكسميليان الأول (١٤٩٣ - ١٥١٩ م) سار على نفس نهج شارلمان فى جمع بعض كبار علماء المدرسة الألمانية فى بلاطه فى فينا . ثم جاء من بعده كونراد كلتس الذى عمل على إحياء الاهتمام بكتاب « جرمانيا » الذى ألفه تاكيتوس ، وبهذا أطلق الشرارة الأولى لجدل استمر قرابة أربعة قرون .

أما يوحنا سبسمر (١٤٧٣ - ١٥٢٩ م) المعروف باسم كوسبنيان Cuspinian فقد قام بدراسة ناقدة للأعمال التاريخية لكل من جوردان ، واوتو فريزنج . أما ايرنيكوس ، بويتبنجر ، بيتوس ريناموس ، فهم يعكسون نفس روح بلوندوس فى أبحاثهم الخاصة بالآثار الألمانية ، وان كان نشاطهم سرعان ماطغى عليه الجدل الخاص بحركة الإصلاح الدينى ، مما أدى إلى فتور اهتمامهم بالتاريخ العلمانى والقومى .

أما حركة جمع مصادر التاريخ الألمانى فقد بدأها سيمون سكارديوس (١٥٢٥ - ١٥٧٣) ويوحنا بيستوريوس (١٥٤٦ - ١٦٠٨) وماركارد فريهر (١٥٦٥ - ١٦١٤) . ولم يلبث ملكوار جولداست (١٥٧٨ - ١٦٣٥) أن جمع فى كتابه عن أباطرة الدولة الرومانية عدداً كبيراً من الوثائق التى تتعلق بتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى فضلاً عن تاريخ القانون العام . وظل هذا الكتاب يمثل خير مجموعة لوثائق التاريخ الألمانى حتى ظهر كتاب « الوثائق الخالدة » Monumenta الذى تناول نفس الفترة وحوى نفس المادة ولكن بطريقة أكثر اتقاناً .

ثم كان أن ظهر الفيلسوف البارز جوتفريد ويلهلم ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) وكان على درجة عالية من الطموح دفعت به إلى محاولة جمع مصادر التاريخ الألمانى فى كتاب يمكن أن ينافس الكتب الفرنسية التى وضعها دوشزن فى هذا الشأن . لكن ليبنتز لم يحصل على المساعدة المرجوة من الإمبراطور حتى يتمكن من إتمام مشروعه الكبير . ومن ثم فقد تخلى عنه واقتصر إنتاجه على كتابة تاريخ الجلفيين وذلك فى كتابه « حوليات برونزويك الخاصة بالإمبراطورية الغربية » وهو الكتاب الذى ظهر ما بين ١٧٠٧ - ١٧١١ م . وهو مستخلص مما كتبه ليبنتز عن أسرة برونزويك . وأكد ليبنتز ضرورة نسخ المصادر كما هى دون إدخال أى تعديل أو تصحيح عليها .

أما المجموعة الكبرى الحديثة عن مصادر التاريخ الألمانى وهى التى تحمل اسم « الوثائق الخالدة عن التاريخ الألمانى Monumenta Germaniae Historia فهى جديرة فعلاً بهذا الاسم ذلك أنها كانت إنتاجاً طبيعياً لروح حرب التحرير وبدأ كتابتها رجل من أبرز رجال السياسة فى عصره وهو هنريك فردريك كارل بارون فوم شتين . وقد تأثر شتين بالاتجاهات الرجعية التى سادت الفترة التى أعقبت مؤتمر فينا ، ومن ثم فقد كرس كل طاقته لإثارة الاهتمام بالتاريخ الألمانى مدفوعاً إلى ذلك بعاطفة الحب الجياش نحو الأرض التى نشأ عليها أجداده وآباؤه .

ولما فشل فى الحصول على معونة حكومية تساعده على جمع مصادر التاريخ الألمانى ، فإنه استطاع أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع من موارده الشخصية ومن أصدقائه ، حتى أنشأ مركز الوثائق التاريخية الخاصة بألمانيا . وشاء حسن حظه أن يلتقى بزميل له على جانب كبير من غزارة المعرفة والمقدرة على العمل ، وهو جورج هنريك برتز Pertz (١٧٩٥ - ١٨٧٦ م) الذى كان يعمل فى دار المحفوظات بهانوفر . وقد تحمل برتز عبء العمل فى كتاب « الوثائق الخالدة » مدة نصف قرن وساعده كثير من العلماء الألمان على رأسهم جورج وتيز . وأخيراً جاء هذا الكتاب شاملاً لكل مصادر المعرفة الهامة عن التاريخ الألمانى منذ عهد الكتاب الرومان الذين تناولوا موضوع الغزو والفتوحات حتى العصور الوسطى . ولم يكتمل الكتاب إلا سنة ١٩٢٥ بعد أن توالى ظهوره فى ١٢٠ جزءاً . ويعتبر هذا الكتاب نقطة تحول رئيسية فى تطور الكتابة التاريخية العلمية حيث انه فتح الطريق أمام أجيال من المؤرخين تميزوا بوفرة الإنتاج ودقته . ثم أضيف إلى هذا العمل القومى العظيم أعمال أخرى تناولت تاريخ العديد من الولايات الألمانية فضلاً عن تاريخ ألمانيا الدينى وعلاقتها الخارجية وأعمال القادة البارزين فيها . ومن أمثلة ذلك ما قام به إردمانز درفر Erdmansdorffer من تجميع لتاريخ ألمانيا فى عهد الناخب الأعظم فردريك وليم .

وفى مجال كتابة التاريخ القومى فى ألمانيا لم يقف الجهد عند حد جمع المصادر ، وإنما وجد منطلقاً هائلاً فى القصص الممتع الذى اتخذ من أمجاد ألمانيا فى ماضيها ومن أعمال أسرة هوهنزلرن العظيمة موضوعاً له . ذلك ان أسرة هوهنزلرن قامت بجهد كبير ساعد على خلق اتجاهات حماسية لإحياء أمجاد إمبراطورية بروسيا فى العصور الوسطى . وكان يوحنا مولر أحد كبار المفكرين الذين كان لهم دور فى نشأة التاريخ القومى الألمانى ، فكتب عن ألمانيا العصور الوسطى باسلوب رومانسى مؤثر أما شميدت — كما سبق أن رأينا — فقد كتب تاريخاً عن ألمانيا من وجهة نظر المدرسة العقلانية ، ولكن نظرة شميدت العالمية جعلت عمله غير مقبول لدى جماهير ألمانيا الوطنيين المتحمسين .

اما فردريك ويلكن فقد لجأ إلى كتابة القصص القومية التى تمجد بسالة الألمان فى الحروب الصليبية وذلك فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » والذى ظهر ما بين ١٨٠٧ - ١٨٣٢ م . وهناك أيضاً هنريك لودن (١٧٨٠ - ١٨٤٧) الذى ألف كتاباً طويلاً بعنوان « تاريخ الشعب الألمانى (حتى ١٢٣٥) » وفيه يظهر تأثره بآراء يوحنا مولر عن العصور الوسطى . وحاول لودن فى هذا الكتاب أن يثير حماسة قومه تجاه عظمة ألمانيا فى العصور الوسطى .

ويأتى بعد ذلك المؤرخ يوحنا فواجت Johannes Voiget (١٧٨٦ - ١٨٦٣) صاحب كتابى « تاريخ بروسيا » و « تاريخ مارينبرج » وهما عبارة عن ملحمة عالجت فتح بروسيا ونشر الديانة المسيحية فيها على أيدى الفرسان التيوتون . كذلك استعرض فردريك فون رومير (١٧٨١ - ١٨٧٣ م) ما أنجزته أسرة هوهنشتاوفن ، وبذلك اذاع شهرة أبطال العصور الوسطى الألمان . هذا فى حين عالج المؤرخ جوستاف ستانزل (١٧٩٢ - ١٨٥٤) أعمال أباطرة فرانكونيا بمهارة ناقدة وعاطفية وطنية . أما المؤرخ ويلهلم فون جيزبرخت (١٨١٤ - ١٨٨٩) فقد حلل عوامل تكوين الإمبراطوية الألمانية فى العصور الوسطى فى كتابه الذى اسماه « تاريخ عصر الإمبراطورية الألمانية » وفيه استعرض علمه الغزير بصورة لا تقل بروزاً عن مقدرته الأدبية النادرة وتحمسه وتعقبه للتيوتونية .

وعلى الرغم من أن التاريخ الذى كتبه ليوبولدفون رانكه عن حركة الإصلاح الدينى كان كبير الأثر فى جعل لوثر بطلاً قومياً ألمانياً عظيماً ، فإنه يجب الاعتراف بأن رانكه والرعيل الأول من تلاميذه كانوا يشاركون المتعقلين نظرتهم العالمية . ولكن مع نشأة « المدرسة البروسية » أصبح التاريخ القومى فى ألمانيا أكثر تعصباً وأكثر تركيزاً على الأسر الحاكمة . بل ان فون رانكه نفسه الذى كان يتصف بالتحكم فى عواطفه لم يستطع أن يقلل أو يخفف من إعجابه ببروسيا وبأسرة هوهنزلون ، وبذلك جاءت كتبه العديدة عن التاريخ البروسى أقرب من غيرها من كتاباته لتكون تاريخاً قومياً . كذلك كتب لودفيج هوسر (١٨١٨ - ١٨٦٧ م) قصة ممتعة عن حرب الثلاثين سنة والإمارات الجرمانيه فضلاً على ملحمة طويلة صاغها عن حرب التحرير فى كتابه « تاريخ ألمانيا من ١٧٨٦ - ١٨١٥ م » وركز فى كتابه هذا على دور بروسيا فى تحرير ألمانيا وتوحيدها . أ. ما كسيليان دنكر (١٨١١ - ١٨٨٦) مؤرخ العصور القديمة الذى نهض بمهمة نشر الأوراق الرسمية الخاصة بملوك بيت هوهنزلرن ومن ثم ازداد إعجابه بهذه الأسرة وأصبح مقتنعاً بقدرتها على إحياء أمجاد الإمبراطورية الألمانية القديمة وجاء مدح لبروسيا كذلك فى كتاب أدولف شميدت

(١٨١٢ - ١٨٨٧) الذى سماه « سياسة بروسيا الألمانية » وكذلك فى كتابه « تاريخ محاولات الوحدة منذ عهد فردريك الكبير » . وقد أكد شميدت اخلاص بروسيا الذى لا يتزعزع لقضية الوحدة الألمانية .

أما أول الأعمال الكبرى التى تثنى على بروسيا فهو كتاب « تاريخ السياسة البروسية » الذى ألفه يوحنا جوستاف درويسن Johannes Gustav Droysen (١٨٠٤ - ١٨٨٤ م) وقد تخلى فيه عن مذهبه الحر ليصبح مادحاً إلى درجة النفاق لأسرة هوهنزلرن . ولذلك جاء كتابه الخالد مشوباً بتحيز مؤسف لهذه الأسرة وما سماه بالرسالة التى جاءت هذه الأسرة من أجل تحقيقها . وبالإضافة إلى ذلك اقتصر كتابه على دراسة سطحية لسياسة بروسيا الخارجية واهتم اهتماماً ضئيلاً بالسياسة الداخلية . وأغفل أثر العوامل الاقتصادية والظروف الاجتماعية .

ثم بدأ المؤرخ هنريك فون تريتشك (١٨٣٤ - ١٨٩٦) من حيث توقف درويسن ويرقى كتابه « تاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر إلى مستوى مؤلفات ميشليه ، ماكولى ، فرود ، حتى أنه يعتبر إحدى التحف الأدبية فى الكتابة التاريخية الحديثة . وعلى الرغم مما امتلأ به هذا الكتاب من حماسة واضحة للدور القيادى لبروسيا البروتستانتية وهى الشىء الذى يفيض به كتاب درويسن — فإن كتاب ترتيشك قد أعطى كثيراً من الاهتمام للجوانب الثقافية الأساسية فى تطور ألمانيا القومى .

أما هنريك فون سيبل (١٨١٧ - ١٨٩٥ م) فهو آخر الرواد الثلاثة فى المدرسة البروسية . وقد بدأ سيبل عمله متتلمذاً على فون رانكه فوضع كتاباً ممتازاً عن الحملة الصليبية الأولى وقام بدراسة عميقة عن الملكية فى ألمانيا . ولكن الأحداث السياسية المثيرة التى شهدها منتصف القرن التاسع عشر جعلته يبتعد عن نهج أستاذه وأصبح يؤيد بقوة الوحدة الألمانية عن طريق القوة العسكرية البروسية . وجاء كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » حواراً كبيراً مضاداً لحركة الثورة الفرنسية . وكان موضوعه الرئيسى هو الاعتقاد الرومانسى السابق الذى يذهب إلى أن الفرنسيين يفتقرون إلى المقدرة السياسية . ثم تحول من هذه الدراسة إلى دراسة ما توهم أنه الشىء الذى يثبت قدرة أمته الفائقة فى الأمور السياسية ، وهو قيام الإمبراطورية الألمانية على يد بسمارك . وكشف كتابه الكبير ، قيام الإمبراطورية الألمانية على يد وليم الأول ، عن قدرة هائلة على سرد كثير من التفاصيل السياسية والديبلوماسية بصورة واضحة . ولكن منهجه كان الدفاع المتميز عن سياسة بسمارك وديبلوماسيته .

وبانتهاء سيبل من كتابه أصبح التاريخ فى ألمانيا أداة أضعف من أن تخدم الأمانى القومية . ولم يلبث أن حل محل التاريخ الإنتاج الأدبى لبيترز Peters ، تاتنبرج وسائر الكتاب من مؤيدى حركة التوسع الألمانى ، هذا فضلاً عن برنهاردى Bernhardi ، وكبار العسكريين وشامبرلين وكبار المتحمسين للتيوتونيه ، وهم الذين اتصفت أعمالهم بالصخب . ولقد أوضح جو يلاند[1] الدور الذى لعبته مدرسة المؤرخين البروسية فى خلق هذه الحالة من الاعتزاز بالقومية والفخار بها . أما أو توهنتز فقد بين فى كتابه الكبير ، ملوك أسرة هوهنزلرن وأعمالهم ، الذى صدر سنة ١٩١٥ والذى بلغت مجلداته المائة كيف انتصرت الدراسة العلمية التاريخية على تيار القومية المتحمسة حتى عصر الحرب العالمية وذلك فى أوساط المؤرخين المحترفين هذا وان كان هذا الكتاب يتصف بالاتزان والبعد عن التطرف . ومع ذلك فإن الفترة حتى عصر الحرب العالمية الأولى شهدت نكوصاً عارضاً فى كتابة التاريخ القومى فى ألمانيا . ولعل آخر المؤرخين القوميين من الألمان كان ويتريش شافر (١٨٤٥ - ١٩٢٩) الذى كان قوياً فى تأييده للملكية متطرفاً فى مشاعره الوطنية مما جعل كتبه « تاريخ العالم » و « تاريخ ألمانيا » تحظى بشهرة هائلة بين الوطنيين الألمان .

أما مصادر التاريخ النمساوى فقد جمعت لأول مرة بواسطة جيروم بيز (١٦٨٥ - ١٧٦٢) وهو العلامة الراهب فى كتابه عن « ملوك أوستريا » ولم يقف الأمر فى القرن التاسع عشر عند حد جمع وثائق التاريخ النمساوى فى كتاب « الوثائق الخالدة » Monmnenta وهو الكتاب الذى أسهم فيه تيودور سيكل (١٨٢٦ - ١٩٠٨) بجهد كبير . وإنما صدرت مجموعات قومية مستقلة . جمع فيه هذه المصادر القومية واصدرتها أكاديمية فينا فى أكثر من سبعين جزءاً . كذلك ساهم سيكل فى إصدار الطبعة الجديدة لكتاب بوهمر المعروف باسم « السجل الإمبراطورى » والذى أشرف على تحريره جوليامس فون فيكر (١٨٢٦ - ١٩٠٢) وصدر فى اينسبروك بعد سنة ١٨٧٧ م .

وبالإضافة إلى أن المؤرخ سيبل كان علامة عظيم الشأن ، فإنه أول من خلق اهتماماً كبيراً بتاريخ النمسا فى العصور الوسطى من خلال مؤلفاته وكتاباته عن الأباطرة السكسون . وينتمى فيكر هو الآخر إلى مدرسة كبار علماء عصره وقد دفعته دراساته فى القانون المقارن إلى تناول العلاقة بين الشعوب الجرمانية المتعددة . أما أعظم تاريخ قومى عن النمسا فهو الكتاب الخالد الذى وصفه الفريد فون ارنت (١٨١٩ - ١٨٩٧ م) الذى تناول عهد ماريا تيريزا . كذلك عالج

---

(١) Antoine Guilland, Modern Germany and Her Historians (London 1915)

المؤرخ أونو كلوب (١٨٢٢ - ١٩٠٣) بطولات الإمبراطورية النمسوية فى حرب الثلاثين سنة وشن هجوماً على فردريك الكبير فى الوقت الذى كان أعظم مدافع عن أسرة هابسبورج . أما المؤرخ هلفرت فقد تولى الدفاع عن السياسة المضادة للثورة التى سار عليها فترنج . فى حين عرض فريدزنج (١٨٥١ - ١٩٢٠) بطريقة تتسم بالدقة قضية النمسا ضد بروسيا فى السنين الأخيرة من الصراع بينهما أى قبل سنة ١٨٦٦ وكانت وجهة نظره متحيزة لألمانيا ضد الإمبراطورية النمسوية المجرية .

التاريخ القومى فى فرنسا

بدأ الفرنسيون يتجهون نحو تحليل وجمع مصادر تاريخهم القومى بعد حوالى قرن من نشأة الكتابة التاريخية القومية فى ألمانيا فى بلاط الإمبراطور ماكسميليان . ذلك أن هذه الحركة بدأت فى فرنسا سنة ١٥٧٤ عندما صدر كتاب (غاليا الفرنجية) Franco Gallia للمؤرخ الفرنسى فرانسوا هوتمان . على ان هناك أعمالاً أخرى مبتكرة توضح بداية كتابة التاريخ القومى فى فرنسا مثل كتاب كلود فوشيه Claude Fauchet الآثار الغالية والفرنسية ، الذى صدر سنة ١٥٧٩ وكتاب بطرس بيثو Pierre Pithou الذى صدر سنة ١٥٨٨ بعنوان (الحوليات الفرنجية) ، وكتاب أبحاث عن فرنسا الذى صدر سنة ١٦١١ لمؤلفه إتين باسكوير هذا فضلاً عما تضمنه كتاب جاك بونجارز عن الحروب الصليبية فى كتابه « منجزات الرب على أيدى الفرنجة » .

أما البداية الحقيقية للجمع الناقد لمصادر التاريخ الفرنسى فقد ظهرت فى أعمال اندريه دوشزن (١٥٤٨ - ١٦٤٠) الذى وضع كتاب تاريخ النورمان كما ورد فى المخطوطات القديمة ، وقد صدر سنة ١٦١٩ ، وكتاب تاريخ الفرنجة كما ورد فى المخطوطات ، وقد صدر بعد ١٦٣٩ م . كذلك تبدو هذه البداية لجمع مصادر التاريخ الفرنسى فى أعمال إخوة سانت مارث وأهمها كتاب الأنساب ، وكتاب (غاليا المسيحية) وقد صدرت فى سنوات ١٥٧٢ - ١٦٥٠ - ١٦٥٥ م ، كما تبدو فى الطبعات التى أصدرها شارل دى فرنز دى كانج لأعمال فيلهار دوان . وكذلك تضمن نفس الشيء كتاب إتين بالوز (١٦٣٦ - ١٧١٨) Etienne Baluze والمعروف باسم زعماء مملكة الفرنجة .

واستمر العمل فى جمع مصادر التاريخ الفرنسى خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر على يد الرهبان البندكتيين الذين كانوا ينتمون إلى مجمع سانت مور والذين أقاموا فى دير سانت جرمان دى بريه فى باريس وهو المجمع الذى أسسه الأب مارتن ترنيير والأب جريجوار تاريز بين سنتى ١٦١٨ ، ١٦٣٠ م . وكان رائد البحث التاريخى فى هذه الجماعة حنا مابيلون (١٦٣٢ - ١٧٠٧) المعروف بجهوده التى لا تعرف الكلل أو الملل .

ولا يمكننا فى هذا المقام أن نتعرض لكافة أعمال هذه الجماعة ، وإنما نكتفى بذكر أبرز هذه الأعمال . فنجد فى المقام الأول الطبعة الناقدة التى أخرجها الأب تيرى رونارت Dom Thierry Ruinart (١٦٥٧ - ١٧٠٩ م) لأعمال جريجورى التورى وفر يدجاريوس ويليه أدموند مارتين (١٦٥٤ - ١٧٤٩ م) الذى أصدر موسوعات ومجموعات عن أعمال السابقين وما دونوه من مخطوطات وأصدر الأب برنارد مونتفسون (١٦٥٥ - ١٧٤١) كتابه الشهير (آثار الملكية الفرنسية) فى حين أصدر الاب مارتن بوكيه (١٦٨٥ - ١٧٤٩) مجموعة المخطوطات عن الشئون الغالية والفرنجية ، الذى لايزال يستكمل تحت عنوان (مجموعة مؤرخى غاليا وفرنسا) . وهناك أيضاً الأب أنطوان ريفيه دى لاجرانج (١٦٨٣ - ١٧٤٩) الذى كان قد بدأ فى وضع كتاب تاريخ الأدب فى فرنسا بمعاونة كل من ديكو ، بونست ، كولومب . ونهض المعهد الفرنسى وأكاديمية المخطوطات باتمامه حتى وصلا به فى الوقت الحاضر إلى القرن الرابع عشر .

كذلك اهتم الرهبان من جماعة سانت مور بالكتابة عن تاريخ المقاطعات الفرنسية وظهرت لهم كتب عديدة فى هذا الشأن أشهرها ذلك الذى وضعه الأب فيست والأب فيك بعنوان التاريخ العام للمقاطعات الجنوبية من فرنسا وقد صدر فيها بين ١٧٣٠ - ١٧٤٩ وهو الكتاب الذى راجعه أخيراً مولنيير .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عاد المؤرخون العلمانيون إلى الصدارة وكان مركز نشاطهم فى أكاديمية الفنون والآداب التى أسسها كولبرت فى سنة ١٦٦٣ . وخير ما أصدره هؤلاء المؤرخون هو ذلك الكتاب الذى جمع مادته أج لوريير ، دنيس سيكوز ، ل.ج دى بركوينى تحت عنوان (مراسيم ملوك فرنسا) . وقد صدر ما بين سنتى ١٧١٤ ، ١٧٩٤ م . كذلك نهض هؤلاء المؤرخون أنفسهم بدور بارز فى اتمام كل من كتاب (تاريخ الأدب) وكتاب (غاليا المسيحية) . ثم أخذت الكتابة التاريخية دفعة جديدة إلى الأمام عندما عين نابليون العلامة ب . س . ف دونو P.C.F. Daunou أمينا للمخطوطات القومية . ذلك أن دونو جلب كثيراً من السجلات الأجنبية إلى باريس وساهم هو أيضاً فى إكمال تاريخ الأدب ، وغيره من كتب الرهبان البندكتيين .

وقام جوردان ، ودى كروس ، واسامبر بوضع كتاب عن تاريخ القوانين فى فرنسا بعنوان (مجموعة القوانين الفرنسية القديمة) وقد صدر هذا الكتاب فى ٢٨ جـزءاً فيما بـين ١٨٢٢ - ١٨٢٣ . أما القرن التاسع عشر فشهد أول خطوة كبرى نحو جمع مصادر التاريخ الفرنسى فى كتاب بعنوان (مجموعة كاملة للمذكرات الخاصة بتاريخ فرنسا) . وقد قام بجمع مادته بيتو ، ومونمركيه فى ١٣٠ جزءاً (١٨٣٩ - ١٨٢٩) وتناول الفترة من عهد فيليب أوغسطس حتى سنة ١٧٦٣ م .

وبقدر ما تدين به ألمانيا للبارون فوم شتين فى جمعه لمصادر التاريخ القومى بها تدين فرنسا للسياسى العلامة فرانسوا جيزو الذى لم يقتصر جهده على مجرد تنظيم حركة علمية لجمع وتحرير مصادر التاريخ الفرنسى ، بل كان هو نفسه عالماً متبحراً فى التاريخ له عدد من الكتب التاريخية القيمة . وقبل أن يعتزل كتابة التاريخ ويتفرغ للنشاط السياسى كان جيزو قد أصدر مجموعة من الكتب تقع فى ثلاثين مجلداً تناولت التاريخ الفرنسى حتى القرن الثالث عشر . كذلك نظم فى سنة ١٨٣٣ الجمعية الفرنسية وكان برانت أول رئيس لها ، ومنذ ذلك الحـين وهذه الجمعيـة تضم فى عضويتها أشهر المؤرخين الفرنسيين . وقد وصل عدد المؤلفات المطبوعة لهذه الجمعية إلى أكثر من ٣٥٠ مؤلفاً تحوى قدراً هائلاً من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسى .

وكان أهم ما فعله جيزو هو حثه لويس فيليب على إنشاء لجنة فرعية فى وزارة التربية والتعليم تشرف على نشر ما لم ينشر حتى ذلك الحين من المادة المتعلقة بمصادر التاريخ الفرنسى . وبدأ هذا العمل العظيم فى سنة ١٨٣٦ بصدور سلسلة تاريخية بعنوان (مجموعة الوثائق غير المنشورة عن تاريخ فرنسا) وقد تم حتى الآن صدور ٢٩٠ مجلداً من هذه السلسلة .

وكان أول من ساعد جيزو فى هذا المشروع مينيه Mignet ، وثيرى ،وجيرار ، رينوارد ، وعندما تأسست الجمعية العامة لمدرسة الوثائق فى سنة ١٨٢٩ صار من المستطاع إيجاد علماء ممتازين فى علم الوثائق لأن مدرسة الوثائق هذه صارت من أكبر معاهد دراسة التاريخ فى العالم ، وتقوم بتدريب الطلاب على استخدام الوثائق وعلاجها . ويعتبر كتاب الوثائق غير المنشورة مناظراً لكتاب Monumenta فى ألمانيا إذ إن كليهما يقتصر على عرض مادة لم يسبق نشرها من قبل . ومنذ سنة ١٨٨١ أخذت الأجزاء الخاصة بهذا الكتاب الفرنسى تصـدر تحت إشراف لجنـة الأعمال التاريخية والعلمية . كذلك تجدر الإشارة إلى مجموعة المصادر التى أصدرتها مكتبة مدرسة الدراسات العليا .

كذلك خطا الفرنسيون خطوة أبعد من أى أمة أخرى وذلك بجمع مجموعات ضخمة من مادة المصادر التى تساعد على دراسة تاريخهم فى العصور الحديثة . ويرجع ذلك أساساً إلى أنه لا توجد دولة أوربية أخرى يحتوى تاريخها الحديث على حدث أو حركة قومية قرينة بالثورة الفرنسية بكل ما فيها من متعة وخيال مثيرين للاهتمام . ولذلك نجح رجل الدولة والمؤرخ الاشتراكى جنا جوريه Jean Jures فى حث الحكومة على أن تنشأ لجنة فى وزارة التعليم العام تقوم بالإشراف على إصدار ما لم يسبق إصداره من الوثائق التى تتعلق بالتاريخ الاقتصادى للثورة الفرنسية ، واشتراك كبار المؤرخين الفرنسيين فى متابعة هذا العمل العظيم . ومنذ سنة ١٩٠٦ بدأت مجموعة الوثائق غير المنشورة الخاصة بالتاريخ الاقتصادى للثورة الفرنسية تظهر فى أجزاء متعاقبة حتى صدر منها حتى الآن حوالى مائة جزء . كذلك قامت بلدية مدينة باريس بإصدار سلسلة من الكتب بعنوان (الوثائق المتعلقة بتاريخ مدينة باريس خلال الثورة الفرنسية) وبدأ صدور هذه السلسلة منذ سنة ١٨٨٨ .

وهناك مجموعة أخرى من المراجع ضمت مصادر التاريخ الخاص بمراحل معينة من الثورة ، وأشرف على هذه المجموعة عدد من العلماء البارزين كان أكثرهم نشاطاً فى هذا المجال (الفونس أولارد) وتلامذته وكان لأولارد دور بارز فى إصدار مجموعة الوثائق المتعلقة بتاريخ باريس الذى سبقت الإشارة إليه .

كذلك نافس الفرنسيون الألمان فى مجال إنتاج القصص التاريخى القومى . ذلك أن نشر الكتاب الذى ألفه شاتوبريان سنة ١٨٠٢ عن عبقرية المسيحية أضفى على ماضى فرنسا فى العصور الوسطى ثوباً رومانسياً براقاً . وتشبه كتابة شاتوبريان فى هذا المجال كتابات سبتلر ، وجوهانز مولر فى ألمانيا . ولكتاب شاتوبريان المعروف باسم الشهداء ، نفس ما لكتابه السابق من تأثير . أما كلودفوريل Claude Fauriel (١٧٧٢ - ١٨٤٤) فقد جاءت آراؤه فى كتاب تاريخ جنوب غاليا تحت حكم الغزاة الجرمان ، سابقة على آراء كل من فوستيل دى كولانج وجوليان عندما عارض الرأى القائل بأولوية تأثير الثقافة الرومانية والغالية على تأثير الثقافة الافرنجية فى تكوين حضارة العصور الوسطى .

كذلك استطاع يوسف ميشو Joseph Michaud (١٧٦٧ - ١٨٣٩) أن يرسم صورة واضحة لأمجاد فرنسا فى عصر الحروب الصليبية فى كتابه الذى راج وذاع صيته بشكل كبير والمعروف باسم تاريخ الحروب الصليبية (١٨١٢ - ١٨١٧) وكتب فرانسوا رينوارد (١٧٦١ - ١٨٣٦) كتابى (أبحاث فى تاريخ اللغة الرومانية القديمة) (والقواعد اللغوية المقارنة)ورسم

فيها صورة زاهية لشعراء التروبادور ، كما اعرب عن اعتقاده بتفوق اللغة الفرنسية على سائر اللغات الرومانية . أما نوما دينيس فوستيل دى كولانج (١٨٣٠ - ١٨٩٩) فيعتبر رائد الدراسات الخاصة بالعصور الوسطى فى فرنسا ، وقد ساعد على إذكاء العنصر الوطنى فى الكتابة التاريخية الفرنسية وذلك بأن دافع عن نظرية الأصل الرومانى للثقافة والنظم الفرنسية ، وهاجم العقائد التيوتونية والجرمانية السائدة التى كانت شائعة فى ذلك الحين . وبعد كولانج بفترة من الوقت قام كل من هانوتو ، فاجنيز Fagniez وشيرويل Cheruel بتحليل ناقد يعتمد على سعة الاطلاع والمعرفة ويصطبغ بصبغة وطنية لمركزية السلطة فى عهد الملكية الفرنسية فى القرن السابع عشر عن طريق كبار رجال الدولة .

أما الفونس دى لامارتين (١٧٩٥ - ١٨٦٩) فقد عرض أمجاد الثورة الفرنسية فى إعجاب بالغ بهذه الأمجاد وخاصة مآثر الجيروند ، وذلك فى كتابه الذى نافس به كارليل فى مجال كتابة التاريخ بأسلوب أدبى . على أن عمله كان مثل عمل كارليل عملاً غير علمى من الناحية التاريخية . وقام ميشليه بتفسير الثورة فى صورة ملحمة للحرية وحملة مقدسة لتحرير الشعب .

وهناك من المؤرخين الفرنسيين كذلك لويس بلان Louis Blanc الذى دافع عن فكرة أن الغرض الأساسى من الثورة كان نشر الإخاء وذلك فى كتابيه تاريخ الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ، وتاريخ عشر سنوات ، وقد صدر سنة ١٨٤١ . وفى هذا الكتاب الأخير عالج الفترة من سنة ١٨٣٠ - سنة ١٨٤٠ . ويعتبر فرانسوا مينيه Mignet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) أكثر مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع عشر علماً . وقد ضمن كتابه (تاريخ الثورة الفرنسية) هجوماً على إعادة اسرة البوربون للحكم . وأوضح أن الثورة الفرنسية كانت النتاج الطبيعى الحتمى لاتجاهات العصر وصورها فى صورة فجر عهد جديد عظيم فى تاريخ العالم . ويأتى بعد ذلك لويس أدولف تيير Thiers (١٧٩٧ - ١٨٧٧) الذى وضع تاريخاً مطولاً وشعبياً للثورة الفرنسية من وجهة نظر المذهب الليبرالى فى القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أنه تناول الإمبراطورية الفرنسية بالنقد فى كتابه تاريخ القنصلية والإمبراطورية إلا أنه أثنى على القنصل الأول بونابرت وصوره فى صورة منقذ فرنسا والحضارة الأوربية .

أما فردريك ماسون فقد أثنى على نابليون بونابرت وعلى ما حققه بالنسبة للإمبراطورية الفرنسية ، وفعل نفس الشىء كل من إليرت فاندال ، هنرى هوسارى ، وأرثر ليفى . وقد مس ماسون حياة نابليون الخاصة عن بعد وهاجم تفاهة وخيانة جوزفين وشخصية أسرة بونابرت التافهة وهى الأسرة التى كانت دون المستوى والتى كان نابليون يدين لها بعاطفة وولاء زائدين .

أما فاندال فقد صور نابليون على أنه انسان محب للسلام دفعته الغيرة من الإنجليز نحو الحرب . كذلك دافع هوساى Houssaye عن عبقرية نابليون العسكرية فى شتى مراحلها حتى فى معركة واترلو وأدان بشدة إعادة أسرة البوربون . أما ليفى فصور نابليون على أنه شخص فوق مستوى البشر منزه عن الخطأ .

وهكذا لعبت الأسطورة التى أحاطت بنابليون دوراً كبيراً فى الكتابة التاريخية القومية الفرنسية حتى يومنا هذا ، ودافع عن عديد من وجهات النظر المرتبطة بتلك الأسطورة كل من تاين Taine أولارد ، وماثييز ، ماديلين ، سييه See ويعبر المؤرخ بولس تيورو دانجن Paul Thureau Dangin (١٨٣٧ - ١٩١٣) فى كتابه عن تاريخ ملكية يوليو عن أسفه لما لأسطورة نابليون من أصل شعبى ، وإن كان يدافع فى ذلك الكتاب عن ملكية يوليو ذاتها . أما المؤرخ بطرس لاجورس Pierrede La Gorce (١٨٤٦ - ١٩٣٤) صاحب كتاب تاريخ الإمبراطورية الثانية ، فقد دافع عن الملكية والاكليروسية ، كما أنه يعتبر ممن دافعوا عن نابليون الثالث . كذلك حرص أميل اوليفر (١٨٢٥ - ١٩١٣) فى كتابه ، الإمبراطوريات الحرة أن يعرض للاتجاهات الحرة فى العقد الأخير من حياة الإمبراطورية مبديا إعجابه بهذه الاتجاهات . وأخيراً يأتى اسم جابريل هانوتو ، الذى كتب واحداً من أبرز وأشهر كتب التاريخ المعاصر القومى لفرنسا وهو تاريخ فرنسا المعاصرة وصف فيه قيام الجمهورية الثالثة ودافع عنها .

ولم يكن رصيد فرنسا فى كتب التاريخ العام التى كتبت من وجهة النظر القومية بالشىء القليل . فهناك شارل هينولت (١٦٨٥ - ١٧٧٠) الذى وضع أول تاريخ عام لفرنسا تحت عنوان تقويم مختصر لتاريخ فرنسا وقد ظل هذا الكتاب الذى صدر سنة ١٧٤٤ هو الوحيد من نوعه إلى أن ظهر كتاب آخر أطول منه وأكثر شمولاً وضعه المؤرخ سيسموندى فى بداية القرن التاسع عشر ، وكتبه من وجهة نظر مؤرخ غيور على مذهبه التحررى ، فانتقد الملوك والأساقفة ، وأشاد بالاتجاهات التحررية فى مجتمعات العصور الوسطى وينتمى سيسموندى إلى مدينة جنيف ويمثل إلى حد ما عقلانية روسو المعتدلة ، فضلاً عن أنه لم يقصد من وراء كتابه إثارة حماسة وطنية قوية . ولا يختلف الكتاب الفذ الذى كتبه ميشليه تماماً عن كتاب سيسموندى اللهم إلا من ناحية عدم تعلق ميشليه بالمذهب التحررى . ذلك أن ما عمله ميشليه لم يكن كبيراً فى مجال الأدب الفرنسى فحسب بل كان عظيم الأثر فى إذكاء الاعتزاز بالوطنية خاصة لدى الفرنسيين من أنصار المذهب التحررى . أما كتاب المؤرخ هنرى مارتن « تاريخ فرنسا » الذى بدأ ظهوره سنة ١٨٨٣ فهو أقل كفاءة مما كتبه ميشليه وإن كان أغزر منه فى مادته وعلمه . ولكنه ظل أشهر كتاب تاريخى عن فرنسا

لمدة نصف قرن وذلك لترتيبه المنطقي وعرضه الواضح السهل الفهم وما به من تعبير مهذب عن وجهة النظر البورجوازية المتمسكة بالمذهب التحرري . هذا فضلاً عن أن موضوعه الرئيسي كان النمو المضطرد لحركة الوحدة الوطنية الفرنسية وقد روجع هذا الكتاب عدة مرات وأدخلت عليه الكثير من الإضافات والتحسينات . كذلك لاقى كتاب « تاريخ فرنسا » للمؤرخ فيكتور دورى رواجاً كبيراً برغم أنه لم يركز كثيراً على الاتجاه القومي . أما الجهد التعاوني العظيم الذى أشرف عليه أرنست لافيس في سبيل إخراج الكتاب الذى عرف باسم تاريخ فرنسا فهو يتسم بسمة العلم وينتمي إلى المدرسة الناقدة أكثر من انتمائه إلى الكتابة التاريخية القومية . ومع ذلك فإن هذا الكتاب يجيش بكثير من الإحساس بالوطنية .

وزاد من تدعيم الشعور القومي في فرنسا تلك الهزيمة والخسائر التي لحقت بها سنة ١٨٧٠ . وعلى الرغم من أن بعض الأساتذة من المؤرخين الفرنسيين أمثال لاجورس ، سورل Sorel ، تناولوا حرب سنة ١٨٧٠ بطريقة بعيدة عن التحيز ، وهو الأمر الذى فضح دفاع فون سيبيل المتحيز ، فإنه كانت هناك حماسة قومية مندلعة من جانب الوطنيين المتطرفين . وكان أن انعكست هذه الاتجاهات فيما كتبه بولس ديروليد Paul Deroulede الذى دعا للأخذ بالثأر من ألمانيا . وعبر عن ذلك الاتجاه في أشعاره وكتيباته التي حوت قدراً كبيراً من المديح والحوار موريس باريه Mauriee Barres الكاتب الغالي الأصل وزعيم الوطنيين المتحمسين . وكان موريس باريه شديد الإعجاب بديروليد . وقد أقنعته دراسته للتاريخ الفرنسي بأن الفرنسيين يقومون بالحرب بوصفها واجباً دينياً . وعلى هذا فإن ديروليد وباريه كانا أول من صاغا فكرة الحرب المقدسة وعبرا عن الاعتقاد بأن فرنسا لا تدخل أى حرب بغرض التدمير والإفساد وإنما تدخلها « من أجل تنفيذ أوامر الله ، لتقوم بدور الفارس المدافع عن العدالة . »

وعلى الرغم من أن الفرنسيين أبدوا من التحفظ بعد سنة ١٨٧٠ أكثر مما فعل الألمان فإن الآية انقلبت بعد سنة ١٩١٨ . ففى ألمانيا تضاءل الاهتمام بالإمبراطورية وببروسيا تضاؤلاً وقتياً في حين احتلت حوادث النصر والقومية في فرنسا مكان الصدارة . ومن أمثلة ذلك ما نلمسه في كتابه المؤرخ فراتز فنك برنتانو وذلك في إعداد السلسلة التي أصدرها بعنوان « تاريخ فرنسا القومي » . ففى هذه الاعداد يظهر حماسة وطنية وكراهية واحتقاراً كاملاً لألمانيا . ولم تغب هذه النغمة الوطنية المتحمسة كذلك عن كتاب « تاريخ الأمة الفرنسية » وهو ذلك العمل التعاوني الكبير الذى ظهر بعد الحرب وأشرف عليه جابريل هانوتو .

التاريخ القومى فى انجلترا

لم تقم فى انجلترا محاولة لبذل أى جهد منظم لجمع مصادر تاريخها القومى قبل بداية القرن التاسع عشر . وكان جيبون قبل وفاته قد أوصى بشدة بضرورة إنشاء لجنة تقوم بجمع ونشر أعمال مؤرخى انجلترا فى العصور الوسطى ، ورشح جيبون لرئاسة اللجنة حنا بنكرتون . ولكن شيئا من هذا القبيل لم يتم بعد وفاته . ثم كان ان أنشئت فى انجلترا سنة ١٨٠٠ لجنة حفظ الوثائق . ومع ذلك فلم يشترك فى أعمالها من يمكن اعتباره مؤرخاً حقيقياً حتى عين بها فى سنة ١٨٢٥ السير جيمس ماكينتوش Mackintosh .

وفى سنة ١٨٢٥ اشار نيقولاس هارس نيقولاس Harris Nicholas إلى الحالة المؤسفة التى كانت عليها مصادر التاريخ الإنجليزى ، ونتج عن نقده أن انبثقت سنة ١٨٣٦ من لجنة الوثائق لجنة أكثر نشاطا ونقدا . وكان من بين ما أنتجته نشر المحاضر البرلمانية على يد (بالجرين) .

وفى سنة ١٨٣٧ حلت لجنة حفظ الوثائق وأصبحت الوثائق التاريخية فى عهدة أمين السجلات . ومن ثم لم تكن هناك بداية حقيقية نشطة لجمع مصادر التاريخ الإنجليزى إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر عندما تعرض وليم ستوبز وفينوجرادوف الروسى الأصل بالنقد المر للوضع الذى عليه مصادر التاريخ الإنجليزى . واستطاع روميلى Romily أمين السجلات بعد ذلك وعلى وجه التحديد فى سنة ١٨٥٧ أن يحصل على تفويض من الحكومة لطبع مصادر التاريخ الإنجليزى فى العصور الوسطى ، وعهد إلى أستاذ مشهود له بدقة عمله هو توماس دفس هاردى Thomas Duffus Hardy (١٨٠٤ – ١٨٧٨) بالإشراف على هذا المشروع . أما عملية نسخ هذه المصادر فقد قام بها عدد من العلماء المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى ومنهم برور Brew-er ، جايردنر Gairdner، كانون ، روبرتسون ، جيلز Giles، ديموك Dimock. وشارك فى ذلك العمل الأسقف وليم ستوبز (١٨٢٥ – ١٩٠١) وهو أشبه بالمؤرخ الألمانى ويتز Waitz وكرس ستوبز لهذا العمل معظم سنى عمره فى فترة زادت عن ربع قرن بعد سنة ١٨٦٣ . وأخيراً انتهت عملية تجميع مصادر تاريخ انجلترا فى العصور الوسطى سنة ١٩١١ وتمت فى ٢٤٣ مجلدا وهى المعروفة باسم وثائق وسجلات تاريخ بريطانيا العظمى وإيرلندا فى العصور الوسطى . وأحياناً تعرف باسمها المختصر « مجموعة السجلات » وهو الاسم المستمد من حقيقة نشر هذه الوثائق تحت إشراف أمين السجلات .

وتعتبر هذه السلسلة النظير الرسمي للوثائق الألمانية المعروفة باسم Monumenta ومجموعة الوثائق الفرنسية . هذا كله بالإضافة إلى ما تم فى انجلترا من عمل تقاويم لأوراق الدولة الرسمية والسجلات البرلمانية ومحاضر الجلسات وسجلات مجلس البلاط وما شابه ذلك .

ثم إن هناك أعمالاً مماثلة أقل شأنا قامت بها جمعيات علمية مثل جمعية كامدن ، جمعية النصوص الإنجليزية القديمة ، فضلا عن جمعية سلدن التى قامت بجمع مصادر تاريخ القانون الإنجليزى .

ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المجال طبع الأصول المخطوطة للرحلات والكشوف الهامة ، وهو العمل الذى أشرفت عليه جمعية هاكلويت Hakluyt Society .

ولم تكن كتابة التاريخ القومى فى انجلترا أقل شأنا من مثيلتها فى كل من ألمانيا وفرنسا . وهنا يبدو أن السمة الرئيسية للكتابة القومية فى انجلترا كانت مغايرة لنغمة الأساطير الآرية والنوردية لأنها أكدت التفوق السياسى للشعوب الأنجلو ساكسونية وهى النغمة التى شاعت فى القرن التاسع عشر . وقام هذا الاعتقاد على أساس فكرة أن الغزاة التيوتون الذين غزوا انجلترا طردوا أمامهم سكان الجزيرة الأصليين من البريطان والكلت وخلقوا من هذه الجزيرة بلدا ذا ثقافة جرمانية بحتة وجنس جرمانى صرف . وقد تضمن الكتاب المعروف الذى ألفه حنا ميتشل كمبل Kemble (١٨٠٧ - ١٨٥٧) وهو كتاب (السكسون فى انجلتره) الذى صدر سنة ١٨٤٩ تعبيراً صريحا قويا عن وجهة النظر هذه . ولم يقتصر أثر هذا الكتاب على بث هذه العقيدة الأنجلو ساكسونية فى عقول الإنجليز بل إنه لاقى رواجا كبيرا فى ألمانيا وساعد على تزويد الوطنيين الألمان بمثل آخر يؤكد عقيدتهم فى (رسالة الشعوب الجرمانية) . كذلك اعتقد كمبل Kemble أن النظم الإنجليزية فى القرن التاسع عشر مستمدة بصورة غير مباشرة من مصادر جرمانية .

واستمر النقاش حول هذه المسألة فى الكتاب الذى ألفه أدوارد أغسطس فريمان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) واسمه (تاريخ الغزو النورماندى لانجلتره) . ذلك أن فريمان لم يقف عند حد قبول النظرية الانجلو سكسونية بل تتبع الأصول الحقيقية للحرية السياسية لدى المجتمعات الجرمانية وخاصة فى صورتها الإنجليزية . ومهما يكن من أمر فإن الأصول الأولى لهذه النظرية الخاطئة الخاصة بتمجيد الأصل الجرمانى ، إنما ترجع إلى كتابات راين توراس ومونتسكيه ، فى حين

لم يأخذ بها وفندها كل من فوستيل دى كولانج ، برونر Brunner وتشكل هذه النظرية فى حد ذاتها أحد الأخطاء الكبرى التى لحقت بالدراسات التاريخية فى مرحلة سابقة على الدراسات الأنثروبولوجية ولم ينج من هذا الخطأ أكثر المؤرخين هدوءاً وحرصاً وهو الأسقف ستبس Stubbs وكذلك أكثرهم إبداعا وهو جون ريتشارد جرين . ولكن ظهر بعد ذلك من تصدى لهذه الفكرة مثل سيبهم Seebohim . ومن وجد الجرأة على إدخال تعديلات عليها مثل متيلوند ، وفينو جرادوف Maitland and Vinogradoff .

على أن النظرية الجرمانية صادفت دفعة قوية فى ذلك الكتاب السيء السمعة الذى ألفه المؤرخ الشاعر شارلز كينجزلى سنة ١٨٦٤ تحت عنوان (الرومان والتيوتون) . ومع أن هذا الكتاب جاء على قدر كبير من الإثارة ، إلا أنه لم يكن علميا على الإطلاق ، فضلا عن أنه ليس كتابا تاريخيا . وكان له أثر كبير فى إحداث انحرافات فى تفسير تاريخ العصور الوسطى فى مراحلها الأولى . ذلك أن كينجزلى مجد إلى حد كبير من أطلق عليهم « الشبان الأشداء ، أبناء الغابة التيوتونية » . وأثنى عليهم بنفس الحماسة التى صورهم بها لاس كاساس ، على عكس الرومان الذين وصفهم بأنهم كانوا ضعاف الروح والجسم ، لأنهم « أبناء إمبراطورية كانت محتضرة » . كذلك عبر عن رضاه بسقوط هذه الإمبراطورية الرومانية والدمار الذى لحق بها بفضل (الطوفان البشرى) الذى اكتسحها من الشمال . ويكفى دليلا على مدى بعد الكتاب عن الدقة أن كل علماء التاريخ المتخصصين فى دراسة العصور الوسطى قد استبعدوا كافة ما جاء فيه . ومع ذلك فان هذا الكتاب لاقى رواجا كبيرا ولا يمكن لمواطن إنجليزى أن يقرأه قراءة جيدة دون أن تتملكه رغبة فى أن يرجع آباءه وأجداده إلى سلالة ارمنيوس وألريك .

وإذا ما تركنا العصور الوسطى حيث وضع التيوتون جذور النعرة والافتخار بالقومية فى بريطانيا فإننا نجد أكثر المؤرخين الإنجليز تعصبا للقومية وهو جيمس أنتونى فرود Froude الذى وصف أمجاد الثورات الإنجليزية منذ عهد الإمبراطورية الرومانية . ويليه كارليل الذى أشاد بفضائل كرومويل ورفاقه فى الكومنولث . وبعد ذلك يأتى المؤرخون لسان حزب الأحرار وهم جيمس ماكينتوش ، هالام ، توماس بابنجتون ماكولى . وقد جعلوا ثورة (١٦٨٨ - ١٦٨٩) مصدر وأساس الحريات فى دول العالم . ويعتبر كتاب ماكولى ، تاريخ إنجلترا (١٨٤٨ - ١٨٦١) هو النظير الإنجليزى لأعمال ترتيشك ، ميشليه ، فضلا عن أنه أروع ما أسهمت به إنجلترا فى الكتابة التاريخية حيث انه مرجع قيم من مراجع التاريخ على الرغم مما يشوبه من تحيز .

وهناك كتاب مطول لإيرل ستانهوب بعنوان (تاريخ إنجلترا منذ صلح أوترخت حتى صلح فرساى) وهو يعالج تاريخ إنجلترا فى القرن الثامن عشر من وجهة نظر محافظة مؤيدة للسياسة البريطانية فى ذلك الوقت . أما الجنرال وليم نابيير فقد أشاد ببسالة الإنجليز فى شبه جزيرة إيبريا وذلك فى كتابه (تاريخ الحرب فى شبة الجزيرة) . وقد صدر الكتاب ما بين سنتى ١٨٥٤ - ١٨٤٠ ، ويبرر فيه المؤلف فكرة الحرب بوصفها أن لها دوراً فى المجتمع البشرى ، وهذا الرأى هو نفس ما رآه برناردى بعد ذلك بنصف قرن أو أكثر . أما السير هربرت ماكسويل فقد أثنى على ولنجتون (الدوق الحديدى) فى كتابه (حياة ويلنجتون) الذى صدر سنة ١٨٩٩ . كذلك عالجت هاريت مارتينو Martineau فى كتابها (تاريخ إنجلتره) الذى صدر ما بين ١٨٧٧ - ١٨٧٩ النصف الأول من القرن التاسع عشر بطريقة تؤكد أهمية تفوق حزب الأحرار فى هذه الفترة . وأخيرا هناك السيرجون ر .سيلى Seeley (١٨٣٤ - ١٨٩٥) الذى جمع بين ميوله القومية وعلمه الغزير فى مجال الكتابة التاريخية . ذلك أنه كتب بكثير من الفخر والاعتزاز عن نمو الإمبراطورية البريطانية فى كتابيه (التوسع الإنجليزى) و (نمو السياسة البريطانية) . ولم يكن سيلى مدافعا عن القومية متعصبا لها وداعية للاستعمار فحسب ، بل يرجع إليه وإلى فريمان ما أتجهت إليه الكتابة التاريخية فى إنجلترا من حيث حصرها داخل نطاق التاريخ السياسى وحده . وأما أعظم كتب التاريخ القومى فى إنجلترا فهو كتاب (مختصر تاريخ الشعب الإنجليزى) الذى صدر سنة ١٨٧٤ والذى ألفه جون ريتشارد جرين . وتضمن الكتاب دراسة للعقائد الجرمانية مع توضيح أثرها الأساسى فى تطور الحضارة الإنجليزية بوصفها ثقافة رفيعة سادت وانتشرت . وأعطى هذا الكتاب لتطور الحياة الشعبية فى بريطانيا مجالا أكبر من المعتاد ، مما جعله من الكتب الرفيعة التى حازت إعجاب الأحرار فى بريطانيا . ثم أعاد جرين كتابته على نطاق واسع تحت عنوان (تاريخ الشعب الإنجليزى) . وقد صدر هذا الكتاب المطول سنة ١٨٨٠ ولكنه لم يلق رواجا كبيرا .

وبالإضافة إلى ذلك كله كان للحماسة القومية التى صاحبت أعمال سيسل رودس وحرب البوير أثر كبير فى إنتاج مزيد من الكتابة التاريخية القومية فى انجلترا ، ولكنها كتابات لم تلتزم بما التزم به سيلى من غزارة علم ومعرفة ، مما جعلها أشبه بكتابة برنهاردى التى لم تلتزم بمنهج فون سيبل . لقد وجد برنهكردى نظيره الإنجليزى فى شخص الأستكذ ج . أ . كرامب J. A. Cramb الذى قال عن حروب انجلترا الماضية إنها أتت بمبدأ رئيسى هو ما للبطولة من مكانة وسلطان أعلى من سلطان العقل والمنطق .

ومن عجائب الصدف أنه كما أن تمجيد الجرمانية والاتجاه الجرمانى جاء على يد مواطن إنجليزى منشق على قومه : هـ . س تشامبرلين ، فكذلك قام مواطن أمريكى هو : هومرلى HomerLea بربط خلاص العالم فى المستقبل بانتصار البريطانيين عن طريق تدعيم تلك الدائرة القرمزية القوية التى أحاط بها السكسون الأرض بطريقة لم يسبق إليها جنس اخر .

كتابة التاريخ القومى فى بقية الدول الأوربية

حظيت إيطاليا بشرف مزدوج فى مجال كتابة التاريخ القومى ، إذ بينما كانت أول أمة توصلت إلى ما يمكن اعتباره تجميعا كاملا لمصادر تاريخها القومى ، فضلا على أنها أنجبت من جهة أخرى أكثر المؤرخين دأبا فى تجميع مصادر التاريخ القومى وهو لودفيكو انطونيو موراتورى (١٦٧٢ - ١٧٥٠ م) وقد نجح موراتورى منذ عام ١٧٢٣ حتى وفاته سنة ١٧٥٠ فى جمع مصادر تاريخ إيطاليا من الماضى البعيد أى منذ سنة ٥٠٠ ميلادية حتى سنة ١٥٠٠ وتم ذلك فى كتاب صدر فى ٢٥ جزءا بعنوان (مادة المخطوطات الإيطالية) . وجاء عمله متقنا لدرجة أنه لم تصدر طبعة جديدة له إلا حديثا عندما أصبح ذلك ضروريا . وقد بدأ إعداد الطبعة الجديدة سنة ١٩٠٠ فى أول الأمر تحت إشراف جيوزى كارودشى Gosue Carducci ، فيتوريو فيوريني Vitorio Fiorini ثم تحت إشراف الجمعية التاريخية الإيطالية وفى سنة ١٨٣٣ ساهم شارلز إلبرت بجهده فى مساعدة حركة جمع مصادر التاريخ القومى الإيطالى ، وتم طبع ٢٢ جزءا من هذه المصادر بعنوان ، وثائق التاريخ القومى Monumenta Historiae Patriae . كما نشرت الجمعية التاريخية الإيطالية الكثير عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى تحت عنوان « مصادر تاريخ إيطاليا »[1] .

وعلى الرغم من أن كتابة التاريخ القومى شأنه شأن جميع المصادر يرجعان فى إيطاليا إلى عهد أبعد مما عليه الحال فى أية دولة أوربية أخرى ، إذ ترجع هذه الحركة فى إيطاليا على وجه التحديد إلى عصر الحركة الإنسانية ، فإنه يمكن القول أن المرحلة الحديثة من التاريخ القومى بدأت بظهور

---

(١) يقع فى ٥٨ مجلداً بدأ صدوره منذ سنة ١٨٨٧ وما بعدها (المؤلف)

كتاب (تاريخ ثورة نابلي فى سنة ١٧٩٩) وهو الكتاب الذى وضعه فيسنزو كوشو cucco (١٧٧٠ - ١٨٢٣) وتناول المؤلف فيه أسباب فشل هذه الثورة وعبر عن اعتقاده بأن الوحدة الإيطالية لا يمكن أن تتحقق إلا على أيدى الإيطاليين أنفسهم وأنه من الضرورى خلق وعى قومى فى إيطاليا وجو ذهنى مناسب لقيام الثورة . ويشابه هذا الكتاب فى جوهره وروحه كتاب المؤرخ كارلو بوتا Carlo Botta (١٧٦٦ - ١٨٣٧) بعنوان تاريخ إيطاليا خلال حروب الثورة ونابليون . ويفيض هذا الكتاب بآراء ومعتقدات المذهب الحر المتطرف التى شقت طريقها فى السياسة الإيطالية فى ذلك الحين بفضل نشاط كاربونارى .

أما عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى فقد عالجه كارلوترويا Carlo Troya (١٧٨٥ - ١٨٥٣) فى كتابه ــ إيطاليا فى العصور الوسطى . وكذلك عالجه لويجى توسق (١٨١١ - ١٨٩٧) فى كتابيه (العصبة اللومباردية) (وبونيفس الثامن) وتتناول هذه الكتب تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى بحثا عن أدلة تؤيد فكرة أن الزعامة البابوية كان لها دورها الكبير فى خلق الوحدة الإيطالية . كما أثنت على دانتى والكنيسة والبابوات . أما دازجليو D'azeglio فإنه تناول التاريخ المعاصر إلى جانب تاريخ العصور الوسطى ليثبت افتقار البابوية إلى الكفاية والمقدرة ، ولكى يلفت الأنظار إلى الآمال القوية فى زعامة آل سافوى . ويؤكد سيزار بالبو فى كتابه (تاريخ إيطاليا) الذى صدر سنة ١٨٤٦ أن البابا وبيت سافوى يمكنهما التعاون معا من أجل تحقيق اتحاد إيطاليا فى صورة تحالفية وهناك أيضا جويسيب فيرارى Guiseppe Ferrari (١٨١٢ - ١٨٧٦) صاحب كتاب تاريخ الثورات فى إيطاليا الذى يمجد فيه النضال والعنف وسفك الدماء ، وهى الأمور التى صاحبت المعركة من أجل الحرية السياسية فى إيطاليا فى العصور الوسطى ، وألمح إلى أن الثورة فى عصره تستطيع أن تؤدى نفس ذلك الدور البناء . كذلك نجد فيرارى فى كتاب آخر له بعنوان « نظرية الدورات السياسية » قد تشبع بآراء فيكو وحاول أن يضع فلسفة التاريخ فى خدمة حركة البعث الإيطالية .

أما المؤرخ جينو كابونى Gino Capponi فقد حاول أن يجد فى عصر النهضة لمسة قومية ، ووضع كتابا سنة ١٨٧٥ يتسم بالقدرة والاسهاب عنوانه « تاريخ جمهورية فلورنسا » هذا فى حين كرس المؤرخ باسكال فيلارى (١٨٢٧ - ١٩١٧) كتابته بوجه خاص لعلاج تاريخ فلورنسا فى العصور الوسطى وعصر النهضة والإشادة بأعلامها أمثال سافونارولا ميكافللى ، مستغلا الحديث عن ذكرى هؤلاء الأعلام لإذكاء حركة الوحدة الإيطالية . وجاء كتابه عن فلورنسا تحفة رائعة حقاً

لأنه من المعروف عنه أنه فعل الكثير من أجل إضفاء أهمية خاصة على تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى . وثمة مؤرخ فى إيطاليا عرف أنه قام بدور شبيه بالدور الذى قام به مارتن فى فرنسا من حيث ترويجه للتاريخ القومى وتقريبه من أذهان الجماهير وميولهم . وهذا المؤرخ هو قيصر كانتو (١٨٠٤ - ١٨٩٥) الذى وضع أول تاريخ قومى كامل عن إيطاليا . أما المؤرخ بطرس كوليتا pietro Colletta(١٧٧٥ - ١٨٣١) فقد انتقد فى عنف وقوة الحكم البوربونى وفساده ؛ فى صقلية وذلك فى كتابه (تاريخ نابولى) الذى حث فيه على التمرد على الحكم الأجنبى . وأخيراً فإن أشعار جويزى كاردوكى Carducci وجابريل دى انيونزو تمثل التعبير المتطرف عن العاطفة الوطنية الإيطالية . وبظهور الفاشية فى إيطاليا لم تعد القومية مجرد فلسفة تاريخية بل انمحت على مستوى العقيدة والديانة .

أما فى أسبانيا فان أول تجميع لمصادر التاريخ الأسبانى لم تكن من عمل الأسبان وإنما من إنتاج عالم انجليزى رحالة هو روبرت بيل Robert Beal الذى توفى سنة ١٦٠١ وأصدر كتاب (المخطوطات الأسبانية) وذلك فيما بين سنتى ١٥٧٩ ، ١٥٨١ . أما ج . أ . س برتودانو فأصدر موسوعته الجامعة عن مصادر التاريخ الدبلوماسى وهى المجموعة التى صدرت فيما بين ١٧٤٠ - ١٧٥٢ م. على أنه يمكن القول بأن حركة جمع المصادر الكبرى للتاريخ القومى الأسبانى لم تبدأ إلا قرب منتصف القرن التاسع عشر عندما شرع بيدال Pidal وسلفا Salvaوآخرون فى وضع كتاب (مجموعة الوثائق غير المنشودة عن تاريخ أسبانيا) وهى المجموعة التى بلغ عدد أجزائها ١١٢ جزءا ، صدرت بين سنتى ١٨٤٢ - ١٨٩٥ . ويركز هذا الكتاب الحديث بصفة أساسية على القرن السادس عشر . وبالإضافة إلى ذلك فان أكاديمية التاريخ الملكية فى مدريد أخذت على عاتقها منذ سنة ١٨٥١ نشر مصادر التاريخ الأسبانى فى كتاب بعنوان (سجل التاريخ الأسبانى) . ومع ذلك فان مصادر التاريخ الأسبانى فى العصور الوسطى لم تجمع أو تدون أو تنشر بطريقة منتظمة .

أما مؤرخ أسبانيا القومى العظيم فهو مودستو لافوينت Lafuente (١٨٠٦ - ١٨٦٦) الذى أصدر كتابه العظيم (تاريخ أسبانيا العام) فى ثلاثة أجزاء بين سنتى ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٦ . وكان القصد من هذا الكتاب أن يكون امتدادا لما كتبه ماريانا . وتناول فيه تاريخ أسبانيا حتى ١٨٣٣ ، ثم قام بإكماله بعد وفاته المؤرخ جوان فاليرا . وثمة مؤرخ أسبانى هو أنطونيو

كانوفاسCanovas ربط فى كتابه تاريخ اضمحلال أسبانيا ، بين عظمة واضمحلال كل من أسبانيا وروما . وقام بيرزجالدوس Perez Galdos فى قصصه التاريخية الشعبية المشهورة بنفس ما قام به والترسكوت بالنسبة لاسكتلنده وانجلترا وفرنسا .

أما فى بوهيميا فلم تفلح القومية التشيكية فى خلق اهتمام بالتاريخ مثلما كان الحال فى دول أوربية أخرى ، بل على العكس كان التاريخ هو الذى يذكى القومية فى أول الأمر . والواقع أن الروح القومية التشيكية الحديثة تدين لكتاب (تاريخ بوهيميا) أكثر مما تدين لشيىء آخر ، وهو الكتاب الذى صدر ما بين سنتى ١٨٣٦ - ١٨٧٦ والذى وصفه الوطنى المتحمس فرانتيسك بالاكى Frantisek Palacky . وعلى الرغم من عدم وجود معونة حكومية كحركة جمع مصادر التاريخ التشيكى قبل سنة ١٩١٩ فقد تمت أعمال كافية فى هذا الشأن . ذلك أن بالاكى وآخرين من بعده نشروا الوثائق التشيكية والمورافية القديمة الخطية فى ٣٢ جزءا (١٨٤٠ - ١٩١٨) . وكان انطون جندلى أقدر المؤرخين البوهميين ، وقد نشر مجموعة أخرى من الوثائق التاريخية باسم آثار بوهيميا التاريخية فيما بين سنتى ١٨٦٤ ، ١٨٦٩ . هذا كله بالاضافة إلى ما كان هنكك من اهتمام خاص بجمع المادة المتعلقة بالتاريخ الدينى لبوهيميا فكتب الكونت فرانز فون لوتزو كتابا صدر قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة عن حنا هس John Huss وصوره فى صورة بطل بوهيميا القومى .

على أن خير ما كتب عن تاريخ بوهيميا القومى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر هو كتاب (تاريخ بوهيميا ومورافيا فى العصور الحديثة) (١٨٩٢ - ١٨٩٧) الذى اشترك فى تأليفه كل من أنتال ريزيك Antal Rezek ويوسف شفاتيك Josef Svatekكذلك شارك كل من العالم الفرنسى ايرنست دينيس والأمريكى روبرت ج . كرنر Robert YKerner بأبحاث فى التاريخ التشيكى وأبديا عطفا كبيرا على آمال بوهيميا القومية .

أما فى المجر فقد أخذت الحكومة على عاتقها منذ سنة ١٨٥٧ عبء نشر وثائق التاريخ المجرى فى بودابست ولكن ظهر من هذه الوثائق أكثر من مائة جزء حتى الآن . ولكن من يريد دراسة المصادر التاريخية البحرية القديمة عليه الرجوع إلى عمل أصغر هو (المصادر الوطنية للتاريخ المجرى) وهى المجموعة التى أصدرها بين سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٥ المؤرخ ما تياس فلوريانوس . والواقع أن الظروف التاريخية كانت عاملا فى إثارة الشعور القومى فى المجر لدرجة أن أعظم علماء التاريخ المجريين غلبت عليهم الروح الوطنية . وكان أول تاريخ كبير للمجر هو

كتاب تاريخ المجر ، للمؤلف اجناس فيسلر Ignacz Fessler (١٧٥٦ - ١٨٣٩) الذى وصل بتاريخ المجر حتى سنة ١٨١١ . ثم وصل السرد التاريخى للمجر حتى سنة ١٨٤٨ فى كتاب لاحق للمؤرخ جانوس ج . فون ميلات Janos G. Von Mailath ولم يكن هناك فى أوربا قاطبة من جمع بين الأستاذية فى علم التاريخ والوطنية المتحمسة مثلما فعل المؤرخ المجرى هنريك مارشزالى Henrik Marczali فى كتاب (المجر فى القرن الثامن عشر) الذى صدر سنة ١٩١٠ وكتاب (تاريخ المجر) وقد صدر فى العام التالى سنة ١٩١١ . أما التاريخ القومى الرسمى للمجر فقد جاء فى كتاب صدر سنة ١٩٠٤ للمؤرخ أجناسز اكسادى Ignacez Acsady بعنوان (تاريخ الإمبراطورية المجرية) وكانت أعظم الأعمال المهمة فى هذا الشأن كتاب (تاريخ الأمة المجرية) الذى صدر ما بين سنتى (١٨٩٥ - ١٨٩٨) فى عشرة أجزاء وقد اشترك فى تأليفه مجموعة من المؤرخين تحت إشراف الكسندر سنزيلاجى Alexander Szilagyi .

وعلى الرغم من أن بولندا المعاصرة لم يكن لها حكومة مستقلة حتى سنة ١٩١٩ حتى يمكنها أن تسهم ماديا فى عملية جمع مصادر التاريخ القومى البولندى ، فان أكاديمية العلوم فى كراكو بدأت جهداً منظماً فى جمع المصادر فى السبعينات من القرن الماضى . ومن بين الأعمال الأكثر أهمية فى هذا المضمار مجموعة « المخطوطات البولندية » التى صدرت فى ٢٢ جزءا ومجموعة (وثائق أعلام التاريخ البولندى فى العصور الوسطى ، التى صدرت فى ١٨ جزءا) ، كذلك (وثائق تاريخ أعمال البولنديين) وقد صدرت فى ١٢ جزءا . ولا يخفى علينا ان تقسيم بولندا وما نجم عنه من تحمس البولنديين لتحرير بلادهم كل ذلك أدى إلى الاتجاه إلى كتابة التاريخ القومى فى بولندا . ويعتبر المؤرخ يواقيم ليليويل (١٧٨٦ - ١٨٦١) joachim Lolewel أول مؤرخ قومى بولندى على جانب من الأهمية . وقد وضع كتابيه (تاريخ بولندا فى العصور الوسطى) و (بولندا وتاريخها) . وعلى الرغم من أنه كان ديموقراطى النظرة وينتمى إلى المدرسة العقلانية ، إلا أنه كتب تاريخ بولندا طبقا للفكرة الرومانسية الخاصة بالروح القومية وعبقرية الشعب الجماعية . أما المؤرخ كارول شازنوخا Karol Szajnocha (١٨١٨ - ١٨٦٨) فقد اكتسب شهرة وشعبية كبيرة . بما كتبه عن عهد جاجيلوس jagiellos كذلك تناول أمير شعراء بولندا الوطنى البارز آدم ميكويش Adam Mickiucz (١٧٩٨ - ١٨٥٥) فى كتابه تاريخ بولندا الشعبى الجانب الذى قصده من عنوان كتابه ، مما جعل هذا الكتاب يساعد على إثارة الحماسة العامة لماضى الشعب البولندى . أما خير ما كتب عن تاريخ بولندا القومى فهو كتاب (تاريخ بولندا) الذى صدر ما بين سنتى ١٨٦٢ , ١٨٦٦ للمؤرخ يوسف شورسكى Josef Szujski وكان عمله ذا قيمة أدبية عالية أثنى فيه

كثيرا بصفة خاصة على الجمهورية البولندية القديمة . كذلك ظهر فى أوكرانيا مؤرخ قومى لايبارى وهو فايشزلاف لايبنسكى Vyacheslov Lipinsky (١٨٢٢ - ١٩٣١) الذى أعطى اهتماما خاصا للدور التاريخى لطبقة النبلاء فى أوكرانيا . وقد نظر إلى التاريخ الأوكرانى على أنه سلسلة متصلة من النضال لاستعادة استقلال أوكرانيا ، مؤكدا دور طبقة النبلاء القيادى فى هذا الشأن .

أما فى روسيا فعلى الرغم من السياسة الرجعية للحكومة الروسية وما كان من أمر الرقابة على المطبوعات والإنتاج الأدبى ، فإن الكتابة التاريخية القومية أحرزت تقدما كبيرا فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . والواقع أن هذا النوع من الكتابة كان الوحيد الذى نَعِم بقدر كبير من الأمان فى ظل القيصرية وقد نهضت بمسئولية جمع مصادر التاريخ الروسى بصفة رئيسية لجنة (الآثار الروسية) التى أنشئت فى سنة ١٨٣٥ والتى جمعت السجلات التاريخية الروسية القديمة فى مجموعة ظهرت فى ٢٣ جزءا ما بين سنتى ١٨٤١ ، ١٩١٦ . كذلك أصدرت مجموعة أخرى عن مصادر التاريخ الروسى بين سنتى ١٨٧٢ ، ١٨٩٤ فى ٣٧ جزءا وتناولت كل من هاتين المجموعتين الفترة المسكوفية . هذا إلى أن تلك اللجنة قامت بأعمال أقل شأنا عن تاريخ روسيا القانونى والاقتصادى والكنسى . أما أعظم عمل فى سبيل تجميع المادة المتعلقة بالسياسة الخارجية فهو ما قام به فيودور دى مارتنز Feodor de Martens تحت إشراف وزارة الخارجية فأصدر (مجموعة المعاهدات والاتفاقيات) فى ١٥ جزءا بين سنتى ١٨٧٤ - ١٩٠٩ . ومنذ قيام ثورة ١٩١٧ تم نشر الكثير عن تاريخ الحركات الثورية فى روسيا .

أما أول تاريخ شامل لروسيا يتسم بالروح العلمية فى البحث والدقة فهو كتاب (التاريخ الروسى منذ أقدم العصور) الذى وضعه ميخائيل شيربوتوف Michael Scherbotov (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وقد تناول التطور القومى لروسيا بطريقة حماسية متوهجة . وركز حديثه بصفة خاصة على دور القادة البارزين فى تحقيق هذا التطور . وثمة عمل آخر أكثر إحكاما من سابقه وأكثر متعة للقارىء هو كتاب (تاريخ الدولة الروسية) الذى كتبه نيقولا كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) ووصل فيه بأحداث التاريخ الروسى حتى سنة ١٦١١ أى حتى ظهور الرومانوف على مسرح الاحداث . وجاء هذا الكتاب رومانسيا فى طريقته ، كما كان يركز دائماً على العبقرية القومية للشعب الروسى . ويعتبر هذا الكتاب الثقافة القومية الروسية أرقى من ثقافة الغرب بسبب مالها من تراث شرقى وكنيسة لها طابعها الخاص ونظم سياسية ارستقراطية . هذا إلى أن كارامازين فعل مثل شيربوتوف من حيث تمجيد الحكام الروس وتصويرهم فى صورة الأبطال

القوميين . ثم كان ان تناول المؤرخون الروس من أنصار المدرسة الغربية القومية الروسية بشيء من التمجيد والإطراء ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه سيرجيوس سولفيف فى كتابه تاريخ روسيا منذ أقدم العصور ، وصدر هذا الكتاب فى واحد وعشرين جزءا بين سنتى ١٨٢٠ ، ١٨٧٩ ، وتناول التاريخ الروسى حتى سنة ١٧٢٤ فى إسهاب كبير حتى انه فاق فى تعمق بحثه أى كتاب آخر قبله . وكان حريصا على النظر إلى روسيا بوصفها دولة غربية ، ولذا فإنه مجد أعمال بطرس الأكبر . ولكن نظرا لطول الكتاب يكون تحفة شعبية . على أن سولفيف حاز شهرته الواسعة بفضل كتاب المختصر الذى صدر فى مجلد واحد وهو (مجمل التاريخ الروسى) .

أما نظرة رجال المذهب الحر الروسى إلى تاريخ روسيا القومى وتحمسهم له فقد بدأها المؤرخ نيقولا كوستوماروف (١٨١٧ - ١٨٨٥) فى كتابه الذى جاء بعنوان (رسائل وأبحاث تاريخية) . وبينما ركز الكتاب السابقون حديثهم على الحكام فان كوستاماروف اهتم بحياة وسلوك وعادات الشعب الروسى فى مراحل تطوره القومى ، مما جعل كتابه من أحسن المؤلفات عن دراسة تطور الشعب الروسى . هذا إلى أنه اهتم بدراسة الجهات التى تقع على التخوم الروسية ، وخاصة أوكرانيا .

أما المؤرخ الروسى فاسيليف كلوشفسكى (١٨٤١ - ١٩١١) فقد قام بدور بالنسبة للتاريخ الروسى مثل الدور الذى قام به جنا ريتشاردجرين بالنسبة للتاريخ القومى الإنجليزى ، ذلك أن كلوشفسكى تتبع تطور الحياة الشعبية فى روسيا وتطور النظم والجنسية الروسية حتى جاء عمله تحفة علمية رائعة من أعظم ما أنتجته الكتابة التاريخية الحديثة . كذلك اهتم المؤلف بحركة التوسع والاستعمار الروسى على الرغم من أنه لم يكن من أنصار الحركة السلافية ورجالها المحترفين . ومنذ ثورة سنة ١٩١٧ صار هناك اتجاه عام للاقلال من شأن مكاسب روسيا فى ظل الحكم القيصرى لكن المؤرخ بوكروفسكى كتب بحثا عاما عن التاريخ الروسى كما تصوره من وجهة النظر الماركسية .

أما فى بلجيكا فقد بدأت الحماسة لجمع مصادر التاريخ القومى بعد أن حصلت بلجيكا على استقلالها سنة ١٨٣٠ . ولعل أعظم ما تم من تجميع لمصادر التاريخ القومى هو ذلك العمل الذى صدر منذ سنة ١٨٣٦ فى بروكسل تحت إشراف الجمعية التاريخية الملكية فى ١٧٩ جزءا تحت عنوان (مجموعة الوثائق البلجيكية غير المنشورة) كذلك قامت جمعية المناظرات فى بروج ، بنشر ٥٦ جزءا من مجموعة السجلات التاريخية والمحفوظات ، والوثائق الاخرى المرتبطة بتاريخ وآثار الفلاندرز الغربى .

أمـا الفونس ووتـرز Wauters (١٨١٧ - ١٨٩٨) فقام بنشـر مجموعـة من مـواثيق الكومونات ، كما قام لويس جاشارد Louis Gachard (١٨٠٠ - ١٨٨٥) بنشـر محتويـات أرشيف الخارجية عن الفترة التي تبدأ من القرن الخامس عشر ، في حين قام بوليس فردريك بنشر وثائق مكتب الادعاء في بلجيكا وهولندا ، كما كتب ووترز Wauters باسلوب يفيض بالمشاعر عن المجتمعات الصغيرة في بلجيكا في العصور الوسطى . أما جاشارد فقد كتب منذ عهد شارل الخامس وفيليب الثاني . وثمة عمل صدر في بلجكا من وجهة نظر كاثوليكية ويعتبر نظيرا لما قام به موتلي وبرنسترر Prinsterer في هولندا هـو ما قـام به يـوسف كيرفـين دى ليتنهوف Lettenhove (١٨١٧ - ١٨٩١) وعالج فيه القرن السادس عشر تحت عنوان تاريخ الفلاندرز . وقد أدان ليتنهوف Lettenhove وليم الصامت ومؤيديه من البروتستانت ودافع عن موقف أسبانيا والحزب الكـاثوليكي . والـواقع أن كتابـات بـولس فـردريـك النـاقـدة وكتـابـات هنـرى بيـرين (١٨٦٢ - ١٩٣٥) ، فاقت كتابات ليتنهوف التي شابها التعصب الـوطني الاعمى ، هذا وإن كانت كتابات فردريك مليئة بنغمة فلمنكية قومية قوية .

وعلى الرغم من أن هولندا لم تزود التاريخ بمجموعة كاملة لمصادر تاريخها القومي مثلما فعلت بلجيكا ، فإن الجمعية التاريخية في أوترخت أخذت في نشر مصادر التاريخ الهولنـدى منذ سنـة ١٨٦٣ . كما قام المؤرخ الهولندى برنسترر Prinsterer بنشر محتوى الأرشيف ذى المجلدات العديدة الخاص ببيت اورانج . وفي سنة ١٩٠٢ أنشئت لجنة ملكية ضمت أبرز المؤرخين الهولنديين لتتخذ الترتيبات اللازمة لنشر وثائق ومخطوطات التاريخ الهولندى نشرا منظما وتولى رئاسة هذه اللجنة هـ . ت كولنبراندر H. T. Colenbrander فاصدرت ٢٢ جزءا تحوى مصادر التاريخ الهولندى من سنة ١٧٩٥ ـــ حتى سنة ١٨٤٠ . أما أكثر الكتابات التاريخية حماسة من الناحية القومية في هولندا فقد وردت في كتاب عن تاريخ هولندا الذى ألفه وليم جروين برنسترر Wil-liame Groen Van Prinsterer الذى دأب في كتابه هذا وفي كتاب له آخر اسمه مـوريس وبارنفلت ، على مدح المذهب البروتستانتي فضلا عن بيت أورانج . على أن كتب برنسترر صارت عديمة القيمة بعد صدور الأبحاث العلمية التي دونها روبرت فروين (١٨٢٣ - ١٨٩٩) ، وهو واحد من أقدر المؤرخين الهولنديين . وبالإضافة إلى هذه الأبحاث العلمية لفروين Fruin هناك بحث للمؤرخ بطرس بلوك (١٨٥٥ - ١٩٢٩) عن تاريخ هولندا العام . وهو بحث يتميز بالدقة والاتزان .

أما بالنسبة للشعوب الاسكندنافية فانها هي الأخرى لم تكن فقيرة في مجال الكتابة التاريخية القومية إذ جمعت مصادر تاريخها في عديد من السلاسل من بينها مجموعة المخطوطات المتعلقة بتاريخ الدانمرك في العصور الوسطى ، وهي المجموعة التي أصدرها يعقوب لانجبك Langebek وخلفاؤه . وهناك كذلك الوثائق الديبلوماسية النرويجية التي أصدرها س . أ . لانج والوثائق الخطية السويدية التي أشرف على نشرها أريك جوستاف جيجر (١٧٨٣ - ١٨٤٧) ورفاقه .

وكان أول من أدخل الكتابة التاريخية القومية في الدانمرك هو المؤرخ ورساي Worsaae وفي النرويج المؤرخان كيزار ، منخ ، وفي السويد جيجز ، كارلسون ، فريكل ، أما عن يوحنا يعقوب وورساي (١٨٢١ - ١٨٨٥) فقد اهتم بصفة خاصة بتاريخ الدانمرك القديم في كتاب (آثار الدانمرك القديمة) وكتابه الشمال في عصر ما قبل التاريخ ، وذلك بالإضافة إلى كتاباته عن موضوع الدانمركيين في انجلترة . كذلك اهتم المؤرخ يعقوب رودبف كيزار Keyser (١٨٠٣ - ١٨٦٣) برسم صورة رومانسية وإبراز الجوانب المشرقة عن أصل النرويج وذلك في كتابه تاريخ الشماليين ، هذا إلى أن كيزار أبدى اهتماما كبيرا في تاريخ النرويج الديني . لكن الكتاب الذي ألفه بطرس اندرياس منخ Munch (١٨١٠ - ١٨٦٣) كان أكثر شهرة وأوسع نطاقا ، اذ صدر تحت عنوان تاريخ الشعب النرويجي ، وفي السويد كان لكتاب المؤرخ جيجر تاريخ السويديين (حتى عهد شارل العاشر) فضل في زيادة الاهتمام بتاريخ السويد القديم والفنون الشعبية فيها . وقام بإكمال هذا العمل العظيم المؤرخ فردريك كارلسون (١٨١١ - ١٨٧٧) . أما اندرياس فريكول (١٧٩٥ - ١٨٨١) فقد كتب بحثا من عشرة أجزاء بعنوان (دراسة عن تاريخ السويد) وهو البحث الذي حاز شهرة واسعة . ولم تلبث أن تتابعت الأبحاث المتسمة بالصفة العلمية عن التاريخ القومي للدول الاسكندنافية فكتب المؤرخ يوحنا ستين ستروب ورفاقه عن الدانمرك . وكتب يوحنا سارز ، كنت جيرسرت Kunt Gjerest الكسندر بيج Alex-ander Bugge عن النرويج وكتب هارولد هارن ، اميل هيلدبراند عن السويد .

ولو أن لدينا مجالا أفسح لأمكننا أن نوضح كيف أثرت دراسة أمجاد الماضي على نشأة الآمال القومية لشعوب البلقان منذ ١٨٢٠ ولعل أحسن مثال لذلك كتاب المؤرخ الكسندر أكزونبول وعنوانه (تاريخ الرومانيين في إقليم راشيا تراجان) History of Roumanians of Trajan Ducia وهو الكتاب الذي صدر فيها بين سنتي ١٨٨٨ - ١٨٩٣ ويعتبر نموذجا لأثر الكتابة التاريخية في إذكاء الروح القومية في البلقان .

القومية اليهودية

من المؤكد أن عرضنا للعلاقة بين القومية وكتابة التاريخ فى العصور الحديثة فى أوربا لن يكون كاملاً إلا إذا أشرنا إلى الكتابة التاريخية القومية الخاصة باليهودية والصهيونية . إن ظهور القومية اليهودية فى القرن الماضى جاء مرتبطا بالتطور العام للروح القومية فى أوربا فى نفس الفترة . وهو التطور الذى ساعد على تقوية الروح القومية اليهودية من خلال التقليد المباشر للحركات القومية الأخرى من ناحية . ومن خلال اضطهاد اليهود الذى جاء نتيجة للحماسة الوطنية المتزايدة فى أوربا بعد سنة ١٨٧٠ من ناحية أخرى . ولم يلبث أن أصبح واضحاً أثر نمو العاطفة القومية اليهودية على تطور اهتمام اليهود بتاريخهم القومى ، فأنشئت الجمعيات التاريخية اليهودية فى معظم الدول الكبرى ، مثل جمعية الدراسات اليهودية التى ظهرت سنة ١٨٨٠ ، ثم الجمعية التاريخية لاتحاد الطوائف الألمانية اليهودية التى ظهرت بعد ذلك بخمس سنين ، وفى سنة ١٨٩٥ قامت الجمعية التاريخية الإنجليزية اليهودية . وقبل ذلك بثلاث سنوات أنشئت الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية . والواقع أن هذه الجمعيات قامت بعمل ضخم فى جمع مصادر التاريخ اليهودى وخلق الاهتمام بدراسته . ونخص بالذكر فى هذا المقام ما نشرته الجمعية التاريخية الأمريكية اليهودية سنة ١٨٧٧ من بحث كبير يحوى دراسة عن اضطهاد اليهود فى العصور الوسطى بقصد استثارة السخط القومى لليهود على ما لاقوه من اضطهاد فى ماضيهم وحاضرهم . ومما أثار عند اليهود شعور الحماسة لقوميتهم ما كتبه أحد المؤرخين القوميين وهو هنريك جريتز Graedtez (١٨١٧ ــ ١٨٩١) . أما المؤرخ إسحاق م . جوست (١٧٩٧ ــ ١٨٦٠) فقد كتب كتابين هما (تاريخ اليهودية) (وتاريخ بنى اسرائيل) ، وكانت آراؤه تتسم بالصبغة الليبرالية العقلانية غير المتحيزة إلى الحد الذى يجعل منه مؤرخا قوميا ، وتختلف أعماله كثيرا عن أعمال جريتز الذى يشبه أحيانا بالمؤرخ تريتشك فيقال عنه (تريتشك اليهود) ذلك أن جريتز فى كتابه تاريخ اليهود منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر يحرص على نظرته المحافظة وآرائه المتعصبة كما يفيض حماسة لماضى قومه مستقبلهم وقد تتبع بأسلوب فصيح تاريخ اليهود منذ نشأتهم حتى سنة ١٨٤٨ . واهتم بصفة خاصة بتطورهم الأدبى والروحى ــ أى بالعناصر التى أسهمت بأكبر قسط فى تطور ثقافة اليهود القومية وبقائها . ثم انه نظر إلى اليهود على أنهم (نمط روحى قائم بذاته) وبذلك جاء كتابه متمشيا مع تطور (الصهيونية) وأفكارها . وكان يصر على أن المسيح المنتظر بالنسبة لليهود هو

إذكاؤهم للروح القومية ، وعارض فكرة بقاء اليهود على وضعهم انتظاراً لمجيء المسيح لتخليصهم مما فيه . أما المؤرخ س . م . دبنو S. M. Dubnow صاحب كتاب (التاريخ العالمي للشعب اليهودي منذ بدايته حتى الوقت الحاضر) فتتصف كتابته بالموضوعية وغزارة المعرفة مما جعلها تعلو على النزعة القومية وإن كان الكتاب لا يخلو تماما من تلك النزعة . وإلى جانب التاريخ العام الذى أخرجه جريتز ودنبو ، هناك كتابات تاريخية عالجت بشيء من الشمول تاريخ اليهود فى دول أوربية متعددة . وفى مقدمة هذه الكتابات (دائرة المعارف اليهودية) التى جمعت بين النغمة القومية والمنهج العلمى فى البحث . ثم كان أن أدى اضطهاد اليهود على يد هتلر والنازيين إلى إذكاء القومية اليهودية بصورة أقوى مما حققه أى عامل آخر فى العصور السابقة . فمنذ سنة ١٩٣٣ ظهرت مؤلفات عديدة كتبها موريس صمويل وآخرون عالجت مختلف الأطراف والمظاهر للقومية واليهودية ولم تلبث أن ازدادت هذه الدراسات قوة وكثرة بعد (اغتصاب) أرض فلسطين وإقامة دولة (مزعومة) لليهود بعد سنة ١٩٤٧ .

مادة دور المحفوظات

وفى عرضنا المختصر هذا لأثر القومية على كتابة التاريخ فى أوربا لابد أن نشير ولو بطريقة عابرة إلى نمو وتكدس الوثائق فى دور المحفوظات (الأرشيف) وزيادة اعتماد الدارسين عليها . وذلك أن تطور الدول القومية وما صحبها من النظم البيروقراطية أدى إلى وجود قدر هائل من التقاليد الرسمية والقواعد الروتينية ، فضلا عن نمو وتطور نظام المراسلات الدبلوماسية . ولم تكد تحل سنة ١٨٠٠ إلا نتج عن هذا كله رصيد هائل من الأوراق التى حوت معلومات متعددة وحفظت فى دور الحفظ القومية والدينية فضلا عن الخاصة . ولكن قبل أن يتمكن المؤرخون من الاستفادة من وثائق دور الحفظ كان لابد من أن تصنف تلك الأوراق وتنظم وتوضع تحت تصرف المؤرخين الحقيقيين . وحتى القرن التاسع عشر كان هناك اتجاه عام واضح لعدم فتح أبواب دور الحفظ أمام المؤرخين .

كانت فرنسا الدولة الرائدة فى مجال تصنيف مادتها الأرشيفية . ولعل ذلك راجع أساسا إلى وجود عدد كبير من أمناء المحفوظات المدربين تدريبا عاليا والذين تخرجوا من مدرسة الوثائق

الفرنسية . وتعتبر انجلترا فى الوقت الحاضر الدولة الأوربية الوحيدة المتخلفة كثيرا فى مجـال تصنيف المادة الأرشيفية وترتيبها وتنظيمها .

ومن نواحي النقص الرئيسية التى توجد حتى فى أدق دور الحفظ تنظيما هو افتقارها إلى ركن هام من أدق أركان الوثائق ونعنى به الخطابات والمذكرات الشخصية الخاصة . وذلك لحرص رجال الدولة والدبلوماسيين على رفعها من الملفات . ولهذا السبب أعلن بسمارك ذات مرة أن المادة الأرشيفية تعتبر ضئيلة القيمة لمن يريد أن يكتب تاريخا دبلوماسيا واقعيا . وكان أن بدأ السير ادوارد جراى تقليداً حميدا عندما ترك معظم أوراقه الخاصة فى وزارة الخارجية عندما اعتزل منصبه كوزير للخارجية

وكما أدى الاعتزازبالقومية إلى التنافس بين الدول فى جمع مصادر التاريخ القومى الخاص بها ، كذلك حدث بنفس الطريقة أن دفع التنافس بين الدول الأوربية المختلفة فى فترات متعددة من القرن التاسع عشر كثيراً منها إلى فتح أبواب دور الحفظ القومية فيها والسماح للمؤرخين القوميين باستخدامها . بل إن البابا ليو الثالث عشر وكان متحرر الفكر فتح أرشيف الفاتيكان سنة ١٨٨١ وحصل العلماء من غير رجال الدين على امتياز فحص ودراسة الكنوز التى احتوتها دور الحفظ فى الفاتيكان والتى كان الكاردينال بارونيوس أول من استخدمها .

ومع ذلك فقد ظل الوضع حتى الحرب العالمية الأولى وليست هناك حرية كاملة فى أى مكان فى استخدام المادة الأرشيفية ، فضلا عن أن الوثائق الحديثة حجبت عن أنظار العلماء والباحثين . من ذلك مثلا أنه لم يكن من الممكن الاطلاع على الأوراق المحفوظة فى أرشيف الفاتيكان والتى ترجع إلى ما بعد سنة ١٨١٥ ، كما أنه سمح للمؤرخين فى فرنسا بالاطلاع على الأوراق الرسمية حتى سنة ١٨٣٠ ، وفى روسيا سمح لهم بالاطلاع على الأوراق المحفوظة بدور الحفظ والتى ترجع إلى ما قبل سنة ١٨٥٤ ، وفى انجلترا حتى سنة ١٨٦٠ . أما بالنسبة لأمريكا فقد حاول العلماء امثال جيلارد هنت أن يصل بتنظيم المادة الأرشيفية وجمعها إلى نفس المستوى الراقى الذى وصلت اليه معظم الدول الأوربية .

وكان أن بدأ عهد جديد فى فتح أبـواب دور المحفوظـات على مصـاريعها أمـا الباحثـين بعد الحـرب العالمية الأولى ، وذلك بدافع الرغبة فى إلغاء الدبلوماسية السرية وتحديد المسئول الحقيقى عن الحرب العالمية . وكان البلاشفة هم البادئون فى هـذا الاتجاه وتبعهم بسـرعة كـل من الالمان والنمسـويين ، وبعـد ذلك وجـد الإنجليز والفـرنسيون أنفسهم مضـطرين إلى السير فى نفس

الطريقة . ولم يقتصر الأمر على مجرد فتح أبواب دور الحفظ بل نشرت على نطاق لم يسبق له مثيل الوثائق الدبلوماسية الهامة والخاصة بالجيل السابق للحرب العالمية الأولى مباشرة . وبعد الحرب العالمية الثانية استولى الحلفاء على كميات ضخمة من الوثائق الألمانية وقاموا بنشرها جميعا ولكن لم تكن لديهم أية رغبة فى نشر وثائقهم هم . وأظهر الروس بصفة خاصة تمسكا بسرية الوثائق ، بدلا من أن يستحثوا حلفاءهم الغربيين على نشر وثائقهم مثلما حدث عقب سنة ١٩١٨ .

كتابة التاريخ القومى فى الولايات المتحدة الامريكية

لم تبذل الولايات المتحدة الامريكية أى جهد رسمى فى سبيل جمع مصادر تاريخها القومى يمكن أن يقارن بالجهود العظيمة التى بذلتها الدول الأوربية الأخرى . ولعل هذا يرجع من ناحية إلى الخصائص الموروثة المتأصلة فى النظام الفدرالى الأمريكى ومن ناحية أخرى إلى حقيقة أن الحكومة الفيدرالية شغلتها التشريعات الروتينية ومتطلبات السياسة الحزبية بحيث حال ذلك دون أن تركز انتباهها على تدعيم مجالات الفكر واهتمامه .

وإذا بحثنا عن محاولة أمريكية يمكن أن نعتبرها نظيرة لحركة جمع مصادر التاريخ القومى فى أوربا ــ وهى الحركة التى ارتبطت بأسماء مورتورى بيرتز ، جيــزو ، نيقولا ، هــاردى ، ستابــز stubbs ، فليس أمامنا سوى تلك المحاولة التى طغت عليها الصبغة الوطنية والتى قام بها بطرس فورس Peter Force (١٧٩٠ــ ١٨٦٨) فى الثلاثينات من القرن الماضى ، بقصد الحصول على معونة حكومية كافية ، لنشر محتويات دور الحفظ الأمريكية ، وكانت الخطة الأصلية لهذا المشروع هى ضم كل مصادر تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عهـد اكتشافهـا حتى عهد وضـع الدستور . ويتضح ارتباط هذا المشروع تاريخيا ونفسيا بالحركة الأوربية مما قاله فورس نفسه عن أهداف هذه الخطة (ان هذا العمل الذى أقدمنا عليه هو فى المحل الأول عمل قومى فى مداه وهدفه) . وبعد عقبات شديدة حصل فورس على معونة فدرالية مكنته من أن يبدأ نشر محتويات دور الحفظ سنة ١٨٣٧ ، لكن هذه المعونة الحكومية سرعان ما سحبت . واتضح أن ما تم عمله لم يكن سوى قشرة بسيطة من الخطة الكبيرة التى كان ينوى النهوض بها .

والواقع أن فورس لم يكن أكثر من جامع لمادة التاريخ القديمة وآثارها أكثر من عالم ناشر على مستوى ويتز Waitz ، ومينيه Mignet ، وجيرارد Guerard ، وستابز فى أوربا . ويرجع ذلك الى

أن حركة البحث التاريخي تأخرت ما يقرب من جيل كامل عن مثيلتها في أوربا ، ولذلك فان الخسارة التي نجمت عن عدم استمراره في تنفيذ مشروعه أقل بكثير مما لو حدث وتوقف نشر الوثائق الانجليزية أو الألمانية أو الفرنسية .

ولم يتعد ما صدر في الولايات المتحدة الامريكية من جمع لمصادر التاريخ القومي عمل الأفراد وشركات النشر والجمعيات التاريخية في مختلف الولايات . وكان في مقدمة ما نشر على هذه الصورة عمل بعنوان (المراسلات الدبلوماسية للثورة الأمريكية) لجيرد سبارك Jered Spark . وقد ظهرت هذه المراسلات في ١٢ جزءا ما بين سنتي ١٨٢٩ ، ١٨٣٠ . كما كان هناك إنتاج آخر لنفس المؤلف صدر في ١٢ جزءا أيضا بعنوان : حياة واشنجتون وكتاباته وقد صدر ما بين سنتي ١٨٣٤ - ١٨٣٧ .

أما أكثر المحاولات طموحا لجمع مصادر التاريخ القومي في الولايات المتحدة الأمريكية فهي محاولة المؤرخ هيوبرت هاوبانكروفت Howe Bancroft (١٨٣٢ - ١٩١٨) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ذلك أنه قام بجمع مصادر تاريخ الولايات الباسفيكية ثم استخدم هذه المادة في تأليف كتابه (تاريخ الولايات الباسفيكية) المكون من ٣٩ جزءا ولسوء الحظ فإنه لم يتبع نهج شتين ولم يسترشد بعمل برتز ، بل اعتمد في تنفيذ مشروعه على قدراته الخاصة مما ترتب عليه أن افتقر عمله إلى الدراسة الناقدة وصحة النشر . وهناك عمل أكثر عمقا في البحث هو ذلك الجهد التعاوني الذي قام به عدد من الكتاب تحت إشراف جستين وينسورJustin Winsor الذي عرف بـ Narrative and critical history of America وعلى الرغم من أن هذا الكتاب احتوى قدرا كبيرا من مادة المصادر فإنه عمل يتضمن عرضا ناقدا للمصادر أكثر من استهدافه تجميع هذه المصادر ونشرها .

ومضت مع هذه الحركة جنباً إلى جنب حركة نشر مصادر تاريخ كل ولاية من الولايات الأمريكية وهي المهمة التي قام بها في أغلب الأحوال جماعة من علماء الآثار لا ناشرين من علماء التاريخ الناقدين ، مما أدى إلى عدم وجود تجانس في الطريقة التي اتبعت في هذا الشأن . ومع ذلك فإن بعضاً من هذه الأعمال جاءت على درجة عالية من التنظيم والدقة ، ولعل أبرزها تلك السلسلة المطولة التي تناولت اكتشاف الجزء الأوسط من أقاليم الغرب في الولايات المتحدة الامريكية واستعماره . وقد اشرف على اخراج هذه السلسلة روبن ج . تويتس أوف ويسكونسن G.Ro-ber Thwaites of Wisconsin كذلك ظهرت مجموعة الوثائق المتعلقة بولاية نيويورك التي

نشرها الكسندر س . فليك Flick . يضاف إلى هذا كله نشاط الجمعيات التاريخية المحلية العديدة وهى الجمعيات التى كان لها دور كبير فى جمع مصادر التاريخ المحلى ، فضلا عن دورها فى مساعدة الجمعيات المركزية على مستوى الدولة لتتمكن من إنجاز أعمالها .

ومن الاتجاهات الأخرى فى تجميع المصادر الخاصة بتاريخ الولايات المتحدة نشر الرسائل والأوراق الخاصة برؤساء الجمهوريات فضلا عن مكاتبات رجال الدولة وهو العمل الذى قام به عدد من علماء التاريخ ، وإن كانت هنا الأعمال قد تفاوتت من حيث المستوى . وقد بلغت هذه الأعمال ذروتها فى كتاب و . س . فورد V. C. Ford الذى صدر تحت عنوان كتابات واشنجتون ، وكتاب جلارد هنت « مكاتبات جيمس ماديسون » وكتاب ب . ل . فورد مكاتبات جيفرسون ، وكتاب ج . ب . مور ـــ أعمال جيمس باكانان The Works of James Buchanan .

ولم تكن الولايات المتحدة الامريكية مفتقرة إلى الإمكانيات الضخمة لإعداد الوثائق ونشرها ، إذ كان لديها من العلماء أمثال واشنجتن . س . فورد ، جون فرانكلين جيمسون ، بولس ليكستر فورد ، جوبلارد هنت ، وهؤلاء جميعا لايقلون فى مقدرتهم عن برتز ، ويتز ، جويزو ، ستابز . ولكن ما كانت تحتاج اليه الولايات المتحدة هو التخطيط المشترك . والحصول على معونة حكومية كافية ومستمرة . ومع ذلك فقد كانت هناك بداية مبشرة بأن فجرا جديدا سيبدأ فى كتابة التاريخ القومى للولايات المتحدة ، وذلك عندما نشر و . س . فورد أوراق الكونجرس ومحاضر جلساته ما بين سنتى (١٧٧٤ ـــ ١٧٨٩) وعندما نشر ماكس فاراند الوثائق الخاصة بالاتفاق الفدرالى المعقود سنة ١٧٨٧ . هذا بالإضافة إلى ما نشرته ، مؤسسة كارنيجى تحت إشراف جون فرانكلين جيمسون .

وقد بذل حنا باسيت مور جهدا صادقا وشافا لنشر المجموعة التذكارية الخاصة بوثائق تاريخ الدبلوماسية الأمريكية . وهنا ينبغى الإشارة إلى ذلك التجميع القيم للمصادر الخاصة بتاريخ العمل والعمال فى أمريكا ، وهو ما قام به الأستاذ حنا . كومانز Commons ورفاقه ، كذلك كانت الآنسة أديليدهاس Adelade Hase بإنتاج سلسلة من الكتب فى وصف وتصنيف مصادر تاريخ أمريكا الاجتماعى والاقتصادى . ومع ذلك فإنه يمكن القول عموما بأن الولايات المتحدة الامريكية تعتبر متخلفة إلى حد كبير فى مجال جمع مصادر تاريخها القومى ، ولا يمكن تبرير ذلك التخلف بإرجاعه إلى الافتقار إلى العواطف القومية الجامحة ، أو إلى عدم وجود موارد مالية كافية لهذا الغرض .

وإذا كانت الولايات المتحدة الامريكية لم تستطع أن تساير الدول الاوربية فى تطور حركة جمع مصادر تاريخها القومى فان لها أن تفخر بأنها أنجبت مؤرخين لا يقلون وطنية فياضة عن تريتشك ، ميشليه ، وفرود Froude . وكان من الطبيعى أن تدور السياسة التاريخية القومية فى أمريكا حول الفترة التى شهدت انطلاقة الأحلام والآمال وهى فترة الاستعمار الأجنبى للولايات المتحدة الأمريكية ونضال الأمريكيين من أجل حصولهم على الاستقلال . ذلك أن المؤرخين الأمريكيين أحاطوا هذه الفترة بهالة تشبه تلك الهالة التى أضفاها يوحنا مولر على ألمانيا فى عصرها المبكر أو تلك التى أضفاها شاتوبريان على فرنسا .

ويعتبر جورج بانكروفت (١٨٠٠ ــ ١٨٩١) الشخصية الرئيسية التى ابتكرت ملحمة قومية عن فترة النضال الأمريكى وتخليص أمريكا من الاستعمار . ذلك أن بانكروفت نفسه عاش فى فترة الأيام التى شهدت ازدهار الحماسة القوية وسادت فيها الديمقراطية وهى فترة الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضى . وأخرج كتابا مطولا بعنوان (تاريخ الولايات الأمريكية منذ اكتشاف أمريكا) . ويلاحظ أن بانكروفت كان أحد الأمريكيين الأوائل الذين تلقوا تعليمهم فى حلقات الدرس الألمانية وأعتقد بأن تاريخ إنشاء الجمهورية الأمريكية ليس جهدا عاديا تحقق فى دنيا البشر ولكنه كان على حد تصويره ملحمة فرجيلية قام فيها واشنجتون بدور أوغسطس . وتعرض هذه الملحمة فى مناظرها المتلاحقة « حركة القوة الإلهية وهى تضفى على الكون وحدته وعلى الحوادث تتابعها وارتباطها . » .

كذلك صور بانكروفت فى أسلوب بلاغى منمق العملية التى قام بها الأمريكيون بالاستيطان فى الولايات الجديدة على أنها هروب الأرواح الباسلة من الاضطهاد وصور الثورة الأمريكية فى صورة حملة صليبية يقودها فرسان وطنيون متحمسون من أجل حصول الإنسانية المتحضرة على حريتها . ويصف الدستور الأمريكى بأنه نتاج لأفكار عملاقة لم ولن يوجد لها مثيل ، واعتبر أن ما انتجته هذه الأفكار أعظم قيمة من صانعها . ويتضح مدى ما فى معتقدات بانكروفت من مبالغة إذا قورنت بالدراسة العميقة الواعية لنفس هذه الفترة التى تناولها بانكروفت والتى قام بها كل من جورج لويس بير ، ك . هـ . فان تين . وكارل بيكر ، ك . م . اليوت ، م . ك . تايلر ، هـ . ل . اوزجود ، ك . و . الفورد ، ك . م . اندروس ، س . ج . فيشر ، وماكس فراند ، ك . أ . بيرد ، أ . م . شلزنجر وآخرون . وكانت نظرة بانكروفت للتاريخ الأمريكى هذه النظرة المقدسة سببا فى ضرر بالغ وإن لم يكن من المتعذر علاجها . ذلك أن هذه النظرة الخرافية المصطبغة بصبغة دينية

انتقلت من بانكروفت إلى ما كتبه جون . و . بالفرى Palofrey (١٧٩٦ ــ ١٨٨١) فى كتابه (تاريخ انجلترا الجديدة) ثم تكررت مرة أخرى بصورة أقل قوة فى كتاب هنرى كابوت لودج (تاريخ المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا) . وكان لهذا الكتاب فضل إثارة الاهتمام بفترة استعمار الإنجليز لأمريكا . أما جون لوثرب موتلى فكان مؤمنا بدور أمريكا فى نصرة الحرية والديمقراطية ولذا اتجه إلى عمل دراسة مقارنة بين دور أمريكا ودور هولندا عندما قضت على الاستعمار الأسبانى وأقامت الجمهورية .

أما فرانسيس باركمان (١٨٢٣ ــ ١٨٩٣) فلم يسر على منهج بانكروفت فى تمجيد العنصر الانجلو سكسونى فى بادىء الأمر ، واثنى على فرنسا فى دورها الذى قامت به فى استعمار العالم الجديد وأوضح فى كتاباته أن أمجاد المستعمرين ليست قصرا على الإنجليز والألمان وحدهم . وإذا كان باركمان قد ركز بحثه على الفرنسيين فى شمال أمريكا وغربها فإن وليم . هـ بريسكوت (١٧٩٦ ــ ١٨٥٩) الشهير بمؤرخ أسبانيا فى أوائل العصر الحديث قد أوضح دور الأسبان فى استعمار وسط أمريكا وجنوبها ذلك أنه وصف وصفاً رائعاً عظمة الحضارة التى كانت للمواطنين الأصليين الأمريكيين فى المكسيك وبيرو . وأفاض فى شرح ذلك فى كتابيه « تاريخ المكسيك » و « تاريخ فتح بيرو » ويعتبر هذان الكتابان من أروع الكتابات وإن كانا يحتاجان إلى تعديل فى ضوء الأبحاث الأركيولوجية اللاحقة . أما الفريد ت . ماهان (١٨٤٠ ــ ١٩١٤) فكان متأثرا بدور الأسطول الأمريكى الذى لم يكن قد بلغ درجة كبيرة من النضج فى الثورة ، فضلا عن دوره فى حرب سنة ١٨١٢ مما دفعه إلى دراسة الدور الذى لعبته البحرية فى الماضى . وكان أن كتب كتابين أولهما : (تأثير القوة البحرية ودورها فيما بين سنتى ١٦٦٠ ــ ١٧٨٣) وثانيهما (دور القوة البحرية فى الثورة والإمبراطورية الفرنسية فيما بين سنتى (١٧٩٣ ــ ١٨١٢) . وكان لهذين الكتابين باستثناء كتب أخرى قليلة أكبر الأثر فى لفت الأنظار نحو ضرورة الاهتمام بالتسلح البحرى الحديث .

ونجد تمجيدا لدور الاتحاديين فى تقوية دعائم الوحدة الوطنية الأمريكية فى أعمال المؤرخين ريتشارد هيلدرث (١٨٠٧ ــ ١٨٦٥) وجنا تشرش هاملتون (١٧٩٢ ــ ١٨٨٢) ولما كان هيلدرث من المعارضين للبيوريتانية ، فإنه تولى الرد على بالفرى فى هذا الصدد ، وامتدح النظام الفدرالى وانتقد جيفرسون . أما هاميلتون فهو ابن أحد كبار الساسة الفدراليين ، ولذا تولى الدفاع عن سياسة أبيه فى كتاب (تاريخ الجمهورية) ونجد فى مقالات وكتابات بانكروفت ثناء

وإطراء على الديمقراطية التي لم تشبها شائبة في عهد جاكسون وذكر بانكروفت أنه كان يحس بتصفيق وهتافات أتباع جاكسون وكأن السماء تصفق معهم وتباركهم .

أما تيودور روزفلت (١٨٥٨ ــ ١٩١٨) فقد وصف في كتابه (انتصار الغرب) عملية التوسع الأمريكي غربا وصفا ينم عن إعجابه وتحمسه ، بصورة غير مستترة لهذه المناطق من غرب أمريكا وتبدو فيه وطنيته الطاغية وإعجابه بحركة الاستعمار التي قامت بها بلاده . وكان لروزفلت الفضل في أن حاز عمل ما هان رواجا وشعبية كبيرة . أما المؤرخ الأمريكي ــ الألماني الأصل ــ هرمان فون هولست (١٨٤١ ــ ١٩٠٤) فيصور في كتابه « التاريخ الدستوري والسياسي للولايات المتحدة الأمريكية » الانتصار على الرق بوصفه مظهرا هاما من مظاهر الصراع الأبدي بين الحق والباطل ، كما تأثر كثيرا بانتصار القومية في الولايات المتحدة الأمريكية ورأى في ذلك درسا لبني وطنه الأول الألمان في صراعهم من أجل الوحدة . وهناك الأستاذ حنا وليم برجيس johne Willian Burgess (١٨٤٤ ــ ١٩٣١) صاحب كتاب « الفترة الوسيطة » وكتاب (الحرب الأهلية والدستور) وكتاب « الدستور وإعادة بناء الوطن » وقد رأى بيرجس في نجاح أهل الشمال في الحرب الأهلية تبريرا لفلسفة السياسة القومية ودليلا أكيدا على العبقرية التيوتونية في مجال التنظيم والوحدة السياسية .

وجملة القول أنه ما إن أصبحت فترات الحرب الأهلية وإعادة بناء الوطن الأمريكي موضوعات للتحليل التاريخي والدراسة الجادة حتى بدأت الدراسة الموضوعية الناقدة ذات الطابع العلمي تسود تماما بفضل جهود الأستاذ وليم أ . دانتج ، وهكذا بدأت الملحمة الأمريكية ، تختفي من الأعمال العلمية ، وإن بقيت في صورة كتب للنصوص المدرسية للأجيال المتعاقبة وكان أن تحمل المؤرخ الفيلسوف حنا فيسك (١٨٤٢ ــ ١٩٠١) عبء إعطاء ملحمة بانكروفت إطارا تعقليا يجعلها تتناسب مع الاتجاهات السائدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولما كان هذا المؤرخ يؤيد مذهب سبنسر التعقلي وتمجيده لقيام الطبقة المتوسطة ، فإنه استطاع رسم صورة واضحة للروح السائدة للأمريكيين المثقفين في عصره . وكان أن نجح بأسلوبه الواضح الجذاب وإلمامه الكبير بفترة الكشوف والاستعمار والثورة في جذب جمهور كبير إليه مما جعله من أوائل المرشحين للقب « أشهر مؤرخ قومي » في الجيل الماضي . ذلك أنه رسول العهد الجديد في فهم العلاقات الأنجلو أمريكية وتفسيرها ، فأتى بدلا من ملحمة بانكروفت ذات الصبغة الدينية الأمريكية بملحمة جديدة عن نشأة الطبقة المتوسطة في كل من انجلترا وأمريكا وانتصار تلك

الطبقة ، وهي ملحمة جديرة بأن تكون « ملحمة الشعوب الناطقة بالإنجليزية » ثم إن فيسك كان مقتنعا تماما مثل بيرجس ـ بما كان عليه الفرع التيوتونى من الجنس الأمريكى من مقدرة سياسية فائقة ، وأوضح أن أول مثال عرف عن الحكم الديمقراطى كان فى نظام مجتمع القرية التيوتونية ، وهو نظام يعتبر تراثا للجنس الآرى من عهد ما قبل التاريخ ، هذا إلى اعتقاده فى أن التاريخ الأمريكى سار فى سلسلة متصلة الحلقات من أيام ارمنيوس القوى الذى كان يعيش فى غابات شمال ألمانيا والذى تحدى بنجاح قوة الإمبراطورية الرومانية وعظمتها . ثم أن فيسك قال مؤكدا أن عنصر الحرية هو أكثر العوامل المحركة للمقدرة السياسية بدلاً من عناصر النظام والسلطة التى وضعها بيرجس فى المقام الأول . كذلك رأى فيسك أن انجلترا فى عهد جلادستون تعطى مثلا للحرية السياسية الكاملة أكثر مما تعطى ألمانيا فى عهد بسمارك ، ومن ثم فإن النظرية العامة القائلة بان انجلترا ـ ذات صيغة تيوتونية بحتة والنقاش الذى دار حول ذلك الرأى ـ إنما كان نقاشا اثنولوجيا يؤيد وجهة نظر فيسك . ولذلك فبدلا من أن يستلهم قبس الحرية مباشرة من « رجل الغابة الألمانى فى عهد ما قبل التاريخ » ثم يصل إلى الاتفاق الدستورى الفدرالى فى سنة ١٧٨٧ ، نجد فيسك يغير من خط سير هذا القبس ويجعله يهتدى وهو فى طريقه إلى العالم الجديد « بثورة ١٦٨٨ المجيدة » ويرى فيسك فى هذه الثورة أن الحرية السياسية والدينية سواء قامتا على أساس متين راسخ لا يمكن أبدا أن يهتز أو ينال منه أى تهديد طالما أن لغة لوك ، ميلتون سيدنى ستظل حية على « ألسنة الناس » .

والواقع أن عمل فيسك وبالإضافة إلى عمل جورج أوتو تريفليان كان محاولة لتوضيح أن الثورة الأمريكية كانت تحقيقا تاما لروح ثورة ١٦٨٨ ، إذ صور هذه الثورة على أنها من عمل الأحرار على كل من جانبى الأطلنطى وانها محاولة بطولية لصد وسحق الميول الأوتوقراطية للنظام الإقطاعى المحافظ فضلا عن سحق طغيان لا يستند على أساس دستورى « لملك جرمانى » وبفضلها تمت صيانة حريات العالم بالصورة التى نصت عليها وثيقة الحقوق الإنجليزية . وقد استرسل فيسك فى زهو فى عرض لقيام الجمهورية الأمريكية الاتحادية واعتبرها من أكبر ما أسهم به العالم الغربى فى سبيل حل المشاكل السياسية . ذلك أن هذه الجمهورية الاتحادية استطاعت أن توفق بين حرية الاجتماعات فى المدن الأمريكية وبين الحشود السياسية الكبيرة . كذلك تتبع فيسك فى نشوة بالغة تقدم الطبقة المتوسطة وانتصاراتها السياسية والاقتصادية فى القارة الأمريكية فى القرن التاسع عشر وأحس فيسك قبل وفاته . أى فى مستهل القرن العشرين .

بالرضا التام عندما رأى بلاده تنهض فى تحمل (أعباء الرجل الأبيض) وتحتفظ بسيادتها على الفيلبين . وعلى الرغم من أنه لم يكن عسكريا على الإطلاق ، إلا أنه كان يعتبر هذا العمل أهم خطوة فى عملية وضع العالم تحت السيطرة السلمية « للفرعين العظيمين للجنس الإنجليزى اللذين يضطلعان برسالة إقامة حضارة عظيمة على الجزء الأكبر من سطح الارض ، وإقامة نظام سياسى أكثر دوما من أى نظام سابق » .

وإذا كان فيسك هو الذى أدخل الأسطورة الجرمانية والانجلو ساكسونية فى التاريخ الشعبى للولايات المتحدة ، فان هربرت باكستر آدمز (١٨٥٠ ــ ١٩٠١) وجون وليم برجس (١٨٤٤ ــ ١٩٣١) هما اللذان أدخلا هذه الاسطورة فى دائرة الدراسة التاريخية الأكاديمية . ذلك أن كلا من هذين المؤرخين تلقى تعليمه فى ألمانيا ــ وآدمز هو صاحب الفضل فى انشاء قسم الدراسات التاريخية المشهور فى جامعة جون هوبكنز وتخرج منه على يديه عدد كبير من المؤرخين البارزين وعلماء السياسة ، ومن بينهم ودرو ويلسون . وكان أحد تلاميذ آدمز جورج إليوت هيوارد هو خير من طبق النظم الجرمانية على النظم الأمريكية ، وذلك فى كتابه (مقدمة للتاريخ الدستورى المحلى للولايات المتحدة الأمريكية » والذى ظهر سنة ١٨٨٩ . أما بيرجس فقد بدأ عمله فى كلية أمهرست وأنشأ بعد ذلك مدرسة العلوم السياسية الشهيرة فى جامعة كولومبيا . ولكن تلامذته كانوا على درجة كبيرة من الدقة والحرص والتحرى فى أبحاثهم الأمر الذى حال بينهم وبين نقل الأسطورة التيوتونية والتشبع بها . وعلى هذا فإن هذه النظرية الجرمانية انتشرت أساسا فى كتاباته هو فضلا عن محاضرات نيقولا مورى بتلر العامة .

ولعل أحسن تعبير عن القومية الأمريكية المختالة بنفسها اليوم هو الذى أطلقه ديلبور كورتز آبوت عندما أطلق على الأمريكان اسم « البرابرة الجدد » . ثم إن الكتابة التاريخية للتاريخ القومى ظهرت فى أماكن أخرى من العالم الجديد ، فجمعت المصادر الخاصة بتاريخ كندا بطريقة طيبة ووضعت فى أرشيف الدومنيون فى أوتاوا فضلا عن دور المحفوظات العديدة فى إقليم كندا . كذلك تناول المؤرخ فرانسوا جارنو تاريخ كندا بكثير من الإسهاب من وجهة النظر الفرنسية الكندية ، وفعل المؤرخ وليم كنجزفورد نفس الشيء ولكن من وجهة نظر موالية لكندا . ثم ظهر من الكتب ما فاق عمل كل من المؤرخين السابقين ، وتمثل هذه الكتب الدراسات التاريخية التى انتهجت منهجا علميا ، ونتجت عن جهد شارك فيه كل من جورج م . رونج Wrong ، هيو . هـ . لانجتون Langton ، آدم شورت Short، آرثر ج . دوهتى . أما خير تاريخ لكندا ظهر فى مجلد واحد فهو كتاب (الكنديون) للمؤرخ جورج م . رونج .

أما مصادر تاريخ أمريكا اللاتينية فقد جمعت من دور الحفظ الأسبانية فضلا عن دول أمريكا اللاتينية . ونخص بالذكر هنا وثائق الأرجنتين التى تم جمعها ونشرها تحت إشراف كلية الفلسفة والآداب فى جامعة بيونس أيرس ، ووثائق شيلى التى تم نشرها تحت إشراف جوزى ميدنيا Jose Medina ووثائق المكسيك التى أشرف على نشرها م . أ . ى . بيرا M. O. Y. Berra. وهناك كتب تناولت التاريخ العام لأمريكا اللاتينية ألفها المؤرخون جوان أورتيجاى ربيو Juan Ortegay Rubio ودايجو باروس آرانا Diego Barros Arana وفرانسسكو جراسيا كالديرون وكارلوس نافان لاماركا Carlos Navany Lamarco وآخرون . وعن الفترة المليئة بالأحداث المثيرة من أجل تحقيق الاستقلال تبرز أعمال المؤرخ بارتولومى Mitre Bartolome وهناك كتب خاصة بتاريخ دول معينة من بينها كتب عن تاريخ البرازيل بأقلام فرانسسكو أدلفو فارنهاجن وجوامانويل بيريرا داسيلفا وجوزى فرانسسكو داروشا بومبو ، ومانويل دى اوليفيراليما ، وفيليزبلو فيرمو دى اوليفبرد فرير أما تاريخ الأرجنتين فهناك كتب بأقلام ميتر ، ماريا نوبيلزا ، ومارتن جارسيا مييرو ، فيسنت جامبون ، فيسنت تيدل لوبيز ، ريكاردو ليفين .

وعن تاريخ شيلى هناك الكتب التى ألفها بنيامين فيكونا ماكينا ، جوسيه توربيدميدينا ، وميجويل لويس أما نتجوى ، وديجو باردس آرنا ، ودينجو أما نتجوى دى سولار ، وجونز ألو بالنس أما عن تاريخ بيرو فهناك كتب من وضع ماريانو فيليب سولدان ، سيباستين لورنت ، ونيمسيو فارجاس . وهناك كذلك كتب تاريخية عن تاريخ أمريكا الوسطى ألفها لوزنزو مرنوفارى ريفيرا ماستر ، انطونيو باتريس جارجوى ، بدرو زامورا كاستيلانوس ، جوزى ن . رودرجويز ، و لدينا عن تاريخ المكسيك كتب من تأليف لويز بيريز فيرديا ، ليز جونز اليزا أوبرجون ، نيكيتودى زاماكوا ، اتريك سنتبانز santibanez ، اميليورابسا Rabasa ، جريجو رو كنتيرو Gregorio Quintero.

التاريخ والقومية

كان لنمو القومية تأثير متعدد الجوانب على الكتابة التاريخية كما أنه جاء نعمة ونقمة ويبدو الجانب الطيب لهذا التأثير فى تيسير إعداد مجموعات من المصادر التى لم يكن من الممكن توفيرها لولا ذلك الدافع القومى . يضاف إلى ذلك ما صاحب عملية جمع المصادر من تدريب كثير من

المؤرخين على أعمال جمع ونشر المصادر التاريخية . أما الجانب السيىء من ذلك التأثير فيتركز حول خلق التحيز الخطير والمتطرف للوطنية . ولم يقتصر أثر ذلك على مجرد عدم إمكان تناول الحقائق التاريخية تناولا موضوعيا هادئا دقيقا ، حتى عند أرقى المؤرخين مستوى وتدريبا ، وإنما أسهم بقدر غير ضئيل فى إشعال روح التعصب والحماسة الوطنية ، الأمر الذى أدى إلى كارثة سنة ١٩١٤ . ويوضح الاستاذ هـ. مورس ستيفانز Stephense مسئولية المؤرخين عن هذا الشأن فيقول : الويل لنا نحن المؤرخين المحترفين ودارسى التاريخ ومدرسيه المحترفين . ويل لنا إذا لم نر النتيجة المفزعة للتعصب للقومية وقد كتبت بالدماء وسط مظاهر الحضارة الأوربية المتداعية . وهذه النتيجة هى ما تمخضت عنه كتب التاريخ الوطنى التى كتبها نفر من أكثر المؤرخين بلاغة فى القرن التاسع عشر .

وربما هان الأمر لو اقتصر عمل مؤرخين وطنيين أمثال تريتشك ، وميشليه ، فرود وبانكروفت ، لكن هناك مؤرخون بسطاء من الدرجة الثالثة فاضت كتبهم التى وضعوها لأغراض الدراسة بالحقد والكراهية ، ذلك أن هذا النفر من المؤرخين حاكوا أساتذتهم الكبار دون أن تكون لديهم نفس فضائلهم . وتتضح طبيعة كتاباتهم وتأثيرها على الجيل الماضى مما كتبه شارل ألتشول Altschul ، والآنسة بيسى ل. بيرسPierce بالنسبة للولايات المتحدة ، والأستاذ ج.ف. سكوت بالنسبة لفرنسا وألمانيا . أما انجلترا فإنها لم تكن أقل من هذه الدول نشاطا فى ذلك المجال ، إذ ترتب على قيام الحكم المستبد فى كل البلدان الفاشستية والشيوعية ومجىء الحرب العالمية الثانية أن عادت النغمة القديمة والتحيز والتعصب للوطنية إلى انجلترا على نطاق لم يسبق له مثيل فى العصور الحديثة .

التاريخ الكنسى

وأخيرا فإنه لا ينبغى ألا تفوتنا الإشارة إلى أن الحماسة لجمع المصادر التاريخية لم تقتصر على مصادر التاريخ العلمانى بل شملت أيضا مصادر التاريخ الكنسى . وبنفس الطريقة التى بدأها دوشزن فى جمع مصادر التاريخ القومى فى القرن السابع عشر بدأت فى نفس الفترة جهود منظمة لجمع مصادر التاريخ الكنسى ومازالت هناك جهود تبذل فى هذا السبيل حتى الوقت الحاضر . وكان أول تجميع كامل لكتابات آباء الكنيسة من عمل جاك مِن Jacques Migne الذى أصدر مجموعة فى ٣٨٢ مجلدا بين سنتى ١٨٤١ ، ١٨٦٤ وتشمل الكثير من مصادر تاريخ الكنيستين الشرقية

والغربية . على أن عمله هذا كان مثل كتاب بانكروفت « تاريخ الدول الباسفيكية » مشروع ناشر أكثر منه مشروع علاّمة ومع ذلك ظلت له قيمته العظيمة لدارس التاريخ الكنسى . ولكن نجم عن فشل ميجن فى استخدام أفضل المصادر والنصوص إلى وجود محاولة أفضل لتجميع الكتابات الدينية . من ذلك أن أكاديمية فينا أخذت منذ سنة ١٨٦٦ فى نشر مجموعات جديدة لكتابات آباء الكنيسة الغربية . وفى سنة ١٨٩٧ أخذت أكاديمية برلين فى نشر طبعة من كتابات آباء الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . أما عملية جمع المادة الخاصة بحياة القديسين وأعمالهم فقد بدأت فى منتصف القرن السابع عشر على يد بولاند ومازالت مستمرة حتى الآن . كذلك ظهر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر كتاب جمع فيه مؤلفاه (لاب ، وكوسارت) قرارات المجامع الكنسية ، وقام اتين بالوز باتمامه فى سنة ١٧٨٣ . وفى سنة ١٦٨٥ بدأ حنا هاردوين Hardouin فى جمع مجموعة أخرى . وفى منتصف القرن الثامن عشر أنتج جبان مانسى Mansi Gian ما يعتبر أكمل ما جمع عن مجامع الكنيسة وكان عنوانه « المجموعة الجديدة لقرارات المجامع المقدسة » . وقد صدر فى واحد وثلاثين جزءا . كذلك صدرت طبعة جديدة منه فى ستة وخمسين جزءا فى باريس سنة ١٩٢٤ . وفى نفس الوقت الذى كان مانسى يجمع مادته عن المجامع الكنسية ، أصدر ميناردى كتابه عن المراسيم البابوية . وفى النصف الثانى من القرن ١٩ أخرج فيليب جافيه أوغسط بوتاست كتابا علميا يحوى عددا كبيرا من الوثائق البابوية حتى سنة ١٣٠٤ وقد أكمل بولس كيهر Paul Kehr حديثا مجموعة مشابهة لنفس هذه المادة .

وخلاصة القول إن جمع مصادر تاريخ الكنيسة تم على وجه لا يقل كمالا عن جمع مصادر التاريخ العلمانى فى أوربا . وكانت الرغبة فى تمجيد الكنيسة دافعا لدى المؤرخين الدينيين مثلما كانت الرغبة فى تمجيد القومية دافعا لدى المؤرخين العلمانيين . فالكاردينال هيرجنروثر ٣١٠٠ققققنعنقفف كتب عن الكنيسة الكاثوليكية بنفس الشعور الذى كتب به تريتشك عن بروسيا والأمة الألمانية بوصفه أحد أبنائها . وكان أن جمعت دائرة المعارف الكاثوليكية ، الآراء الرسمية للكنيسة الكاثوليكية فيما يختص بالمسائل التاريخية . أما البروتستانت فكانت لهم كتابات مماثلة ، وقد سبق أن أشرنا إلى كتاباتهم من قبل . وثمة كاتب من كتابهم هو ميرل دوبنيه D'Aubigne لم تكن حماسته فيما كتب أقل من أى كاتب كاثوليكى ذكرناه آنفا . لقد أبدى العلامة دافيد شاف Schaff تحيزا واضحا إلى جانب البروتستانت . هذا إلى أن وجهة النظر البروتستانتية تمثلت فى دائرة معارف شان ــ هيرزج .

المراجـع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING

SELECTED REFERENCES

C. J. H. Hayes, *The Historical Evolution of Modern Nationalism.* Long and Smith, 1931.

Fueter, *Histoire de L'historiographie moderne*, pp. 608, 629 - 87.

Gooch, *History and Historians in the Nineteenth Century*, chaps. V, viii, Xi - Xv, Xvii - Xviii, XXi - XXii.

Michael Kraus, *AHistory of American History.* Farrar and Rinehart, 1938.

the Writing of American History, chaps. iv - vi, X. University of Oklahoma press, 1953.

H. H. Bellot, *American History and Historians.* University of Oklahoma Press, 1952.

Harvey Wish, *The American Historian.* Oxford University Press, 1960.

David Levin, *History as Romantic Art.* Stanford University press, 1959.

R. R. Ergang, *Herder and the Foundations of German Nationalism*. Colombia- bia University Press, 1931.

Milton Berman, *John Fiske: The Evuolution of a popularizer.* Harvard Univer sity Press, 1961.

p. M. Hammer, ed., *A Guide to Archives and Manuscripts in the United States.* Yale Univefsity press, 1961.

D. H. Thomas and L. M. Case, *Guide to the Archiues of Western Europe.* University of Pennsylvania press, 1959.

Thomas pressly, *Americans Interprent Their Cuirl War.* Princeton University Press, 1954.

D. R. Van Tassel, *Recording American's Past, 1607 - 1884.* University of chicago press, 1960.

peardon, *The Transition in English Historical Writing.*

Wegele, *Geschichte der deutschen Historiographie,* Books IV - V.
Antoine Guilland, Modern Germany and Her Historians. London, 1915.
Gustav Wolf, Dietrich Schafer and Hans Delbruck, *Nationale Ziele der deut schen Geschichtsschreibung seit der franzosischen Revolution*. Gotha, 1918.
Louis Halphen, L Histoire en France depuis cent ans. Paris, 1914.
Benedetto croce, *Storia della storiographia italiana nel seclo decimo nono*. Bari, 1921. 2 vols.
P. J. Blok, *Geschichsschreibung in Holland.* Leiden, 1924.
J. F. Jameson, *Historical Writing in America* Houghton, Mifflin, 1891.
J. S. Bassett, *The Middle Group of American Historians.* Macmillan, 1917.
Thompson, History of Historical Writing, Vol. II, chaps. XIiii - XIv, XIviii.
T. Hutchinson ed., The Marcus W. Jernegan Essays in American Historiography. University of Chicago Press, 1937.
John Fiske, *American Political Ideals.* Harper, 1885.
Wilgus, Histories and Historians of Hispanic - America.
B. L. Pierce, *Civic Attitudes in American School Texbooks.* University of Chicago Press, 1930.
J. F. Scott, *Patriots in the Making.* Appleton, 1916.
The Menace of Nationalism in Education. Macmillan, 1926.
Bell and Morgan, *The Great Historians.*

الفصل العاشر

نشأة المدرسة التاريخية الناقدة

أوضح الأستاذ جورج بيبودى جوخ فى بحثه الذى اتسم بعمق الدراسة وسعة الاطلاع والخاص بتطور الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر أنه كانت هناك أربعة عوائق اعترضت تقدم علم التاريخ هى :

١ - فكرة أن التاريخ يأتى وليد الأحداث والكوارث Catastrophic theory of historical causation والنظرة إلى العصور الوسطى باحتقار وازدراء شديدين وهى النظرة التى حمل لواءها رجال المدرسة العقلانية .

٢ - عدم وجود تجميع جاهز للمصادر الأصلية وعدم وجود تنظيم لمادة دور الحفظ .

٣ - عدم اتباع المناهج الناقدة عند تداول المادة التاريخية .

٤ - عدم توافر التعليم المنتظم والكفء سواء بالنسبة لموضوعات التاريخ أو مناهجه .

وقد سبق لنا أن أوضحنا كيف صحح رجال المدرسة الرومانسية بعض مثالب المدرسة التعقلية وذلك حين اصروا على أن التطور التاريخى خاضع لسنة التطور والاستمرار وحين نظروا إلى العصور الوسطى بوصفها من أخصب عصور البحث التاريخى . كذلك سبق لنا أن أوضحنا كيف أدى الاعتزاز بالقومية اعتزازاً فياضا إلى حصيلة دسمة من مادة المصادر التاريخية وذلك فى جميع الأمم الحديثة الكبرى . وبقى الآن أن نتبع نشأة المدرسة الناقدة فى مجال التاريخ وأن نوضح كيف انتشرت المناهج العلمية وظلت على الدوام مما ينبغى أن يتحلى به رجل التاريخ المحترف وأستاذه .

وقد أوضحنا فى فصول سابقة كيف بدأت المناهج الناقدة بداية مشرقة وهو الأمر الذى جاء عرضا خلال نشاط المدرسة الإنسانية . وكان مثال ذلك ما تضمنته أعمال بلوتـدس ، بيتوس ريناتوس ، فاديانوس ، زوريتا . ثم كان أن تعرقلت حركة هذه المناهج الناقدة وضاق النطاق من حولها خلال الجدل الدينى الضعيف الذى صحب حركة الإصلاح الدينى والحركات المضادة لها . ومع ذلك فإنه مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ نطاق المنازعات الدينية يضيق وأصبح من الممكن مرة ثانية إلى حد ما ان يعود الاتجاه إلى اتباع الموضوعية فى الكتابة التاريخية وأن يبدأ من جديد البحث المتزن النزيه عن الحقيقة التاريخية .

لقد مر المنهج العلمى للتاريخ عبر مرحلتين طبيعيتين وعاديتين : الأولى نشأة العلوم المساعدة مثل العلوم السياسية ، علم تقويم التاريخ ، علم المخطوطات ، علم النقوش ، علم المعاجم ، وكلها علوم من شأنها أن تساعد المؤرخ على الوقوف على مدى ما فى الوثائق من أصالة . وأما المرحلة الثانية فهى تمضى أبعد من مجرد الوقوف عند أصالة الوثيقة لتبحث حول صاحبها ومدى الاعتماد عليه كشاهد لحدث أو حقيقة تاريخية .

وظلت الكتابات التاريخية السابقة موضع تقدير كبير ، حتى خلال الأيام الأولى لنشأة هذه المدرسة الناقدة من ذلك مثلا إن كتابات دى بولى De Pouilly ودنكر تحوى نقدا لا يخلو من الإطراء على الكتابة التاريخية عن أحداث الشرق القديم . واهتم جروت Grote وآخرون غيره بدراسة عمل كبار المؤرخين الإغريق . وتناول دى بولى ، وبيريزنيوس ، بوفر Beaufort ، نيبهر Neibuhr دراسة مؤرخى روما أما الرهبان من أتباع القديس سانت مور ورجال الـدين الجزويت البلجيكيين المعروفين باسم البولانديين وموشيم وتليمونت ، فقد تناولوا جميعا مؤرخى الكنيسة . ومن جولداست إلى ويتز ، ومن فوريل إلى فوستيل ومن شارون تيرنر إلى ستبس تجد اهتماما بنقد أعمال مؤرخى العصور الوسطى . أما فون رانكه فقد ذاع صيته واشتهر نتيجة لتحليله الرفيع لمؤرخى المدرسة الإنسانية خاصة فيلانى ، وميكافللى ، وجويكاردينى . وأما فوريل Fauriel ، موراتورى وليبنتز ومحررو الموسوعات الكبرى فقد تناولوا دراسة مصادر التاريخ القومى . وهكذا نجد نشاط علماء المدرسة الجديدة وقد امتد إلى كل مجال .

أما أول الخطوات الهامة التى خطاها علم التاريخ ليصبح علماً بالمعنى الحديث فجاءت أساسا فى عمل تلك الفئة من الرهبان البندكتيين المعروفين باسم رجال القديس سانت مور وهم الذين

نشطوا فى الدور الأول من مراحل النقد التاريخى فى تجميع مصادر التاريخ الفرنسى . ولم يكن قيام هؤلاء الرهبان بذلك العمل لأنهم منظمة عسكرية وهبت نفسها للدفاع عن الكاثوليكية وإنما جاء سبقهم فى المدرسة الناقدة لأنهم امتازوا بما امتاز به العلماء العلمانيون من عدم الالتزام بتمجيد مدينة معينة أو إقليم أو أسرة أو بيت بذاته . وفى مكتبة ديرهم الهادىء رسموا الخطوط العريضة لما ينبغى أن يكون عليه المؤرخ الحديث وبدءوا التطبيق .

وكان رائد هؤلاء العلماء المؤرخين المنتمين لهذا الدير دم حنا مابيلون (١٦٣٢-١٧٠٧) الذى وضع مع لوك داشرى Luc d'Achery أسس علم الوثائق السياسية أو الطريقة الناقدة للتحقق من صحة الوثائق . وفى سنة ١٦٧٥ أعلن المؤرخ اليسوعى دانيل فون بابيروش Daniel Von Papebroch أن معظم الوثائق التى اعتمد عليها رجال القديس مور لا قيمة لها . وكانت نتيجة ذلك أن وهب مابيلون جهده فى السنوات التالية للرد على هذا الاتهام . وفى سنة ١٦٨١ تمكن مابيلون من تفنيد حجج خصمه بفضل ما حواه بحثه الذى سماه « الوثائق التاريخية » وظل هذا البحث هو الحجة فى موضوعه حتى حلت محله حديثا تلك الأبحاث التى كتبها سيكل Sickel وفيكر Ficker ، جيرى Giry .

أما أسس علمى المخطوطات والآثار فقد وضعها الأب برنارد مونتفاكون Don Bernard Montfaucon (١٦٥٥-١٧٤١) وذلك فى كتابه « علم النسخ عند اليونانيين » وكتابه « الآثار كما توضحها وتشرحها الأرقام» . وعلى الرغم من أن شارل دى فرزن دى كانج Charles du Fresne du Cange كان رجلا علمانيا فإنه وضع أسس علم المعاجم التاريخية وذلك فى معجمه الذى أصدره سنة ١٦٧٨ . كما كان للرهبان البندكتيين دورهم فى هذه الناحية فقام الأب كاربنتير Carpentier سنة ١٦٧٨ فى مراجعة وإطالة عمل (دى كانج) . وأخيرا فإنه بفضل العمل المشترك الذى بدأه دانتين Dantine ، ديران Durand وأتمه سنة ١٧٩٠ دوم كلمنت وظهر بعنوان « فن التحقق من تواريخ الأحداث » غدت عملية التقويم التاريخى تقوم على أساس علمى سليم يختلف عما كانت عليه طريقة أورزيوس وجيروم . أما كلمنت فقد مضى أبعد من سكاليجر فى تحليله المنتظم لعملية تأريخ الأحداث تأريخا منظما . ولم يقصر الرهبان البندكتيون جهدهم على تطوير مناهج البحث للبلوغ بها إلى مرحلة الكمال ولكنهم التزموا بهذه المناهج فيما أخرجوه من كتب عديدة وخاصة تلك المجموعات الخاصة بالتاريخ الكنسى والتاريخ القومى التى أشرنا إليها فى مكان آخر من هذا الكتاب .

وليس من المبالغة فى شىء أن نذكر لرهبان سانت مور من فضل على تقدم المنهج العلمى فى كتابة التاريخ إذ لم تكن هناك قبلهم أية محاولة للإشارة إلى مراجع البحث وإذا وجدت إشارةٌ فإنها كانت من النوع العقيم الذى يربك القارىء ولا يفيده . ولم يكن من اليسير على القارىء الرجوع إلى المادة الأصلية للتحقق منها ، كذلك لم تحدث محاولات لتحسين الأسلوب عن طريق ادخال تعديل أو تغيير على مادة الوثيقة . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى ليبنتز . ولكنه على عهد رهبان سانت مور صارت الوثائق تفحص للتعرف على مدى صحة مادتها وتم تناول المادة بدقة بالغة كما صار من المتبع إحالة القارىء إلى المراجع المختلفة التى استخدموها بدقة متناهية .

وعلى الرغم من ذلك وحتى لا نكون مبالغين فيما قلناه عن جهد هؤلاء الباحثين من رجال سانت مور ، فإنه يمكن القول إنهم أقرب إلى تيماوس منهم إلى فون رانكه أوجارنر . لقد اقتصر معظم جهدهم فى النقد على النقد الخارجى أى فحص مدى صحة الوثيقة وأصالتها وعدم تزويرها . ولكنهم كانوا دون مدرسة فولتير فى فحص مدى صدق المراجع المعاصرة ، وكانوا يعتبرون المادة التى يحتويها أى مصدر أصلى وكأنها حقيقة مسلم بها غير قابلة للطعن هذا إلى أنه لم يكن لديهم شىء من نظرة الرومانسيين تجاه التطور الثقافى فكانوا أقرب إلى علماء التاريخ القدامى منهم إلى المؤرخين الملتزمين بالمنهج العلمى فى العصر الحديث . ثم إن هؤلاء الباحثين لم يتشككوا فى مادة التاريخ الكنسى وإنما كان يحدد عملهم روح الورع التى تدفعهم إلى البحث عن الحقائق التى تخدم قضايا الكنيسة . وهكذا فإنهم خدموا بمسلكهم معاصريهم من المتعقلين ومن جاءوا بعدهم لأنهم أمدوهم بالمزيد من المادة والمعرفة التى مكنت أولئك المتعقلين وغيرهم من مواجهة رجال الدين واقتلاع نفوذهم .

وخير من يمثل المنهج البندكتى هو أحد أتباع المذهب الينسينى واسمه لويس سبسنيان دى تيلمونت (١٦٣٧ـ١٦٩٨) وقد أنتج كتابين مرموقين عن الكنيسة والامبراطورية الرومانية حتى سنة ٥١٥ م . ذلك أنه توخى الموضوعية فى عمله إلى حد كبير ، وجمع بصورة منمقة ما اختاره من مصادر راعى أن يكون فيها تنسيق وبعد عن التضارب حتى جاءت أعماله واحدة من أحدث الجهود فى الدراسة الناقدة للمصادر الرئيسية بكل فترة . وكان هذا العمل الذى قام به تيلمونت تدعيما كبيرا للمسيحية ، كما كانت أبحاثه إحدى المصادر الرئيسية التى استخدمها المؤرخ الشهير جيبون المعروف بدقته وتشككه .

ومن أوائل الكتب الألمانية التي تعتبر مثلا للمناهج الناقدة الجديدة ، كتاب عن تاريخ القانون الألماني كتبه الطبيب والعلامة الألماني المبدع هرمان كونرنج Conring (١٦٠٦_١٦٨١) وأسماه (بحث تاريخي عن أصول القانون الروماني) ويرى كثيرون أن هذا الكتاب هو البداية الحقيقية للدراسة العلمية لأصول التشريع الألماني . وهناك كتاب آخر كتبه الفيلسوف الألماني جوتفريد ويلهلم ليبنتز (١٦٤٦_١٧١٦) أسماه (حوليات برونزويك عن الإمبراطورية الغربية) وتناول فيها تاريخ الجلفين . وقد نشر ليبنتز مقالا سنة ١٦٧٩ أي قبل أن ينشر مابيلون آراءه الناقدة بعامين ـ ضمنه نفس الأسس التي سبق أن وضعها رهبان سانت مور . ولقيت آراء ليبنتز استجابة على نطاق واسع لأول مرة في الكتاب الذي أصدره يوحنا يعقوب ماسكوف Mascov (١٦٨٩_١٧٦١) واسمه « تاريخ الجرمان في العصر الميروفنجي » ذلك أن يوحنا استخدم مراجعه استخداما ناقدا ورفض الأخذ بالأساطير الدارجة ، ثم اختتم بحثه التاريخي بدراسة ناقدة عن امبراطورية العصور الوسطى . ويعتبر كتابه خير تاريخ عن الجرمان الأوائل ظهر قبل بحث شميدت .

ثم كان أن تمت خطوة أبعد من ذلك في مجال النقد الجوهري لمادة الوثيقة نفسها ، وهو الأمر الذي تم على يد الإيطالي الدؤوب لودفيكو موراتوري الذي قطع شوطا كبيرا في مجال بلوغ النهج العلمي حتى فاق أستاذه مابيلون . ذلك أنه انتقد مبدأ وجود الخوارق شأنه شأن بلوندوس ، ولكنه مضى أبعد مما وصل إليه الرهبان البندكتيون وهم الذين نظروا إلى المصادر المعاصرة للحدث وكأنها حقيقة منزهة عن الخطأ أما رابين تويراس Thoyras فقد جمع بين مناهج مابيلون ، موراتوري فاتصف بنظرة رومانسية بسيطة بالنسبة للتطور التاريخي ، وظل كتابه (تاريخ إنجلترا) المصدر الرئيسي في القارة الأوربية بأسرها عن تاريخ إنجلترا في القرن السابع عشر . ثم إنه شارك مونتسكيه رأيه الخاص بأن الحريات الإنجليزية إنما نبعت من الغابات والأحراش الجرمانية . وأخيرا صدر أول كتاب متكامل يتصف بغزارة المادة عن التاريخ العالمي ، هو ذلك الإنتاج المشترك المسمى « التاريخ العالمي » الذي أنتجه بعض العلماء الانجليز وهم كامبل ، سال Sale ، سوينتون ، بور ، بزالمانزر Psalmanazer .

وعلى الرغم من أن هذا العمل جاء مصطبغا بالصبغة الدينية ، فإنه جدير بما وصفه به فبوتر — وهو حجة في النقد — اذ قال عنه « إنه كتاب جدير بأن يحمل لقب أول كتاب عن تاريخ العالم » .

وإذا كان ماريانوس ، موارتورى ، تويراس قد أبدوا على الأقل نظرة أولية فاحصة فى مدى صحة المصادر المعاصرة ، فإن الآباء اليسوعيين هم الذين بدءوا نقد الوثائق سواء فى جوهرها أو فى مادتها . ذلك أنهم اضطروا إزاء هجوم البروتستانت عليهم إلى فحص مصادر التاريخ الكنسى لمعرفة ما إذا كانت الأساطير والأشياء المأثورة عن القدماء تستطيع أن تتصدى للاختبار العلمى الدقيق . وكان هدفهم من ذلك هو الحد من حدة النقد الهدام الذى تعرضت له الكنيسة والذى حمل لواءه المؤرخون البروتستانت فسخروا له كثيراً من تلك الأساطير الخاصة بماضى الكاثوليك وهى أساطير ليس من السهل تقبلها أو تصديقها . وخير نموذج لجهد اليسوعيين فى ذلك السبيل هو كتاب « العمل المقدس » والذى بدأه اليسوعيون البلجيك تحت إشراف بولاند Bolland سنة ١٦٤٣ . وفيه رتبت المصادر المتعلقة بحياة القديسين طبقا لتاريخ كل مصدر ومدى صحته . ثم استطاع بطرس بول Pierre Baule (١٦٤٣-١٧٠٦) أن يمضى بالحركة الناقدة فى صورة أسلم وأشمل ظهرت فى كتابه « المعجم التاريخى الناقد » فضلا عما كتبه من نقد لتاريخ ماميورج عن مذهب كالفن . والواقع أن بول كان يجد لذة خاصة فى توضيح التناقض العميق بين وجهات نظر وآراء المصادر المعاصرة فضلا عن أنه لم يتردد فى أن يطبق منهجه هذا عند تناوله للتاريخ الكنسى . وهكذا حطم بول فكرة أن هناك ما يمكن تسميته بالتاريخ المقدس . أما الإنجليزى الربوبى كونرز ميدلتون Conyers Middleton (١٦٨٣-١٧٥٠) فكان من اكبر من أسهموا فى التطاول على ما جاء به رجال القديس مور من مثاليات . ذلك أنه أكد فى كتبه « مقدمة بحث » « استفتاء حر » عدم الاعتماد على مارواه آباء الكنيسة الأوائل عن نشأة المسيحية . وأكد أن ذلك العصر المسيحى الأول كان عصر اختلاق الأكاذيب والتلفيق .

أما الكتابات التاريخية القديمة فقد لقيت على عهد الحركة الإنسانية ما لقيه التاريخ الدينى ، إذ سبق أن رأينا كيف كان فالا يدقق ويبحث عن مدى صحة ما جاء به ليفى . على أن أول باحث ناقد عن الآثار الرومانية كان كارل سونيو Carlo Sigonio الشهير بسونيوس Signoius (١٥٢٤-١٥٨٤) إذ أنه فى حقيقة الأمر يحظى بنفس مكانة سكاليجر ، كاسوبون . ذلك أنه تناول كل جوانب تاريخ الرومان وقوانينهم وآثارهم ودرسها دراسة قائمة على التشكك فيما سبق ذكره عن هذه النواحى ، بحيث انه تعمق أكثر من بلوندوس . أما الهولندى يعقوب فوربرك Vourbrock المعروف بريزنيوس Perizonius (١٦٥١-١٧١٥) مؤلف كتاب (قواعد اللغة اللاتينية) وكتاب (الروايات التاريخية) فقد قام بدراسة ناقدة لمصادر التاريخ الرومانى المبكر

وتجدى القطع بصحتها وصدقها . وثمة مؤرخ من أصحاب النظرة المثالية كان أكثر قسوة فى نقده فهو المؤرخ لويس ليفسك دى بولى (١٦٩٧-١٧٥٠) الذى تناول المؤرخين فى العصر الرومانى المبكر بالنقد اللاذع ، فكان أكثر تجريحا لهم من كل من بوفرت وينبور فيما بعد . ذلك أنه نادى بعدم إمكان الاعتماد على ماسبقت صياغته عن تاريخ روما فى دوره الأول ، كما هاجم صحة المصادر التقليدية عن التاريخ الأشورى . ولم تلبث ان تعرضت دراسة التاريخ الرومانى فى دوره الأول لنقد أكبر من الفحص الدقيق على يد لويس بوفورت (ت ١٧٩٥) وذلك فى كتابه (أبحاث عن التشكك فى صحة التاريخ الرومانى فى القرون الأولى) . ذلك أنه اثبت فى اسهاب مدى التناقض بين المصادر الكبرى الخاصة بالعصر الرومانى الأول وخلص إلى أن ذلك يوضح أن تاريخ روما قبل القرن الثالث قبل الميلاد يعتمد على الأساطير . من هذا يبدو أن عمل (بوفر) يعتبر مناقضا لحركة الإنسانية فى منهجها وأسلوبها . ولقد تناول ينبور تاريخ روما من حيث توقف به بوفر .

أما المؤرخون الفرنسيون — من اتباع المدرسة الناقدة الجديدة . فقد التزموا بمنهجهم عند دراسة تاريخ بلادهم . ففي كتاب « تاريخ فرنسا » الذى أصدره سنة ١٧١٣ شارك جبريل دانيل Daniel مع المؤرخ ماسكوف فى نقده اللاذع للاساطير والخرافات التاريخية الخاصة بالعصر الميروفنجي . أما أبرز عضو فى المدرسة الناقدة فى أيامها الأولى بل أقدر رجال هذه المدرسة قبل بنيبور فهو جنابابتست ديبو Jean Baptiste Dubos (١٦٧٢_١٧٤٠) صاحب كتاب « نقد لتاريخ قيام الملكية الفرنسية فى غاليا » وهو الكتاب الذى يعبر عن أول محاولة للاتجاه بالأساليب الناقدة الجديدة إلى دراسة النظم . ذلك أنه فحص المصادر الوثائقية للتاريخ المباشر لفرنسا فى دوره الأول دراسة موضوعية ، مثل دراسة فون رانكه ، وسبق فوريل وفوستيل دى كولانج فى القول بأن الميروفنجيين تبنوا الثقافة الرومانسية فى غاليا ولم يحلوا محلها . كذلك سبق أصحاب المذهب الرومانسي حين أشار إلى أن هناك تطورا تدريجيا وأصيلا للحضارة . وجاءت نظرته هذه أرقى بكثير من نظرة معاصريه من العقلانيين القائلين بأن تطور التاريخ رهن بما يحدث من كوارث ونكبات .

أما جوسطس موزر Justus Moser (١٧٢٥_١٨٠٧) فيعتبره كثيرون أول مؤرخ للتاريخ الدستورى ، بسبب ما كشف النقاب عنه بالنسبة للأنظمة السياسية وتوضيحه أن تطورها مرتبط بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى الدولة على أن يوحنا ستيفن بوتر Putter (١٧٢٥_١٨٠٧) كان أكثر كفاءة وهو خير من أخرج دراسة تاريخية متكاملة عن القانون الألمانى

العام والنظم الإمبراطورية فى تحليل اتسم بالدقة والمهارة الفائقة فى تحديد تطور هذا القانون وتلك النظم . أما بارثولد جورج بنيبور (١٧٧٦ـ١٨٣١) وهو تلميذ موزر فيعتبر أب الكتابة التاريخية الحديثة .

وإذا ما أردنا أن نخلص بشىء مما سبق لنا ذكره ، فإننا نستطيع القول بأنه ما من شخصية ما أو مدرسة من المدارس استطاعت أن تسبق ينبور فى خلق علم التاريخ الحديث . كان ينبور هذا مواطنا دانمركيا استدعاه هامبولدت إلى جامعة برلين سنة ١٨١٠ حيث تكشفت مواهبه فصار خير من تجمعت عنده القدرة ليكون بوتقة جامعة لكل السابقين من أصحاب المذاهب الناقدة والتقدمية . ذلك أنه شابه فى عمله أعمال برونزيوس ، دى بولى ، بوفر فى نقده وشككه فى صحة مصادر التاريخ الرومانى المبكر ، ومن ناحية أخرى فإنه تأثر بالروح الرومانسية لسافينى فى دراسته لتطور الأنظمة التشريعية والسياسية ، كما سار على نهج موزر فى تحليله المتعمق لتطور هذه الأنظمة . وأخيرا فإنه طبق على مصادر التاريخ الرومانى المبكر المناهج الناقدة التى سبق لولف تطبيقها فى دراسته لمعرفة أصول أشعار هومر . هكذا جاء كتاب ينبور « التاريخ الرومانى » [illegible] كتاب يجمع بين أحسن المناهج الناقدة وبين الأسس البناءة فى دراسة تاريخ النظم ، الأمر الذى جعل من نيبهر الملهم الأول لخلفائه العظام وخاصة فون رانكه وتيودور مومسن .

وقبل أن نتناول الثورة التى أدخلها فون رانكه على كتابة التاريخ علينا أن نتوقف قليلا لنشير إلى عملين كبيرين قدمتهما المدرسة الناقدة لعلم التاريخ ومنهجه . أما العمل الأول فهو ما قام به العالم الألمانى يوحنا مارتين خالدينى من أتباع بودان صاحب كتاب (طريقة لتفهم التاريخ فى سهولة) وعلى نمط هذا الكتاب جاء كتاب خالدينى Chaldini (التاريخ العام) الذى صدر سنة ١٧٥٢ وقد تناول فيه بعض المسائل بطريق ذكية ناقدة مثل خصائص الحجة التاريخية والمادة التاريخية ، دور الشخصيات ، الفروض والسببية فى التاريخ ، والتأويلات التاريخية . وأما العمل الثانى الذى له نفس الأهمية فينسب إلى يعقوب دانيل وجلين Weglin (١٧٢١ـ١٧٩١) صاحب كتاب (تخطيط عقلانى للتاريخ العالمى) Rational Plan for Universal history وفى هذا الكتاب فحص يعقوب وجلين المشاكل الخاصة بالمؤرخ مثل نقده للمراجع تبويب حقائق المادة وتنظيمها ، ومشاكل الجمع بين أحداث التاريخ العالمى وطبيعة التطور الاجتماعى والثقافى . ثم طبق وجلين أخيرا هذه النظريات على عمله الكبير الذى أسماه « تاريخ أوربا العالمى » .

ليوبولدفون رانكه والمدرسة الألمانية

بدأ اهتمام فون رانكه (١٧٩٥ ــ ١٨٨٦) بالتاريخ عند دراسته للأدب الكلاسيكي ولآراء المدرسة الرومانسية فضلا عن قراءاته لأعمال نيبهر . ثم بدأ نشاطه العلمي كمؤرخ عندما كشف عن التناقض الكبير بين ما رددته المصادر المعاصرة في القرن الخامس عشر عن تاريخ إيطاليا في ذلك القرن . وكان أن نشر سنة ١٨٢٩ كتابه «تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية ١٤٩٤ ـ ١٥٣٥» وأبرز جزء في هذا الكتاب هو الملحق الذي عنونه باسم (نقد كتاب التاريخ في العصر الحديث) وفيه تناول تحليل المصادر الخاصة بالفترة التي كتب عنها ونقدها نقدا جوهريا باطنيا خلاف النقد الظاهري الذي قام به مابيلون في بحثه عن الوثائق التاريخية . وبعبارة أخرى فان فون رانكه أدى خدمة كبرى لمنهج البحث التاريخي وذلك بإصراره على أن المؤرخ لا ينبغي عليه أن يقف عند حد استخدام المصادر المعاصرة للفترة التي يبحثها بل عليه أن يجري دراسة لشخصية (ميول) ونشاط وظروف صاحب هذا المصدر . ومعنى هذا أنه على المؤرخ أن يتعرف بقدر الامكان على «الجانب الشخصي» عند سرده للأحداث . هذا إلى أن فن الكتابة التاريخية عند فون رانكه يتصف بخاصتين أساسيتين الأولى هي نظرته المستقاة من الرومانسية والتي تنادي بأن لكل أمة أو عصر مجموعة من الأفكار التي تسودها والتي سماها رانكه روح العصر . والثانية هي العقيدة القائلة بأن المؤرخ ينبغي عليه أن ينظر إلى الماضي خلوا من فكر الحاضر بمعنى أنه لا يصح أن ننظر إلى الماضي بمنظار الحاضر ، وإنما على المؤرخ أن يقص أحداث الماضي كما حدثت بالفعل .

أما الأخطاء التي وقع فيها رانكه فقد حددها الكتاب الذين جاءوا من بعده في أربعة أمور :

١ – فشله في مناقشة المصادر الخاصة بالموضوع الذي يكتب عنه مناقشة دقيقة .

٢ – اهتمامه الرئيسي بالأحداث السياسية والشخصيات الكبرى وإهماله الجوانب الهامة الاخرى الاقتصادية والاجتماعية ، بل إنه أهمل جانبا هاما في الناحية السياسية وهي الأنظمة .

٣ - تأييده لنظرية أن الله هو صانع التاريخ وأن القوة الإلهية هي التي توجهه .

٤ - ولاؤه الذي لا حد للوثر ولأسرة الهوهنزلرن في بروسيا وإذا كان فون رانكه قد جال عبر التاريخ الأوربي بل التاريخ العالمي وترك أثرا مشرقا في كل جانب من جوانبه ، فان ما قام به بالنسبة للمنهج التاريخي وتدريس التاريخ ترك أثرا خطيرا في التطور الحديث لعلم كتابة التاريخ . أما بالنسبة للمنهج التاريخي فإن أهمية الدور الذي نهض به رانكه تكمن في وضع أسس النقد الخاص بمادة الوثيقة وإصراره على خروج المعالجة الموضوعية الكاملة للماضي .أما الأثر الذي تركه على تدريس علم التاريخ فربما فاق الأثر السابق ، لأن فون رانكه أسس ما يعرف بالسمنار ــ أي حلقات البحث والدرس ــ مستهدفاً أن يبلغ فن التدريس لمادة التاريخ مرحلة علمية سياسية وقد بدأت حلقات البحث هذه (السمنار) على يد رانكه سنة ١٨٣٣؛ ولم يجعلها وقفا على المؤرخين الألمان البارزين فحسب ، بل رحب فيها بالدارسين الذين جاءوا من كل أنحاء العالم للدراسة في تلك الحلقات التي أشرف عليها رانكه طوال نصف قرن .

وعندما تقدم العمر بفون رانكه بحيث لا يقوى على الإشراف على حلقات البحث هذه بنفس النشاط خلفه تلميذه الأول جورج وايتز ليكمل رسالة استاذه في جامعة جوتنجن . وهكذا تم وضع أسس المدرسة التاريخية العلمية الحديثة على يد فون رانكه . ومنذ أيامه سار علم التاريخ قدما في تطبيق المناهج الناقدة وتطويرها بعد أن شاع تداولها على يد مجموعة متزايدة من علماء التاريخ . ويرجع سر اتساع مجال البحث التاريخي على أسس علمية إلى الأخذ المباشر بمناهج فون رانكه ، نتيجة لأن تلاميذه حاكوه بطريقة مباشرة من ناحية ، ولتطور البحث في [illegible] البلاد مما هيأ السبيل أمام علماء التاريخ أن يتبعوا مناهج فون رانكه من ناحية أخرى .

ففي ألمانيا كان تطور المدرسة الناقدة الخاصة بعلم كتابة التاريخ من عمل فون رانكه بصفة أساسية . وظهر من بين تلاميذه كوبك Kopke، وجافيه Jaffi ، دوتيز ، وفون جيسبرخت Von Giesebrecht، وفون سيبل ، وعلى يديهم وفي كتاباتهم ومحاضراتهم شاعت وانتشرت مناهج أستاذهم فون رانكه . ونخص بالذكر ويتز بالذات لأنه يمكن القول أنه فاق أستاذه فون رانكه في اتقانه ودقة بحثه . أما تيودور مومسن (١٨١٧ ـ ١٩٠٣) فإنه أعطى للمدرسة الناقدة قوة دفع جديدة مستقلة عن الدفعة التي قدمها فون رانكه . وكانت نتيجة جهده أن قلبت دراسة التاريخ الروماني رأسا على عقب .

ومهما يكن من أمر ، فإن الرواد من تلاميذ فون رانكه كانوا . وتز، فون سيبل ، فون جنسبرخت . ومنذ عهدهم صار المؤرخون الألمان يتبعون مناهج فون رانكه ويلتزمون بها[1] . أما هتريك جرد Henrich Gerdes وكارل هامب Karl Hampe فقد عالجا تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى كما عالج برنارد كوجلر Bernhard Kugler تاريخ الحروب الصليبية فى دقة بالغة كذلك كتب مولر بحثا يعتبر من أعظم ما كتب عن التاريخ السياسى للعالم الإسلامى وعالج روبرت دافدسون ومعه كل من فردريك فون بيزولد جورج فون بيلو Von Below عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى . كما تناول نفس هذه الفترات كارل براندى ، وأوتوشيل Scheel ، ويلى اندرياس ، جورج فتبر ، أدولف هوسرات Hausrath . ويعتبر هوسرات هذا خير من كتبوا عن سيرة مارتن لوثر وحياته . أما كتاب موريتز ريتر Ritter عن الحركة المضادة للاصلاح الدينى وحرب الثلاثين سنة فيعتبر عملاً نموذجيا عن تلك الأحداث . وثمة عمل رائع يشبه سابقه هو ما قام به برنهارد اردماند سدورفر Bernhard Erdmannsdorffer وتناول فيه الفترة ما بين ١٦٤٨ ـ ١٧٤٠ م .

أما الأعمال التى قام بها كل من هانز بروتز ، رينولد كوسر Reinhoid Koser ، أوتو هينتز عن تاريخ بروسيا ، فانها تبين مدى التقدم الذى طرأ على البحث التاريخى والأهمية التى صارت للأسلوب العلمى منذ درويسن . وعن حياة فردريك الأكبر أخرج كوسر أحسن التراجم لهذه الشخصية العظيمة . كذلك نجح كوسر Koser رغم حبه لفردريك فى أن يزيل الهالة التى أضفاها عليه كل من كارليل ودرويسن . أما أيوجين جوجليا فقد كتبت عن ماريا تيريزا ، فى حين تناول كارل فون هيجل الفترة منذ فردريك حتى نابليون بالبحث التاريخى .

أما أعظم الدراسات التاريخية العامة عن ألمانيا فى القرن التاسع عشر فهى الفترة التى نهض بها البرت وهل Albert Wehl. أما ويلهلم اونكن ، ماكس لهمان ، فردريك مينك Meinecke،

(١) فى بقية هذا الفصل لن نفيض فى ذكر تواريخ الكتب او المؤلفين اقتصادا فى المسافة ومن يريد الإفاضة يمكنه الرجوع إلى الكتاب المسمى باسم A Guide to Historical Literature) ألفه G. M. Putcher ومعه W. H. Allison وآخرون (ماكيلان ١٩٣٦) .
وقد صدرت طبعة جديدة على يد G. F. Howe صدرت سنة ١٩٦١ (المؤلف) .

هانزدلبروك Hans Delbruck، جرهارد ريتر فقد تناولوا حرب التحرير وحركات الإصلاح التي شهدتها كل من مقاطعتي شتين وهاردنبرج . ويعتبر ريتر واحدا من أوسع المؤرخين الألمان اطلاعا وأغزرهم معرفة . أما الفترة التالية من تاريخ ألمانيا حتى سنة ١٨٧٠ فقد عالجها كل من ايرخ ماركس Erich Marcks ارنولد ميار Meyer ، هرمان اونكن Oncken . وكتب فيت فالنتين أحسن البحوث عن ثورة ١٨٤٨ . وهناك كتابات عديدة عن بسمارك والصراع من أجل الوحدة الألمانية وتكوين الإمبراطورية ، أهمها تلك التي كتبها وليم مورنبرخر Maurenbrecher، ويليهم أونكن اريش براندنبرج ، جوهان زيكورش ، ماكس لينز ، اوتو بيكر ، اريخ ماركس Erich Marcks اريخ ايك Erich Eyek.

أما أعظم التراجم عن بسمارك فهي التي وضعها ماركس وايك ارنولد ماير Meyer . ويعتبر ما كتبه ايك نقدا جارحا من وجهة نظر رجال المذهب التحريري . أما عن الفترة من سنة ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ وقد عالجها كل من جرهارد ريتر Gerhard Ritter ، هرمان اونكن ، براندنبرج ، زيكورش Ziekursch ، جوتلوب إجلهاف Gottlub Egelhaaf. أما اريخ ايك فقد كتب أحسن المؤلفات التاريخية عن جمهورية فيمارWeimar . كذلك أمدنا هانس جريم وأرفست فون سالومون بأحسن الدراسات والأحكام الأولية عن هتلر والاشتراكية القومية . أما فردريك مينك Meinecke فيعتبره كثيرون أقدر مؤرخ ألماني ظهر منذ فون رانكه وينظرون إليه بوصفه صاحب أحسن الدراسات في مجال المذاهب السياسية . وتعتبر أبحاث فرتيز هارونج أحسن الأبحاث في تاريخ الدستور الألماني . ويقال نفس الشيء عن أبحاث فرنر werner سومبارت Sombartt عن الرأسمالية اذ انها عمل مرموق في مجال التاريخ الاقتصادي . وفاق عمل هانز دلبروك كل عمل آخر في التاريخ الحربي لألمانيا . وأما تاريخ السياسة الألمانية الخارجية منذ عصر بسمارك حتى سنة ١٩١٤ فقد تناولها تناولا شاملا كل من اوتو بيكر ، فيت فالنتين Veit Valentin، اريخ براندنبرج . وأما عن أسباب قيام الحرب العالمية الأولى فان أحسن الأبحاث في هذا المجال هي التي كتبها ألفرد فون فجرر Von Wegerer. أما فردريك شيم فهو أعظم ناشر للدراسات التاريخية في ألمانيا الحديثة .

وكان أن دخل المنهج العلمي التاريخي إلى النمسا على يد سيكل ، فيكر Ficker ، ارنيث . أما أقدر المؤرخين النمساويين المعاصرين فهو هنريخ ريتر فون سربك srbik الذي وضع ترجمة لحياة مترنخ فجاء عمله شيئا خالدا ، كما عالج السنوات الحرجة التي مهدت للحرب النمساوية

البروسية سنة ١٨٦٦ . أما الفونس دوبش Dopsch فهو واحد من أقدر المؤرخين الذين عالجوا النظم فى أيامنا هذه ، وأضاف إضافات غاية فى الابتكار والأهمية إلى التاريخ الاجتماعى لأوربا الغربية منذ الإمبراطورية الرومانية حتى عصر شارلمان . أما اوزوالد ريدلخ Oswald Redilch فكان أقدر المؤرخين النمساويين الذين كتبوا عن النمسا فى العصور الوسطى .

ثم إن المدرسة الألمانية كان لها دورها الرائد فى تزويدنا بالمعرفة عن العالم القديم . وقاد غمار ذلك ما كسيلان دنكر Dunker اذ تزعم الدراسة العلمية لآثار الشرق القديم ، فى حين كان كارل ليبسيوس Lepsius مؤسس علم الآثار المصرية القديمة . أما أدولف ارمان فقد كتب أحسن الأبحاث عن التاريخ الاجتماعى فى مصر فى حين تخصص هوجو فنكلر Winekler فى دراسة بلاد ما بين النهرين . على أن اعظم العلماء المتخصصين فى الآثار الشرقية كان ادوارد ماير صاحب الأبحاث الفذة عن التاريخ القديم منذ العصر الحجرى حتى ظهور المسيحية . أما اوغسط بوخ Boeckh فقد وضع أسس الدراسة العلمية للآثار الإغريقية المنقوشة . وكان أتوغريد مولر Miil-ler أول من حاول دراسة الأساطير الإغريقية دراسة علمية وذلك فى كتابه عن التاريخ الإغريقى والرومانى . وثمة أبحاث قيمة عن تاريخ اليونان كتبها أرنست كورتيوس ، إدولف هولم ، جورج بوسولت Busolt، كارل جوليوس بيلوخ Beloch، نيدكتوس نيس Benedictus Niese، اولرخ وليام اوتز ــ مولندروف Ulrich Wiliam owitz - Moellendorf، وقد كتب ادوارد زيلر عن الفلسفة الإغريقية فى حين كتب جومبرز Gomperz كتابا فذاً لا يدانيه كتاب آخر عن تارخ الفكر الإغريقى . كذلك كتب ويلهم كريست Christ بحثه الشامل المتقن عن الأدب الإغريقى .

كذلك كتب فون اناماشترنج Von Inama Sternegg بحثا يستحق التنويه عن التاريخ الاقتصادى عن ألمانيا فى العصور الوسطى . وكتب أوجست فورنير Fournier أحسن التراجم عن نابليون ، فى حين كتب هنريخ فريدزنج بحثا مهما عن الفترة منذ سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٦٦ كما كتب بحثا هاما عن العلاقات بين إمبراطورية النمسا والمجر مع البلقان . أما عن إمبراطورية النمسا والمجر منذ ١٨٤٨ ـ ١٨٦٧ فقد تناولها بالبحث يوسف ريدلخ . وعالج الفرد بريبرام Pribram. لودفيج بيتز Ludvig Bittner، هانز أوبزبرجر Hans uebersbergerالتطورات السياسية السابقة على حرب سنة ١٩١٤ . وكتب الفونس هوبر ، وهوجوهانتش Hantsch أعظم الأعمال التاريخية عن النمسا . أما هانز فون زويدنك شوندنهرست Hans von Zwiedeneck - Sudenhorst فكتب بحثا من أعظم الأبحاث عن ألمانيا فى القرن التاسع عشر .

أما أحسن الأبحاث التي تعبر عن المدرسة الألمانية بمنهجها التقليدي ، فهو العمل المشترك الذي أشرف عليه ويلهلم اونكن ، وكذلك الكتاب الذي أشرف عليه هانز فون زويدنك شوندنهرست Sundenhorst. وثمة كتاب ينم عن غزارة علم ومعرفة والتزام بالمنهج العلمي التاريخي ، هو الكتاب الذي كتبه ارنست برينهيم وأتمه كل من جوستان ولف ، ويلهلم بور Bauer.

وإلى جانب ما كان للمدرسة الناقدة الجديدة من نشاط في دراسة التاريخ السياسي لألمانيا ، كان لها مجالها في دراسة التاريخ الكنسي بعد أن تدفقت الأبحاث في هذه الناحية منذ ظهور كتاب «مئويات ماجد برج» . وكان أن اهتم بالبحث في هذا التاريخ الكنسي كل من يوحنا موشيم Mosheim (١٦٩٤ - ١٧٥٥) وأوغسط نيندر August Neander(١٧٨٩ - ١٨٥٠) هذا فضلا عن الأبحاث القيمة في تاريخ الكنيسة التي كتبها كل من اميل شوررر schurer ولس فرنل wern-le ، ك . م . فون ويز شاكر K. M. Vn Weizsaker، ادوارد ميار Edward Meyerوارنست فون دوبشتز Ernest Von Dobschitz، هانز فون شوبرت schubert وهؤلاء جميعا كتبوا عن أصول المسيحية . أما كارل هاس Hase وديلهم مولر فقد كتبا عن التاريخ العام للكنيسة المسيحية . هذا كله بالإضافة إلى الأبحاث التي تناولت البابوية مثل أبحاث لودينج فون باستور ، أريخ كاسبر ، يوحنا هالر ، فردريك نيوبولد ، د. ف. ستراوس D.F.Strauss. أما عن المجامع الكنيسية فقد كتب عنها كارل فون هيفل Carl Von Hefele، جوزيف هر جيزوتر Joseph Hergenrother، هوبرت جدين Hubert Jedin. هذا في حين كتب بولس هنشيوس Paul Hinschius، اميليوس ريشتر ، رودولف سوهم Rudulf Sohm عن القانون الكنسي . أما عن لوثر وعصره فهناك مؤلفات جوليوس كوسنبلن Julius Kostlin، وكارل هول Karl Holl. وقد كتب البرت هوكHauck عن الكنيسة الألمانية في حين تناول أدولف هارناك المعتقدات والمذاهب ، وكتب فرانز كراوس Krausفي الآثار والفنون المسيحية .

أما الدراسة العلمية للتاريخ الروماني فكان أول من بدأها تيودور مومسن الذي يعتبر خير من قدم دراسات مبتكرة في هذا المجال . وأمدنا العلماء منذ أيامه بمزيد من المعرفة عن التاريخ الروماني ومن هؤلاء العلماء ويلهلم ايهنIhne ، هرمان ديزوDesau ، هرمان شيلر ، فيكتور جاردتوزن Gard-thausen ، كارل نيتشه ، وارتو سيك Seek. اما بولس كروجر Kreugerفكان في مقدمة الباحثين في القانون الروماني في حين كتب لودفيج فريدلاندر في الحياة والعادات الرومانية . وكان

جورج ويسّو من أوائل الدارسين للديانة الرومانية بينما تناول ويلهم توفل Teuffel تاريخ الأدب الروماني . أما أدوارد ماير فيأتي على رأس قائمة العلماء الذين اهتموا بالتاريخ الروماني بل إنه يفوق مومسن نفسه . وقد عاش ماير بين سنتي ١٨٥٥ - ١٩٣٠ واشتهر ببحثه عن تاريخ العالم القديم ، إذ اعتمد في كتابته على المصادر الأصلية وبذل فيه جهدا ذهنيا يتناسب مع العمل الذى أقدم عليه . وربما كان ماير أعظم الأساتذة الذين برزوا في ميدان الكتابة التاريخية أهمية حتى عصرنا هذا .

الكتابة التاريخية الناقدة في فرنسا

تدين المدرسة التاريخية الناقدة في فرنسا في تطورها إلى حد ما إلى تأثير المدرسة الألمانية عليها ، وخاصة أن رواد المؤرخين الفرنسيين مثل جابريل مونود Gabriel Monod تعلموا على أيدى أساتذة مثل ويتز . على أنه يمكن القول بصفة عامة أن تقدم المدرسة التاريخية في فرنسا يرجع في أساسه إلى الظروف المحلية في فرنسا ذاتها . وفي معرض المقارنة بين المؤرخين الألمان والفرنسيين يمكن مقارنة كلود فورييل بنيبهر . كان فورييل Fauriel مصدر الإلهام لجيزو ورفاقه . وإذا كان جيزو لا يقارن بفون رانكه في غزارة بحثه أو ضخامة إنتاجه ، فإنه يفوق في مقدرته على الربط بين الأحداث وتحليلها . وكان لجيزو في نفس الوقت القدرة والكفاءة على النشر . ويقارن دوره في المدرسة التاريخية في فرنسا بدور فون رانكه في ألمانيا ، إذ بعث جيزو الحياة في المدرسة الفرنسية ، وإن أعوزته القدرة التي توافرت لفون رانكه في مجال الإشراف لمدة طويلة على حلقات البحث .

أما فرانسوا مينيه Francois Mignet فيشبه المؤرخ الألماني وتيز من حيث أنه قام بأبحاث عن أوربا في القرن السادس عشر وعن الثورة الفرنسية . وكانت أعمال فرانسوا هذه هي البداية للكتابة التاريخية الفرنسية الحديثة لا بسبب قدرته الفائقة على النقد فحسب بل بسبب قدرته غير العادية في تحليل القضايا وحسن عرضها بصورة واضحة مفهومة . هذا فضلا عن أن فرنسوا مينيه كان أحد العمالقة الذين دونوا الوثائق ونشروها . وجاء من بعده فوستيل دى كولانج الذى برز بالنسبة لإثارة الاهتمام بدراسة تاريخ العصور الوسطى في فرنسا دراسة علمية مما جعل دوره في هذا الصدد مشابها لدور ويتز في ألمانيا . وبرغم ما أثاره فوستيل من استياء بسبب إنكاره للتيوتون من دور رئيسى في وضع أسس النظم البروفنجية ، فإنه كان علامة بكل ما تحويه الكلمة من معنى وله شغف لا يكل باستخدام المراجع . على أن بلوغ المنهج التاريخي العلمي ذروته في فرنسا

لا يرجع إلى جهود أفراد قلائل مثلما كان الحال فى ألمانيا عندما كان الفضل فى ذلك لفون رانكه وويتز ، إنما مرجعه فى فرنسا لجهود عديد من الأساتذة والعلماء الذين درسوا فى أعظم المعاهد العالية المتخصصة فى تدريب المؤرخين على استخدام المناهج السليمة فى النقد وهى مدرسة الوثائق التى بدأت عملها سنة ١٨٢٩ . ويقرن بإنتاج هذا العهد من حيث الكيف اسم كل من ليوبولد ديلزل Leopold Delisle وبنيامين جيرارد ، جابريل مونود ، اخيل لوشير Achille Luchaire وأوغسط بولينير ، آرثر جيرى ، بول فيوليه Paul Viollet . وقد وجدت فرنسا فى شخص الفونس اولارد عالما كبيرا كان لمعرفته الواسعة والتى لم يبلغها أحد عن فترة قصيرة من فترات التاريخ القومى فى فرنسا ، مما جعله جديرا بأن يقارن بأعظم المؤرخين العالميين ممن هم على مستوى س . ر .جاردنر فى انجلترا . ذلك أنه نقى تاريخ الثورة الفرنسية من كل الخرافات والأساطير التى علقت به .

أما أحسن عمل يمكن اعتباره نموذجا للمدرسة التاريخية الفرنسية الحديثة فهو الكتابان اللذان اشترك فى تحريرهما عدد من العلماء وأشرف على نشرهما أرنست لافيس ، وأحدهما (التاريخ العام) والثانى وهو (تاريخ فرنسا) . وسوف نكتفى هنا بحصر موجز للرواد الأوائل من علماء التاريخ الفرنسيين فى عصرنا الحاضر ، فنشير إلى هنرى هوبرت ، الذى عالج تاريخ الكاتبين القدماء ، وكاميل جوليان الذى اقتفى أثر أستاذه فوستيل دى كولانج فأرخ لغاليا فى العصور القديمة أما فوستيل دى كولانج ، أندريه برثلو Andre Berthelot فرديناند لوت Lot ، فقد درسوا الإمبراطورية الرومانية فى أواخر عصرها وفجر التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى . أما جوستاف بلوخ Bloch ، لوت Lot فلهما أبحاثهما الممتعة عن فترة الانتقال من الحضارة الرومانية القديمة إلى حضارة العصور الوسطى . وأما تاريخ العصور الوسطى فى نهضة الإمبراطورية الرومانية الشرقية على يد جوستينان فضلا عن دراسة التاريخ البيزنطى ذاته فكانت موضع اهتمام شارل ديل Diehl ومجال بحثه . هذا فى حين تخصص هنرى لامنس Lemmens ، واميل جوتيه Gautier ، هنرى سلادين Saladin ، وادوارد دريو Driault ، وكلمنت هوارت ، وآخرون فى التاريخ الإسلامى ، واهتم بدراسة عصر الإقطاع وتحليل خصائصه كل من شارل سينبو Charles Seignobos ، اخيل لوشير ، جاك فلاش ، بول جيلهرموز Paul Guilhiermoz ، شارل بيتى دوتييه .(Charle Petit-Dutailles) أما لوشير فكان أكبر حجة فى تاريخ فرنسا بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر . هذا فى حين أنتج رينيه جروسيه ما يمكن

اعتباره أحسن ما كتب عن الحروب الصليبية . وتناول شارل لانجلو Charles Langlois سقوط أسرة كابيه وله بحث ممتاز عن عصر فيليب الثالث وفيليب الوسيم . أما عن الحياة فى المدن فى العصور الوسطى فكانت مدار بحث أوتر جيرى الذى له بحث ممتاز أيضا عن العلاقات السياسية . أما ايوجيه فيوليه لى دوك Eujens Viollet le Duc فكان حجة فى الفن الفرنسى والمعمارى فى العصور الوسطى . ويعتبر شارل بيمونت Charles Bemont رائدا للبحاثة الفرنسيين فيما يختص بتاريخ إنجلترا فى العصور الوسطى . أما شارل بابيه Charles Bayet فله مكانته الرفيعة بفضل دراساته عن الإمبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى . كما كتب كتابا ممتازا عن الإمبراطورية البيزنطية . أما الفرد كوفيل فهو أستاذ الباحثين عن فترة حرب المائة سنة . أما كريستيان بفستر فكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ العصور الوسطى وتاريخ نانسى والسياسة الداخلية لهنرى الرابع .

وكان أن حظى تاريخ القرن الخامس عشر بعناية كل من بيتى دوتييه Petit Dutaillis، وبطرس شامبيون ، فى حين اهتم هنرى لامونير ، بطرس امبار ، بتاريخ مدينة تور بفرنسا . أما لوسيان روميير ، حنا ماريجول ، هنرى هاوسر فقد تخصصوا فى دراسة تاريخ فرنسا فى القرن السادس عشر . ويعتبر بطرس امبار Pierre Imbart من مدينة تور بفرنسا حجة فى حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى . وتناول كل من جابريل هانوتو وجورج دافنيل تاريخ فرنسا فى القرن السابع عشر بالبحث والتحليل ، فى حين يعتبر بطرس كلمنت أحسن الباحثين عن كولبير ، وينطبق نفس القول على يوسف ديديه Joseph Dedieu بالنسبة لتاريخ الهجونت بينما كان أرنست لامنيس وارثر دى بوسليزل Arthur de Boislisle رواد البحث فى عصر لويس الرابع عشر . أما لامنيس فهو صاحب المكانة الأولى بين المؤرخين الفرنسيين بأبحاثه عن بروسيا وأشرف على إنتاج أحسن الأعمال التاريخية التى تعاون فى كتابتها مجموعة من المؤرخين . كذلك عرف عن هنرى فاست Henri Vast عمق أبحاثه عن تاريخ فرنسا السياسى فى أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر عن الفترة النابوليونية . أما مؤلفات ايه كريست Aime Cherest ، وكاميل بلوخ ، هنرى كاريه فقد أوضحت الكثير عن مفهومنا عن القرن الثامن عشر . ويضاف إلى هؤلاء فيليب ساجناكPhilppe Sagnac من ناحية أهمية أبحاثه عن التاريخ السياسى لفرنسا وأوربا . وفى نفس الوقت فإن ألبرت سوريل Sorel كان أستاذاً لايبارى فى موضوع العلاقات الدولية فى القرن الثامن عشر . أما الأبحاث الحديثة لهنرى سيبه See فقد أضافت مزيدا من المعلومات على

الدراسة الخاصة بتاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافى فى القرن الثامن عشر .

وكان أن شهدت الدراسة الخاصة بالثورة الفرنسية تطورا هاما نتيجة للأبحاث التى قام بها كل من أولارد ، وساناك . أما البرت ماتييه Mathiez فقد طرح جانبا النظرة البورجوازية لاولارد ومجّد روبسيير وطبقة العامة . والحق أن أبحاثه أضافت الشيىء الكثير إلى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لهذه الفترة ، وشابهه فى ذلك جورج ليفبر George Lefebvre بأبحاثه عن الثورة . إذ نظر الأخير إلى الثورة نظرة وسطا بين اولارد وماتييه ، مماجعله يحظى اليوم بمكانة أكثر احتراما بين الباحثين الفرنسيين . أما أحسن بحث ناقد مختصر عن الثورة الفرنسية من وجهة نظر محافظة فهو ذلك الذى قدمه لويس مادبلن Lowis Madelin الذى أصبح المرجع الأول لكل دراسة عن نابليون ، وهوأول من تناول دراسة الفترة النابوليونية على أسس علمية دقيقة ، وهو الأمر الذى كان قد بدأه إدوارد دريو Driault . أما أميل برجو ، وجورج ويل Weill، وجورج لارونز ، فقد تناولوا بالبحث الفترة الممتدة من نابليون حتى قيام الجمهورية الثالثة . وكان أحسن الباحثين فى تاريخ هذه الفترة هم جابريل هانتو ، بطرس رنوفو Pierre Renouvin، دانيل هالفى Halvey، جورج بونيفو أما هنرى أرون فقد أخرج بحثا تاريخيا فذا ومتزنا عن حكومة فيشى .

ويعتبر حنا ماريجول Mariejol رائد الباحثين الفرنسيين عن أسبانيا الحديثة مثلما يعتبر جورج بلوندول Blondel نفس الشيء بالنسبة لأبحاثه عن ألمانيا الحديثة والنمسا فى سنة ١٩٠٤ . أما أرنست دينس Denis ، لويس ليجير Legere فقد عالج كل منهما علاجا قديرا تاريخ إمبراطورية النمسا والمجر فضلا عن تاريخ بوهيما وبولندا . هذا فى حين كان إيلى هاليفى بمثابة المرجع الأول فى كل أنحاء العالم بأبحاثها عن تاريخ انجلترا فى القرن التاسع عشر . ولاننسى العمل المرموق الذى قام به الفرد رامبو عن الإمبراطورية البيزنطية والسلاف فى أوربا ، فضلا عن الحضارة الفرنسية والتوسع الاستعمارى . أما شارل سينوبوس Charles Seignobos فقد ألف بحثا ممتازا عن الحضارة وكذلك يعتبر هنرى سيبه See صاحب أحسن الأبحاث عن الحياة الاقتصادية فى فرنسا .

وامتاز المؤرخون الفرنسيون كذلك بأبحاثهم الهامة عن الكنيسة المسيحية . فالفردلوسى Loisy هو رائد النقاد فى أدب كتاب العهد الجديد ، وتعتبر أبحاثه حجة للعقائد الوثنية الغامضة التى أثرت على المسيحية . كذلك كتب شارل جوجينبر Guignebert فى أسلوب رفيع ـ شأنه شأن رينان ـ بحثا اتسم بغزارته عن المسيح وتطور المسيحية . أما لويس دوشزن فهو صاحب الأبحاث

الزمنية عن المسيحية فى عصرها الأول . كذلك كتب اندريه لاجار Lagarde ـ واسمه الحقيقى يوسف تورنيل Turnel بحثا جديرا بالتنويه والإعجاب عن المسيحية فى العصور الوسطى ، فى حين كتب فيلكس روكان Felix Rocquain بحثا قيما عن تاريخ البابوية فى العصور الوسطى وعن الحروب الدينية فى فرنسا . أما بطرس دى لاجورى فهو صاحب البحث التاريخى الدينى القيم عن الثورة الفرنسية بينما تناول ديبيدور ، اميل شينو Chenon ، تاريخ الكنيسة والدولة فى القرن التاسع عشر . أما أعظم الأعمال ذات الجهد المشترك عن تاريخ الكنيسة فهى تلك التى اشترك فيها أوغسطين فليس Augustine Fliche ، جاستون مارتن ، هذا كله بالإضافة إلى المعجم الواسع عن اللاهوت الكاثوليكى .

ثم إن المؤرخين الفرنسيين أظهروا اهتماما خاصا بحركة التوسع الاستعمارى الفرنسى فهناك عدا رامبو من تخصصوا فى البحث فى هذا الموضوع . ومن أعظم الباحثين فى هذا المجال اميل ليفاسير ، ايوجين فالكس ، ادوارد بيتى ، وارثر جيرو . أما شارل دى لارونسير فهو صاحب أعظم الأبحاث عن تاريخ البحرية الفرنسية . كذلك كان للفرنسيين أبحاثهم الهامة عن التاريخ القديم وإعادة صياغته . ففى أوائل القرن التاسع عشر نجح جان شامبليون فى فك رموز اللغة المصرية القديمة . وبعد ذلك بنصف قرن مضى أوغسط ماريت بالدراسة المصرية من حيث توقف عندها لزبيوس . والحق أن ماريت يعتبر أشهر الباحثين فى الدراسات المصرية القديمة قبل ماسبيرو . أما سير جاستون ماسبيرو فهو أهم المؤرخين المتخصصين فى التاريخ القديم قبل أن ينشر ادوارد ماير أبحاثه الرمزية فى هذا المجال . وتعتبر أبحاث أيوجين كافيناك Eugene Cavignac أحسن الأبحاث فى التاريخ القديم التى اقتربت من أبحاث ماير فى غزارتها ووجهة نظرها . هذا فى حين كتب لويس ديلابورت كتابا طيبا عن حضارة العراق القديمة . وكشف جاك دى مورجان رموز اللغة الحامورابية . واشترك جورج بيرد وشارل شبيزChipiez فى عمل بحث فذ عن الفن القديم . أما بولس جيرو Giraud تلميذ فوستل دى كولانج المقرب فقد تخصص فى البحث فى التاريخ الإغريقى والرومانى . كذلك قام جوستاف جلوتز بأبحاث تدعو إلى الإعجاب عن حضارة كريت وعن المدن الإغريقية القديمة والحياة الاقتصادية عند الإغريق . أما أوغسط بوشيه ليكلريك Auguste Bouche Leclereqفهو أستاذ الباحثين فى العصر الهلينى . وكذلك كتب كافيناك كتابات مستفيضة عن التاريخ الاقتصادى للإغريق . ويحتل كل من الفرد وموريس كروزيه مرتبة سامية بين الباحثين فى تاريخ فكر الإغريق وآدابهم . أما فكتور دوري Duruy فله

أعظم الأبحاث عن تاريخ الإغريق والرومان من واقع مصادرها الأولى . وتناول جوستاف بلوخ ، ليون هومو ، جوزيف ديكلاريل Declareuil ، التطور السياسي والتشريعي عند الرومان ، في حين عالج فكتور شابو Chapot تاريخ الفن الروماني . ثم كان أن اتم حنا فكتور ديرى Duruy وارنست لامنيس وشارل بيمونت وجابريل مونو Gabriel Monod ما بدأه في ألمانيا فون رانكه وويتز من تطوير تدريس التاريخ . وينسب لجابريل مونو الفضل في تطوير منهج حلقات البحث التي استحدثها في فرنسا دوري . ونختم هذا العرض السريع لدراسة التاريخ الفرنسي ، بالإشارة إلى ان هذا العرض لن يستكمل دون الإشارة إلى المؤرخين الفرنسيين بصورة لا مثيل لها على الربط بين غزارة البحث وشرح المادة التاريخية وتوضيحها مع روعة التصوير وسلاسته والقدرة النادرة على التنظيم المحكم .

المدرسة التاريخية الناقدة في انجلترا

جاءت المدرسة التاريخية الناقدة في انجلترا وليدة انتاج قومي على عكس ما كان عليه الوضع في فرنسا . وإذا كانت هذه المدرسة استطاعت شق طريقها بفضل جهود العلماء أمثال لينجارد Lingard ، وفريمان ، وستوبس ، وجرين ، وليكي ، كريتون Creigthon، ستيلى Steely، فإنها بلغت ذورة نشاطها في شخص صمويل موسون جاردنر وكتابه عن الأحداث المثيرة في النصف الأول من القرن السابع عشر . ففي هذا البحث المتقن نجحت الاستفادة الكاملة من المصادر التي تناولت فترات محدودة كما تمثلت في بحثه المقدرة على تنظيم تلك المعلومات الواسعة في سرد واضح مفهوم . ولاينافس جاردنر في مكانته بين المؤرخين الأوربيين سوى ألفونس أولارد ، ومع ذلك فان الموضوعية في عمل جاردنر فاقت تلك الى كانت في عمل ذلك المؤرخ الفرنسي .

على أنه ينبغي القول أن الانجليز برغم ذلك لم يكن لديهم ما يمكن مقارنته بمدرسة الوثائق في فرنسا أو المعهد التاريخي في فيينا من أجل تدريب المؤرخين الشبان على مناهج البحث الناقدة السليمة . وأكبر موسوعة تعبر عن روعة إنتاج المدرسة الإنجليزية الحديثة هي العمل المشترك لموسوعة كامبردج عن التاريخ القديم والوسيط والحديث . هذا فضلا عن سلسلة الأبحاث المتتابعة عن التاريخ الإنجليزي التي كتبها هنت Hunt ، بول Poole ، اومان Oman ، أما جـ . هـ . كلافام J.H. Clapham فقد أنتج أبرز الأعمال عن تاريخ انجلترا الاقتصادي .

وبالنسبة لتاريخ بريطانيا فى العصر الرومانى فقد بحثه بعناية فائقة كل من ت . ريس هولمز Rice Holmes T. ، ر. جـ . كولنجوود R. G. Collingwood ، جـ . ل . ميرز J. L. Myres ، فرنسس هانرفيلد .

أما العصر الأنجلوسكسونى فقد درسه دراسة علمية كل من شارل أومان ، توماس هودجكن ، شارل بلمر Charles Plummer . هذا فى حين كان جـ . هـ . راوند J. H. Round ، هـ . و . ك . دانيز ، ف . م . بويك F. M. Powick ، ف . م . ستينتون F. M. Stenton من رواد البحث فى تاريخ انجلترا النورماندية وقد قام راوند بانتقاد فريمان نقداً لاذعاً ولكن ف . م . ستينتون F. M. Stenton . صحح بعض الاستنتاجات التى توصل إليها راوند . وعن أسرة البلانتاجنت هناك أبحاث هامة كتبها ل . ف سالزمان ، ك . و . ك . أومان ، جـ . م . تريفرليان ، ت . ف . توت ، ف . م . بويك ، إليس . س جرين . أما وليم . س . ماك كيكنى William S. Mc Kecknie ، فقد نبذ جانبا فى بحثه المتقن كل الخرافات التى أحاطت بالعهد الأعظم . كذلك أنتج جيمس ويلى James Wylie عملا خالداً فذاً عن أسرة لانكستر ويورك أما أعظم المؤرخين عن انجلترا فى العصور الوسطى فهو فردريك وليم ميتلاند وله فى انجلترا نفس المكانة التى كانت لويتز فى ألمانيا وفوستيل فى فرنسا . وخير ما أنتجه ميتلاند هو كتابه عن القانون الإنجليزى فى العصور الوسطى . ولا يوجد لهذا المؤرخ من يدانيه فى أبحاثه عن العصور الوسطى سوى المؤرخ الإنجليزى الجنسية الروسى الأصل ، بولى فينوجرادوف Paul Vinogradov . أما إدوارد جنكس Jenks فأعماله المبتكرة عن القانون فى العصور الوسطى والنظم السياسية تعتبر فى القمة . وكذلك المؤرخ الإنجليزى حنا ب . بيورى الذى تخصص فى الإمبراطورية البيزنطية إذ يعتبر من أعظم مؤرخى العالم من ناحية إلمامه بالعديد من الموضوعات فضلا عن كونه من أقدر المؤرخين على وجه الإطلاق . وعنى شارل أومان ، نورمان بينز Baynes ، بدراسة نواحى التاريخ البيزنطى . أما ستانلى لين بول ، توماس و . أرنولد ، د . س . مارجليوث ، بول دى لاسى اولرى ، رينولد نيكلسون فهم أصحاب الأبحاث الرائدة فى الحضارة الإسلامية . هذا فى حين تخصص أرنست باركر فى البحث فى الحروب الصليبية . ويعتبر سير ريموند بيزلى Beazley من أكثر المتخصصين فى جغرافية العصور الوسطى فضلا عن العلاقات مع الشرق الأقصى . أما جيمس بريس James Bryce ، هـ . أ . ل فيشر فدارت أبحاثها حول الإمبراطورية الجرمانية فى العصور الوسطى . ومن أعظم المراجع عن حكم أسرتى لانكستر ويورك ما كتبه جيمس جاردنر .

وبالنسبة للمراجع الرئيسية عن أسرة تيودور فأهمها ما كتبه جاردنر ا . ف بولارد ، هـ . ا . ل . فيشر ،، ا . د . انيس A. D. Innes ، جـ . دبرترو ، ماندل كريتون . ويعتبر بولارد وفيشر من أعظم المؤرخين الإنجليز المحدثين . أما الأعمال الرفيعة عن أسرة استيوارت فهي تلك التي كتبها جاردنر ، شارل فيرث . كذلك قام بدراسة نفس هذه الفترة حديثا كل من تريفليان ، ف . مونتاني F. C. Montagne ، ريتشارد لودج ، جـ . ن كلارك ، كيث فيلنجFeiling . ويعتبر كتاب تريفليان «انجلترا تحت حكم أسرة استيوارت» أعظم ما كتب عن ذلك العصر منذ أخرج ماكلوى كتابه تاريخ انجلترا . أما س . جـ . روبرتسون ، ا . س . ليدام Leadam ، وليم هنت Hunt ، لويس نامير Namier فقد كتبوا عن أسرة هانوفر . وهنا ينبغي أن نشير أيضا إلى أعمال التراجم التي كتبها جورج اوتو تريفليان والتي كتبها مورلى عن بيرك Burke والتي كتبها روز بيورى ووليمز عن بت الأكبر والتي كتبها ستانهوب وهولاندرز عن بت الأصغر . وكتب عن بريطانيا في القرن التاسع عشر كل من حـ . لو Low ، ل . ل . ساندرز ، حـ . م . تريفليان ، جـ . ا . س . ماريوت ، وسبنسر والبول ، جستن ماك آرثى ، جلبر سلاتر . وعن هذا العصر أيضا لدينا تراجم فذة مثل تلك التي كتبها مورلى عن جلادستون والتي كتبهـا مونى بيتى وبـاكل Buckle عن دزرائيلى. أما شارل ماستران ، ك . ل . موات فكتبا عن فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى في بريطانيا في حين تناول ا . جـ . تايلور أصول وأسباب الحرب العالمية الثانية بالتحليل . أما تاريخ المستعمرات البريطانية وتطور الإمبراطورية وتدرج السياسة الاستعمارية لهذه الإمبراطورية فقد عالجه كل من جون ا . دويل ، هـ . ا . اجرتون Egerton ، ارثر ب . كيث ، ريتشارد جب ، ا . د . اينس Innes ، حـ . ا . ويليامسون ، هارى هـ . جونستون . وأهم مرجـع عن موضـوع الاستعمار في أفريقيا هو ما كتبه هـارى هـ . جونستـون . أما تـاريخ الاستعمـار البريـطاني والإمبريالية فقد عولج في إسهاب في سلسلة من الكتب الممتازة تحت عنوان (الجغرافيا التاريخية للمستعمرات البريطانية) وأشرف على تحريرها شارل ب . لوكاس . هذا فضلا عن موسوعـة كامبردج التاريخية عن الامبراطورية التي أشرف على نشرها جـ . هولاند روى ورفاقه . وهناك موسوعة أكسفورد عن الإمبراطورية البريطانية لهربرتسون وهوارث وآخرين . أما جون . و . فورساكو فهو أهم المؤرخـين عن الجيش البريـطاني ، وكذلـك وليم ل . كلوس عن البحريـة البريطانية .

أما كتابات ستانلى ليثز Stanley Leathes وا . جـ . جرانت ، جـ . س . ك . بريدج فهى

تمثل المصادر الرئيسية الإنجليزية عن تاريخ فرنسا السياسي . كذلك كتب ف . ك . مونتاج وجـ . س . م . ماكدونالد مؤلفات عن تاريخ فرنسا فى القرن الثامن عشر . كذلك شرع هـ . مورس ستيفنس H. Morse Stephens فى عمل بحث عن الثورة الفرنسية . وإن خير من عالج هذا الموضوع من المؤرخين الإنجليز هـ . حـ . م طومبسون ويعتبر جـ . هـ . روز Rose المرجع الانجليزى الذى لاينافسه مرجع آخر عن الفترة النابولينية .

كذلك تناول المؤرخون الإنجليز بحث السياسات الاوربية والعلاقات الدولية فى القرن الماضى وقام بدراسات فى هذا الموضوع كل من جـ . ب . جـوخ ، و .ا . فيليبس ، س . ب . موات ، ادوارد هرزلتHerslet . وبالإضافة إلى ذلك ينبغى التنويه بالعمل المتقن الذى نهض به أدولفس و . وارد عن التاريخ السياسى لألمانيا الحديثة ، وهو عمل ينم عن معرفة واسعة غزيرة . ومثله الدراسات المفصلة التى أجراها وليم دوسن Dawson عن الإمبراطورية الألمانية فى العصر الحديث وفى الوقت نفسه لا يفوتنا أن ننوه بكتابات جـ . ب . جوخ عن ألمانيا المعاصرة ، وبالعمل الذى ينم عن أصالة علمية فى البحث الذى قام به ر . ن . بين R. N. Bain ، ر . د . سيتون واطسون ، د . م . والاس ، ف . هـ . سكرين ، و . ميلر عن الدول الاسكندنافية والسلافية وأوربا الشرقية . أما برنارد باريس Pares ، ا . هـ . كار فقد عالجا تاريخ روسيا فى حين كتب ب . كنج ، وجـ . م . تريفليان عن الوحدة الايطالية . وكتب م . هيوم عن اسبانيا .

ولم يغفل المؤرخون الإنجليز أمر تاريخ الكنيسة وأعظم ما تم فى هذا المجال وأقواه أثرا هو الكتاب الذى كتبه هنرى ميلمان فى وقت مبكر واسمه تاريخ المسيحية اللاتينية (الغربية) . وهناك كتاب آخر فى هذا الموضوع لا يقل عظمة كتبه هـ . م . جواتكن H. M. Gwatkin،ف . جـ . فوكس جاكسون عن الكنيسة فى عصرها الأول . وهناك أيضا هـ . ك . مان الذى كتب كتابا عن البابوية والشخصيات التى تولت ذلك المذهب . أما جـ . جـ . كولتون ، هـ . ب . وركمان فقد عالجا تاريخ الكنيسة فى العصور الوسطى وحركة الاصلاح الدينى . هذا فى حين كتب شارل بيرد ، ت . م ولندساى عن حركة الإصلاح الدينى بصفة عامة . أما جميس جاردنر ، س . و . ديكسون فلهما أبحاثهما عن حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا . وعن الحركات الدينية فى القرن الماضى فقد بحثها ر . و . تشرش ، ف . و . كورنيشCornish . أما هـ . كلارك فله بحثه عن المنشقين عن الكنيسة الانجليزية وكذلك هناك عمل مشترك خالد عن تاريخ الكنيسة الإنجليزية واشترك فى اخراجه ستيفنز وهانت .

وكان للعلماء الإنجليز أبحاثهم الهامة فى التاريخ القديم ومن أعظم الرواد الأوائل الإنجليز فى تاريخ الشرق القديم جورج رولنسن الذى ما زالت أبحاثه تحتفظ بأهميتها حتى اليوم أما وليم فلندرز بيترىpetrie فله مكانته الكبرى حتى أيامنا هذه بوصفه باحثا فى الآثار المصرية القديمة هذا بالإضافة إلى العمل الفذ عن التاريخ المصرى الذى أخرجه ت . اريك بيت . أما ليونارد وولى wooley ، ليونارد هال ، سيدنى سميث فهم من أعظم من بحثوا تاريخ ما بين النهرين (العراق) فى العصور القديمة . هذا فى حين اهتم حنا جارتناج ودافيد هوجارت بدراسة تاريخ الحيثيين أما هارى س . هـ . هال فقد تناول بالبحث والتحليل الجوانب السياسية فى تاريخ الشرق الأدنى القديم . أما جورج جروت Grote فكتب أول بحث متقن عن تاريخ اليونان . ويعتبر سير أرثر ايفانز صاحب اليد الطولى فى تصحيح معلوماتنا عن حضارة كريت القديمة . كذلك أخرج جـ . ل . مايرز كتابا فذا عن اليونان القديمة ، إذ تخصص فى دراسة الأجناس التى تكونت منها الإمبراطورية الإغريقية القديمة ، ونذين لالفرد زيمرن Alfred Zimmern ، جـ . ب . ماهانى ، جلبوت موارى بما أضافوه من معارف عن تاريخ الأنظمة والتاريخ الثقافى عن اليونان . أما المؤرخ جـ . ب . بيورى فله كتابه الرائع عن تاريخ الإغريق . كذلك عالج إريك بت Eric Peet أحوال إيطاليا فى عصر ما قبل التاريخ . وبحث ا . هـ . جـ . جريدنج كل جوانب التاريخ الرومانى . واخرج وليم هيتلاندHeitland نموذجا جيدا عن التاريخ السياسى للجمهورية الرومانية . وكذلك قام وليم أرنولد بدراسة نظم الحكم فى الإمبراطورية الرومانية . أما ت . ريس هولمس فيعتبر مرجعاً رئيسيا عن غزوات قيصر لبلاد الغال. أما و . وارد فولر W. Ward Fawler فقدم أبحاثا هـامة عن التاريخ الرومانى الاجتماعى والدينى . وتعتبر موسوعة كامبردج الخاصة بالتاريخ القديم التى أشرف على تحريرها بيورى وآخرون أحسن مصدر لكل الحقائق والمعلومات الخاصة بالتاريخ القديم . أما جـ . ل . مايرز فقد فاق من عداه من الباحثين فى التاريخ القديم ، وهوالإنجليزى الوحيد الذى يطابق ادوارد ماير . أما أحسن كتاب تاريخى رفيع المستوى ويتصف بالعمق عن الدراسات القديمة من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر فهو الكتاب الذى يحمل اسم جون . ا . سانديز .

فإذا انتقلنا إلى أساتذة التاريخ الإنجليزى الذين بذلوا ما فى وسعهم ليبثوا فى تلاميذهم الروح المثالية للمدرسة الناقدة التاريخية الحديثة ، فضلا عن إثارة الاهتمام فيهم لتقصى الحقائق التاريخية ، فإننا نذكر منهم فريمان ، سيلى ، اكتون ، ستيلاند ، تاوت ، بولارد . ويعتبر هذا الاخير

أكثرهم تأثيرا وأوسعهم نفوذا . وكما أن كتاب روبرتسون عن تاريخ اسكتلنده يمثل طفرة واسعة بالنسبة للكتاب السابق الذى أصدره جورج بوكانانBuchanan . فإن الكتب والأبحاث التاريخية التى ألفها عن اسكتلنده كل من بطرس هيوم براون ، روبرت ماكى ، جون هيل بيرتون تعتبر طفرة بالنسبة لكتاب روبرتسون . أما خير ما كتب عن تاريخ إيرلنده فهى الكتب التى كتبها ادوارد دالتون ، فلورنس ريت Florence Wright ، أدموند كورتز ، روبرت دنلوب ، جيمس بيكت ، ماري ت . هايدن ، اليناور هلHull .

المدرسة التاريخية الناقدة فى بقية البلدان الأوربية

حال « سلطان الرقابة » فى روسيا دون تطور المدرسة التاريخية الناقدة فيها . ونذكر مثالا لذلك كيف حيل بينى ، فازليف بليازوف Vasiliev Bilasov وبين المضى فى مشروعه الطموح لعمل ترجمة دقيقة لحياة كاترين الثانية . وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر عدد من الأساتذة المؤرخين الروس على أرفع مستوى علمى . ومن بين هؤلاء الذين تخصصوا فى دراسة التاريخ العام لروسيا سرجيوس سولفييف ، وسرجيوس بلاتانوف ، فاسيليف كولشفسكى . أما سولفييف فأنتج أول دراسة تاريخية متكاملة ومتقنة عن روسيا اتبع فيها المنهج العلمى الحديث . وأما إنتاج كولشفسكى فلعله أحسن دراسة للنظم فى روسيا . وعن السياسة الداخلية لروسيا الحديثة كتب الكسندر كورنيلوف دراسة تاريخية على أرقى مستوى . هذا فى حين تناول م . ن . بوكروفسكى التاريخ الروسى بأسره من وجهة النظر الماركسية فى عمل ينم عن تعمقه فى البحث وقدرة على الخلق والتصوير والإبداع . كذلك يبدو أن بولس ميلنخوف Paul Milinkov استطاع فى كتابه أن يفوق كل ما سواه فى نظرته للخط العام الذى تطورت فيه السياسة الروسية التى نظر اليها من وجهة نظر متحررة . أما مكسيم تونالسكى فإن عمله يدل على نبوغ كبير إذ حلل الأسس الاجتماعية لتطور الانظمة السياسية الروسية ، هذا فى حين عالج فاسيليف سرجيفيتش التطور القانونى والسياسى فى روسيا . وكتب لوديك كولكزيكى Ludwik Kulezycki بحثا حدد فيه معالم ثورة سنة ١٩٠٥ وأخرج ليون تروتسكى تاريخا خالدا عن ثورة سنة ١٩١٧ .

ثم إن المؤرخين الروس كانت لهم أبحاثهم الهامة التى عالجوا فيها تاريخ باقى دول أوربا . ومثال ذلك ما كان لبحث إيفان لوشسكى من فضل فى تغير معلوماتنا عن حالة الفلاح الفرنسى

قبل الثورة . وكذلك ألقى الكسندر سافن Savin الضوء على تاريخ الأرض الزراعية الإنجليزية في العصر الحديث ، بينما استطاع بولى متروفانوف Paul Mitrofanov أن يقدم أحسن الأبحاث عن عهد جوزيف الثانى إمبراطور النمسا . وقد تمكن عدد من المؤرخين الروس ممن نفوا من بلادهم من انتاج عدد من الدراسات القيمة . فحين فر بولس فينوجرادوف من ظلم القياصرة أصبح أقدر مؤرخى العصور الوسطى فى انجلترا ، بعد موت ماتيلاند هذا فضلا عما كان لفينوجرادوف من إنتاج ممتاز فى مجال التاريخ العام والأنظمة التشريعية وعن تاريخ القانون . كذلك فر ميخائيل روستوفتسف والكسندر فاسيليفVasiliev من اضطهاد البلاشفة لهم وصارت أبحاث الأول أحد المصادر الكبرى عن التاريخ القديم وبخاصة التاريخ الاقتصادى للفترة الهيلنية وروما . فى حين كتب الثانى أحسن الأبحاث فى التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية . وقد ظهر فى عهد البلاشفة أكبر حشد من المؤرخين الماركسيين عرفهم العالم . وهؤلاء أشرف على أبحاثهم وتولى توجيهها بوكروفسكي وخلفاؤه مثل م . ن . تيكوميروفTikhomirov ، م . ا . الباتوف .

وحين ننتقل إلى أسبانيا نجد أنها أنجبت مؤرخين علماء مثل ميندز بيدال Menedez الذى تعتبر كتاباته المنشورة حجة فى تاريخ القرن الحادى عشر . أما بيلاستيروزي بيرتا Bellaster-osy Beretta فألف أحسن الأبحاث عن التاريخ العام الأسبانى ، بينما عنى روفائيل التاميراي كرفيا بالتأريخ للحضارة الأسبانية . أما ادواردو بيجول بيرز Edwardo Pujol Perez فيعتبر حجة فى الأنظمة الاجتماعية ، ويقال نفس الشيء عن ادوارد هينوجوسا بالنسبة لأبحاثه عن القانون الأسبانى . هذا كله بالإضافة إلى المؤرخ الاقتصادى القدير جاييم بوجال .

أما إيطاليا فتدين ببعض الشيء لموراتوري Muratori ولكنها تدين أكثر لفون رانكه والمدرسة الألمانية نظرا لما ظهر فى إيطاليا من أبحاث تنتمى إلى هذه المدرسة الناقدة . وقد كتب روملو كاجسى Rommelo Caggese أحسن كتاب عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى . أما جوسيب دى ليفا فقد كتب بمهارة فائقة عن إيطاليا خلال حكم شارل الخامس . كذلك أخرج الفردو كافيريني أول عمل ينم عن علم غزير عن إيطاليا خلال القرن التاسع عشر . أما فرانسسكو روفينى Ruffini فكان أستاذ الباحثين فى عصر كافور . كذلك كان لعلماء التاريخ فى إيطاليا أبحاثهم عن التاريخ الرومانى . فكتب جيتانو دى سانكتس خير بحث عن تاريخ الجمهورية الرومانية ، وأعاد كورادو بارباجلو بحث موضوع مدى حجة المصادر التاريخية عن فجر تاريخ روما . أما جو جليلمو فيريرو Guglielmo Ferrero فقد أثار إعجاب علماء التاريخ

بأبحاثه عن التاريخ الروماني وتعليقاته واستنتاجاته التي اتسمت بالجرأة والابتكار ، في حين اتصفت أبحاث اميلو كوستا Emilio Costa واريجو سولى Solmi عن القانون الروماني بالمتعة وقوة التأثير .

كذلك وجدت المدرسة التاريخية الحديثة من يمثلها في سويسرا ، فأنتج كل من يوحنا ديراور ، وكارل داندليكر ، وبارتولد فان ميودن أبحاثاً عن تاريخ سويسرا العام تنم عن مقدرة كبيرة . أما ادوارد هيس His فقد كتب أحسن الأبحاث عن تاريخ القانون العام السويسرى . ونجد لالفرد شترن Stern أعظم ما كتب عن تاريخ أوربا السياسى فى الفترة من ١٨١٥ ـ ١٨٧٠ وأخرج إدوارد فيوتر بحثه الهام والمبتكر عن تاريخ سويسرا وأوربا منذ الثورة الفرنسية فضلا عن كتابه عن تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة .

وفى بلجيكا أنتج هرمان فان دور ليندن Herman Van der Linden ، هنرى بيرن ، ما يمكن اعتباره خير ما كتب عن التاريخ العام لبلجيكا . أما بيرين Pirenne فهو صاحب الدراسات الفذة عن المدن فى العصور الوسطى وعن الديموقراطية فى بلجيكا ، وعن التاريخ الاقتصادى فى العصور الوسطى . ونذكر أيضا من بين المؤرخين البلجكيين إسحق جوسس Isaak Gosses ب . جـ . بلوك P. J. Block ، بطرس جيل Pieter Geyl وجميعهم كتبوا مؤلفات قيمة عن تاريخ الأراضى المنخفضة . أما هرمان كولنبراندر Colenbrander فهو رائد علماء التاريخ فى هولندا وأستاذ الباحثين فى تاريخ هولندا فى عهد الثورة الفرنسية وعصر نابليون . وكذلك روبرت فرون Fruin الذى تعتبر كتاباته من أهم المصادر عن التاريخ الدستورى فى الأراضى المنخفضة . أما خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية فى الدانمرك فهو يوحنا ستنستروب Johannes Steen-strup آجا فريس Aagae Frus ومساعداهم .

وفى النرويج نجد خير من يمثل هذه المدرسة هالفون كوهو ، ألكسندر بوج ومساعدوه . وفى السويد يبرز اسم مؤرخ الثقافة السويدية يوحنا شك Johannes schuck كما توجد أحسن الأبحاث المشتركة فى تاريخ السويد التى أشرف عليها اميل هليد براند . ويوجد فى بولندا مؤرخون ينتمون لهذه المدرسة فحل محل كتاب مدرسة التاريخ القومى من أمثال ليلويل مؤرخون يتبعون المنهج العلمى أمثال أوغسط سوكولوسكى August Sokoluski ، أدولف اميلندر . أما كاميل كاتناك Katnak فهو صاحب العمل التاريخى المشهود له بالدقة والصحة عن تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فى بولندا ، وقد كتب بحثه من وجهة نظر مؤيدة للكاثوليكية .

وفى تشيكوسلوفاكيا حلت محل أعمال المدرسة التاريخية القديمة التى مثلها بلاكى أبحاث اتبعت المنهج العلمى السليم مثل تلك التى كتبها يوسف بيكار Peckar . فاكلاف نوفوتيفى Vac-lav Novotny . وفى المجر كانت أعظم الأعمال أهمية فى مجال الكتابة التاريخية فى القرن العشرين هى ما كتبه فالذمين هومان عن التاريخ المجرى بالاشتراك مع جوليوس سزكفو Jufuis Szekfu. أما ايوجين هورفات فقد أخرجت أحسن الأبحاث عن المجر وعن أصول الحرب العالمية الأولى . أما فى رومانيا فإن مدرسة اكزينوبول حلت محلها أبحاث العلماء العمالقة مثل نيقولا يورجا . وفى بلغاريا كان خير من يمثل هذه المدرسة التاريخية م . س . درينوف ، ف . ن . زلاتارسكى . فى يوجسلافيا فقد مثلها ستويان نوفاكوفيك ، جوفان رادونك ، ستانجو ستانجوفك Stonoyie Stanoyevic .

الكتابة التاريخية الناقدة فى الولايات المتحدة الامريكية

ترجع نشأة المدرسة التاريخية الناقدة فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى حوالى وقت انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية . وتدين المدرسة الامريكية الحديثة فى بدء وجودها إلى حد كبير إلى الأثر الذى أحدثته المدرسة الألمانية حيث ان جورج بانكرفت استمع فى الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى محاضرات هيرمين فى جامعة جوتنجن ، ثم درس بعد ذلك فى برلين وأصبح صديقا لفون رانكه . وإذا كان بانكرفت ليس له إلا تأثير ضئيل على المناهج العلمية التاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية بسبب عدم شغله لإحدى وظائف التدريس بالجامعات ، إلا أن ذلك لاينبغى أن يحول دون الاعتراف بأنه صاحب الفضل فى نقل نشاط المدرسة الألمانية إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية .

أما البداية الحقة لتطبيق المناهج الألمانية السليمة فى الولايات المتحدة فترجع إلى سنة ١٨٥٧ وذلك حين بدأ ثلاثة من أساتذة الجامعات نشاطهم فى ثلاث جامعات أمريكية أولهم هنرى كورى الذى خلف سباركس فى جامعة هارفارد وفرانسيس ليبر الذى شغل منصب الأستاذية فى كولومبيا ، واندرو هوايت الذى قبل أن يشغل كرسى للتاريخ فى جامعة ميتشجان . والمهم هو أن هؤلاء الأساتذة الثلاثة تلقوا تعليمهم جميعا فى ألمانيا وعلى أيديهم وجد رباط بين المدرستين التاريخيتين الألمانية والأمريكية . وبالإضافة إلى ذلك فان أندرو هوايت تأثر بالمدرسة الفرنسية فى

شخص جيزو . ولم يقصر تدريسه على نطاقه السياسي الضيق بما يحويه من تقسيم زمني فحسب ، وهي الطريقة التي التزم بها أشد الناس التزاما بمنهج فون رانكه والتي سارت عليها المدرسة البروسية .

ثم كان أن لقيت المدرسة التاريخية الناقدة في أمريكا دفعة قوية بفضل قيام هربرت باكستر آدمز بتدريس التاريخ في جامعة هوبكنز في سنة ١٨٧٦ بعد أن أنهى نشاطه مباشرة في جامعات جوتنجن ، هيدلبرج وكلها جامعات ألمانية . ولا ينسب لآدمز فقط إدخاله طريقة حلقات البحث للدراسة والتعليم في أمريكا على غرار حلقات البحث الألمانية ، وإنما ينسب إليه أيضا إنشاؤه وتنظيمه أول مدرسة لتدريب المؤرخين في الولايات المتحدة الأمريكية . ومع بداية القرن العشرين أصبح من النادر وجود جامعة أمريكية كبيرة ليس بقسم التاريخ فيها واحد أو أكثر ممن تدربوا في حلقات بحث هوبكنز . وكانت الأبحاث التي قدمت في حلقات البحث تمثل أول حصيلة مدونة من نتاج المدرسة التاريخية الناقدة في أمريكا وللنظريات التاريخية الممثلة للمدرسة الألمانية .

ويمثل الأستاذ جولد وليم برجس شخصية لها دورها القيادي في إدخال مناهج المدرسة الألمانية والاقتداء بها في أمريكا . وكان برجس قد بدأ عمله في جامعة أمهرست سنة ١٨٧٣ بعد دراسته التي تلقاها في جامعات جوتنجن وليبزج وبرلين . وإليه يرجع الفضل في تأسيس كلية العلوم السياسية الشهيرة التابعة لجامعة كولومبيا سنة ١٨٨٠ وهي التي ناقشت في أبحاثها بل تفوقت على أبحاث حلقات بحث جونز هوبكنز . وإذا كان آدمز قد قدر قيمة المناهج السليمة للمدرسة الألمانية ، إلا أنه كان وافر الثقة في قدرة الأساتذة الأمريكيين على شرح وتطبيق استيعاب هذه المناهج . لكن الأستاذ برجس على العكس من ذلك كان مقتنعاً بأن الأمريكيين على أحسن الفروض لن يكونوا سوى محاكين لنتاج العبقرية الألمانية ومقتبسين منها ، من ثم فإنه نصح طلبته بأن يتموا دراستهم في ألمانيا . وكان أن استجاب طلبته لنصيحته وذهبوا إلى ألمانيا في حشد كبير على حد قول الأستاذ آدمز حتى أصبحوا معروفين هناك (في ألمانيا) «بكلية الأستاذ برجس وتلاميذ مدرسته » . وقد قصد هؤلاء الطلبة ألمانيا للاستماع إلى محاضرات درويزن وعادوا من هناك مشبعين بالروح الألمانية وبروح درويزن في الاهتمام بدراسة التاريخ السياسي وبآراء ليوبولد فون رانكه في كتابة التاريخ .

وبالاضافة إلى جهود كل من جون هوبكنز وجامعة كولومبيا فان المناهج الحديثة برزت في جامعة مينشجن تحت إشراف شارل ك . آدمز ، وفي جامعة كورنل تحت اشراف الرئيس الأمريكي

هويت ، ول . ك . آدمز ، م . ك . تايلر ، جـ . ل . بير Burr . هذا فى الوقت الذى حمل افرايم امرتون Ephraim Emerton ، ادوارد شاننج فى جامعة هارفارد عبء المضى قدما بهذه المناهج الحديثة التى حمل لواءها هنرى آدمز فى السبعينات من القرن الماضى . أما فى الوقت الحاضر فقد بسطت المدرسة الحديثة لواءها على كل جامعات أمريكا ولم يعد الطلبة الدارسون للتاريخ بحاجة على حد قول الأستاذ جوخ لتلقى تعليمهم بالخارج . ففى حلقات البحث التى أدارها عدد من كبار الأساتذة الأمريكيين لم يعد الطالب الأمريكى الجاد فى بحثه بحاجة إلى تلقى تدريبه بالخارج ، اذ صار مستوى هذه الأبحاث لايقل عن مستوى مثيلتها بالخارج . ومن هؤلاء الأساتذة نذكر هربرت . ل . اوزجود ، وليم ا . دانتج ، جورج بيرتون آدمز ، جـ . ف . جميسون ، فردريك جاكسون تيرنر ، جورج لنكولن بير ، ادوارد شاننج . أما ادوارد جـ . بورن ، دانا ك . مونرو Dana C. Munro ، شارل هـ . هاسكنز ، فرديناند شيفل ، كارل بيكر ، ك . هـ . ماك ايون ، جيى س . فورد Guy S. Ford ، و . س . موزى ، ايفارتس جرين وغيرهم كثيرون .

ثم كان أن حل النفوذ الفرنسى إلى حد ما محل النفوذ الألمانى على المدرسة الامريكية فى السنوات الأخيرة ، وأصبح معظم الباحثين الأمريكيين فى تاريخ العصور الوسطى ينهون تدريبهم فى مدرسة الوثائق الفرنسية وهى المدرسة التى لا نظير لها فى أمريكا . وقد بذل عدد من الأساتذة الأمريكيين أمثال آدمزوبورن وماسى وفنسنت وايرل دو ، وفوستر وآلن جونسون وهوكت وترون R. M. Tryon جهدهم للارتفاع بمستوى منهج البحث لكن خير ما أنتجوه فى أمريكا لا يمكن أن يرقى إلى مستوى انتاج برنا نهايم أو وولف ، أو لانجلوا أو سيجنوبوس Seignobos.

ويصبح الكلام عن إدخال المناهج الحديثة فى الكتابة التاريخية مبتورا ما لم نشر إشارة عابرة إلى انتاج الأستاذ ألبرت بوشنل هارت الأستاذ بجامعة هارفارد . حقيقة أنه لم يساهم بشىء يستحق التنويه من ناحية تطوير المنهج العلمى النقدى فى كتابة التاريخ ، ولكن مما لا شك فيه أنه رائد رواد تطوير الأبحاث العلمية فى مجال التاريخ الأمريكى ونظام الحكم فى أمريكا ، فضلا عن مقدرته كمؤلف وفيما أحدثه من نشر المناهج التعليمية فى البحث . والواقع أنه جمع فى مقدرة تامة بين ما يحرص عليه الامريكيون من ضخامة الإنتاج واهتمام بالكم ، وبين التزام هذا الإنتاج بمناهج البحث التاريخية .

وهناك من الأبحاث الأمريكية ما التزم أصحابها بالمنهج النقدى حتى بلغت من المستوى ما يجعلها جديرة أن تقارن بأحسن الأبحاث فى أوربا . وكان لهذه الأبحاث فضل فى تصحيح

الأفكار والآراء الخاصة بالتطور القومي الأمريكي . فالاستاذ هربرت ليفي اوزجود تناول في كتابه فترة خضوع الولايات المتحدة الأمريكية للاستعمار الأجنبي . وكان اوزجود قد درس على يد برجس وفون رانكه . واعتبر كتابه الخالد الذي يقع في سبعة مجلدات والذي صدر باسم (تاريخ المستعمرات البريطانية في أمريكا) من أرقى ما يمكن أن يصل إليه بحث التزم بمنهج المدرسة الأمريكية وهو كتاب جدير بأن يقارن بكتابات جاردنر ، أولارد . كذلك كتب جورج لويس بير بالاشتراك مع ل . هـ . جيبسون Gipson وآخرين كتابا في عدة مجلدات لدراسة علاقة المستعمرات البريطانية في أمريكا بالسياسة الخارجية البريطانية . أما شارل م . اندروز فقد جمع بين النظرة الناقدة الباحثة والمفهوم الواسع للتاريخ الذي يفوق دائرة مفهوم اوزجود . وكان ذلك كفيلا بأن يجعله على رأس قائمة المؤرخين الذين عالجوا فترة الاستعمار البريطاني للولايات المتحدة الأمريكية . كذلك أكمل جيمس ترسلو آدمز عمل شارل فرانسس آدمز للإجهاز على أسطورة البيورتان . جاء كتابه عن تاريخ استعمار ولاية ماسوشت بأمريكا أحسن ما كتب في هذا الموضوع . أما ا . جـ . بورن E. G. Bourne ، وهربرت ايوجين بولفن فقد قدما وجهة نظر جديدة بالنسبة لدراسة تاريخ الاستعمار وذلك بأن جمعا بين ما اهتم به المؤرخ بريسكوت وبين التمسك بالمنهج العلمي مع تأكيدهما أهمية دور الاستعمار الأسباني بالنسبة لتاريخ أمريكا الشمالية في دوره الأول . أما ايفارتس ب . جرين فقد نجح بوصفه مؤرخا متحفظا مدققا في أن يرقى إلى المركز الذي وصل إليه من قبل الأستاذ اوزجود ، وذلك في الكتاب الذي ألفه عن عصر الاستعمار الاجنبي في أمريكا . وثمة كتاب ألفه الأستاذ كلارنس و . ألفورد واتسم بالابتكار والتعمق ـ هو الكتاب الذي يحمل اسم «وادي المسيسبي في السياسة البريطانية». وقد أوضح كلارنس في هذا الكتاب لأول مرة المشاكل الإدارية بالنسبة للاستعمار البريطاني في غرب ألجني وذلك في الفترة الأولى لقيام الثورة الأمريكية . واستطاع أن يغير في بحثه من المفهوم الدارج بأن بداية الصراع بين الاستعمار والثورة كان في ميناء بوسطن . كذلك أوضح ارثر م . شليزنجر الأسس الاقتصادية والتجارية للثورة الأمريكية . أما س . هـ . منستر ، ا . ك . فليك ، جـ . هـ . سيبير ، م . ك . تايلر ، ك . هـ . فان تين ، فقد أنصفوا في دراستهم أولئك الموالين للاستعمار خلال الثورة الأمريكية ومثل ذلك يقال عن فان تين الذي أنتج أفضل كتب التاريخ عن الثورة الأمريكية . وكتب كارل ل . بيكر هو الآخر أعظم الكتب المبتكرة عن الأسس الثقافية للثورة ، كما شرح موضوعها . أما الأستاذ ماكس فراند Max Farrand فعالج فترة تكوين الدستور الأمريكي في كتاب مفصل ناقد . كذلك تعرض الأستاذ بيرد في بحث ممتع لنفس تلك الفترة عندما تناول

الأسس الاقتصادية للدستور . واستعرض الأستاذ حنا باخ ماك ماستر فى كتابه فترة السبعين الأولى من الاستقلال الامريكى وهو كتاب يدل على علم صاحبه فضلا عن اتساع أفقه بدرجة لم تتوافر لأى باحث أمريكى آخر . ذلك أنه ضحى بالشيء الكثير لكى يجعل البحث فى التاريخ الاجتماعى أمرا مطروقا شائعا فى الولايات المتحدة الامريكية وثمة كتاب مفصل لهنرى آدمز عن السياسة الأمريكية الخارجية على عهد جيفرسون وماديسون . ومع أن موضوع الكتاب محدود وضيق إلا أنه يتصف بالعمق أكثر من غيره . كذلك جمع الأستاذ فردريك جاكسون تيرنر ومن خلفه من الكتاب مثل باكسون ، بيلنجتون ، بيلى بين عمق البحث الذى اتصف به اوزجود وبين ما اتصف به ماك ماكستر من قدرة على الخلق والابتكار وتعدد الاهتمامات . وظهر ذلك فى ابحاثهم عن استعمار الجزء الغربى من الولايات المتحدة الأمريكية واتساع حدود أمريكا فى ذلك الجانب . وفاقت أبحاثهم من جميع النواحى العلمية بحث تيودور روزفلت الممتع والمفيد .

والواقع أن مدرسة تيرنر Turner فى أمريكا تمثل أحسن النماذج فى القدرة على الربط بين البحث المتعمق السليم وبين الاتجاه الحديث فى كتابة التاريخ من حيث مراعاة جودة الصياغة والإبداع فى الإخراج . أما ملحمة فون هولت التى هاجم فيها الرق فقد عدل فيها كل من وليم ا . رود ، ألرخ ب . فيلبس وآخرون بإدخال وجهة نظر الولايات الجنوبية وتناول جميس فورد رودس فى بحث يجمع بين الاتزان والإسهاب موضوع الحرب الأهلية الأمريكية ثم مدة التعمير والبناء التى أعقبتها . أما مقدمات هذه الحرب فضلا عن الحرب نفسها فإنها كانت موضع بحث محكم من إنتاج آلان نينين وج . راندال . ثم تناول الأستاذ وليم ا . داننج وتلاميذه الفترة التى أعقبت الحرب الأهلية بالدراسة . كما عالجت أليس ب . أوبرهولتزر ـ وهى تلميذة الأستاذ ماك ماستر ـ تاريخ شعب الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأهلية ، واتسم بحثها بالابتكار واستهداف الكمال . ثم أوجز جميس شولر بطريقة ممتعة كل مراحل التاريخ القومى للولايات المتحدة الأمريكية ، واتسم بحثه بالاتزان . أما الأستاذ شاننج فقد نهض بجهد ضخم لتتبع تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ عصر الاستعمار حتى الوقت الحاضر وذلك فى عمل جدير بأن يعتبره الأمريكيون تاريخهم القومى العظيم ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان . أما خير الأبحاث الموجزة عن التاريخ الأمريكى التى جمعت بين مزيد من المعرفة ووفرة للمادة وبين المنهج العلمى فتكاد تتمثل فى كتاب د . س . موزى muzzey وعنوانه (الولايات المتحدة الأمريكية) وعن التاريخ الدستورى للولايات المتحدة الأمريكية فقد بحثه فى مقدرة فائقة كل من ا . ك . ماك لالن

Laughlin ، ا . س . كورون E. S. Corwin ، جـ . س . لاندون J. S. Landon أما العمل المشترك الذى أشرف عليه جوستين ونسور فيمثل قمة ما بلغته المدرسة التاريخية الأمريكية من مستوى فى عهدها الأول ، حين تشرب رجالها بالمناهج النقدية الحديثة . وهناك نموذج متكامل يصور المدرسة الأمريكية فى أحسن صورها وهو ما كتبه الأستاذ ألبرت بوشنل هات hart ، تحت عنوان الأمة الامريكية . وهناك عمل أكثر شمولا قام به ألن جونسون وأسماه (أحداث أمريكا التاريخية) أما هـ . س . كوماجر ، س . ب . موريس ، فقد أتما عن قريب عملا جديدا أسمياه (الأمة الأمريكية) .

وبالإضافة إلى أبحاث المؤرخين الأمريكيين عن تاريخ بلدهم فإن لهم أبحاثهم الهامة عن عصور أخرى ومراحل عديدة من التاريخ فالأستاذ جيمس هنرى برستد له مكانته بين رواد الباحثين الرئيسيين فى التاريخ المصرى القديم والأثريات المصرية . وكان برستد أول من استخدم الأجهزة الميكانيكية فى الكشف عن آثار الشرق الأدنى القديم . وكذلك قام جاك فنجان بتصحيح التواريخ الخاصة بالعصر القديم وتلك المنطقة بالذات ـــ وتبرز أسماء ر . و . روجرز ، موريس جاسترو ، أ . ت . أولمستد ، ج . س . جودسبيد ممن ينبغى الإشارة إليهم لما لهم من أبحاث قيمة عن تاريخ البابليين والآشوريين . أما الأستاذ و . س . فرجسون فتعتبر أبحاثه من أهم المراجع العالمية عن الامبراطورية الإغريقية وأثينا الهيلينة . وإذا ما انتقلنا إلى و . ل . وسترمان نجده تناول فى صورة مبتكرة دراسة نظام الحكم فى الولايات الإمبراطورية الرومانية ودراسة التاريخ الاجتماعى القديم مع العناية بموضوع الرق فى العصور القديمة . أما تينى فرانك ، فرانك ف . ابوت . جرانت شويرمانShowerman فكانت لهم أبحاثهم التى تنم عن دراسة واسعة بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لروما . كذلك تناول ج . د . بوستفورد ، ه . أ . كالدول ، دراسة التاريخ القديم دراسة اتسمت بنفاذ البصيرة وتعمق البحث ، أما ج . و . سوان Swain ، أ . أ . تريفرAA Trever ، رالف تيرنر فقد تناولوا فى أبحاثهم كل جوانب التاريخ القديم .

أما فى مجال تاريخ العصور الوسطى فهناك جورج لنكولن بير الذى يعتبر حجة الباحثين عن العصر الكارولنجى وثقافة العصور الوسطى ، كما أنه لا يوجد من ينافسه فى أوربا أو أمريكا فى دراسته لموضوع حق الأفراد فى إبداء آرائهم وحرية معتقداتهم الدينية . كذلك بحث ل . م لارسون تاريخ انجلترا فى أوائل العصور الوسطى كما تناول جيمس وستفال طومسون موضوع نشأة الملكية الفرنسية على عهد لويس السادس ، مثلما بحث تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى كذلك كان دانا

Dana مونرو واحداً من أقدر المؤرخين الأمريكيين الذين تخصصوا فى دراسة تاريخ العصور الوسطى وخاصة موضوع الحروب الصليبية . أما شارل . هـ . هاسكنس فقد بحث تاريخ النورمان ودورهم فى أوربا فى العصور الوسطى واتصف بحثه لهذا الموضوع بالإتقان والدقة التى لا يدانيه منها أى باحث آخر أمريكيا كان أو أوربيا . ولا نجد بين علماء الإنجليز من يقارن بجورج بيرتون آدمزسوى القلة القليلة وذلك بالنسبة لتعمقه فى دراسة التاريخ الدستوى لانجلترا فى العصور الوسطى أما أرنست ف . هندرسون فقد أوجز النتائج التى وصلت إليها الأبحاث الحديثة عن تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى والحديثة . كذلك نهج أفرانيم امرتون منهجا علميا فى ابحاثه المسهبة عن تاريخ العصور الوسطى فى كافة مراحلها أما لين ثورنديك فاتصفت أبحاثه فى تاريخ العصور الوسطى بالمنهج العلمى والابتكار وخاصة كتابه الكبير عن الحياة الفكرية والعلمية فى العصور الوسطى . واستطاع هنرى اوزبون تايلور أن يكتب كذلك خير كتاب عن تاريخ الفكر فى العصور الوسطى . أما جيمس وستفال طومسون فقد عالج تاريخ أوربا فى العصور الوسطى من كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية علاجا موجزا مركزا جعل له مكان الصدارة لا بين المؤرخين الأمريكيين فحسب بل بين غيرهم ممن تخصصوا فى تاريخ تلك العصور . وهناك من المؤرخين الأمريكيين فرديناند شيفل الذى أبدع فى كتابه عن التاريخ الثقافى لعصر النهضة كما أنه خير من كتب عن تاريخ فلورنسا .

أما الأستاذ بريزرفدسميث فقد تصدر الباحثين الامريكيين الذين عالجوا عصر الإصلاح الدينى ، وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخ . م . هولم Hulme إذ أوجز العلاقات الخاصة بعصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى .

وإذا كانت لدينا الآن نظرية مبتكرة ومقبولة بوجه عام تنادى بأن بداية العصر الحديث إنما ترجع إلى حركة الاستعمار الأوربى أكثر مما ترجع إلى عصر النهضة أو عصر الإصلاح الدينى . فإن هذه النظرية كانت مدار الابحاث الممتعة التى كتبها كل من و . ر . شيفرد ، و . ك . ابوت ، ج . ب . بوستفورد ، ج . ا . جيليبس ، ا . ب . شيتى ويعتبر ما قام به الأستاذ شيفرد من دراسات عن حركة الاستعمار الأوربى — وذلك بالإضافة إلى عمل ف . ج . تيرنر — من أحسن ما قام به أى مؤرخ أمريكى آخر من حيث الاستفاضة والشرح المبتكر أما أبحاث كل من هـ . م . ستيفنس ، ف . م . فلنج ، و . م . سلون ، هنرى . ا . بورن ، كارل بيكر وتلامذته ليو جيرشوى Gershoy ، لويس جوشول ، فقد أضافت الشيء الكثير إلى معلوماتنا عن عصر الثورة الفرنسية ونابليون .

وعالج وليم روسكو تير Thayer تاريخ إيطاليا منذ نهاية عهد نابليون حتى إتمام وحدتها . وكذلك فعل كل من هندرسون ، وشيفل و ، ج . س . فورد بالنسبة لتاريخ ألمانيا الحديثة . أما ر . ف . ميرمان R.B. Merriman فقد بحث في كتاب على جانب كبير من الأهمية تاريخ الإمبراطورية الأسبانية وثمة كتاب ممتاز عن التاريخ الإنجليزى كتبه ا . ب . شينى W.B. Cheyney وا . ل . م لارسون ، ا . ل . كروس ، و . ا . لنت Lunt وآخرون . كذلك كتب المؤرخ شينى بحثا له قيمته وعلى مستوى كبير من الناحية العلمية عن السنوات الأخيرة في حكم اليزابيث . وأنتج س . هـ . ماكلوين Maclwain عدة أبحاث علمية عن تاريخ النظرية السياسية وجذور الحكم النيابى . أما ا.هـ . ليبير فكان المؤرخ الأمريكى الرئيسى الذى اختص بعنايته بتاريخ الحضارة البيزنطية والأتراك وأسهم س . م . اندروز ، س . د هازن ببعض القصص السياسى عن تاريخ أوربا الحديث .

وشهدت الولايات المتحدة الأمريكية في شخص الأستاذ جون باست مور باحثا له من غزارة المعرفة ما جعل منه حجة في تاريخ القانون الدولى والدبلوماسى . أما أبحاث كل من د. ج . هيل ، ج . فوستر ، أ . ك . كولدج ، ل . ر . فيش ، ك . ك . تانسفيل ، و . ل . لانجر ، ج . د . سوان Swain ، ر . ج . سونتاج ، باركرت ، مون ، ر . ل . بل Buell، ح . هـ . بلاكسلى Blakeslee ، س . ف . بميس Bemis فقد تناولت العلاقات الدولية المعاصرة .

أما عن الأحداث السياسية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى فقد بحثها و . ب . لانجر ، س . ب . فاى ، ر . ج . سونتاج ، أما خير مرجع عن دخول أمريكا الحرب فهو ذلك الذى كتبه ك . ك . تانسيل بعنوان ، « أمريكا تدخل الحرب » ، وأخيرا فإن د . ل . هوجن D.L. Hoogeanأخرج الكتاب الوحيد الشامل عن أسباب الحرب العالمية الثانية .

ومن بين المؤرخين الأمريكيين الذين أبدوا مقدرة فائقة بصفة خاصة في مجال دراسة تاريخ أمريكا اللاتينية تبرز أسماء و . س . روبرتسون ، ج . ف . ريبىRippy ، هـ . أ . برستلى ، برنارد موسس ، ل . و . هاكت ، ك . هـ . هارنج ، أ . ك . باركر ، ك . أ . شايمان ، فرانك تاننبوم ، د. م . دوزد . ج . مونرو . هيوبرت هيرنج ، ك . ك . جونز Jones .

كذلك كتب المؤرخون الأمريكيون أبحاثا تاريخية علمية أخرى عن أمريكا الأسبانية نختار منها بصفة خاصة كتابات باروس آرانا ، أورتجاى روبيو ، الجاندرو الفاريز ، أوليفيا إليا وآخرون . أما كارل وتيك wittke ، ج . ب . بريبر Brebner J.B. فلهما أبحاثهما عن تاريخ كندا . كذلك

قام ج . ت . شوتويل بعمل سلسلة مستفيضة من الدراسات عن العلاقات الأمريكية الكندية .

وعن تاريخ الشرق الأقصى هناك عدة كتب ممتازة ألفها س . ك . هورنبك **Hornbeck** ، تايلر دينت ، ك . س . لاتوريت ، أ . ت . وليامز ، هـ . م . فيناك ، ب . ج . تريت **Treat** وا ، و . جريز ولد ، ناثينال بفر **Natheaniel paffer** ، ب . هـ . كليد **Clyde P.H.** ، و . ل . نيومان .

كذلك كان تاريخ المسيحية والكنيسة موضوع اهتمام عدد كبير من الباحثين الأمريكيين . ومن الأبحاث التي كتبت في هذا الشأن أبحاث هنري شارل وهي أبحاث عديدة وممتازة ومتخصصة تناولت تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى وجعلته على مرتبة كبار العلماء الأوربيين أمثال هارناك Harnack ، دينقل ، دوشزن . كذلك عرض على كل ن ج . ب . فيشر ، فيليب شاف ، ولسن والكر في إيجاز تاريخ الكنيسة المسيحية باسمه . أما أ . ك . ماك جيفر فله شهرته الدولية لما كتبه عن ايزبيوس ، وكانت له أبحاثه الهامة عن تاريخ الكنيسة في أيامها الأولى وعن تاريخ الفكر المسيحي . أما عن نشأة الكنيسة في العصور الوسطى فهناك عدة أبحاث هامة كتبها كل من ج . ك . اير Ayer ، أ . ك . فليك ، وقد كتب فليك خير ما يمكن كتابته عن المدخل إلى انهيار سلطان الكنيسة في العصور الوسطى . كذلك عالج كل من بريز فدسميث ، امرتون ، س . م جاكسون ، هـ . أ . جاكوبرز ، حركة الإصلاح الديني وبحث في هذا الجانب أيضا داود شاف ، جاكسون ، و . و . روكويل ، وكان لهذا الأخير (روكويل) الفضل في إطلاع الأمريكيين على أحدث أبحاث الأوربيين في هذه الناحية . كذلك كان شاف schaff ، بورتر جاكسون Potter أبحاثهم التاريخية المستفيضة عن الكنائس الأوربية . وكان اهتمام المؤرخين الأوربيين بدراسة التاريخ القديم والوسيط — وهو أحد الانطباعات التي تركتها الحركتان الإنسانية والتعقلية على المؤرخين — صدى ردود فعل في المدرسة الأمريكية إذ أدى ذلك إلى إهمال دراسة التاريخ الحديث لفترة معينة .

لكن جهود الجيل الجديد من المؤرخين الشبان تنبيء بأنهم سيعوضون هذا النقص في التاريخ الحديث وأنهم سيخرجون عن نطاق المألوف عند من سبقهم من المؤرخين . بحيث لا تكون أبحاثهم من حيث الكم والكيف أقل من أبحاث أساتذتهم السابقين الذين تخصصوا في دراسة العصور الوسطى . ومصداق ذلك سلسلة الأبحاث التي أخرجها و . ل . لانجر . عن نشأة أوربا الحديثة ، اذ تعتبر خير نموذج وأحسن شاهد على صدق هذا القول . ويقال نفس الشيء عن أبحاث التاريخ الحديث التي قام بها ل . ب . هايبي وآخرون سنة ١٩٢٩ إذ شجعت هذه الأبحاث حركة البحث في هذا الجانب .

أما كتابة التراجم التاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد ظهرت فى صورة غـزيرة واتخذت شكلا موجزا ومن أمثلتها ــ مجموعة رجال السياسة الأمريكيين . (ومجموعة تراجم ريفرسيد Riverside Biographical series و (قاموس التراجم الأمريكيـة) ولم تقتصر التراجم على سرد سيرة كبار رجال الدولة الأمريكيين وإنما شملت كثيرين غيرهم . ومن أحسن التراجم تلك التى كتبها س . م . موريسون عن كولمبو س ، وكارل فان دورن.عن فرانكلين ، و . س . فريمان عن واشنجطن ، أ . ج . بفردج عن مارشال ، ناثان شاشير وبـروس ميتشل عن هاميلتون ، جلبرت شينارد عن جون آدمز ، دومـاس مالـون عن جيفرسـون ، ارفنج بـرانت Arving Brant عن ماريسون ، و . ب . كريسون عن مونرو ، س . ف بيمس عن جون كينكى آدمز ، ج . س باست عن جاكسون ، ك . م . ولتز Wiltseعن كالهـون ج بيفردج ، ج . ج. راندال عن لنكولن . فريمان عن لى Lee ل . ب . ستريكر عن جـونسون ، الآن نيفنس عن كليفلاند ، ونيفنس و ، ج . ت . فلين J.T. Flynn عن روكفلر ، هربرت كرولى عن مارك هانا ، مارجريت ليش Leach عن ماك كنلى ، هـ . ف . برنجلى ، هـ . ك . بيل عن تيودور روزفلت ، برنجل عن تافت ، أ . س لنك Linkعن وودرولسن ، فرانك فريدك Freidel و . أ . م . شيلزنجر عن ف . د . روزفلت .

وكما صار الحال فى العلوم الطبيعية وبقية فروع المعرفة ، لم يلبث أن غدا علم التاريخ يخضع من نواحى البحث والإشراف لجهود مشتركة تنهض بها جمعيات تاريخية قامت بدور البوتقة التى تنصهر فيها الأبحاث والمناقشات التاريخية . وكان أن ظهرت المجلات التاريخية التى تنشر هذه الأبحاث ، الأمر الذى يسر سبل التعاون بين الباحثين على نطاق دولى . ففى سنة ١٨٥٩ أسست الجمعية التاريخية الألمانية . وفى سنة ١٨٦٦ أصدرت الجمعية التاريخية الفرنسية مجلتها . وفى سنة ١٨٨٤ أصدرت الجمعية الإيطالية مجلتها . كما صدرت المجلة التاريخية الإنجليزية فى سنة ١٨٨٦ والأمريكية فى سنة ١٨٩٥ .

كذلك تم تبادل الأساتذة بين الجامعات خلال الفترة السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى وازداد هذا التبادل بصفة خاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوربية وهو اليوم أكثر منه فى أى وقت مضى .

ولكن إذا كانت المدرسة الاستقصائية الحديثة فى التاريخ تفتخر بأنها تجنبت الناحية الفلسفية واستندت للموضوعية فى بحوثها ، فإن هذه (الموضوعية) نفسها سرعان ما غدت لها جوانبها

الفلسفية التى أصبحت لها نتائج أشار إليها شارل أوستن بيرد فى مقال له نشرته المجلة الأمريكية التاريخية فى عدد أكتوبر ١٩٣٥ بعنوان (ذلك الحلم الجميل) . وعن هذا الموضوع بالذات ينبغى أن ننتقل الآن لإبداء بعض الإشارات والتعليقات والفروض القائمة خلف الموضوعية فى كتابة التاريخ .

الفروض القائمة خلف الموضوعية فى كتابة التاريخ

سنوجز فيما يلى ما نستطيع قوله بشأن فحص مبادىء المدرسة الاستقصائية الحديثة فى كتابة التاريخ (**Erudite School**) فحصا ناقدا ، ذلك أنه كان مفروضا لوقت طويل أن الكمال فى علم التاريخ لا يتأتى إلا بتحقيق مزيد من مبادىء فون رانكه ومدرسته واتباع أصوله وتعاليمه . كذلك كان يظن أنه طالما أصبح فى الإمكان نقد الوثيقة من حيث شكلها وجوهرها ، فإنه صار من الميسور أن نعيش فى الماضى الذى تحدثنا عنه تلك الوثيقة ونعيد تصوير وبناء ذلك الماضى كما كان بالضبط . ولكن تجمع لدينا من إمكانيات النقد العلمى ما يكفى لهدم جميع الفروض السابقة ففى المقام الأول استطاع علم النفس الحديث أن يقوض تماما افتراضات أولئك الذين يحلمون بتحقيق موضوعية تاريخية تامة . ذلك أن علم النفس أوضح أنه ليس فى الإمكان إنتاج عمل ثقافى على مستوى رفيع دون أن يكون للقائم به اهتمام حقيقى واقتناع سليم بما يعمله ، وأن الرأى القائل بأن فكر الإنسان قادر على العمل فى حيوية وهو فى حالة فراغ عاطفى ودون هدف ، أمر يناقض تماما المبادىء الأولية فى علم النفس . وإذا كان علماء المدرسة الاستقصائية فى التاريخ ينادون بأنه ينبغى عدم الالتزام بفكر أو رأى معين عن أى موضوع قبل الإقدام على بحثه وهو الرأى الذى أصبح مقبولا تماما . ولا يشك فى صحته كافة المشتغلين بعلم التاريخ ، فإننا نؤكد هنا مرة أخرى القول بأنه على الرغم مما للحقيقة التاريخية من (قداسة) لدى رجال هذه المدرسة فإن هذا لا يحول دون وضع الحقيقة التاريخية موضوع التحليل الناقد .

إن كل حدث تاريخى هو بالضرورة فريد فى ذاته وليس له شبيه ولا يتكرر كلية مرة ثانية وأن كل حقيقة تتسم بهذا الانفراد وعدم التشابه مع غيرها من الحقائق وذلك بالنسبة للظروف الأخرى التى أحاطت بها وارتبطت معها . فالحقيقة التاريخية تعبر عن توافق مجموعة ظروف خاصة ولدت وانتهت بوقوع الحدث . ومعنى ذلك أنه عندما نقول إننا اكتشفنا حقيقة تاريخية فمعنى هذا أنه

توافر لدينا من المعرفة ما يجعل فى مقدورنا أن نعيد صياغة أو بناء عنصر أو أكثر من العناصر التى أحاطت بهذه الحقيقة وأن هذه الصياغة تتم على وجه ناقص فى ظروف تختلف تماما عن الظروف التى أحاطت بتلك الحقيقة . ومعنى هذا أنه ليس فى مقدور أحد أن يعيد خلق العناصر التى وجدت عند وقوع الحدث كما كانت ساعة وقوعه ، وكل ما نفعله الآن بخصوص الحقيقة التاريخية هو أننا نضع فيها نتاج تصورنا الذاتى . وأن ما يعتقده كثير من المؤرخين بأن هناك عديدا من الوقائع المترابطة والملموسة التى يطلق عليها اسم (حقائق تاريخية) وأن السبيل إلى الوصول إلى هذه الحقائق التاريخية لا يتهيأ إلا بجمع العديد من المصادر التاريخية ، هذا الاعتقاد ليس فى الواقع إلا اعتقادا ساذجا غير مقبول . ولسوء الحظ لم يتبدد هذا الاعتقاد بدخول التفكير العلمى الناقد إلى مجال التاريخ . ويمكن تشبيه هذا الاعتقاد لدى أولئك المؤرخين بالنظرة التى كانت لدى رجال العلم عن الذرة إذ كانوا يعتقدون أنها شيء بسيط لا ينقسم ثم اتضح أنها فى تعقدها تبلغ ما يبلغه عالمنا من تعقيد .

وفى بحث ممتع عنوانه «ما هى الحقائق التاريخية ؟» ألقاه الأستاذ كارل بيكر أمام الجمعية التاريخية الأمريكية فى روشستر بنيويورك فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ تم القضاء تماما وإلى الأبد على الهالة الكاذبة والخرافة التى كانت تحيط بالحقيقة التاريخية . ذلك أن بيكر أوضح مدى ما تقع فيه من خطأ فادح حين نقول عن حقيقة من الحقائق التاريخية إنها حقيقة ثابتة . وقال البروفسور بيكر : (إنه إذا ما قلنا ذلك تبدو الحقائق التاريخية فى النهاية وكأنها أشبه بالأشياء الطبيعية شيئا صلبا وثابتا ، شيئا له شكله المحدد الواضح ، شأنها شأن الطوب والصخور . ومعنى ذلك أن يصبح فى الميسور تصور المؤرخ وهو يتجول بين حقائق الماضى ، وكأنه يتجول بين أشياء صلبة جامدة تصطدم بها أرجله إذا كان غير محترس منها) .

وأخذ بيكر حقيقة من أبسط حقائق التاريخ والتى لا نزاع بشأنها ولاخلاف حولها . ولنقل عبور قيصر للنهر الإيطالى روبيكون **Rubicon**[1] . فى التاريخ القديم . وأوضح بيكر مدى الصعوبة التى تحول دون الوصول إلى رأى قاطع يفسر لماذا عبر قيصر النهر وكيف تم هذا العبور . وتناول فى بحثه التباين الشاسع بين الآراء التى تناولت هذه الحقيقة لأن من يسردها لا بد أن يضفى

(١) أحد أنهار إيطاليا القديمة عبره قيصر فى سنة ٤٩ ق.م وكان معنى عبوره هو إعلانه الحرب على بومبى وعلى السناتو ، وأصبح الاصطلاح «عبر قيصر النهر» تعنى أن دولة ما استعدت للحرب . المترجم

عليها ذاتيته . كذلك تناول بيكر الأسباب الأساسية التى تثبت عدم صحة هذه الحقيقة اللهم إلا فى كونها تكون عنصرا من العناصر التى تؤلف رواية تاريخية يستحيل تنسيقها وتجميعها من جديد كما كانت وقت وقوع الحدث «وهكذا فإن حقيقة وألف حقيقة من الحقائق البسيطة الفرعية تجمعت لتتألف منها تلك الحقيقة الخاصة بعبور قيصر الروبيكون . ولو كان لدينا شخص مثل جميس جويس حاول أن يجمع هذه الحقائق التاريخية المرتبطة بتلك الحقيقة البسيطة لتطلب الأمر منه كتابة ٧٩٤ صفحة ليوضح حقيقة عبور قيصر نهر روبيكون» .

وبمعنى آخر فإن ما حرصت عليه المدرسة الاستقصائية فى التاريخ وما جعلته هدفها الرئيسى وهو الوصول إلى الحقيقة التاريخية البسيطة المجردة أصبح شيئا خرافيا ينطلى على بسطاء الفكر وقليلى الخبرة . ثم مضى بيكر يقول : «إن هذه الحقيقة التاريخية البسيطة حين تكتشف فليس معنى ذلك أن نتوقع وجودها بحدود واضحة ثابتة كالقطعة من الطوب أو الصخر . إن هـذه الحقيقة التاريخية ليست إلا تعمياً لألف حقيقة من الحقائق الأبسط منها . وهذه الحقائق الأبسط لاتعنينا فى حاضرنا ، كأننا فى سردنا للتاريخ لا نستطيع أن نتناول الحقيقة الكلية مجردة من هذه الحقائق الأصغر منها العالقة بها . وجملة القول أنه كلما كانت الحقيقة التاريخية أبسط ما تكون كلما كانت أكثر تحديدا ووضوحا . لكنها فى نفس الوقت تصبح بالنسبة لنا أقل قيمة وفائدة فى مجال بحثنا . وعلى هذا الأساس ربما كان أكثر فائدة أن نقيم الحقيقة على أساس مدى فائدتها لنا بدلا من تقييمها على أساس صحتها أو عدم صحتها » .

وهكذا غدا الركن الأول الذى قامت عليه المدرسة الاستقصائية واهى الأساس ، الأمر الذى يجعلنا لا نستطيع أن نسلم بباقى أفكارهم ومفاهيمهم الأخرى . ذلك أن نظرتهم ينبغى أن يعاد النظر فيها على أنها تحوى قدرا كبيراً من الخيال والوهم ، وإن كانت تمثل خير مالدينا الآن .

وكانت الآراء التى خرج بها الأستاذ بيكر من بحثه كفيلة بأن تهدم أسس نظريات فون رانكه وتابعيه ، وذلك مثلما حدث عندما هدم علماء الطبيعة أمثال : اينشتين ، بلانك ، شرودنجر ، هيرندبرج النظريات القديمة فى علم الطبيعة والتى ظلت قائمة منذ نيوتن حتى هيلمو هلتز ذلك لأنه من المتعذر تماما إعادة خلق الماضى كما كان بالتمام والكمال .

ولاشك فى أن هذا البحث الذى نشره بيكر احتل فى علم التاريخ مااحتلته نظرية اللانهاية فى علم الطبيعة المعاصر . ومن الواضح إذا أن المحور الأساسى الذى قامت عليه المدرسة

الاستقصائية ، ونعنى بهذا المحور : إمكان اكتشاف حقائق التاريخ على وجه الإطلاق والتحديد ، وإظهار الحقائق فى صورة واضحة محددة لاشبهة فيها ولاجدال حولها ، بحيث تظل هذه الحقائق فى ظل كافة الظروف ومن وجهة نظر جميع المؤرخين هى نفسها دون تغيير ؛ هذا هو المحور الأساسى الذى قامت عليه المدرسة الاستقصائية فى علم التاريخ إنما يصور وهما من أوهام عصر ماقبل علم النفس . ولخص الأستاذ أ . أ . جولد نوزر .A. A جوهر هذا الموضوع فى قوله :

« إن عمل المؤرخ لايخرج عن كونه اختياراً للأحداث التى يريد الحديث عنها . ولايمكن أن تنفصل نظرته عما يختاره من أحداث . فنظرته إليها تؤثر على اختياره إياها ولو تأثيراً جزئياً . وعندما يقول لنا المؤرخون إنهم مجرد ساردين للأحداث وأن الحقائق التاريخية تتكلم عن نفسها ، فإنهم بكل بساطة لايخدعون سوى أنفسهم إن الحقائق لاتتحدث عن نفسها ولكن المؤرخ هو الذى يتكلم عنها ويتحدث ، وإن الذى تعبر عنه هذه الحقائق إنما يعتمد على سحر عصاه » .

وهناك تغير جذرى آخر يحول دون تأليه الحقائق التاريخية ، ونعنى به : أن المؤرخين الاستقصائيين تناولوا هذه الحقائق وجمعوها دون ان يعملوا حساباً للعامل البشرى ، وهو عامل قوى له تأثيره ذلك أن كثيراً من علماء التاريخ فى الماضى والحاضر عالجوا الأحداث دون أن يكون لديهم أدنى استعداد لتفهم هذا العامل البشرى ، بل إنهم فى الحقيقة وفى غالب الأمر كانوا لايشعرون بضرورة ذلك . فإذا اقتصر عملهم على جمع الحقائق وسردها فإنه عمل تستطيع القيام به الكائنات المدنية على اختلاف مراتبها أو أى لعبة من اللعب الخشبية يحركها صاحبها فتبدو وكأنها تتحرك من تلقاء نفسها .

وبمعنى آخر : فإن المؤرخين الجماعين للمعلومات مع اهتمامهم بسرد أعمال البشر فى الماضى ، إلا أنهم أهملوا العنصر الرئيسى فى هذا العمل وأعنى به مسلك الجنس البشرى وطبيعته وحتى عندما تظاهر المؤرخون بأنهم يكتبون تاريخ الإنسانية ، فإنهم أبعدوا الإنسان خارج الصورة التى يرسمونها . ولم يكتفوا بتركيز اهتمامهم بصفة أساسية فى تفاصيل الحقائق التاريخية وإنما أهملوا العناصر التى يمكن أن تكسب هذه الحقائق سنداً كبيراً من الصحة والحقيقة ، وأعنى بها العلوم البيولوجية والاجتماعية التى تساعدنا على فهم طبيعة الإنسان الذى كان مسلكه فى الماضى سببا فى وجود العناصر التى تجمعت منها وتكونت بفصلها الحقيقة التاريخية . ويقول جيمس هارفى روبنسون « إن عملنا بدون هذه المعرفة الهامة بمسلك الإنسان فى الماضى لايعدو أكثر من الوقوف عند شكل الأشياء وظواهرها فى الماضى ، بينما نظل نجهل كلَّ الحقائق الكامنة والهامة فى التاريخ .»

إن المؤرخ الحقيقى ليس كالعامل الكادح أو الكاتب الجامع للحقائق من المصادر المختلفة إنه أكثر من ذلك ، إنه الشخص الذى يأخذ هذه المادة الخام ، ينقيها ويغربلها وينظمها بطريقة يستطيع بها أن يضىء أفكارنا عن الماضى وكيف تمخض الماضى عن الحاضر . وهذه المهمة تحتاج الى مقدرة كبيرة من نشاط الفكر للوصول الى التحليل والربط التاريخيين أكثر من مجرد المضى فى عمل بحث تاريخى فحسب . ولهذا السبب وحده نجد هناك كثيرين ممن ينتمون الى مهنة التاريخ ولايتعدى دورهم طلاب بحث ، بحيث لايمكن أن نطلق اسم مؤرخين حقيقيين الا على قلة منهم .

ولكن هذه المدرسة التى اهتم اصحابها بالمزيد من تحصيل المادة واتسمت بالاستقصاء وجمع المادة ، فإنها فيما فعلته حاولت أن تجعل من الحفار وصانع الفولاذ ، وصانع الطوب ومساعد البناء مهندسين . لقد حاولت هذه المدرسة أن تجعل من مهنة المؤرخ مهنة ضئيلة بحيث يقنع بما جمعه من مادة تاريخية وبذلك أضعفت الاهتمام بالمسلك التاريخى الصحيح .

أما إصرار المدرسة الاستقصائية على أن الموضوع الأساسى فى دارسة التاريخ هو الجانب السياسى ، فإن هذا الرأى تعرض لهجوم واسع ونقد فى الصميم ، بحيث إنه من السخف ومضيعة الوقت أن نسوق الأدلة لمناقشته وتفنيده . وخير مانقوله فى هذا المقام هو أن نردد قول فردريك هاريسون من أن مااعتبره فريمان Freemanجانبا مثاليا فى دارسة التاريخ ، إنما أغفل تسعة أعشار ماضى البشر ، وإنه من الأمور الواضحة تماما أن الجانب السياسى لايمثل من نشاط البشر سوى نسبة ضئيلة . وعلى هذا الأساس فإنه إذا كانت مهمة التاريخ هى تسجيل كل مافعله الإنسان وكل ماشاهده وابتغاه ، فإن أبعد الأمور عن الواقع أن نقصره على تسجيل الجوانب السياسية . ولما كان التاريخ السياسى ليس له سوى قيمة ثانوية ويأتى نتيجة لعوامل أخرى فإنه لايمكن أن يكون بمثابة الإطار الذى يضم بين جوانبه مواد التاريخ الأخرى غير السياسية .

أما أهم ماينسب إلى المدرسة الاستقصائية من القول بأن البحث وتجميع الحقائق هو واجب المؤرخ وخير مايحققه ، فان هذا القول فى ذاته كفيل بأن يكون سلاحا يشهر ضدهم . فحقيقة الأمر هى : أن البحث التاريخى ليس سوى المرحلة الأولى والمبدئية من العمل التاريخى وأن البحث لازمة من لوازم التاريخ ، لكن ليس بالبحث فقط يكون التاريخ بأى حال من الأحوال . فالتاريخ لايكون الاحين نتسق نتائج البحث التاريخى ـ ونحلل وننظم ثم ندرس بعقلية مؤهلة تماما لديها القدرة على تفهم طبيعة البشر ونظمه الاجتماعية . وبهذا يمكن القول إن البحث التاريخى أصبحت له صفة الكتابة التاريخية الفريدة .

وطالما اعتبر البحث التاريخى والتنقيب بين أحداثه المقياس النهائى للمقدرة فى علم التاريخ ، فإن الأمل صار ضعيفا فى أن تتعدى الغالبية الكبرى من الباحثين فى مجال التاريخ هذا النطاق ، وصار من غير الممكن أن يشعروا بأن مهمة المؤرخ تختلف عن مهمة كاتب الأرشيف .

ولايقل عن ذلك سوءاً كذلك تلك النظرية التى تنادى بها المدرسة التقليدية من أنه ليس هناك فروق جوهرية بين ماتصل إليه الأبحاث التاريخية من نتائج وقيم . ومعنى هذا القول أن العمل التاريخى يقاس فقط بمدى دقة الحقائق التى يتضمنها بصرف النظر عما تلقيه من ضوء على تطور المجتمع والحضارة . واذا كان للتاريخ مغزى عدا التظاهر بالمعرفة ، فان علينا أن نعترف بأن المادة التاريخية لاقيمة لها إلا بقدر ماتلقيه من ضوء على الحاضر . وليس معنى هذا القول أننا ندعو الى إهمال البحث فى بعض الجوانب الخاصة التى لها أهمية معينة عند الباحث فى مجال محدد ، لكننا نقول إن دراسة الدبلوماسية البروسية فى القرن السابع عشر لاينبغى أن يخصص لها من الجهد والوقت ما يخصص لدراسة العوامل التى أدت الى نشأة الرأسمالية والطبقة الوسطى والقومية فى غرب أوربا فى نفس القرن .

ومن الواضح لدى رجال الفكر أن الحقائق التاريخية لاقيمة لها مالم يتم ترتيبها وفحصها بدقة وتحليلها وتوضيح مضمونها بهدف إظهار تأثيرها على سير الحضارة . أما الوقوف عند مجرد جمع الحقائق وسردها ،فإن ذلك شبيه بدور عالم الطبيعة عندما يكتفى بإجراء التجارب فى معمله ليدون نتائجها فى مفكرته الخاصة ولاشىء أكثر من ذلك . ومن المتفق عليه عالميا أن النتائج العلمية تؤدى دورها عندما نصل عن طريق مجموعة كبيرة من الأبحاث الى مايسمى بقانون العلم التجريبى . وعلى نفس المنوال فعلينا أن نعترف أن قيمة التاريخ الحقة تتحقق عندما نستطيع من مجموعة الحقائق التاريخية أن نصل الى خلاصة تاريخية سليمة من ناحية وعندما يتم شرح هذه الحقائق ودراستها بطريقة تجعل فى الإمكان أن نلم بمدى تأثير الماضى على الحاضر من ناحية ثانية ..

وهناك نقد آخر يوجه الى المدرسة الاستقصائية فى التاريخ بسبب حرصها الشديد ومبالغتها فى الحذر عند استخلاص النتائج التاريخية . وثمة مبدأ تأخذ به كل المدارس التاريخية التى لها مكانتها هو أنه ينبغى أن تقترن الأبحاث التاريخية باستنتاجات حتى ولو لم تتجاوز صحتها نسبة ٧٥٪

وعلينا أن نعترف أن الأمل فى الوصول الى الحقيقة التاريخية الصرفة محض خيال وأن أسمى مانتطلع إليه هو الاقتراب من الكمال . ويتحقق ذلك إلى حد ما عن طريق البحث الدقيق ، وإلى حد آخر عن طريق التوفيق فى الشرح والتحليل ثم أخيراً بفضل عبقرية ومهارة المؤرخ

المتخصص . وفي نفس الوقت فان النتائج التي تقل نسبة الحقائق التاريخية فيها عن ٧٥٪ لاتقل خطورة عن النتائج التي تزيد نسبة الحقائق فيها عن ٧٥٪ ذلك أن المنطق التاريخي الذي يقلل من نسبة الحقائق يكون شأنه مثل من يزعم أن برميل البنزين يحتوى على عشرة جالونات بدلا من ٣٤ جالونا أو من يزعم أن محيط دائرة الأرض ألفان من الأميال بدلا من ٢٦ ألف ميل . إن الاقتراب من الدقة وليس مجرد المبالغة في الحذر من الخوض في أي استنتاج ينبغي أن يكون هدف المؤرخ .

ويرتبط بهذه الأفكار ذلك الاعتقاد الشائع أن امتناع الشخص عن نشر أبحاثه إنما هو دليل على ارتفاع مستواه العلمي . وليس معنى ذلك أننا نقر نشر العمل الذي لم يكتمل نضجه والبحث غير المتقن . فذلك أمر آخر يختلف بالنسبة للقول بأن الدليل على بلوغ الشخص مستوى العلماء هو امتناعه عن نشر أبحاثه . ذلك أن رفض شخص نشر أبحاثه قد يكون دليلا على خموله وجموده . وإن كانت هذه الدلالة ليست مطلقة لأن هناك علماء على أعلى مستوى يترددون في نشر أبحاثهم . ومن ثم فإن الأمر بالنسبة لهؤلاء لايعدو مشكلة من مشاكل علم النفس المرضي . وهي في غالب الأحيان حالة (قلق عصبي) فكثير من تلك الأبحاث الخاصة بأولئك العلماء عبارة عن محاضرات ألقوها على طلبتهم . فإذا كانت هذه الأبحاث قد ألقيت على طلبة متخصصين في قاعات الدرس فمن باب أولى أن ترى الضوء وان تنشر . أما إذا أحس الأستاذ بأن هناك من الحقائق مالاينبغي نشره فعليه أن يعترف بذلك وبأن أبحاثه ليست صالحة للنشر في أي صورة من الصور . ولكنه ينبغي أن نفرق بين هذه الحالة وبين الأبحاث التي يحول دون نشرها إعدادها على عجل أو افتقارها إلى كفاية العمل التاريخي .

ولعل من الميسور أن نظهر سذاجة النظرة المثالية التي تفترضها المدرسة الاستقصائية في المؤرخ المثالي . فإذا ما كانت هذه المدرسة تنظر إلى المؤرخ المثالي بوصفه الشخص الخالي من الإحساس والعواطف . الذي لاتسيطر عليه فكرة سابقة . فإن معنى ذلك أنها تفترض في هذا المؤرخ المثالي حالة من الغباء الذهني . ذلك أن الحياة البشرية في حقيقتها تتصف بالحيوية والديناميكية وتحتاج فيمن يشرحها ويفهمها ويتناولها إلى شخص له نفس هذه الصفات . وإذا مازعم المؤرخ التقليدي بأن علينا أن نبحث عن الضوء دون أن تمسنا حرارته . فإن زعمه هذا واه ضعيف . فعلى حد علمنا لايوجد شيء يشع منه الضوء دون أن تتولد عنه حرارة سوى حشرة النار أو ما تعرف با(الحبحب) . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقارن بين ذلك المؤرخ التقليدي وهو

يبحث بلا هدف وسط المادة التاريخية الواسعة والمتناثرة وبين تلك الحشرة الضعيفة التى تنتقل بلا هدف موضوعى أو نتائج محددة . وقد جمع الأستاذ فرديناند شيفل كل خصائص المؤرخ الناجح كما تراه هذه المدرسة التاريخية . ولكنه تجاهل الحديث كثيرا عن تلك القيود التى التزمت بها .

وفى تلخيصه لآراء تلك المدرسة قال : هل من الممكن أن نجعل من كاتب التاريخ شخصاً ذا نظرة غير متحيزة وموضوعية ؟ فلكى يكون موضوعياً صرفا لابد أن يكون جافا لا روح فيه شأنه شأن الآلة الحاسبة الجامعة وهى مثالية فى الكفاية يرفضها كل من المؤرخ والقارىء . إن من حقنا أن نطلب من المؤرخ أن يكون أميناً ، قادراً على إخضاع كل عواطفه لعقله وفكره ، متمرساً على قراءة ناقدة ، لديه الاستعداد للتعمق فى بحثه فضلا عن الجلد بهدف الوصول إلى الحقيقة ، بحيث يصدر أحكامه على هذا الأساس .

ولعل من أسوأ ماأصاب الكتابة التاريخية تلك الفكرة المسيطرة القائلة : بأن تلك الكتابة ينبغى أن تكون مهذبة منسقة ، الأمر الذى أساء إلى حيوية وفعالية الكتابة التاريخية . وإذا كان المؤرخون من رجال هذه المدرسة الاستقصائية كثيراً مايغلب عليهم الميل العاطفى إلى موضوع معين أو مذهب دينى فإنهم يعترفون أنفسهم ولو من الناحية النظرية أن مثل تلك الأشياء هى من أسوأ ما يضر بوضوح الرؤيا وصدق التحليل ، وهما من أهم لوازم المؤرخ .

وإذا كانت المجاملة وحسن الذوق فى كتابة التاريخ وتحليل أحداثه هى أهم مايتباهى به المؤرخ التقليدى ، فانه ممالاشك فيه أن حسن الذوق كما أدركه المؤرخون التقليديون . أساء إلى كتابة التاريخ أكثر مما فعله التعصب والتحيز وهما الأمران اللذان جاهد المؤرخون سنين طويلة فى سبيل القضاء عليهما . ذلك أن الرجل (الجنتلمان) طبقا للخصائص التى يراها المؤرخون الأمريكيون يستحيل عليه أن يكون مؤرخاً له دوره الفعال فى مجال التاريخ ، شأنه شأن اليهودى الذى يستحيل عليه بثروته أن يشترى حق الدخول فى جنة الله .

ثم إن هناك موضوعا آخر هاماً . لقد أصبح من المعلوم لدى دارس علم النفس الحركى أن بعضا من نواحى حياة الإنسان التى يتعرض لها فى دراسة التراجم التاريخية لها دورها الهام فى تفسير شخصية الإنسان وسلوكه فى ماضيه وحاضره . ولانقصد بذلك الأمور المرتبطة فقط بالناحية الجنسية والغريزة . والمؤرخ التقليدى حين يجد شخصية أسطورية ويجعل منها مثلا أعلى إنما يخلق شخصيات أسطورية ليجعل منها موضوعات لجهوده فى الترجمة . هذا فضلا عن أنه فى كتابته

المهذبة فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ومابنبغى أن تكون عليه الطبقة البرجوازية المثالية فى ذهنه ، يتناول بمنتهى الدقة والمجاملة أهمية العوامل المادية على التطور التاريخى . وما دامت الاشتراكية والحديث عنها يرتبطان بالنواحى الاقتصادية فإن ذلك كفيل بأن يجعله يعتبر الخوض فى هذه الموضوعات وكأنه شىء يتنافى مع الذوق بدرجة كبيرة .

ويرتبط بذلك مايفترضه المؤرخ فى حديثه عن شخصية من الشخصيات من ضرورة مراعاة إظهارها فى صورة نبيلة من ناحية الهدف والطبيعة ، فضلا عن الحرص على الارتفاع بتلك الشخصية عن توافه الأمور ، كل هذا جعل من البداية أن أى مجهود يبذل فى مجال التراجم ، أو أى مادة تستخلص من مادة التراجم ، عديمة القيمة ولافائدة تجنى من ورائها . إن مايبنغى أن يفترض فى مؤرخ التراجم الحديث والموثوق فيه هو أن يجعل من دراسته دارسة حية متكاملة عن الإنسان الذى يدرسه على النحو الذى عاشه هذا الإنسان . ومعنى هذا أن تكون النظرة إليه بوصفه إنسانا لايختلف عن بقية البشر فى كل مااتفق عليه علماء وظائف الاعضاء وعلماء النفس وعلماء الأمراض العقلية بخصوص تصرفات البشر وأهدافهم . وقد عبر جيمس ترسلو آدمز فى كتابه الحافل الذى أسماه : « فلسفات حية » عن الخلاف بين أصحاب النزعة الطبيعية من ناحية ، والمؤرخ الغامض من ناحية أخرى ، وذلك عندما شرح فى ذلك الكتاب مدى تفهم العصور الوسطى وإدراكها للصفات البشرية . إن الذى يعالج شخصية من الشخصيات ينبغى عليه الإلمام بالجوانب الإنسانية فى الشخصية التى يدرسها مع توفر الاستعداد الفنى لديه لمعرفة دوافع السلوك الإنسانى . ثم عليه بعد ذلك أن يمضى قدماً فى جمع الحقائق وتنظيمها وتفسيرها مستهدفاً بذلك شرح الطريقة التى عمل بها ذلك الفرد الذى يترجم له منذ مولده حتى وفاته سواء أكانت شخصية تفيض بالنبل والإخلاص التامين وعاش يدافع عن العدالة الإنسانية . أم كانت نموذجا فريدا يتصف بالغرور والأنانية والفساد والظلم .

ثم هناك فكرة أخرى خاطئة وهو ماجرت عليه العادة من عدم تناول أعمال المؤرخين بالدراسة إلا بعد وفاتهم فنحن نكتب فى حرية تامة عن رالف الأصلع لأنه مات ولانكتب عن واحد من المؤرخين الأحياء . ومعنى ذلك أن للمؤرخين الأحياء أن يفعلوا مايشاءون ، وأن يأتوا بما شاءوا من آراء ونظريات باطلة تستطيع أن تجد مكانها وتبقى مدة تزيد عن الأربعين عاماً قبل أن يظهر من يتناولها بالبحث والنقد . وبصرف النظر عما لذلك من أثر سىء على التاريخ فانه اتجاه غير شريف وغير رياضى . فمن أعدل الأمور أن نهاجم المؤرخ وهو حىّ حتى نمكنه من الدفاع عن نفسه .

ومن أسوأ نتائج مسألة مراعاة الذوق فى الكتابة التاريخية أن نجد علماء المؤرخين وقد صار لهم وجهتا نظر متناقضتان عن مسألة من المسائل . مثال ذلك : موضوع من هو المسئول عن الحرب العالمية ، أو طبيعة التجربة الشيوعية فى روسيا السوفيتية وكيف انتشرت . نجد الأستاذ الفطن له وجهة نظر أمينة ومنطقية قائمة على الحقائق يدلى بها صراحة لأصدقائه المقربين وطلبته حين اجتماعه معهم فى قاعات البحث ، فإذا مانشرت أبحاثه وكتبه تجده وقد ترك جانباً آراءه ومعتقداته الخاصة التى أدلى بها فى قاعات البحث ليدلى بآراء مخالفة تتمشى مع الآراء التى يجمع عليها أبناء مهنته وزملاؤه من المؤرخون . وقد تجد هناك فارقاً كبيرا بين الرأيين . فهل يحدث مثل هذا فى العلوم الطبيعية مثلا ؟ هل يحدث أن يدلى عالم من علماء المواد الطبيعية فى مجال خاص برأى عن تطور فاذا ماطلب منه نشره أعطى رأياً مخالفاً ؟

إن بعض المؤرخين المتشددين فى الاتجاه القومى مثل دروبسن ، فون سبيل ، فون ترتيشك كانوا فى وضع أحسن من أولئك الأساتذة أصحاب الرأيين ، لأنهم مع أنهم ذهبوا بالتاريخ فى مجرى غير مجراه الصحيح كانوا متحمسين لوطنهم فى السر والعلن . وقد يكونون على خطأ لكنهم لاينافقون فيما دافعوا عنه .

ويمكن القول فى صدق إن عقدة المجاملة ومراعاة الذوق هى بلا نزاع التى حالت بين المؤرخين ذوى المكانة المحترمة وبين الإفصاح عن الحقيقة . وكانت عقدة مراعاة الذوق هذه هى الحائل دون إبراز الحقيقة والتزام الأمانة فى القول والإخلاص والدقة ، فكان شأنها على هذا النحو شأن التحيز والتعصب للوطن عندما حلت فى الماضى دون سرد الحقيقة . وليس معنى ذلك الدعوة الى الكتابة المبتذلة الجارحة . فليس هناك من يؤيد هذا الاتجاه وليس هناك من يأبى أن تكون الكتابة مهذبة . لكن مكمن الخطورة على الكتابة التاريخية هو أن تتسبب مراعاة الذوق فى مصادرة الأمانة والصراحة وقول الحق . ولايدخل فى هذا كل المؤرخين الذين اتسمت كتاباتهم بالدقة . فمؤرخون مثل جيمس هارفى روبنسون ، كارل بيكر ، وبريزرفد سميث ، فرديناند شيتل ، مثلاً كانوا من أصرح المؤرخين ومع ذلك فان كتاباتهم اتسمت بالدقة والدماثة .

والحقيقة المفروغ منها هى أن هذه المدرسة الاستقصائية فى التاريخ لم يصل أصحابها فى مراعاتهم لحسن الذوق فى الكتابة حد السيطرة على المشاعر والانفعالات ، لكن كل مافعلته هذه المدرسة هى أنها تمشت مع اتجاهات رسمية وأقرت آراء معينة من فترات التاريخ . ومثال ذلك مالقيته هذه المدرسة من تأييد حار من جانب المؤرخين الذين اتسم موقفهم بالتحيز والتعصب فيما

بين الحربين العالميتين . وفى العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان الرأى السائد هو إرجاع أصول التاريخ الأوربى والأمريكى الى منبع أنجلوسكونى . وكان الشخص الذى يجرؤ على عرض وجهة نظر مخالفة وينادى بأن الحضارة الغالية هى أصل الحضارات الحديثة يتهم بالزيغ والانحراف عن الصواب . لكنه منذ سنة ١٩١٤ صار من المألوف أن نجد من يرفض وجهات النظر التيوتونية والأنجلوسكونية ووجدنا من يقول : إن فرنسا هى المنبع الحقيقى وهى مستودع الحضارات عبر الأزمان .

المراجــع :

SELECTED REFERENCES

H. B. Adams, *Methods of Historical.* Johns Hopkins press, 1884.
A. W. Small, *Origins of Sociology*, chaps. iii - v. University of chicago press. 1924.

Guilday, *church Historians*, pp. 212 - 415.
Wegele, *Geschichte der deutschen Historiographie,* Book V.
Ritter, *Die Entwicklung der Geshichtswissenschaft,* Book V.
Fueter, *Histoire de , Lhisoriographie moderne,* pp. 387 - 99, 574 - 614.
Gooch, *History and History and Historians in the Nineteenth Century-*, chaps. chaps. vi - vii, xii, xviii - xxvii.

Thompson, *History of Historical writing* Vol. II, chaps. xxxvii. xli - xlii, xlv, xlvii.

schevill, *Six Historians*, pp. 125 - 190.
B. E. Schmitt, ed., *Some Historians of Modern Europe.* University of chicago press, 1942.
S. W. Halperin, ed, *Some Twentieth ceniury historians.* University of chicago press, 1961.

A HISTORY OF HISTORICAL WRITNG

Herman Ausubel *et al.*, *Some Modern Historians of Britain.* Dryden press, 1951.

Historians and Their craft. columbia university press, 1950.
R. L. schuyler, ed., *frederic William Maitland.* University of California press, 1960.

Gettrude Himmelfarb, *Lord Acton.* University of Chicago press, 1952.
H. F. Helmolt, *Leopold von Rankes Leben und Werken.* Leipzig, 1921.
S. Steinberg, ed., *Die Geschichtswissenschaft der Gegenwart in Selbstdarstel. Lungen.* Leipzig, 1925-26. 2 vols.

Guiland, *Modern Germany and Her Historians.*
G.A.H. von Below, Die deutsche Geschichtsschreihung Von Befreiungskriegen bis zu unseren Tagen. Munich 1924.
Gustav Wolf *Einfuhrung in das Studium der neueren Geschichte.* Berlin, 1910.
Halphen, *L'Historire en France depuis cent ans.*
Louis Halphen, et al., Historie et historiens depuis cinquante ans. Paris, 1927-28. 2 vols.
Croce, *Storia della storiografia italiana.*
P.N. Miliukov, *Main Currents of Russian Historiography.* Moscow, 1898.
Kraus, *A History of American History.*
The Wrinting of American History, chaps. viii, ix, xi-xii.
M. E. Curti, ed., *Theory Practice in Historical Study.* Social Science Research Council, 1946.
Elizabeath Stevenson, *Henry Adams: A Bigraphy.* Macmillan, 1955.
J. R. Cameron, *Frederick William Maitland and the History of English Law.* University of Oklahoma Press, 1961.
Henri Marrou, *De la connaissance historique.* Paris, 1956.
William Dray, Laws and Explanation in History. Oxford University Press, 1957.
Fritz Wagner, *Geschichtswissenschaft.* Berlin, 1951.
Moderne Geschichtsschreibung. Berlin, 1960.
H. W. Odum, ed., *American Masters of Social Science.* Holt, 1928.
A. M. Schlesinger *et al., Historical Scholarship in America.* American Historical Association, 1932.
J. M. Vincent, *Historical Research:* an Outline of Theory and Practice. Smith, New York, 1929.
G. G. Crump, *History and Histoical Research.* London, 1928.
Allen Johnson, The Historian and Historical Evidence. Scribner, 1926.
G.V. Langlois and Charles Seignobos, *Introduction to the Study of History.* Holt, 1912.
Ernst Bernheim, *Lehrbuch der historischen Methode und Geschichtsphilosophie.* Leipzig, 1908.
H. C. Hockett, *Critical Methode in Historical Research and Writing.* Macmillan, 1955.
Heinrich Srbik, *Geist und Geschichte vom deutschen Humanismus his zur Gegenwart.* 2 vols. Munich, 1951.

الفصل الحادى عشر

الحربان العالميتان : انهيار الدراسة التاريخية ثم نهضتها .
الحربان العالميتان والصدام بين القومية والمنهج العلمى فى الكتابة التاريخية .

بدت حركة البحث التاريخى وكأنها وصلت فى سنة ١٩١٤ إلى أسمى درجات الموضوعية وعدم التحيز . فاستهدف الباحثون التحرى عن الحقائق أكثر من استهدافهم التعبير عن مشاعرهم الوطنية . ولكن هذا لم يحل دون ظهور بعض الأعمال التاريخية الهامة التى طغت عليها الصبغة الوطنية وإن كانت هذه الظاهرة ــ خروجاً على القاعدة العامة . ذلك أن المؤرخ الذى سمح لمشاعره الوطنية أن تطغى على أحكامه أو تنال من اتزان فكره كان موضع نقد شديد ، فى حين أن المؤرخ الذى توافرت لديه القدرة على عدم التحيز ــ خصوصاً فى الموضوعات ذات الآراء المتضاربة أو الأبحاث التى تمس عزة وطنه كان موضع احترام وتبجيل كبيرين .

ولكن حدث مع مجيىء الحرب العالمية الأولى أن انبعثت المشاعر القومية من عقالها مما أدى إلى نكوص الكتابة التاريخية إلى الوراء ، أى إلى العهد السابق لفون رانكه .

وإذا قارنا كتابات المؤرخين عن الحرب العالمية بين سنتى ١٩١٤ ، ١٩٢٠ بكتابات مؤرخ مثل فوستيل دى كولانج عن العنصر الجرمانى أو بكتابات فون سيبل عن الحرب الفرنسية البروسية ، لوجدنا أن هذه الكتابات الأخيرة تتصف بأنها من النوع الهادىء الذى يتبع التحليل التاريخى . والحق أنه ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إنه منذ أيام ماجدبرج ، بارونيوس ، فوكس **Khox** وميمبرج **Maimburg** لم تشهد الكتابة التاريخية ما شهدته على أيام الحرب العالمية من عنف وغلظة

وبعد عن الهدوء . فرجل مثل أدوارد ماير من أعظم المؤرخين الذين بقوا على قيد الحياة ، وشهدوا هذا العهد ، نراه وقد تخلى تماما عن اتزانه وابتعد عما يفرضه شرف مهنته فاستسلم للهستريا الوطنية التى أصابت كافة المؤرخين فى كل البلدان . ثم كان أن أخذت مختلف الحكومات فى نشر « وثائق رسمية » عن أزمة سنة ١٩١٤ مستهدفة بذلك تبرير سياستها وللأسف امتدت يد التغيير والتزييف إلى هذه الوثائق ، وأسهم المؤرخون أنفسهم فى هذا التزييف ، ولم يحدث منذ العهد المسيحى الأول أن شهدت الوثائق التاريخية تزييفا على هذا النحو الواسع المدمر .

وفى بداية الحرب أصدر عدد كبير من الأساتذة الألمان البارزين « بياناً » يوضح وجهة النظر الألمانية فى مشكلة الحرب وأسبابها . وكان من بين الموقعين عليها عدد من المؤرخين ، شاءت الصدفة وحدها أن تؤيد ما قالوه وأذاعوه . ومعنى ذلك أن اقترابهم من الحقيقة لم يكن مرجعه أنهم نبذوا العاطفة جانباً مما مكنهم من أن يكونوا خيراً من الأساتذة الذين بحثوا الاتفاق الودى مثلاً . هذا فضلا عن أنهم لم تكن لديهم معرفة بخبايا الوثائق التى أيدت ادعاءاتهم فيما بعد . أما ادوارد ماير فقد ترك العمل فى مؤلفاته العلمية لكى يصدر المقالات التى يهاجم فيها الامبراطورية البريطانية وينتقدها نقداً لاذعاً . هذا فى حين تولى ديتزخ شافر Dutrich Schafer الدفاع فى حماسة عن برنامج الحركة الجرمانية وكان هذا هو أبرز ما قام به العدو الألمانى حين لجأ إلى التاريخ يستخدمه لمساندة القضية الجرمانية .

أما المؤرخون الفرنسيون فكانوا أكثر نشاطاً وتحمساً وإثارة من الألمان . وكان أرنست لافيس هو عميد المؤرخين الفرنسيين على الإطلاق بالنسبة لما كتبوه عن حرب ١٩١٤ . وترجع شهرته فى هذه الناحية إلى تحمسه السابق للثقافة الألمانية ثم تزعمه لحركة تجريح الألمان بعد ١٩١٤ . ذلك أنه رفض علانية فى إبريل ١٩١٥ اقتراحا محايدا بأن يتولى رجال الفكر فى الدول المتحاربة دراسة قضية الحرب وشروط السلام . وهاجم الألمان فى كثير من خطبه ومقالاته حتى قال فى خطبة له عن المانيا فى جامعة السوربون : إنها (المانيا) تسمم الفكر مثلما تسمم الماء والهواء . إنها أكبر مفسدة على وجه الأرض » . ثم إنه خاطب المندوب الألمانى فى مؤتمر الصلح فى باريس قائلا : « انتم هنا أمام قضاتكم للإجابة عن أكبر جريمة ارتكبتموها فى التاريخ . إنكم ستكذبون لأن طبيعتكم الكذب . ولكن كونوا على حذر . إن الكذب مهلكة خصوصا إذا عرفتم الذين يسمعون لكم وينظرونكم يعرفون أنكم تكذبون » .

أمـا الفونس أولارد المؤرخ العـالمي الشهير عن الثـورة الفرنسيـة ، فكتب عن الألـمـان قائلا : « إن الكذب هو المهنة القومية للألمان . وعليه يقوم نظام حكمهم . لقد أسس الهوهنزلرن الحكومة البروسية على أساس الكذب . وأخيراً وعلى نفس الأساس ولمصلحة بروسيا أسست الحكومة الألمانية . وتأسف اولارد لعقد هدنة مع الألمان ، لأنه رغب فى ذبحهم وافنائهم . أما هنرى هاوس Henri Hauser المؤرخ الخبير فى دراسة القرن السادس عشر فقد هاجم فى عنف روح الاستسلام عند الالمان ، كذلك استفز جورج بلوندول Blondel ــ وهو المؤرخ الفرنسى الرائد فى دراسة المانيا الحديثة ــ الألمان فى كتابات مطولة منها إياهم برغبتهم فى إقامة دكتاتورية عسكرية تفرض سيطرتها على كل انحاء العالم . وتطوع المؤرخ لافيس فى نشر كل أبحاث الألمان غير المؤمنين بالمبادىء الجرمانية مثل ريتشارد جريلنج واستبعد من مهنته نشر ما أصر عليه الكتاب الألمان الذين بقوا على ولائهم وإخلاصهم للنزعة الجرمانية مثل الكونت ماكسيلان مونتجلاى . وحرص أميل بورجوى Burgeois وهو المؤرخ والناشر الشهير على الدفاع عن روسيا وعدم إدانتها بالنسبة لهذه الحرب . أما جورج رينارد Renard وهو صاحب المذهب الاشتراكى والمؤرخ الاقتصادى البارز فقد أسهم فى الدعاية لصالح الحلف المعادى لألمانيا والذى كان من سياسته مقاطعة كل ما هو ألمانى .

وفى انجلترا كتب ويكهام ستيل Wickham steel قصصا لا تستند إلى الحقيقة عن جذور الحرب . وادان النمسا ومجد الصِّرْب . أما ر . و . سيتون واطسون فقد دافع عن السلاف الجنوبيين وأدان سياسة الامبراطورية النمسوية المجرية . اما ج . و . هيدلام الذى كتب سيرة بسمارك فقد اشترك مع هـ . ج . ولز Wells فى تنظيم وإخراج الدعاية المضادة لألمانيا . وفى مقابل هذه الخدمة أنعم عليه بلقب سير وأصبح يعرف بالسير جـ . و . هيدلام مورلى J .W. Headlem —Mor-ley كذلك سقط المؤرخون الانجليز فى هذه الهوة فيما عدا قلة قليلة مثل ريموند بيزلى Raymond Beazley ، ف . و . هيرست ، ف . ك . كونبير . كان هيرست أساسا رجل اقتصـاد وكونبـير متخصصا فى دراسة الانجيل . بل إننا نجد رجلا مثل المؤرخ الاقتصادى العظيم ذى الشهـرة الواسعة اركيـديكون وليم كننجهـام Archdeacon William Cunningham يهاجم النـزعة المسالمة عند الانجليز ، ويرى أن واجبهم أن يتعقبوا من يسعى لاستئصال الخير من هذه الدنيا ، ويقول انه من الواجب على الجنود الانجليز ان يقتلوا الألمان قدر استطاعتهم . وقد جمعت نداءاته التى تنادى بمزيد من دم العدو وطبعتها جمعية نشر الإنجيل .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد خرج عدد كبير من المؤرخين على ما سبق أن التزموا به فكريا وفاقوا بانكروفت فى حماسنهم الوطنية . ومرجع ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بعيدة عى أى خطر حقيقى . وفى غياب طلقات المدفع ، كان على الجماهير الأمريكية ان تثأر بطلقات ملتهبة من البلاغة والبيان . ثم إنه لم يكن هناك غنى عن الدعاية لبناء معنويات الأمريكيين وجعلهم يستعدون للتضحية بالدم . وهكذا تعرض المؤرخون الأمريكيون القليلون الذين التزموا بالموضوعية التى كانوا عليها قبل الحرب للامتهان . واتهموا فى بعض الأحيان بأنهم منشقون على الفكر الأمريكى . ومن هؤلاء سيل Sill شيفل ، طومبسون ، هندرسون ، شيفرد Shepherd ، بريزرفد سميث وآخرون . لكن الهجوم كان أقوى على أولئك الذين أيدوا الألمان مثل الأساتذة برجس ، سلون Sloane وأنتخب وليم روسكوثاير رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية مرتين لأنه كان من أكثر من ساهم فى مجال استخدام التاريخ للدعاية الحربية . ولم تجد التحذيرات التى أطلقها هـ . مورس ستيفنس H. Morse Stephens فى خطابه الذى ألقاه يوم انتخب رئيسا لاتحاد الجمعيات التاريخية الأمريكية قبل الحرب بعام .

أما من تزعم حركة التنديد بالألمان من المؤرخين الأمريكيين فهم وليم روسكاثاير ، شارل دونر هازن Charles Downer Hazen وليم ستيرنس دافيس William Stearns Davisمونرو سميث ، البرت بوشنل هارت ، ايرل ا. سبرى Earle E.Sperry ماك نت ماك الروى R. Mc Nutt Mc Elory ، ا. رايجوند تيرنر ، برنادوت شمت ، كلود هالستد فان ثين . ومن أعجب الأمور حالة المؤرخ جورج لنكولن بير الذى كان واحدا من أبرز ستة مؤرخين فى أمريكا وكان من دعاة التسامح . ولكنه وقد جرفه تيار التعصب برغم تقدم سنه ، ارتدى البدلة الكاكية وتدرب مع الشباب فى معسكرات كورنل . كذلك ساهمت جامعات معينة فى إخراج دراسات تاريخية عن فلسفة الكراهية للألمان . وأبرز مثل لذلك ما أصدرته جامعة وسكونستين بعنوان (كتاب الحرب) . هذا عدا وثائق مشابهة أصدرتها جامعات أخرى . وخير دليل على التحول عن الموضوعية كان ما انتجته منظمة الهيئة القومية لرعاية التاريخ (The Organization of the National Board For Historical service) التى كان يشرف عليها الاساتذة جـ . ت . شوتويل ، جاى س . فوردGay S. Ford ، وما قامت به هذه المنظمة من تعاون مع مكتب كريل وهو الفرع الرسمى الحكومى المختص بأمور الدعاية . وكان أن نافس شوتويل جيمس هارفى روبنسون فى زعامة المدرسة الجديدة فى التاريخ . وساعده فى الهيئة القومية من سجلت أسماؤهم فى

لوحة الشرف مؤرخون سبق أن كانوا من أبرز المؤرخين الأمريكيين تجلت فضائلهم فيما قاموا به من أبحاث تاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا اتجهت الكتابة التاريخية فى الولايات المتحدة الأمريكية لخدمة شئون الدعاية وأخذ المؤرخون الأمريكيون المشهورون يسهمون فيما تنشره هذه الجمعيات التى يغلب عليها الطابع الوطنى مثل مجلس الأمن القومى وجمعية الدفاع الأمريكية ولم يقتصر الأمر على ما وجه للألمان من كونهم أمة صغيرة أقل شأناً من الأمة الأمريكية بل صار هناك تركيز حول ما لبريطانيا من فضل على الأمريكيين . وكان معنى ذلك أن الثورة الأمريكية صارت خطأ ينبغى استهجانه . واستمرت رئاسة اتحاد الجمعيات التاريخية مدة عشر سنوات بعد الحرب يتولاها أولئك الذين يكرمون مقابل ما أدوه من خدمات لقضية الحلفاء .

ثم أقبل الفجر

وإذا كانت العاطفة والولاء ظلتا تستحوذان على عقول معظم المؤرخين لمدة عشر سنوات أو أكثر بعد سنة ١٩١٨ ، فإن هناك تحولا محدودا سرعان ما ظهر بين قلة من المؤرخين ذلك أنه ظهرت مصادر جديدة يسترشد بها الباحث بدلا من تلك الوثائق الرسمية المنتقاة بعناية والتى طبعتها الحكومات المختلفة خلال الحرب . وتوفرت هذه المصادر نتيجة لما قام به عدد من الأساتذة العلماء الذين لم يجرفهم تيار العاطفة خلال الحرب أو من بين أولئك الذين تخلصوا من هذا التيار بعد الحرب . وهؤلاء وهبوا أنفسهم لدراسة الوثائق التى صدرت عن الحرب . وكانت النتيجة أنه خلال عشر سنوات أصبح لدينا معرفة متكاملة ودقيقة عن أسباب الحرب العالمية الأولى أكثر مما لدينا فى سنة ١٩١٤ عن أسباب الحرب البروسية الفرنسية .

وإذا كانت الكتابة التاريخية خلال الحرب قد تركت أثراً عميقاً على خط سير الأبحاث التاريخية ، فإن الجهد الذى بذله عدد من أقدر المؤرخين بعد انتهاء الحرب فى الدراسة التى قاموا بها وتناولوا فيها مقدمات سنة ١٩١٤ يعتبر من أبرز الأمثلة على عظمة ما ظهر من أبحاث تاريخية فى مدى قرن كامل .

وعلينا الآن أن نتقصى أسباب هذه النهضة التى لحقت بالكتابة التاريخية فى إيجاز والتى خرجت إلى حيز الوجود بعد انتهاء الحرب . ذلك أنه كان من المعتاد حتى الوقت الذى اندلعت فيه نار

الحرب العالمية الأولى أن تخفى الحكومات الوثائق المتعلقة بالأحداث الخاصة بسياستها الخارجية لمدة أربعين أو ستين سنة من تاريخ حدوثها .

فمثلا فى سنة ١٩١٤ لم تنشر كل من فرنسا أو المانيا الوثائق الخاصة بالحرب البروسية الفرنسية التى وقعت سنة ١٨٧٠ . فكيف أمكن اذا للمؤرخين فى مدى ربع قرن فقط منذ ١٩١٤ أن يفرغوا من دراسة تلك الوثائق التى جاءت بها الحرب العالمية دراسة لا مزيد عليها ؟ الواقع أن الموقف كان يشكل تماما تجربة جديدة بالنسبة لتاريخ البشرية ، ذلك أنه نجم عن الثورات التى تأججت فى كل من النمسا ، وروسيا وألمانيا فى سنة ١٩١٧ - ١٩١٨ قيام حكم جديد فى كل منها لم يكن له مصلحة فى إخفاء الحقائق بل كان نشرها أمرا يساعد على زعزعة الثقة فى النظام الملكى السابق على وجود هذه الأنظمة . وقد استهدفت هذه الأنظمة الجديدة فى تلك البلدان من وراء نشر تلك الوثائق الموجودة فى وزارات الخارجية ، إبراز الحقيقة الخاصة بأن الحكومات الإمبراطورية هى المسئولة عن إشعال نار الحرب العالمية . واعتقد الحكام الجدد أن ذلك أمراً من شأنه أن يدعم الحكم الثورى الجديد . كذلك أحس هؤلاء الحكام أن كراهية الناس للأنظمة القديمة تأتى من خلال معرفتهم بأن الحكومات الملكية هى المسئولة عن الدمار المخيف الذى لحق بالعالم من جراء الحرب العالمية .

وهكذا تطوعت الحكومات النمساوية والألمانية فى نشر طبعة كاملة للوثائق الموجودة فى وزارات الخارجية لديهم والتى تناولت حرب ١٩١٤ ونشرت هذه الوثائق فى النمسا تحت اسم « الكتاب الأحمر » وفى المانيا عرفت باسمKantsky Documentsثم نشر الألمان فيما بعد كل الوثائق الخاصة بالفترة منذ سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . كما أصدر فردريك ثيمThimmeوآخرون الكتاب الشهير باسم « السياسة الكبرى »Gross Politikتاركاً الوثائق تتكلم عن سياسة المانيا الخارجية فى نصف القرن السابق على قيام الحرب ومتحديا الدول الأخرى أن تفعل ما فعلته المانيا . ونشرت النمسا هى الأخرى فيما بعد تجميعا مختصراً فى ثمانية أجزاء للوثائق الخاصة بالفترة منذ ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ . وقام بتدوين هذه الوثائق لودفيج بتيرLudwig Bittner وهانز اوبرسبرجر Hans Ubersberger . وكشفت هذه الوثائق عن العلاقة بين النمسا والصِّرْب فضلاً عن أنها تضم فحوى ما تدعيه النمسا ضد الصِّرْب والروس .

وبالمثل حدث تقدم كبير فى وزارات الخارجية فى دول الحلفاء من أجل نشر الوثائق وكانت روسيا أولى الدول التى نشرت وثائقها بادئة بنشر مواد المعاهدات السرية للاتفاق الودى بين دول

الحلفاء الذى وقع فى نوفمبر ١٩١٧ . ولم تنتظم الحكومة الروسية البلشفية فى طبع وثائقها وإنما سمحت للدارسين الفرنسيين والألمان مثل رينيه مارشان Rene Marchand فردريك ستيف Fredrich Stieve أن يطلعوا على الاراشيف ويأخذوا منها ما يرونه مناسبا لأبحاثهم . وكان أن جمع ستيف الوثائق التى أمكنه الاطلاع عليها ونشرها فجاءت شيئا لا نظير له من حيث تحرى الأمانة والدقة . كذلك قام ب . دى سيبر B.de Siebert سكرتير السفارة الروسية فى لندن بنسخ الوثائق المتبادلة بين سانت بطرسبرج ولندن فى السنوات السابقة على الحرب . وأعد الوثائق للنشر . أما .إ. أ . اداموفE.A. Adamov فقد اعد للطبع الوثائق الخاصة بصراع روسيا للسيطرة على المضايق .

وكانت الحكومة البريطانية أول حكومة غير ثورية تتطوع بنشر وثائقها الخاصة عن نشوب الحرب العالمية ، فبدأت ذلك فى خريف ١٩٢٦ . وصدر من هذه الوثائق الرسمية عن أصل الحرب أحد عشر جزءاً تناول الأحداث من سنة ١٨٩٨ ــ ١٩١٤ . وقد قام بإعدادها للطبع جـ . ب . جوش ، G.P. Gooch/هـ . و . ف . تمبرلى . وإذا كانت الحكومة الفرنسية لم تنشر وثائقها إلا بعد عام ١٩١٤ بما يتجاوز عشر سنوات فإننا نستطيع أن نتعرف على الحقائق الأساسية المتعلقة بالدبلوماسية الفرنسية من واقع الوثائق الروسية والبريطانية ، لأن الفرنسيين كانوا حلفاء الإنجليز والروس فى تلك الحرب . وقد أوضح ما قام به ديمارتيال Demartial فون فرجر von Wergerer وآخرون معهما أن الوثائق الفرنسية التى صدرت باسم الكتاب الاصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى باسم الكتاب الأصفر عن فترة الحرب تحوى الكثير من الحذف والتحريف ، وأنه ليس من المطبوعات الرسمية التى صدرت خلال الحرب ما يضاهيها فيما حوته من تحريف . ولا يقارن بها فى ذلك الاتجاه سوى ما أصدره الروس باسم الكتاب البرتقالى .

وبناء على طلب الباحثين المحايدين من كل أنحاء العالم وبناء على طلب عشاق الحقيقة فى فرنسا ، أعلنت الحكومة الفرنسية أخيراً فى سنة ١٩٢٨ أنها ستطبع الوثائق المحفوظة فى وزارة خارجيتها والمتعلقة بأزمة ١٩١٤ وعن التيارات السياسية المتعلقة بسنوات ما بعد ١٨٧١ . وأوضح روبرت ديل Dell فى بحث له دقيق نشر فى لندن بتاريخ ١٤ يناير ١٩٢٨ فى صحيفة الأمة أن اللجنة التى عهدت إليها الحكومة الفرنسية باختيار الوثائق وإعدادها للطبع لم تهتم بالدقة والأمانة

ومراعاة الترابط والتكامل فيما تنشر . ولم تضم اللجنة أحداً من المعارضين للحكومة أو المؤرخين بقصد مراجعة هذه الوثائق ، وقال ديل ما نصه : « إن الحكومة الفرنسية اعترفت أخيراً بأنها لا يمكن أن تمتنع وتماطل أكثر من ذلك فى طبع وثائقها الديبلوماسية المتعلقة بأصل الحرب . ولذلك ألفت لجنة من ٤٨ شخصا للإشراف على عملية النشر وتضم هذه اللجنة أربعة أمناء كان ثلاثة منهم موظفين حكوميين كما ضمت اللجنة بين أعضائها ثلاثة عشر من المرظفين الدائمين فى وزارة الخارجية الفرنسية ومن رجال السلك السياسى ، معظمهم كان من له اهتمام عن قرب بالأحداث التى أدت إلى الحرب . وتشكيل اللجنة على هذا النحو يؤكد سوء قصد الحكومة الفرنسية ويوضح أن الحكومة الفرنسية لن تنشر كل وثائقها لأنها إن فعلت ذلك سيتضح أن كثيراً من الحقائق حذفت واستبعدت من كتابها الأصفر . وقد أثبت ذلك من قبل م . ج . جورج ديمارتيال فى كتابه الصغير (انجيل وزارة الخارجية الفرنسية) وهو الكتاب الذى لم يصدر عليه تعقيب ولا يمكن أن يصدر مثل هذا التعقيب .

وفى سنة ١٩٢٩ ظهرت الأجزاء الأولى من الوثائق الديبلوماسية الفرنسية ١٨٧١ ـ ١٩١٤ وأخذت طابعاً معيناً فى اختيارها وإعدادها للنشر . لكن هذه الأجزاء التى صدرت فاقت فى دقتها أى كتب أخرى صدرت عن هذا الموضوع .

وكان أن أغار الألمان خلال الحرب على الأرشيف البلجيكى ونشروا مجموعة الوثائق الديبلوماسية البلجيكية تحت إشراف برنارد شورتفجر Bernhard Schwertfger أما مجموعة الوثائق الخاصة بالتاريخ الديبلوماسى للصرب فقد قام بنشرها ميلوخ بوجهتشوتش Milosh Boghitschewitsch ذاتها . وتقوم الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بنشر وثائقها الديبلوماسية عن فترة الحرب وكان فيما قامت به الحكومات فى هذا المجال ما جعل فى الإمكان أن نتكلم عن جريمة الحرب فور انتهائها مباشرة مستندين إلى مصادر عن جريمة الحرب . ولأول مرة فى التاريخ البشرى يستطيع جيل عاش حرباً عظمى ان يعرف الحقائق من مصادرها .

وبالإضافة إلى الوثائق التى يستند إليها فى معرفة تاريخ حرب ١٩١٤ ، فإن معظم كبار الديبلوماسيين الذين نهضوا بدور هام فى تلك الحرب نشروا ذكرياتهم أو يومياتهم التى تتضمن آراءهم بالنسبة للأزمة . ومن هؤلاء القيصر ، فون بثيمان هولوج Von Bethman Hollwag ، فون جاجو von Jagow ، فون مولتكا ، فولكنهاين ، بورتاليز Pourteles ، فون شون Von

Schoen ، ليكنوسكي Lichnowsky ، هويس Hoyos ، كونراد ، موسولين Musulin

سازانون ، شيلنج ، روزن ، دبرورسكر ، توناكاريه ، فيفالى ، باليولدج اسكويث ، جرى (٣٢٥) ،

تشرتشل ، برتى Bertie بوكانان Buchanan ، هالدن Haldene ، نيتى Nitti . وقد حال الموت

بين ايزفوسكى وبين إتمام مذكراته ولكن رسائله التى حفظت بالكامل ، نشرت بعد ذلك ، توضح

هذه الرسائل كثيراً من الحقائق التى تفوق ما كان منتظراً أن تكشف عنه مذكراته . وكذلك ،

يتمكن ليوبولد بيركتولدBerchtold من إتمام مذكراته لأنه حيل بينه وبين استخدام الوثائق

المحفوظة فى فينا استخداماً حراً .

ومع أنه ينبغى أن تستخدم هذه الكتب بحذر ، إلا أنها غالباً ما تساعدنا على فهم الوثائق

فهماً أعمق ، وعلينا أن نعى تماما الدوافع التى سيطرت على الديبلوماسيين الذين شنوا الحرب و

أولئك الذين فشلوا فى منع اندلاعها ومع ذلك فإنه من مصلحة الكاتب فى الوقت الحاضر أن يلتقى

بنفسه مع الديبلوماسيين الهامين المسئولين عن أحداث سنة ١٩١٤ ويستجلى منهم الكثير من النقط

الناقصة أو المتضاربة .

وقد تناول جورج بيبودى جوشGoochالحديث عن المادة الخاصة بأحداث الحرب وهى

المادة الغزيرة المتسعة ، وذلك فى كتاب له صدر سنة ١٩٢١ سماه (أحدث الكشوف فى ميدان

الديبلوماسية) وروجع هذا الكتاب وأضيف إليه وهو يمتاز بالاتزان والدقة واتزان الأحكام حتى إنه

يفى بالغرض إلى حد كبير ، وإن كان فى بعض الأحيان قد غالى فى احترام تجار الكذب الذين

يشغلون مناصب عليا .

وكان من الطبيعى أن تبدأ فى ألمانيا قبل غيرها دراسة جذور الحرب العالمية الأولى دراسة

قائمة على النقد والبحث . وذلك أن مؤرخى دول التحالف اضطروا إلى انتقاء بعض الحقائق

وطمس بعضها الآخر من أجل الدفاع عما كان بينهم من اتفاق وتحالف . وسبق أن أشرنا إلى

الجهود التى بذلت من أجل نشر الوثائق الألمانية من سنة ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ . وكان أن تناول عدد

من الباحثين تاريخ الديبلوماسية الألمانية فى فترة ما قبل الحرب . وخيرة هذه الكتب وأفضلها هو

كتاب ايرك براندنبرج Erich Brandenburg الذى يعتبر من أحسن الدراسات عن

الديبلوماسية فى الفترة السابقة للحرب العظمى كذلك تناول نفس الفترة كتاب فيت فالنتينVeit

Valentine وهو الخاص بسياسة ألمانيا الخارجية . أما الفترة الحرجة فى تاريخ ألمانيا وهى التى

شهدت تولى بيلوف Bulov منصب رئاسة الوزارة الألمانية فقد تناولها يوحنا سالرJohannes

Haller . على أن أقوى هذه الدراسات تكاملا عن الديبلوماسية الألمانية فى فترة ما قبل الحرب هى ما كتبه اوتوهامان Otto Hammann وتقع فى عدة أجزاء ، حيث ان اوتو هامان كان وثيق الصلة لفترة طويلة بوزارة الخارجية الألمانية .

أما هرمان لوتز فقد أعطانا أعظم دراسة لسياسة انجلترا على عهد السير ادوارد جراى ، كما أنه أنجز دراسة من أعظم الدراسات المختصرة المتقنة والدقيقة عن بداية الحرب العالمية الأولى واستند فى كتابتها إلى أحدث الوثائق . كذلك قام فريدريك استيف بالكتابة عن سياسة ايزفولسكى وبونكاريه من واقع المعلومات التى توفرت له من دراسة الوثائق الروسية . وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك دراسة قام بها ماجورجينتر فرانتز عن مراحل دخول روسيا الحرب العالمية وضمن دراسته هذا أمر التعبئة التاريخى الذى صدر فى ٣٠ يوليو ١٩١٤ . أما أكثر الدراسات دقة عن ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فهى تلك التى قام بها الكونت ماكسميلان مونتجلاس Monteglas إذ لا يباريه أحد فى حسن السرد ووضوح العرض . واستطاع ماكسميلان معتمدا على دراسته للوثائق البريطانية الحديثة أن يقوم بعمل موجز فذ عن سياسة سير ادوارد جراى . أما ألفرد فون فجرر Alfred Von Wegerer فقد بذل ما فى وسعه فى دراسة تستهدف إعادة النظر فى مشاكل مسئولية الحرب ، ووجه ضربة عنيفة لرجال السياسة الذين ادانوا ألمانيا فى مؤتمر فرساى .

أما خير ما يقرأ من بين ما كتبه الألمان عن أصل الحرب فهى ما كتبه تيودور ولفThedore Wolffبعنوان (عشية حرب ١٩١٤)The Eve 1914 وهى كتابة دقيقة برغم ما فيها من قسوة على بركتولد . وأكثر هذه الكتابات متعة هو الكتاب الحديث الذى كتبه لودفيج رينير Ludwig Reiner باسم « انطفأت الأنوار فى أوربا » وقد صدر سنة ١٩٥٥ . وهناك كتاب ألمان مثل هرمان كانتورتز Hermann Kantorwitz كان لكراهيتهم لأسرة الهوهنزلرن أثرها فيما أصدروه من أحكام فضلا عن تفسيرهم لأحداث الحرب وتميزت كتابة كانتوروكز بتشيعه للإنجليز .

أما عن دور النمسا فى أحداث ١٩١٤ فقد تناولها الفرد بريبرام Alfred Pribram لودفيج بيتنر Ludwig Bittner هانز اوبر سبرجر Hans Ubersberger أ.ى ويدل.O. H. Wedel ولكننا ما زلنا فى حاجة إلى مزيد من الدراسة بالنسبة لقضية النمسا وبركتولد .

وفى هولندا كان رائد الباحثين فى فترة ما قبل الحرب وديبلوماسيتها هو نيقولا جابيكسNicolaus Japikse وقد ظل المؤرخون الرسميون والأكاديميون فى فرنسا ملتزمين

بالموقف السليم من الوجهة الرسمية وفى دراساتهم لقيام الحرب العالمية بمعنى أنهم تولوا تبرئة فرنسا من مسئولياتها عن الحرب . وخير ما لدينا من هذا النوع من الكتابة هو ما سرده اثنان من أبرز المؤرخين المتخصصين فى دراسة الدبلوماسية هما بورجو Burgeois ، باجيه Pages أما بالنسبة للعمل الذى قام به بطرس رينفرPierre Renouvoin والذى حظى بثناء عريض فلا يعدو أن يكون أكثر من تبرير ودفاع عن موقف فرنسا خلال الحرب . وشبيه بعمل رينفو عمل جولس اسحق. Jules Jsaac

وإذا كان المؤرخون الفرنسيون لم يتمكنوا من استعادة اتزانهم من أثر صدمة الحرب فإن كثيرين من الصحفيين والناشرين الذين اتسموا بالشجاعة قد نجحوا فى ذلك ومن أبرز هؤلاء بيفيه Pevet ، دوبانDupin ، مورهاردت Morhardt مارجريت Margreitteجوديه Judet ، لازار Lazare ولكن أكثرهم كفاءة ومثابرة على العمل هو ذلك الموظف السابق فى وزارة المستعمرات الفرنسية جورج ديمارتيال Demartial الذى كان غصة فى حلق أولئك الرسميين الذين انبروا يزورون الحقائق ويختلقون المبررات دفاعا عن فرنسا واتصف عمله بمعرفة دقيقة بالوثائق والدقة المتناهية فى سرد الحقائق .

أما جورج ميشون Michon فقد كتب أحسن ما يمكن كتابته وأحسن ما يمكن الاعتماد عليه بالنسبة لتطور التحالف الفرنسى الروسى وهو التحالف الذى لعب دورا كبيرا فى دفع أوربا الى حافة الحرب وهناك الناشر الفرنسى الفذ الفرد فابرلوسىAlfred Faber Luce الذى امدنا بأحسن ما كتبه فرنسى متزن عن حرب ١٩١٤ أما السيد ابراىAlcide Ebrayفقد تداول معاهدة فرساى وأوضح ارتباطها بالأخطاء التى حدثت بسبب الدعاية للحرب كذلك درس بإسهاب حوادث انتهاك المعاهدات فى أوربا منذ عام ١٨١٥ مفنداً الزعم الشائع أن ألمانيا هى الدولة الوحيدة التى لم تحترم أية معاهدة وأنها كانت تحيلها إلى « قصاصة ورق » .

وظل الصراع من أجل الوصول الى الحقيقة قائما فى انجلترا خلال الحرب وبعدها وهى الحركة التى تزعمها كل من فرانسيس نيلسون Neilson ، أ . وموريل Morelواشتهر الأخير بتعريضه بالأعمال غير المشروعة التى قام بها ليوبولد ملك بلجيكا فى الكونغو أما أول دراسة ناقدة واسعة تتضمن وجهة النظر البريطانية الرسمية عن أسباب الحرب فقد جاءت فى كتاب لورد لوربيرن Loreburn بعنوان « كيف بدأت الحرب »How the War Cameوهى الدراسة التى استشهد فيها مؤلفها بالوثائق البريطانية على نطاق واسع كذلك بذل ج.ب جوش Gooch جهدا

كبيرا فى هذا الصدد وكان نشطاً وجاداً بوجه خاص فى الوصول الى منطق سليم للأسس السياسية للحرب العظمى ذلك أنه كتب أول دراسة لا نظير لها عن السياسة الأوربية منذ عام ١٨٧٨ حتى عام ١٩٢٠ وقدم خير عرض فى مؤلف حديث اتسم بالبحث القائم على الأسانيد والبراهين كذلك كتب لويز ديكنسون Dickenson أحسن بحث موجز يفى بالغرض عن التيارات السياسية فى عام ١٩١٤ والفترة السابقة لها أما سير رعوند بيزلى فقد كتب خير الكتب الموجزة عن الحقائق المتعلقة بحرب ١٩١٤ وليس لما كتبه شبيه بأى بلد آخر كذلك كتبت ايرين كوبر ولز Irene Cooper Willis ، وكارولين أ. بلاين Playne أعظم الأبحاث عن هستريا الحرب العالمية والدعاية فى انجلترا خلالها وكما كان الحال فى فرنسا كان معظم علماء التاريخ فى انجلترا متشابهين فى التعبير عن وجهة النظر الرسمية فيما يختص بكيفية قيام الحرب وخير من يمثل المؤرخين الإنجليز فى ذلك أحسن تمثيل ر.ب. موات R.B.Mowat ومن أحدث الكتب الإنجليزية الهامة عن أصل الحرب العالمية ما كتبه هـ . و . ولسن H.W.Wilson بعنوان « إثم الحرب » The War Guilt وقد ضمنه كافة الأكاذيب والدعاية التى ترددت أثناء الحرب . أما كتاب جون مورلى بعنوان « مذكرات عن الحرب » فقد تضمن ما يثبت أن بريطانيا قررت الدخول فى الحرب قبل أن تثار مسألة بلجيكا فى اجتماعات مجلس الوزراء وأحسن ما كتبه كندى عن حرب ١٩١٤ وسوابقها الدبلوماسية هو ما ألفه المحامى الكندى الشهير ج . س . ايوارت . J.S.Ewart

وفى روسيا لم تهتم الحكومة بتبرئة النظام القيصرى البالى ومن ثم فقد يسرت أمر البحث فى أصل الحرب وتزعم حركة البحث هذه ادانوف وبوكروفسكى Adanov and Pokrovsky أما ميلوش بوجهتشوش Milosh Boghits cheuitsch وهو من الصرب ومن رجال السلك السياسى السابقين فقد كتب عدة كتب عن مسئولية الصرب فى الحرب العالمية وإن لم يسمح له بالاطلاع على دور الحفظ فيها . ذلك أن الدوائر الرسمية فى الصرب تمكنت من صيانة أسرارها الخاصة بسياسة ما قبل الحرب ولو أن مؤرخا صربيا هو الذى كشف أن باشيتش Pashitsch ومجلس وزراء الصرب كانوا يعلمون بمؤامرة اغتيال ارشيدوق النمسا قبل وقوعها بعدة أسابيع . وعلى الرغم مما تعرضت له إيطاليا من حكم فاشستى ورقابة صارمة فإن المؤرخين الإيطاليين استطاعوا أن يدلوا بدلوهم فى مجال المعرفة عن بداية الحرب وكان الباحثون الرواد فى هذا المجال هم كورادو بارباجلو Corra-do Barbagallo واغسطين تور Augustine Torre الكونت البرتو لامبروسو واشتهر الأخير بتركيزه البحث على العوامل الاقتصادية والتجارية التى تسببت فى حرب ١٩١٤ وتناوله الدبلوماسية الانجليزية بالنقد .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فان رجال الصحافة كانوا أول من انتقد وجهة نظر الدولة الرسمية عن أسباب الحرب العالمية الأولى ودخول الولايات المتحدة الأمريكية فيها . ونشير هنا إلى ما قام به فرانسيس نيلسون ، البرت جاى نوك ، جون كينث تيرنر . وكان سدنى برادشو فاى Bradshaw Fay أول مؤرخ هام فند أسطورة الاتفاق الودى وأثارت مقالاته في المجلة الأمريكية التاريخية في أعدادها الصادرة سنة ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ اهتماماً ودهشة بين العالم المتحضر . ثم نشر الأستاذ فاى بعد ذلك بثماني سنوات أحسن وأكمل بحث عن الأسباب السياسية للحرب العالمية الأولى ولم يؤخذ عليه سوى عدم قدرته على دراسة قضية النمسا دراسة كافية . ثم عولجت هذه السقطة إلى حد ما في طبعات الكتاب التالية وتضمن كتاب المشرع الأمريكى فردريك بوزمان Bausman هجوما هو الأول من نوعه من جانب أمريكى على الدعاية الخاصة بالتحالف وذلك في كتابه الذى صدر سنة ١٩٢٢ بعنوان : « دع فرنسا تشرح » وكان للعلماء الأمريكيين ابحاثهم في دراسة الدبلوماسية الأوربية قبل ١٩١٤ . فلدينا التحليل الذى قدمه ميلدرد ورتمر Mildred Wertheimer عن العصبة الجرمانية . وهناك كذلك بحث وليم ل . لانجر عن بداية التحالف الروسى الفرنسى . لدينا العرض المتقن الذى قدمه لنا شومان F.L.Schuman عن الدبلوماسية الفرنسية وما قام به أ . ف هندرسون عن نقد لسيرة ادوارد جراى . وهناك الملخص العظيم لفترة ما قبل الحرب أعده ر . ج . مونتاج . أما أحسن الأبحاث واكفؤها عن تاريخ أوربا الدبلوماسى قبل ١٩١٤ فهو العمل الذى لم يكتمل بعد والذى قام به وليم لانجر Langer وكان ما تم إنجازه من هذا العمل ينبىء بأنه سيكون أحسن تاريخ دبلوماسى بالنسبة لكل اللغات طيلة نصف قرن قبل ١٩١٤ . كذلك ثمة خلاصة على أعلى درجة من الكفاءة كتبها ج . و . سوين Swin بعنوان بداية القرن العشرين Beginning the twentieth century .

وكان الأمل معقودا بدرجة كبيرة على شميت Schmitt بوصفه أحد الدارسين لدبلوماسية ما قبل الحرب . ولكن عمله الذى أتمه تحول إلى دفاع من وجهة النظر الرسمية الخاصة بجريمة الألمان وأكاذيبهم ، وهو الأمر الذى نقده في إسهاب م .هـ .كوشران Cochran كذلك هاجم الكتاب الأمريكيون وجهة النظر التقليدية الخاصة بأسباب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى . وأعظم الكتب في هذا المجال هي كتب ك . هـ . جراتان C.H.Crattan ووالترميليز Walter Millis . وما كتبه بصفة خاصة ش .ك . تانسفيل Tansville ، وثمة نقد على نطاق واسع وجه إلى ما زعمه ج . ك . تيرنر من أن العوامل الاقتصادية وخاصة مسائل البنوك

كانت الدافع الذى دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى دخول الحرب العالمية الأولى وتم تغيير هذا الرأى استناداً إلى ما حوته الوثائق من معلومات ، وخاصة تلك التى كشفت النقاب عنها لجنة ناى Nye كذلك أنكر نيوتن د . بيكر Newton D. Baker بعد عشرين عاما من ١٩١٨ — أن عامل البنوك كان له أثر فى دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى . هذا إلى أن الدراسة التى جاءت من عدة أجزاء عن دور ولسن والتى قام بها راى ستاندر بيكر Baker تضمنت أعظم المعلومات عن هذا الموضوع .

أما عن نشاط كلود كتشن Claude Kitchin خلال سنوات ١٩١٤ إلى ١٩١٨ فإن الأستاذ الكس . ارنت Arnett قام بدراسة عن حقيقة مؤتمر سنريس الشهير Sunrise Conference وأثبت أن ولسن قرر الدخول فى الحرب إلى جانب الحلفاء قبل عدة شهور من إقدام ألمانيا على حرب الغواصات . ومع ذلك فإن المؤرخين الأكاديميين ظلوا غالبا سلبيين أو تقليديين . من ذلك أن شارل سيمور بصفة خاصة دافع عن الادعاءات التى ترددت أثناء الحرب . وخير ما ينقل لنا صورة ما تردد وقت الحرب هو ما قرره جيمس طومسون شوتويل أمام اتحاد رجال المال فى نيويورك فى سنة ١٩٣٦ إذ قال : « لقد قامت هنا الأمة بما ألقاه عليها التاريخ من عمل ، دون أن يكون سبب دخولنا الحرب الحفاظ على أموالنا ، وإنما كان السبب هو الاعتداء على علم بلادنا فى أعالى البحار وعندئذ لم نتردد فى الرد على ما وجه إلينا من إهانات . »

على أن ما قاله شوتويل لم يشرح السبب الذى جعل الولايات المتحدة الأمريكية تحجم عن الرد على هجوم بريطانيا على العلم الأمريكى فى أعالى البحار ، بل حين حرق العلم الأمريكى وتطايرت شظاياه فوق السفن البريطانية . ولم يحدث أن قام أستاذ بحاثة حتى ١٩٣٦ بنشر بحث دقيق عن سبب دخول الولايات المتحدة الحرب حتى أصدر شارل ك . تانسفيل كتابا بعنوان أمريكا تدخل الحرب ، وهو كتاب جدير بأن يقارن بعمل فاى .

وهناك سبب هام يكمن وراء عدم قدرة المؤرخين الأكاديميين فى دول التحالف على التعبير عن وجهة نظرهم فى مسئولية الحرب . وهو أن كثيرا منهم قد عينوا مستشارين فنيين لأولئك الذين عهد إليهم وضع المعاهدات التى أنهت الحرب . وشعر هؤلاء المؤرخون بنوع من المسئولية تجاه معاهدة فرساى والمعاهدات الأخرى التى عقدت فى ذلك الوقت لأنهم اعتبروا هذه المعاهدة من صنع أيديهم ومن ثم يمكن القول إن أولئك المؤرخين الذين اشتركوا فى صياغة هذه المعاهدات وجدوا أن مصلحتهم تتطلب الدفاع عن وجهات النظر التقليدية فى هذه المسائل .

وجهات نظر الباحثين عن مسئولية الحرب

يمكن تصنيف الكتاب الذين تناولوا المشكلة العامة لمسئولية الحرب إلى ثلاث فئات :

١ - الملتزمين بفكر معين سابق .
٢ - المتحفظين .
٣ - المنقحين والمصححين للآراء السابقة .

ولقد استخدم الكتاب المحدثون هذه المعايير الثلاثة عند الكتابة عن إثم الحرب وبحث مسئولية هذا الإثم . وسواء أكان هذا التصنيف مفيداً أم لا ، فإن استخدامه أصبح دارجا فى تصنيف وتمييز المجموعات العديدة من الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع .

أما المجموعة الأولى فهم أولئك الكتاب الذين برغم اطلاعهم على الوثائق الحديثة ، فإنهم مازالوا ملتزمين بوجهة نظر معينة كانت سائدة أيام الحرب عن مسئولية دول المحور عن قيام الحرب العالمية . ويتزعم هذه المجموعة من الكتاب هنريك كانر **Heinrich Kanner** . هرمان كانتوروكز ، اميل لودفيج ، ريتشارد جريلنج ، اميل بورجو **Burgeois** ، جورج باجيه **Pages** ، انطون ديبدور **Antouin Debidour** ، ويكهام ستيد ، وسيتون واطسون ، جـ . وهيرلام مورلى ، هـ . و . ولسن ، شارل دونرهازن ، أ . رايموند تيرنر ، وليام ستيرنز ديفز **Stearns Davis** ، ايرل أ . سبرى **Earl E sperry** ، فرانك مالونى اندرسون .

أما المجموعة الثانية فيمثلون الكتاب الذين يستشهدون فى أبحاثهم بأحدث الوثائق بالنسبة لمسئولية الحرب ومع ذلك فهم يميلون إلى الأخذ بوجهة النظر التى تجعل دول المحور هم أصحاب المسئولية فى بدء الحرب . ويأتى فى مقدمة هذه المجموعة بطرس رينفو **Pteier Renouvin** ، ر . ب . موات **R. B. Mowat** ، برنادوت شميت **Schmitt** ، شارل سيمور ، بريستون **Preston** ،و . سلوسن **W. slosson** ، م . ت . فلورنسكى **M. T. Florinsky** ، ايوجين فيشر **Eugene Fischer** .

وأما المجموعة الثالثة من الكتاب فهم أولئك الذين فحصوا ما أدلت به الوثائق المعاصرة وماشهدت به عن مسئولية جريمة الحرب وقاموا بتعديل النظريات التى ترددت وقت الحرب عن

هذه الجريمة ، وبالتالى فقد صححوا الآراء الخاصة بأسباب هذه الحرب . وهناك من وضع خطأ ضمن هؤلاء الكتاب مثل جون ماينارد كينس John Maynard Keynes وغيره من الذين أوصوا بإعادة النظر فى معاهدة فرنسا على أساس فساد الجانب الاقتصادى فيها . وإذا كانت هذه المجموعة من الكتاب قد طالبت بإعادة النظر فى معاهدة فرساى فإنهم فعلوا ذلك ضمن ما طالبوا به من إعادة النظر فى الآراء السابقة الخاصة بمسئولية الحرب . أى أن مطالبتهم بإعادة النظر فى المعاهدات التى أنهت الحرب تعتبر جزءا مما التزموا به من إعادة النظر فى موضوع الحرب بأسره .

وتنقسم هذه المجموعة إلى معسكرين : فريق معتدل يعتقد أن المسئول عن الجريمة الكبرى التى وقعت سنة ١٩١٤ هم دول الحلفاء لكن ذلك لا يمنع من تحميل دول المحور نصيبها فى المسئولية هى الأخرى ، ومن بين هؤلاء المعتدلين من الكتاب سيدنى ب . فاى Fay، ج . ف . سكوت J . F . Scott جـ . س . ايوارت ، هرمان لوتز ، حـ . لويس ديكنسون ، ج . ب . جوش ، كورادو بارباجلو (Corrado Barbagello) ، اوبسطو تور Augusto Torre فكتور مارجريت .

أما الفريق الآخر فهو الذى ينادى بأنه لو كانت المانيا والنمسا تنقصها الحذقة وحسن التصرف سنة ١٩١٤ فإنهما غير مسئولتين عن الحرب الأوربية . ويعتقدون أنه يمكن تبرير هجوم النمسا على الصرب وتأييد ألمانيا للنمسا أيسر مما يمكن تبرير هجوم روسيا على النمسا وتأييد فرنسا روسيا . هذا إلى أنهم يعتقدون أن المسئول أساساً عن هذه الحرب هو ما حدث قبلها من تعبئة الجيش الروسى . وهذه المجموعة تضم كتابا مثل مكس مونتجلاس ، فردريك ستيف ، جنتر فرانتز ، اريك براندنبرج ، بولى هير Paul Herre ، الفردفون فجرر Alfred Von wergerer ، هرمان أل Hermann Aall نيقولا جابيكس ، جورج ديمارتيال ، ماثياس مورهاردت ، جوستاف دوبان Dupin الفرد فابر لوس Luce ، ف . جونتواردى تورى F . Gouthenoire de Toury ، البرتو لمبروسو ، م . ن . بوكروفسكى ، أ . أ . أدموف ، أ . د . موريل Morel ، راموند بيزلى Beazley ، م . اديث ديرهام Durham ، ايرين كوبر ولز Willis ، فردينانـد شيفل ، و . أ . لنجلباك Lingelbach ، م . هـ . كوشران Cochran ، ت . مون P. T. Moon ، و . ل . لانجر ، أ . هـ . ليبر Lybyer ، جوزيف واردسوان Joseph Ward swain، فردريك بوسمان Bous-man وصاحب هذا الكتاب .

وكانت النهضة التى عمت حركة البحث التاريخى سبباً فى إخراج دراسات تاريخية متقنة وموضوعية . ومن هذه الدراسات الكتب التاريخية التى كتبها عن الحرب مؤلفون منفردون مثل

جون بوشان ، هرمان ستجمان ماكسيلان مونتجلاس . وهناك كتب ألفها أكثر من مؤلف مثل تلك التى نشرها ماكس شوارت **schwarte** وثمة مذكرات تاريخية ناقدة مثل تلك التى كتبها الجنرال ماكس هوفمان **Hoffmann** ومن أعظم المؤلفات التى كتبها مؤلف واحد مؤلفات جبريل هانوتو وإن كان يعيبها مسحة من الوطنية الغالبة عليها ودفاعه عن أخطاء القيادة العليا الفرنسية عند بداية الحرب .

وبهذه المناسبة فإن هناك كثيرين من الكتاب الذين حرصوا على تبرير سوء تصرف كثير من القيادت العليا أثناء الحرب ومن ذلك ما كتبه ب . هـ . ليدل هارت ، ج . و . هويلر بنت وآخرون وهى دراسات ممتعة شبيهة بتلك الدراسات التى قامت بها مجموعة الكتاب المعروفين بـالمنقحين المصححين أو وهى المجموعة الثالثة من الكتاب الذين سبق أن أشرنا إليهم عن ديبلوماسية ماقبل الحرب على أن أفضل الكتب عن الحرب العالمية بلا استثناء فى مجال الكتابة التاريخية هو الكتاب الخالد الذكر « التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للحرب العالمية الأولى » الذى نشره جيمس ت . شوتويل فى أكثر من مائتى مجلد بمعاونة أساتذة باحثين من كل الأقطار . وتعتبر هذه الموسوعة الكبيرة أعظم مثل على نجاح العمل المشترك فى مجال الكتابة التاريخية . وأنفق على هذا المشروع وساهم فيه جمعية كارنيجى الخيرية السلام العالمى بوصفه أحد المشروعات التى تخدم قضية السلام . أما الفائدة العلمية لهذا المشروع فهو أنه استخدم مرشدا لأولئك الذين أداروا دفة الحرب العالمية الثانية . أما أحسن بحث مختصر تناول بالدراسة ذلك الجيل الذى شهد بداية الحرب ونهايتها فهو البحث الذى قام به ج . و . سوان **Swain** بعنوان (بداية القرن العشرين) .

أما الدول التى تحكمت فيها الفاشية فقد طغت فيها القومية الجارفة على اتجاهات الكتابة التاريخية فى حين مضت فيها بقية الدراسات التاريخية التى لا ترتبط بالقومية فى طريقها الجاد قدماً إلى الأمام . على أنه لم توجد فى تلك البلاد دراسة قائمة على البحث العلمى بـالنسبة للفترة المعاصرة . ومن ذلك ما يروى عن هيجل قوله : أنه يؤمن بأن الدرس الوحيد الذى يتعلمه من التاريخ هو أنه لا يعلمنا شيئا ولا ينطبق هذا القول على أحد مثلما ينطبق على مسلك المؤرخين فى كافة الدول خلال الحرب العالمية الثانية بما فيهم أولئك المؤرخين الذين كانوا حديثى العمر عندما (نشبت الحرب العالمية الأولى) وكان بعضهم من المنادين بضرورة إعادة النظر فى الآراء والنظريات التى سادت الحرب الأولى . وفى هذه الحرب الثانية ـ وعلى نطاق أوسع مما كان فى الحرب الأولى ـ اشترك كل المؤرخين فى كافة الدول على اختلاف نظمها ، الشباب منهم والشيوخ ،

فى الدعاية ، ولم يهتموا سوى قليلا بالحقائق التاريخية . وظهرت كتبهم ومقالاتهم وتقاريرهم وقد اصطبغت بنفس الصبغة التى ميزت الأبحاث التى صدرت فيما بين سنتى ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، فكل من الجانبين المتحاربين صور الحرب فى صورة ، (حرب مقدسة) بالنسبة له . ولم يشذ عن ذلك مؤرخ فى أى بلد من البلدان التى اشتركت فى الحرب .

وكانت فكرة المراجعة والعودة للموضوعية بعد الحرب الثانية أصعب من تلك التى كانت بعد ١٩١٨ إذ ساد ما يعرف ، بالإظلام التاريخى ، ولم تتجاوز الكتب التى نادت بإعادة النظر فيما قيل وكتب أثناء حرب الولايات المتحدة الأمريكية أعداداً قليلة . فألف الأستاذ تانسل **Tansill** كتابه (الباب الخلفى للحرب) وفاق هذا الكتاب كتابه « أمريكا تشترك فى الحرب » **America Goes to War** وذلك بسبب موضوعيته وتعمقه فى البحث . ولم تظهر كتب أخرى فى أوربا حتى صدرت فى سنة ١٩٦١ طبعة كتاب تايلور « أصول الحرب العالمية الثانية » وكان المأمول أن تكون هناك عودة إلى التمسك بوقائع التاريخ وحقائقه عندما يسمح الوقت بذلك . لكن الحرب لم تكد تنتهى حتى بدأت الحرب الباردة خلال حكم ترومان فى ١٢ مارس ١٩٤٧ . ومن ثمّ فإن كراهية روسيا الشيوعية أو الدفاع عنها داخل روسيا أضيفت إلى الكراهية المتبقية لألمانيا وإيطاليا . وبالنسبة لروسيا وحلفائها الغربيين (من جانب أعدائها الألمان) وعلى حد قول المؤرخ البريطانى الشهير تايلور فى المانشستر جارديان . « قد يبدو أنه خلال الحرب الباردة لا يوجد شيء يلزم البحاثة بالتزام معين . فقد يستطيع المؤرخون الأكاديميون الدفاع عن آرائهم حتى وهم يشغلون وظائف فى حكومات دولهم . لكن المشكلة جاءت من أنهم شركاء فى هذه الحرب وبذلك صار شأنهم شأن المؤرخين الألمان الذين استخدمهم دكتور جوبلز فى دعايته أثناء الحرب »

المراجـع :

M.H. Cochran: Germany Not Guilty 1914 Chap. Stratford press 1931
H.E. Barnes : The Genesis of the world war Chap i.
App. Knopf 1929.
World politics in European Civilization.
Chaps xxi-xxiii Knopf 1930
In Quest of the Truth and Justice. part ll Nat. Hist. Soc. 1928
ed. Perpetnal War for Perpetual Peace Caxon Printers 1953.
G.P. Gooch : Recent Revelations of EurOpean Diplomacy Longmans 1928 and later supplements
Arthur Ponsonby : Falésehood in Wartime Allen and Unwin 1928.
J.C. Willis : England's Holy war knopf 1928.
George Demartial : Comment on mobilisa les Consciences paris 1926.
H.C. Peterson : Propaganda 1914-1919 Yale University press 1941.
Russel Grenfell: Unconditioned Hatred, Devin Adair 1953.
Rene Wormser : *The myth of the Good and Bad Nations, Regnery 1954*
Hermann Lutz : German French Unity, Regnery 1957
D.F. Fleming : The Cold war and its origins 2 Vols, Doubleday 1961
Louis Morton : Pearl Harbour in perspective A Bi Bliographical survey
V. S. Naval Institute Proceeding, April, 1955.

الفصل الثانى عشر

اتساع أفق المؤرخ وتعدد ميوله
امتداد جوانب النشاط التاريخى فى الأزمنة المعاصرة

لقد أتقن مؤرخو المدرسة الناقدة والمدرسة الاستقصائية فن الوصول إلى الحقائق التاريخية السليمة بنفس القدرة التى أتقن بها عالم التاريخ إعادة بناء تلك الحقائق . لكنهم لم يفعلوا سوى القليل من أجل توسيع نظرة المؤرخ ليعرف كيف ينتقى الحقائق التى تستحق البحث . ذلك أنهم ظلوا إلى درجة كبيرة قانعين بالاتجاهات القديمة الخاصة بموضوع التاريخ ومادته . وكانت القاعدة العامة هى : أن المسائل الدينية والسياسية ظلت تحظى بالنصيب الأوفر من اهتمام المؤرخين طوال مرحلة تطور الكتابة التاريخية . فعند اليهود اتجهت الكتابة التاريخية إلى إثبات أن الله اختص بعطفه ورعايته ذرية سيدنا إبراهيم . وفى عصور فجر المسيحية والعصور الوسطى وعصر حركة الإصلاح الدينى ، كان الاهتمام بإلغاء القوى الخارقة للطبيعة ، مع السعى لإثبات أن قدرة الله لا يمكن أن تتحداها أو تقارن بها قدرة الإنسان . وسيطر هذا الدافع على الأعمال التى ظهرت خلال تلك العصور من خلال سفرى عذرا ونحميا ثم كتابات القديس أوغسطين ، واروزيوس ، واوتو المنسوب إلى فريزبرج ، بارونيوس ، بوسويه ، بالى ، ميرل دوبنى ، مونتاج سومر ، هنرى اوزبرن تايلور .

وحتى فى أيامنا هذه يحرص المؤرخون البارزون على تأكيد وجود الله عن يقين ويفصلون فى أسمائه وصفاته . من ذلك أن هنرى اوزبرن تايلور مثلاً وهو من رواد التاريخ الثقافى الأوربى ورئيس سابق للجمعية التاريخية الأمريكية أكد هذه الحقائق فى كتاب من أحدث كتبه حيث قال (إن الله موجود ، وعلينا أن نتأكد من وجوده دائماً وأبداً . وإن البراهين الفعلية على وجود الله هى التى تتغير وتفقد قوتها ؛ أما هو فباق لا يتغير . إن الإحساس بوجود الله وما ينجم عن ذلك من قوة

وراحة هي أعظم حقيقة فى الحياة البشرية . وستظل الأمور تثبت لنا وإلى الأبد أن الأعمال الطيبة التى يرضى عنها الله هى تلك الأعمال التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بالله وبقدرته وحبه . كذلك سيظل التقدم البشرى يتحقق تباعا بفضل العبقرية المتحررة والعزيمة التى لا تعرف الكلل وبفضل رضى الله ومحبة الإنسان . وكان يحدث دائماً خلال الأزمات التى تعترض طريق الإنسان إلى الحرية أن يتجه الإنسان بروحه إلى الله حيث الرحمة والخلود) .

ويتصف النصف الأخير من القرن الماضى بوجه عام بأنه عصر الكتابة التاريخية المرموقة ذات النظرة الدنيوية السليمة . فلم يقف الأمر عند حد ضعف الاهتمام بمسائل الغيبيات والقوى الخارقة للطبيعة ، بل ضعفت كذلك قوة اليقين فى طبيعة الله وقدرته الخارقة تجاه القوى البشرية . إن اكتشافات العلم الحديث والنقد الموجه إلى ما احتواه الإنجيل لم يضعف من شأن المعتقدات الدينية القديمة والتفسيرات الراسخة فحسب ، بل أوضحت على نطاق واسع عدم ملاءمة بعض النظريات الدينية المتزمتة للمسائل المتعلقة بحجم الكون وطبيعة نظامه . وأمام هذا الموقف ، فإن المؤرخ المطلع والمفكر أخذ يتردد بين أن يحرر نفسه من اراء اللاهوت أو أن يفترض الثقة بالله ، حتى مع اعترافه بأن مشاكل الكون غدت فى هذه الأيام أكثر إثارة للتفكير وأكثر أهمية مما كانت عليه بالنسبة لشخص مثل أوغسطين أو لوثر . أما الأفكار الأخرى التى تسلطت على فكر المؤرخ التقليدى وهى اهتمامه بشئون السياسة وأحداثها — فقد ماتت هى الأخرى ولكن فى صورة أبطأ — وإن ظلت لها قوتها ووزنها الذى يحول دون تطور الكتابة التاريخية لتطابق العقل وتتسم بالشمول . هذا مع ملاحظة أن الرواية السياسية كان لها تراث لا يقل فى مكانته عن الرواية اللاهوتية . فحدث خلط عند اليهود بين مسائل الدين والسياسة . واتسع أفق الاهتمام التاريخى عند هيرودوت بعض الشيء وتركز نسبيا على الموضوعات السياسية ، ولو أن أبا التاريخ ، كان أقل تعصبا فى هذا المجال من أى مؤرخ آخر من المؤرخين القدماء ، فاهتم بصورة لا بأس بها بالعناصر المكونه للثقافة كما اهتم بالمقارنات . وكانت غالبية المؤرخين المشهورين — منذ ثوكيديدس حتى فريمان ، درويزن ، روس وغيرهم ممن لم يهبوا أنفسهم لدراسة قضايا المسيحية أو دراسة أحد مذاهبها وفرقها العديدة — يتجهون لدراسة الأحداث المختلفة والروايات المتداولة عنها أو تتبع الطرائف المرتبطة بالتاريخ السياسى والدبلوماسى والتاريخ العسكرى . بل إننا نصادف مؤرخين مثل درويزن ، فريمان ، سيلى ، شفر **Schafer** يعلنون فى صراحة وفى تجن أن التاريخ ليس إلا دراسة السياسات القديمة ويرون أن هناك من أخطأ من المفكرين فشغلوا أنفسهم

بدراسة تاريخ الحياة الاقتصادية والنظم الاجتماعية فضلا عن الأدب والفنون الرفيعة الأخرى وغيرها من النواحى الهزيلة فى نظرهم .

ويرجع الالتزام بهذا المنهج السياسى فى العصور الحديثة إلى حد كبير إلى تأثير عاملين غير واضحين تماما ، أولهما رأى هيجل فى الدولة وثانيهما الروح القومية . ذلك أن فلسفة هيجل أكدت أن الدولة هى أسمى شيء خلقه الله على هذه الأرض . ولا يخفى علينا أن فلسفة هيجل كان لها أنصار وأتباع كثيرون بين العلماء الألمان الذين وضعوا أسس علم التاريخ فى صورته الحديثة فى النصف الأول من القرن الماضى . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هناك من إحساس بالقومية ، وهو الإحساس الذى ازداد قوة وبلغ أشده خلال الثورة الفرنسية وعهد نابليون بوجه خاص والذى استند إلى أسس تكنولوجية خلال الثورة الصناعية . وكان أن تجمعت عدة أحداث قومية أثارت حماسة المؤرخين فى القرن التاسع عشر منها ذكريات الثورة الفرنسية والانتصارات التى حققها بونابرت ثم بزوغ الروح الجرمانية بعد حرب التحرير وتوحيد الإمبراطورية ، والشعور الذى طغى على الإيطاليين فى إحساسهم القوى نحو الحاجة للوحدة الإيطالية ، وهو الشعور الذى ملك كلا من مشاعر دانتى وميكافللى ومازينى ، ومشاعر الإنجليز تجاه المعارك التى خاضوها فى أسبانيا فضلا عن موقعة واترلو وكذلك التوسع الذى تحقق لإمبراطوريتهم بعد سنة ١٨٧٠ ، وزهو الأمريكيين بقيام الجمهورية الفيدرالية وانعزالها عن الحرب الأهلية الكبرى . وبالإضافة إلى هذه المسائل القومية ذات الصبغة السياسية وجد مجال آخر ذو صبغة سيكلوجية وثقافية مثل نظرية التفوق العنصرى والثقافى . وهكذا كانت فلسفة هيجل من ناحية والحركة القومية من ناحية أخرى كفيلين مع بعضهما البعض بجعل معظم المؤرخين يقصرون نشاطهم على التاريخ السياسى .

وكان من الممكن ألا نشكو من انصراف هؤلاء لخدمة التاريخ السياسى وحده لو أنهم طوروا دراسة النظم السياسية وأضافوا إلى معلوماتنا الشيء الجديد عن تطور الدولة وأجهزتها المختلفة . ولكن الملاحظ هو أن الشطر الأعظم من هذا التاريخ السياسى انحرف عن اتجاهه الصحيح نتيجة عاملين نبعا أساسا من تأثير الحركة الرومانسية على الكتابة التاريخية . وأول هذين العاملين هو النظرية الرومانسية التى نادت بأن التاريخ ينبغى أن يتضمن الحياة والمتعة ، ومن ثم فإن الأحداث المثيرة تعبر عن أجمل حلقات المادة التاريخية . وأما العامل الثانى فهو وجهة النظر المستقاة إلى حد كبير من كارليل وتلاميذه القائلة بأن التاريخ ليس إلا مجموعة تراجم شخصية . ومن ثم فقد برز إلى حد كبير عامل الاهتمام بالأشخاص فى الكتابة التاريخية على اختلاف أنواعها . ونتيجة لهذه

الاتجاهات والمثل العليا اتجه معظم التاريخ السياسى فى القرن الماضى إلى أن يكون أساسا تاريخ تراجم وسرد أحداث ، وبذلك لم يلق إلا قليلاً من الضوء على المشاكل المتعلقة بأصول الأنظمة السياسية الكبرى وتطورها . حقيقة أن هناك كتابات خاصة بالتاريخ الدستورى مثل تلك التى كتبها ويتز Waitz ، فوستيل ، ماتلاند ، لوشير ، ازمن Esmein ، فيوليه Viollet ، فلاش ، برونر Brunner ، ج.ب.آدمز . ولكن من المغالطة أن نقول إن الأعمال التاريخية بوجه عام والمتعلقة بالتاريخ الدستورى بوجه خاص كانت أكثر توضيحا عن تاريخ الدولة من تلك التى كتبها أساتذة التاريخ السياسى فى ذلك العصر . وكانت السمة الغالبة على الكتابة التاريخية المحترمة فى القرن الماضى هى سرد تفصيلات لا داعى لها لكنها تستثير دهشة القارىء .

وفضلا عن ذلك فإن الكتابة المتسمة بالديناميكية والحيوية فى التاريخ السياسى وتاريخ القانون ــ مثل كتابات برونر ، ايزمن ، فلاش ، مايتلاند وآدمز ــ كانت هى الأخرى مما يصعب الدفاع عنها . فالدولة ليست هى كل مجال المجتمع البشرى ولا هى الوعاء الوحيد للثقافة ، ولكنها ليست سوى الفيصل فى عملية التطور الاجتماعى والحكم بين المصالح الاجتماعية والثقافية المتضاربة والتى لأكثرها دور جوهرى أكثر من الدولة ذاتها . وتفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض يؤدى إلى إعداد العناصر الديناميكية والخلاقة فى تطور الإنسان والمجتمع . هذا وإن كان ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن دور الدولة فى إبراز حيوية هذه العناصر وتفاعلها وتصارعها المستمر يفوق كونها عامل اضمحلال وهدم .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة فإنه كان ينبغى أن تكون الدراسة التفصيلية عن تطور الدولة مجالها فى العلوم السياسية أكثر منه فى علم التاريخ ، وبرغم ما يقال من أن معظم كبار المؤرخين فى كافة الدول الحديثة وخاصة فى أوربا ظلوا على ولائهم التام للمنهج السياسى ، إلا أنه حدث تقدم ثورى فى النصف الأخير من القرن الماضى استهدف توسيع مجال اهتمام المؤرخ . وربما كان مرجع ذلك إلى التطور الثقافى الملحوظ فى تلك الفترة وإلى التقدم الذى حدث فى العلوم الطبيعية والاجتماعية فضلا عن عدم التزام العلماء الباحثين ورغبتهم فى التحرر ، وهو الأمر الذى مكن المؤرخين القادرين والمبتكرين من تنفيذ إرادتهم والتعبير عن رغباتهم فى حرية كبيرة . هذا إلى أن التقدم الملحوظ فى العلوم والتكنولوجيا والنظم الاقتصادية وما نجم عن كل ذلك من تغيرات اجتماعية وثقافية ، أدى إلى تزايد الاهتمام بتاريخ العلم والتكنولوجيا والتاريخ الاقتصادى والاجتماعى . هذا إلى نشأة علوم النفس والأجناس والاجتماع التى أدت إلى طرق جديدة

ساعدت على دراسة الإنسان وأوجه نشاطه فى المجتمع ويسرت السبيل أمام من يرغب فى الإقدام على مثل هذه الدراسات . ومع أن هناك ثمة مبالغة فى اهتمام بورخهاردت ، وسيموندس ، بدراسة حركة النهضة فإن هذا الاهتمام فى حد ذاته كان دافعاً إلى إثارة اهتمام أكبر بتاريخ الأدب والفنون الرفيعة . وبرغم ما كان للحركة الرومانسية من آثار سيئة سبق أن أشرنا إليها ، إلا أن هذه الحركة كان لها الفضل فى توسيع دائرة معرفة المؤرخ وذلك عن طريق إثارة اهتمامه فى العقيدة الدينية بوصفها شريعة عالمية فضلا عن إثارة اهتمامه بالفلسفة والفن والأدب . وبالإضافة إلى ذلك كله ينبغى أن ندرك الأثر الذى أحدثه تزايد الحاصلين على درجات الدكتوراه فى الفلسفة على تطور التاريخ فى صورته الجديدة . وكان التحول فى أول أمره جافاً ، بطيئاً وتقليدياً . لكنه مع الزمن أصبح من الضرورى وجود عدة موضوعات جديدة وجد فيها أساتذة التاريخ المتبرمون مادة للكتابة التاريخية هم مرغمون على قبولها رغم أنها خارج النطاق المألوف للتاريخ السياسى والديبلوماسى . وبحدوث الفجوة (فى المنهج القديم) أصبح الانطلاق سهلاً منها . على أنه ينبغى أن ينسب شرف هذا الاتساع فى أفق الدراسات التاريخية إلى بعد نظر وابتكار وجرأة أولئك المؤرخين أصحاب نظرية التجديد فى علم التاريخ . ذلك أنه إذا ما نظرنا إلى ما حدث من تغيير بوجه عام دون أن يكون من وراء هذا القول حماسة أو اعتزاز قوى لوجدنا أن هذه الحركة التى استهدفت ديناميكية التاريخ واتساع أفقه قد وجدت أرضا صلبة فى الولايات المتحدة أكثر من أى مكان آخر بينما صادفت أكبر معارضة لها فى بريطانيا العظمى .

أما وجهة نظر أولئك الذين اعترضوا على توسيع أفق البحث التاريخى فقامت على أساس أن عمل المؤرخ وواجبه يقتضيان أن يقوم بوصف كل طور من أطوار تطور الثقافة والنظم لشعب ما من الشعوب فبينما المؤرخ المخصص فى جانب معين ربما يقنع باختيار ذلك الجانب من جوانب تاريخ الحضارة الذى يهمه أكثر . وكان معنى هذا التحول أن المؤرخ المهتم بتاريخ الأدب الأنجلو سكسونى أو فنون المعرفة عن الأيرلنديين فى القرن السادس ينبغى أن ينظر إليه على أنه مؤرخ حقيقى شأنه شأن المؤرخ الذى يتتبع تطور الـ Witangemont أو التحولات التى طرأت على الأسرة السكسونية . ولا نقصد بذلك أن على المؤرخ ألا يهتم بالأحداث وقيمتها ، ولكن ما نقصده هو أن الفكرة بالنسبة للكتابة التاريخية الديناميكية تتعارض فى قوة مع الرأى القائل بأن دراسة مظهر معين من مظاهر نشاط البشر من شأنه أن يطغى على الأنشطة الأخرى وأن لا ينبغى أن نركز على دراسة مظهر معين من مظاهر الثقافة ونهمل ما عداه .

إن ما يطالب به المؤرخ الجديد هو ألا يحل اهتمامات جديدة محل الاهتمام بالموضوعات السياسية المألوفة ولكن عليه أن يقر بضرورة وصف كل جانب من جوانب الحياة والثقافة فى المجتمع . ومن الواضح أنه مع اتساع مجال التاريخ بهذه الطريقة تصبح عملية الإلمام الشامل بكل جوانب تاريخ دولة قومية بمفردها أمراً يستلزم تعاون عدد كبير من الخبراء المتحمسين الدائبين . ولا ينبغى أن يعتقد فرد واحد أن فى إمكانه أن يلم بكل نواحى التاريخ لمجتمع معين ولو عن فترة قصيرة . وهكذا أصبحت الأعمال التاريخية العظيمة فى حاجة فى المستقبل إلى جهود مشتركة .

وما دام كثير من المؤرخين صاروا غير قانعين بالتأريخ للشخصيات السياسية فى المجال السياسى ، فإن ذلك جعلهم أكثر اهتماما بكل المكاسب التى حققها البشر على الأرض ، سواء كان ذلك فى مجال الثقافة أو الاقتصاد . والاجتماع أو السياسة أو العلوم الطبيعية أو الدين . وساعد على ذلك تقدم علم الفلك الحديث وما أتى به هذا العلم من أبعاد جديدة بالنسبة للكون . كذلك ساعد فى هذا المجال تطور وجهة النظر تجاه الحياة والثقافة ونشأة علم النفس وعلم الاجتماع فضلا عن تقدم الحركة الصناعية الحديثة والحياة المدنية وتقدم الدراسات العديدة فى مجالات مختلفة فى عصرنا الحاضر . ومع أنه كانت هناك جهود يعتد بها فى هذا الاتجاه بالنسبة للتاريخ خلال فترة العقلانية والرومانسية إلا أن التطورات المعاصرة جاءت فى صورة أكبر وأضخم تنوعاً وأكثر تعدداً . ذلك أنها قامت على أساس من المعرفة أوسع وأكبر ، فضلاً عن دراسة أدق فى مجال البحث التاريخى .

تاريخ الفكر

كان تاريخ الفكر من أولى الجهود المتعددة الجديرة بالإشارة لأنها استهدفت الخروج بالتاريخ عن دائرة الأحداث السياسية وجعله يهتم بدلاً من ذلك بتطور الثقافة البشرية . ونعنى بتاريخ الفكر الجهود التى بذلت لاستعراض انتقال أفكار ومعتقدات وآراء الطبقات المثقفة منذ العصور البدائية حتى عصرنا الحاضر . وينادى المتحمسون لهذا الاتجاه فى التاريخ بأنه كما يقال بأن عقل الإنسان هو العامل المكمل لشخصيته وسلوكه فكذلك الاتجاهات الثقافية المتنوعة فى كل عصر هى أكثر الأمور أهمية فى مجال التأثير الموحد والمنظم على تطور الحضارة البشرية .

ولقد أوضح فرنسيس باكون فى كتابه « تقدم المعرفة » الخصائص المختلفة لهذا اللون من التاريخ حين كتب يقول : « لم يحدث أن اقترح شخص على نفسه أن يقوم بدراسة الخصائص العامة للمعرفة ووصفها من عصر لآخر على غرار ما فعله كثيرون من وصف الطبيعة وخصائص الدولة المدنية والدينية . وبدون الاتجاه لدراسة المعرفة يظل تاريخ العالم أشبه شيء بتمثال بوليفيموس ذى العين الواحدة ، لأنه لا غنى عن هذا الجانب من التاريخ الذى يوضح روح الإنسان وحياته » . وعبر الدكتور صمويل جونسون عن نفس هذه الحقيقة عندما قال فى بعض كتاباته : « ليس هناك جزء فى التاريخ مفيد بوجه عام مثل ذلك الجزء المرتبط بتقدم الفكر البشرى وتدرج الرقى العقلى والتقدم المتوالى للعلم ودورات المعرفة والجهالة التى تعتبر دورات نور وإظلام بالنسبة لفكر الأحياء ، وظهور وإحياء الفنون وثورة عالم الفكر » . أما عالم الاجتماع الفرنسى أوغسط كونت فقد أشار إشارة طيبة إلى ذلك ، هذا فضلاً عن أنه أخرج فى فلسفة التاريخ بحثاً يقوم إلى حد ما على نظريته العامة عن المراحل الكبرى لتطور الاتجاهات الفكرية ، والتى أطلق عليها علوم الدين ، الميتافيزيقا ، والعلوم التجريبية .

كذلك قام ج . ستانلى Stanley بعمل ربط أكثر أهمية فى دراسته لتطور علم النفس الوراثى الذى بناه على أساس فكرة أنه ينبغى دراسة العقل البشرى تاريخيا من أصوله فى الحياة الفكرية عند الكائنات الأولية إلى أن نصل إلى أوجه نشاطه فى الإنسان الحديث . ثم إن علم النفس الاجتماعى أيد علم النفس الوراثى وذلك فى الأبحاث التى قدمها باجهو Bagehot ، تارد Tarde ، دركهيم Durkheim وآخرون . أما أبحاث كل من و . ا . هـ . ليكى W.E.H.Lecky ، اندرو هوايت ، جون و . درابر ، ويوسف ماك كاب Joseph Mc Cabe فقد أثارت اهتماما كبيرا فى هذا الميدان حيث انهم عرّضوا بعصور الجهالة فى عرضهم للتقدم الفكرى فى أوربا . وكان أول مؤرخ معاصر أولى قدرا من الرعاية المنظمة فى هذا المجال هو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبزج (١٨٥٦-١٩١٥) ، ذلك أنه اعترف بالنتائج التى قام بها كونت فى هذا المجال ، ولكنه أتم عملا أكثر من عمل كونت إحكاما . وإلى لامبرخت تنسب فكرة تقسيم التاريخ إلى فترات طبقا للمؤثرات النفسية السائدة فى كل فترة والتى تتابعت واحدة بعد الأخرى فى التاريخ ، فضلا عن أنها تعطى خصائص الثقافة لكل عصر وتهيىء الطريق لثقافة العصر الذى بعده ، وإذا كان لامبرخت قد وضع هذه القاعدة لتتمشى فى جوهرها مع التاريخ الألمانى وحده فإنه كان من دواعى الغبطة له فيما بعد أن يرى هذه القواعد تصلح لأن تكون إطارا ينتظم داخله التاريخ العام للثقافة

البشرية . ثم كان أن خصص تلميذه كورت بريزج جهوده الأخيرة فى دراسة تأثير المعرفة على مجرى التاريخ .

ومع أن كثيراً من المؤرخين المتفقين مع لامبرخت فى نظريتة العامة أكدوا ان تفسيره الخاص متزمت وغير موضوعى أو منهجى بحيث يصعب تطبيقه حرفيا على تفسير التاريخ الثقافى فى أوربا ، إلا أنهم أقروا صلاحية نظريته العامة القائلة بأن السمات الاجتماعية والنفسية السائدة فى أى زمن تمثل أعظم الأسس قوة لتنظيم اتجاهات التطور الثقافى بوجه عام . وقد نظر هؤلاء المؤرخون إلى تفسيراته الخاصة بوصفها مثلا من أكبر الأمثلة على مدى ما فعلته الجهود الذاتية والمصطنعة لتقسيم تاريخ البشر إلى مراحل من التطور ، وهو الأمر الذى اتسمت به معظم كتابات الباحثين وخصوصا الألمان منهم عن التطور الاجتماعى والثقافى ، وذلك فى مجال الأنثروبولوجيا والاجتماع . وهكذا اتهم لامبرخت بأنه ضحى بالدقة فى سبيل رتابة الموضوع ووحدة العرض وبساطة التنظيم . وكان أن نجم عن هذا النقد تطوير ذو طابع عملى وأكثر مرونة فى تنظيم التطور الفكرى وعرضه فى أوربا ، ونعنى به دراسة طبيعة الأفكار السائدة والتغيرات التى طرأت عليها والاتجاهات الفكرية فى المجتمع الغربى منذ العهود الأولى فى الشرق القديم حتى أيامنا هذه . وروعى فى هذه الطريقة الجديدة الالتزام بنوع معين من التفسير أو أى تنظيم جامد معد من قبل .

وكان الأستاذ جيمس هارفى روبنسون (١٨٦٣-١٩٣٦) أحد أساتذة جامعة كولومبيا السابقين ــ أبرز شخصية تناولت هذا الاتجاه الأكثر جدة وارتباطا بالمنهج العلمى . ذلك أن روبنسون استطاع أن ينمى اهتمامه بهذا المجال عندما قام بدارسة مبتكرة عن تاريخ طبقة المفكرين فى أوربا ، وهى الدراسة التى أجراها بشكل تجريبى منذ جيل مضى . ولم يلبث أن أصبح بحثه أكثر الدراسات شيوعا وأكبرها أثراً فى هذا النوع من الدراسات التاريخية . ويمكن التعرف على الخطوط العامة لآرائه وطبيعة هذه الآراء ومجالها بالرجوع إلى موجز تلك الدراسة التى أعطاها اسم « موجز لتاريخ الفكر فى أوربا الغربية » ثم إنه تناول هذه الدراسة بقدر من التفصيل فى أبحاثه « الفكر فى دور التكوين » وكتابه « تهذيب المعرفة » و« الكوميديا الإنسانية » . وكان لهذه الأبحاث الفضل فى إثارة اهتمام كبير على نطاق واسع فى هذا المجال . أما الدراسة التى طالما وعد بها عن تاريخ الفكر فى أوربا باسم « العمل الكبير » فإنه لم يقدر لها أن تنشر[1] .

---

(١) لصاحب هذا الكتاب دراسة موسوعة عن تاريخ الفكر والثقافة فى غرب أوربا فى ثلاثتلاثة أجزاء طبعة دوفر سنة ١٩٦٤ .

ولم تلبث أبحاث روبنسون أن أثرت عندما تركت صدى لها فى إنتاج طلبته وتلاميذه ، وعلى رأسها تلك الأبحاث الشهيرة التى كتبها بريزرفد سميث عن عصر الحركة الإنسانية والإصلاح الدينى فضلاً عن كتابه باسم « تاريخ الثقافة الحديثة » . ومن تلاميذ روبنسون كذلك لين ثورنديك الذى وضع كتابا بعنوان « تاريخ السحر والعلوم التجريبية فى العصور الوسطى » . هذا فى حين ألفت الآنسة مارثا أورنشتين كتابا عن نشأة الجمعيات العلمية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . أما هوارد روبنسون فقد كتب عن بيل Bayle ، وكتب كارل بيكر عن الفكر السياسى الفرنسى والأمريكى ، فى حين كتب ج. هـ راندال عن تاريخ الفكر الحديث . ثم ظهرت حديثاً دراسات عن تاريخ الفكر الحديث كتبها ف.ب. ارتز F.B. Artez ، كران برنتون Crane Brinton ، ايوجين وبر Eugene Weber ، ا.ن. جونسون ، م. . كورتى ، هـ.س. كوماجر H.S. Commager ، ج.ج. مارتن وغيرهم .

وإذا كنا ندين للأستاذ روبنسون وأتباعه بتجديد دراسة التاريخ الفكرى ووضع معالمها بوصفها واحدة من أعظم الدراسات التاريخية ، فإن هناك دراسات عديدة جديدة فى هذا الموضوع كتبها بعض من كانوا أحيانا لا يشعرون بأن هناك كيانا معترفاً به لهذا النوع من الدراسات التاريخية . وقد اهتم هؤلاء الباحثون بمظاهر أو مراحل معينة من تاريخ الفكر . ونخص بالذكر من تلك الأبحاث ما كتبه كل من ليفى بروهل ، فوندت ، جولدنوزر ، بارتلت ، بول رادين Radin ، ماريت Marett وزلر Wissler عن الفكر البدائى للأبحاث التى أسهمت فى إثراء حصيلة التاريخ الفكرى . كذلك ينبغى الاشارة إلى جهود كل من بريستد ، وارمان ، وروجرز ، وجاسترو ، وروبرتسون سميث ، وورنكلر عن الفكر فى الشرق القديم . وهناك دراسات عن الفكر القديم قام بها جومبرز ، كريست ، كروزيه Croiset وواست Aust ، زيلر ، وويصوا Wissowa ، فولر Fowler وغيرهم . هذا عدا البحث القيم الذى كتبه هارناك عن تاريخ العقيدة المسيحية وبحث ليا Lea عن محاكم التفتيش فى العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن نشير كذلك إلى أبحاث تايلور Taylor ، بول Poole ، رشدال ، هاسكنز ، دى ولف عن الفكر فى العصور الوسطى . أما ما كتبه فواج Voigt وسانديز عن المدرسة الإنسانية فتعتبر من الأبحاث الخالدة . وكتب كل من ليكى Lecky ، مورلى ، بن Benn ، ستيفن ، روبرتسون عن نشأة وتأثير الحركة العقلانية الحديثة ويعتبر البحث الذى كتبه مرز Merz من الأبحاث الفريدة عن الفكر الأوربى فى القرن الماضى (التاسع عشر) . كذلك هناك دراسات عن العلوم العقلانية كتبها ديلتى Dilthey ، ريكرت Rickert ، فيندالباند Vindelband . أما بحث مينك Meineck فهو من الأبحاث المبتكرة فى

مجال التاريخ الفكرى نظراً لأنه تناول السياسات الحديثة وهناك تواريخ الفكر الاجتماعى التى كتبها شتين ، بارنز ، بكر Becker ، سوروكن Sorokin وهناك الدراسات التاريخية للفكر القومى التى كتبها باحثون أمثال شميدت ، فيشر ، ليفى بروهل ، فاجيه Faguet ، كروس Croce ، ستيفن ، باثرن ، ريلى ، بارنجتون ، كورتى وغيرهم . ولا يوجد فى أى ميدان آخر من ميادين البحث التاريخى ماهو أغنى بالمصادر من ميدان التاريخ الفكرى ، فضلا عما للكتب السابق ذكرها من مكانة لا يعلى عليها .

تاريخ العلم

يرتبط تاريخ العلم ارتباطا وثيقا بالتاريخ الفكرى . والواقع أن هناك فى معظم الأحيان ارتباطا سببيًّا بينهما ؛ لأن الاتجاهات الثقافية السائدة تحدد بوجه عام طبيعة تطور العلم ومكانه فى الإطار الثقافى . وعلى الرغم من ذلك فإنه كان من الطبيعى ألا يجذب تاريخ العلم انتباه المؤرخين المحترفين إلا بقدر قليل تافه . ذلك أن المؤرخين كانوا أكثر ارتباطا بالمناهج الأكاديمية والأدبية التى ظلت حتى عهد قريب جدا تنظر باحتقار للعلوم الطبيعية .

وكان أن أصبح من العسير على المؤرخ أن يتجاهل الأهمية الزائدة لأثر العلم على تطور الإنسان والمجتمع وخاصة بعد الثورة الصناعية وما صحبها من تطبيق لمعارفنا العلمية المتطورة مما أحدث انقلاباً فى الثقافة المادية الحديثة — ولم يلبث أن اشترك قلة من المؤرخين الأكثر تطورا من غيرهم مع العلماء فى علاج أسس هذا الجانب البالغ الأهمية من جوانب التاريخ الثقافى . ولكن معظم الأبحاث فى هذا المجال ظلت من نتاج العلماء الذين لم يوفقوا فى الوصول إلى خير النتائج بسبب نقص تدريبهم على منهج التاريخ وعدم درايتهم بالأسلوب التاريخى . وعندما أقدم المؤرخون على اقتحام ميدان تاريخ العلم اعترضتهم الصعوبة الناشئة عن قلة محصولهم من العلوم الطبيعية . وهكذا صار مطلوبا أن يتدرب كل العلماء والمؤرخين لاستكمال الجانب الذى ينقصهم .

ومما تجدر الإشادة به من الأبحاث الهامة فى تاريخ العلم من جانب العلماء والفلاسفة تلك الأبحاث التى قام بها دنيمان Dannemann ، وجنزبرج Ginsburg ، سيد جوك Sed gwick ، تايلر (Tyler) ، ليبى Libby ، دامبير هويتهام Dampier Whetham ، جورج سارتون

وغيرهم . وهناك ماكتبه دكتور سنجر من أبحاث قيمة عن الجوانب المختلفة لتاريخ العلم والفكر وهناك كذلك البحوث الخاصة بالعلم فى العصور القديمة من إعداد كانتور ، ميلهود ، بوشيه لبكرك ، برتولن دوهم Berthelot Duhem . أما الأبحاث الخاصة بالعلم فى العصور الوسطى فقد قام بها دوهم ، كما ألف شيبلى وولف Shipley wolf ابحاثا موجزة عن نشأة العلم الحديث . ووضع مرز Merz بحثا جديرا بالتنويه عن تطور العلم فى العصر الحاضر وذلك فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ الفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر » .

وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال الخاصة بدراسة فترات معينة عن تاريخ العلم ظهرت هناك أعمال خاصة بتاريخ بعض العلوم ، مثل أبحاث أوزبورن ، وسنجر ، ولوكى Locy ، كاجورى ، ماش Mack ، ثورب ، بوير Bauer ، جاريسون ، سودهوف ، سيجرس Sigeris سيجرس وهى الأبحاث التى تناولت تاريخ البيولوجيا والرياضيات والطبيعة والكمياء والطب ، وتبغى الإشارة بوجه خاص إلى العمل العظيم لجورج ساريون وفردريك براش Brasch إذ يرجع الفضل إليهما فى جذب انتباه كل من العلماء والمؤرخين للبحث فى تاريخ العلم فقد كان لساراتون جهوده الهامة بوصفه كاتباً وباحثاً فى تاريخ العلم . كما كان للدكتور اسكل ح.س. جوسفسون Josephson . فضله العظيم فى عمل ببلوجرافيا عن تاريخ العلم .

وهناك عدد كبير من المؤرخين التقدميين أظهروا حماسة شديدة للاشتغال بتاريخ العلم مثل لامبرخت وأتباعه فى ألمانيا ، وهنرى بير Burr ومجموعته فى فرنسا ، أما فى انجلترا فهناك ف.س. مارفن . وجيمس هارفى روبنسون فى الولايات المتحدة الأمريكية . ويضاف إلى الأخير فى الولايات المتحدة الأمريكية اسم كل من بريستد ، هاسكنز ، ثورنديك ، سميث ، راندال . وثمة كتابان كبيران لها أهمية خالدة ، كتبهما مؤرخون محترفون فى مجال تاريخ العلم أولهما لين ثورنديك ، وعنوان كتابه « تاريخ علم السحر والعلم التجريبى خلال الثلاثة عشر قرناً الأولى من المسيحية » والآخر بحث للمؤرخ ك.هـ هاسكنز ، بعنوان « دراسات فى تاريخ العلم فى العصور الوسطى » ويمكننا التنبؤ بأن المؤرخين لن يظلوا طويلا على إهمالهم لتاريخ العلم . ففى مدى جيل قادم سوف ينال ذلك الفرع من اهتمامهم قدر اهتمامهم بدراسة تاريخ التطور الدستورى . وقد بدت بشائر ذلك الاهتمام فيما قامت به الجمعية التاريخية الأمريكية من تخصيص جزء من نشاطها لدراسة تاريخ العلم .

تاريخ التكنولوجيا

من الواضح أن تاريخ التكنولوجيا وثيق الصلة بتاريخ العلم بسبب ما تحدثه من تغيير فى الثقافة والأنظمة الاجتماعية . وإذا نظرنا إلى التكنولوجيا نظرة واسعة وجدنا أنها التطبيق العملى لمتطلباتنا من العلم . ذلك أن العلم الطبيعى يتصل اتصالاً أساسياً بحياتنا العملية وثقافتنا . ويتم هذا الاتصال عن طريق التكنولوجيا . وتتضح أهمية التكنولوجيا بوجه خاص بالنسبة للتاريخ من الحقيقة القائلة بأن تاريخ التقدم الذى يتحقق فى ميدان الحضارة المادية هو فى أساسه تاريخ وسجل لتقدم التكنولوجيا . إن التقدم الفنى الآلى فى العصور الحديثة هو الذى يقرر مدى قدرة الإنسان على قهر الطبيعة واستغلالها وتسخيرها لخدمته . وسواء أكان الرأى القائل بخطورة الأثر الذى تحدثه الحضارة المادية على النواحى الثقافية الأخرى وعلى الأنظمة البشرية موضع قبول أو رفض ، فإنه لا يمكن أن ننكر تأثير الحضارة المادية بوصفها عاملاً هاماً على كل مظاهر الحياة البشرية وأنشطتها .

إن المرحلتين الكبيرتين فى تقدم التكنولوجيا هما :

١ - تطور الآلة

٢ - إحلال الأدوات الميكانيكية محلها .

ولا جدال فى أن الثورة الصناعية تمثل أبرز صورة للأثر الفردى الذى ترتب على التغيرات التى طرأت على التكنولوجيا . ذلك أن الثورة الصناعية قامت على أساس عدد من التغيرات العلمية والتكنولوجية فى الغزل والنسيج وصناعة الصلب ، ووسائل النقل والمواصلات . وكان ذلك كفيلاً بتغيير ملامح الحضارة الحديثة ومسيرتها . وعلى الرغم من أهمية تاريخ التكنولوجيا بوصفها أساسا لفهم التطور الثقافى وتطور الأنظمة فإنه يجب الاعتراف بأن جماعة المؤرخين لم يشغلوا أنفسهم جديا بالبحث فى هذا المجال . وتبدو هذه الحقيقة عندما يستعرض الفرد كتب التاريخ الحديثة إذ نجدها خصصت فصولا عدة لأحداث سياسة غير هامة نسبيا ـــ مثل عصر الثورة الفرنسية ـــ بينما كان أول مرجع عام فى تاريخ أوربا الحديث يتضمن فصلاً عن الثورة الصناعية هو كتاب روبنسون وبيرد الذى صدر سنة ١٩٠٧ بعنوان « تطور أوربا الحديث » . هذا وإن كانت هناك عدة أبحاث سابقة على ذلك الكتاب تناولت تلك الثورة الصناعية من عدة جوانب .

وقد بذل علماء الحفريات وعلماء الحضارة البشرية كثيرا من الجهد لامدادنا بمعلومات عن اصول التكنولوجيا المادية ــ مثل ظهور وتطور الأدوات المختلفة ــ وبعض القوانين الفنية أو اللوائح التى تحكمت فى أصول الحضارة المادية وتطورها وانتقالها . وكان أن جمع أوتيس ت . ماسون Otis T. Masm فى كتابة أصول الأختراعات ، سجلاً عن هذه المواد فى أشكالها الأولى وشرحها فى صورة وصفية وعلى شكل نظريات . ثم كان أن انتشرت هذه الأبحاث وشاعت بطريقة أحدث فى مؤلفات كوينلس ووميزلر Quennelles and Wissler. ومن العصر الذى يعرف بعصر ما قبل التاريخ حتى الثورة الصناعية لم تكن هناك سوى دراسات ضئيلة فى الجانب التاريخى الخاص بالأوجه المختلفة للتقدم التكنولوجى . أما عن تاريخ التقدم الميكانيكى الذى جاءت به الثورة الصناعية فقد كتبت عنه بعض الكتب مثل تلك التى ألفها اوشر Usher، كايمفر Kaempffert، مونفورد وآخرون . هذا بالاضافة إلى ما ظهر من دراسات أخرى هامة عن تاريخ جوانب معينة من التقدم الفنى مثل صناعة الصوف والحديد والتصدير ووسائل النقل برا وبحرا والصناعات الكيماوية الحديثة وصناعة الفحم والمطاط والوسائل الحديثة لاستغلال الكهرباء وغيرها .

وتمت دراسات عامة عن تاريخ التكنولوجيا أصدرها فيرندل Vrendel، اوشر ، ديرى ووليام ، ميسك ، كلم Klemm. هذا فضلا عن الموسوعة المشتركة التى اصدرها شارل سنجر وزملاؤه . كذلك هناك مجهود مفيد مبتكر قام به ثورستين فيبلن متأثر بآراء كارل ماركس حيث حدد مراحل التطور التكنولوجى بوجه عام ووضعه فى موضعه الصحيح بالنسبة للتاريخ الثقافى والتطور الاجتماعى والاقتصادى . هذا بالإضافة إلى أنه حاول أن يضمن بحثه حلولا لبعض المشاكل الأقتصادية والاجتماعية الكبرى فى وقتنا الحاضر . وقد نهج بعض الكتاب نهجة ولكن بصورة أقل دقة وعمقاً مثل هوبسون ، سومبار وأوجبرن Sombart and Ogburn.

وشهدت السنوات الأخيرة جهدا قام به مجموعة من الباحثين لاحياء هذه الدراسات ونشرها على نطاق واسع وخاصة اولئك المؤمنين بمبدأ التخصص .

وربما لا نكون مجازفين إذا قلنا إنه ينتظر فى مدى جغرافيته أن يظهر عدد من المؤرخين المحترفين الذين يتعقبون فى جدية وانتظام العلاقة بين التقدم الفنى والتطور البشرى والثقافى ، وتبدو ملامح هذا الاتجاه فى بعض الاهتمامات التى ابداها حول هذا الموضوع

بعض المؤرخين مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، مارفن ، شوتويـل وغيرهم . ولـو أن اهتمامهم لسوء الحظ لم يتمخض سوى عن القليل من المؤلفات . ويعتبر كتاب لويس لامنورد الذى كتبه باسم/التطبيقات الصناعية والحضارة ، أول محاولة نرضى عنها لتتبع تطور التكنولوجيا . كذلك طور كمبر واعوانه هذا الموضوع كما تناوله سيجفريد جيديون Siegfried Giedion فى كتابة سيطرة نظام الآلة ، وكان لروجر بيرلنجام Roder Burling-ame الفضل فى الما م الكثيرين بهذا الموضوع بفضل كتابه الذى يدل على مقدرة والذى اسماه «الآلات التى اقامت امريكا» .

التاريخ الاقتصادى

يرتبط تاريخ المسائل الاقتصادية والنظم الخاصة بها ارتباطا شديدا بتاريخ التكنولوجيا بالقدر الذى تكون حياتنا الاقتصادية وليدة التطبيق للتكنولوجى الآلى القائم على استغلال الطبيعة فى الحدود التى ترسمها الاتجاهات الاجتماعية والأنظمة التشريعية ، خصوصا ما يتعلق بمسائل ملكية الثروة ووضع الطبقات والتمييز بينها من الجانب الاقتصادى . وعلى هذا فإن المؤرخ الاقتصادى يبدأ مهمته مستعينا بالفنيين وينهيها بمعاونة رجال الاجتماع . ويكاد يقتصر تاريخ الحياة الاقتصادية لشعوب العالم على التطورات التى شهدها القرن التاسع عشر .

ذلك أن البحث فى الحياة الاقتصادية ــ شـأنها شأن تـاريخ العلم ــ لم يكن أمـراً مألوفاً ــ اذ نبذ المؤرخون هذا الجانب وانحصر تصورهم الرومانسى للتاريخ ومجال كتابتهم فيه على انتصارات الملوك وأخبار القادة العسكرين ورجال الدولة والسياسيين والاعيان . وظهر أول اهتمام منتظم بالتاريخ الاقتصادى بوصفه أحد جوانب العلوم الاقتصادية بصفة عارضة خلال نشاط الحركة التجارية وتقدم البحث فى العلوم الطبيعية . وذلك أن الكتاب عالجوا هذه الموضوعات مع الإشارة فى قليل أو كثير للتاريخ الاقتصادى . وأحسن الأعمال التى يظهر فيها ذلك بصورة عرضية ما كتبه آدم سميث بعنوان «ثروة الأمم» . أما مونتسكييه فقد شعر بأهمية العلاقات التجارية على تطور الانسان والثقافة . ثم حاول رينال Raynal بعد ذلك بقليل ان يحيط بمظاهر التوسع الاوربى والثروة التجارية فى التاريخ الأوربى .

وتشبع هيرن Heeren وهو الأستاذ التابعة من مدينة جوتنج بالمانيا بروح مونتسكيبه وذلك عند كتابته أول كتاب عظيم عن التاريخ الأقتصادى . وذلك انه كتب عن التاريخ القديم فى ضوء العلاقات بين الحياة الاقتصادية والنشاط التجارى فى تلك العصور . ثم ازداد الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى إلى مدى أبعد من ذلك بفضل التصارع بين السياسات التجارية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من ناحية ونتيجة للتقدم الذى وصلت إليه مدرسة مؤرخى الأقتصاد الالمانية من ناحية أخرى . وعلى كل فإن الاهتمام الحقيقى بالتاريخ الاقتصادى ظهر بعد ان وجهت الثورة الصناعية الاذهان إلى أثر العوامل الاقتصادية فى التاريخ .

وكانت هناك مرحلتان أو نموذجان بالنسبة للتطور الخاص بالتاريخ الاقتصادى . اما المرحلة الأولى تتمثل فى اتباع نظرية ومناهج التاريخ السياسى الوصفى . وذلك بأن سلكت الابحاث العامة طريقاً اخبارياً صرفا عند وضعها أو تأريخها لتتابع الأحداث الاقتصادية . أما المرحلة الثانية للأبحاث الصغيرة المقتضبة حول مشكل ما فى التاريخ السياسى أو الدبلوماسى فإن ما يقابلها فى التاريخ الاقتصادى كان يدرس دراسة مستفيضة تتناول تطور بعض الأنظمة أو الأنشطة الاقتصادية الخاصة أو عرض موضوع معين فى فترة خاصة . ولكن بالنسبة لكلا النموذجية فإن البحاثة عليه أن يكون بالغ الدقة واسع الاطلاع وله اهتمام حقيقى ولو محدود بما يدرسه . ومع هذا كله فإن الجهد كان ضئيلا بالنسبة للربط بين الأنشطة الاقتصادية وأنظمة الحياة العامة للمجتمع ككل ، وبالنسبة لتصوير التطور التاريخى للإنسان والمجتمع مع بيان نتيجة تفاعل وتأثير العوامل الاقتصادية وغيرها من العوامل على التطور الثقافى .

ونجد نماذج لهذا النوع المبكر من دراسة التاريخ الاقتصادى فى الأبحاث الشهيرة لروجرز ، جبنس Gibins، اشلى Ashley، كننجهام ، اونوين Unwin، لبسون ، كلابهام Clapham، فارنر Warner، اناما شترنج Inama Shrnegg، مافور Mavor، أوشر Usher، هيتون Heaton، بوجارت Bogart، لينكبوت Lippincot، كومان Coman، كارمان Carman. هذا بالاضافة إلى رسائل وابحاث عديدة لا يتسع المجال لذكرها هنا . ومن خيرة المؤلفات الجادة فى هذا المجال الكتاب الذى ألفه جورج رينارد وزملاؤه بعنوان

«تاريخ العمل» . كذلك أخرج هنرى دافيد وزملاؤه عملا عظيما آخر مشتركا عن (التاريخ الاقتصادى للولايات المتحدة الأمريكية) .

وثمة نوع آخر من أنواع كتابة التاريخ الاقتصادى أعظم من سابقه وأكثر منه حيوية يمتاز بجودة الربط فضلا عن انه يقتصر على سرد المسائل الاقتصادية وإنما وصف تطور الأنظمة الاقتصادية ذاتها . وجاءت أول خطوة هامة فى هذا المجال على يد مؤرخى الاقتصاد من رجال المدرسة الألمانية ورائدهم فى هذا السبيل روشر Rosher.

ولم تلبث ان جاءت خطوة أخرى أكثر تقدما عندما بذلت محاولة على قدر المستطاع لتوضيح الترابط بين تطور الأنظمة الاقتصادية والأنظمة الاجتماعية الأخرى . وعلى الرغم من أنه كانت هناك جهود مبكرة فى هذا المجال منذ عهد أرسطو وما بعده ، إلا أن الإنتاج العظيم فى هذا الموضوع تمثل فيما أسهم به كارل ماركس إذا حكمنا على مجهوده فى هذه الناحية بصرف النظر عن النظرية الاشتراكية التى نادى فيهما بإعادة البناء الاقتصادى . ويؤكد هذه الحقيقة عديد من الكتاب الذين تزعم بعضهم حركة النقد لمذهب ماركسى المتطرف مثل كوفالفسكى ، شومولر Schomoller، سومبار Sombart، بوشر Bücher، وبر Weber، ليفاسير Levasseur، هوبسون Hobsn، وب ، هاموند ، تاونى ، فيبلن ، كونبر Connors، جراس Cras، فولكنر Faulkner، كيركلاند Kirkland، دورفمان Dorfman، كوشران Cochran، ميلر Miller، كلف Clough.

ومن الواضح أن هذا النوع المتطور من كتابه التاريخ الاقتصادى ينبغى أن يقوم على معرفة واسعة بعلم الاجتماع ، الذى يستطيع وحده أن يمد الكاتب بإلمام واسع وكاف بالقوانين ومظاهر التطور فى الأنظمة الدولية ، وذلك حتى يتمكن من دراسة هذه المسائل الاقتصادية بنجاح . ويمكن القول ان مدى نجاح الكاتب فى موضوع التاريخ الاقتصادى إنما يتوقف على قدر إلمامهم بالمسائل الاجتماعية . ويمثل هذا النوع من الكتابة التاريخية فى الولايات المتحدة الامريكية ثورتين فيبلين Thorstein Veblin وتلاميذه الذين جعلوا من هذا الربط بين التاريخ الاقتصادى وعلم الاجتماع لوناً أساسياً من ألوان علم الاقتصاد الحديث أو الأنظمة الاقتصادية الحديثة . هذا مع ضرورة ملاحظة أن تناول التاريخ الاقتصادى بنوعيه إنما جاء على أيدى رجال الاقتصاد أكثر من كونه نتيجة لجهود المؤرخين . ولم يكن من قبل الصدفة وحدها أنه يوجد أقسام ذات كراسى خاصة بالتاريخ السياسى

والدبلوماسي والدستورى عن كل بلد وعصر فى حين أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر ما يصل إلى ستة كراسي خاصة بالتاريخ الأقتصادى فى جميع أقسام التاريخ فى جامعات الولايات المتحدة الامريكية . ولا يعرف مؤلف هذا الكتاب من هذه الكراس سوى ذلك الوجود فى جامعة مينوستا Minoesta.

التاريخ الاجتماعى

أما التاريخ الاجتماعى فكان احد الاضافات الرئيسية نسبيا التى جعلت علم التاريخ أكثر تحولا فى نظرته وأكثر حيوية فى مضمونه . وقد بدأت هذه الحركة منذ قرن تقريبا ببعض الدراسات مثل تلك التى قام بها ريل Reill، وفرتياج Freytag، وكلاهما حاول اثارة الاهتمام بماضى ألمانيا لا عن طريق إحياء ذكرى الانتصارات الباهرة التى حققتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة أو تلك التى تحققت لأسرة الهوهنزلرن وإنما عن طريق الدعوة لإعادة بناء الحياة الاجتماعية والتمسك بالعادات التى كانت سائدة فى المانيا فى العصور الوسطى والحديثة . على أن العمل الذى قام به فريتاج على وجه الخصوص لا يعتبر تناولا منتظما لتطور النظم الاجتماعية بقدر ما كان تجميعا لصور ناطقة مصحوبة بالرسوم والمناظر والقصص والأحداث التى تصف دقائق الحياة اليومية للشعب الجرمانى . ثم تطورت هذه الطريقة فى معالجة التاريخ الاجتماعى عن طريق عديد من الدراسات التى عالجت السلوك والعادات فى عصور وأزمنة مختلفة . وكان طابع هذه الدراسات الاهتمام بالقديم أكثر منه إنجاز دراسة تاريخية واسعة الأفق .

وخير نموذجين لهذا النوع من التاريخ الاجتماعى هذا ما كتبه لودنيج فريد لاندر عن الحياة فى الإمبراطورية الرومانية وما كتبه بولى لاكرد Paoul Lacroix عن العادات والأخلاق فى العصور الوسطى . ثم لم تلبث ان تحققت خطوة أكثر تقدما على ايدى اولئك الكتاب الذين حاولوا ان يعطوا مجالا أوسع واهتماما أكبر لدور العوامل الاجتماعية فى تاريخ الشعوب وذلك فى مؤلفاتهم التى كانت نوعا من القصص الوصفى ، لكنها صممت ونفذت لتمعين غرض تاريخى من ورائها أكثر من مجرد اهتمامها بالماضى القديم . وكان أن تحقق هذا النوع من الكتابة فى بعض الأعمال الشهيرة مثل من التى قام بها تريل Traill،

ومان Mann بعنوان (مجتمع انجلترا) ، وما كتبه رامبو Rambaudعن الحضارة الفرنسية وبلوك Block بعنوان (تاريخ الشعب الهولندى) ، فضلا عن الموجز الذى وضعه التاميرا عن الحضارة الأسبانية . وهناك أيضاً الكتاب الذى الفه ماك ماستر Mc Master عن الدور الوطنى فى تاريخ تطور أمريكا ، وهو العمل الذى اكده تلميذه اوبرهلتزر Oberholtzer عن الفترة منذ قيام الحرب الاهلية الامريكية . أما أعظم الأعمال فى مجال كتابة التاريخ الاجتماعى فهو ذلك النوع الذى يحاول أن يوضح المظاهر العامة للتطور الاجتماعى طبقا لما احدثته وعدلته فيه العوامل المختلفة من نظم وقوى وصدام بين الطبقات والهيئات الاجتماعية المختلفة . ويتناول هذا النوع من الكتابة المتطور الاجتماعى بوصفه عملية وراثية ذات أصول قديمة . أما الكتاب الذين طوروا بدرجات متفاوتة هذه الكتابات المتنوعة من التاريخ الاجتماعى المتطور فهم لامبرخت ، شنتها وزن ، جوشن ، جوتز ، نيتشه ، كلهم من علماء المانيا وفى فرنسا فوستيل دى كولانج وبير وزملاؤه . أما فى انجلترا فقد ظهر جون ريتشارد جرين ، وماتيلاند ، فينوجرادوف ، بولارد ، سلوثر ، باربارا هاموند ، سيدنى ويبترس وب Sidney and Beatrice Webb، كلافام Clapham. وفى ايطاليا ظهر بارباجلو ، وفيرورو Ferrero. وفى روسيا كلوشفسكى Klucheovsky. أما فى الولايات المتحدة فهناك شوتويل ، تيرنر ، سيمونز ، فوكسى ، كيندرك ، هاكر ، كارمان ، بيكر ، ودد ، هايز شينى ، شيلزنجر ، فولكنر Foulkner، وبودن Bowden. ولقد امدنا العمل المشترك عن التاريخ الاجتماعى والثقافى فى امريكا والذى الفه ا . م . شيلزنجر بالاشتراك مع د . ر . فوكس D.R.Fox بأحسن المعلومات عن مكانة الكتابة التاريخية فى التاريخ الاجتماعى فى الولايات المتحدة الامريكية فى الوقت الحاضر .

ثم كان أن مضى بعض الكتاب ــ وأكثرهم اجتماعيون مؤرخون أكثر منهم مؤرخون اجتماعيون . بهذا التطور قدما ، وحاولوا الكشف عن قوانين التطور الاجتماعى فنقبوا عن الظواهر الاجتماعية التى كررت نفسها فى التاريخ حتى يكتشفوا الحقائق المبنية على الاسباب والنتائج . وبمعنى آخر فانهم حاولوا ان ينزلوا بالتاريخ ليجعلوا منه فرعاً للعلم الاجتماعى الوراثى . وتبدو الامثلة على هذا النوع من الكتابات فى مؤلفات كل من كومت Comte، باكل Buckle، هوبهوز ، جيرنجز ، مولر لاير Muller.Iyer، بريزج Breysig، الفرد ويبر Alfred Weber، تيجارت Tegart، والاسى Wallace، فورست وسوردكن Forest and Sorokin.

تاريخ النظم السياسية

كان للاتجاهات الجديدة التى تمثلت فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى أثرها على التاريخ السياسى وتاريخ القانون . واتجهت أرقى أنواع الكتابة التاريخية بالنسبة للتاريخ السياسى فى القرن التاسع عشر نحو علاج أخبال هذا التاريخ وأحداثه ، ولكنها قلما أبرزت صورة واضحة للتطور السياسى ، فضلا عن أنها لم توضح سر تجاهلها للعلاقة بين النظم السياسية والقوى الأخرى فى مجال التاريخ القومى . والحاصل أنه حين كان المؤلف على دراية واسعة بعلم السياسة ، فإن مادته كانت تضم بين طياتها اتجاهات التطور الدستورى وتطور النظم وتطغى على كتابته مادة التراجم والقصص وسرد الأحداث . ولم يكن فى إمكان القارىء . إلا إذا كان مثابرا . أن يستفيد مما يقرأ . ومن أحسن الكتب فى هذا المجال ذلك الكتاب الذى الف س . ر . جاردنر عن تاريخ انجلترا والذى اشتهر بين الطلبة بوصفه مرحب فى موضوعه .

أما أصحاب النظرة الواسعة القادرين على ربط الأمور بعضها ببعض والذين نظروا إلى التطور السياسى على أنه إلى حد كبير نتاج حتمى لما يتعرض له المجتمع من صراع وضغوط وقوى وتعديلات فهؤلاء هم أصحاب الفضل فى ظهور ما يسمى بتاريخ النظم السياسية . وهنا برزت مسألة الجانب التكوينى وتركز الاهتمام على التغييرات فى النظم أكثر منه على الأحداث والشخصيات كما برزت أهمية توضيح المراحل الرئيسية فى التطور السياسى واتسع ذكر الاسس الاقتصادية والاجتماعية للاتجاهات السياسية وقد نهج موسر Moser منهجا يمس هذا الاتجاه مسا خفيفا فى وقت مبكر فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر وذلك فى كتابة تاريخ اونزنبروك ، كذلك نهج نفس هذا المنهج كل من دى كوكوفيل ، فوشيل دى كولانج ، لاكومب ، لوشير ، فيوليه ، فلاش ، بيتى دوتيه Petit Dutellis. أما شوملر فعلى الرغم من أنه اقتصادى أكثر من كونه مؤرخ فإنه شجع هذا النوع من الكتابة التاريخية فى المانيا . كذلك تعتبر مؤلفات نيتشه خير مثال لهذا القسم من الدراسات . وقدم لنابرونر ، وتيز ، جنست Gneist، ديجو Duguuit مثل هذا النوع من العناية بالاتجاهات التشريعية والدستورية . أما ماتيلاند ، فينو جرادوف ، ادوارد جنكس Jenks، بولالا ، وبز Webbs فكانوا من رواد هذه الدراسات فى انجلترا . وفى روسيا نجد ميليكوف خير من عنى

بهذا النوع من الدراسة ، ومثله فى ذلك فيروردو Ferr oro والذى أتخذه اساسا لدراسة التحليلية للتاريخ الرومانى السياسى . اما فى امريكا فتتمثل ابرز الجهود فى مجال تاريخ النظم السياسية فيما كتبه اوزجود عن تاريخ المستعمرات الانجليزيـة حتى قيام الثـورة الامريكية . ولو ان دراسته اصبحت بالية لفشلها فى ابراز تفاعل العوامل الاقتصـادية والاجتماعية والسياسية بعضها مع بعض . ذلك أنه فضل تاريخ الاستعمار عن الاتجـاه السائد لطمس تطور النظم الاستعمارية تحت حشد ضخم من التفـاصيل من التـراجم والاحداث والقصص بحيث صار ذلك الحشد بمثابة قوقعة يصعب اختراقها أو الوصول إلى ماورائها . ولكن هذه الدراسة التى قام بها أوزجود اثارت اهتمام طلاب البحث بدراسة النظم فى الوحدات السياسية المحلية . أما ماك الوان Mc Ilwain فله كتاب العظيم عن نظام الحكومة فى العصور الوسطى ، وعما فى تاريخ النظم الامريكية من جذور واسس انجليزية . وتناول ك . م . اندروز ، ج . ت . آدمز دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى فترة وجود المستعمرات واعطياها قدر زائدا من الاهتمام . أما اقرب الابحاث فى امريكا كذلك التى قام بها فى اوربا ، هاتيرلامد ومدرسة ويبس Webes فهى التى كتبها آدمز عن تاريخ الدستور الانجليزى وما أخرجه بيرد Beard من أبحاث متخصصة عن فترة وضع الدستور وفترة حركة القومية فى دورها الأول . ولهذا المؤلف الأخير (بيرد) محاضراته التى لم تنشر عن تاريخ الدستور الأمريكى . وهناك الكتاب الذى ألفه هاكر ، وكندريك بعنوان «تـاريخ الولايات المتحدة الأمريكيـة منذ الحرب الاهلية» . ومثله كتب ومحـاضرات و . ا . دود W.e.Dodd، بيلنجتون . ويعتبر مـا كتبه تيـرنر ، بيـرد ، شيلزنجر ، بيكـر من أعظم الدراسات التى ابرزت تاريخ النظم السياسية الامريكية . ثم أنه علينا ان نعترف بأنه لا يوجد مؤرخ سياسى استطاع ان يبرز ما ابـرزته تلك الـدراسات التى قـام بها بيجهـو Begehot، وجو مبلوووكز Gum plowicz، راتزنهوفر Ralzenhofer، وميشيل ، ويبر Webber، واوبنهيمر Oppenheimmer، وكوفالفسكى ، لوريا ، نيتلى .

تاريخ القانون

أدى علاج تطور الأنظمة السياسية علاجا جادًا عميقا يستند على أساس التاريـخ الاقتصادى والاجتماعى إلى التأثير على تاريخ القانون والنظم التشريعية . ذلك أن كتاب

هذه المدرسة حرروا دراسة القانون من المفاهيم الميتافزيقية واللاهوتية وأظهروا ما للاصول القانونية من طبيعة دنيوية واجتماعية وما طرأ عليها من تحولات موضحين كيف ان القانون يكيف نفسه إلى حد كبير مع التغيرات الاجتماعية ــ اما أولئك الذين ندين لهم بمعظم ما نعرفه عن هذا التحول فى دراسة تاريخ القانون بالنسبة لكافة العصور فهم جومهكوليز فى النمسا ، جيرك Gierke، ايهرنج ، برنر Brunner، كوهلر ، كانتورتز Kantorowtz، بيرولزير Berolzheimer فى المانيا . وفى انجلترا لدينا ابحاث مايتلامذ ، بولوك Pollok، جنكز ، فينوجرادوف ، لاسكى Luski. وفى فرنسا هناك ازمن Esmein، دوجو Dugiut، شارمونت Chormont، وفى ايطاليا نجد فاشارو Vaccaro، وفى الولايات المتحدة هولمز Holmes، ويجيمور Wigonore، كاردوزو ، روسكو بدند Roscoe pound وتلاميذهم .

التاريخ العالمى ووجهة النظر العالمية

ويرتبط ارتباطا قويا بالتطور العلمى الاقتصادى الذى شهده القرن الماضى اتجاه جديد نحو التخلص من العزلة والاقليمية التى اصطبغت بها الكتابة التاريخية فى الماضى واحلال وجهة النظر العالمية محلها . ذلك أنه صار من الأمور الواضحة أنه حتى التاريخ السياسى المحلى لدولة من الدول لم يعد من الميسور فهمه دون معرفة المؤثرات التى طرأت عليه من الخارج . ولعل الأمر الذى يبدو أشد وضوحا هو أن هذا العصر شهد سهولة وسرعة الاتصال بين شعوب العالم ، وهو أمر فرض على كل أنواع الكتابات التاريخية الحديثة بمعناها الحقيقى أن تكون تاريخا عالميا وأن تأخذ بوجهة النظر الدولية . وتحقق هذا الاتجاه المحمود على ايدى عدد من الكتاب الذين تناولوا السياسات العالمية والعلاقات الدولية فى السنين الأخيرة . من ذلك أن ه . ج . ولز Fl.G.Wells حاول ان يكتب تاريخا عالميا ملتزما بوجهة النظر هذه السائدة فى كل وقت . وثمة محاولة أخرى لتطبيق نفس هذه النظرية على تاريخ العصور الحديثة نهض بها بعض مؤرخو العلوم مثل فسك Fiske، سيلى ، هايز ، بوستفورد ، أبوت ، جيلبس ، فيوتر ، فلك Flick، أما المحاولة الاساسية والشاملة لابراز اهمية التاريخ العالمى بالنسبة لتطور الحضارة الحديثة تقام بها الاستاذ و . ر . شيفرد W.R.Shepherd الاستاذ بجامته كولومبيا فى محاضراته عن حركة الاستعمار

الاوربي . ومنذ ذلك الحين اصبحت كل الاعمال التاريخية على اختلاف أنواعها لابد وان تكون ذات نظرة عالمية . وهناك ابحاث تاريخية عظيمة في التاريخ العالمي ذات جهد مشترك قام بها ويلهم اونكن ، والتر جوتز ، جوستاف جلوتز ، لويس هالفن ، هنري بير ، ايوجيه كافيناك ، موريس كروازيه . ثم تجسمت ذروة هذه الجهود في مشروع اليونسكو عقب الحرب العالمية الثانية وهي المشروع الذي نهض بتنفيذه جوليان هاكسلي ، والف ا . تيرنر Turner.

التاريخ الثقافي العام

من أهم العوامل التي أسهمت في توسيع دائرة التاريخ ازدياد الإلمام بالثقافة في أوسع معانيها ، مثل تاريخ الفن والأدب والسلوك والعادات والطباعة والموسيقى وغيرها من الجوانب الأخرى عن الثقافة القومية . وإزاء هذا المزيد من الاهتمامات التي وجد المؤرخ نفسه أمامها مضطراً بقبولها المفاهيم الجديدة لعلم التاريخ صار من الواضح ان الكتابة التاريخية ستقوم في المستقبل على أساس التعاون المشترك بحيث يسهم كل كاتب بما يتفق ودراسته وتخصصه وخبرته . وبذلك لا يمكن إلا قول من شأن أي عمل جماعي طالما أن إنتاج المجموعة يتصف بالرقة ويمكن الاعتماد عليه .

التاريخ والادراك الاجتماعي

أما آخر مظهر ينبغي ان نشير إليه من مظاهر الاتجاهات الجديدة في علم التاريخ ، فيبدو في تلك الجهود الحديثة لجعل التاريخ ذا صبغة علمية وذا فائدة عملية ، بمعنى ان يصبح مفيداً لنا نحن ابناء اليوم . والحق ان الطابع العلمي للتاريخ ظهر في الماضي في صورة أو أخرى ، وهناك امثلة معروفة توضح هذه الحقيقة اهمها سفر عزرا ونحميا ، وكتاب أوزلوسي الذي عنوانه سبع كتب في التاريخ ضد الوثنيين ، كذلك هناك جهود أحدث تناولت التاريخ من وجهات نظر مختلفة بهدف تعميمه وإخراجه من نطاق المذاهب التاريخية المعروفة إلى حيث تجعل منه اداة يستعين بها السياسي والمصلح والمفكر . ومن اشهر الامثلة لهذا النوع كتاب

مارفن ، الماضي الحي ، وكتاب قرن الأمل كذلك هناك ما كتبه روبنسون ، الفكر في دائرة التكوين ، وكتاب الكوميديا الإنسانية ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه والاس بعنوانه اتجاه التاريخ وولز بعنوان ، موجز التاريخ . أما فان لون Van Loon فقد سمى كتابه «قصة البشرية» . على أنه ربما كانت أكثر الكتابات في هذا المجال إثارة للاعجاب هي كتابات روبنسون ومجموعة سلسلة كتب الوحدة التي أشرف عليها ف . س . مارفن . ومهما يحدد الانسان مدى لنجاح هذه الجهود الأولى في ذلك المجال ، فإنه سيبدو أنه ما لم يكن للتاريخ مثل هذه الفائدة العملية عند علاجه في موضوعية وعناية فإنه يصبح امرا لا حاجة إليه إزاء احتياجات الانسان العملية . حقيقة إنه في هذه الحالة يصبح شيئاً مفيدا ولكنه سيحظى بالإحترام ولكنه يبقى نوعا قاحلا من أنواع المتعة الثقافية . ويبدو أنه بقدر اهتمامنا اليوم ، فإن الفائدة العملية الأساسية التي نرجوها من التاريخ هي ان يبرز تطور ثقافتنا من اصولها الاولى وان يدفعنا إلى التقدم بصرف النظر عما شهدته البشرية من بعض التقلبات الهامة والنكسات وان يؤكد لنا ان الحاضر مختلف عن الماضي ، ومن ثم يحول دون أقتباس جيلنا أقتباسا مباشرا ومطابقا لتجارب أسلافنا الماضية . وبمعنى آخر فإنه من المحتمل أن تكون الفائدة العملية الرئيسية من التاريخ هي ان يفيد بجهوده في التقليل من تأثير خطر أولئك الذين ينبغي عليهم الآن ان يخططوا لمستقبل أكثر كفاية وسعادة بالنسبة للبشرية .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

C. L. Becker, "Some Aspects of the Influence of Social Problems and Ideas upon the Study and Writing of History" in Publications of the American Sociological Society, 1912.

I.H. Robinson. The New History. Macmillan, 1911.
— ,Mind in the Making. Harper, 1921.
— ,The Human Comedy. Harper, 1987.
— ."New Ways of Historians", American Historical Review, January, 1980.

W.G.Beasley and E.G. Pulleyblank, Historians of Cbina and Japan, OXFORD, 1961.
H.K. Beale, ed, Cbarles A. Beard. University of Kentucky Press, 1954.
C.W. Smith, Carl Becker: On History and the Climate of Opinion. Cornell Iniversity Press, 1956.
Thompson, History of Historical Wring, Vol. II, chaps. li-lv. Kraus, The Writing of American History, chap. xiv.
Howard Odum, ed., American Masters of Social Science. Holr, 1927.
H.E. Barnes, History and Social Intelligence. Knopf, 1926.

— ,The New History and the Social Studies. Century, 1925.
— ,Social Institutions. Prentice-Hall, 1942.
F.J. Teggart, Prolegomena to History. University of California Press, 1916.
— ,Processes of History. Yale University Press, 1918.
— ,The Theory of History. Yale University Press, 1925.
A.A.Goldenweiser, History, Psychology and Culture. Knopf, 1933.
White, The Evolution of Culture.
G.E. Dole and R. L. Carneiro, eds., Essays in the Science of Culture. Grwell, 1960.

Joseph Dorfman, The Economic Mind in American Civilization. 5 Vols., Viking, 194-1959.
E.R.A. Seligman, The Economic Interpretation of History. Columbia University Press, 1907.
T.K. Derry and T.I. Williams, Short History of Tecbnology. Oxfor Univ. Press, 1961.
Crane Brinton, Ideas and Men. Prentice-Hall, 1950.
H.G. Wells, Experiment in Autobiography. Macmillan, 1934.
W. W. Wagar, H. G. Wells and the World State. Yale University Press, 1961.

Lewis Mumford, Technics and Civilization. Harcourt, Brace, 1934.
C.A. Beard, The Economic Basis of Politics. Knopf, 1922.
H.J. Laski, A Grammar of Politics. Yale University Press, 1925.
Fritz Berolzheimer, The World's Legal Philosophies. Macmillan, 1912.
Rocoe Pound, Interpretations of Legal History. Macmillan, 1923.

الفصل الثالث عشر

نشأة تاريخ الحضارة : تاريخ الحضارة والثقافة
ظهور الاهتمام بتاريخ الحضارة

يمثل الاهتمام المتزايد بتاريخ الحياة البشرية والثقافة الإنسانية أكثر التطورات أهمية وأحدثها فى تاريخ الكتابة التاريخية فى العصور الحديثة . وقد أوجزنا فى الفصل السابق الخصائص المتنوعة لاتساع مجال الاهتمامات التاريخية خارج نطاق الكنيسة والدولة . وسنحاول فى هذا الفصل استعراض بعض ما قدمه المؤرخون المتقدمون فكريا فى مجال تاريخ الحضارة .

ومن المتفق عليه بصفة عامة أنه يؤرخ للبداية الحقيقية لما عرف حديثا بتاريخ الحضارة Kul-turgeschichte بظهور كتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » وكتابه « مقال عن سلوك الأمم وروحها » وهو ما سبق أن تعرضنا له . وكان ان احتوت الكتب التاريخية التى تناولت تاريخ العالم ــ وهى الكتب التى شهدت تطوراً كبيراً منذ نشأة الرومانسية ــ مادة كثيرة عن تاريخ الحضارة . أما الجهد العظيم الذى تلى ذلك بالنسبة للتاريخ الثقافى فقد جاء فى الكتاب المشهور الذى كتبه يوحنا يواقيم وينكلمان (١٧١٧ ــ ١٧٦٨) وصدر فى جزءين سنة ١٧٦٤ بعنوان « تاريخ الفن فى العهود القديمة » فكان أول عمل تاريخى عظيم لتاريخ الفن ركز تركيزا على الفن عند الإغريق . فلقد أوضح وينكلمان الظواهر العامة لهذا الفن وما بلغه من رفعة وعدم أخذه عن غيره وقدرته الكبيرة على التمييز بين النسب وتحديدها . وكان لهذا الكتاب أثره الكبير على الباحثين والشعراء والفنانين وبصفة خاصة على الرومانسيين من دارسى التاريخ الثقافى . ولكنه لم يكن عظيم الأثر على المؤرخين المحترفين الذى ظلوا ملتزمين منهج الكتابة التاريخية القائمة على سرد الأحداث الهامة والشخصيات المرتبطة بتلك الأحداث .

وفى بداية القرن التالى نهضت مدام دى ستيل De Stael وسيسموندى بجهود ضخمة لجعل تاريخ الأدب فرعاً من تاريخ الحضارة الاجتماعى . ثم ظهر بعد ذلك جرفينوس الذى كتب عن تاريخ الشعر الألمانى ، ثم أعقبه هيرين Heeren ليؤكد أهمية التجارة على تاريخ الثقافة والنظم فى العهود القديمة . أما ادوارد زيلر Zeller فقد وهب شطراً كبيراً من حياته لكى يؤلف ــ مشبعا بروح هيجل ــ كتابه العملاق عن تاريخ الفلسفة الإغريقية . ومن أوائل الأعمال التاريخية التى عالجت تاريخ الحضارة علاجاً صريحاً كتاب المؤرخ والناشر الفرنسى فرانسوا جيزو Guizot (١٧٨٧ ــ ١٨٧٤) واسمه « التاريخ العام للحضارة الأوربية » وظهر الكتاب فى سنة ١٨٢٨ وتناول التطور الأوربى منذ نشأة الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الثامن عشر ، وركز بصفة خاصة على نشأة الأفكار البرجوازية وتطور الحكم النيابى مع الحرص على إعطاء صورة تاريخية واضحة عن الطبقة الوسطى المحافظة فى فرنسا ومثلها العليا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم شهد تاريخ الحضارة تلك التطورات التى تربطها بهنرى توماس باكل Buckle وأكبر تلاميذه جون وليام درابر . ولقد سبق ان تعرضنا لجهود باكل فى التاريخ وهى الجهود التى تضمنت اطراءه الحرية الفكرية مع تركيزه على أهمية العوامل الجغرافية والموارد الغذائية وأثرهما على تطور الثقافة . وبفضل هذه الجهود السّباقة أمكن للعالم الطبيعى والكيميائى الأمريكى جون وليام درابر (١٨١١ ــ ١٨٨٢) ان يكتب بحثه الشامل عن تاريخ التطور الثقافى فى أوربا سنة ١٨٦٣ ، ويتصف هذا الكتاب بمسحة واضحة من التشكك ومع ذلك فإنه دون المستوى فى التعبير عن تاريخ أوربا الثقافى . أما بحثه المتعارض مع الدين فكان أكثر عنفاً من سابقه وأطلق عليه اسم « تاريخ الصراع بين العلم والدين » . وعلى نفس هذا النمط الفكرى هناك كتابان لمؤرخ أيرلندى هو ادوارد هارتبول لكى Hartpole Lecky (١٨٣٨ ــ ١٩١٣) كتبهما عن تاريخ نشأة النقل وأثره فى أوربا ، وقد صدر سنة ١٨٦٥ تاريخ السلوك الأدبى فى أوربا منذ ارغسطس حتى شارلمان ، History of European Morals from Augustus to charlemagne وقد صدر سنة ١٨٦٩ . ويمثل هذان الكتابان أعظم الجهود الموفقة بين المؤلفات التاريخية فى التاريخ بأسره ، بل إن بحثه عن العقلانية يعكس جهدا بارزا مميزا لما أسهم به الغرب فى التاريخ الثقافى ، ويقارن دوره فى هذا المجال بما أحدثته آراء وأفكار أوغسطين وكالفن فى هذه الناحية . وهناك عالم انجليزى يمثل الفكر الحر وجانب الإلحاد هو سير ليزلى ستيفن (١٨٣٢ ــ ١٩٠٤) الذى اشتهر بكتابة تاريخ الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر . وكتابه « اتباع المذهب النفعى فى انجلترا The English Utilitarians » . وبين هذه المؤلفات يبرز مؤلف هام فى هذا المجال وهو الكتاب الذى ألفه الأستاذ

الأمريكي اندرو ديكسون هوايت (١٨٣٢ ــ ١٩١٨) وكان مديرا لجامعة كورنل إلى جانب كونه ناشرا ومحاضرا من أجل قضية الثقافة وحرية الفكر . ولعله أكثر المؤلفات التاريخية أهمية على الإطلاق فى مجال الفكر الحر وواحد من أكثر المؤلفات التاريخية تحقيقا للمنفعة ومن أعظم الكتب التاريخية التى تأخذ بالألباب .

ونلمس تطوراً آخراً فى هذا المجال فى بعض الأعمال التاريخية الهامة وبصفة رئيسية الألمانية منها التى وجهت اهتماما خاص لتاريخ الحياة والسلوك والعادات . وتبدأ هذه المدرسة بيعقوب جريم Jacob Grimm ومؤلفه التاريخى عن اللغة الالمانية والعادات المشروعة والقصص الشعبية والرويّات السحرية وما شابهها . كذلك من أوائل هذا النوع من الكتاب وأكثرهم أهمية وليلهم هنريك ريهل Wilhelm Heinrich Riehl (١٨٢٣ ــ ١٨٩٧) وهو كاتب ألمانى تعمق فى كل من تاريخ الحضارة الألمانية وعلم الاجتماع الوصفى . ولم يجمع مادته من الوثائق فحسب بل شيدها على أساس رحلاته العديدة فى ألمانيا . كذلك أنتج كتابه العظيم الذى أسماه التاريخ الطبيعى للشعب الألمانى بوصفه أساسا لسياسته الاجتماعية فى أربعة أجزاء بين سنتى ١٨٥١ ــ ١٨٦٤ . أما مبادىء ريهل التاريخية فقامت على أساس افتراض أن العوامل الجغرافية مثل المناخ والطوبوغرافيا وما شابهها هما الأساس فى تنوع الثقافات . وخرج بأن العوامل الاجتماعية والسكانية تلعب دورها فى هذه الناحية ، وأن الفلاحين بطبيعتهم إقليميون يكرهون التنقل فى حين أن سكان المدن تقدميون ولا يرتبطون بإقليم معين . كذلك اعتقد ريهل أن الاسرة هى الخلية الاجتماعية التى تثبت أركان المجتمع . وبلغ ريهل غاية الروعة فى وصفه الحى لخصائص الحياة الألمانية المحلية والثقافية فى المانيا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . لكن كان ضعيفا جدا وغير كفء فيما أصدره من أحكام تاريخية عامة وكذلك بالنسبة للتطور التكوينى الوراثى للثقافة . والواقع أنه كان قبل كل شيء مؤرخا اجتماعيا وصفيا . وتأثر ريهل كثيرا بالأهمية الثقافية للفن والموسيقى وخصص جزءاً كبيراً من اهتمامه لها فى مؤلفه الرئيسى وفى مؤلفاته الأخرى عن الفن الألمانى والموسيقى . وبالإضافة إلى مؤلفاته الخاصة فإنه اشترك مع غيره فى تحرير عدة أبحاث مسلسلة عن طبيعة البلاد والناس فى بافاريا .

وتعبر كتابات جوستاف فريتاج Freytag (١٨١٦ ــ ١٨٩٥) عن مزيج من التاريخ القومى والثقافى . وذلك أنه بدأ بدراسة التاريخ الألمانى ــ الاجتماعى والثقافى ــ بعد دراسة علمية لأصل اللغة وتاريخ الدراما . أما مؤلفه العظيم فى مجال التاريخ الثقافى فلقد أسماه (صور من التاريخ الألمانى) وصدر فى خمسة أجزاء بين سنتى ١٨٥٩ ، ١٨٦٢ . وتناولت تاريخ حياة الشعب

الجرمانى منذ نشأته حتى القرن التاسع عشر ، مع الاهتمام بالتركيز على الطبيعة الأساسية للثقافة القومية . فكان فى هذا شبيها بالعقلانيين . واتفق فريتاج مع جيزو أن الطبقة الوسطى هى عماد الحياة القومية فى المجتمع . كذلك ضمّن كتابه الكثير عن التاريخ السياسى والحربى بنسبة أكبر مما جاء فى كتابات ريهل ، وقدم صوراً حية لأبطال الشعب الجرمانى العظام مثل شارلمان وباربا روسا ولوثر وفردريك الأكبر وغيرهم . لكن فريتاج لم يقدس الماضى تقديسا عاطفيا كما فعل ريهل إلى حد كبير . وأوضح أنه كلما توغلنا فى الماضى وجدنا الحياة أكثر قسوة وذات طابع إقليمى . كذلك اتسم عمل فريتاج بالمتعة والتعمق فى أخبار الدسائس والتآمر .

وهناك ثلاثة مؤلفات أخرى عن الحضارة الألمانية اتسمت بأنها فاقت غيرها فى انتمائها إلى مدارس البحث التاريخية بالمعنى التقليدى وبأنها أعمال تاريخية بالمعنى الدقيق وأول هذه المؤلفات كتاب كارل نيتشه (١٨١٨ ــ ١٨٨٠) وعنوانه (تاريخ الشعب الألمانى حتى صلح أوجزبرج) . لكنه لم ينشر إلا بعد وفاته فى ثلاثة أجزاء بين سنتى ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ . وأعطى نيتشه اهتماما للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والفكرى فضلا عن السياسى . والواقع أنه امتلك قدرات غير عادية فى علاجه للأنظمة الجرمانية فى العصور الوسطى . كذلك كتب نيتشه كتابا تاريخيا عاما عن الجمهورية الرومانية ولو أن هذا الكتاب لا يعتبر إسهاما فى مجال التاريخ الثقافى . أما أعظم ماأسهم به كاثوليكى فى تاريخ الحضارة فهو ما ألفه يوحنا جانسن Johannes Janssen (١٨٢٩ ــ ١٨٩١) باسم (تاريخ الشعب الجرمانى فى نهاية العصور الوسطى) . وهو الكتاب الذى صدر فى ثمانية أجزاء بين سنتى ١٨٥٧ ، ١٨٩٤ . واتخذ محوراً له دراسة حياة الجماهير مع العناية بتاريخ الحياة الاجتماعية والثقافية . وكان رائعاً فى تصويره للمجتمع الجرمانى قبيل حركة الإصلاح الدينى وإن كان الباحثون يتشككون فيما ذكره من أن الحضارة الجرمانية بلغت ذروتها فى نهاية العصور الوسطى .

أما آخر ما أنتجت مدرسة ريهل وفريتاج فهو ما قام به جورج شتنهاوزن Steinhausen (١٨٦٦ ــ ١٩٣٣) الذى كان معجباً بكل من الكاتبين السابقين وأخرج كتاباً ينم عن مقدرة كبيرة سماه تاريخ الثقافة الجرمانية ، وصدر سنة ١٩٠١ . هذا إلى أنه كتب عدداً من الكتب المتخصصة عن مراحل وفترات مختلفة من تاريخ الثقافة الالمانية وإذا كان جورج شتنهاوزن يختلف عن فريتاج فى عدم إعطاء الدولة وزنها الكبير فى مجال التاريخ الثقافى ، إلا أنه يتساوى معه فى قدرته على توضيح وتقصى معظم التفاصيل وأدقها عن الحياة اليومية . لكنه فيما يتعلق بتاريخ علم

الجمال كان دون بوركهاردت فى الابتكار وإن كانت حصيلته العلمية من الحقائق المعترف بها أحسن حصيلة من بوركهاردت . ثم كان أن انعكس هذا اللون من الاهتمام التاريخى الذى ساد منذ ريهل حتى شتنهاوزن فى كتاب (تاريخ الحضارة الفرنسية) الذى ألفه الفرد رامبو (١٨٤٢ ــ ١٩٠٥) وفى الكتب الشعبية التى ألفها جون ريتشارد جرين : عن التاريخ الإنجليزى وفى العمل الذى اشترك فيه كل من هـ . ر . ترال Traille ، جـ س. مان Mann والذى نشر فى ستة أجزاء بين سنتى ١٩٠١ ، ١٩٠٤ عن التاريخ الاجتماعى فى انجلترا . كذلك انعكس هذا اللون من الاهتمام التاريخى على الكتاب الضخم الذى وضعه جون باتش ماك ماستر عن تاريخ الشعب الأمريكى .

وهناك من اهتم بالآداب وعلم الجمال أكثر من اهتمامه بالحياة والنظم ، ومن هؤلاء العملاق السويسرى يعقوب كريستوف بوركهاردت (١٨١٨ ــ ١٨٩٧) صاحب أروع الأبحاث عن النهضة وأدق الدراسات عن الحضارة الإغريقية . وقد درس بوركهاردت التاريخ على يد بوخ Boeckh ورانكه ودرس الفن على يد كوجلر وتأثر بما حققته الحركة الرومانسية فى مجال الفن والأدب . أما العمل الذى كان سببا فى شهرته فهو بحثه عن حضارة النهضة وهو البحث الذى نشر سنة ١٨٦٠ وفيه ركز بوركهاردت على ما اعتقد أنه السمة المميزة الأساسية فى عصره وهى بروز الفردية ــ وعالج ذلك بنجاح فى براعة عظيمة . وظل هذا الكتاب طيلة ثلاثة أرباع قرن أعظم عمل مبتكر قام به مؤلف بمفرده من المتخصصين فى عصر النهضة . أما نقطة الضعف الرئيسية فيه فتكمن فى فشل المؤلف فى أن يبرز ملامح التطور التدريجى لحركة النهضة من بين ثنايا العصور الوسطى .

ذلك أنه صور النهضة على أنها حدث مفاجىء يثير الحيرة وذلك بصورة أكثر مما أوضحته الحقائق . لكن بوركهاردت لم تفتنه بدرجة كبيرة كل مظاهر عصر النهضة واعترف تماما بجانبها غير الإنسانى وجوانبها القاتمة ولكنه اعتقد أن هذا ثمن ما حققه من أبحاث فى مجال علم الجمال .

أما كتاب بوكهاردت عن تاريخ الحضارة الإغريقية ، فهو أطول من الكتاب السابق ، كما أنه جهد تاريخى ممتاز . ذلك أنه أعرض عن تمجيد الإغريق رومانسيا وتناول الحضارة الهلينية من زاوية معتدلة واقعية . على أن كتابه هذا لم يحظ بالإعجاب والإثارة مثل كتابه السابق عن الحضارة . وكان اهتمام بوركهاردت بالتاريخ الثقافى على مجال واسع المدى ، وهى الحقيقة التى تكشفت عندما طبع تلاميذه مجموعة أبحاثه ومحاضراته سنة ١٩١٨ بمناسبة الذكرى المئوية لمولده .

وقام جون أدنجثون سيموندس John Addington Symonds (١٨٤٠ ــ ١٨٩٣) وهو الإنجليزى المعجب ببوركهاردت بالتعبير فى صورة كاملة متزنة عن وجهات نظر أستاذه عن الحضارة . وسيموندس هذا هو صاحب تراجم دانتى وميخائيل أنجلو ومؤلف كتاب النهضة فى إيطاليا الذى طبع فى سبعة مجلدات بين سنتى ١٨٧٥ ، ١٨٨٦ . ومع أنه درس دانتى وعصره مما هو كفيل أن يجعله يفوق أستاذه فى معرفته بعصر النهضة ، ألا أنه أكد ، ما سبق أن ردده بوركهاردت من وجود هوة سحيقة بين العصور الوسطى وعصر النهضة . ولم يكن عصر النهضة فى نظر سيموندس هو عصر الربيع والازدهار للبشرية فى الغرب فحسب ، لكنه كان عصرا استهدف تطوير الحرية وإسعاد الانسانية . ورأى سيموندس أن هناك تدهورا مباشرا فكريا وخلقيا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية عبر حركة الإصلاح الدينى ، وأن كلا من هذه العصور متشابهة من الناحية الروحية واتسم وصفه لثقافة عصر النهضة وشخصية ذلك العصر بالقوة والمتعة . وقد تعرضت نظرياته العامة عن مكان النهضة فى التاريخ الغربى لكثير من التعديل .

أما لودفيج فريدلاندر Friedlander (١٨٢٤ ــ ١٩٠٩) فقد ألقى مزيداً من الضوء على جوانب التاريخ الثقافى القديم . وقد وجه اهتمامه فى أول الأمر إلى مدرسة هومر وإن كان قد وقع تحت تأثير طومسون وريهل وفريتاج وبوركهاردت . وأخرج كتابه (حياة الرومان وسلوكهم فى أوائل عصر الإمبراطورية) فى ثلاثة أجزاء بين سنتى ١٨٦٢ ، ١٨٧١ . وتتصف هذه الدراسة بأنها تعطى صوراً غير متعادلة لجوانب عدة من حضارة عظمى هى حضارة القرنين الأولين من عصر الإمبراطورية الرومانية . وجاء وصفه للسلوك والعادات والحياة والأشعار والفن والكتابة القديمة وغيرها من مظاهر تلك الحضارة العديدة وصفا ممتعا متعمقا حيا . واتسمت دراسة فريدلاندر بأنها تبرز الصورة الناطقة الحية من العصر القديم أكثر من كونها تأريخا للحضارة .

فاذا ما انتقلنا إلى الحديث عن السير صمويل ديل Dill (١٨٤٤ ــ ١٩٢٤) وجدنا أنه عالج فى كتبه الثلاثة فترة أطول من فريدلاندر لكنه كان أقل حرصا على إثبات التفاصيل . أما مؤلفاته فهى المجتمع الرومانى منذ نيرون حتى ماركوس أوريليوس ، و (المجتمع الرومانى فى القرن الأخير للإمبراطورية الغربية) والمجتمع الرومانى فى غاليا فى العصر الميروفنجى ، وكتب ديل بطريقة واضحة وجذابة فضلا عن قدرته الفائقة فى شرح مادته . وكانت آخر مؤلفاته أقلها جودة إذ جاء كتابه الأخير دون ما كتبه المؤرخ الفرنسى فرديناند لوت ودون العمل الفذ الذى أنتجه الفونس دوبش Dopsch عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى العصر الكارولنجى . أما

تاريخ روما الثقافى والسياسى منذ سقوط الإمبراطورية حتى عصر النهضة فقد عالجه فرديناند جريجو رفيوس (١٨٢١ ــ ١٨٩١) فى كتابه (تاريخ مدينة روما فى العصور الوسطى) الذى صدر فى ثمانية أجزاء بين سنتى ١٨٥٩ ، ١٨٧٢ . كذلك كتب جريجورفيوس Gregorovius كتابا أقل تكاملا من سابقه وهو (تاريخ مدينة أثينا فى العصور الوسطى) . والحق أنه كان مؤلفا قديرا وكاتبا عظيما غزير الإنتاج عالج كثيرا من الموضوعات من العصر الأول للتاريخ الإغريقى حتى مسألة الاشتراكية كما تبدو فى كتابات جوته . أما عن التقدم الاقتصادى فقد تم تناوله فى مجال تاريخ الثقافة ضمن عدد من المؤلفات الهامة مثل تلك التى أنتجها فون اناما شترنيج - Karl von Inama Sternegg (١٨٤٧ ــ ١٩٠٨) وماكسيم كوفالفسكى Kovalevsky (١٨٥١ ــ ١٩١٦) اذ كتب الأول كتابا خالدا عن التاريخ الاقتصادى فى ألمانيا وركز اهتماما خاصا على أهمية التطورات فى ميدان الزراعة وأما الثانى فقد تأثر بنظريات سبنسر عن التطور وأخرج مؤلفا أكثر طموحا . فجاء كتابه تاريخا اقتصاديا شاملا لكل أوربا . هذا إلى أنه كتب فى إسهاب عن نشأة الديمقراطية الحديثة ، وعن مدى ما اشتقته النظم الروسية الحديثة من قوانين الروس وعاداتهم القديمة .

أما أعظم جهد لمؤرخ يستحق التقدير قبل لامبرخت ــ وذلك فى ميدان كتابة تاريخ عام عن الحضارة ــ فهو ما تضمنه كتاب العالم السويسرى اوتوهن أم ريهن Otto Henne - Am - Rhyn (١٨٢٨ ــ ١٩١٤) وهو الكتاب الذى صدر فى سبعة أجزاء بين سنتى ١٨٧٧ ، ١٨٩٧ بعنوان (التاريخ الثقافى العام منذ العصور الأولى حتى الوقت الحاضر) . ويعتبر هذا الكتاب بالقياس إلى المجال الذى تناوله والفترة التى تم إعداده فيها من أعظم الأعمال التى أنجزها فرد فى مجال التاريخ الثقافى والتحليل التاريخى . ذلك أن هن ــ أم ــ ريهن كان كاتبا دسم الانتاج فى ميدان التاريخ الثقافى فى صورة تدعو إلى الإعجاب . وبالاضافة إلى هذا الكتاب الضخم فإنه كتب عن التاريخ الثقافى للشعب الجرمانى ، وعن التاريخ الثقافى للشعب اليهودى ، وعن التاريخ الثقافى للحركة الصليبية . هذا كله فضلاً عن كتابه الذى عالج فيه مكانة المرأة فى التاريخ الثقافى وبحثه عن الأهمية الثقافية للقصص الشعبية الألمانية . أما بولس هننبرج Paul Henneberg فهو معاصر للكاتب لامبرخت وإن لم يتأثر به فى شىء ، وكتب كتابا عظيما سماه ثقافة الحاضر (أصولها ومصيرها) وهو الكتاب الذى نشر فى سبع وثلاثين جزءا بين سنتى ١٩٠٥ ــ ١٩٢١ .

وكان ان ظهر أثر علم الاجناس البشرية الجديد على التاريخ الثقافى فى ألمانيا فى كتابات جولويس ليبرت Lippert (١٨٢٩ ــ ١٩٠٩) وخاصة فى كتابه الذى يترجم إلى الإنجليزية

باسم (تطور الثقافة) . ذلك ان ليبرت أوضح بطريقة ممتازة دلائل التطور التى تحققت فى التاريخ الثقافى على يد الكتاب المختلفين مثل مورجان ، وسبنسر . فضلا على أنه ركز على أهمية انتشار الثقافة . وكان يؤمن بأن العوامل الديناميكية فى تاريخ البشر هى فى حقيقتها عوامل ثقافية أكثر منها عوامل بيولوجية أو جغرافية ، ولذا فإنه من أوائل القائلين (بمذهب الحتمية الثقافية) . وفى خلال عرضه للمراحل الثقافية ، حرص على أن يؤكد تأثير الأفكار فى كل مرحلة منها . كذلك كتب ليبرت مؤلفات أخرى عن تطور الآراء الدينية والطقوس وعن تاريخ الأسرة وتاريخ سلوك الألمان وعاداتهم . وإذا كان التاريخ الثقافى يدين له بالشيء الكثير فإن علم الاجتماع التاريخى يدين له ايضا نظرا لما أحدثته كتاباته من تأثير عليه . وأما أبرز الأبطال جهداً فى مجال تاريخ الحضارة وأعظمهم بحثاً فى تطور هذا التاريخ فى العصور الحديثة فهو كارل لامبرخت المنسوب إلى ليبزج (١٨٥٦ ــ ١٩١٠) .

كان أول بحث هام قام به لامبرخت كتابه المفصل والمبتكر عن تاريخ ألمانيا الاقتصادى فى العصور الوسطى مع تركيزه بصفة خاصة على إقليم موزل . وفى هذا الكتاب أوضح لامبرخت اهتمامه بتاريخ الطوائف ذات النشاط الاقتصادى والحركات الاقتصادية الرئيسية بوصفها صورا مؤثرة على التاريخ الاجتماعى لأى شعب . ومن الواضح أنه استقى هذا الاتجاه إلى حد كبير من كارل ماركس رغم أن لامبرخت لم يكن ماركسى النزعة . كذلك تأثر لامبرخت بنيتشه وبوجهة نظر أوغسط القائلة بأن التاريخ ينبغى أن ينظر إليه فى صورة مراحل متتابعة فى مجال السيكلوجية الكلية للإنسانية . هذا كله فضلاً عن تأثر لامبرخت بنظرية التطور . وكان أن عبر لامبرخت عن كل أفكاره هذه فى كتابة الخالد (التاريخ الألمانى) الذى نشر فى اثنى عشر جزءاً منذ ١٨٩١ حتى ١٩٠٩ ، ثم أضيفت إليه أجزاء عن الفترة الحديثة جدا . ونظم لامبرخت مادته حول المحور الأساسى القائل بأن كل عصر كبير له سمة سيكلوجية شاملة وغالبة . وهذه السمة هى التى تسود فى عصرها ، وأن التاريخ ليس إلا سجلا لتأثير وتتابع هذه السمات السيكلوجية السائدة . فالعصر البدائى كانت سمته السيكلوجية السائدة هى الرمزية ، والعصر الوسيط المبكر كانت سمته المثالية ، أما العصر الوسيط الأخير فكانت سمته المحافظة . أما عصر النهضة والتنوير فكانت السمة السائدة فيه هى الفردية . وفى العصر الرومانسى كان الخيال والتصور بينما كان العصر الذى أعقب الثورة الصناعية هو عصر توتر الأعصاب . ولم يهمل لامبرخت التاريخ السياسى وإنما جعله تابعا للتاريخ الاقتصادى والثقافى . وأدى اهتمامه بالتاريخ الاقتصادى إلى تركيزه الخاص على العوامل الاقتصادية وذلك عندما عالج تطور الشعب الألمانى . كذلك اهتم اهتماما غير عادى

بتاريخ الفن والموسيقى . ولم تتسم كتابه لامبرخت بالاستفاضة فحسب ولكنه كان أيضا صاحب حوار ممتع شائق . والواقع أنه فعل الكثير لتطوير وجهات نظره عن التاريخ . وكان له تأثيره الكبير على لاكومب وبير فى فرنسا وفيوررو وباراجلو فى ايطاليا ، وبيرين فى بلجيكا فى حين ظهر تأثيره فى الولايات المتحدة على كل من و . أ . دود ، كارل بيكر .

وإذا كان لامبرخت لم يؤسس مدرسة رسمية فى ألمانيا فإنه ترك أثراً قويا فيها . وفى سنة ١٩٠٩ عاونه المعجبون به على تأسيس معهد للحضارة والثقافة العالمية فى ليبزج تكون مهمته إعداد الباحثين على نفس منهجه . وظهرت لعدد من تلاميذه أعمال هامة فكتب كيرت بريزج بحثا عن التاريخ الثقافى فى العصور الحديثة ضمنه آراء لامبرخت العامة فى عرض منتظم للتطور الثقافى فى العالم الحديث . ولقد جاء منهج بريزج واستنباطاته فى عمله أكثر دقة من لامبرخت كما أنه وهب جهده فى أواخر سنى عمره لعلاج التاريخ الثقافى وفلسفة التاريخ ، فأخرج كتابه الذى أسماه « تغير التاريخ » . أما إبرهاردْ جوثن Eberhard Gothen فقام بجهود قيمة فى دراسة عصر النهضة وتاريخ اليسوعيين والحركة المضادة للإصلاح الدينى ، كما أسهم بالكتابة فى سلسلة هينبرج . وهناك أيضا والتر ويلهلم جوتز الذى أصدر (سجل تاريخ الحضارة) كما كتب أبحاثا متخصصة هامة عن عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى ووصفا للتاريخ الثقافى فى أسيسى ورافنا فضلا عما كتبه عن التاريخ الثقافى فى ألمانيا . وله كذلك كتاب عن التاريخ الثقافى للعالم جاء عرضا ممتازا مليئا بالشروح . أما رادولف كوتز شك Rudolh Kotzschke فكان خبيراً بجوانب التاريخ الاقتصادى فى العصور الوسطى وخاصة عن التاريخ الزراعى فى تلك العصور . فإذا انتقلنا إلى برنهارد جروثيوزن Bernhard Groethuysen وجدناه واحداً من أبرز الباحثين الذين كتبوا أحدث الإيضاحات عن عصر النهضة والحركة الإنسانية ، كما كتب وصفا لنشأة الروح البرجوازية فى فرنسا . وهكذا تم دفع حركة التقدم فى التاريخ الثقافى فى ألمانيا بفضل عمل لامبرخت وأتباعه . وكان أن أدى هذا بالاضافة إلى ما كان له من تأثير فى الخارج إلى تحويل الاهتمام السابق بالتاريخ الثقافى من مرحلة الاهتمام الفردى المشتت إلى مرحلة التنظيم المحكم الدقيق .

أما عن فرانز كارل مولر ليار Carl Müller Lyer (١٨٥٧ ـ ١٩١٦) وهو أستاذ علم النفس وعلم وظائف الأعضاء والاجتماع التاريخى فإن كتاباته جمعت بين علم الاجتماع التاريخى والتاريخ الثقافى لألمانيا . وكان منهجه التاريخى مزيجاً بين نظرية سبنسر فى التطور ونظرية (التطور المرحلية) عند علماء الأجناس والنظرية المادية لماركس فى التاريخ . ذلك أنه اعتقد أنه يمكن

للإنسان أن يخضع التطورات التاريخية الخاصة بالنظم والثقافة لقوانين محددة . ورأى أن هناك وحدة عامة شكلية للتطور الثقافى وتطور النظم فى سائر أنحاء العالم ، وأن الاختلافات بينها إنما هى اختلافات محلية ذات خاصية ضئيلة الأهمية نسبيا . وجاء تناوله للتطور التكنولوجى والاقتصادى على وجه ممتع ، تضمن كثيرا من الأفكار والآراء . وكثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والتاريخ يتقبلون اليوم آراءه ونظرياته فى تحفظ شديد ، ولكنه تناول الحقائق الواقعية بمهارة وعلى نحو ممتع . وكتب عن تطور كل الأشياء من الآلات حتى الحب . وقد ترجمت أعظم كتبه أهمية إلى الإنجليزية ، وهو كتاب تاريخ التطور الاجتماعى . أما الفرد وبر Weber فله كتابه الذى أسماه تاريخ الحضارة والاجتماع الذى صدر فى سنة ١٩٣٥ .

وجاء هذا الكتاب أدق من سابقه فى تخطيطه فضلاً عن أنه أكثر شمولاً ، فضلاً عن أن مادته التاريخية أكثر جدة . بل ربما كان هذا الكتاب الأخير أكبر الجهود التى أثبتت قدرتها على مزج التاريخ الثقافى بتفسيرات اجتماعية عامة لتطور النظم البشرية . هذا كله بالإضافة إلى أنه تناول تطور الحضارات المعروفة من وجهة نظر اجتماعية .

فإذا ما انتقلنا للحديث عن فرنسا ، وجدنا أن المبادىء الخاصة بالتطور الثقافى كما تضمنتها كتابات أوغسط كومت عن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع التاريخى ظلت حية على يد رينيه ورمز Rene Worms وغيره من تلاميذ كومت الفرنسيين . أما الجهد الهام الذى أعقب ذلك فى مجال التاريخ الثقافى فقد تضمنه عمل عديد من الطلبة القادرين والمبتكرين فى مجال الأدب والنقد الأوربى مثل هليبولت تين Hippolyte Taine وشارل سانت بيف وارنست رينان . من ذلك أن تين وهو مؤرخ الأدب الانجليزى والثورة الفرنسية اعتقد أن التاريخ ينبغى أن يكون علماً وأن الثقافة البشرية تتكون بفعل عوامل ثلاثة هى الجنس والمحيط الاجتماعى والظروف التاريخية . أما سانت بيف وهو الناقد الأدبى القدير فقد كتب تاريخا ثقافيا جديرا بالإعجاب عن الينسينيين Jansensits فى كتابه الذى أسماه تاريخ بورت رويال History Of Port Royal . أما رينان فكان رجلا عقلانيا علمانى الطبع صاحب أبحاث ممتعة وعالما عظيما من الجنس السامى . وقد عمل الكثير لكى يربط بين الفكر الحر والتاريخ الثقافى .

ثم كان أن وجد التاريخ الثقافى دفعة قوية فى فرنسا فى إنتاج جاك فيليب تاميزى دى لاروك Jacques philippe Tamizey de Larroque (١٨٢٨ ــ ١٨٩٨) الذى أوضح العلاقة بين علم الآثار والأدب من ناحية والتاريخ الثقافى من ناحية أخرى . وكانت معظم كتاباته الهامة عن الآثار

الفرنسية والتاريخ الاجتماعى والديني فى العصور الوسطى . وعالج هذا الموضوع أيضاً علاجاً يتصف بالحيوية بول لاكومب Paul Lacombe (١٨٣٤ ـ ١٩١٩) الذى كانت أهم أعماله كتاب (التاريخ كعلم) الذى صدر سنة ١٨٩٤ . وأكد لاكومب الفكرة القائلة بأن التاريخ هو العلم الذى تفرع منه علم تطور النظم كما قارن فى وضوح بين التاريخ فى صورته للتقليدية مع ذكر الأحداث وبين ما كان يعتبره أهم وجه للتاريخ وهو دراسة تطور النظم البشرية . هذا إلى أنه آمن بوجود تداخل بين التاريخ كما هو معروف وبين علم الاجتماع التاريخى ، كما أعطى اهتماماً أثناء سرده للرواية التاريخية لتاريخ الأدب والنظم السياسية والاقتصادية والتربوية . ولم يكن للاكومب أى تأثير ولو ضئيل على هنرى بير Berr . وهنرى بير هذا هو أحد أصحاب الدور الرئيسى فى فرنسا فى فكرة التحليل التاريخى ومؤلف واحد من أعظم الأعمال المشتركة متعة عن تاريخ الثقافة . وهناك اثنان من أعظم علماء التاريخ الفرنسيين قدرة واتساعا فى أفق التفكير هما الفرد رامبو Rambaud (١٨٤٢ ـ ١٩٠٥) وشارل سينبو Seignobos اللذان كتبا أشهر الكتب فى تاريخ الحضارة .

أما رامبو فأخرج أحسن عمل عن تاريخ الحضارة الفرنسية فى حين كتب سينبو مدخلاً تاريخياً للحضارة الغربية . وهناك أيضاً جورج رينارد George Renard الذى كان حجة فى التاريخ الاقتصادى من العصور القديمة حتى العصور الحديثة ، إذ كان صاحب فضل كبير فى الإشراف على أحسن كتاب اشترك فى تأليفه عدد من الباحثين وعالج التاريخ الاقتصادى العام منذ الأزمنة المبكرة حتى عصرنا الحديث وهو الكتاب الذى عنوانه (تاريخ العمل فى العالم) . واتجه هذا العمل نحو التحقير من شأن التاريخ وإثارة الاهتمام بتطور الأشياء المادية ومصير الرجل العادى . وكان معنى ذلك أنه جاء مناقضا إلى أقصى حد للمثل التاريخية التى نادى بها بوفندورف Pufendorf وروبرتسون وجيبون والتى عرفت التاريخ بأنه سجل لأعمال الشخصيات البارزة ورجال البلاط والقصور . ولرينارد كذلك بعض البحوث الهامة عن الأسس الاجتماعية والتنظيمية للأدب القومى . ويعتبر هذا علاجا علميا حديثا للاتجاهات التى كانت أول من بدأتها مدام دى ستيل وسيسموندى .

أما أئمة الباحثين الفرنسيين فى التأليف التاريخى وتاريخ الحضارة فى فرنسا فهو هنرى بير Berr الذى عبر عن وجهات نظره فى كتابه الذى نشر فى سنة ١٩١١ بعنوان (التأليف التاريخى) . ثم نشر نظرياته بعد ذلك بعشرة أعوام على نطاق واسع ورد على ناقديه فى كتابه الذى

أسماه « التاريخ بمعناه التقليدى والتأليف التاريخى » . وقال بير بوجود فرق أساسى كبير بين التلخيص من ناحية والتأليف العلمى التاريخى من ناحية أخرى . وجاء تمييزه بين الاثنين قبل أن يصبح ما يعرف باسم فلسفة التاريخ . وأخذ بير على عاتقه مسئولية الإشراف على إعداد ما يعتبر أكثر المؤلفات المشتركة طموحاً والتى بذل فيها أعظم الجهود فى كل العهود حتى عهده عن تاريخ الحضارة . وعرف هذا الكتاب الذى صدر فى مائة جزء باسم تطور الإنسانية .

وقد تضمنت مقدمة هذا الكتاب عرضاً لنظريته عن التأليف التاريخى فى صيغة غاية فى الإحكام إذ يقول : « يبدو ن الادعاء بأن منهج التأليف والتحليل العلمى يمكن أن يطبق على التاريخ بصورته المحددة ، فانه يمكن الاعتراف على الأقل — كمحاولة يفترض صحتها — أن نسج الحقائق الخاصة بالتطور البشرى يمكن تجميعه فى ثلاث طرق متميزة عن بعضها تماما الأولى : هى الطريقة الافتراضية ، والثانية : هى الطريقة الاضطرارية ، والثالثة : تلك الجوانب المرتبطة بالمنطق الباطن . وسنحاول هنا أن نستفيد وأن نقارب بين التفسيرات المتباعدة للغاية والتى ظهرت حول هذا الموضوع وذلك بأن نحاول أن نوضح أن كل نواحى التطور الإنسانى تقع فى ثلاثة تقسيمات عامة هى الافتراضية ، والاضطرارية والمنطقية . ويبدو لنا أنه بهذا التقسيم الثلاثى نضع التاريخ فى إطار دورته الطبيعية وتفسيره العام ، فضلا على أن هذا الترتيب يعطينا فى الحقيقة نظرة أعمق من السببية ويدعونا إلى أن نغوص فى مجموعة الحقائق التاريخية وأن نحاول أن نميز بين ثلاثة أنواع من العلاقات العلّية الأولى هى التتابع المجرد حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم التتابع والثانية هى الصلة الدائمة حيث ترتبط الحقائق بغيرها بحكم الضرورة والاضطرار ، والثالثة هى الاتصال الباطن حيث ترتبط الحقائق مع غيرها بحكم العقل . ومن هذه النظرة لطبيعة المسببات التى تعمل فى التاريخ ، لا يبدو التأليف سهلاً ولكنه يبدو على الأقل مفهوماً يمكن تصوره .

ومع أن هذه المنظومة تبدو ذات طابع علمى عميق ، إلا أنها لهذا السبب لن تعمر طويلا . ذلك أنه افترض خطأً أن تطبيق العلم على التاريخ اتجاه مضاد للحياة وأن الفائدة المرجوة من وراء هذا الفن (التاريخ) هو إحياء الماضى . ولكن التحليل هو الذى يحول الماضى إلى مجرد أكوام من الحقائق يعلوها التراب ، وما يجمعه العلم يتم إنقاذه لا من الفناء وإنما من النسيان . إن التأليف يحيى الماضى أكثر مما تفعله البديهة بل خير منها . وإن مهمة التأليف كما حددها ميشليه هى « بعث الحياة فى كل جوانب الماضى لا فى بعض مظاهره السطحية فحسب وإنما فى جوانبه الداخلية العميقة . ولا يمكن تحقيق ذلك بالعبقرية ، وإنما يستطيع العلم أن يفعل ذلك بتعميق نظريته عن السببية وهى النظرية التى يمكن عن طريق التأليف إعادة بنائها »

ويمكن القول أن هذه السلسلة من الكتب حققت آمال صاحبها فعاشت إلى أقصى ما تصور لها صاحبها أن تعيش . وبصرف النظر عن الطبعة الإنجليزية التى انتشرت على نطاق واسع ، فإنها تمثل أعظم الجهود فى تاريخ الحضارة الإنسانية . وكان معظم من شاركوا بجهودهم فيها من الفرنسيين الذى تخصص كل منهم فى جانب معين أو مرحلة محددة من تاريخ الحضارة .

وهناك مؤلف فرنسى معاصر كان له اهتمام إيجابى بالتأليف التاريخى هو لويس هالفن Louis Halphen الذى يعتبر حجة فى الحضارة الرومانية وحضارة الشطر الأول من العصور الوسطى . واشترك مع فيليب ساجناك فى عمل تاريخى كبير عن الحضارة أسمياه (الشعوب والحضارات) صدر فى عشرين جزءا ، أما جوستاف جلوتز وهو واحد من أهم الباحثين الذين اشتركوا فى الموسوعة المسلسلة التى أشرف عليها بير فقد أعد هو الآخر عملاً اتسم بالدقة والجهد البالغ عرف باسم (التاريخ العام) وركز بصفة خاصة على تاريخ الحضارة . وألف موريس كروازيه كتابا تاريخيا فى سبعة أجزاء عن تاريخ الحضارة ركز فيه على الاتصالات الحضارية وانتشار الثقافة . اما أحدث الأعمال عن تاريخ الحضارة فى فرنسا التى نهض بها مؤلف واحد فهو (تاريخ الثقافة العالمية لمؤرخ العلوم والأستاذ فى علم وظائف الأعضاء شارل ريخت Charles Richet . وينظر ريخت إلى تاريخ العلم على أنه أهم العناصر فى تطور الثقافة البشرية . والملاحظ أن الجزء الأول من كتابه الذى يقع فى جزءين عن التاريخ العام للحضارة وصل بقصة الحضارة حتى سنة ١٧٨٩ . ذلك أن الشطر الأكبر مما تم إحرازه من تقدم فى التاريخ البشرى سواء أكان تقدما علمياً أم فنياً بارزاً أخذ سبيله منذ هذا التاريخ . ولا يخلو أى بحث ولو كان موجزا عن التاريخ الثقافى لفرنسا دون الإشارة إلى العالم سالومون ريناخ Salomo Reinach (١٨٥٨ ــ ١٩٣٢) وهو مؤلف كبير وغير ملتزم كتب فى مجال تاريخ الفن والأدب والدين كما أسهم فى عديد من الأجزاء التى تناولت هذه المجالات كلها إسهاما ينم عن قدرة بالغة .

أما فى إنجلترا فإن فرانسيس سيدنى مارفن وأرنولد توينبى فهما من أصحاب الجهد الرئيسى فى مجال التحليل التاريخى منذ أيام باكل Buckle . ويعتبر كتابا مارفن ، الماضى الحر ، و (قرن الأمل) The Century of Hope مداخل تتسم بالقدرة فى مجال التأليف والشرح التاريخى . وبصفته محبا لقضية السلام قام بإعداد عدة أجزاء بالاشتراك مع غيره فى الموسوعة التى صدرت باسم (سلسلة الوحدة) والتى استهدفت تتبع تاريخ الحضارة وركزت على الخصائص الدولية للحضارة الغربية .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن كتاب أرنولد توينبى (دراسة فى التاريخ) وجدناه أعظم المشروعات الطموحة التى أقدم عليها مؤلف بمفرده فى مجال التأليف التاريخى . كذلك أدى ج. ب. بيورى J.B. Bury ــ وهو الذى ألف كتابا صغيرا ممتعا عن تاريخ حرية الفكر وصاحب بحث أكبر عن نظرية التقدم ــ جهدا هاما لتاريخ الحضارة بما أبداه من مقدرة على التخطيط والإشراف على أعمال كبرى . ذلك أنه أفسح مجالاً واسعاً حين خطط لموسوعة كامبردج فى التاريخ القديم وموسوعة كامبردج فى التاريخ الوسيط أمام علاج التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والفلسفة والعلم والفن والدين . على الرغم من أن هذه الموسوعات فى أساسها تستهدف التاريخ السياسى . كذلك تضمنت السلسلة التى عرفت باسم (التراث) مختصرا مفيدا عن التاريخ الثقافى اشترك فى وضعه أكثر من باحث ، فقام ادوين بيفان ، وشارل سنجـلا بإعـداد ما عـرف باسم (تـراث إسرائيل) . وأعد ر . واليفنجستون ما عرف باسم (تراث الإغريق) . وأعد كيريل بايلى Cyril Bailley ما عرف باسم (تراث روما) . وأشترك ت . و . ارنولد ، الفرد غليوم Guillaume فى إعداد (تراث الإسلام) . فى حين كتب الفصل الخاص بتراث العصور الوسطى كل من ك . ج . كرمب C.G. Crump ، ا. ف. جاكوب . وقد عمل سيرجون هامرتون الكثير من أجل تطوير العمل فى التاريخ الثقافى . ذلك أنه وضع مجموعات فاخرة مصورة تناولت الماضى مثل تلك التى أسماها (عجائب الماضى) وما شابهها من أعمال أخرى . هذا إلى أنه نشر أعظم ما صدر باللغة الانجليزية فى تاريخ الحضارة والذى عرف باسم (التاريخ العالمى للعالم) وهو الكتاب الذى جاء فى ثمانية اجزاء تفيض بالشروح . كذلك اشترك ك . ك . أوجدن Ogden مع بارنز ــ مؤلف هذا الكتاب ــ فى إعداد عمل أكثر اكتمالاً من ذلك الذى قام به بير ، باسم (تاريخ الحضارة) . وتضمن هذا الكتاب كل ما جاء فى سلسلة بير وريتار Berrd - Renard . ثم اضيفت إليه عدة أجزاء كتبها بعض الباحثين الإنجليز والامريكيين والألمان . ويعتبر هذا الكتاب من أعظم الأعمال المشتركة عن تاريخ الحضارة قوة وشمولاً[1] . وتعتبر المجموعة المشتركة التى قام بإعدادها هـ . د . تريل Traill ، هـ . س . مان Mann والتى عرفت باسم (انجلترا من الجانب الاجتماعى) من أعظم ما كتب عن تاريخ الحضارة الإنجليزية . أما هـ . ج . ولز Wells فى كتابه (الإطار العام للتاريخ) فقد فعل أكثر مما فعله أي باحث آخر منذ جون ريتشارد جرين لإثارة اهتمام القراء الإنجليز بالتاريخ غير السياسى .

(١) انظر هـ . أ . بارنز التاريخ والإدراك الاجتماعى (طبع Knopf ١٩٣٦) وقد توقف العمل فيه بعد بدء الحرب العالمية الثانية (المؤلف) .

كذلك أسهم المؤرخون فى أجزاء أخرى من أوربا فى تطور الاهتمام بتاريخ الحضارة . وثمة كتاب من خيرة الكتب وأكثرها ابتكارا فى مجال التاريخ الثقافى القومى ، وهو الكتاب الذى يحمل اسم (تاريخ الحضارة الأسبانية) لمؤلفه رفائيل التاميرا : أما الكتاب الذى قام به أنطونيو باليستروس Ballesteros والذى عرف باسم (تاريخ أسبانيا وتأثيره فى تاريخ العالم) فإنه أكثر تكاملاً من كتاب التاميرا وإن كان أقل اهتماما منه بالتاريخ الثقافى . وفى إيطاليا أكد باسكال فيلارى Pasquale Villari صاحب الأبحاث الهامة عن التاريخ الثقافى فى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى وعصر النهضة ـ أهمية التحليل التاريخى . فانه أوضح أن عمل المؤرخ لا يكمل إلا إذا نظم مادته فى صورة منطقية مرتبة . كذلك أسهم بنديتو كروتشه Bendetto Croce فى تاريخ الفن الأوربى والإيطالى ، والأدب ونظرية علم الجمال وذلك فى الوقت الذى حاول فيه من جهة أخرى أن يلبس الفلسفة القديمة للتاريخ ثوباً جديداً ويجعلها أكثر ملاءمة . وانعكس فى كتاب جيجليلمو فيررو Guglielmo Ferrero الذى أسماه (عظمة روما واضمحلالها) صورة النواحى التى ركز عليها لامبرخت وهى النواحى الخاصة بأهمية العوامل السيكلوجية مجتمعة على التطور التاريخى . وكتب كورادو بارباجلو وهو المشرف على المجلة الإيطالية الرئيسية المتخصصة فى التاريخ الثقافى كتابا من أمتع الكتب التى كتبت فى تواريخ الحضارة .

أما هنرى بيرين Henri Pirenne فقد تأثر بلامبرخت ولاكومب وأخرج دراسة تاريخية واسعة الأفق عن تاريخ بلجيكا كما أسهم بسهم رامز فى بحث تاريخ الحياة الاقتصادية والمدنية فى العصور الوسطى .

وفى رومانيا لم يكتف الكسندرد زينو بول (١٨٤٧ - ١٩٢٠) بكتابة تاريخ قومى ممتع ، بل أخرج كتبا هامة أيضا ناقش فيها طبيعة علم التاريخ ومشاكله أسماه (الأسس الرئيسية للتاريخ) و (نظرية التاريخ) وميز فى وضوح بين طبيعة كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ومن جملتها التاريخ ، وأوضح أن التاريخ ينبغى النظر اليه على أنه فى أساسه علم اجتماعى ، وأن قوانين السببية التاريخية يمكن تطبيقها على الحالات التاريخية العامة إذا لم يمكن تطبيقها على الأحداث المرتبطة بالأفراد وأن الحقائق التاريخية الهامة فقط هى تلك التى لها معدلات ونتائج اجتماعية هامة . وهناك واحد من أبرز تلاميذ زينو بول وهو نيقولا ايورجا Iorga الذى حاول فى كتابه الذى أسماه (بحث فى تركيب تاريخ الإنسانية) Essay on the Synthesis of the History of Humanity أن يتناول التاريخ العام للحضارة وتقدم البشرية . ويدل عمله على نظرة واسعة وتعمق فى بواطن الأمور وقسط كبير من التعليم .

ويمثل اهتمام الروس بالتاريخ الثقافى فى أعمال كثيرة سبقت الإشارة إليها مثل مؤلفات كونالفسكى التاريخية فى النواحى الاقتصادية وتلك الخاصة بالنظم . كما تتمثل فى أعمال فينوجرادوف Vinogradov عن التاريخ الاجتماعى فى العصور الوسطى وتاريخ القانون ، وفى كتابات بولس ميلخوف Milukov عن تاريخ النظم وتاريخ القانون الروسى . ويتمثل كذلك فى العمل الكبير الذى قام به روزتوفتزف Rostovtsev عن التاريخ الثقافى القديم لروسيا الجنوبية والتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العالم القديم وأما عن تشيكوسلوفاكيا فلدينا الأبحاث القيمة الجديرة بأن تحمل اسم العالم توماس مازريك عن الفكر والأدب السلافى .

وقد سبق أن أشرنا إلى الدلائل الأولى للاهتمام بالتاريخ الثقافى فى الولايات المتحدة الأمريكية وهى التى ظهرت فى أعمال درابر ، م. س. تايلر ، هوايت ، هنرى آدمز . وتعتبر الشخصية الرئيسية فى القرن العشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية التى وهبت نفسها للرقى بالتاريخ الثقافى هى شخصية جيمس هارفى روبنسون James Harvey Robinson (١٨٦٣ ـ ١٨٣٦) الذى تأثر قليلاً بلامبرخت وبالمجددين الأوربيين وإن لم يمنع ذلك من إلمامه بأعمالهم . ويقول روبنسون عن نفسه : إن التقدم والتطور الذى طور به نفسه من مجرد باحث تقليدى فى ميدان التاريخ الدستورى إلى أن أصبح معلقا غير متأثر برأى الغير على ما أسماه ، بالكوميديا الإنسانية ، إنما تم بصورة تدريجية وبصفة غير رسمية وكان أمراً شخصياً بحتا[1] . ذلك أنه استقى وجهات النظر الخاصة بالوراثة من علم الحيوان وطبقها على تفسير المادة التاريخية . وعندما كان مهتما بالثورة الفرنسية عاد من تلك النقطة إلى دراسة الماضى تدريجيا ، أو كما قال هو نفسه أنه رجع من الجولتين أو المقصلة إلى البلطة الصغيرة . ولخص وجهة نظره فى كتابه الذى منه انتشرت الأبحاث التى تضمنها على نطاق واسع والذى عرف باسم « التاريخ الحديث » والذى صدر سنة ١٩١١ . ووضح تأثير ما نادى به بصورة رئيسية فى كتبه التعليمية عن التاريخ الأوربى وهى الكتب التى أحدثت انقلاباً كبيراً فى الأفكار ، كما وضح تأثيره كذلك فى تدريسه الفريد والممتع . وكان أن شرع فى وضع كتاب كبير عن التاريخ الثقافى ، لكنه لم يكمله . ثم قام طلبته بمهمة الكتابة فى صورة

(١) ارجع إلى هـ . ا . بارنز فيما نشره H. W. Edit أساتذة علم الاجتماع الأمريكيون طبعة هولت Holt(١٩٢٧) صفحات ٣٢١ وما بعدها ، وكذلك روبنسون : الكوميديا الإنسانية طبعة هاربر ١٩٣٧ وكذلك : L.V.Hendricks James Harvey Robinson (N.Y. 1946)

غزيرة دسمة . فجمع جيمس ت. شوتويل مجموعة كبيرة من المصادر عن تاريخ الحضارة سميت « سجلات الحضارة » . وكان من رواد الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادى فى الولايات المتحدة . كذلك كتب لين ثورنديك أعظم الأعمال تكاملا عن العلم والفكر فى العصور الوسطى ، وله مقدمة عامة موجزة عن تاريخ الحضارة . أما كارل بيكر Becker الذى تتلمذ على كل من روبنسون وتيرنر فكتب أبحاثاً تنم عن فهم كبير للحالة الفكرية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وامتاز بريزرفد سميث Preserved Smith بما كتبه عن التاريخ الثقافى فى عصر حركة الإصلاح الدينى وأنتج ما يمكن أن يعتبر أعظم ما قام به مؤلف بمفرده فى مجال تاريخ الثقافة الحديثة . أما هوارد روبنسون فبحث عصر التعقل وكتب أحسن الكتب الإنجليزية عن بطرس بايل Pierre Bayle وردد كل من شارل أوستن بيرد ، بنجامين ب . كندريك ، ا. م شلزنجر ، و.ر. فوكس ، هارودل فولكنر Faulkner ، هارى ج. كارمن وغيرهم وجهة نظر روبنسون واهتمامه وطبقوها على التاريخ الأمريكى . وألف فوكس وشلزنجر Fox and Schlesingerما يعتبر أعظم الكتب التاريخية تكاملا وأحدثها عن الحياة الأمريكية الاجتماعية والثقافية وهو الكتاب الذى يحمل عنوان « تاريخ الحياة الأمريكية » ووضع فرديناند شيفل الذى لم يتأثر بروتسون والذى يمكن القول بأنه أكثر الناس إحساساً وتفهماً لتاريخ الحضارة فى الولايات المتحدة الأمريكية - مؤلفات تنم عن مقدرة كبيرة عن مدينتى سينيا وفلورنسا فى إيطاليا . ويعتبر ما كتبه عن فلورنسا بالذات ذا أثر فى تفهم الأمريكيين لثقافة عصر النهضة . أما فردريك ج . تيجارت فقد كتب أعظم ما يمكن كتابته بالتفصيل عن الأسس النظرية والفروض فى التاريخ الجديد . ويتمثل خير ما أنتجته أمريكا اللاتينية فى ميدان التاريخ الثقافى فيما كتبه فنسنت ريفا بالاشيو Vincente Riva Palacio وجيمس رومر و فلورس Jesus Romero Flores ، كما يتمثل فيما كتبه روملو د. كاريبا Cariba عن الحضارة الأرجنتينية .

التاريخ الثقافى والمراحل الكبرى فى التاريخ البشرى

وبعد أن تتبعنا الآن تطور التاريخ الثقافى عن طريق عرضنا للسمات البارزة المميزة لهذا التطور ، بقى أن نشير إلى بعض الجهود الهامة فى مجال التاريخ الثقافى فى مختلف مراحل التقدم البشرى منذ عصور ما قبل الكتابة وسنكتفى هنا بالإشارة فقط إلى بعض الأعمال الكبرى التى

سوف نختارها بين عديد من المجلدات التى تناولت هذا المجال . ومهما يقال عن قلة الكتب التى اختارت الاتجاه إلى الكتابة فى تاريخ الحضارة ودعمت هذا الاتجاه فى قوة ، وبرغم حداثة الاتجاه فى هذا السبيل بوصفه حركة تاريخية منظمة ، فإن هناك عديداً من الأعمال الخاصة التى تناولت جوانب معينة فى تطور الثقافة . وعلى القارىء الذى ينشد الاقتراب من الكمال الرجوع إلى ما كتب تحت عنوان : « التاريخ الثقافى فى الفصول المتتابعة فى المرشد إلى الكتابة التاريخية » .

إن المدخل لكل التاريخ الثقافى ينبغى التماسه بالطبع فى الأنثروبولوجيا الثقافية أعنى قصة التطور الثقافى فى المرحلة الطويلة للتطور الإنسانى التى نتعارف عليها الآن بمرحلة ما قبل الكتابة . وتعتبر الأعمال الخاصة بعلم الآثار فى عصر ما قبل الكتابة التى سبقت الإشارة إليها فى إيجاز هى الأساس الرئيسى لدراسة التاريخ الثقافى . فمؤرخ مثل تيودور مومسن لم يسمع مطلقا عن « عصر الجليد » إلا قرب نهاية حياته ، بينما تبدأ كل الكتب القيمة عن التاريخ القديم بالسرد لعصر ما قبل الكتابة . وضمن ادوارد ماير فى كتابه فصلاً افتتاحيا بأكمله عن الأنثروبولوجيا . كذلك تبدأ موسوعة كامبردج فى التاريخ القديم بفصلين عظيمين عن ثقافة ما قبل الكتابة من وضع ج.ل. مايرس Myres وأوجز جورج جرانت ماك كردى فى كتابه « أصول البشرية » الجهود التى حققتها مدارس البحث فى هذا المجال وذلك على نحو رائع . وعلينا أن نرجع إلى المؤلفات عن النظم والثقافة فى العصور الأولى وإلى مبادىء التطور الثقافى التى كتبها المتخصصون فى الثقافة الأنثروبولوجية .

ويمكننا البدء بالإشارة هنا إلى كتاب ا.ب. تايلور القديم عن الأنثروبولوجيا ـ ثم ننتقل منه إلى المؤلفات الحديثة . فهناك كتب مثل تلك التى لفرانزبوس Franz Boas بعنوان « فكر الإنسان البدائى » والأنثروبولوجيا والحياة الحديثة . وكذلك مؤلفات ا . ك . كروبر A. K.Kroeber « الأنثروبولوجيا » وهناك كتاب ر . هـ . لوى R. H. Lowie « المجتمع البدائى والمدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية » . أما الكسندر جولدنوزر فله كتابان هما « الحضارة القديمة » و « التاريخ وعلم النفس والحضارة » ولدينا كذلك كتاب ل . ا . هوايت « تطور الثقافة » وكتاب كلارك ويسلر Clark Wissler « الإنسان والثقافة » وكتاب ا.م. توزر « الأصول الاجتماعية والترابط الاجتماعى » . وهناك أيضا كتاب هارولد بيك Peake « الخطوات الأولى فى التقدم البشرى وكتاب ، جوستاف شوالب Schawalbe « الأنثروبولوجيا » وتعتبر هذه الأعمال جميعها مدخلا

إلى التاريخ كما أنها تلقى كثيرا من الضوء على عصر « فجر التاريخ » . وقد سبق أن تناولنا بالوصف ماأنجزه الإنسان وتمكن بفضله من بلوغ حضارة عصر الكتابة وحللنا سلوك الإنسان والجماعات وأوضحنا مبادىء التطور الثقافى ونماذجه بالقدر الذى سمحت به المصادر المعروفة . وأجاد جاك دى مورجان تلخيص الفترة الانتقالية من المجتمع البدائى إلى حضارة العصور القديمة ، وذلك فى كتابه « عصر ما قبل التاريخ فى الشرق » . كذلك هناك كتاب ماكس بلانكهورن Max Blanckenhorn « العصر الحجرى فى فلسطين وسوريا وشمال أفريقية » وكتاب ف جوردن شيلد V. Gorden Childe « فجر الحضارة الأوربية والشرق القديم » وكتاب موريه ودافى Moret and Davy « من القبيلة حتى الإمبراطورية » .

أما ادولف ارمان Adolph Erman فكتب عن الحياة اليومية فى مصر القديمة كتابه الذى سماه « الحياة فى مصر القديمة » . ومازال كتابه أقدم ما كتب فى هذا الموضوع . وقد أعيد طبعه على يد أحد الباحثين البارزين . بعد مضى ثلاثين سنة على ظهور الطبعة الأولى . وتناول ارمان كذلك فى إيجاز الأدب والفكر فى مصر القديمة . وهناك ما هو أكثر إيجازا وان كان أحدث من سابقه فى موضوع الثقافة المصرية وهو كتاب جورج شتندورف George Steindorff باسم « الإمبراطورية الفرعونية فى بدايتها » . ولم يقتصر جهد جيمس هـ . برستد على إخراج كتب تاريخية تنم عن مقدرة فترة فى تاريخ مصر ، ولكنه كتب الكثير فى التاريخ الثقافى ، كما كتب أبحاثا متخصصة فى الديانة والفكر فى مصر القديمة وعن فجر الحركات الأخلاقية والخبرية فى مصر . أما كتاب موريس جاسترو « حضارة بابل وآشور » فهو عمل ميسور الفهم وحجة فى موضوع العقيدة الدينية فى أرض ما بين النهرين فى العصور القديمة على أن البحث الذى أعده الأستاذ برونوميسنر Bruno Meissner تحت عنوان « البابليون والآشوريون » يعتبر أتم وأحدث دراسة عن حضارة ما بين النهرين . كذلك عالج كل من ر . و . روجز R.W. Rogers ، كلمنت هوارت Clement Huart ، م . ن . دهلا Dhalla، ب . م . سيكس R.M. Sykes، ا . ث . و . جاكسون Jackson وآخرون مدى أثر حضارة الفرس القديمة على الحضارة الغربية . وأما عن الفن فى الشرق الأدنى القديم فمازالت الفصول التى كتبها جورج بيرو Perrot وشارل شيبز Chipiez فى كتابيهما « تاريخ الفن » تعتبر أحسن ما كتب فى هذا الموضوع ، ولو أن هناك كتيبات أحدث فى هذا المجال مثل ما كتبه جنا كابارت Jean Capart باسم « محاضرات عن الفن المصرى » وكذلك تعتبر الأجزاء الأولى من موسوعة هامرتون « التاريخ العالمى للعالم » أحسن علاج للتاريخ الثقافى فى

عصور ما قبل الكتابة والشرق الأدنى القديم . وهناك أبحاث حديثة ومبتكرة تضمنتها الأجزاء التى كتبها موريه Moret ، داڤى Davy ، ديلابورت Delaporte ، هوارت Huartوآخرون عن الشرق القديم فى « سلسلة تاريخ الحضارة » كذلك نجد موسوعة كامبردج للتاريخ القديم وفيها كتبه رالف تيرنر بعنوان التراث الثقافى الكبير كثيرا من المادة القيمة عن الثقافة . أما ماكس وبر Weber وج . و . هيرتلر Hertzlerفقد عالجا التفكير الاجتماعى فى الشرق القديم .

فإذا ما انتقلنا إلى بلاد الإغريق القديمة نجد لدينا دراسة رائعة عن حضارة كريت وحضارة إيجة فى ذلك الكتاب الذى صدر حديثاً لجوستاف جلوتز . ويعتبر العلامة الأيرلندى سيرجون ب . ماهافى أعظم من أدلوا بدلوهم الغزير فى تبسيط الثقافة الإغريقية وشرحها ، إذ كتب تقريبا عن كل جوانب الثقافة فى التاريخ الإغريقى وإلى هذا العمل الذى نهض به ماهافى ــ وهو عمل اتسم بالجهد والحماسة الكبيرة ــ يرجع الفضل فى إثارة الاهتمام على نطاق واسع بثقافة الإغريق القديمة وإن كان يؤخذ عليه أنه لم يضع إلى حد ما خطأً لما يعالجه فضلاً عن إسرافه فى الإطراء .

واتسمت أبحاث الكتاب الإنجليز من المدرسة الإنسانية بقدرتها على المعالجة الدقيقة المميزة والمعبرة . مثال ذلك ما كتبه مارى ، ج.لويس ديكنسون . أما أحسن مدخل للثقافة الإغريقية ظهر فى مجلد واحد فهو الإنتاج المشترك الذى أشرف عليه ليونارد وهبلى Leonard Whibley وصدر بعنوان « المرشد إلى الدراسات الإغريقية » . ويعتبر العمل الذى قام به باللغة الألمانية الفرد جرك Gercke ، ادوارد فوردن « دراسة العصور القديمة » أكثر اكتمالا من سابقه . وهناك السلسلة الممتازة لجورج د.هادزستس Hadzsits ، داود.م. روبنسون عن حضارة الإغريق والرومان باسم « ما ندين به للإغريق والرومان » ، وشبيهتها الألمانية التى أعدّها اوتوامبش Otto Immisch . وكتب كل من ادوارد . زيلر Zeller ، فيودور جومبرز ، ويلهلم ويندلبدند دراسات موجزة يعتمد عليها فى دراسة الفلسفة الإغريقية . كذلك كتب ارنست باركر كتابا خالدا عن فلسفة الإغريق السياسية وتناول كل من هوجر برجر Berger ، أوجست بوشيه ليكلرك Auguste Bouche Leclereq ، بطرس دوهم Pierre Duhem ، العلم عند الإغريق . أما اوتو كرن Otto Kern ، جان هاريسون ، لويس ر . فارنل Farnell ، اروين رود Rohde فكانت لجهودهم القيمة فى الموسوعات التى كتبوها عن تاريخ الديانة الإغريقية . وتناول الفرد موريس كروزيه ، وويلهلم فون كِرِسْت تاريخ الأدب اليونانى بالتفصيل . واستعرض بيرسى جاردنر وماكسيم كولجنون وجوهان اوفربك الفن الإغريق وتناولوه بالبحث والشرح . أما الأجزاء الخاصة بهذا الموضوع فى

سلسلة هامرتون التى عنوانها « تاريخ الحضارة » وفى موسوعة كامبردج للتاريخ القديم فهى ذات قيمة كبرى بالنسبة للتاريخ الثقافى فى كل من بلاد الإغريق والرومان .

وبالنسبة لروما هناك مقدمة عامة لا غنى عنها ، تناولت كل جوانب الثقافة الرومانية وصفها السيرجون إ . سانديزSandys تحت عنوان « المرشد إلى الدراسات اللاتينية » . وتناول ماريون بارك Marion Park بالبحث التاريخ الاجتماعى الرومانى ، كما عالجه كل من فرانك ف . ابوت F. Frank Abbott ، وليام وارد فولر Fowler،صموبل ديل Dill، لودفيج فريدلاندر Ludwig Friedlander . ولدينا الكثير من المؤلفات عن الديانة الرومانية ، ومن جملة هذه المؤلفات الأبحاث المثالية التى قام بها جيس ب . كارتر Jess B. Carter ، واردفولر Warde Fowler جورج ويصوا George Wissowa ، جاستون بوسير Jaston Bossier، الفرد لوسى Loisy ، فرانز كومونت Franz Cumont ، تيرور. جلوفر Terror Glover . وللدراسات التى كتبها الثلاثة الأواخر قيمتها الخاصة فى الإحاطة بموضوع تصارع الأديان فى الإمبراطورية الرومانية .

أما عن مراحل تطور الأدب الرومانى فنجدها فى أبحاث جون و. دوف ، ادوارد فوردن ، ويلهلم س. توفل Wilhelm Teuffel ، ودرس هنرى ب . والترز Waltersالفن الرومانى دراسة تنم عن عبقرية كبرى ، كما درسه كذلك رينيه كاجنات ، فيكتور شابو Chapot ، فرانز ويكهوف Wickhoff ، هـ . ت . ريفورا G. T. Rivoira، وتناول جون ر . سانديز Sandysتاريخ البحث العلمى فى العصور القديمة منذ أيام الإغريق والرومان . أما فترة الانتقال من الحضارة الرومانية إلى حضارة العصور الوسطى فقد جذبت انتباه كل من هنرى بيرين Pirenne ، فرديناند لوت Lot، الفونس دوبش Dopsch ، كريستوفر داوسن Cristopher Dawson ، م . ل . و ليستنر M. L. W Laistner ، إ . ك . راند Rand ، ايلينارو دوكت Eleänor Duckett ، هـ . و . تايلور وآخرون غيرهم .

وينبغى ملاحظة أن كل ما كتب من مادة عن أحوال المسيحية وتطورها إنما هو بالضرورة من جوانب التاريخ الثقافى . ويمكننا أن نشير فى هذا المجال إلى بعض الأعمال التى تفوق غيرها فى الأهمية . فهناك عدد من المؤلفات التاريخية العامة الجديرة بالاعتبار عن الكنيسة المسيحية ، ويعتبر ما قام به وليم مولر Moller نموذجا لهذه المؤلفات ولدينا عن تاريخ المسيحية بصفة عامة ما كتبه شارل جوجنبير Guignbert ، عن المسيح وتطور المسيحية . وكتب إميل شورر Schurer كتابا

يعتمد عليه فى دراسة تاريخ اليهود فى العهد المسيحى الأول . أما كلا من لويس دوشسنDuchesne ، ارثر ك . ماك . جيفر Giffert ، هنرى م. جواتين ، فقد عالجوا تاريخ الكنيسة فى عصرها الأول كذلك هناك كتابات شيرلى جاكسون كيسShirly Jackson Case عن المسيحية فى عهدها الأول وهى كتابات دسمة وبخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعى والثقافى ومازالت مؤلفات هنرى شارل ليا Lea عن الكنيسة فى العصور الوسطى تعتبر أعظم ما كتب فى هذا الموضوع . وأمدنا والتر ادينىAdeny بأعظم الأبحاث المفيدة عن الإغريق والكنيسة الشرقية . أما العمل المشترك الذى قام به جورج جويوGeorge Goyau فهو خير ما كتب عن التاريخ الثقافى للكنيسة الكاثوليكية . وتناول الكسندر فليكFlick انهيار نفوذ الكنيسة فى العصور الوسطى بالتحليل . أما توماس م . لندسایLindsay ، بريزرفو سميث ، لودفيج فون باستور ، ارنست ترويلتشTroeltsch ، ماكس ويبر Max Weber وآخرون غيرهم فاهتموا بعصر الإصلاح الدينى اهتماما أثمر عن مجهود طيب فى هذا المجال . وأخرج جورج ب . فيشر ، وادولف هارناك ، وارثر ك . ماك جيفر أعظم الأعمال التاريخية عن الفكر والمذاهب المسيحية . أما جوستاف كروجرKruger فهو أستاذ الأدب المسيحى فى عصره الأول . وجاء جوزيف ستروزيوسكى Strozyowski بوصف ممتع للفن المسيحى أما التاريخ الثقافى للعقيدة الإسلامية التى ظهرت فى صورة منافس كبير للمسيحية فقد عالجه كل من ستانلى لين بول ، وسير توماس أرنولد ، دى لاسى اورلى ، دنكان ب . ماكدونالد ، رينولد نيكولسن ، ادوارد ج . برون ، سير ريتشاردف . برتنBurton هنرى لومسLummens ، هنرى سالادين ، كلمنت هوارت ، اجناز جولدزهر ، برنارد كارادى دى فوBernard Carra de Vaux وغيرهم .

وتضمن كتاب هنرى آدمز الذى حمل اسم « دير القديس ميخائيل ووثائقه » دراسة ممتعة وعميقة عن طبيعة الحضارة فى العصور الوسطى وروحها أما تاميزى دى لاروك-Tamizy de Lar roque فله كتابه الهام عن الآثار الفرنسية وعن تاريخ القومونات[1] فى العصور الوسطى وعن التاريخ الثقافى والدينى فى تلك العصور . وتناول بحث السلوك والعادات فى العصور الوسطى

(١) هى المدن ذات الكيان السياسى والاقتصادى المستقل ، ظهر فى أواخر العصور الوسطى وخاصة فى إيطاليا وفرنسا والأراضى المنخفضة (المراجع) .

بالتفصيل بولس لاكروا فى كتبه العديدة التى تنم عن مقدرة فائقة أما الدراسة التى قام بها هنرى اوزبورن تايلور فى كتابه عن الفكر فى العصور الوسطى فلها أهميتها فيما يختص بالتاريخ الثقافى فى تلك العصور . وينطبق نفس القول على كتاب ريجنالدلين بول وعنوانه « أضواء على تاريخ الفكر فى العصور الوسطى » وأخرج موريس دى ولفMaurice de Wulf أحسن الكتب عن الفلسفة فى العصور الوسطى . وساهم شارل هومر هاسكنز ، لين ثورنديك مشاركة فعالة فى دراسة تاريخ الفكر والعلم فى العصور الوسطى . ويعتبر كتب كل من ستيفن ديرسایD' Irsay ، هاستنجز رشدال ، هنريك دينيفـلHeinrich Denifle ، هاسكنز أئمة المراجع الموثوق بها فيما يختص بدراسة التعليم فى العصور الوسطى فضلاً على المدارس والجامعات فى تلك العصور . وأما وليم ماكسيلانوس مانيتيوس فقد قدم لنا أحسن عرض شامل للأدب اللاتينى فى العصور الوسطى . وكذلك جاء كتاب كارل كرومباستر عملا مثاليا عن الأدب اليونـانى ، والبيزنـطى فى العصور الوسطى . وأنجز وليام ليثابى William Lethaby خير بحث عام عن الفن فى العصور الوسطى . أما شارل ديهل Charles Diehl ، و . م . دالتون فقد كتبا كتيبات بلغت أرقى مستوى عن الفن البيزنطى ، بينما قدم رالف آدمز كرام Cram ، سيرتوماس ج. جاكسون ، ايوجين فيوليت ليدوك أعظم البحوث عن فن العمارة فى العصور الوسطى ، أمـا أحسن الأعمال التى تنم عن أرقى مستوى من القدرة على النقد لكل جوانب التاريخ الثقافى فى العصور الوسطى فهى ما قام بها جورج جوردن كولتون George Gordon Coulton .

ويتضمن كتاب جون هرمان راندال وعنوانه « تكوين الفكر الحديث » مقدمة عن التاريخ الثقافى للعصور الحديثة . كذلك هناك بحث كان من المنتظر أن يصبح أروع الأبحاث التى كتبت بكافة اللغات عن التاريخ الثقافى فى العصور الحديثة وعنوانه « تاريخ الثقافة الحديثة » تأليف المؤرخ بريزرفد سميث الذى فاقت قدرته كل حد ، لكن عمله توقف بعد أن نشر منه فصلان . ويتضمن كتاب أجون فريدلEgon Friedellالذى أسماه « التاريخ الثقافى فى العصور الحديثة » كثيرا من الأحكام العامة الفذة والشروح المبتكرة . ولكنه ليس على نسق واحد من حيث الجودة ويعتمد إلى حد ما على فروض ونظريات أوزوالد سبنجلر وهى نظريات مشكوك فى صحتها . وهناك كثير من المادة عن التاريخ الثقافى فى السلسلة التى أصدرها وليم ل . لانجر William L. Langer باسم « نشأة أوربا الحديثة » . ويعتبر هذا العمل أقرب علاج للتاريخ الثقافى فى العصور الحديثة باللغة الإنجليزية . وتناول عصر النهضـة بالبحث عـلى أحدث طـراز كل من جـوثن Gothein رجونز ، جروثيزن Groethuysen ، براندى Brandiوغيرهم وذلك فى كتبهم التى

سبق أن أشرنا إليها . أما اميل جيبهارت فقد ألقى مزيداً من الضوء عن العلاقة بين العصور الوسطى فى مرحلتها الأخيرة وعصر النهضة وأوضح السبب الذى من أجله بدأت حركة النهضة فى إيطاليا . هذا بالإضافة إلى ما له من فضل بصفة خاصة فى وضع كتابه الهام عن العلاقة بين ما ظهر فى أواخر العصور الوسطى من مذاهب الزهد والورع وبين حركة النهضة المسيحية فى عصرها الأول . وأنتج روبرت دافيدسون وفرديناند شيفل أعظم ما كتب عن النهضة فى فلورنسا . أما هنرى أزبورن تايلور وفرديناند شيفـل ، هيما Hyma وادورد ب . شينى Cheyneyفهم رواد الأمريكيين بالنسبة للدراسات الحديثة فى هذا العصر . وأمدنا بريزر فد سميث وارنست ترويلتش بعمل رائع عن التاريخ الثقافى فى عهد حركة الإصلاح الدينى ، كما ألف والتر جوتز عن الحركة المضادة لحركة الإصلاح الدينى . أما أكثر الأعمال العامة مقدرة فى مجال التاريخ الاقتصادى فى العصور الحديثة فهى تلك التى تنسب إلى كافولفسكى ، فرنر سومبارتSombart .

وثمة دراسات عن التاريخ الاقتصادى والاجتماعى عن الدول الكبرى تنم عن مقدرة كبرى منها ما وصفه تلاميذ لامبرخت فى المانيا وفى إنجلترا آل وبس وآل هاموند وليفا سير فى فرنسا ، ودور فمان ، وداود ومساعدوه فى الولايات المتحدة الأمريكية .

أما فى مجال الفلسفة الحديثة والفكر والعلم فإن أعظم الكتب أهمية هى تلك التى وصفها هارالد هوفدنج Hoffding ، ابراهام ولف ، جون مورلى ، عن المدرسة العقلانية فى فرنسا ، والدراسة الواسعة التى قام بها جون ت ميرز عن الفكر والعلم فى القرن التاسع عشر . ووضع ف جـ . ك . هيرنشاو سلسلة من الكتب ذات الفائدة العظيمة عن الفكر الاجتماعى والسياسى منذ العصور الوسطى حتى القرن العشرين . وتبدو عظمة هارولدج . لاسكى Laski فى تاريخه للفكر السياسى الحديث خصوصاً عن نشأة الحركة الليبرالية . ووصف برنارد برينسون وآخرون غيره الفن فى عصر النهضة ، كما وصف فرانك م . ماثرجر .Frank M.Mather Irالرسم فى العصر الحديث .

وتناول الفن الحديث بالبحث كل من توماس كرافن ، كليف بيل ، ك . ج . بوليه Bulliet وآخرون غيرهم

أما تاريخ الأدب فقد تم بحثه فى عدة مراجع هامة تخصصت فى الأدب القومى مثل موسوعة كامبردج فى تاريخ الأدب الإنجليزى وتاريخ الأدب الفرنسى لإميـل فوجيـه وتاريـخ الأدب

الأسبانى لفرانسسكو بارشيا بلانكو ، كما عالج فرانسسكو دى سانكتس De sanctis تاريخ الأدب الإيطالى . وبحث ويلهلم شيرر تاريخ الأدب الألمانى خلال عصر جوته . وقام ويلهلم ديلتى وهنريك ريكرت بمحاولات جادة ومبتكرة لوضع التاريخ الثقافى على أسس علمية رغم أنها فرقا تماما بين العلوم الطبيعية والاجتماعية . أما فردريك مينك Freidrich Meinecke فقد أتم عملا فذا تناول فيه بالدراسة الحركات الليبرالية والقومية بوصفها نظريات فكرية سادت فى القرن التاسع عشر . كذلك عمل كارلتون ج . هـ . هايز الكثير لخلق مزيد من الاهتمام بتاريخ القومية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم تقم دولة ما من الدول بجهد منتظم لخدمة تاريخها الثقافى مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية . من ذلك أن آرثر م . شيلزنجر ، ديكسون ر . فوكس كتبا كتابا أسمياه « تاريخ الحياة الأمريكية » وقع فى اثنى عشر جزءا ويعتبر تاريخا حقيقيا للحضارة على أعلى مستوى . أما رالف هـ . جابري فقد وضع كتابا باسم « العرض المسرحى فى أمريكا » وقع فى خمسة عشر جزءا ، وهو كتاب عظيم فى صورته ومادته . وكتب دودبريدج ريلى أحسن الكتب عن تاريخ الفكر والفلسفة الأمريكية . أما فرنون ل . بارنجتون فكتب بحثا تاريخيا مبتكرا لا قرين له عن الأدب الأمريكى مستندا إلى أسسه الاجتماعية . واتسمت كتابات فان ويك بروكس عن الأدب الأمريكى بأنها كانت تنبىء بصفة خاصة عن فكر عميق وبأنها ممتعة . أما كتاب كامبردج فى تاريخ الأدب الأمريكى Cambridge History of American Literature فهو أكثر دقة من غيره . وعالج صمويل ايشام وفرانك ج . ماثر وجر . لورادو تافت Taft ، وفيسك كمبال Kumball ، ت أ تالمداج واوليفر لاركن Larkin تاريخ الفن الأمريكى من جوانبه المتعددة .

ولا شك فى أن هذا العرض السريع الموجز والضرورى لبعض الجهود التى بذلت فى التاريخ الثقافى سوف يترك انطباعه على القارىء بإحساسه بعظمة الكتابة فى هذا الميدان وضخامتها وتنوعها وخاصة إذا ما تذكر أن هذه الأعمال التى أشرنا إليها آنفا تمثل أكثر ما كتب فى الموضوع أهمية وأحسنها . وقد اخترناها من بين مؤلفات عدة فى العصور الحديثة . وسيخرج القارىء عن إلمامه بهذه المؤلفات العديدة بالحقيقة الخاصة بأن التاريخ الثقافى تغلب على كل من التاريخ السياسى والحربى اللذين هما أقدم منه . ولكنه ينبغى أن نتذكر أن معظم هذه المادة لم يكتبها مؤرخون أكاديميون محترفون ، وإنما كان غالبيتهم أشخاصاً درسوا الأدب والفن والديانة والاجتماع والاقتصاد والعلوم والفلسفة وما شابهها . ومع ذلك فإننا نثنى على هذه المادة القيمة

سواء كتبها مؤرخون محترفون أم كتبها غيرهم . وإن أعظم ما ينبىء به ذلك التطور هو ازدياد عدد من المؤرخين المحترفين الذين يهتمون بالجوانب المختلفة للتاريخ الثقافى . وتعتبر هذه الحقيقة هى الدعامة الرئيسية التى نبنى عليها أملنا فى أن التاريخ سوف يرتبط ترابطاً متزايداً بتاريخ الحضارة والثقافة . وأن أعظم الجهود الجديرة بالثناء فى وقتنا الحاضر فى مجال وصف الحضارة البشرية عن كافة جوانبها هو الجهد الذى بذله ويل ديورانت Durant فى كتابه المتعدد الأجزاء بعنوان « قصة الحضارة » ، وهو الكتاب الذى وضعت خطته على أساس صدوره فى عشرة أجزاء ظهر منها فعلا سبعة . ومن المشكوك فيه أن يستطيع مؤرخ آخر أن يقدم على هذا المجال بمثل تلك القدرة الفائقة .

المراجع :

SELECTED REFERENCES

Gooch, History and Histonans in the Nintoo nth contury, chap. XXVIII
Fuotor, Histoire do l'historiographic mo domopp. 652 - 57, 708 - 52.
Ritter, Dio Entwicklung dor Ges chtswissenshtft, pp. 421 - 61.
Beckor, " Samo Aspects af the Influence af social problems and Ideas upon tho study and Writing af History " loc. cit.

Guilday church Historians, pp. B321 ff.
Robinson, tho New Histary.
Bamos, the New History and the So cil studies.
Muzzey, Essays in intellectual Histony Dedicated ta James Harvey th omp Son, History of Historical Wnting, Vol. 11. chap. 1v. odum Amorican Mastens af social scionco, chaptors on Jamos Honvey Robins on and Fnedorick Jackson Twrvor.
L.V. Hendricks, Jamos Harvey Robinson.
M.E. Cuthi, Freder ick Jackson Twrnor. Mexicocitu, 1949.
Beado, Chan les A. Beard.
Smith, carl Becker: on History and tho dimate af opinion.
Schm itt, Same Historians of Modern Europe, chaps. i, x,xix - xxi.
Halperin Some Twentioth Century Historians, PP. 1 - 39, 277 - 298.
Ansabel et al., Same Historiens af Modern Britain, chaps. 8 - 10, Krans, tho writing af American Histovy, chap. xiv.
J.c. Lov enson, the Mind and Art of Henry Adams. Houghton Mifflin, 15, 20, 22.philip Bagby, Culture and History. univensi ty af california press, 1957. 1960.

Ernst schaum Kell, Geschichte der Deuts chen Kultur geschichts chreibung. loip zig, 1905.
R. Kotz chke and A, Tille, Karl Lamprecht. Gotha, 1915.
E.J. spioss, ceschichtsprilosophic Von Karl lamp recht. Erlang en, 1921.
stoin borg, Die Geschichtswissenscha flt dor Gegenwont in selstdarstellungen.
Halphon et al., Histoire et historuns dopuis cinquanto ans.
Halphon, LHstoire en Fronce depuis cont ans.
Henri Berr, LHistoire tradition elle et la Synthese historique. paris, n21.
Croco, storia della storiografia jabaner.
Blok, Geschicht chreibung in Holl and.
Miliukov, Main currents of Ru ssiam historiog caphy.
Kurf Brrysig, Dio Meistor der en twickelndon Geschi chts sforsch ung. Ber slau, 1936.
J - B - Bury et. Evolution in Modorn Thou ght, chap. ix. Bon. and Liveright, 1915.
H. G. Wells, the scienco oF Lite. Doublo doy, Doron, 1931. 2vols.
Clark wisslon, Man and Culture. Crowell, 1923.
W.F. Oghurn, Social change. Vikivg press, 1922.

الفصل الرابع عشر

التاريخ وعلوم الإنسان
الاتجاه الكونى الجديد

سوف نتناول فى هذا الفصل التطورات الفكرية والثقافية وكذلك التقدم فى المعرفة البشرية . وهى الأمور التى ساعدت على توسيع مجال مادة التاريخ وزيادة خصوبتها ، كما ساعدت المؤرخ على إعادة صياغة حضارة الماضى . وعلينا أولاً أن نناقش رد الفعل الذى أحدثته النظرة الفلكية الجديدة بالنسبة لمفهوم المؤرخ .

لقد كان لعلم الفلك الجديد وحركة الأجرام السماوية التى بدأت بنظريات نيوتن الأولية أكبر الأثر فى إثبات صحة ما قال به جيوردانو برونو Giordano Bruno دون أن يستمد أى دليل من حيث تعدد العوامل والتشابه بين الأجرام السماوية والأرض من حيث تكوينها المادى . هذا إلى أن اكتشاف كواكب أخرى بعيدة مثل أورانس ، نبتون ، كان أكبر دليل على اتساع النظام الشمسى بشكل لم يكن يتوقعه أحد . ولعل الأهم من ذلك كله كان التوصل إلى صنع الآلات والأدوات التى مكنتنا من أن نكشف عن نظم شمسية لا حصر لها ، ومعظمها على درجة من البعد والتعقيد لا يمكن حسابها . وهكذا كان لابد من تعديل نظرة الإنسان إلى الكون ليس فقط تحت تأثير فكرة تعدد العوالم ، ولكن أيضاً بفعل مفهوم جديد بالغ الأثر ، مؤداه أن هناك عدداً مطلقاً لا نهاية له من الأكوان . وأدى هذا إلى مراجعة دقيقة جداً لجميع نظريات الإغريق عن الكون وتراث العبرانيين والملحمة المسيحية ، كما أدى إلى إدراك مدى حداثة كوكب الأرض وضآلته نسبياً . وبازدياد الاعتراف بهذه الحقيقة جاء البرهان العلمى على ما أبداه نيوتن من تشككه فى أنه من غير المحتمل

أن تكون كل فكرة عابرة تافهة . وكل تصرف عارض للفرد من البشر موضع اهتمام الله . وهكذا أصاب علم الفلك الجديد فى الصميم فكرة إرجاع أحداث التاريخ إلى قوى ما وراء الطبيعة والقوى الإلهية . وكانت هذه أخطر أثراً من تلك التى وجهها علم التطور البيولوجى لنفس هذه النظرية .

يضاف إلى ذلك أن التأريخ على أساس الحسابات الكونية الجديدة وما ترتب على ذلك من ضخامة عنصر الزمن جعل الافتراض القائل ببدء الخليقة فى سنة ٤٠٠٤ ق . م يبدو مفهوماً ساذجاً غير مقنع ، مثله تماماً مثل أية حكاية بسيطة حول الخليقة عند أى شعب من الشعوب البدائية المعروفة . والحق أن النظرية الزمنية الجديدة للكون التى أتى بها علماء الطبيعة الفلكية كانت أبعد أثراً من المفهوم الجيولوجى القديم ، وهى بالنسبة لهذا المفهوم تعادل تماماً ما كان هو عليه بالنسبة للتقويم الموسوى . ويعنى هذا أن اكتشافات كل من فردنهوفر ، ميشلسون Michelson ، انيشتين ، شابلى جينزJeans ، لم تحل محل الآراء المرتبطة بآدم ونوح وموسى فحسب ، بل حلت كذلك محل أفكار لايل ، شامبرلين Chamberlin ، جيكى وآخرين وذلك بوصفها أساسا يبنى المؤرخ عليه أفكاره عن النسبية التاريخية والمفهوم الزمنى .

وكان ما فعله علم الفلك بالنسبة للكون شبيه بما فعله علم الجيولوجيا والحفريات بالنسبة لمفهومنا حول عمر وتكوين كوكبنا الذى هو من وجهة النظر الكونية كوكب حديث العمر بالغ الضآلة . هذا إلى أن الجيولوجيا التاريخية والتركيبية أظهرت حقيقة التطور الطبيعى والفترة الزمنية الطويلة التى تطلبها هذا التطور ، كما أثبتت أن الفترة الجيولوجية التى سبقت بدء الحياة على هذا الكوكب يحتمل أن تكون أطول بكثير من الفترة التى انقضت منذ بدء الحياة عليه (حتى الآن) . كذلك كشف علم الحفريات — الذى هو الأساس التاريخى الحقيقى لعلم التطور البيولوجى — عن ظاهرة التطور التدريجى للحياة العضوية على الأرض — وكذا عن التطور الذى طرأ على أنماط النباتات وحياة الحيوان والعلاقة الوراثية بين الكائنات المفترضة ، وبين الكائنات القائمة . وفوق كل شىء فقد كشف هذا العلم عن موقف متناقض إلى حد ما بالنسبة للإنسان ، فمن وجهة نظر تطور الحياة العضوية ككل نجد أن حياة الإنسان على الأرض أمر حديث نسبيا بدرجة تبعث على الدهشة . ومع ذلك فهى بالغة فى القدم إذا ما قورنت بالاعتقاد الراسخ بفترة وجود الإنسان على الأرض . وكان أن تلقى المؤرخون المفاهيم الكونية والزمنية الجديدة فى وقف ذبول فكرة إرجاع الأحداث إلى قوى ما وراء الطبيعة وهى الفكرة التى كانت تساند الافتراضات القديمة الخاصة

بالخليقة ، والتى كانت تقف وراء التاريخ التقليدى حتى الجيل الحالى . وقد صادفت هذه الفكرة تحدياً مباشراً خلال الدراسة التاريخية الناقدة للوثائق المقدسة التى تضمنت « افتراضات ما وراء الطبيعة » كما صادفت تحديا غير مباشر لها فى مرحلة تطور العلوم الطبيعية والاجتماعية . وترتب على هذا كله انهيار الأساس الوثائقى المزعوم لفكرة ما وراء الطبيعة انهيارا تاما . وبذلك انتهت الحرب بين العلم واللاهوت إلى لا شىء بالنسبة للفئات المتعلمة .

نظرية التطور ومغزاها بالنسبة للتاريخ

لا شك فى أن نظرية التطور كانت من بين المؤثرات الفكرية والعلمية التى أحدثت ثورة فى وضع الكتابة التاريخية وحركتها ومثلها واتجاهاتها . وهنا ينبغى أن يتخطى مفهومنا عن التطور القيود البيولوجية لمدرسة دارون ليشمل التطور الكونى بمفهوم سبنسر . ويبدو بوجه عام أن افتراض التطور مجرد إصرار على أن كل ما هو معروف لنا فى هذا الكون ــ صغيراً كان أو كبيراً ــ قد حدث بفعل مسببات طبيعية هى المسئولة عن التقدم والنكوص على السواء . كذلك يتضمن هذا الافتراض ــ وهذا ما يتفق مع وجهة نظر هيراكليتوس القديمة ــ أن التغير هو المبدأ الأساسى العظيم فى الكون . وهكذا نجد أن افتراض التطور لم يتعرض بأى شكل من الأشكال للجدل الدينى اللاهوتى ، كما أنه لم يشيد على موقف عقائدى فيما يختص بالدور الذى قام به الله فى هذه العملية الخاصة بتطور الكون . كذلك فإن هذا الافتراض لا ينم عن أن صاحبه قد تلقى أى إيحاء من قبل الله يوضح هدفه (عز وجل) من إيجاد الأجرام الكونية الضخمة التى تشكل محتويات هذا الكون . ومن الممكن أن يكون لهذا الرأى الخاص بأصل الكون وتركيبه مغزى كبير بالنسبة لأولئك الذين يهتمون بالخوارق ولكن مناقشة المضمون الدينى لافتراض التطور إنما هى مشكلة الفلاسفة وفقهاء الدين وليست مشكلة المؤرخين وعلماء الأحياء .

ثم إن نظرية التطور لا تمثل ــ بطبيعة الحال ــ مرحلة جديدة تماماً فى المجرى الفكرى للحضارة الغربية ــ لأن تاريخها قديم قدم التفكير التأملى ذاته ، وهذا بدوره يبدأ من عصر الفلاسفة السابقين على سقراط فى بلاد اليونان القديمة . وحتى هربرت سبنسر نفسه لم يتحدث عن المفاهيم والمضمونات العامة بالتطور الكونى بنفس القدرة والكفاءة التى تحدث بها لوكريتيوس Lucretuis فى عهد شيشرون . هذا مع العلم بأن لوكريتيوس أكد أن عَرْضَه لفكرة التطور

الكونى لم يكن سوى صورة أقل إحكاما من معتقدات أستاذه ابيقورEpicurusالذى عاش قبله بثلاثة قرون . وكان أن بعثت فكرة هذا التفسير لتطور الطبيعة مرة أخرى فى أعقاب نمو العلوم والحركة الرومانسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وان كان هذا الاتجاه الفكرى لم يثر كثيرا من الجدل إلى ان دَخَل الإنسان ذاته فى دائرة نظرية التطور . وقد أوضح سبنسر نظرية التطور الكونى وأضاف إليها كثيرا وبين انطباقها على عديد من أوجه النشاط الفكرى البشرى . أما دارون فقد كرس نفسه للنواحى البيولوجية من المشكلة . وأوضح ان الأدلة على ارتقاء الإنسان من أشكال أدنى فى الحياة العضوية أكثر اقناعا من أية أدلة أخرى يمكن ان تساند الرأى الراسخ ـــ حتى ذلك الوقت ـــ والقائل بأنه كانت هناك عملية خاصة حديثة نسبيا هى عملية خلق الإنسان . وكان أن قوبلت نظرية دارون بالترحيب من جانب عدد من العلماء البارزين أمثال هيكل Haeckel ، هاكسلى ، رومانس ، ولاس ، وهم الذين دافعوا عنها بشدة وعملوا على نشرها . أما المضمون الثقافى والتاريخى للأفكار الخاصة بالتطور فقد تولى شرحها كتاب متباينون أمثال ج . م . روبرتسون ، و . ا . هـ . ليكىW.E.H. Lecky ليزلى ستيفن ، كارل لامبرخت Lamprecht ، ج . و . دارير ، اندرود . هوايت ، هنرى آدمز ، وهؤلاء جميعا كانت جهودهم ذات أثر بعيد وكبير لأن مفهوم التطور هو على الأرجح أقدر الافتراضات وأكثرها فائدة فى حياتنا الفكرية والثقافية ، ولا يعارض هذا الرأى أو يشك فيه سوى الجوهريون المتشبعون لفكرة الأصل الثابت للإنسان مثل وليام جينجز براين ، جون روسن ستراتون ، جاسبار كورتينوس ماسيه Cortinus Massee وبعض الكتاب الكاثوليك المتحمسين ذوى المزاج الفكرى المتشابه ، وهم وإن كانوا حسنى النية إلا أنهم قليلو المعرفة .

وتتصف الجوانب الرئيسية لمغزى نظرية التطور بالنسبة للتاريخ بأنها عديدة ومؤثرة ولعل أهمها هو عدم الاعتراف بالفلسفة الاستعلائية وإذا كان أفلاطون قد أحسَّ بأن نظرياته الخاصة بالجمال وبالمعرفة قد تعرضت لصدمة شديدة من جانب المفهوم الخاص بالواقع المتغير ، إلا أن هذا فيما يبدو هو طبيعة الأشياء ، فحتى الآن لم يكتشف أى متخصص فى أى فرع من فروع المعرفة وجود شيء فى مجال الطبيعة له صفة الكمال والاكتمال وعدم التغير ، فى حين أن مبدأ التغير فى حد ذاته هو المبدأ الأوحد فى الكون الذى لا يتغير ولا يتبدل .

على أن هذه النظرة إلى الموضوع لا يرضى عنها أولئك الذين يغلب عليهم طابع الورع وذلك إذا انتقل تطبيقها من النطاق الطبيعى إلى النطاق الاجتماعى . فالقول بأن الصخور والنباتات قد

يطرأ عليها تغيرات إنما هي فكرة أقل تأثيراً وأقل جاذبية من الحقيقة الخاصة بأن النظم والأفكار والعقائد البشرية لها طابع التطور وإنها جميعا تتصف بالنسبية في قيمتها ودوامها . وقد يرى كثيرون سخافة لا مثيل لها في فكرة أن عقائدنا الخاصة بالله والوحي بالإنجيل وشرعية الزواج ودوامه والديمقراطية والرسوم الجمركية المفروضة لحماية الإنتاج والتناسل غير المحدد قد تكون جميعا من صنع البشر وأنها تناقض تماما آراء آخرين حول هذه المعتقدات ، بل إنها يمكن أن تكون خاطئة كل الخطأ . ولكن هذه هي الخلاصة التي تفرضها علينا عقيدة التطور والتي لا يمكن تجنبها بأي حال . والواقع أن نظرية التطور تبدو أكثر قوة وإقناعا إذا ما طبقت على تطور أنظمتنا الاجتماعية ، لأن ثقافتنا ونظمنا تمثل جهود المجتمع — في كافة صورها البسيطة والمعقدة — ليكيف نفسه مع ظروف الحياة في أية جهة . ولا توجد هناك أنظمة بشرية بدأت بنفس صورتها الحالية لأن كل النظم ليست إلا النتاج المتغير لعملية التكيف المستمرة مع عوامل البيئة والتكنولوجية المتغيرة . وهكذا نجد أن السلوك والنظم ذات أصل (دنيوي) وأنها ليست سماوية ولم تأت عن طريق الوحي والإلهام . والحل السليم الوحيد الذي تقاس به كفاءة أي نظام وكفايته هو مدى ملاءمته لاحتياجات جماعة معينة في منطقة معينة في زمن معين . فالأخلاق والنظم أمور نسبية ومتغيرة ، وهي من إنتاج الإنسان والمجتمع ، كما أنها عرضة للتغير الإنساني في المصطنع إلى ما هو أحسن أو أسوأ .

وهناك وجهة أخرى لا تروق للبعض وتفسر الحقائق السابقة في ضوء مبدأ الوراثة ، وهو المبدأ المنافي للعقيدة القائلة بأن الله هو مصدر الأشياء والمتسبب في حدوثها وقد اتضح الآن أن كافة الظواهر التي لدينا معلومات عنها في الوقت الحاضر إنما هي نتيجة مسببات طبيعية تعمل بشكل تطوري . وكل مرحلة تمثل النمو الطبيعي للمرحلة السابقة عليها ، فإذا كانت هناك مجموعة محددة من العوامل التي تؤثر على أشياء مادية تحت ظروف معينة ، فإن هـذا سيؤدي إلى شيء ثابت لا يتبدل . وقد يستطيع الإنسان أن يغير إلى حد ما في المواد والظروف التي تعمل القوى الطبيعية تحت تأثيرها ولكنه دائماً عرضة للتأثر بنتائج تفاعل العوامل الطبيعية مع عقله هو ، وهكذا فإنه يمكن أن يركن بأمان إلى الوهم الذي يعود به إلى القول بأن الله بالتأكيد هو راعيه ومدبر أمره[1] . وإذا كانت هذه الفكرة لا تروق للبعض ، فإنها بالنسبة للآخرين تمثل تحديا ديناميكياً قوياً بعبقرية الإنسان وقدرته على الابتكار والتصرف . وكان التطبيق المباشر لمبدأ التطور البيولوجي في مجال

(١) يلاحظ هنا أن المؤلف يعبر عن وجهة نظره الخاصة وهي تحوي قدرا من الإلحاد لا نقره عليه (المترجم) .

المشكلات التاريخية أكثر وضوحاً وملاءمة فى ميادين علم النفس وعلمى الوراثة وتحسين النسل . ذلك أن ج . ستانلى هول وغيره من الكتاب اللاحقين أوضحوا فى مؤلفاتهم الممتازة أنه لابد من النظر إلى الفكر البشرى على أنه نتاج للتطور شأنه شأن الجسم ، وبذلك جعلوا علم النفس الوراثى هو المدخل الطبيعى للتاريخ الفكرى .

والمعروف أن المبادىء المسيحية والآراء الديمقراطية القديمة قامت جميعا على أساس فكرة الاعتقاد بضرورة المساواة بين جميع الناس ، ولكن علماء الأحياء والنفس أثبتوا أنه ليس هناك خطأ أوضح وأخطر من مثل هذا الاعتقاد ، فإذا كان التغير هو المبدأ الرئيسى فى الكون ، فإن الاختلاف والتميز هما الأصول للحياة العضوية بما فيها حياة الإنسان . ومن ثم فإن أوضح الحقائق بالنسبة للبشر هى تباين القدرة على بذل الجهد وعدم تكافؤ هذه القدرة بين فرد وآخر . وهذه الحقيقة من العناصر طالما تجاهلتها الفلسفة الاجتماعية والتاريخية . وعلى الرغم من أننا لابد وأن نقف موقفا حذراً من التطرف الذى يبدو فى آراء مدرسة جالتون بيرسون وهى الآراء التى تبالغ فى تأكيد أهمية العوامل البيولوجية البحتة على حساب قوة التأثيرات البيئية والتربوية — على الرغم من ذلك فإننا نعتقد أن تفوق شعب ما فى القدرة البدنية هو أحد عاملين أساسيين فى التقدم الاجتماعى ، إذ لا يوجد هناك ما يدل على وجود شعب قوى أو حضارة متينة ذات عمر طويل بنيت على سلالة من البشر ضعاف البنية والصحة . كذلك ثبت أن تغير نسبة المواليد هو من بين الأسباب القوية لدورة الحضارة ونهضة الثقافات واضمحلالها . ذلك أن تغير هذه النسبة يتسبب فى تناقص نسبة الإنجاب بين الطبقات الحاكمة وتزايد المواليد بين الطبقات الأدنى بيولوجيا مما يترتب عليه حدوث ما يسمى الانتقاء البيولوجى المضاد . ولا يمكن اعتبار أى مؤرخ فى الوقت الحاضر معدا مهنيا وفكريا لأداء عمله إذا كان يجهل الفلسفة البيولوجية لكل من فرانس جالتون وكارل بيرسون وفاشردى لابوج واوتو آمون .

وعلى الرغم من أهمية العوامل البيولوجية فى المجتمع البشرى ، فإن هناك خطراً فى محاولة نقل المفاهيم البيولوجية نقلا مباشراً لتطبيقها فى مجال النظم الاجتماعية ، كما أن هناك خطراً مماثلا فى افتراض أن التفاعلات الهامة التى تحدث فى الحياة العضوية للفرد يمكن تطبيقها دون تحفظ أو تمييز على المجتمع حقيقة إننا لا ننكر وجود قدر من التشابه بين الحياة العضوية والمجتمع البشرى ، ولكننا نقول إن هذا التشابه قد لا يكون له من الأهمية العملية أكثر مما هناك من تشابه بين الذرة والنظام الكونى كله . هذا بالإضافة إلى ما قد يكون هناك من بعض التفاعلات

البيولوجية التى تنطبق على حياة المجتمع البشرى . ولكن ما نريد أن نؤكده هو أن نضع فى الاعتبار الفروق الواضحة بين الموقفين وأن نعمل لها حسابا قبل أن نقر أوجه الشبه بينهما . ولعل أخطر الأخطاء التى نجمت عن تلك المحاولات لتطبيق المفاهيم البيولوجية بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية هو الافتراض القائل بأن الحرب تلعب دوراً بناء فى التطور الاجتماعى والثقافى لا يقل عن الدور الذى يلعبه الصراع من أجل الوجود فى مجال الحياة العضوية .

وهناك شك كبير فى سلامة هذا الافتراض الذى يبدو أكثر سخافة إذا ما طبق على الحرب فى ظل الظروف والأحوال الحديثة وفى ظل الإطار الثقافى الحالى .

وكان لنظرية التطور أثر كبير على أفكار بعض الباحثين فى مجال التاريخ كما يبدو ذلك فى كتابات سبنسر ، دراموند ، ليكى ستيفن ؛ الن Allen ، لانج ، شورمان ، كيد Kiddهبوهاوس ، فيسك ، سترلاند فى مجال تاريخ الدين والأخلاق . كذلك يبدو هذا الأثر فى كتابات بوست ، مين ، ماكلينان ، باجيهو Bagehot ، ليتورنو ، كوفالفسكى ، رينشى ، مورجان وغيرهم فى مجال تاريخ القانون والسياسة . ومهما يكن من أمر فإن الانطباع العام الذى تركه تطبيق مبدأ التطور على التاريخ ينحصر فى خلق مفهوم عن الطبيعة الوراثية للتفاعل الاجتماعى فى عقل المؤرخ اليقظ وإرساء أساس راسخ من النظرية السليمة الخاصة بالتطور التاريخى أو كما عبر جيمس هارفى روبنسون فإن علماء البيولوجيا هم الذين أعطوا المؤرخ فكرة التطور أو بمعنى آخر رسموا له الاتجاه الحقيقى للتاريخ .

ما أسهمت به الأنثروبولوجيا فى خدمة علم التاريخ

إن مناقشة أهمية نظرية التطور بالنسبة للتاريخ تؤدى بنا مباشرة إلى مناقشة العلاقة بين علم الأجناس البشرية والتاريخ الجديد « الديناميكى » . والواقع أن مفاهيم التطور حققت بعض الارتباطات الهامة للفكر المعاصر عن طريق مختلف مجالات علم الأجناس البشرية ، مما جعل الاستاذ ماريت Marett يصف هذه العلاقة بعبارة مناسبة هى :

« إن علم الأجناس البشرية هو التاريخ الإنسانى بأكمله الذى دعمته فكرة التطور . فأقصى

ما يستهدفه موضوع التاريخ هو دراسة تطور الإنسانية أو علم الأجناس البشرية يدرس الإنسان كما وجد فى كل العصور المعروفة وكما وجد فى كل أجزاء العالم . كما أنه يتناول الإنسان جسداً وروحاً بوصفه جهازاً عضوياً يخضع للظروف والأحوال السائدة فى زمان معين ومكان محدود . ثم إن جسد الإنسان على علاقة وثيقة بحياته النفسية التى تخضع هى الأخرى من البداية حتى النهاية لنفس الظروف والأحوال . والعلم الذى يرقب هذه الظروف من البداية حتى النهاية يسعى إلى تحديد السلسلة العامة للتغيرات البدنية والعقلية التى طرأت على الإنسان خلال تاريخه الطويل . إن دارون هو حقا أبو علم الأجناس البشرية حيث إنه هو الذى هيأ له سبل الظهور . فإذا ما رفضنا الاعتراف بوجهة نظر دارون فمعنى ذلك أننا نرفض الاعتراف بعلم الأجناس البشرية ونحن الأنثروبولوجيين نضع مذهب دارون نصب أعيننا ونقول : لندرس كل جزء أو أى جزء من التاريخ البشرى فى ضوء تاريخ الإنسان بأكمله . وفى ضوء تاريخ الكائنات الحية عموما . ان ما يهمنا هو إبراز عقيدة دارون وليس هناك من الآراء الخاصة لدارون ما سوف يجتاز بالضرورة اختبار الزمن والتجربة لأن هذه الآراء سوف تنصهر فى البوتقة التى يرى رجال العلم صهرها فيها ولكن نظرية دارون فى تناولها للطبيعة تجعل من العالم شيئاً متقارباً لن تندثر . ومهما يكن من أمر فإن علم الأجناس البشرية يرتفع وينخفض بارتفاع وانخفاض افتراضات دارون الذى يذهب إلى أن هناك علاقة أساسية بين كل صور الحياة البشرية ، كما أن هناك قرابة وصلات بين كل صور الحياة البشرية يبدو خلال ما يعترى سلك الحياة من تغيرات . وتتضح أهمية علم الأجناس البشرية بالنسبة للتاريخ فى صور عديدة واسعة النطاق . فهناك أولا وقبل كل شىء الحقيقة الخاصة بأن هذا العلم هو وحده الذى يستطيع أن يزودنا بالمعلومات الخاصة بالتطور المبكر للإنسان ، وهو الشىء الذى لا غنى عنه فى أية دراسة أصيلة لما يسمى بالتاريخ القديم . فمنذ قرن مضى كان المدخل التقليدى لأى كتاب عن التاريخ القديم يتضمن مناقشة تفرق أبناء نوح واعادة تعمير الأرض نتيجة للجهود البطولية التى تنسب لها ذرية نوح وسلالته . وورد هذا المدخل فى عدد من الكتب التى أشار مؤلفوها فى صفحات لاحقة من نفس الكتاب إلى أن الحضارة المصرية القديمة وصلت ذروة درجاتها قبل التاريخ المحدد تقليديا لمسألة « الخلق » بعدة سنوات . ومن الممكن محو هذا التناقض وهذا الارتباك محوا تاما عن طريق نبذ التقويم العبرى الذى التزم به كل من جوليوس افريكانوس (الإغريقى) ، ايزبيوس ، أوشر ، والأخذ بان الأساس الحقيقى للتاريخ القديم هى الحقائق التى أثبتت صحتها علم الأجناس البشرية والتى تتعلق بوجود فترة طويلة جدا من التطور سبقت فجر التاريخ المعروف . ويساعد هذا الاتجاه الجديد فى التاريخ ليس فقط على تنقية فجر

التاريخ مما علق به من عناصر غريبة وغامضة ، بل أيضا على جعل نفس هذا الاصطلاح الخاص بفجر التاريخ شيئاً مفهوماً ، إذ لم يكن هناك فاصل بين ما يسمى عصر ما قبل التاريخ وبين عصور التاريخ ذاته . ومعنى ذلك أن ثمة تطوراً بطيئاً مستمراً لم ينقطع وان لم يجر على وتيرة أو صورة واحدة منذ ظهور الإنسان على هذا الكوكب أي منذ مليون سنة أو تزيد . وإذا كان فن الكتابة هو العمل الأساسى الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصر التاريخ وعصر ما قبل التاريخ ، فإن هذا الفن لم يكن سوى مرحلة من مراحل ما أنجزه البشر فى المجال الثقافى ولم يتم إتقان هذه المرحلة تماما إلا بعد قرون من ظهور الكتابة ، وقبل ذلك لم يكن هذا الفن قادراً على إحداث أى تأثير ثورى على الثقافة البشرية والسلوك البشرى .

فإذا ما حاولنا أن نضع سجلا للتقدم الثقافى قبل اختراع فن الكتابة ، فإن هذا السجل سوف يضم أساليب صيد الحيوانات والأسماك واستئناس الحيوان وبداية الزراعة وأساس صناعة الغزل والنسيج والتقدم الهام فى الفنون ونشأة الحياة المستقرة والبيئات المصطنعة والصور الراقية من التعاون الاجتماعى وظهور الملكية الخاصة للمنقولات وربما للأراضى وكذا التقدم الهائل فى نظام الحكم والقانون . إن محاولة وضع مثل هذا السجل يجعلنا على طريق يؤدى إلى فهم الأهمية الحيوية للتراث الثقافى الذى خلفته لنا فترة ما قبل الكتابة وكذلك إلى فهم المغزى الكبير للمادة التى كانت تحذف من كتب التاريخ المدرسية منذ جيل واحد مضى .

وهناك عامل آخر يفسر قيمة المعرفة بعلم الأجناس البشرية بالنسبة للمؤرخ ، ويبدو فى الحقيقة الخاصة بأن روح النظم البدائية وسماتها النفسية لم تندثر ، بمعنى أنه لا يوجد نظام معاصر لا يرجع أصله إلى جذور بدائية أو يمكن فهمه وتفسيره بدقة بدون معرفة كافية لأصله وجذوره . إن نظمنا الخاصة بالدين والملكية والجنس والحكم والقانون والأخلاق ليست قائمة على أساس من نظم بدائية فحسب ، بل نلمس فى أشكالها وصيغها الحالية جزءا كبيراً من التراث البدائى وإذا ما فهمنا هذه الحقائق حق الفهم فسوف يضيق مجال التعصب الوطنى والغرور الثقافى ، كما يؤدى إلى إضعاف الاتجاهات المحافظة لأن الحقائق كفيلة بأن تجعلنا نعتقد بأن نظمنا تفتقر إلى الكمال والتمام ، وهى فى نفس الوقت ليست فريدة أو موصى بها من قبل الله . وهذا ما نحاول دائما أن نضفيه عليها لتجميلها وتزيينها . ولذا فإن قراءة كتاب « أيام الخلود والراحة » الذى ألفه هوتن ويستر يسبب ضيقا يفوق ما يسببه أى قدر من الجدل الدينى ، وذلك بالنسبة لمن يفسر التشريع الخاص بالطقوس الدينية الخاصة بيوم الأحد ، إن لمعظم مظاهر الطقوس الدينية فى الحياة المعاصرة أصولاً وجذوراً

بدائية وليس هناك على وجه التقريب ما هو أكثر تشويقا وتثقيفا من عرض هربرت سبنسر للآثار الثقافية فى الجزء الثالث من كتابه « مبادىء علم الاجتماع » .

كذلك يلاحظ أننا لا نخلو من بعض الصفات النفسية التى نشارك فيها الهمج والبرابرة ، مع بعض التعديلات والتغيرات . من ذلك الرغبة فى الوصول إلى النتائج مباشرة وبلا مقدمات ، والميل إلى تحميل الأشياء أكثر مما تحتمل ، والجنوح نحو التفكير بطريقة رمزية والاتجاه إلى النظر إلى مراحل معينة من الخبرة مليئة بالزهد الخالص ، والثقة فى فاعلية الألفاظ والعبارات والإبقاء على بعض صور الاعتقادات البدائية فى عالم الأرواح والطواطم ، وفعل الأرواح الشريرة ، هذا كله بالإضافة إلى الأشياء المحرمة بحكم الدين والتقاليد والخرافات الساذجة . وجميع هذه النواحى من السمات النفسية للشعوب البربرية . ولا يمكن بأى حال تحديد مدى تأثير الفكر البدائى فى العصر الحديث ، وذلك لأن استمراره يختلف اختلافا كبيراً من مرحلة إلى أخرى من مراحل الثقافة المعاصرة . أما فى مجال العلم فقد تم نَبْذ النظرة البدائية وما ارتبط بها من طرق تفكير نبذاً تاما . أما بالنسبة للدين والأخلاق فلا يزال المحافظون يتمسكون بكثير من حياة الزهد والنسك والايمان بوجود المعجزات . فإن وجود العنصر البدائى يتراوح بين هذين الحدين . ففى السياسة على سبيل المثال لازلنا نعتمد على البلاغة ، وهذه الظاهرة ليست إلا شكلاً هيلينيّاً مطوراً لبعض تقاليد الخطب الرسمية لزعماء القبائل وشيوخهم وهكذا نرى أن فهم حقيقة بقاء هذه الظواهر البدائية واستمرارها فى حياتنا الفكرية وتفسيراتنا النفسية أمر ذو قيمة هائلة بالنسبة للمشتغلين فى مجال التاريخ الفكرى . كما نجد أن علم الأجناس البشرية يربط بين علم النفس الوراثى وبين التطور الفكرى للجنس البشرى ولا شك فى أن تلك الكتب أمثال التى ألفها وندت Wundt، ليفى برول Levy Bruhl ، بول رادين PaulRadin، جولدنويزر Golden Weiserوغيرهم تمثل المدخل المنطقى للتاريخ الفكرى تماما كما تمثل كتب ادزبورن ، بيركت ، بيك Peake تايلر ، ديكليت Dechelette ويلدير Wilder كليلاند ، ماكرى ، المقدمة المناسبة لتاريخ الثقافة المادية البشرية .

وكان أن أسهم علماء الأجناس البشرية إسهاماً عظيماً هائلاً فى فن التحليل التاريخى وذلك على وجه التحديد عن طريق تفسير تطور البشرية وشرح أوجه التشابه فيها ، فضلاً عن توضيح تنوعها والفروق بين نواحيها المختلفة . ومن الطبيعى أن يكون هذا الأسلوب غير ذى موضوع بالنسبة للدارس التقليدى للتاريخ الذى لا يهمه إلا الأحداث الفريدة ولكن لا غنى عن هذا الأسلوب للمؤرخ الذى يسعى إلى علاج تاريخ الحضارة والثقافة علاجاً علمياً .

ثم حدث أن اجتذبت دراسة أوجه الشبه والخلاف بين ثقافات المناطق المختلفة انتباه الدارسين من أيام هيرودوت بل حتى قبل ذلك الوقت . ذلك أن أوجه الشبه بين تلك الثقافات خلقت أعظم المشاكل فى مجال الشرح والتفسير ، وإن كانت أقل إثارة للاهتمام من أوجه الخلاف لأن التنوع يكون مقبولاً وميسور الفهم إذا كان مرتبطاً باختلاف الرنس والبيئة الجغرافية والصلة بين الشعوب بعضها ببعض ومراحل التطور الثقافى . أما بالنسبة لأوجه الشبه فى الثقافة فالأمر غير ذلك . إذ كيف نفسر على سبيل المثال وجود أهرامات فى كل من مصر وأمريكا الوسطى أو تشابه الأسلحة والأوعية الفخارية فى مناطق بينها وبين بعض فواصل شاسعة ؛ وكان أن اقترنت أولى محاولات علماء الأجناس البشرية لشرح ظاهرة التشابه الثقافى بأسماء سبنسر ، تايلور ، مورجان ، ليتورنيه Letourneau ، وجميعهم عملوا على أساس نظرية باستيان Bastian الخاصة بوحدة العقل البشرى ، وعلى أساس الاعتقاد الذى يؤكد التأثير الحاسم للبيئة الجغرافية . فضلاً عن افتراض التطور القائم على ارتقاء النظم ارتقاءً تدريجياً منظماً من صورتها البسيطة إلى صورة أخرى أكثر تعقيداً . وقد وضع هؤلاء العلماء بعد ذلك نظاماً مفترضاً يفسر التطور فى النظم ، وفى النهاية كرسوا أنفسهم للتوصل ولو بشكل عشوائى إلى معلومات مادية تثبت وتدعم وجود مثل هذا الوضع بالنسبة للتطور الاجتماعى . وهكذا وضعت هذه المدرسة افتراضا عامّاً مؤداه أن التشابه الثقافى يرجع إلى أسباب داخلية أكثر مما يرجع إلى اتصالات خارجية بين الجماعات . وبهذا أكدوا فكرة التطور المستقل وخصوبة قدرة الإنسان على الاختراع حتى ولو كانت هذه القدرة تتأثر كثيرا بالطبيعة المحيطة وسمات معينة للعقل البشرى . وهناك نظرية أخرى تتخذ اتجاهاً مضاداً لاتجاه المدرسة السابقة وهى من وضع جوليوس ليبرت ، ا . ب . تايلور ، وآمن بها راتزل وطورها كل من فريتز جوابنر ، وسبيرج . اليوت سميث ، فوى Foy انكرمان ، و . شميدت ، و . ج برى Perry ريفر وتعتقد هذه المجموعة من العلماء أن التشابه الثقافى يرجع فى مجموعه إلى اتصال الجماعات بعضها ببعض ، الأمر الذى يترتب عليه انتشار الثقافة . ودفعهم إلى هذا الاعتقاد تكرار حدوث اختراع الأدوات وابتداع العادات بشكل مستقل . ثم ذهب بعض المتطرفين من أعضاء المدرسة أمثال جرابنير Graebner ، سيميث إلى أن انتشار الثقافة قد تحقق حتى بين الجماعات التى تفصل بينها مسافات شاسعة ومواقع كثيرة كان اجتيازها أمراً عسيراً . وعلى الرغم مما فى آراء هذه المدرسة من مبالغات ما إنها ألقت كثيرا من الضوء على انتقال الثقافات والنظم وكان للجهود التى بذلها علماؤها أهمية خاصة فى مساعدة الباحثين الذين تناولوا موضوع انتشار الثقافة المادية .

ولعل الاتجاه نحو التحليل السيكلوجي الـذى وضعه الأستـاذ بوس Boas وتـلاميذه فى الولايات المتحدة الأمريكية والذى قبله إلى حد كبير بعض علماء الأجناس البشرية فى أوربا أمثال ماريت ، ابرنريك Ebrenreich يكون أكثر إقناعا من الرأى المبالغ فيه القائل بالتطور المستقل أو من الاعتقاد المبالغ فيه أيضاً القائل بفكرة الانتشار . وليس لمدرسة بوس أيـة افتراضـات سابقة ، فهى تهدف أساسا إلى بحث الحقائق الموجودة فعلاً والمتعلقة بطبيعة أى تركيب ثقافى محدد وأصل ذلك التركيب . ونتيجة لذلك وجدت هذه المدرسة أن التطور المستقل والانتشار قد اشتركا معا فى خلق معظم الأوضاع الثقافية . ولكن قدرة أية وحدة ثقافية على تقبل واستخدام جهود ثقافة أخرى تختلف اختلافا بينا طبقا لنوع ودرجة الثقافة المستعارة . فالشعوب تستعير بترحيب كبير مختلف جوانب الثقافة المادية ولكنها لا تشعر بالـرضا أو الارتيـاح بالنسبـة لاستعارة العقـائد والشعائر الدينية .

وكان من نتيجة غرس هذا المنهج الناقد أن بدأت حركة كبيرة لمراجعة النظريات السالفة الخاصة بالتطور الاجتماعى . ذلك أنه اتضح أن كثيرا من التشابه المزعوم كان تشابهاً سطحياً فقط . كما ثبت فى نفس الوقت أن كثيراً من أوجه الشبه الحقيقية لا تعنى بالضرورة تشابهاً فى السوابق أو فى التطورات اللاحقة . وبمعنى آخر فإن هذا المنهج عدّل إلى حد ما الآراء القديـة الخاصة بالطابع الموحد المنظم لتطور النظم ، كما تبدو هـذه الآراء ملخصة فى كتـاب (المجتمع القديم) الذى ألفه لويس هـ . مورجان . فالقاعدة الطبيعية هى التنوع الملحوظ كما يبدو فى ظاهرة التطور الاجتماعى على الأرض . وفى كتاب (تطور الثقافة) نجد هوايت يطابق بـين نظريات مورجان وبين المضمون الحقيقى لعلم الأجناس البشرية . وهكذا ينبغى أن يكون واضحا أمامنا أن الباحث الذى يتناول موضوع تاريخ الثقافة والنظم لا يعتبر مؤهلاً تأهيلاً كافياً لهذا العمل اذ لم يع تماما نوع المادة التى تحتويها مؤلفات مثل كتاب بوس « عقل الانسان البدائى » وكتاب ويزلر Wissler (الانسان والثقافة) وكتاب كروبر Kroeber(علم الأجناس البشرية) وكتاب لوى Lowie (الثقافة وعلم الأنثولوجيا) وكتاب (المجتمع البدائى) وكتاب جولدن ويزر (الحضارة المبكرة) وكتاب ديكسن Dixon (بقاء الثقافات) وكتاب مولر لاير Muller Lyer (تاريخ التطور الاجتماعى) كتاب لينتون Linton(دراسة الانسان) وكتـاب هو يت White (تطور الثقافة) . وأدى الأستاذ أ .ل . كروبر خدمة جليلة لتحقيق الهدف العظيم الخاص بربط علم الأجناس البشرية بالتاريخ حيث تضمن الفصلان الأخيران من كتابه الرائـع عن

الأجناس البشرية عرضا مبتكرا للتاريخ البشـرى من العصر الحجيـرى القديم حتى الحضـارة المعاصرة ونشره فى ضوء الاتجاهات الأنثروبولوجية . وعلى الرغم من أن هناك كثيرا من المؤرخين الفلاسفة مثل باكل Buckle ، درابر ، سبنجلر ، شيني Cheyney، ممن عرضوا قوانين افتراضية متعددة بخصوص تقدم البشر أو اضمحلاله ، فان مدرسة لامبرخت ، بريزج هى المدرسة الوحيدة التى أسهمت بصورة جدية فى هذه الناحية . ويشعر الكثيرون من أن قـدراً كبيراً مما صاغـه لامبرخت وبريزج يتضمن فى افتراضاته المنهجية كثيراً من نفس الأخطاء التى وقعت فيها مدرسة مورجان عن علم الأجناس البشرية . ومن بين المؤرخين القلائل الذين أتقنوا أحدث المناهج فى دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية ادوارد ماير ، ج . ل . مايرز ، جيمس طومسون شوتويل ، جيمس هارفى روبنسون ، ت . ف . ج . تيجارت .

هذا إلى أن علم الأجناس البشرية فيما يختص بمسائل الجنس والدين ساعد على تحرير المؤرخ من التعصب الوطنى والفكرى ، فمنذ جيل واحد مضى كان أبرز المؤرخين وأكثرهم موضوعية واقعا تحت تأثير جوبينه Gobineauبنظرياته الشاذة غير المقبولة القائلة بتفوق الجنس الابيض وبتفوق المجموعة الآرية من بين هذا الجنس الأبيض . ولم يكن هناك تأثيرا أكثر ضررا وإساءة بالموضوعية التاريخية من تأثير الأساطير المتعلقة بفكرة وحـدة الجنس وثباتـه (البرهـان) على ما يترتب على هذه الفكرة من الإحساس بتفوق جنس أو تخلف آخر . ويستثنى من ذلك الشعور بالتفوق القومى الذى نما من نفس هذه الخرافة .

وكان أن أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الطبيعية الناقدة الحديثة كيف أن مفهوم الجنس مطاط لا يسهل تحديد مدلوله ، كما تبين صعوبة اكتشاف أى معيار طبيعى ثابت ذى أهمية كافية يمكننا من تحديد هذا المفهوم وأثبتت هذه الدراسات كذلك مدى الخلط الكبير بين الأقسام المتفرعة من الجنس وكذلك درجة التنوع الكبيرة للفروع الموجودة داخل كل قسم من هـذه الأقسام الفرعية . يضاف إلى ذلك . ما أكدته هذه الدراسات من أنه ليس هناك جنس آرى متفوق له السيادة ، كما أنه لم يكن هناك وجود لهذا الجنس فى أى وقت مضى . وقد أوضح الأساتذة بوس .. أ . ف . شامبرلين ، أن الفروق بين الأجناس المختلفة فى مستواها الثقافى يمكن أن تفسر تفسيراً كافياً دون التورط فى فروض حول وجود فروق فى المقدرة العنصرية المتأصلة كذلك أوضح هذان الأستاذان صعوبة إثبات التفوق الشامل للأجناس إذا ما أخذ فى الاعتبار عنصر التكييف مع البيئة . وباختصار فإن مشكلة الجنس فى الوقت الحاضر غامضة ومتداخلة وغير محددة بحيث ينبغى

بل يتحتم أن يتناولها المؤرخ فى حذر بالغ ، مهما يكن من أمر تلك الحقائق المؤكدة التى يمكن أن ينتزعها علماء النفس والأحياء من وسط هذا الغموض .

ويعتبر الملخص التالى الذى كتبه كارل بيرسون Karl Pearson عن شارل دارون برهانا قاطعا على عدم جدوى الافتراض العنصرى فى التاريخ : (لقد شاعت فكرة الارتباط الوثيق بين الحالتين العقلية والبدنية عند القيام بتحديد أصول أفراد معنيين يعيشون داخل مجتمع بشرى ، بمعنى إرجاع كل فرد إلى الجنس الذى ينتمى إليه من جملة الأجناس التى يتألف منها شعبنا . ونحن نتحدث كما لو كان شعبنا هو الذى تحقق فيه هذا المزج بصرف النظر عن موضوع الوراثة . وبعبارة أخرى فقد جرت العادة أن نتحدث عن نموذج من المواطنين الإنجليز وليكن هذا النموذج هو شخص شارل دارون الذى نعتقد أن عقله يعتبر نموذجا لعقل الإنجليز) .

ولكن عندما ندرس أصل دارون وسلالته نجد أنفسنا نبحث دون جدوى عما نسميه (نقاء الجنس) ذلك أن هذا الإنجليزى ينحدر من أربع سلالات متباينة من صغار الملوك الأيرلنديين ، فضلا عن عدد مماثل من سلالات الاسكتلنديين الذين يرجعون إلى الأصل البكتى فضلا عما يجرى فى عرقه من دم ألمانى . كذلك تربطه ثلاثة خطوط على الأقل بالملك الفرد العظيم . ومن ثم فهو يرتبط بالدم الانجلو سكسونى وكذلك يرتبط بصلات مع شارلمان . والكارولنجيين ، كما ينحدر من أباطرة ألمانيا السكسونيين وكذلك باربروسا والهوهنشتاوفن . وجرت فى عرقه دماء فرنجية ونورمانية كثيرة وله صلة قرابة بدوق بافاريا وبدوق سكسونيا ودوق فرندرز وأمراء سافوى وملوك إيطاليا كما جرت فى عروقه دماء فرنجية وألمانية وبرجاندية ولانجوباردية وله أيضا قرابة مباشرة مع حكام المجر من الهون واباطرة القسطنطينية البيزنطيين . وإذا كان تقديرى سليما فإن ايفان المخيف يمثل صلة دارون بالروس . وليس من المحتمل أن يكون هناك جنس أوربى لم يشترك فى نسب شارل دارون . وإذا كان من الممكن أن نتبين مثل هذا العدد الهائل من خطوط الأنساب فى شخص مواطن إنجليزى واحد ، ومثل هذا الاختلاط الكبير فى جنسه فانه يمكننا أن نؤكد أنه لو توافرت لدينا معلومات مماثلة لتبينا أن الدماء التى تجرى فى عروق أى مواطن إنجليزى ليست أكثر نقاوة من دماء دارون .[1]

(١) المجلة العلمية الشهرية نوفمبر ١٩٢٠ صفحات ٤٣٥ ، ٤٣٦ Scientific Monthly . أما أحسن دراسة تاريخية ناقدة فتبدو فى كتابه : . F. H. Hankins : The Racial Basis Of Civilization Knoff 1926 .

وعلينا أن نحذر بصفة خاصة من كتابات المدرسة الجونبكية الجديدة لأنها تنافى المنطق وتتسم بالسخافة ومن أمثلتها كتاب ماديسون جرانت (نظرة على الجنس العظيم) والواقع أن هذه المؤلفات التى تعبر عن المذهب العنصرى الزائف لا تقل سوءا عن المعتقدات الآلية لماكسى مولار Max Muller وجيله وهى العقائد التى أحياها هتلر والنازيون فى ألمانيا .

ومع ذلك فإن علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية والباحثين فى مشكلة السكان من وجهة النظر البيولوجية قد لفتوا النظر إلى أهمية الفوارق فى السمات والقدرات بين أفراد الجنس الواحد والجماعة الواحدة ، وهذا يقودنا إلى أصل مشكلة الديمقراطية . هذا إلى أن علماء الأجناس البشرية أوضحوا — علاوة على ذلك — أنه قد توجد مادة تاريخية وثقافية هامة فى تلك العمليات الاجتماعية مثل اختلاف معدل المواليد والاختلاط العنصرى والهجرة .

كذلك فإن علم الأجناس البشرية فعل الكثير من أجل الإقلال من التعصب عند تناول مشكلة تاريخ الدين من ذلك أن التحليل الأنثروبولوجى للأصول الدينية أوضح أن هناك تشابها كبيراً يظهر فى أصول الديانات وفى الأشكال التى اتخذها رد الفعل تجاه مسائل ما وراء الطبيعة عند شعوب الأرض قاطبة فضلاً عن أنماط السلوك النفسانى المرتبط بالظواهر الدينية . وقد أوضح العلماء كذلك مقدار التجانس الكبير فى الجوهر والأساس للنظم والشعائر الدينية رغم اختلاف أشكالها وصيغها الخارجية وطبق هذا الأسلوب التحليلى على كل من اليهودية والمسيحية هيوبرت Hubert ، موس Maus ، جاردنر Gardner ، كونيبير Conybeare وغيرهم ودلت أبحاثهم على أنه لايوجد سند من الحقائق يثبت أو يؤيد استعلاء ثقافة أو تاريخ شعب من الشعوب وبمعنى آخر فإن تطبيق الأنثروبولوجيا على دراسة الظواهر الدينية يزودنا برؤيا طويلة الأمد كما يزودنا بوجهة نظر مقارنة ، ويشكل هذان الأمران معاً أحسن قاعدة ممكنة للتسامح الدينى وعدم التعصب . وإذا كان علم الأجناس البشرية يثبت أن ما يوجد من تعصب واستعلاء فى نظرة اليهود إلى غيرهم وفى نظرة كل من البوذيين والمسلمين إلى بعضهم البعض أمر لا أساس له على الإطلاق ذلك أنه كم تتنافى مع العقل تلك الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الميثوديين والمشيخيين وبين المعمرانيين الشماليين والجنوبيين . وتعتبر المؤلفات التالية خير مرجع لمن يريد تتبع تاريخ النظم الدينية عند أى شعب (كتاب الديانة البدائية) للكاتب لوى Lowie ، وكتاب (المدخل إلى العقيدة) وكتاب (طقوس الجماعات البدائية) للكاتب ماريت Marett وكتاب ، (اورفيوس لريناخ Reinach) ، وكتاب الديانة المقارنة لكابنتر Carpenter ، وكتاب تاريخ الدين لمور Moore ، وكتاب ديانة الغرب للارسون Larson .

التاريخ وعلم الآثار

أدى الجانب المتبقى من علم الأجناس البشرية وهو الجانب المعروف بعلم آثار ما قبل التاريخ خدمات عظيمة للتاريخ . ذلك أن هذا العلم كشف لنا عن تاريخ الفترة الطويلةالتى سبقت عهد الإنسان بالكتابة وهى فترة أطول بكثير من عصر التاريخ المدون ، ولها تقريبا نفس الأهمية من حيث التقدم الكبير الذى حققته البشرية وهذا العلم الذى غرست بذوره فى الفترة من عهد طومسون وبوشر دى برثزإلى عهد ديكيلت وما كردى وهو على الأرجح أدق فروع ما قبل التاريخ وأعظمها تأثيرا كما أنه فى الحقيقة يؤدى وظيفة الجسر الذى يربط بين علم الأحياء المتطور والثقافة البشرية حيث إنه يتعقب الدلائل المادية التى تثبت التطور التدريجى للإنسان من مرحلة القرد إلى مرحلة البشرية بخصائصها الطبيعية والثقافية الواضحة . ففى المقام الأول نجد أن علم الآثار القديمة يعطينا برهانا قاطعا على وجود طويل الأمد للحياة والثقافة البشرية قبل نشأة التسجيلات المدونة . ومهما تكن الطبيعة الحقيقية لخلق الإنسان أو أصله فإن علم الآثار القديمة قد بين لنا أن أكثر الحكايات الرمزية والدينية بطولة لا يمكنها حتى أن توفق بين التأريخ المسيحى من ناحية وبين ما يثبت وجود أدوات إنسانية يرجع تاريخها إلى عدة مئات من ألوف السنين من ناحية أخرى . وفى المقام الثانى فقد اتضح من خلال السجل الموجز للجهود الثقافية فى فترة ما قبل الكتابة أن علم الآثار القديمة قد زودنا بعرض رائع للأدوات الثقافية للإنسان والتى استخدمها تقريباً فى نفس الوقت الذى قيل أنه تاريخ خلق آدم . ولم يدخل على هذه الأدوات أى تطور مادى كبير إلا فى أيام الثورة الصناعية ومن ثم فإن العلم الذى يدرس الآثار القديمة لعهد ما قبل الكتابة هو المصدر الأساسى لذلك النوع من المعرفة الذى يجعل علم الأجناس البشرية المدخل إلى التاريخ فالكتب من أمثال تلك التى ألفها كونيلز هارولدبيك Harold Peake عن الحياة اليومية فى عصور ما قبل الكتابة تشكل المقدمة المثالية المقبولة لتاريخ المجتمع والثقافة المادية ، فضلاً عن أنها فى نفس الوقت وكما أوضحنا آنفا تزيل كل ما هنالك من غموض واضطراب حول (فجر التاريخ) .

والحق أن ما أسهم به علماء الآثار فى سبيل الوصول إلى فهم أفضل للعصور التاريخية أمر معروف تماماً . فمنذ قرن مضى كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم لا تتعدى إشارات معينة غامضة وردت فى العهد القديم وفى كتابات بيروسوس وهيرودت ويوسيفوس ، فضلا عن أعمال بعض المؤرخين الأقدمين . أما الآن فلدينا سجل مؤكد تام إلى درجة كبيرة عن حضارة مصر وبلاد

ما بين النهرين وبلاد الأناضول والشام وبحر إيجة وجزيرة كريت . ويرجع الفضل فى الحصول على الجزء الأعظم من هذه المعلومات القيمة إلى الحفريات التى قام بها علماء الآثار . وفى دراسة الحضارة الكريتية والاتروسكانية نجد أن علم الآثار هو مرشدنا الرئيسى حيث إن العلماء لم يتمكنوا من حل رموز تلك اللغات حلا كاملا . وعلى الرغم من أننا نستطيع الاعتماد على المصادر المدونة فى دراساتنا للتاريخ اليونانى والرومانى القديم بدرجة أكبر مما نستطيع ذلك فى حالة تاريخ الشرق القديم . فإن كثيراً من معلوماتنا الدقيقة عن التاريخ الإغريقى قبل هيرودوت وعن التاريخ الرومانى قبل سنة ١٩٠ ق . م يعتمد قليلاً على أعمال علماء الآثار . ومن كبرى الخدمات التى أداها علم الآثار ــ وإن كانت هذه الخدمات يعرفها الكثيرون ــ مؤلف ديكليت عن (آثار بلاد غاليا) إذ بين هذا الكتاب الحضارة الغالية فى تلك البلاد قبل عهد قيصر ، كما أنه أزاح عن بلاد الغال كثيرا من الغموض الذى أحاط بها نتيجة لأعمال أولئك الذين غلبوا مصالحهم الذاتية وكرسوا جهودهم للطعن فى يوليوس قيصر فضلا عن احتقار المؤرخين التيوتون لبلاد الغال . أما الآن فقد أصبح المدخل المقبول لدراسة تاريخ أوربا الغربية هو البحث فى الحضارة الغالية القديمة شمالى جبال الألب . وهى الحضارة التى استمرت من عصر سكان البحيرات إلى أيام كلوفس ملك الفرنجة والتى أسهمت بشكل رائع فى تاريخ الثقافة فى أوربا . كذلك أحدث إيليس هـ . مينز Ellis H. Minns ثورة فى معلوماتنا عن روسيا الجنوبية بكتابة (الشعوب الاسكتية والإغريق) . هذا بالإضافة إلى ما أمدتنا به دراسة الآثار الأمريكية من معلومات هائلة عن ثقافة السكان الأصليين لأمريكا من الهنود وأن كانت هذه المعلومات أقل قيمة من الناحية التاريخية بسبب دخول الثقافات الأوربية عليها وفشل الثقافة الهندية الأصلية فى التطور والامتداد نتيجة لذلك .

نظرة أحدث عن تطور التاريخ

لعل أعظم الفوائد التى جناها علم التاريخ من علمى الأحياء والأجناس البشرية هى تلك النظرة الجديدة للتطور التاريخى ، أى تلك التغيرات التى تجلت فى ظهور اتجاهات جديدة فى نظرتنا إلى ماضى الإنسان ومستقبله .

لقد كان الرأى القاطع الذى تقبله معظم العلماء حول أصل الإنسان حتى الجيل الماضى هو ذلك

الذى وضعه كبير الأساقفة جيمس أوشر فى كتابه « حوليات العهدين القديم والجديد » وهو الكتاب الذى صدر سنة ١٦٥٠ وما لبث هذا الرأى أن نقحه بعده بوقت قصير الأستاذ لا يتفوت Lightfoot ، وكيل جامعة كامبردج وهو الذى ذهب إلى أن ظهور الانسان كان نتيجة عمل خلاق تم فى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . ويعنى هذا أن الإنسان له أصل إلهى مؤكد كما أن ما يحيط به وما سخر له من أدوات كانت هى الأخرى من صنع الله وحكمته على أن النظرة البيولوجية والأنثروبولوجية للتاريخ جاءت على النقيض من ذلك تماماً ، إذ ترتكز وجهة النظر الحديثة على الرأى القائل بوجود حياة طويلة جدا للإنسان على الأرض وأن أسلاف الإنسان من الكائنات الأخرى غير البشرية أكثر قدماً ، كذلك ثبت أن التطور البيولوجى والتقدم الثقافى للإنسان كان تطوراً تدريجياً . وفى تعقبنا لخطوات التطور البشرى والاجتماعى لانصادف جنة دائماً خالية من الحيوانية ومع الاعتراف بوجود حالات من التخلف الأكيد فى الماضى وبصرف النظر عن المشكلة الجدلية الخاصة بتحسن الجنس من الناحية البدنية إلا أنه لا يوجد شك فى إمكان تحقيق التحسن المطلق فى الثقافة والنظم إذ ما تيسر استغلال الامكانيات المتاحة للعقل البشرى استغلالاً كاملاً . وبدلاً من ذلك التخلف الناتج عن الجمود يمكن أن تكون النظرة إلى التاريخ حركية مفعمة بالتفاؤل . هذا على الرغم من أنه يستحيل علينا أن ندافع بنجاح عن وجهة النظر الغائية أى التى تستهدف الغاية . كما يستحيل أن نقول إن كوكبنا لا يمكن فى وقت ما أن يتلاشى من الوجود نتيجة لقدر بسيط من الاضطراب فى نظام الكون أو تغيير طفيف فى نظام الوراثة وحتى وقت يقدر بأربعين أو خمسين الف سنة مضت كان التقدم الثقافى يسير فى خط متواز أو ربما متساو مع التطور البيولوجى ولكن لا توجد هناك أدلة كافية على حدوث أى تحسن بيولوجى وعصبى منذ وقت ظهور النوع الكرومانيونى Cro-magnon type ونتيجة لذلك فإن التطور البشرى صار يعتمد أكثر وأكثر على التقدم فى ميادين الثقافة والفكر ، الأمر الذى أدى بالإنسان إلى الاعتماد بصورة أكيدة على إعداد القوت بدلاً من التقاطه من الطبيعة على أن هذا لا يعنى إنكار قوة الأنواع البشرية الراقية أو فاعلية برامج تحسين النوع إذا ما أخذ بها فعلاً فيما يتعلق بإمكان زيادة سرعة التقدم البشرى بطرق صناعية فليس هناك شك حول قدرتنا على تحسين ثقافتنا المادية من ذلك أن إنجازاتنا منذ الثورة الصناعية مذهلة إلى أقصى حد ولكن المشكلة الكبرى هى كما عبر عنها فيبلن Veblen وأوجبرن Ogburnهى هل يمكننا أن نضمن تحسناً متشابهاً فى تراثنا الاجتماعى وبصفة خاصة فى نواحى النظم أم أن الحضارة سوف تندثر بسبب ذلك التفاوت المميت بين التكنولوجيا ونظمنا الاجتماعية .

ومع ذلك فإن الاتجاه التاريخي يعطينا قاعدة قوية تلهمنا الصبر عندما نحاول أن نجرى تحسينات فى نظمنا الاجتماعية . ذلك أن الوقوف على التفاعل الطويل الممل فى بعض الأحيان والذى أدى بنا إلى الحالة التى نحن عليها الآن يحول بيننا وبين المبالغة فى التشاؤم عندما نلمس كيف نسير فى بطء على طريق الإصلاح والتحسن . فنحن نتحرك فى معظم النواحى بسرعة أكبر من أى وقت مضى حتى ولو لم يكن هناك ما يؤكد أننا نسير فى الاتجاه الصحيح أو بالسرعة الكافية . ولا توجد هناك حضارة استطاعت أن تفتر وتتوقف فى أمان ؛ فالتقدم والاضمحلال هما سنة الطبيعة ولعل مكمن الخطر فى موقفنا الحالى هو ذلك العنصر الذى لم يوجد من قبل والذى يتمثل فى قدرة التكنولوجيا الجديدة على تدمير البشر والثقافة فإذا أمكننا تجنب الحرب حتى نتيح لقدراتنا الذهنية فرصاً أخرى لمعالجة مشاكلنا الحالية المعقدة فقد نتمكن من الارتقاء بنظمنا إلى مستوى الكفاية الذى تتميز به التكنولوجيا الآن .

هذا إلى أن المفهوم الجديد للتاريخ يزودنا كذلك بإحساس سليم لمعالجة مشكلة التقدم وهو أساس أعظم بكثير مما توفر لكتاب مثل فيكو Vico وتيرجو Turgoوكانط ، كوندورسيه Condorcet وهم الكتاب الذين أرسوا فى القرن الثامن عشر قواعد نظرياتنا الحديثة عن التقدم . ذلك أن الأمر لم يقتصر على جهل أولئك الكتاب بعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم الاجتماعية الحديثة ، بل إنهم كانوا يفتقرون كذلك إلى المعرفة بالتطور البطىء الذى حققته الثقافة البشرية فى المليون سنة السابقة على آدم . يضاف إلى ذلك أنهم لم يكونوا قادرين على التنبؤ بالتقدم المذهل فى العلم والتكنولوجيا الذى أخذ يظهر منذ زمانهم وكان أن أعطى علم الأجناس البشرية الحديث وعلم التاريخ — بمؤازرة التقدم الهائل فى العلوم الطبيعية والاجتماعية — الاساس لنظرية تجريبية للتقدم . وذلك على الرغم من أننا نعترف صراحة بأن التقدم فى مجالات معينة من الثقافة كان أكثر وضوحاً عنها فى غيرها هذا بالإضافة إلى أنه من الطبيعى جداً أن تكون كافة معايير التقدم شخصية وذاتية إلى حد ما .

عملية تقويم التاريخ وتقسيمه إلى فترات

يشكل التقويم الزمنى للتاريخ فى حد ذاته جزءاً ممتعاً فى عملية تطور التاريخ . وقد سبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع . ولذا فإنه لا يسعنا سوى أن نمر عليه مروراً عابراً فى هذا الجزء ذلك أن

الاهتمام العام بالتقويم الزمنى للتاريخ ظل ضئيلا حتى عهد الآباء المسيحيين الأوائل ـــ لأنه حتى المؤرخين أنفسهم ـــ لم ينجحوا بصفة عامة فى اكتشاف الماضى وكان القسيس وليس المؤرخ ـــ على حد ما أوضحه الأستاذان ويبستر وشوتويل ـــ هو الذى اكتشف عنصر الزمن وكيفية حساب التواريخ كذلك كانت الكتابة التاريخية فى غالبيتها العظمى حتى العهد المسيحى عبارة عن تاريخ معاصر واذا تعرضت بإشارات إلى الماضى فإنها كانت غالبا إشارات غامضة وغير دقيقة من وجهة النظر التاريخية . وإذا كان مؤرخ اليوم قادراً على وضع تقويم زمنى مقبول لتاريخ الشرق القديم عن طريق الاستعانة بقوائم الملوك وغيرها من سجلات البلاط ، فإن الشعوب نفسها فى تلك العصور لم يكن لديهم أى تقييم زمنى منظم للتاريخ ولم يتوصل المؤرخون الإغريق إلى أكثر من ذلك التقويم الأولى الذى أدخل فى عهد طيماوس حوالى سنة ٢٣٠٠ق . م والذى كان يعتمد على السنوات الأولمبية فى تحديد التواريخ أما المؤرخون الرومان فكانوا أكثر نجاحا فى هذا المجال إذ ابتكروا تقويماً علمياً معقولاً حين أرخوا لحوادثهم على أساس التاريخ المزعوم لإنشاء روما سنة ٧٥٣ ق . م . ولكنه من الواضح أن هذا النظام كان لا يمكن المؤرخ من أن يجول ببصيرته فى ذلك الماضى العميق الذى يبدأ بفجر التاريخ ، هذا على الرغم من أن نيبوس Nepos ابتدع طريقة جداول تأريخية مقارنة .

وعلى الرغم مما يحتويه التقويم الذى وضع على عهد آباء الكنيسة الأول من غرابة وشذوذ إلا أن هذا التقويم له فضل محاولة إيجاد نظام تقييم زمنى يضم كل العصور التاريخية . ومن الثابت أن الافتراض المسيحى القائل بأن خلق الانسان تم فى فترة لا تبعد عن ستة آلاف سنة عن مولد المسيح كان غير كاف بأى حال للتوصل إلى تقويم زمنى شامل ، وكذلك فإن اختيار التاريخ العبرانى أساساً لوضع جداول تأريخية مقارنة قد أعطى مكانة مبالغا فيها لتاريخ اليهود على حساب بقية تاريخ الشرق القديم . ومهما يكن من أمر فإن المؤرخين المسيحيين هم الذين بحثوا بدقة مشكلة تقويم الماضى ، وحتى الآن والجهود تبذل لزيادة تحرى الدقة فى التقويم الذى وضعه جوليوس افريكانوس ، ايزبيوس ، وجيروم . وهذا العمل من جانب الدارسين يأخذ فى بعض الأحيان شكلا أكثر تحديداً كما فى حالة أوشر ولايتفوت وأحيانا أخرى يتخذ شكلاً علمياً يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر كما فى حالة سكاليجر وكليمنت .

وجملة القول أن جميع أنواع التقويم التاريخى حتى وقتنا الحاضر تتصف بعدم الدقة وعدم القدرة على توجيه الباحث توجيها صحيحا . ذلك أن المعايير التى اتخذتها هذه التقاويم أساساً

كانت إلى حد كبير ترتكز عادة على حادث ديني أو قومي خاص مثل ميلاد المسيح أو الهجرة المحمدية أو قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى فى الشرق الأوسط وليس لأى من هذه الأحداث من الموضوعية أو القيمة الثقافية العالمية ما يجعل منه أساساً مناسباً لتقويم التاريخ العالمى ، بل إن عدم كفاية هذه الأحداث من ناحية عنصر الزمن كفيل بأن يزيد الموقف تعقيداً . يضاف إلى ذلك أنها وقائع حديثة نسبياً إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن سنة ٦٠٠٠ ق . م هى أقدم ما افترض من تاريخ للخليقة فى أكثر التقاويم امتداداً وتساهلاً . ويمكن أن يعاد بناء تقويم التقدم البشرى على أساس ما تحقق من معرفة بيولوجية وأنثروبولوجية على النحو التالى : ذلك أن الأساس العام للتقويم التاريخى يقوم غالباً على المعرفة الفلكية ، لأن الفلك هو الأساس الذى يكشف عن الامتداد الهائل للكون وضآلة حجم كوكبنا وقصر عمره نسبياً . وهذه بلا شك أخطر المراحل وأقلها وضوحاً فى تطور البشرية . ثم يلى ذلك مرحلة العصور الجيولوجية فى تطور الأرض ، وهى الفترة السابقة على نشأة الحياة والتى تثبت بالتأكيد أنها أطول بكثير من تلك الفترة التى انقضت منذ بداية ظهور الأحياء الأولية . وبعد ذلك تأتى مرحلة بداية الحياة وأصلها . ولدينا بالنسبة لهذه المرحلة مرشد يتمثل فى سجلات علم الحفريات ، وهى فترة تتناول حقبة زمنية أطول من أن يجرؤ أى جيولوجى على التعبير عن طولها بالنسبة لأنها تزيد عن مليون سنة . وتأتى بعد ذلك مرحلة متأخرة جداً عن ذلك من وجهة النظر الجيولوجية وهى التى تمثل العصر الثلثى الذى خرج فيه الإنسان إلى الوجود وكان ذلك منذ حوالى خمسة ملايين سنة .

ومن الآن فصاعداً نجد تحت أيدينا التقويم الذى اعتمد حفريات عصر ما قبل الكتابة والذى يستند إلى البحوث التى أجراها الباحثون من « طومسون » حتى « تورتيليه » ، « ديكليت » ، « ماكردى » . وينقسم هذا التقويم إلى العصر الحجرى وعصر المعادن . أما العصر الحجرى فينقسم بدوره إلى أقسام ثلاثة هى العصر الأيلوتى ـــ الباليوتى ـــ النيولوتى [القديم ـــ الأوسط ـــ الحديث] ولكل قسم منها فروعه التى يطلق عليها العلماء أسماء معقدة وصعبة . وأما العصر المعدنى فينقسم بدوره إلى عصور النحاس والبرونز والحديد والصلب . وتجرى الآن مراجعة تاريخ العصر الحجرى . وترجع بداية العصر الحجرى القديم إلى أكثر من مليونى سنة ، فى حين ترجع بداية العصر الحجرى الأوسط إلى أكثر من مليون سنة والحديث إلى ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين ألف سنة . أما عصر النحاس فمن المرجح أن يكون قد بدأ فى مصر حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م . وظهر عصر البرونز الحقيقى فى منطقة بحر إيجة حوالى سنة ٢٦٠٠ ، ق ، م ، بدأ

عصر الحديد فى الأناضول حوالى سنة ١٣٥٠ ق . م عند الحيثيين . ويمكن أن يقال إن عصر الحديد يضم الحضارة الغربية ابتداء من القرن الرابع عشر ق . م حتى الثورة الصناعية التى انتجت العصر الحقيقى للصلب بكل متضمناته وأقسامه . ولعل التقسيم الأساسى لتاريخ الجنس البشرى منذ بداية العصر المعدنى هو كما يلى :

١ ــ عصر الرعى والزراعة الذى يتميز أساساً بالعزلة النفسية والثقافية والركود والتكرار وهى الأمور التى تحكمت فى المجتمع حتى مجيىء الثورة الصناعية .

٢ ــ عصر الحركة المعاصرة الذى شهد الرأسمالية والتصنيع وحياة المدن .

ومع ذلك فإنه من السهل جداً ملاحظة أن هذا الملخص المعقول للتقويم الأحدث والأكثر شمولاً ليس إلا موجزاً جزئياً غير تام حيث إنه يرتكز أساساً على الثقافة المادية . ففى مجال هذه الثقافة حدث أكبر تقدم كما أن فيه أيضاً يمكن بسهولة اقتفاء أثر التطورات والتغيرات . وهكذا يتضح أنه بالنسبة لجوانب معينة أخرى من التطور الثقافى يلزم نظام آخر للتقسيم الزمنى . وعلى الرغم من أن النظام الذى عرضناه فيما سبق ربما تضمن عدداً من جوانب التطور الحضارى أكثر من تضمنه أى نظام آخر فإن التقويم المعترف به لا يزال يقوم على أساس الحادث الذى انفرد باختياره كل من ديونيريوس اجزيجوس Dionysius Exigieus ، وبيد Bede . ونعنى بهذا الحادث على وجه التحديد ميلاد المسيح . وإذا كان هذا الاختيار يعنى بالأغراض العملية كأى اختيار آخر ؛ فإن الأسباب الخاصة التى دعت إلى استخدامه ــ كما تراءت لكتاب العصور الوسطى ــ لا تبدو معقولة أو وجيهة على الإطلاق بالنسبة لمعظم المؤرخين التقدميين . أما التاريخ الذى يبدو أكثر صلاحية ليكون أساساً للتقويم فهو على الأرجح سنة ٤٢٣٦ ق . م أى التاريخ الذى اتخذ فيه قدماء المصريين التقويم الشمسى أساساً لحساب الزمن . وهذا هو أقدم تاريخ مؤكد ثابت فى تاريخ البشرية . ولا يمكننا أن نتوقع وجود تواريخ محددة سابقة عليه. وكل الذى نصادفه لا يتعدى فترات أو عصوراً وحقباً .

وينبغى أن يكون واضحاً لكل فكر أن هذه المفاهيم الجديدة الخاصة بالتقويم الزمنى كان له تأثير ثورى على الجهود التقليدية فى مجال تقسيم التاريخ إلى فترات . ذلك أن طريقتنا الحالية لتقسيم التاريخ إلى عصور وفترات نشأت بشكل عشوائى وبالتالى فليس هناك أساس معين لنجاحها أو استمرارها . ولم يكن عند الآباء المسيحيين سوى فترتين هامتين فى التطوع البشرى .

١ - العصر الوثنى الذى انقضى منذ آدم حتى ميلاد المسيح والذى لا يخفف من وزره سوى وجود الثقافة اليهودية ذات التوجيه الإلهى .

٢ - العصر المجيد الذى لاح فجره بميلاد المسيح .

وكان أن استمر الأخذ بهذا التقسيم طوال العصور الوسطى وذلك بفضل ما فعله « اورزيوس » من أجل تثبيت التراث الثقافى الأوربى إذ ظل مؤلفه حول التاريخ العالمى هو الكتاب المقبول حتى وقت ظهور « سابيلكوس » فى عصر الحركة الإنسانية . ونلحظ فى كتابات« أوتو » المنسوبة إلى « فريزنج » الجمع بين نظرة « أورزيوس » والإدراك الضئيل لمغزى الفترة التى وصلت بين « أوتو » والعصر الأوغسطينى . أما فيلافيوس بلوندوس « فربما كان أول من نظر إلى العصور الوسطى على أنها فترة متميزة إلى حد ما ، فترة اتصفت بقيام الدول الجديدة فى شمال غرب أوربا فى أعقاب اضمحلال قوة روما .

وهناك أيضاً جنا بودين Jean Bodin الذى قسم التاريخ البشرى إلى التاريخ الشرقى وتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتاريخ أوربا الشمالية . ويبدو أن التقسيم الحالى الثلاثى التقليدى الذى يقسم التاريخ إلى قديم ومتوسط وحديث إنما يعزى إلى تأثير كاتب هولندى من أتباع المدرسة الإنسانية هو كريستون كيلر » (كيلاريوس) .

ويبدو ما فى هذا التقسيم من نقص أمام كل مؤرخ عميق التفكير ، فهو فى المقام الأول يتجاهل اكثر من تسعة أعشار فترة الوجود البشرى على الأرض . وفى المقام الثانى فإنه لا يوجد توافق زمنى عام بين مختلف ثقافات شعوب الأرض مما يسمح بمثل هذا التقسيم المحدد للتاريخ العالمى ، فأية مقارنة بين حالة الثقافة فى كل من مصر وبلاد ما بين النهرين الهند والصين وبريطانيا وكاليفورنيا فى سنة ٤٠٠٠ ق.م سوف تظهر التنوع الهائل فى الثقافة التى تنطوى تحت قسم زمنى واحد . وكذلك تظهر نفس الحقيقة عند مقارنة حضارة اكس لا شابل بحضارة القسطنطينية سنة ٨٠٠ ميلادية ، أو عند مقارنة حضارة كل من انجلترا وروسيا والصين سنة ١٨٢٥ ميلادية . وفى المقام الثالث نجد أن مثل هذا التقسيم ليس كافياً حتى بالنسبة لتاريخ دولة واحدة كما يتضح ذلك من مقارنة ثقافة ألمانيا سنة ٥٠٠ ميلادية بثقافة بلاط الإمبراطور فيردريك الثانى . وكلا منهما تقع فى الفترة المسماة بالعصور الوسطى .

وإذا كنا سنختار الاحتفاظ بهذه الاصطلاحات والتقسيمات القديمة ، فإن علينا أن نوسع مجالها بحيث تغطي فترات أطول . فمن الأمور المنطقية بوجه عام القول بأن التاريخ القديم يتضمن الفترة من وقت ظهور الإنسان حتى نهاية العصر الحجرى الأوسط ، ويضم تاريخ العصور الوسطى فترة العصر الحجرى الحديث ، فى حين يضم التاريخ الحديث الفترة من عصر المعادن حتى الثورة الصناعية . أما التاريخ المعاصر فيشمل الفترة ما بين الثورة الصناعية ووقتنا الحاضر . ولكن المشكلة تكمن فى ما إذا كنا بحاجة على الإطلاق للاحتفاظ بهذا النظام العتيق لتنمية العصور . يضاف إلى ذلك أن أى تقسيم علمى للتاريخ فى المستقبل لابد وأن يكون متعدد الجوانب ، له حدوده المتميزة الفاصلة وخصائصه الواضحة . ففى بعض مراحل الثقافة مثل التكنولوجيا والنظم الاقتصادية تبدو أنماط معينة للتجمع والتقدم ولكن يبدو أن الدين والفن لا يخضعان لهذه القاعدة ولذا فإنه سوف يكون هناك دائماً تفاوت كبير بين ثقافات دول العالم المختلفة . وهكذا فإن تقسيم التاريخ فى المستقبل لابد وأن يقتصر على نمط معين من التطور الثقافى فى دولة معينة أو حقبة ثقافية محددة .[1] وقد يترتب على ذلك ارتباك فى ناحية التعليم ، ولكنه نظام أدعى إلى دقة تاريخية أكبر وتمييز أعظم . ويبدو اقتراح « لامبرخت » على قدر كبير من الوجاهة ، وهو الاقتدام الذى يقضى بنبذ الطرق القديمة لتقسيم التاريخ إلى فترات . ويدعو إلى الأخذ بطريقة جديدة تقوم على تتابع أنماط سائدة من السيكلوجية الجماعية . وهذا الاقتراح جدير بأن يزكى لدى المؤرخ سواء قبل أم لم يقبل رأى « لامبرخت » الخاص بالتقسيم الاجتماعى السيكلوجى للتاريخ . وأخيراً فإن مفهوم استمرار التاريخ يمثل تحدياً ظاهراً لأية خطة تستهدف تقسيم التاريخ إلى فترات محددة .

العوامل الجغرافية فى التطور التاريخى

ذكر الفيلسوف الألمانى « هردر Herder» أن التاريخ البشرى ليس فى أساسه سوى التعبير المتغير للفكر البشرى" Geist "كما حورته وعدلت منه الظروف الخارجية المحيطة . وأهم هذه الظروف الخارجية هى البيئة الطبيعية . ذلك أن المؤرخين تأثروا كثيرا بـ « هيجل » وبحماسته

(١) انظر كتاب الفنون والحضارة لمؤلفه ليون مانفرد Lewin Mumford (طبعة هاركويت براس ١٩٣٤) .

للمطلق والدولة ، كما تأثروا بـ « كارليل Carlzle » ورأيه القائل بأن عظماء الرجال هم مبعوثو العناية الإلهية . لذلك نجد التاريخ فى القرن التاسع عشر قد سيطرت عليه إلى حد بعيد ظاهرة التمسك بالمفاهيم الدستورية والقومية والتأثر بذكر أحداث البشر وقصصهم ، ولذلك لم يشعر بأهمية « كارل ريتر » سوى قلة قليلة ، كما لقى « باكل Buckle » كل استهزاء ، ولم يعبأ أحد بـ « راتزل Ratzel » . بل إنه حتى فى أيامنا هذه كشف مؤرخ أمريكى النقاب عن انتقال المؤثرات الفكرية عبر القارة الأمريكية بصرف النظر عن المصالح الاقتصادية أو الفواصل الجغرافية[1] . وهكذا أصبح المؤرخون تدريجياً أكثر إدارة للحقيقة الخاصة بأن تصرفات الإنسان لا يمكن أن تفهم فهماً كاملاً أو توصف وصفاً دقيقاً إذا ما فصلت عن إطارها الطبيعى . ولدينا بعض الأمثلة الواضحة لازدياد تقدير المؤرخين لمغزى وأهمية المعلومات الهائلة التى وضعها تحت تصرفهم الباحثون فى الجغرافية الطبيعية والجغرافيا البشرية .

والواقع أن الاهتمام بعلاقة العوامل الجغرافية بالنظم الاجتماعية والثقافة البشرية أمر قديم قدم التاريخ ذاته « فأبوقراط » أبو الطب — كان معاصراً « لهيردوت » و« ثيكوديدس » — كان أول من كتب عن هذا الموضوع ولو بشكل عارض عندما كان بصدد توضيح أثر المناخ وبعض العوامل الطبيعية الأخرى على أنواع الأمراض ومسبباتها ، كذلك فإنه توصل إلى اكتشاف الأسباب التى جعلت الإغريق — وهم سكان منطقة المناخ المتوسط أو المعتدل — أرقى من الضعفاء فى الجنوب أو الشعوب الهمجية فى الشمال . وقد أعرب « أرسطو » عن اقتناعه بهذا التفسير كما عزا « شيشرون » عظمة الرومان وتفوقهم إلى نفس هذا السبب . وفى العصور الوسطى بعث « اكويناس » « مفاهيم » « أرسطو » وبعد ذلك أشار إليها « ابن خلدون » (١٣٣٢ — ١٤٠٦) فى كتاباته . وجاءت إشاراته أكثر وضوحاً بفضل معرفة المسلمين بعلم الجغرافيا . كذلك أوضح « بودان Bodin » كيف اتفقت الجغرافيا مع قدرة الله لتجعل من الفرنسيين أمة عظيمة ووضع بعض الاقتراحات التى تحدد كيف يستفيد الساسة من دراسة الجغرافيا فى تجنب قيام الثورات أما « ريتشارد ميد Mead » و« حنا اربثنوت John Arbuthnot » وهما طبيبان إنجليزيان عاشا فى النصف الأول من القرن السادس عشر — قد استغلا الاكتشافات الجديدة فى علوم الطبيعة

(١) ارجع إلى E.D. Adans : The power of Ideals in American History ويعتبر الفيلسوف الإيطالى بـ . كروش هو أحد أتباع هيجل من ناحية رأيه فى التاريخ .

والأرصاد الجوية وفى وضع تفسيرات ممتعة وإن لم تكن مقنعة فيما يتعلق بتأثير المناخ والطقس على الإنسان .

وظهرت بعد ذلك جهود « مونتسكيه » العظيمة فى بناء فلسفة للتاريخ وعلم القانون على أسس جغرافية . وارتكزت هنا الجهود على نظريات «أربيثنوت» والمادة الوصفية التى احتواها كتاب الرحلات « تشاردن Cherdin » وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر أسس « كارل ريتار » علم الجغرافيا البشرية بمعناه الحديث وكانت القاعدة التى ارتكز عليها هى المعلومات السليمة التى تجمعت نتيجة للجهود التى بذلها مكتشفون أمثال « ألكسندر فون همبولدت Alexan-der von Humboldt » والتى كانت باعثاً على اهتمام من جاءوا بعده وأخذوا بمذهبه أمثال « بيشل Peschel » و« جيوت Guyot » « وبصفة خاصة » « فردريك راتزل » و« اليزيه ريكلو Elisee Reclus » وبالإضافة إلى العمل النظامى الذى قام به كل من « راتزل » « ريكلوس » وكتاب لاحقون أمثال « ريتشو فن Ri chthofen برونيه Brunhes » ، فالوا Vallaux » ، فيدال دى لابلاش Vidal dela Blache » « سمبل Semple » « هنتجتون Huntington » فإنه كانت هناك إلمامات هامة فى نواح معينة من الموضوع أتى بها كل من « ديمولنز » ، كوان ، ميتشنكوف Metchinekoff » ، مباكندر ، « لى بلاى Le play » « جيدز Geddes » ، « هاهنHahn » ، هنتجتون ، وارد ، دكتسر » ، « هلباخ Hellpach » وغيرهم .

ويبدو تأثير هذه الأعمال على عرض التاريخ وتفسيره أمراً غاية فى الوضوح ، إذ عالج علماء الجغرافيا البشرية المذكورون آنفاً كل عوامل البيئة التى تؤثر على المجتمع ، وأمدونا بصورة دقيقة للعلاقة بين الإنسان والطبيعة ، ومن هؤلاء « ديمولنز » « وكوان » اللذان أكدا أهمية الطوبوغرافيا والطرق التى يسلكها المسافرون والمواقع الطبيعية التى تعترض الغزاة وتجعل الاتصال صعباً وشاقاً . أما « لى بلاى » و« جيدز » فقد حددا حوض النهر بوصفه أساساً للإقليم الجغرافى الطبيعى فى المجتمع الصناعى الحديث . كما أوضح « فاكندر » أهمية الموقع الجغرافى الاستراتيجى فى تاريخ التوسع القومى والعلاقات الدولية . وبالمثل فقد زودنا كل من « هان » ، ودارد بأبحاث تمس كل جوانب تأثيرات المناخ على الإنسان . أما ألزوارث هنتنجتون فأضاف إلى ذلك كله فرضاً جزئياً أصيلاً حول التذبذب المناخى الذى قد يكون مسئولاً عن كثير من موجات هجرة الشعوب واضمحلال الثقافات عبر التاريخ . وأما هلباخ ، و« ونكستر » و« هنتنجتون » و« ليفنجول Leffingwell» فقد بدأو البحث الخاص بتأثير الطقس والتغييرات الفصلية على

الطاقة البشرية والنشاط البشرى . وفى كتابه « الأرض والشمس » أتى « بهنجتنتون » بنظرية تأثير الشمس والمناخ والطقس على مجرى الحضارة .

وبالإضافة إلى هذه الأعمال التى تناولت التأثيرات الجغرافية العامة على مجرى الحضارة ظهر عدد من الجغرافيين الذين كرسوا أنفسهم لدراسة العلاقة المحددة بين عوامل البيئة والتاريخ من ذلك أن « ريكلو » و« فيرجريف Fairgrieve» أوضحا العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ العالمى وهو العمل الذى قام به مؤخراً جداً وبشكل أكثر شمولاً « برونز وقالوا » ، « لوسين فبفر Lucien Febvre . كذلك حلل « ليون ميتشنكوف » أهمية وضع وادى النهر بالنسبة للحضارات الشرقية المبكرة . أما فيليبون Philippon » فقد قام بدراسة تاريخية عظيمة لتأثير العوامل الجغرافية لحوض البحر المتوسط على التاريخ الشرقى والكلاسيكى . وتبعه فى نفس هذا الاتجاه كل من « سمبل » ، « نيو بيجنNewbigin» .

وقد حلل الأخير بالتفصيل العلاقة بين جغرافية البلقان وتاريخها . وهناك أيضاً « نيسين Nissen الذى زودنا بدراسة دقيقة لجغرافية إيطاليا . هذا إلى أن «فيدال دى لابلاش » ، و« برونز » وضعا دراسة جغرافية لبريطانيا بينما وضع كل من « ريتنهوفن » ، « بارتش Partsch » ، بنك Penck » ، جوتز Goetz مؤلفات هامة عن الجغرافيا التاريخية لأوربا الوسطى . وبالمثل عالج كروبتكن Kropotkin وآخرون العوامل الجغرافية التى يتضمنها تاريخ أوربا السلافية . وفى أمريكا بُحث تأثير العناصر الجغرافية على التاريخ الأمريكى فى دراسات قام بها « سمبل » « بريجهام Brigham » ، « ج . راسل سميث J. Russel Smith » . ولابد أن نشير كذلك إلى ما أسهم به الجغرافيون الاقتصاديون أمثال « شيزهولم Chisholm » ، وماكفارلين Mac Farlane » ، وجوتز ، ج. راسل شميث ، فى دراسة التاريخ الاقتصادى .

وسار المؤرخون على نفس نهج الجغرافيين فى الاهتمام بالتأثيرات الجغرافية التى حددت صورة التطور فى مناطق لها خصائصها التاريخية المميزة أو فى دول قومية معينة . ومن ذلك أن هـ.ب. جورج ، ج.ك. رايتWright بذلا جهداً طيباً لبيان التأثير العام للجغرافيا على التاريخ وبصفة خاصة التاريخ العسكرى والسياسى . وقدم ج . ل . مايرز G.L. Myres عرضاً ممتعاً للأساس الجغرافى لقيام الحضارات التاريخية المبكرة . كذلك قام مؤرخو الحضارات الشرقية القديمة بدراسة دقيقة لبيئة وديان الأنهار التى شهدت نشأة هذه الحضارات بحيث أصبحت أودية أنهار النيل ودجلة

والفرات نماذج قديمة لأثر البيئة الجغرافية . وبالمثل فقد أوضح « كورتيوس » ، و « زيمرن Zimmern » بالتفصيل العلاقة بين جغرافية شبه الجزيرة اليونانية ونشأة الحضارة الإغريقية وطبيعتها أما دورى Duruy فقد أمدنا منذ نصف قرن مضى بعرض لجغرافية إيطاليا وعلاقتها بالتاريخ الرومانى . وبالمثل أوضح « هارناك Harnack » العوامل الجغرافية التى أثرت على انتشار المسيحية كما أمدنا « بيزلى Beazley » بدراسة قيمة تدور حول الأساس الذى قامت عليه الجغرافيا التاريخية للعصور الوسطى . وهناك أيضاً ميشليه ، جوليان Gullian اللذان وصفا بشكل كامل الأسس الجغرافية للتاريخ الفرنسى فى حين قدم « جرين Green » أعظم عرض لتأثير المعالم الطبيعية لبريطانيا على التاريخ الإنجليزى ، وأوضح « لوكاس Lucas » كيف أن العوامل الجغرافية أثرت على طبيعة وسير حركة التوسع الامبرالية الإنجليزية . وكذلك أوضح « ريهل Riehl » العلاقة بين جغرافية الوطن الجرمانى وتطور المجتمع الجرمانى وثقافته . كما أوضح « سبيل هاوس Spilhaus » الأصول الجغرافية للتوسع الأوربى واضطراد حركة الاستعمار . وفيما يتعلق بالولايات المتحدة وصف « باين Payne » العلاقة بين المعالم الطبيعية وفترة الاكتشافات والاستيطان كما أوضح « وندسور Windsor » الأهمية التاريخية لحوض نهر الميسسبى . وفى نفس الوقت أمدنا « هالبرت Hulbert » بتفاصيل وصفية عن المسالك التى استغلت فى غزو القارة . ثم جاء « فردريك جاكسون تيرنر » وتلاميذه الذين أوضحوا بتفاصيل مقنعة العلاقة بين الأقاليم الجغرافية للولايات المتحدة وبين تاريخها القومى والإقليمى . وأخيراً فإن هناك العلامة الألمانى « هلمولت Helmolt » الذى أصدر تاريخاً عالميا ممتازاً بناه على تقبل معتدل لآراء « راتزل » الخاصة بالعلاقة بين الجغرافيا والتاريخ .

وعلى الرغم من وجود مثل هذه البداية المبشرة على طريق إقرار أهمية البيئة الطبيعية بالنسبة للتطور التاريخى لكل شعب فإن معظم المؤرخين التقليديين لم يعنوا عناية كافية بالعوامل الجغرافية . والحق أننا نشك فيما إذا كان الكثير من المؤرخين يشعرون بوجودها أو بقوة تأثيرها . وحتى هؤلاء الذين أعطوا الموضوع شيئاً من الاهتمام ؛ قلما أدركوا أن الخريطة الطوبوغرافية والاقتصادية — وليست الخريطة السياسية — هى التى تساعد على كشف تأثير العوامل الجغرافية على التطور التاريخى . وإذا ألقينا نظرة على معظم المؤلفات التاريخية الحديثة فإننا نجد عشرين خريطة سياسة مقابل خريطة طوبوغرافية واحدة . فالجغرافيا التاريخية لازالت بالنسبة لمدرس التاريخ العادى شيئاً لا يزيد على كونه تلويناً للسياسات التى تعرضت وفق ترتيب زمنى . وتبرز بصفة أساسية التغييرات التى تطرأ على الحدود السياسية .

وإلى جانب الاهتمام السائد بالأحداث فإنه من المحتمل أن يكون السبب الرئيسي لهذه اللامبالاة بالجغرافيا ، إن لم يكن شعور النفور منها من قبل المؤرخين هو ذلك الانطباع الخاطىء بأن الاهتمام بالجغرافيا إنما يتضمن قبولاً للعقيدة المادية الخاصة بالحتمية الجغرافية . ولكن لا ينبغي أن تعالج المشكلة على هذا النحو ، إذ إن المسألة مسألة الإنسان والطبيعة كما يتطوران معاً أو على حد قول راتزل فإن : « كل مشكلة جغرافية يجب أن تدرس تاريخياً كما أن كل مشكلة تاريخية يجب أن تدرس جغرافياً ثم إن التأثيرات الجغرافية المتنوعة تبرز وتعمل بشكل مختلف فى كل فترة من الفترات المتعاقبة للتطور التكنولوجي . يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك أساس للاعتقاد بوجود حتمية جغرافية مطلقة ، كما أوضح الناقدون من علماء الأجناس البشرية الذين ينتمون لمدرسة « بوس » . ولا يمكن أن نصل إلى تعميم أبعد من قولنا بأن تصميمات الأزياء عند سكان الكنغو لا يمكن أن تناسب سكان المنطقة القطبية الشمالية . كذلك توجد ثقافات مختلفة اختلافاً كبيراً فى بيئات متماثلة إلى حد بعيد ، كما أن هناك حضارات قوية الشبه ببعضها مع أنها توجد فى بيئات طبيعية متباينة . ويبدو أن الثقافة هى العنصر الديناميكى أو الحركى فى التاريخ ، أى العنصر الذى يتفاعل مع عوامل أخرى كثيرة أقواها البيئة والموارد الطبيعية المحيطة .

وإذا كانت الاعتبارات الجغرافية لها اهميتها فى كل أوجه التاريخ فإنها تبدو أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ الاجتماعي المتصف بالحركة والتغير . فالثقافة المادية وما يصاحبها من نظم اجتماعية هى فيما يبدو وليدة تطبيق تكنولوجيا معينة على الموارد الطبيعية ولا غنى أبداً عن كل من التكنولوجيا والموارد الطبيعية لازدهار الاقتصاد . فإيطاليا الحديثة مثال طيب لدولة متخلفة نسبياً من الناحية الاقتصادية على رغم من وجود فنيين ممتازين بين أبنائها . ويرجع هذا التخلف إلى افتقارها إلى الموارد المعدنية اللازمة لنمو وتطوير صناعات الحديد والصلب والعكس صحيح فى حالة روسيا قبل سنة ١٩١٧ (أو قبل ١٩٢٨) حيث كان السبب فى التخلف الصناعى هو الافتقار إلى تكنولوجيا حديثة يمكن بها استغلال الموارد المعدنية غير العادية منها . ولدينا كذلك مثال واضح لتغير التأثيرات الجغرافية بفعل التطور العلمي والتكنولوجي وهو تأثير البحر المتوسط والمحيط الأطلسي اللذين كانا فى يوم من الأيام من أخطر العقبات فى سبيل السفر والترحال . ومن أكبر أسباب الانعزال الثقافى ، إذ أصبحا منذ اختراع فن الملاحة ــ أولاً بوساطة السفن العادية ثم بعد ذلك بالسفن التجارية ــ من أكبر البواعث المشجعة على نمو الحضارة ونشاطها وذلك اعتباراً من بداية الألف الثالثة قبل الميلاد حتى يومنا هذا . وبالمثل فإن مواقع القوى المائية التى كانت ذات

يوم عديمة الفائدة بسبب بعدها أو تعذر الوصول إليها يمكن أن تستغل الآن فى توليد ونقل الطاقة الكهربائية .

ومن أروع وأحدث أمثلة التقارب المتزايد بين التاريخ والجغرافيا ذلك الاهتمام بالجغرافية الإقليمية والتاريخ الإقليمى ذلك أن الجغرافيين الفرنسيين ساروا على نفس نهج « فيدال دى لابلاش » وفعلوا الكثير من أجل الارتقاء بالدراسة المتعمقة للمناطق الجغرافية الطبيعية التى تمثل الأساس المنطقى والمثالى لنمو الوحدة الثقافية والاجتماعية . وكان أن لقى هذا المفهوم قبولاً واستحساناً من قبل تلاميذ « لى بلاى » فى فرنسا و « باتريك جيديز » فى اسكتلندا إذ اعتبر أساساً لنظرية خاصة بالإصلاح الاجتماعى . وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين الأوربيين أمثال « لامبرخت » ، « شمولر Schmoller » ، قاموا بتحليل العلاقة بين مناطق جغرافية معينة وبين الحياة الاقتصادية فيها ، فإن العالم الذى أسس هذا الفرع من الدراسة العلمية وخطا فيه خطوات بعيدة هو الأستاذ « فردريك جاكسون ترنر » الذى كان مفتاح تفسيره للتاريخ الأمريكى نظرية مؤداها أن هذا التاريخ كان أساساً عملية توسع فى اتجاه الغرب وإنشاء مجتمع رائد من ساحل الأطلسى إلى المحيط الهادى . وأوضح « ترنر » كيف أن هذه الحركة العامة تنوعت مظاهرها وتعددت فى الأقاليم الجغرافية الكثيرة التى تم اجتيازها . وإذا كان تطور الولايات المتحدة يعتبر مسألة توسع فى المساحة والقوة فهو من ناحية أخرى يتميز بالتنوع الاجتماعى والاقتصادى والثقافى والسياسى ، وهو التنوع الذى يرجع بصفة أساسية إلى الاختلاف فى الوضع الجغرافى والموارد . وكان هذا التنوع الإقليمى مصدراً من مصادر القوة لأنه ساعد على خلق تعاون وثيق ، ولكنه مع ذلك كان سبباً فى خلق كثير من الصعاب بالنسبة لمسألة الحفاظ على الوحدة السياسية والولاء للسلطة الحاكمة . ويمكن التنبؤ بأن المؤرخين فى المستقبل سوف يحولون اهتمامهم من التركيز المطلق على الوحدات المصطنعة فى الولايات إلى التركيز على محاولة تتبع تاريخ الأقاليم الجغرافية وإنجازاتها الاجتماعية والثقافية والتفاعل بينها . وقد يحدث فى المستقبل أن يتمشى تقسيم الوحدات السياسية على الوضع الجغرافى الملائم بدلاً من تركه على هذه الصورة تحدده اعتبارات الاعتزاز القومى ومطامع الأسر الحاكمة .

وأخيراً ولكى ننتقل من الوحدة الجغرافية الأساسية فى الإقليم الطبيعى إلى الطرف الآخر الذى يمثل الاتجاه العالمى ينبغى أن نذكر أنه منذ عهد التوسع الأوربى فيما وراء البحار ــ اعتباراً من سنة ١٥٠٠ م فصاعداً وعلى الأخص منذ سنة ١٨٧٠ أصبحت جغرافية العالم مادة ذات أهمية

كبيرة ومتزايدة بالنسبة للمؤرخ . ولا يوجد هناك من يستطيع أو يأمل أن يكتب كتابة ممتازة عن التوسع الأوربي ما لم يكن على دراية تامة بمعالم وموارد المناطق التي تم اكتشافها واستعمارها واستغلالها ، وإلى حد ما يمكن القول بأن هذا الاهتمام بجغرافية العالم قد ساعد على توسيع مجال التاريخ ، بالضبط مثلما ساعدت علوم الجيولوجيا والأحياء والأجناس البشرية على توسيع نطاقه الزمنى .

تفسير التاريخ

سبق أن أوضحنا أنه تجمعت قرب نهاية القرن التاسع عشر مجموعات كبيرة من مادة المصادر التاريخية التي تم تنسيقها والربط بينها ، كما تم الوصول بمناهج البحث التاريخى وطرق علاج المعلومات التاريخية إلى مرحلة الكمال . كذلك سبق أن أوضحنا كيف تمت هذه التطورات وإن كنا نلمس في معظم الحالات أن جهود المؤرخين اقتصرت على جمع الحقائق التاريخية . وهكذا فإن دارس التاريخ وجد نفسه في موقف لا يختلف عن موقف الكيميائى أو أخصائى علم الفيزياء أو الأحياء إذا مازود بعدد هائل من المذكرات المرتبة المنمقة التي تحوى عدداً ضخماً من التجارب والملاحظات ولكنها لا تتضمن مع ذلك أية محاولة حقيقية لتفسير مغزى هذه المادة الكبيرة أو استنباط قوانين علمية يمكن أن تكون لها صفة التعميم والحق إن إصرار معظم المؤرخين على مقاومة أى خروج عن الخط الرئيسى الذى اختاروه لأنفسهم ـــ وهو الكشف عن الحقائق وسرد الحوادث المتعاقبة ـــ كان له ما يبرره منذ قرن مضى عندما كانت ماثلة في أذهانهم ذكرى تلك المحاولات المفتعلة من جانب الفلاسفة لاستغلال حقائق التاريخ في دعم آرائهم الغريبة حول التطور التاريخى هذا بالإضافة إلى أن الحقائق التاريخية التي يمكن أن يبنى عليها أى تفسير سليم لم يكن قد تم جمعها على الوجه الأكمل .

ومع ذلك فإننا نجانب الصواب لو اعتبرنا أن جمع الحقائق بهذه الصورة يمثل نهاية عمل المؤرخ . بالضبط مثلما يبتعد عالم العلوم التجريبية عن الصواب إذا ما اعتبر أن عمله ينتهى عند حد وضع مذكراته في جداول . ذلك أن التفسير الدقيق المضنى لمادة التاريخ ـــ وهو عمل علمى لا ينفصل عن مهمة المؤرخ ـــ يمثل في الحقيقة التطبيق السليم للمنهج العلمى في التاريخ ويعطى

بعض المعنى والأهمية لذلك الحشد الهائل من الحقائق المتجمعة . ولقد عبر الأستاذ « جيمس هارفى روبنسون » ، « ا.ف. بولارد » عن هذه الحقيقة فى العبارة الآتية : « حتى يصبح التاريخ شيئاً علمياً كان لابد وأن يكون فى أول أمره شيئاً تاريخياً » . وإنه لأمر غريب حقاً أن ما نعتبره اليوم اهتماماً تاريخياً أيضاً كان بعيداً عن أذهان المؤرخين قبل القرن التاسع عشر عندما كانوا يسردون أحداث الماضى بالطريقة التى اعتقدوا أنها ترضى لقارىء . وكانوا يعلقون على هذه الأحداث بهدف تعليم القراء . كذلك فإنهم لم يبذلوا كل ما فى وسعهم لكى يكتشفوا حقيقة الأمور فى الماضى . هكذا وإلى هذا الحد . كانوا علميين ولو أن دوافعهم كانت فى المقام الأول أدبية أو أخلاقية أو دينية . هذا إلى أنهم لم يحاولوا بصفة عامة أن يحددوا كيف برزت الأمور إلى الوجود . ولذلك فإن التاريخ ظل لفترة ألفين أو ثلاثة آلاف سنة مجرد سجل لأحداث الماضى . ولا يزال هذا التعريف للتاريخ يرضى البسطاء ، ولكن وصف ما حدث شىء ، ومحاولة تحديد كيف حدث شىء آخر .

« وإننى وأنا أجهر بهذا الرأى أخاطر لأننى سوف اتعرض لسخرية أدعياء العلم ، أقول إن الحقائق من وجهة نظرى ليست إلا اعتبارا ثانوياً ولاينبغى أن تستخدم إلا كأمثلة . وقد لا أكون موفقا فى اختيار العبارة التى قد تثير على الأقل شيئاً من الضحك البرىء . حقيقة إن الحقائق لابد وأن تكون صحيحة ولكن مغزى الحقائق التاريخية أعظم بكثير من الحقائق ذاتها . والذى يعنينى الآن هو مغزى الحقائق فعندما ننفذ من قشور الحقيقة التاريخية نستطيع أن نصل إلى لبها . والحقيقة فى حد ذاتها قد تكون قليلة القيمة إذا لم تحمل فى طياتها معنى ما . وهناك بالتأكيد مغزى وراء كل الحقائق وواجبنا هو اكتشاف هذا المغزى . ومع ذلك فإن اكتشاف مغزى الحقائق هو بصفة عامة آخر ما يهدف إليه مؤلفو الكتب الدراسية حيث تذكر الحقائق كما لو كان ذكرها أكثر أهمية من فهمها ، وكما لو كان غرض التعليم هو جعل العقل الناضج مخزناً للحقائق بدلاً من جعله أداة عالية الكفاءة وتدريبه على أداء واجبات الحياة واكتشاف معالم الحقيقة » .

وكما أوضح كل من « كومت » والأستاذ « شوتويل » فإن الأنماط السائدة فى تفسير التاريخ خلال العصور المتعاقبة قد عكست فى صدق الاهتمامات الفكرية الغالبة فى تلك العصور المتعاقبة . فالملاحم التى تناولت قوى الطبيعة الخارقة والتى سادت فى الشرق القديم ، حلت محلها التفسيرات الأسطورية والفلسفية التى وضعها مفكرو العصور الكلاسيكية القديمة . وما أن انتشرت المسيحية حتى استبدلت هذه الأساطير الكلاسيكية بمفهوم ثنائية العالم (الدنيا والآخرة) كما ظهرت فكرة الآخرة والوجود الإلهى المشتقة إلى حد ما من الفكر الفارسى والتى سيطرت على عملية تفسير

التاريخ منذ « أوغسطين » حتى عهد « بوسويه » . وبالمثل فقد صحبت حركة التوسع الأوربي هزة هائلة تعرض لها الوضع الفكرى القديم مما ترتب عليه نشأة المدرسة العقلانية الناقدة على يد « بيكون » ، « وديكارت » ، « وفولتير » « وهيوم » « وجبيون » . وبسبب سبق هذه المدرسة للجو الفكرى العام لعصرها فإنها تحولت إلى ثنائية « كانط » ومثالية « هيردر » ، « فيخته » ، « وشليجل » ، « شلينج » ، « وهيجل » ، وقد لاحظنا فيما سبق أثر جميع هذه التغيرات على الكتابة التاريخية . هذا إلى أن نمو القومية فى أعقاب الثورة الفرنسية ساعدت على إعطاء أولوية مؤقتة لتفسير التاريخ تفسيراً سياسياً وإن كانت التحولات العظيمة التى شكلت الثورتين العلمية والصناعية قد حكمت بالفناء على مثل هذه النظرة السطحية . فعمق المعرفة الحديثة وكذا الاهتمامات الفكرية أدت إلى عدد من التفسيرات للتطور التاريخى يمثل معظمها النمو الهائل لبعض الاتجاهات البارزة فى المائة سنة الماضية .

وبنمو العلوم الطبيعية الحديثة وازدياد الاتجاه الناقد فى تناول المعرفة قل الجهد المبذول لوضع وصياغة نظام فلسفى لتنسيق التطور التاريخى وعرضه وهو الجهد الذى اشترك فيه كل من « أوغسطين » و« أوتو » المنسوب إلى « فريزنج » ، « بوسويه » و« هيجل » . ويبدو أن التشكك فى أية فلسفة شكلية للتاريخ كان أمراً مصاحباً لتزايد معلوماتنا عن التعقيد المتناهى للظواهر الاجتماعية والتاريخية . وهذه الجهود العظيمة التى استهدفت وضع التاريخ فى إطار بسيط كهذا إنما يشتم منها المنهج القائم على الإلهام والمعرفة السابقة على التجريب وهو المنهج المرفوض تماماً الآن .

وكان أن حل محل المذهب القديم لفلسفة التاريخ مايمكن أن يسمى « تفسيرات الحقائق التاريخية » . وهذه التفسيرات تختلف عن فلسفة التاريخ الأقدم منها فى عدم احتوائها على أى عنصر غرضى ليوضح الغاية والغرض منها .فضلا عن رفضها المنهج الاستقرائى . أما الهدف الوحيد لهذه التفسيرات فهو إبراز وتأكيد تلك العوامل التى تجمع مدارس التفسير المتعددة ، على أنها كانت عظيمة الأثر فى إنتاج حضارات الماضى والحاضر . وبمعنى آخر فان هدف التفسير هو محاولة إتمام بحث « رانكه » غير الهادف عما حدث فى الماضى بإضافة جهد متواضع لشرح كيفية نشأة النظام الحالى . وهذا الجهد يمثل اكتمال المنهج العلمى فى التاريخ ، تماماً كما تمثل صياغة القواعد العامة والقوانين فى العلم الطبيعى التكملة المنطقية للمرحلة الخاصة بجمع المعلومات عن طريق الملاحظات الميدانية والتجارب العملية .

وتوجد فى الوقت الحاضر سبع مدارس محددة للتفسير التاريخى تتضح من خلال جهود ممثليها الذين درسوا الظواهر التاريخية على نحو حديث ، وقد أضافت كل من هذه المدارس الكثير إلى معلوماتنا عن التطور التاريخى . ونظرة بسيطة نلقيها على هذه المدارس تظهر أنها وإن كانت منفصلة فإنها تكمل بعضها البعض بدرجة كبيرة . ويمكن تصنيف هذه المدارس كما يلى :

١ - مدرسة التراجم الشخصية أو نظرية (الإنسان العظيم) .

٢ - المدرسة الروحانية أو المثالية .

٣ - المدرسة العلمية التكنولوجية .

٤ - المدرسة الاقتصادية .

٥ - المدرسة الجغرافية .

٦ - المدرسة الاجتماعية .

٧ - المدرسة التركيبية أو النفسية الجماعية .

وينبغى أن نذكر أن المؤرخ التقليدى يتمسك إما بالنظرية البالية التى ترجع تطور التاريخ إلى أسباب سياسية أو بالنظرية القائلة بأن التطور التاريخى أمر لا ضابط له . ومن ثم فهو لايخضع لأية قوانين مؤكدة .

وأشهر هذه المدارس - وهى الوحيدة التى أضفى عليها المؤرخون التقليديون كثيراً من الاعتبار هى تلك التى يمثلها اثنان من أبرز الرومانسين هما « كارليل » ، و« فرود Froude » اللذان قالا بأن الشخصيات الهامة فى التاريخ هى المحاور الرئيسية فى عملية التطور التاريخى ، بمعنى أن التاريخ ليس إلا تراجم مجمعة . وهذا الرأى يتفق إلى حد بعيد مع فكرة تفسير حدوث التاريخ فى ضوء ما يجرى من كوارث ، وهى الفكرة التى شاعت بين العقلانيين فى القرن الثامن عشر وأبرز مؤيدى هذا الرأى من المعاصرين هم : « إميل فوجيه » ، و . هـ . مالوك W.H Mallock » ، « كارل بيرسون : Pearson » ، « وليام روسكو » ، « ثيار Thayer » ، « وليام دانبخ » ، « أميل لودفيج » ، « كلود بوارز Claude Bowers » « آلان نيفنز Allan Nevins » . وفى ذلك التفسير المسمى بالتفسير الروحانى نجد صورة للنتاج المتأخر لمثالية شيلنج ، شليجل » ويمثل هذا الاتجاه بحماسة بالغة كل من « رودلف ايوكن Rodolph Eucken » « شلير ماثيوس Shailer Matheus » ، هـ . أ . تايلور H. A. Taylor » ، ر . و . ماكلوجن R. w. Mc laughlin » ويعرف الأستاذ « ماثيوس Mathews » هذا الرأى فى تواضع إذا يقول : « إن التفسير الروحانى للتاريخ لابد وأن يكمن فى اكتشاف العوامل الروحانية التى تتعاون مع العوامل

الجغرافية والاقتصادية فى إنتاج اتجاه عام نحو أوضاع هى فى حقيقتها شخصية وهذه الأوضاع لن توجد فى قواعد عامة متصلة بعالم الغيب وما وراء الطبيعة وإنما تبدو هذه الأوضاع فى جهود الرجال البارزين الذين عبروا عن جهودهم فى ميدان العلاقات الاجتماعية والذين كرسوا تلك الجهود لإخضاع عالم الطبيعة إخضاعاً تاماً لأجل رخاء البشرية [1] . واذا ما نظرنا إلى هذا النوع من التفسير فى ضوء هذه العبارة التى تبتعد كثيراً عن الفلسفة الاستعلائية السابقة ، فإنه يمكننا أن نحكم بأن هذا التفسير يتشابه إلى حد كبير مع نظرية الإنسان العظيم وأنه فيما يبدو يستهدف التوفيق بين هذه النظرية وبين التفسير الكلى الناقد تحت ستار اتجاه لاهوتى عام . ومن دعاة هذا النوع من التفسير د . آدمز » الذى حاول أن يربط التطور التاريخى للولايات المتحدة بعدد من المثل القومية المتعاقبة والغالبة التى لم يتم تفسير أساسها وأصلها تفسيراً كافياً . كذلك هناك « كروشcroce » ، الذى بذل جهداً للدفاع عن تفسير التاريخ تفسيرا مثاليا .

أما كوندرسيه Condorcet ، فكان أول من حاول النظر إلى التقدم البشرى على أنه وثيق الصلة بالتقدم فى مجالات العلم الطبيعى والتكنولوجيا . وقد تبعه فى هذا الاتجاه وعمل على إحيائه كل من « كومت Comte » و« باكل » . وباستثناء العناية التى أولاها دارسو تاريخ العلوم أمثال « دانيمان Dannemann » ساراتون Saraton » ، « دوهم Duhem » ، « تانيرى Tannery » وغيرهم من اهتمام لهذا الجانب من تفسير التاريخ ، فإنه لقى إهمالاً مؤسفاً من جانب المؤرخين المعاصرين ، وإن كان « ف . س . مارفن » « لويس ، مامفورد » ، « لين ثورنديك » ، « س . هـ . هاسكنز » ، « أ . ولف A. Wolf » ، أ . ب . اوشر A.P. Usher وشارل سنجر Charles Singer » قد أوضحو جميعاً الآفاق الرحبة والإمكانيات الحقيقية لهذا النوع من التفسير . هذا فضلاً عن أن « لامبرخت » ، « سجنوبوس » ، « شوتويل » ، « روبنسن » ، « بريزرفدسميث » ، قد أكدوا هذا التفسير بشكل عابر فى تفسيراتهم الشاملة للتاريخ . ومع ذلك فإنه لم تتم الاستفادة من هذا التفسير بشكل كامل ، مع كونه أوسعها أفقاً . ويذهب دعاته إلى أنه ـ أى التفسير العلمى ـ يستحق أهمية أكبر من تلك التى يحظى بها التفسير الاقتصادى ، لأن الحالة السائدة للمعرفة العلمية وتفسيرها التكنولوجى هى التى تحدد أساليب الحياة الاقتصادية والنشاط الاقتصادى . وهذا الرأى هو الذى أقر « كارل ماركس » نفسه بصحته .

(١) Shailer Mathews: The Ivnterpretation of History (Harwerd press Uni 1916)

أما ما أسهمت به المدرسة الاقتصادية فى تفسير التاريخ ، وهو التفسير الذى وضع أساسه كل من « فيرباش » ، « ملركس » وتبعها فى نفس الاتجاه عدد كبير من الكتاب اللاحقين أمثال « روجرز » ، « أشلى » ، « تونى Tawney » ، مدرسة « وب Webb » ، « هاموند) ، « شمولر» ، «جيد Gide » ، « لوريا Loria » ، « فيبلن Vebelen » ، مدرسة « سيمونس Simons » ، « بيرد Beard » « هاكر Hacker » « سيمكهوفيتش Simkhovitch » فأمر معروف لايحتاج إلى مزيد من الإيضاح وينادى أصحاب هذا المذهب ؛ بصفة عامة وفى أوضح صورة ، أن النمط السائد فى المجتمع من النظم الاقتصادية والنشاط الاقتصادى هو الذى يحدد وبدرجة كبيرة طبيعة النظم الاجتماعية والثقافية فى هذا المجتمع . وعلى الرغم مما شاب هذا التفسير الاقتصادى للتاريخ من مبالغات ، فإن أى تفسير آخر لا يدانيه إنتاجاً وأثراً .

ويتصل بهذا التفسير وبشكل مباشر التفسير الجغرافى الذى يرجع إلى عهد أبو قراط والذى يبدو فى أعمال الكتاب المتعاقبين ابتداء من « سترابو » حتى « فتروفيوس Vitruvius » « بودان Bodin » ، « مونتسكيه » ، « باكل » ، وقام بإحياء هذا التفسير وأضفى عليه صبغة علمية كل من « ريتر Ritter » ، « ريكلوس Reclus » ، « سمبل Semple » « برونهس Brunhes » ، « فالوا » ، « ديمولنس Demolins » ، « هنتنجتون » ومنذ أيام « ريتر Ritter » عنى المؤرخون التقدميون فيما عدا قلة قليلة بالوقوف على الأوضاع الجغرافية لأى بلد من البلاد قبل محاولة كتابة تاريخية . وقد سبق أن أوضحنا أهمية ومغزى هذا الاتجاه .

أما التفسير الاجتماعى للتاريخ فإنه بدأ على يد العلامة العربى « ابن خلدون » ثم تطور على يد كل من فيكو وتيرجون وكومت وسبنسر وكان أقدر المفسرين . الاجتماعيين للتاريخ فى العصر الحديث هم «جيدنجز» « أو جيرن » ، « توماس » « هوبهوس » ، « مولرلاير » و« الفردويبر » .

ويصف جيدنجز هذه النظرية ببراعة إذ يقول « إنها محاولة لتعليل أصل نشاط المجتمع فى ضوء أسباب طبيعية وحيوية ونفسية وهى العوامل التى تشترك معاً فى عملية التطور » ويعمل علم الاجتماع باعتبار أحد العلوم الاجتماعية على أساس التعاون التام مع علم الأجناس البشرية حيث إن كلاهما يعمل جاهداً لتفسير التكرار والتشابه فى تعليل أحداث التاريخ وتطوره .

وأحدث أنماط التفسير التاريخى وأكثرها شمولاً وأهمية هو التفسير الكلى أو السيكلوجى الجامع وهو التفسير الذى يمثل بشكل تام التاريخ الجديد . وطبقا لهذا التفسير فان نوعاً واحداً من المسببات لايكفى لتفسير كل جوانب وفترات التطور التاريخى . ولاأقل من أن تكون

السيكولوجية الجامعة لفترة ماهى التى لها من القوة ما يجعلها تتحكم فى التطور التاريخى لتلك الفترة . ولذا فإن واجب المؤرخ ينحصر فى اكتشاف وتقويم وعرض العوامل الرئيسية التى تخلق وتشكل النظرة الجماعية للحياة وتحدد طبيعة النضال الجماعى من أجل الوجود والتقدم . ولعل أحسن صياغة مختصرة لهذا الاتجاه هى أن الأحوال الفكرية العامة هى التى تحدد عادة الاتجاه السائد نحو العلم والتكنولوجيا . فالعلم والتكنولوجيا يخلقان النظم الاقتصادية ويتحكمان فيها وهذه بدورها تبنى تدريجياً مجموعة من نظم الربط أو الدفاع التى تكتسب طابعها المميز من خلفية الحياة الاقتصادية التى تستند إليها . ونظم الربط هذه هى العادات الاجتماعية وأشكال وسياسات الحكومات وأنماط التشريع والقضاء ونظريات التربية والرأى العام والتعبير عن طريق الصحافة وأنماط السلوك المقبولة من المجتمع والمفهوم العام للحياة . وهكذا فإن كل عصر يضم تراث الماضى وبذور التغير بالنسبة للمستقبل ولكن أكثر العوامل حركة وهو تسرب الأفكار الجديدة عن طريق الاتصال الثقافات الخارجية . وأبرز قادة هذه المدرسة لامبرخت ، فيرورو Ferrero ، تارد Tard ، ليفى بروهل Bruhl ، فولـلى Fowlli ، سيجنبوس ، دركهـايم Durkheim ، مارفن روبنسون ، شوتويل ، بيكر ، بريزرفد سميث ، راندال ، ج . ل . .هارت . ويلاحظ أن هناك اختلافات واسعة بين مبادىء ووجهات نظر هؤلاء المؤرخين على الرغم من انتمائهم جميعاً لنفس المدرسة .

التاريخ والعلوم الاجتماعية

من أعظم التطورات الحيوية فى دارسة التاريخ تقدمية ذلك الاهتمام المتزايد بالعلوم الاجتماعية أو الدراسات الاجتماعية كما تعرف فى الأوساط التعليمية . وجاء هذا الاهتمام من جانب المؤرخين نتيجة طبيعية لظهور وجهة أكثر حركة فى مجال كل من التاريخ والعلوم الاجتماعية . فالعلماء الذين يشتغلون بالعلوم الاجتماعية لايمكنهم تجاهل التاريخ وذلك لأن المسائل المرتبطة بأصل الإنسان وتكوينه لها أهمية بالنسبة لكافة العلوم الاجتماعية فتاريخ النظم الاجتماعية والعمليات الاقتصادية وكذا تاريخ الدولة وتاريخ القانون وتاريخ أنماط السلوك السائدة والمقبولة إنما هى من أكثر الجوانب الحيوية فى علوم الاجتماع والاقتصاد وفى العلوم السياسية وعلم فلسفة القانون وعلم الأخلاق . وأية دارسة حقيقية يعتد بها لابد وأن تهدف إلى

تزويدنا بمعلومات كافية عن هذه الأمور ومن المؤكد أن كثيراً من الكتابات التاريخية فى الماضى لم تضع ذلك فى حسبانها كما أنه من المؤكد أن السعى وراء تحقيق هذا الفرض كان أمراً صعباً . ولكننا نتوقع أن عدداً أكبر من المؤرخين سوف يدركون تمام الإدراك أن عملهم سيكون غير مجد إلى حد ما إذا لم يلقوا الضوء الكافى على أصول النظم المختلفة المألوفة لنا اليوم .

وكذلك فإنه إذا كان على المؤرخ أن يصف تطور الأنماط الرئيسية من النظم فإنه لابد وأن يكون لديه معرفة كافية بالعلوم الاجتماعية التى ترتبط بتلك النظم . ومن بين الأسباب التى أدت إلى تفاهة عدم جدوى كثير من الكتابات الوطنية لأحداث التاريخ السياسى فضلاً عن خروج بعضها عن الموضوع هى الحقيقة الخاصة بأن المؤرخين كانوا يجهلون بشكل يدعو إلى الأسف والحزن العلوم السياسية التى كانت بين أيديهم . ولو كان الأمر عكس ذلك لما أضاعوا وقتهم فى سرد الحوادث والقصص على ذلك النحو المسهب ، ولأعطوا شيئاً من الانتباه لتلك الجوانب التى تصور تطور مختلف النظم والدساتير وأجهزة الحكم ونظام الأحزاب وسائر جوانب الحياة السياسية . ولايعنى هذا بطبيعة الحال إهمال العنصر الشخصى فى التاريخ الوصفى إهمالا كلياً ، وإنما يعنى أنه ينبغى تخير الإنجازات الشخصية بشىء من الدقة والتمييز ، بحيث يكون لما يوصف بعض العلاقة بمختلف نظم الحياة ، وبحيث يصور نوعا معينا من رد الفعل بالنسبة للشخصيات . وباختصار فإنه من الضرورى بالنسبة للمؤرخ الذى يود أن يكتب كتابة طيبة عن تاريخ المجتمع والدولة والقانون أو عن الحياة الاقتصادية ، أن يكون ملماً بعلم الاجتماع والعلوم السياسية والقانون والاقتصاد ، بالضبط مثلما تتطلب الكتابة عن تاريخ علم الكيمياء بعض المعرفة عن هذا العلم ذاته . ويرجع السبب الذى عاق إدراك الحقيقة الخاصة بأن المعرفة بالعلوم الاجتماعية هى إحدى مقومات الكتابة التاريخية إلى انتشار فكرة القياس التقريبى ، والاجتهاد الشخصى فى مجالات التاريخ والعلوم الاجتماعية وهى الأمور التى لا يمكن تقبلها فى مجال العلوم الطبيعية ومن الممتع والمؤسف فى آن واحد أن نلاحظ :

١ ـ اصرار المؤرخ على ضرورة التدريب العميق الطويل فى علم المخطوطات وعلم المراسلات الدبلوماسية وعلم المعاجم ومبادىء النقد الداخلى والخارجى بقصد ضمان تقديم نصوص دقيقة وسرد سليم .

٢ ـ وفى الوقت نفسه تجاهل المؤرخ ضرورة تحقيق تدريب كاف فى مجموعة من الدراسات هى الوحيدة التى تمكن المؤرخ من أن ينظم مادته ويفسرها بطريقة حاذقة .

وأبرز الدلائل على حدوث تغير فى اتجاهات المؤرخين نحو العلوم الاجتماعية ، تشكيل لجنة للدراسات الاجتماعية فى المدارس سنة ١٩٢٩ تحت رعاية الجمعية التاريخية الأمريكية وبعد أن حصلت هذه اللجنة على مبلغ كبير من المال من مؤسسة كارنيجى بدأت فى تنفيذ برنامج هائل للبحث وأصدرت عدداً من الكتب الصريحة المليئة بالاقتراحات . وكان هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف المؤرخين سنة ١٩٠٣ عندما أظهروا عداءً واضحاً لحركة العلوم الاجتماعية التى عبر عنها الأستاذ فرانكلين هنرى جيدنجز فى خطاب ألقاه أمام المؤرخين بقوله ، هذه هى نظرية السببية الاجتماعية . وكان علم النفس فى وقت من الأوقات لا يعتبر واحداً من العلوم الاجتماعية ، وإنما يعتبر مجرد دراسة للعمليات الجارية فى عقل الفرد . ولكن لم يمض وقت طويل حتى ساد الاعتقاد بأن أية دراسة للعمليات العقلية الفردية لايمكن أن تكون كاملة أو مرضية إذا لم تأخذ فى الاعتبار النشاط العقلى المتداخل والتفاعل بين العقول بعضها وبعض داخل المجتمع . وأدى هذا الاعتقاد إلى نشأة فرع خاص من فروع علم النفس يركز على العلاقات بين العقول وهو على وجه التحديد علم النفس الاجتماعى .

ويستطيع التاريخ أن يستقى من علم النفس معظم المعلومات الهامة المتعلقة بطبيعة دوافع وأنماط وضوابط العقائد والتصرفات البشرية . فالعقل هو العامل الموحد والمنسق فى الفرد والمجتمع على السواء . وينبغى أن نتبين أنه يستحيل على المؤرخ أن يفهم أنماط سلوك الناس فى الماضى دون أن يكون مزوداً بقدر كاف من المعرفة عن السيكولجية العامة للسلوك البشرى . حيث إنه لايبدو وأن ثمة تغيرات أساسية قد حدثت فى الأساس السيكلرجى للعقل ولافى أنماط السلوك الرئيسية منذ فجر التاريخ المكتوب ، فإن سيكلوجية إنسان اليوم يمكن أن تفيد فى تحليل الشخصيات التاريخية التى عاشت فى الماضى ، فضلاً عن تحليل المواقف الجماعية . على أن هذا لايتأتى بدون معلومات وبيانات كافية . والواقع أنه لايعيب الكتابة التاريخية التقليدية أكثر من افتقارها المؤسف إلى المعرفة بعلم النفس العملى ، وهى الظاهرة التى تبدو واضحة فى معظم كتاب التراجم ، الأمر الذى ترتب عليه كثرة التفسيرات السطحية التى فسرت بها التصرفات والدوافع الشخصية . ولانبالغ إذا ذكرنا أن الترجمة التاريخية العادية لا تقل غرابة عن ترجمة فرويد لشخصية ليوناردو دافينشى ، وإن كانت الطريقة مختلفة تماماً . ويتضح تأثير علم النفس على التراجم فى كتابات ليتون ستراتشى Lytton Stratchey ، اندريه موروا Andre Maurois ، جماليل برادفور Gamaliel Bradford وغيرهم وإلى جانب مايقدمه علم النفس من معرفة

الــوصــول إلى فهم أفضــل للسلوك الشخصي ، فـإن علم النفس بـالاشتــراك مــع علم الاجتماع - يوضح كيف يتعدل السلوك الفردى تحت تأثير الأوضاع والاتصالات الاجتماعيـة والعادات والتقاليد .

وهذا التداخل بين التاريخ وعلم النفس ينبغي أن يكون مفيداً لكل من العلْمين ، فالتاريخ يزود المشتغلين بعلم النفس بكثير من المادة التى تصور السلوك البشرى فى الماضى من عصـر الهمجية حتى يومنا هذا ، كما أنه يعطى أمثلة لكل صور الشخصية التى تهم علماء النفس ويزودهم بشىء من المساعدة من أجل التعرف على أنماط سلوك هذه الشخصيات تحت تأثير الـظروف المتغيرة . وبازدياد المصادر فإننا نأمل أن يصبح التاريخ فى النهاية معملاً رئيسياً للمشتغلين بعلم النفس .

وبالقدر الذى عاش به الناس على هيئة جماعات كبيرة أو صغيرة ، نجد أن لعلم الاجتماع أو علم نشاط الناس داخل الجماعات قيمة كبيرة بالنسبة للمشتغلين بالتاريخ فهذا العلم يحاول أن يصنف ويحلل مختلف القوى الجغرافية والبيولوجية والسيكلوجية والاقتصادية التى تؤثر على مكان ما وشكل الحياة الاجتماعية فيه ، كما أنه يهدف إلى وصف وتفسير نتائج هذه الحياة الجماعية ، كما تبدو فى أنماط السلوك وفى العادات والضوابط التى توجهها النظم . وبما أن علم الاجتماع يتضمن كلاً من أسباب ونتائج الحياة الجماعية ، ولذلك فإنه العلم الاجتماعى الأساسى والوحيد الذى يمكن أن يعطى فكرة عامة عن التفاعل الاجتماعى وعن السببية الاجتماعية ككل ، ولما كان التـاريخ يهتم بـدرجة ليست ضئيلة بـوصف سلوك الجماعـات فى مختلف المواقف الاقتصـادية والسياسية والجمالية والدينية فإنه من الواضح أن دقة المؤرخ وبصيرته يزدادان لو أنه تعرف على المبادىء الأولية لعلم الاجتماع . ومن الناحية الأخرى فإن التاريخ يمكن أن يكون ذا قيمة عظمى بالنسبة لعلم الاجتماع لأنه يزوده ببيانات ومعلومات قيمة عن أى قطاع فى أى مجتمع فى عصر معين ، فضلاً عن الجوانب الحركية للتغير الاجتماعى وتبدل النظم . وإذا كان كثير من المؤرخين التقليديين ذوى الميل الأدبى يمقتون هذا الرأى الخاص بوظيفة التاريخ وعلاقته بعلم الاجتماع ، فإنه ليس هناك شك فى أن جمع المادة الخام لعلم الاجتماع الحـركى بطريقـة شعوريـة أو غير شعورية ، هو أحد الخدمات الجليلة التى يؤديها التاريخ وكلما ازداد التاريخ دقة وتمييزاً لما يتضمنه من حقائق ، كلما ازدادت اكتشافاته واستنتاجاته صلة بعلم الاجتماع . وكلما ازدادت قيمتها فى عملية تنوير الجنس البشرى والسير به قدما .

أما علم الاقتصاد فهو ينبثق عن علمي النفس والاجتماع وذلك بوصفه العلم الذى يعالج حصول الإنسان على الحاجيات المادية واستفاداته منها . فالدوافع البشرية التى تتصل بنشاط الإنسان الذى يستهدف الحصول على الثروة لا يمكن أن تفهم فهماً سليماً إلا على أساس من الإدراك الكافى للحوافز البشرية بوجه عام . وكذلك فإن العمل الجماعى من أجل الكسب المادى وزيادة الطاقة الإنتاجية ، يدعو إلى تحليل دقيق وفهم جيد للمبادىء والقوانين العامة المتعلقة بالعمل الجماعى . وإذا كنا لانستطيع أن نقبل نظرية التفسير الاقتصادى للتاريخ على علاته بمعنى أننا نرفض التسليم بفكرة الحتمية الاقتصادية الكاملة ، فإن أى شخص عاقل لايساوره شك حول الأهمية العظمى للعوامل الاقتصادية فى المجتمع . وكان لهذه العوامل فى بعض العصور فعلاً صفة الحتمية وخاصة الفترة من سنة ١٧٥٠ حتى الآن . وعلى الرغم من أن التفسير الاقتصادى لنشأة المجتمع الحديث والمجتمع المعاصر لايتعرض لكثير من العوامل التشويقية ، فإنه بلا جدال أقرب إلى الحقيقة والواقع من أى تفسير آخر . وهكذا فإنه لا يمكننا بأى حال من الأحوال إنكار أو تجاهل تأثير العوامل الاقتصادية على المجتمع فى أى عصر من عصور تاريخ البشر .

وإذا كان الحال كذلك فإن المؤرخ لابد وأن يتعرض للنشاط الاقتصادى ولكنه لايستطيع أن يفعل ذلك دون أن يكون لديه بعض المعرفة بذلك العلم الذى يبحث فى خلق واستغلال الثروة المادية . وهذا أمر ينطبق بصفة خاصة على التاريخ الحديث والمعاصر والحق أن المؤرخ الذى لا يلم بالنظريات والنظم الاقتصادية لايمكنه أن يقدم فى هذا الشأن أكثر من وصف سطحى لنظامنا الاقتصادى البالغ فى التعقيد . وبالمثل فإن التاريخ يقدم خدمات جليلة للمشتغلين بالاقتصاد ، إذ يضع بين أيديهم العوامل التى تحرك التطور الاقتصادى ، ليس فقط فى العصور الحديثة بل فى العصور القديمة أيضاً . فعلى سبيل المثال نجد أن معهد الدراسات الشرقية فى شيكاغو كشف حديثاً عن معلومات كثيرة خاصة بالأسعار والضرائب فى حقبة طويلة من التاريخ الآشورى ولهذه المعلومات أهمية كبيرة للمشتغلين بعلم الاقتصاد والمؤرخين الاقتصاديين . وكان أعظم ماأسهمت به مدرسة الاقتصاديين التاريخية فى ألمانيا هو إصرارها على فكرة ما للنظم الاقتصادية من طبيعة متغيرة ونسبية ، وهى الفكرة التى كانت بمثابة رد الفعل لما اتصفت به المدرسة الكلاسيكية من جمود عقائدى . والواقع أن النظريات الاقتصادية فى مجموعها تعتبر تفسيراً وتبريراً للأنظمة الاقتصادية المختلفة . وهذه النظريات نفسها ليست إلا مسائل نسبية . فالتاريخ فى الماضى كان يتصف بسطحية مذهلة وبعدم وضوح الرؤيا لأنه أهمل الحياة الاقتصادية وركز اهتمامه على سرد الأحداث

الهامة والخطيرة ، مما جعله لايعنى إلا قليلاً بصغائر أمور الحياة اليومية . ومن بين الأشياء الهامة بالنسبة للاقتصاديين المهتمين بأصول الدوافع والنظم الاقتصادية تلك المادة التى وردت فيها أنتجه تلاميذ كليو من أبحاث ودراسات . وعلى الرغم من أن المعلومات المتوفرة لنا فى الجانب التاريخى قد تكون غير كافية ، فإنه من المتعذر أن نفهم الحياة الاقتصادية الحاضرة فهماً كاملاً دون الرجوع إلى الماضى ، أى بدون الاستعانة بما يقدمه التاريخ من معلومات هو وحده الذى يملكها . هذا إلى أن التاريخ يزود الاقتصاديين فى كثير من الحالات بأمثلة مفيدة توضح العلاقة بين النظم الاقتصادية وغيرها من النظم الأخرى . وقد أكد جوزيف دورفمان صحة ما أوردناه من مبادىء عامة حول هذا الموضوع فى كتابه الرائع « الفكر الاقتصادى فى الحضارة الأمريكية » .

أما العلوم السياسية أو علم الدولة وأجهزتها ووظائفها فهو أيضا من العلوم التى لابد وأن تقام على علمى النفس والاجتماع ، لأن أسس الولاء السياسى لايمكن اكتشافه وتفهمه إلا من خلال دراسة سيكلوجية الخضوع والعادات المرتبطة بالقيادة والمحاكاة والانصياع للنظم كما تتمثل فى ردود فعل المواطنين نحو الدولة ، مما يتطلب هو الآخر تدخل المشتغلين بعلم الاجتماع ، لكى يمكن تفسير الجذور الأساسية التى تشكل تلك العادات . هذا إلى أن الحياة فى المجتمعات السياسية لا يمكن تفسيرها دون فهم الطريقة التى تطورت بها الحياة الاجتماعية وكيف نشأت الدولة تدريجاً من النظم الاجتماعية الأولى . وقد أقر المؤرخون بما فيهم أولئك الذين ينتمون إلى المدرسة السياسية التقليدية أهمية العلوم السياسية بالنسبة لأى فرع آخر من العلوم الاجتماعية . وبينما ركز غالبية مؤرخى القرن الماضى البارزين اهتمامهم على أوجه النشاط فى المجال السياسى ، فإن قلة منهم هى التى تمكنت من العلوم السياسية المنهجية . ومن جملة هؤلاء المؤرخين القانونيين والدستوريين وتيز ، برونر ، فلاشن ، فيوليت Viollet ، ميتلاند Maitland ، فينوجرادوف ، آدمز ، وهم الذين اهتموا فعلاً بتتبع تاريخ التطور السياسى . ولكن أغلب المؤرخين اكتفى كما ذكرنا بسرد الأحداث التى وقعت فى حياة رجال السياسة والدبلوماسيين . ومع ذلك فإن المؤرخ السياسى الذى يسير اليوم على منهج علمى يدرك تماماً أنه لمن السذاجة أن يحاول باحث علاج النظم السياسية قبل التزود بمعلومات كافية عن طبيعة المبادىء السياسية والأشكال الرئيسية للنظم السياسة . وكذلك نتج عن طول فترة اتباع المنهج السياسى فى التاريخ أن غدا فى وسع المؤرخ أن يزود عالم السياسية بمعلومات عن أصل مادته أكثر مما يستطيع أن يزود المشتغل بأى علم اجتماعى آخر . ولكن حدث لسوء الحظ أن كثيراً من التاريخ السياسى ، الذى كتب فى الماضى كان على

درجة عالية من الإثارة والتركيز على الأحداث والقصص بحيث صار الجزء الأعظم منه قليل الفائدة من الناحية العملية .

وما يقال عن العلوم السياسية ينطبق بنفس القدر على القانون . فالقانون ليس إلا تعبيراً عن الإرادة الجماعية كما يعبر عنها كيان الدولة . ولما كان جزء كبير من كتابات المؤرخ السياسي التقليدي ينصب على معالجة موضوع التشريع ، فإن هذا المؤرخ لم يرتض لنفسه أن يكون جاهلاً بعلم القانون . وفي الوقت نفسه فان دارس القانون يمكنه أن يتحاشى عقم القانون الطبيعي ، والمدارس التحليلية إذا ما تمكن من إدراك مغزى أهمية الوقوف على أصل الإنسان وطبيعة نشأته وتطوره .

وأخيراً نتطرق إلى علم الأخلاق فنقول إنه مع أن السير على منهج تاكيتوس ، شلوزر ، لورد أكتون بالنسبة لإصدار أحكام حاسمة على شخصيات التاريخ على أسس أخلاقية شخصية بحتة لم يعد من مهام المؤرخ ، فإنه من الأفضل للمؤرخ أن يلم بالطرق التي يتم بها وضع وتطبيق معايير السلوك البشري . ومما يؤسف له أن علم الأخلاق لم يصل بعد إلى المستوى الذي وصلت إليه علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة من ناحية الإنجازات الثابتة المؤكدة ، لأن كل ما تم في مجال هذا العلم في الماضي بلا استثناء يكاد يكون عديم القيمة ، لسبب بسيط هو أن مقومات العلم البيولوجية والسيكولوجية الاجتماعية وعلم الأجيال الوصفي لا وجود لها . وهكذا فإن ما بدا وكأنه علم للسلوك كان مجرد تخمين وكلام غير قائم على التجربة . وفي معظم الحالات نجد أن هذا العلم لم يتعد كونه دفاعاً عقلياً عن التعصب العقائدي والتحيز والعقد عند الكاتب المعين . ولكن بظهور كتابات أمثال ليترنو Letourneau ، راتزل ، سمر Summer ، وستر مارك Westermarck ، هوبهوس Hobhouse ، كروبوتكن Kropotk دخل علم الأخلاق عهداً جديداً ، إذ ظهرت مادة في وصف الأجيال عظيمةالفائدة لما تحويه من تعدد اللوائح الأخلاقية وجذورها . هذا إلى أننا نجد في أعمال ستيفن . دوبرات Duprat ، اليس Ellis ، ديوى ، هيز Hayes ، جروفز Groves ، جيلفر Gilver ، تافتس Tuftes ، دريك Drake وغيرهم محاولة لبناء النظرية الأخلاقية على حقائق مستمدة من علمي النفس والاجتماع . ويتضح هذا الاتجاه الجديد كذلك في الهجوم على قواعد الفلسفة الاستشرافية والبيورتيانية التي بدت في كتابات شو Shaw ، ومنيكن Mencken ، جود Joad ، الدوس هكسلي Aldovs Huxley وتلاميذتهم حيث نلمح فجراً جديداً لعلم السلوك . والواقع أنه من الخير للمؤرخ أن يظل على دوام الاتصال بهذا

العلم . وساعد المؤرخون وتلامذتهم المشتغلين بعلم الأجيال الوصفي مساعدة قيمة وذلك بتزويدهم بمعلومات قيمة عن مختلف أنماط السلوك التي سادت بين البشر . ولكن خدمات المؤرخين في هذا المجال جاءت أقل مما كان ينبغي أن يكون ، إذ قلما اهتم المؤرخون بالسلوك والعادات ، فضلا عن أنهم لم يكونوا في العادة موضوعيين عندما تناولوا السلوك الخلقي ، إذ كانوا يحكمون على السلوك بمعايير مصطنعة بدلاً من معالجته بطريقة غير عاطفية . يضاف إلى هذا أن المؤرخين طالما تمسكوا بالمبدأ الأخلاقي البروتستانتي البيوريتاني في نظرتهم إلى الأخلاق بوصفها ظاهرة ترتبط بالجنس والجنس وحده . ثم كان أن توافرت مادة قيمة ليست شديدة الارتباط بالحماسة المسيحية في مؤلفات ليكي ، ميارز ، ماك كيبMc. Cabe ، وغيرهم . وهناك أعمال عديدة للمؤرخين تناولت تاريخ السلوك في عصور مناطق معينة على الرغم من أنه لا يوجد جهد منظم لإنشاء قسم خاص للدراسات التاريخية المتعلقة بتطور أنماط السلوك المتعددة وعلاقاتها بمفاهيم الجنس والملكية والترفيه والنظرة العامة إلى الحياة .

أحدث المناهج في أسلوب تعليم التاريخ ودراسته

على الرغم من أن الجانب الرئيسي في التقدم الذي طرأ على الكتابة التاريخية منذ عهد رانكه يبدو في اتساع نظرة المؤرخ ، إلا أن هناك نواحي تحسن هامة في الجوانب التقليدية القديمة من التطور . ففي المقام الأول نجد أنه على الرغم من أن مدارس البحث لم تأت بشيء جديد يذكر لم يتضمنه منهج رانكه ، ألا أن هناك أوجه تحسن هامة طرأت على مجال كل من النقد التاريخي وطرق تدريس التاريخ منذ أيام رانكه . هذا إلى أن المبادىء الرئيسية للنقد التاريخي هذبت كثيراً ونظمت في تلك المؤلفات الممتازة التي وصفها برنهيم Bernheim، ولف Wolf، لانجو Langois، سيجنبوس Seignobos، وغيرهم حتى أصبح المبتدىء في الدراسة في هذا المجال يجد تحت تصرفه أبحاثاً طويلة للمدارس التاريخية وطرق تدريس التاريخ . كذلك هناك فهارس كاملة بأسماء كتب التاريخ الخاصة بدول متعددة ، وصفها كل من بيتو١٠ Peatow، لانجلو Langlois، مولنير Molinier، مونود Monod، دهلمان ويتز Dahlman Waitz، جروس Gross، ولياسز ، شاننج ، هارت ، ترنر Turner. وقد أضيفت إليها قوائم حديثة تضم كل الأعمال التي جدت في هذا المضمار والتي ظهرت في المجلات الدورية التاريخية التخصصية . وهكذا يستطيع طالب التاريخ

أن يلم بكل ما كتب فى مجال تخصصه . ومن أدق الكتب وأشملها التى ترشدنا إلى الحصيلة الهائلة لمصادر التاريخ القومى والدينى التى جمعت فى خلال القرن التاسع عشر تلك التى وضعها بوثاست Potthast، شيفاليه Chevalier، جروس Gross وغيرهم .

ويستطيع طالب التاريخ فى عصرنا هذا أن يتصفح فى دقائق قليلة يقضيها فى أى مكتبة كبيرة مصادر للتاريخ كانت تكلف الباحثين فى الأجيال السابقة شهورا من البحث المضنى غير المثمر . يضاف إلى ذلك أن الأرشيفات ودور الحفظ الخاصة والعامة على السواء فتحت أبوابها على نطاق واسع أمام الباحثين فى التاريخ وذلك منذ أيام الحرب العالمية الأولى ، وبخاصة بعد أن حدثت ثورة حقيقية فى اللوائح منذ سنة ١٩١٨ . هذا إلى أننا فى بعض الأحيان نجد كتبا إرشادية خاصة بهذه الأرشيفات أعدت بكل عناية وينبغى ألا ننسى ما حققه البحث التاريخى من زيادة كبيرة فى الدقة والكفاية والسرعة ، نتيجة لاستخدام الفهارس المعدة على بطاقات ونظام الحفظ وفى الملفات والمذكرات غير المنشورة والمشروعات المتقنة المتضمنة إعداد فهارس مزودة بالإحالات . وأروع من ذلك كله الوسائل الخاصة قبل تصوير الوثائق ونقلها على الميكروفيلم مما ساعد على اتساع نطاق توزيع وتبادل وحفظ الوثائق مما لا يعرضها للخطر .

ولا يقل التحسن الذى طرأ على مهنة التدريس فى التاريخ أهمية عن التقدم الذى حدث فى الحرث وسائر المساعدات الآلية الأخرى . فتحت اشراف وتوجيه الأساتذة المدربين ، أمكن خريجو أقسام التاريخ ــ مهما يكن من أمر مقدرتهم المحددة فى التأليف ــ أن يقدموا معلومات أكثر دقة فى مجال التاريخ من خلال أبحاثهم ووسائلهم العلمية الدقيقة ، أكثر مما فعلت فى الماضى مجلدات كثيرة عالجت التاريخ . وبوجه عام لم يطرأ سوى تغييرات طفيفة على الشكل الخارجى لتدريس التاريخ فى الجيل الأخير ومازالت طريقة المحاضرة وحلقات البحث تستخدم على نطاق واسع فى كل مراحل التعليم العالى . ولعل أهم تجديد حدث فى هذا المجال هو تطبيق الطريقة التى تسمى طريقة المشروع ، وهى التى تقوم على أساس فكرة أن تدريس التاريخ فى العصور السابقة ينبغى أن يوجه أساساً لتوضيح علاقة الماضى ، بالمشكلات الرئيسية للحاضر وتأثيره عليها . وعلى الرغم مما يمكن أن تنزلق إليه هذه الطريقة من مبالغة وتشوبه فإنها ــ إذا استخدمت بحذر ــ تضفى نوعا من الحيوية على دراسة التاريخ وتدريسه ما تعجز معه أى طريقة أخرى ومع ذلك فإنها لم تحظ بتقدم كبير فى الجامعات والكليات حيث استطاع الأساتذة أن يقاوموا أى اتجاه يقلل من قيمة التاريخ بدعوى جعله عمليا ومفيدا بدرجة أكبر فى تعليم الجنس البشرى وتوجيهه .

وعلى الرغم من أن أحداً لا يشك فى أن علم التاريخ قد أفاد كثيراً من النشاط المنظم والتعاونى الذى شهده مجال تعليم التاريخ فى الجامعات ، إلا أنه كسائر أشكال الجهد المهنى المنظم لا يخلو من جانب سلبى مؤسف . وأهم ما نلحظه فى هذا الشأن هو أن النظام الجامعى لتدريس مادة التاريخ يعرقل تقدم وانتشار المفاهيم الجديدة المتعلقة بطبيعة التاريخ وغرضه وأهم وأنجح الطرق لتدريسه . ويرجع هذا الموقف بصفة أساسية إلى الحقيقة الخاصة بأن الثورة العظيمة فى موقف العلماء من التاريخ ، كانت إلى حد كبير من عمل الشباب فى حين أن المؤرخين القدامى القائمين بالتدريس الآن كانوا قد أتموا تدريبهم وتعليمهم قبل حدوث هذه الثورة . وهكذا يجد المؤرخون الشبان أنفسهم قائمين بالتدريس فى أقسام يرأسها فى كثير من الحالات مؤرخون ذوو آراء ومعتقدات عتيقة ويبجلون تلك الآراء ويحترمونها ، مما يضطر الشباب فى كثير من الحالات إلى كبت آرائهم التاريخية غير التقليدية الخاصة بطرق تدريس التاريخ وتفسيره .

ومن بين الأمور التى استغلت فى تعجيز المدرسين التقدميين ذلك الإشراف الحثيث على أنواع الدراسات والمناهج التى يقترحونها ، مما يجعل من المستحيل إدخال كثير من المادة المستخدمة . ولكن بمرور الزمن سوف يتم معالجة هذا الموقف . وإنه لشىء له مغزاه أن نجد معظم الرجال الذين صاغوا أو يقومون بصياغة التاريخ الجديد لا يشتغلون بتدريس التاريخ فى الجامعات . وهناك جانب آخر لعملية فرض فضائل المحافظة والثبات على المؤرخين التقدميين من الشباب ، وهو ما يحدث من تفضيل أصحاب الذوق السليم من ذوى الآراء التى تنزل التاريخ منزلة رفيعة ، وتعطيه قدرا هائلا من الاحترام وذلك عندما تقدم الجمعيات التاريخية منحها الدراسية . وموقف التعليم الجامعى من مادة التاريخ ليس موقفاً فريداً إذ إنه يشبه ما يحدث فى كافة مجالات التعليم الأخرى ، فمنذ أيام ابيلارد والنجاح الرسمى يكون من نصيب أولئك الذين لا يأتون بأفكار جديدة مزعجة ، والذين يتقبلون الأوضاع كما هى ، أو أولئك الذين كان لديهم من الكفاءة واللباقة ما يمكنهم من تطبيق تلك القاعدة المفيدة الملائمة التى أخذها ديكارت عن أوفيدو والتى تقول «إن الذى يستطيع أن يخفى أفكاره بنجاح هو الذى يحيا كأحسن ما تكون الحياة .»

التكنولوجيا الحديثة والمستحدث فى كتابة التاريخ

من أروع وأبرز التطورات الحديثة فى ميدان التاريخ ما نجم عن جوانب متعددة من التكنولوجيا الجديدة . ومعظم هذه التطورات يتعلق باستخدام وسائل أكثر شمولاً وسرعة لتصوير الأحداث التاريخية مثل الصحف والإذاعة والصور المتحركة خاصة الحربية الناطقة .

فالصحيفة الحديثة تقدم عرضاً شاملاً للتاريخ الجارى المحلى والقومى والأجنبى على السواء ، وهى تعرض الأحداث للقارىء بعد وقت قصير جدا من وقوعها . ففى خلال أربع وعشرين ساعة يمكن للقارىء المعاصر أن يعرف عن شئون العالم الهامة من خلال صحيفة ، أكثر مما كان يمكن معرفته فى سنة كاملة فى وقت الحرب الأهلية الأمريكية . يضاف إلى ذلك أن اختراع الصور المرسلة بالراديو قد ساعد على تعزيز الأخبار بصور حية للأحداث والشخصيات . ومن الممكن الاعتماد نسبيا على المعلومات الصحفية . وعلى الرغم من السرعة المطلوبة من المراسلين مما يضطرهم إلى اختيار الأخبار قبل أن يتم صفها فى أعمدة الجريدة . وندين بهذه السرعة للتقدم التكنولوجى الهائل الذى حدث فى عالم الطباعة فضلاً عن الوسائل التى تساعد على إرسال المعلومات بسرعة والعمل المنظم الخاص بجمع الأخبار ، وهو الذى تقوم به وكالات الأنباء مثل اليـنـويتدبـرس والاسشيتدبرس وغيرها من تلك الوكالات التى ينتشر مراسلوها فى كل أرجاء العالم ، ويقفون على أهبة الاستعداد لكى ينقضوا كالصقور على كل ما يمكن أن يكون خبراً . وهكذا نتبين أن مؤرخ الشئون الجارية يجد تحت تصرفه أداة كاملة على درجة عالية من الكفاءة هى الصحيفة الحديثة ، وهذا أمر لم يتوفر لسلفه الذى عاش وكتب منذ قرن مضى . وحتى إذا لم يجد مؤرخ الشئون الجارية وقتا كافيا لتصفيف وترتيب ما يجده من معلومات فى الصحف ، فلا أقل من الرجوع إلى المجلات الأسبوعية التى تقوم بذلك العمل نيابة عنه حيث إنها تنهض بمهمة تفسير الأخبار اليومية بطريقة عارضة .

وتعتبر مجاميع الصحف فى الوقت الحاضر من أخصب مصادر المعلومات التى يستخدمها مؤرخو العصور التى تبدأ من الوقت الذى أصبحت فيه الصحف أداة هامة لجمع الأخبار . ويسوقنا هذا إلى مسألة الدقة النسبية للصحافة والتاريخ الرسمى . فكثيراً ما يستخدم المؤرخون عبارات مثل مجرد صحافة أو مجرد صحافى لوصف كثير من الانتاج والشخصيات الصحفية . ومع ذلك يمكن

الاعتماد على الكتابة الصحفية الجيدة بقدر الاعتماد على السرد التاريخي الذى ينسخ منها ، لأن الصحافى المدرب تدريباً جيداً يستطيع أن يجمع وينظم مادته بما له من خبرة طويلة فى الملاحظة السريعة والتسجيل الدقيق ، وبما له من خلفية وبصيرة وأساليب متخصصة تمكنه من أداء واجبه أداء ناجحاً كاملاً . ومن ثم فإن إنتاج مثل هذا الصحافى فى الظروف العادية يمكن أن يكون نقلاً أميناً للأحداث . وحتى فى وسط ظروف الاضطراب العام — كتلك التى تعقب الحروب العالمية — نجد أن الصحافى لا يزيد عن المؤرخ المحترف وقوعاً تحت رحمة العواطف . وهذا الإنتاج الصحفى يوضع فى ملفات أو مجلدات ويحفظ فى مكتبات الصحف ، حتى إذا ما مضى جيل أو نحو ذلك اتجه المؤرخون إلى هذه المجلدات يقلبون صفحاتها بعد أن يكون لونها قد اصفر بفعل الزمن . وينسخون ما شاء لهم النسخ ويعيدون كتابة ما يريدون من مادة وهكذا وعلى المدى البعيد يجد المؤرخون أمامهم خليطاً هائلا يمثل خلاصة جهود مئات المراسلين الصحافيين . واذا كان المؤرخ يمتاز بقدرته على إلقاء نظرة فاحصة على ما تتضمنه الصحف من أحداث ، وهى نظرة تفوق نظرة الصحافى كما أنه يستطيع مقارنة ما ورد فى الصحف المختلفة عن الحدث نفسه أو الموضوع ، فإن النتائج التى يتوصل اليها فى النهاية لا يمكن أن تكون أكثر دقة من المصادر التى استخدمها .

على أنه إذا كان للمؤرخ نظرة أفضل إلى الأحداث ، فإن للصحافيين بعض المزايا الخاصة أهمها أنهم شهود عيان للأحداث ، فهم أخصائيون فى فن مشاهدة الأحداث وأنهم يعيشون وقت وقوعها ويلمون تمام الإلمام بالإطار العام الذى يحيط بالأحداث التى تتضمنها تقاريرهم وتحقيقاتهم الصحفية . أما المؤرخ فإنه يظهر على المسرح بعد ذلك بكثير ولذلك فهو يفتقر إلى ذلك الاتصال النفسانى بالشعوب والأحداث المعينة . ولا يمكن أن يكون له أكثر من اتصال غير مباشر وبعيد بالقضايا والشعوب والأحداث التى يسعى إليها جاهداً لوضعها . وهكذا يبدو أن الصحافى المدرب يمتاز عن المؤرخ إذا ما قورن الاثنان من الموقع نفسه الذى يقف عنده كل منهما ولا يمكن لنظرة المؤرخ الأبعد فى مداها الزمنى أن تميزه وحدها عن الصحافى . لهذا كله فإن من العدل أن نقول إن التاريخ الذى يعتمد على الصحافة لا يمكن أن يكون دقيقاً ويمكن الاعتماد عليه مثل الصحافة المعاصرة الجيدة ذاتها .

ويمكننا أن نصور ميزة الأساليب الصحفية تصويراً أفضل إلى أولئك الصحافيين الذين تحولوا إلى مؤرخين مثل الأستاذ آلان نيفنز Allan Nevins (من جامعة كولومبيا) وهو الذى كان لعدة سنوات صحفياً بارزاً ولم يقدره المؤرخون المحترفون تقديراً جيداً ، إلا بعد أن أصدر عدداً من

المؤلفات التاريخية الممتازة ضمته إلى صفوفهم ، حتى أصبح يعتبر بحق وعن جدارة علماً بارزاً من أعلام المؤرخين . وقد ظل بين منصب أستاذ الصحافة فى جامعة كولومبيا ومنصب الصحافى فى صحيفة نيويورك ورلد Newyork World. وشبيه بحالته حالة الأستاذ هانزكوهن .

وتعزز الجريدة السينمائية الناطقة العمل الصحفى ، حيث إنها من أسرع الوسائل لعرض الأحداث التاريخية فى صورة مرئية أمام ملايين الناس الذين يشاهدونها كل أسبوع فى إطار جذاب ، دون أن يبذلوا أى جهد ذهنى ويتجه المؤرخون فى الوقت الحاضر إلى السينما لتقديم العرض المسرحى التاريخى لا للأحداث الجارية فحسب ، بل إنهم يستخدمونها أيضاً فى عملية النقل الأمين للأحداث التى مضى عليها الزمان .

أما المذياع (الراديو) فقد دخل حديثاً إلى الميدان كوسيلة لنشر الأخبار نشراً سريعاً . وقد ساعدت الإذاعة بدرجة كبيرة على نقل الأخبار العالمية فور حدوثها . وأحسن تصوير لفاعلية الإذاعة فى مجال نشر الأخبار هو ذلك الخبر الخاص برحلة أدميرال بيرد Byrd عبر القطب الجنوبى سنة ١٩٣٠ حيث استطاعت صحيفة نيويورك تايمز عن طريق محطتها اللاسلكية الخاصة فى نيويورك أن تعرف كل شيء عن مغامرة بيرد بمجرد أن علم بها رفاقه . وقد التقطت هذه المحطة رسالة بيرد التى بعث بها من طائرته إلى القاعدة التى أقلع منها . هذا إلى أن نشرات الأخبار التى تذاع مراراً كل يوم من محطات الإذاعة تنقل أنباء الأحداث المحلية والعالمية إلى ملايين الناس ، دون الحاجة إلى خروجهم من منازلهم . ولا نجد فى البرامج الإذاعية مثل برنامج عملية الزمن March of Time عرضاً للتاريخ الجارى فحسب ، بل نجد أيضاً نقلا أمينا لأحداث التاريخ فى الماضى . واستمع مئات الملايين من الناس فى الإذاعة إلى مراسم الاحتفال بتتويج الملك جورج السادس وبعد ذلك بست عشرة سنة شاهد عدد أكبر من الناس على شاشة التليفزيون الاحتفال بتتويج ابنه .

وبدأت الجمعية التاريخية الأمريكية أخيرا ترعى برنامجاً إذاعياً تاريخياً . وإنه لشيء ممتع أن نلاحظ فى هذا الشأن أن التاريخ ــ وهو الذى بدأ فى صورة سرد شفوى وجزء من الحكايات الشعبية ــ يعود الآن ولو بشكل جزئى إلى طريقة التناقل باللسان . وعندما يحدث فى المستقبل تصوير عمليات اختراق الحدود وبدء الحرب وتصوير عملياتها وعمل تسجيلات صوتية لها ، فإننا سنتمكن على نحو أبعد مما وصلنا إليه فعلاً من حفظ الحقائق التاريخية ، مما يتيح للمؤرخين فرصة إعادة تصويرها .

وفى سنة ١٩٣٠ كتب كارل بيكل Carl Bickel مدير وكالة اليونيتدبرس آنئذ يقول « إن إدارة قرص أو مفتاح سوف يمكنك وأنت فى حجرة جلوسك أن تسمع وترى سباق كنتاكى . وأن تشاهد بوضوح المباريات الرياضية بل من أن تدور حول العالم وتحضر العروض المسرحية وتشاهد الأوبرات ، والولائم الكبرى وأن تجلس فى قاعة الكونجرس فى واشنطن وأن ترى استقبال طائرة فى أفريقيا وعندما كتب بيكل هذا التنبؤ بدا للناس غريبا كغرابة رحلة القمر ولكن كل ذلك وأكثر منه قد أصبح اليوم شيئا عادياً فى كل بيت به جهاز للتليفزيون .

وكذلك أحدثت التكنولوجيا ثورة هائلة فى طريق الحصول على معلومات عن الحضارات القديمة ، فطريقة البوتاسيوم ارجون تجعل من الممكن تحديد عمر البقايا حتى مليون فى سنة مضت كما أن المسح الجوى يجرى قبل البدء فى عمليات التنقيب الهامة عن الآثار . والحق أن كثيراً من مواقع الآثار الهامة تكتشف فى أثناء الاستطلاع الجوى . ومن ناحية أخرى فإنه حدث تقدم هائل فى عمليات الحفر ذاتها بعد أن حل الحفار البخارى محل الجاروف ، مما جعل العمل أكثر سهولة ونظافة وسرعة . وبالمثل فإنه يمكن أخذ صور جوية للآثار التى يتم الكشف عنها بالحفر وهذا يساعد بدوره على رسم صورة أكثر اكتمالاً ودقة للإنجازات فى ميدان الدراسات القديمة والآثار . وكان آخر مشروع تاريخى قام به المرحوم هنرى بروستيه هو جمع وعرض صور جوية لآثار الشرق الأدنى القديم .

وخلاصة القول أنه إذا كانت التكنولوجيا قد خلقت للمؤرخ عالماً اجتماعياً جديداً عليه أن يتناوله بالبحث فإنها أسدت إليه خدمات جليلة وساعدته فى معالجة الكثير من المشكلات التاريخية من عهود الحضارات القديمة فى أرض ما بين النهرين ويوكافان فى أمريكا الوسطى حتى آخر الأحداث فى القرن الحالى .

المراجع :

A HISTORY OF HISTORICAL WRITING
SELECTED REFERENCES

Robinson, The New History.
Shotwell, An Introduction to the History of History, chap. xxvii.
H.E. Barnes, Historical Sociology, Philosophical Library, 1948.
Tbe New History and the Social Studies.
H.E. Barnes and Howard Becker, Contemporary Social Theory. Appleton-Century, 1940.
Social Tbought from Lore to Science, Vol. II.
E.C. Hayes, ed., Recent Developments in the Social Sciences. Lippincott, 1927.
W.F. Ogburn and Alexander Goldenweiser. Tbe Social Sciences. Houghton Mifflin. 1927.
Pendelton Herring, Tbe Social Sciences in Historical Study. Social Science Research Council. 1954.
H.M. Parshley, Science and Good Bebavior, Bobbs-Merrill. 1928.
E.P. Cheyney, Law in History and other Essays. Knopf, 1927.
Dray, Laws and Explanations in History.
Patrick Gardiner, Tbe Nature of Historical Explanation. Oxford University Press, 1957.
Harlow Shapley, of Stars and Men. Beacon, 1958.
White, Tbe Evolution of Culture.
Jacques Barzun, Rate, A Study in Supersitition.
R.G. Hoxie et al., A History of the Faculty of Political Science, Columbia University. Columbia University Press, 1955.
B.F. Hoselitz, ed., A Reader's Guide to tbe Social Sciences. Glencoe Free Press, 1959.
Paul Tillich. Tbe Interpretation of History. Scribner, 1936.

Muzzey, Essays in Intellectual History Presented to James Harvey Robinson.
V.F. Calverton, ed., The Making of Man. Modern Library, 1931.
Goldenweiser, History, Psychology and Culture.
F.H. Hankins, The Racial Basis of Civilization. Knopf, 1926.
MacCurdy, Human Origins.
Grahame Clark, World Prehistory. Cambridge Univ. Press, 1961.
R.V.D. Magoffin and E.C. Davis, The Romance of Archeology. Holt, 1929.
Stanley Casson, The Progress of Archeology. McGraw-Hill, 1935.
C.R. Knight, Before the Dawn of History. McGraw-Hill, 1935.
J.C. McDonald, Chronologies and Calendars. London, 1927.
Franklin Thomas, The Environmental Basis of Society. Century, 1925.
Seligman, The Economic Interpretation of History.
R.W. McLaughlin, The Spiritual Elements in History. Abingdon Press, 1926.
C.A. Beard, A Charter for the Social Sciences in the Schools. Scribner, 1923.
.The Nature of the Social Sciences. Scribner, 1934.
P.V.N. Myers, History as Past Ethics. Ginn, 1913.
R.M. Tryon, The Social Sciences as School Subjects. Scribner, 1935.
Paul Klapper, The Teaching of History. Appleton, 1926.

الفصل الخامس عشر

التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

اعتبارات تمهيدية

سنحاول فى هذا الفصل أن نعرض تقييماً متفقاً عليه للتاريخ الجديد وأن نجمل البرنامج المقترح له والآمال المرجوة منه ونوضح ما ينبغي عمله لكى يزدهر هذا العلم وينمو . ومهما يكن من عيوب هذا العرض فإن ذلك أمر له أهميته نظراً لأن التاريخ الجديد لا يمكن أن يغرس بطريقة غير هادفة أو غير معتنى بها ، فنحن لابد وأن نعرف ما نريد تحقيقه وكيف نتوصل إليه بنجاح .

وأول ما يواجهنا فى هذا الصدد هو ذلك التساؤل الذى أثاره بلباقة وقوة الأستاذ كارل بيكر عند استعراضه كتابا للمؤلف بعنوان « التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية » فى مجلة Satur-day Review Literature فى عددها الصادر يوم الخامس عشر من أغسطس سنة ١٩٢٥ . وانصب تساؤل الأستاذ بيكر على طبيعة التاريخ الجديد ومجاله ومدى انطباق صفة « جديد » عليه . وهناك اعتقاد عام بأن التاريخ الجديد يعنى ذلك النوع من الكتابة التاريخية الذى يطرح جانباً المفهوم الذى يرى أن خير ما يناسب التاريخ هو أن يكون علاجاً « للسياسات الماضية » يقوم على أساس اختيار الأحداث وشرحها . وقد جرى الاصطلاح على أن يقصد بالتاريخ الجديد طريقة العرض التاريخى التى تحاول بصفة عامة أن تعيد صياغة تاريخ الحضارة ككل بوصفه على حد قول الأستاذ روبنسون كل ما نعرفه عن كل شىء فعله الإنسان أو فكر فيه أو أمل فيه وأحس به . ويعتبر هذا المفهوم للتاريخ الجديد كافيا ودقيقا على وجه العموم ، ولكن الشىء الجوهرى فى هذا الموضوع هو المفهوم القائل بأن التاريخ الجديد هو اتجاه للبحث عن الأصل Genetic Orientation .

ويحمل هذا المفهوم الموسع والمنقح لمجال التاريخ وعمله فى طياته متطلبات رئيسية ، وهى على وجه التحديد نوع من التدريب يمكن المؤرخ الطموح من أن يقوم بأعباء مهنته فى ثقة ونجاح . ولابد أن يشتمل هذا التدريب الموسع فى المحل الأول على إلمام كامل بطبيعة الإنسان وعلاقاته ببيئته الطبيعية والاجتماعية الأمر الذى يمكن المؤرخ من معالجة مشكلة صعبة ، هى إعادة صياغة الأوجه المختلفة لتاريخ الحضارة . كذلك لابد وأن يعد المؤرخ لتحليل التطور فى النظم ، وهو التطور الذى يحفظ سجل سيطرة الإنسان تدريجياً على بيئته المادية ونجاحه المضطرد فى تنظيم الجهود التعاونية لبنى جنسه . وبمعنى آخر فإن على هؤلاء الذين يتطلعون إلى العمل فى مجال التاريخ الجديد ، أن يكونوا مزودين بأساس من علم الأحياء وعلم الأجناس البشرية وعلم النفس وعلم الاجتماع . كذلك فإن عليهم أن يتدربوا تدريباً خاصاً فى العلوم الاجتماعية وفى بعض فروع العلوم الطبيعية وعلم الجمال وهى الفروع التى تتصل بهذا الجانب أو ذاك من الكتابة التاريخية التى ينوون الاشتغال بها[1] .

وسوف نناقش فى جزء لاحق من هذا الفصل ما ينبغى إعداده للاستفادة الكاملة من التاريخ الجديد . ولكن يجدر بنا فى البداية أن نصر على حقيقة أن أفكارنا الجديدة عن طبيعة التاريخ لا تتطلب امتداداً بعيداً لمدى اهتمامات المؤرخ فحسب ، وإنما تتطلب كذلك توسعاً شاملاً فى الإعداد اللازم للاشتغال فى هذا المجال اشتغالاً يوحى بالثقة ويحظى بقيمة ثابتة . ولقد نادى البعض بأن كل ما يلزم لكتابة التاريخ الجديد هو تغيير القلب بمعنى أن على الفرد أن يغير من عقله إذا أراد أن يتحول من معالجة أصول الحلف المقدس أو انقسام حزب الأحرار إلى تحليل الصراع الطبقى فى العصور القديمة أو تاريخ العلم الطبيعى فى العصور الوسطى ، أو تحليل نفسانى لشخصية فولتير ، واقتصاديات النظام القارى ، أو تطور النظام القضائى الحديث ، أو التقدم فى علم الطب منذ سقوط المدرسة الأبوقراطية . وجاء فى الأسفار المقدسة أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يزيد قامته ذراعاً واحدة بمجرد الشروع فى التفكير[2] فى ذلك ويمكننا أن نقول باطمئنان إنه من الصعوبة بمكان أن يحول الفرد نفسه من راوية تقليدى إلى مؤرخ للثقافة أو النظم وذلك بمجرد إمعان المفكر .

(١) ناقش المؤلف هذه النقطة بالتفصيل فى كتابه ، التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية .

(٢) انجيل متى ، الاصحاح السادس ، (المراجع) .

فالتاريخ الجديد يتطلب شيئين معاً : برنامجاً جديداً بمضمون التاريخ ومجموعة جديدة من المؤهلات اللازمة للاشتغال بالتاريخ .

هذا عن مجال التاريخ ، ولكن ماذا عن شرعية نعته بصفته جديد ؟ الواقع أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء جديد أو فريد حتى في اتساع مجال التاريخ وتعديه دائرة الأحداث السياسية . فأول عمل تاريخي شامل ، وهو الذي وضعه هيرودوت تحت عنوان تاريخ الحرب الفارسية كان كما رأينا في التاريخ الثقافي وفي كل عصر من العصور التي أعقبت عصر هيرودوت كان هناك كتّاب تعدى اهتمامهم بالماضي مجرد الحملات العسكرية والصراع بين الأحزاب والجماعات ، حتى ولو اقتصر نشاطهم على ذكر المعجزات التي جاء بها قديس أو الشرور التي جلبها ساحر . أما الشيء الجديد حقاً في التاريخ الجديد من ناحية الموضوع ، فهو ازدياد قبول المفهوم الموسع للتاريخ في العصر الحالي . ففي الأزمنة الماضية كان الكتّاب الذين يتناولون تاريخ الثقافة أناساً منعزلين ، يتعرضون لعدم التقدير . أما اليوم فإن الغالبية العظمى من المؤرخين الشبان الذين آمنوا باتساع مجال التاريخ الجديد ، فضلاً عن أن بعض مؤيدي الكتابة التاريخية التقليدية بدأوا يستسلمون للاتجاه الجديد أو بدأوا على الأقل يجاهرون بالتراجع ، وهو أمر يدعو للابتهاج والغبطة ، وأكثر أهمية من مجرد تحول تسعة وتسعين في المائة من الشباب إلى الاتجاه الجديد . فانتصار وجهة النظر القائلة بالتطور والاتجاه نحو البحث عن أصل الإنسان ، وهي النواحي التي تتطلب من المؤرخ أن يكون مهتماً أساساً بتبيان كيفية مجيء النظام الحالي إلى الوجود يعتبر شيئاً جديداً وفريداً حقاً وهو يمثل التاريخ الجديد في أبهى صوره . ولم يكن في تاريخ هيرودوت من هذا القبيل سوى النزر اليسير .

وأصبح هناك بالنسبة للمفهوم الخاص بالإعداد الأولي اللازم لدراسة التاريخ وكتابته أمور جديدة لا خلاف حولها . ذلك أن الاعتقاد السائد حتى عصر فون رانكه هو أن الطموح الأدبي والأسلوب السليم يؤهلان أي فرد كي يضع نفسه على قمة التاريخ بصورة ناجحة . وكان على الرغم من ذلك قلة من الكتاب أمثال بوليبوس ، مايبلون ممن أصروا على تدريب المؤرخ تدريباً خاصاً وتزويده بمؤهلات معينة لابد من توافرها فيه . وكما أن أوضح رانكه ومن أتوا بعده أنه لابد من إعداد الفرد قبل أن يشتغل بالتاريخ وذلك بتدريبه تدريباً طويلاً على مبادىء نقد الوثائق وعمل الفهارس التاريخية . أما الرأي القائل بأن المؤرخ لابد وأن يلم إلماماً كاملاً بالعلوم الاجتماعية فهو اتجاه حديث نسبياً . ولم تصل هذه العلوم ذاتها إلى المستوى الذي يجعل مادتها

أساساً يعتمد عليه فى قوة الإدراك والتحليل التاريخى إلا حديثاً . ولم يتم التوصل إلى فكرة اعتماد التاريخ على العلوم الاجتماعية قدر اعتماده على العلوم السياسية والديبلوماسية وعلم المخطوطات إلا فى وقت متأخر جداً . ونخرج من هذا كله بأن أكثر الأجزاء جدة وأصالة فى الكتاب الذى أحدث ثورة كبرى والمعروف بالتاريخ الجديد للأستاذ روبنسون هو ذلك الفصل بعنوان « حلفاء جدد للتاريخ » وهو بيان واضح للنظام التاريخى الجديد . فالتاريخ الجديد يعتبر جديداً من حيث قبوله مجموعة أوسع وأكبر من اهتمامات معظم المؤرخين . كما أنه جديد كذلك من حيث اتجاهه إلى البحث عن أصل الإنسان وإقراره ضرورة إعداد المؤرخ إعداداً شاملاً يمكنه من أداء مهنته بكفاية ونجاح .

بعض ملامح انتصار التاريخ الجديد

جاء تطور التاريخ الجديد فيما يبدو نتيجة لعوامل وتأثيرات عديدة مختلفة . فهناك فى المقام الأول عدد من الكتاب جمعت اهتماماتهم الفردية بين الشغف العميق بالماضى والنظرة إليه من زاوية أكثر اتساعاً من زاوية السياسة الديبلوماسية والاستراتيجية العسكرية أو من هؤلاء وبلهلم ريهلWilhelm Riehl الذى كان قاصاً خيالياً اهتم بالتاريخ القومى فى ماضيه . وكذلك فر Freytag الذى تناول التاريخ ببصيرة خلاقة نفذت إلى ماضى تاريخ بلده . أما بيركهاردت فإن اهتمامه بالتاريخ جاء فى صورة تقدير واستحسان للأعمال الفنية فى العصر الذهبى للفن الإيطالى . وأظهر كل من فولتير وربنان واندرو د. هوايت حباً يعكس حب العقلانيين الجارف بالحقائق المتعلقة بالتحرر الفكرى للجنس البشرى . وتطلع جرينGreen بروح حساسة وعقلية مثقفة للوصول إلى صورة أكثر دقة للأساس الاجتماعى لعظمة بلده . وأخيرا فإن ماكماسترMc Master أخذ الاهتمام بالتاريخ عنده صورة تقدير مهندس عملى الفكر للطبيعة الملحة لقصة التطور القومى كما تصوره مصالح كل الطبقات وحياتها .

أما التأثير القوى الثانى فجاء نتيجة لافتراض التطور وعلى الأخص اهتمام علماء الأحياء بمسألة أصل الإنسان . ذلك أن علماء الأحياء ــ كما أوضح ذلك الأستاذ روبنسون مراراً ــ هم الذين علموا المؤرخين مبدأ التطور والاتجاه نحو البحث عن الأصل ، وهو أمر لابد وأن يعتبر

حجر الزاوية للجوانب الأكثر حيوية من التاريخ الجديد[1] . ويعزى الاهتمام الكبير من جانب مؤرخ التاريخ الجديد بكيفية تطور الأمور ووصولها إلى ما هي عليه أساساً إلى تأثير فلسفة التطور على العقلية التاريخية الأكثر تفتحاً وتقبلاً لكل ما هو جديد . وهكذا نرى أنه لمدة ثلاثة آلاف سنة ظل المؤرخون بعيدين عن وجهة النظر التاريخية إلى أن جاء العلماء الطبيعيون وزودوهم بها . هذا على الرغم مما أمسك به مقدم دير القديس بطرس وتيرجو وكوندورسيه في القرن الثامن عشر من خيوط ضئيلة لعلم يتناول التغيير الاجتماعي .

وجاء الاهتمام بتتبع أصول الأشياء في وقت كانت الحضارة تموج بتغيرات ثورية بفضل التحول العلمي والتكنولوجي والاقتصادي العظيم . وهكذا لم يعد إيضاح تطور الثقافة والنظم يعني مجرد التاريخ الدستوري وتطور الأحزاب وأصول المشكلات والمنازعات الدبلوماسية أو سلالة الأسر الحاكمة ، بل أصبح لابد من أن يشمل أموراً عديدة أخرى مثل اختراع المولد الكهربائي والتخدير الجراحي ، والمقايضات العالمية واشعاعات الراديوم ، وعلاج الزهري والصحة العقلية ، والاختراعات الميكانيكية ونظام المصانع وآلة الاحتراق الداخلي ، وعملية بسمر في صناعة الصلب وفن الطباعة ، وغير ذلك من الإنجازات التي لم تشغل قط فكر فريمان وهو الذي كان يعتد بما يعرف . وبمعنى آخر فإن الباعث على اكتشاف النظام الحالي جاء في وقت لم تعد الحضارة السائدة فيه كما كانت من قبل تظهر متنكرة خلف جهود بعض السادة الذين يناضلون من أجل امتيازات اقتصادية أو هيبة سياسية أو قوة يحافظون بها على أنفسهم على حساب أولئك المساكين مسلوبي الإرادة الذين كانوا يشكلون الجيوش النظامية الثابتة لحكام مطلقين زاد أو قل كرمهم . وعن اتجاه البحث عن الأصل نجم اهتمام بتاريخ الحضارة .

وكان أن حدا منهج البحث عن الأصل وهو المنهج الذي تتبعه الدارسون الأذكياء إلى السير قدماً نحو الخطوة التالية والأخيرة في تطور التاريخ الجديد ، وهي على وجه التحديد تفسير التطور التاريخي بطريقة تمكن من اكتشاف ما لتحول الحضارة وأصول النظم الاجتماعية من أهمية

(١) يجب أن يكون واضحاً أن تعليم وجهة نظر البحث عن الأصل من قبل علماء الأحياء وغيرهم من العلماء الطبيعيين كان تعليماً في معظمه غير مباشر وغير مقصود وقليل من العلماء الطبيعيين هم الذين طبقوا مبادىء علمهم على الظواهر الأخيرة . وعندما يصل الأمر للمواد الاجتماعية نجد العلماء قلما يتحمسون بنفس الاتجاه وغالباً ما يكونون جامدين أو حتى رجعيين . وكان المرحوم هنري برهفليد بورن خير مثال في هذا الشأن . (المؤلف) .

ومغزى . ولم يعد المؤرخون المحدثون يهتمون باكتشاف إرادة الله أو المصير النهائى للجنس البشرى من واقع سجلات الماضى ، كما فعل السابقون الذين نظروا إلى التاريخ على أنه فلسفة تلقن عن طريق سرد الأمثال . ومع ذلك فإنه لابد من أن نقر بأن أهم أحداث الماضى هى التى لها شأن فى توجيه الأجيال الحاضرة أو المستقبلة . يضاف إلى ذلك أن القيمة الحقيقية للتاريخ فيما يمكن أن يقدمه عون مادى يساعدنا على التوصل إلى فهم أفضل لحضاراتنا ، ومن ثم إلى السيطرة عليها وإعادة توجيهها .

ومن أبرز الشخصيات التى أوضحت الدوافع المتعددة التى انبثق عنها التاريخ الجديد . نذكر أسماء كارل لامبرخت ، هنرى بير ، جيمس هارفى روبنسون ف . ت تيجارت ، ف . س . مارفن ، ارنولد توينبى ، والسيرج . أ . هامرتون .

أما مذهب لامبرخت فقد جاء وليد اهتمامه بعلم الأجناس البشرية ، وباتجاهات ونـدت Wundt السيكلوجية ومحاولة كومت Comte تفسير التقدم البشرى تفسيراً سيكلوجياً فضلاً عن الثقافة الشخصية الواسعة التى امتدت من التطور الاقتصادى إلى تاريخ الموسيقى . ومهما يكن حكمنا على مذهب لامبرخت وصيغه التاريخية فإن عمله كان أول الأشياء التى أثارت على نطاق واسع ذلك الجدل الذى انتهى بالانتصار المؤكد للتاريخ الجديد .

ولم يقتصر هنرى بير على الكتابة عن الجوانب النظرية للتركيب التاريخى ، ولكنه كما رأينا من قبل - أشرف على إصدار سلسلة عظيمة تحت عنوان تطور البشرية ، وهى التى كان الغرض منها فعلاً التوصل إلى هذا التركيب . وتكمن أساس نظريته فى وجهة نظره الاجتماعية عن التطور فى النظم ، ورغبته فى تقديم اتجاه علمى فيما يتعلق بالسياسة التاريخية ، ووضع منطق للتركيب التاريخى من وجهة نظر عالية . وكان حرياً بهذا كله أن يجعل مفهومه الخاص بالتركيب التاريخى يمتد جنباً إلى جنب مع دراسة تاريخ الإنسانية ككل .

أما جيمس هارفى روبنسون فإنه على عكس لامبرخت ، وبير . ولم يخرج تيجارت بأى مذهب خاص يتضمن مبادىء نظريته فيما يتعلق بالتاريخ . وجاء تحوله إلى التاريخ الحركى تحولاً تدريجيا ويجد المؤلف تفسيراً لذلك فى الحقيقة الخاصة بأن روبنسون كان إنسانا فعلا يبحث عن الحقيقة دون ملل أو كلل . وما التاريخ الجديد إلا تاريخ متميز بغزارة الفكر . وقد تجلت بداية انفصال روبنسون عن التاريخ التقليدى فى نظرته الأصيلة إلى الثورة الفرنسية حيث وجد نفسه يعود إلى الوراء بحثاً

عن أصل الإنسانية . وعبر هو نفسه عن ذلك بقوله إنه فى العشرين سنة التى أعقبت وظيفته الأولى محاضراً فى جامعة بنسلفانيا انتقل من الاهتمام بمزالق السياسة الحديثة إلى المادة الفطرية الأولى التى نشأت منها الحياة ذاتها . كذلك فإنه تأثر بدرجة كبيرة بالاتجاهات الثورية التى تسعى للبحث عن أصل الحياة والإنسان . التى نادى بها علماء الأحياء .وازداد اهتمامه بمغزى التطور التاريخى بازدياد تحسن فهمه لكيفية تطور الفكر والثقافة . وهذا هو الذى جعله يتحول إلى الرأى القائل بأهمية تفسير مادة التاريخ . وتعزيز أهمية وعظمة الدور الذى لعبه روبنسون فى حركة التاريخ الجديد فى الولايات المتحدة إلى ماحظيت به مؤلفاته الدراسية من قبول ورواج ، فضلا عن نجاحه كأستاذ فى أحد معاهد الخريجين الكبرى فى بلده وقدرته العظيمة على الإقناع بوصفه من دعاة الاتجاهات الجديدة ، هذا فضلا عن كثرة أتباعه وإخلاصهم له وصمودهم فى الدفاع عن آرائهم .

وليس هناك بين كافة كبار الكتاب الذين عالجوا موضوع المناهج والاتجاهات الجديدة فى التاريخ من حرم من التقدير مثلما عانى الاستاذ تيجارت . فعلى الرغم من أنه يأتى بلا جدال فى مقدمة الكتاب الذين عالجوا الأساس النظرى للتاريخ الجديد فى الولايات المتحدة — إن لم يكن العالم كله — إلا أنه ظل مجهولا وانعدم تأثيره خارج دائرة تلاميذه القلائل . ويرجع ذلك إلى تفضيله للعمل المستقل وإنكاره لأهمية مافعله معظم الآخرين ورفضه ربط نفسه بأولئك الذين نجحوا فى إرساء قواعد التاريخ الجديد .

ولم يكن ف. س. مارفن مؤرخاً محترفاً وإنما كان فيلسوفاً اجتماعياً مستنيراً ذائع الصيت ، ومع ذلك فإنه فعل الكثير من أجل إثارة الاهتمام بالتاريخ الجديد فى انجلترا ودفع عجلة تطويره وعلى أساس من إيمانه بواقعية التقدم وبمعرفة العلم والتكنولوجيا الهائلة فى تحقيق الرخاء البشرى ، والحاجة إلى علاقات دولية سليمة ؛ وضع مارفن سلسلة الكتب المعروفة بسلسلة الوحدة ، بالإضافة إلى ما كان قد ألفه من كتب أهمها « الماضى الحر » . وكان لهذا الجهد المرموق أكبر الأثر فى تعزيز موقف التاريخ الجديد . أما برنامج توينبى ونظريته الخاصة بمقارنة قيام وسقوط الحضارات فقد تحطمت على صخرة افتراضاته اللاهوتية المتطرفة التى جعلت عمله الضخم عملاً روحانياً أكثر منه تاريخياً . ونهض السير ج. أ. هامرتون بدور هام فى وضع حركة التاريخ الجديد قدماً من خلال عمله كناشر : وأشهر كتبه هو ذلك الذى أسماه التاريخ العالمى للعالم وهو الذى ظهر سنة ١٩٣٣ فى ثمانية مجلدات ويعتبر أقيم المطبوعات فى مجال التاريخ الجديد فى انجلترا .

وأخيراً فإن التاريخ الجديد لقى حديثاً تأييداً مدهشاً فى إيطاليا حيث بدت بشائره فى كتاب طالما كثر النقاش حوله هو عظمة روما واضمحلالها كما أنه لاقى تأييداً كبيراً من الفيلسوف البارز بندتوكروز. وقد سار المؤرخون الإيطاليون من أصحاب النزعة التقدمية وراء زعيمهم كواردو بارباجلو ـــ الذى ألف واحداً من أعظم الكتب عن تاريخ الحضارة ـــ وأنشأوا لهم فى سنة ١٩١٧ مجلة بارزة أسموها « المجلة التاريخية الجديدة » Nouva Revista Storica .

برنامج التاريخ الجديد

ساد اعتقاد فى وقت من الأوقات بان من لديه قليلا من المعرفة يمكنه أن يكون مؤرخاً إذا ما تمكن من نسخ بعض الكتابات والنقوش المدونة على الأحجار فى إحدى المقابر المحلية أو من كتابة مقال عن كليو باترا يقرؤه أمام ندوة محلية للحياكة. وهناك بين المؤرخين والمفكرين التقدميين فى يومنا هذا من يندد بأى جهد يبذل لتحديد مجال التاريخ بل ويشجعون كل من يقحم نفسه فى هذا المجال يتناول أية مشكلة تاريخية تروق له .

ويبدو لنا أن هذا الاتجاه لا يمكن أن نقبله بأى حال إلا إذا اعتبرنا كل شخص يقوم بخلط المساحيق طبيبا أو كل من زود نفسه بسكين حاد ينبغى أن يشجع على ممارسة الجراحة بل إنه حتى التاريخ فى الماضى ـــ الذى لم يتعد مرحلة سرد الأحداث والقصص ـــ كان يعانى من افتقاره لمنهج البحث السليم . وسيكون هذا هو وضع التاريخ الجديد إن لم يكن هناك اتفاق عام حول برنامجه وحول التدريب اللازم لتحقيق ما يرجى منه . ويحتاج الآن إلى اتفاق ووحدة وتعاون بالضبط كما هو الحال فى مهن أخرى كالطب والمحاماة والهندسة .

وللتاريخ الجديد فيما يتعلق بمجال اهتماماته برنامج شامل وذلك بحكم تعريفه بأنه تسجيل لكل ما حدث فى الماضى دون استبعاد أى شىء حدث فى الماضى بحجة أنه غير تاريخى بالمعنى الحرفى ، أو غير ذلك من الحجج . ولكن ليس معنى هذا أن تكون هناك لا مبالاة تامة أو فوضى عامة فالحقيقة الخاصة بأن المؤرخ الجديد يقرأ الطبيعة التاريخية ككل ما حدث فى الماضى ابتداء من تعاويذ البدائيين وعادات التزين عند زوجات سليمان إلى اختراع الآلة البخارية إلى نسيج الفراش الذى كان يتمدد عليه واشنطون بجسده الفارع ، وهو فى طريقه من فرجينيا إلى

ماساشوست كل هذا لا يعنى أبداً أن المؤرخ الجديد يطالب بأن يعطى قدرا متساويا من الاهتمام لكل هذه الأمور أو أنه يعتقد فى أنها متساوية الأهمية . ومما لا شك فيه أن الإنسان يأتى بنتائج طيبة إذا ما عمل فى الحقل الذى يفضله ويهتم به . فإذا ما أراد الفرد أن يكون مؤرخاً وكانت لديه حماسة كبيرة لتتبع تطور الاستراتيجية البحرية فى سويسرا فإنه ينبغى أن يشجع على ذلك . ولكنه لا ينبغى أن يعتبر ذلك العمل على قدر مساو من الأهمية مع الدراسات المتعلقة بالثورة الصناعية ، أو مع الأبحاث الخاصه بتاريخ العلم الحديث . ومعنى هذا أنه لابد من أن يكون هناك قدر من حسن الإدراك فتحدد الأهمية النسبية للمادة التاريخية بطبيعة الفترة التى تقع فيها ثم بمدى انعكاسها على الحياة المعاصرة . وفى كل من الحالتين يعتمد هذا التحديد بشكل مباشر وعملى على الغرض الماثل فى دهن الكاتب . وأما المهمتان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما :

١ ــ تصوير وإعادة بناء الحضارات فى العصور الرئيسية فى العصور الماضية تصويراً إجمالياً .

٢ ــ تتبع جذور الثقافة والنظم الحديثة .

وتتحدد فى المهمة الأولى من هاتين المهمتين الأهمية النسبية للجوانب المتعددة للثقافة البشرية بما كان لها من مكانة واقعية فى العصر الذى تريد تصويره . فإذا أردنا على سبيل المثال أن نصور حضارة عصر بركليز ، فإن المعيار الذى نقيس به أهمية الأحداث والاتجاهات ينبغى أن يكون من واقع عصر بركليز نفسه وليس من عصر المؤرخ . وهذه الحقيقة هى التى تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل على أستاذ ورع للتاريخ فى كلية من الكليات الدينية فى كانساس يتصف بالتدين والطهر والجحود والافتقار إلى الإحساس الجمالى أن يصور فى مهارة حضارة عصر الإسكندر أو أوغسطس . ذلك أن هذا الأستاذ سوف يصدم بالمعايير الجنسية عند الإغريق والرومان قدر اصطدامه بانعدام وجود مدارس الأحد أو القوانين التى تحرم الخمر وتفرض قيوداً على التدخين . وهذا هو أحد الأسباب التى جعلت المؤرخين المسيحيين يرسمون صورة مشوهة عن الثقافة الوثنية . إذ لا يمكن لعصر كان جل همه أن يعد الناس لكى يموتوا موتاً هادئاً آمنا من أن يقدر أو يستحسن حضارة كانت فلسفتها تهتم بتعليم الناس كيف يحيون حياة سعيدة .

ومن ناحية أخرى فإن علاج المهمة الثانية من مهام التاريخ الجديد وهى على وجه التحديد تتبع تطور السمات المميزة للحياة المعاصرة ونظمها يتطلب معياراً لقياس الأهمية النسبية للجوانب المختلفة للثقافة بما يتفق مع العصر الحاضر فالدين مثلا كان من أهم خصائص العصور الوسطى وكان دون شك أكثر أهمية من العلم ، ومع ذلك فإن من وجهة نظر الحضارة المعاصرة نجد أن تاريخ

العلم فى العصور الوسطى أكثر أهمية من دراسة الحياة الدينية فى تلك العصور . إذا كان علينا أن نعطى صورة حقيقية للحضارة الهيلينية ككل ، فإن علينا أن نختص المنجمين بقدر من العناية أكبر بكثير من تلك التى نخصها للفلكيين ، ولكن إذا كنا نهتم أساساً بتوضيح أصول الحضارة المعاصرة ، فإن أعمال اريستاركوس Aristarchus وهيبار كوس Hyparchus تكون أكثر أهمية من أعمال كافة منجمى العصور الوسطى الكلاسيكية جميعها . وإذا كان علينا كذلك أن نعطى صورة حقيقية للاهتمامات الفكرية فى حركة الإصلاح الدينى البروتسنانية فإننا نحتاج إلى التركيز على مسائل التبرير بالإيمان ، أكثر من التركيز على الآراء الاقتصادية المعارضة لكل من لوثر وكالفن وغيرهما من زعماء تلك الحركة . ومع ذلك فإنه من ناحية تطور ثقافة اليوم يبدو أن ابتعاد البروتستانت عن الآراء والعادات الاقتصادية الخاصة بالكاثوليك ، كان أمراً أعظم وأكثر أهمية من كافة المشكلات الدينية فى ذلك العصر بأكمله . فروجر بيكون كان يبدو فى نظر رجل العصور الوسطى شخصية تنتمى إلى تلك العصور فى اهتماماته ونشاطه ، ولكنه لا يبدو كذلك للمؤرخ الباحث فى أصل الإنسان لأنه يجد أن أبرز جوانب شخصية بيكون هى البصيص الضئيل من الجدة وإشاراته العابرة لفضائل طريقة الاستقراء والتجربة والملاحظة وتلميحاته الخاصة بالاختراعات الميكانيكية فى المستقبل .

وتكفى هذه الأمثلة القليلة لتوضيح أن الأهمية العلمية للأحداث التاريخية والظواهر الثقافية ليست أمراً مطلقاً ، وإنما هى ذات أهمية مزدوجة ، بل ربما كان لها أكثر من أهمية واحدة . ذلك أن كل حقيقة من حقائق التاريخ لها أهميتها النسبية من النواحى التالية :

١ ـ أهميتها فى العصر الذى كانت جزءاً منه

٢ ـ انعكاسها على جذور الثقافة المعاصرة .

وليس هناك باحث فى التاريخ يستطيع أن يتناول المشكلات التاريخية دون أن يدرك تماماً حقيقة تلك الأهمية النسبية للمادة التاريخية ودون أن يوجهه الغرض الماثل فى ذهنه هو . وثمة اعتقاد ساد بأن المؤرخ الواحد يستطيع أن يضطلع بكلتا المهمتين أى أن يعيد تصوير وبناء حضارة ما وفى الوقت نفسه يوضح علاقتها بالعصر الحاضر . ولكننا نشك فى صحة ذلك الاعتقاد لأن التباين فى الأهمية النسبية بالنظر إليها من هذه الزاوية أو تلك من زاويتى الاهتمام يحتمل أن يؤدى إلى تشويه خطير لهذا الجانب أو ذاك من جوانب العمل ذى الوجهين إن لم يكن للجانبين معاً .

كذلك لابد من أن يكون واضحاً أنه إذا كان الفرد مهتماً بأصول حضارة لا ينتمي إليها ، فإن معيار الأهمية النسبية للمادة ينبغي أن يتمثل في صلة هذه المادة بالحضارة التي يجري البحث عن أصولها . وهكذا فإن الوضع بالنسبة للمؤرخ الذي يبحث عن أصول الحضارة الإغريقية يكون الاهتمام بالمعلومات التي لديه عن مصر بقدر ما لها من مشاركة وصلة بالحضارة الهيلنية ، أكثر من اهتمامه بالحضارة المصرية في حد ذاتها .

وقد يشكو البعض من أن هذا المقياس لاختيار أهمية المادة التاريخية أمر نسبي وعملي ويتساءلون عما إذا كان هناك مقياس آخر مطلق مثالي . وفيما يبدو ليس هناك مثل هذا المقياس المطلق ، وكل ما هنالك حقاً هو أنه في التحليل الأخير نجد أن قيمة المادة التاريخية في شرح حضارتنا المعاصرة تعلو أية قيمة أخرى بها .

وتقودنا هذه المناقشة الموجزة لأبعاد واهتمامات المشتغل بالتاريخ وفق نهج المدرسة الجديدة ، كما يقودنا هذا العرض المبسط للمعيار ذي الوجهين لاختيار أهمية المادة التاريخية بطريقة طبيعية إلى مشكلة تنظيم المادة التاريخية في ضوء المفاهيم والاتجاهات الجديدة .

والواقع أن الأمر كان بسيطاً في الأيام الغابرة عندما وجد هيكل للتاريخ السياسي والعسكري واعتبر هذا الهيكل دائماً يكفي تماما ليكون إطاراً عاماً لنظم الملحمة الكاملة للبشرية ، ولكن مفاهيم التاريخ الجديد كان لها من التأثير الهدام ما اتصفت به المدرسة التاريخية القديمة من بساطة بدائية ، مثلما كان لعلوم الطبيعة الفلكية والتطور البيولوجي ونقد الكتاب المقدس على ما اتصف به إيمان الآباء ومعتقداتهم المبسطة التي تبعث على الراحة والطمأنينة . وعلينا الآن أن ندرك أن الأحداث السياسية لا تكفي إطلاقاً لتشكيل البناء الكامل للتاريخ فحسب ، بل لا توجد مجموعة واحدة من الأحداث أو الحقائق التاريخية يمكن أن تستخدم لتنظيم المادة التاريخية . ذلك أنه لا يوجد مفتاح واحد يحل لغز السببية في التاريخ . وقد يبرز في بعض الأحيان عامل أو آخر يحظى بأهمية كبرى . ولكن لا يوجد هناك سبب أو تأثير واحد كانت له صفة الدوام على طول التاريخ البشري بأكمله .

ويمكن القول بشكل نسبي وعام أن سلسلة السببية التاريخية إنما تسير على النحو التالي تقريباً : لدينا عاملان دائمان نسبياً في التاريخ هما الطبيعة الأصلية للإنسان والبيئة الجغرافية لمنطقة معينة . ولكن هذين العاملين ليس لهما صفة الجمود التام ، لأنهما يرتبطان بعوامل مؤثرة أخرى

بحيث تجعل تفاعلها بحتة مستمرة في طبيعتها وبدائها . فالطبيعة الأصلية للإنسان في تفاعلها مع لون معين من ألوان البيئة الجغرافية تؤدى إلى نظرة خاصة للحياة . وهذه النظرة شأنها أن تتحكم بدرجة عظيمة فى مدى انبثاق وتطور العلم والتكنولوجيا . ثم إن المستوى التكنولوجى يحدد طبيعة الحياة الاقتصادية التى يمكن أن توجد فى أى عصر أو إقليم . هذا فى حين أن النظم الاقتصادية تتجه لترك أثر قوى إن لم يكن فاصلاً فى تكييف النظم والعناصر الثقافية الأخرى : « الاجتماعية والسياسية والقضائية والدينية والأخلاقية والتربوية والأدبية » .

على أن هذه فى الحقيقة مبالغة فى تبسيط العملية التاريخية ، لأن السبب والأثر ينشطان ويتفاعلان بصفة مستديمة . فعلى سبيل المثال نجد أن عدداً قليلاً من الاختراعات الميكانيكية مثل الطباعة أو الطرق الحديثة لتبادل المعلومات قد تحدث تغييراً فى حياة الإنسان من شأنه أن يسبب تحولاً كاملاً فى السيكلوجية السائدة لأى عصر ونؤكد مرة أخرى أنه فى بعض الأحيان قد تكون هناك عوامل سيكلوجية وثقافية معينة لها من القوة ما يكفى لعرقلة ما تفرضه المزايا الاقتصادية والرخاء المادى . وهكذا نرى أن نسيج التطور التاريخى شائك ومعقد ، وأن المؤرخ الذى يستطيع أن يحل مشكلات السببية التاريخية فى أى عصر بذاته دون أن يستعين بتفسير عالمى مقبول للتاريخ البشرى يكون مؤرخاً عظيماً حقاً .

وسوف يجد بعض من هم على قدر من اليقظة ما يمكنهم من ملاحظة انهيار الدعامة السياسية — التى كانت تسند ظهر المؤرخ المجتهد — شيئاً من العزاء فى فكرة أنه إذا تعذر علينا استخدام الأحداث السياسية كإطار للأعمال التاريخية ، فإننا يمكننا على الأقل أن نركز على الكيان القومى وأن نكتب قصة تطور الثقافة الفرنسية والإيطالية والثقافة الأسبانية وغيرها . ولكننا هنا نجد أنفسنا مرة أخرى وقد جردنا الحياة من بهجتها وذلك أن مفهوم التاريخ القومى بأكمله ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالأسطورة الرومانسية القائلة بالعبقرية القومية . وعندما ننظر إلى التاريخ من وجهة نظر تطور الثقافة والنظم يصبح واضحاً لنا أنه لا يمكن أن يوجد شىء اسمه التاريخ القومى . فتغير الأسر الحاكمة والسياسة الحزبية والدسائس الدبلوماسية ، يمكن أن تعرف أنها أدوار قومية على الرغم من أنها ليست كذلك من الناحية العملية . أما تطور الثقافة والنظم فلم ولن يمكن أن يكون مسألة قومية بحتة .

ولا يقل غرابة عن كتابة تاريخ بحث للثقافة الفرنسية أو الألمانية مجرداً من كل شىء آخر ، التفكير فى كتابة تاريخ للسيارات أو الطباعة أو المجهر من زاوية قومية . ويجد الباحث إرضاء

لفضوله التاريخي في دراسة تلك الجوانب من الثقافة ذات الأصل العالمي وكيفية نموها أو تقييدها داخل هذه الدولة أو تلك . والواقع أن أي تاريخ قومي للثقافة سيكون حتماً شيئاً تافهاً مصطنعاً إذا ما قورن بدراسة الأصول الثقافية دراسة لا تعترف بوجود حدود مصطنعة فرضتها طموح الأسر الحاكمة أو الحرص الاقتصادي .

وهكذا يتضح أننا نستطيع الاستمرار في دراسة الجوانب القومية في الثقافة ولكننا بالتأكيد لا نستطيع دراسة التطور القومي للثقافة . فالتاريخ القومي سوف يهوى إلى عالم النسيان في ظل التاريخ الجديد بدرجة لا تقل عن التاريخ السياسي ، وذلك إذا اعتبرناه الأساس الذي بني عليه تنظيم وعرض الحقائق التاريخية . وقد اعتبرت الأمة في يوم من الأيام كياناً سياسياً . ثم جاء رينان ، زانجويل ، زيمرن Zimmern وغيرهم فأنكروا ذلك الأساس واعتبروا الأمة وحدة ثقافية وربما كان علينا أن نذهب خطوة أبعد من ذلك ونصف الأمة بأنها وهم ثقافي مضلل أو نوع من البلاهة الثقافية . ولهذه الاعتبارات السابقة مغزى أعمق بالنسبة للمهتمين بمشكلة القومية ومسائل الحرب والسلام ولكننا لا نستطيع الخوض في هذه الأمور في هذا الفصل .

وإذا كان المؤرخ المبلبل الفكر الذي ينتمي إلى المدرسة القديمة الذي أبعد عن معقله السابق — وهو الإطار السياسي للتاريخ والطريقة القومية في التبويب — سيحتمي بالتقسيم التقليدي للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث . إلا أنه كما سبق أن أوضحنا سوف لا يهتم دعاة التاريخ الجديد بأن يعطوا ذلك الحل من اعتبارهم أكثر مما أعطوا لنظرية السببية التاريخية والاتجاه القومي في التاريخ إن لم يكن أقل .

ومن الواضح جيداً أن أي تاريخ يبني ببساطة على تسلسل عدد من السنين الرئيسية يكون عديم الأهمية على الإطلاق . فصفة الاستمرار في التاريخ تثبت عدم جدوى التقسيم إلى عصور وفترات ، فضلاً عن أن علمي الأجناس البشرية والتاريخ الثقافي يثبتان أن العناصر المختلفة في التركيب الثقافي لا تخضع لأي قانون من قوانين التطور أو التقدم . وإذا كنا نعني بالتجديد الضبط الاجتماعي والدقة العلمية فإن أخلاقيات الإغريق كانت أحدث كثيراً من أخلاقيات جون س. سمر Summer Gohn S أو الأسقف مانتج Manning . هذا إلى أن الحياة الفنية في عصر النهضة أغنى وأوسع من حياتنا الفنية اليوم . ويتضح من ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك أي نوع علمي من التاريخ ، يقوم على افتراض وجود معدل موحد للتطور والنمو لكافة أنماط الثقافة والنظم . وفضلاً عن ذلك فإن سرعة التطور الثقافي تختلف كثيراً من منطقة إلى أخرى . ولنتخيل مثلا أننا

نحاول فى موضوع تحت عنوان « الحضارة القديمة » أن نصف ثقافات الصين واسكندناوة وأمريكا الجنوبية وغاليا وأرض ما بين النهرين والهند فى سنة ١٠٠٠ ق.م . وأن نصف فى موضوع تحت عنوان « الحضارة المعاصرة » ثقافات الصين وانجلتره وألمانيا وروسيا والبرازيل فى سنة ١٨٩٠ ميلادية . وإنه ليبدو كما سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق أن التاريخ الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه لابد وأن يكون على درجة عالية من التخصص ولا يبنى على أكثر من وصف تطور نواحٍ معينة ومحددة من الثقافات أو أنظمة محددة تقع داخل نطاق منطقة ثقافية متجانسة . وربما يرد المؤرخ التقليدى بأنه لا داعي بالمرة فى هذه الحالة لاستخدام أي تقويم ، وهو رأى قد يكون له ما يبرره .

وإذا احتج مؤرخ المدرسة القديمة فى شيء من اليأس على هذا الوضع بوصفه يؤدى إلى اضطراب وفوضى وتعقيد ليس من الممكن احتمالها ، فإن علينا أن نعترف بأن هذا صحيح فى الوقت الحاضر . ولكن دعاة التاريخ الجديد ليسوا بأى حال مسئولين عن هذا الموقف . وكل ما هنالك هو أن المؤرخين بدأوا ينتبهون إلى حقيقة الموقف الذى يواجهنا فى كل ركن من أركان الحياة اليوم . وهذا يعنى أن التاريخ صار معاصراً فى نظرته ، كما أنه فى سبيله إلى الاعتراف بما سبق أن أدركه واعترف به علماء اللاهوت والفلاسفة وعلماء الاجتماع ودارسو علم الأخلاق . ولن يؤكد هذا شيئاً أكثر من أن النعامة التاريخية الرمزية رفعت رأسها أخيراً من رمال العصور الوسطى والحركة الإنسانية . وأعطت عالم القرن العشرين حقه كاملاً . إن هذه الثقافة تشهد اليوم الحضارة المدنية الآلية وهى تتغير فى سرعة ، وحضارة العصر الصناعى التى حلت محل بساطة المعيشة الريفية لم تتغير إلا قليلا من قرن لآخر والتى تميزت بإحساس وهمى بالأمن والطمأنينة مصورة الاعتماد على الإيمان الأعمى بمفهوم بدائى للكون وعدد قليل من المعتقدات الدينية الساذجة . وتشهد هذه النعامة اليوم كوناً متسعاً ومراجعة شاملة جادة لكل الافتراضات التى وصفها الإنسان فى الماضى لتبرير مكانته فى الكون ، ولكل آرائه عن الطمأنينة فى عالم الأرض وعالم ما وراء الطبيعة . كذلك تبعث هذه التغيرات المذهلة فى الأحداث والمواقف التاريخية على ثورة مشابهة فى مفاهيم التاريخ وأهدافه . وليس بعجيب أن يكون الدافع الأول لدى هذه الثقافة التاريخية هو أن تغوص مرة أخرى فى الرمال .

وبمعنى آخر فإن المؤرخ يواجه متطلبات إتمام وتنفيذ مهمته فى ضوء علم القرن العشرين ، ومناهجه بنفس الشكل والقدر الذى نواجه به جميعاً التعديلات والتغييرات التى تفرضها علينا المدنية فى عصرنا هذا . فمنذ خمسين سنة مضت كان المواطن المثقف فى الولايات المتحدة يشعر

بالكفاية والأمن الكاملين فى ظل إيمانه باللغات الكلاسيكية ، وعقائد التفكير ، والتعريفة الجمركية الواقية ، والحزب الجمهورى . ولكننا نجد المواطن نفسه اليوم يواجه متناقضات واضطرابات يفرضها علم الطبيعة الفلكية المعاصر الذى أثبت ضآلة كوكبنا وبالتالى ضآلة الإنسان نفسه كما يفرضها عليه أيضا التشكك فى التركيب الاجتماعى الاقتصادى بأكمله ، وهو ذلك التركيب الذى يعتمد عليه نظام التعريفة الجمركية . ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر مدى تأثير إدراك المواطن الأمريكى المتزايد لانعدام كفاية وقدرة الحزبين الجمهورى والديمقراطى على السواء إن لم يكن لانعدام قدرة الإنسان السياسية فى ظل الجو المعقد الذى ساد المجتمع المعاصر . فما بالنا إذن بالتغيرات فى الاتجاهات التى فرضتها على كل أستاذ جامعى فطن يشتغل بالتاريخ تلك التحولات العديدة التى حدثت فى الخمسين سنة الأخيرة . وإذا كان هناك من يزعم أن قليلا من العقول الممتازة فقط هى التى تستطيع التجاوب مع ما يتضمنه هذا الرأى حول مهام وواجبات المؤرخ ، فإن الرد عليه هو أنه على الرغم من أن ربة البيت لا تستطيع أن تمارس الطب أو أن الحلاق لا يستطيع أن يمارس مهنة الجراحة فإن الطب والجراحة ازدهرا بدرجة لم يكن يتوقعها أحد منذ أن فرضت قيود عملية فى ممارسة هذه المهنة أو تلك . وسيكون علينا فى المستقبل أن نميز بدرجة من الدقة بين المؤرخ الحقيقى وكاتب السجلات .

وفى تأكيدنا لأهمية اتجاه البحث عن أصل المجتمع البشرى ، فإننا نمس عدداً قليلاً من الدروس التى يلقنها التاريخ للجنس البشرى . ولابد من أن يكون واضحاً لكل ذوى الفكر أن المواقف الاجتماعية والثقافية فى الماضى تختلف عن مثيلاتها فى القرن العشرين ، إلى الحد الذى يجعل استفادتنا من خبرات العصور التاريخية السحيقة أمراً ضئيل القيمة . ومع ذلك فإن العودة إلى الوراء وتتبع ثقافتنا ونظمنا من بدايتها تجعلنا نتوصل إلى فهم أحسن لعصرنا ، وفى الوقت نفسه يمكننا ذلك من تحطيم ذلك الاتجاه الذى يقدس الماضى ويمجده ، والذى كان العقبة الرئيسية فى سبيل التقدم الاجتماعى والفكرى مما جعل منه أخطر تهديد يواجه المجتمع .

وينبغى أن نذكر هنا أنه إذا كان التاريخ سيهتم أساساً بتتبع أصول الثقافة والنظم المعاصرة ، فإن كثيراً من المشكلات التى ذكرت آنفا فيما يتعلق بالتنظيم العام للمادة التاريخية والنظريات المتضاربة الخاصة بالتقويم ، سوف تختفى تلقائياً لأن المشكلة فى كل حالة ستنصب على نشأة وتطور نظام بعينه ، أو جانب واحد من جوانب الثقافة ، على الرغم من أن تاريخ هذا النظام أو الجانب سيرتبط عادة بتاريخ النظم والجوانب الثقافية الأخرى .

التدريب المرغوب فيه بالنسبة للتاريخ الجديد

إذا كان للتاريخ الجديد أن ينجح فلابد أن تعد جماعات أكبر من العاملين المتحمسين فى هذا الميدان ، وأن يوجّه أعدادهم بحيث يجعلهم قادرين على القيام بأبحاث على درجة عالية من الكفاية والتكامل ، وإذا كان التاريخ فى المدرسة القديمة قد عانى كثيراً من عدم تدريب المشتغلين به تدريباً كافياً ، فإن التاريخ الجديد سيكون فى حال أسوأ إذا لم يدرب المشتغلون به تدريباً كافياً ، لأنه يتطلب دراسات دولية واسعة المدى . وقد ينادى البعض بأن الشخص الملهم يستطيع أن يقوم بأعمال عظيمة فى مجال التاريخ الجديد دون الحاجة إلى تدريب واسع المدى ، ولكن كلامنا هنا ليس عن العباقرة ، وإن كان نجاحهم فى هذا المجال أمراً بالغ الصعوبة . فالتاريخ الجديد تماما — كالتاريخ القديم عليه أن يعتمد بدرجة كبيرة على تلك الفئات الجادة المخلصة من الباحثين الذين لابد وأن يدعموا ويوجهوا بتدريب شامل دقيق يؤهلهم لممارسة مهنتهم .

وعلينا أن نصر دائما على أن التاريخ الجديد هو أساسا علم إعادة بناء الثقافة والبحث فى أصل النظم . ومن ثم فإنه يمكن القول بحرية بأن المؤرخ الممتاز فى المدرسة الجديدة هو ذلك المؤرخ الذى يستطيع أن يضيف إلى الدقة العلمية والمعرفة قدرا أكبر من المهارة الفنية الخلاقة اللازمة لإعادة بناء الحضارات بناء دقيقا ، مع تتبع حريص لأصول الأفكار والنظم وذلك مثلما فعل روبنسون وبيكر وبيرد . ويطابق هذا القول فى وضوحه القول بأن الشخص العظيم فى ميدان الطب شىء أعلى وأكبر من الطبيب الفنى المدرب ، ولكنه لم يكن يرقى إلى هذه المكانة لولا أنه كان فى يوم من الأيام عالماً طبيباً . وينبغى ألا نخلط بين الفن الأدبى والمقدرة التاريخية[1] . فالكاتب القدير لا يمكن أن يعتبر مؤرخا إلا بالقدر الذى نعتبر به الشخص الذى يرسم رسماً يحاكى فيها شكل القديس بطرس أو الملك شارل الأول فناناً . ففان ديك كان يستحق لقب مؤرخ بالقدر الذى يستحق به كارليل ذلك اللقب . كما أن هوجارث كان مؤرخا حقيقياً تماما مثله مثل ماكولى .

وقد قيل إن السبب الرئيسى فى ضعف تاثير التاريخ على الحياة العامة والرأى العام هو افتقار الكتاب المحدثين إلى الأسلوب الممتاز . ولكن هؤلاء الكتاب يدفعون بأن السبب الحقيقى هو

(١) انظر للرأى المناهض ، كتاب تريفليان كليو : الإلهام (المؤلف) .

العقبات التى تفرضها المفاهيم العتيقة الخاصة بطبيعة الكتابة التاريخية ومجالها وهدفها ، مثلما يفرضها كذلك ادعاء المعرفة ، والحرص على استعراض المعلومات ، واختيار موضوعات غير مألوفة ، فضلاً عن المجاملة فى الكتابة واستغلال الكتابة التاريخية فى تحسين الأوضاع الأكاديمية والصداقات المهنية بدلاً من محاولة تنوير البشرية وتحقيق مزيد من التقدم لها ؛ ولن يكون للكتاب أمثال سومبارت ، فيبلن جمهور من القراء إذا لم يكن هناك مكافأة مادية تعوض عن الجهد المبذول فى قراءة كتبهم . حقيقة إنه لا سبيل إلى إنكار الحاجة إلى كتابة ممتازة ، ولكن المطلوب هو كتابة ممتازة بأقلام مؤرخين ممتازين ، أى أن المطلوب هو كتابة تاريخية ممتازة بأفضل ما تحمل الكلمة من معان .

ولابد على وجه الخصوص من مناقشة ما تتصف به المواقف التاريخية الهامة من طبيعة خاصة فريدة وغامضة فى الوقت نفسه وهى النظرية التى تقر الطابع الفريد الخداع ، للحقائق التاريخية التقليدية . إن ذلك الشىء الذى يسمى مسرحية التاريخ ليس إلا سجلاً لاستجابات الوجود الكيميائى الحيوى للمؤثرات الأرضية وليست الاستجابات البشرية فريدة فى نوعها أو أكثر غموضاً من سلوك الحيوانات الأخرى ، أو سلوك الأنسجة العضوية والمواد غير العضوية كما تدرس فى المعمل فمداولات الجمعية الوطنية التأسيسية فى عهد الثورة الفرنسية كانت نتاجاً طبيعياً تماما يشبه استجابة القردة فى حديقة حيوان برونكس بارك وقد يكون الموقف التاريخى فريداً فى معناه الزمنى البحت . ولكنه لا يمكن أن يكون فريدا من وجهة النظر العلمية ، لأنه نتاج السلوك الإنسانى الذى يمكن تحليله علمياً . يضاف إلى ذلك أنه ليس باستطاعتنا أن نؤكد أن تلك الجوانب من الموقف التاريخى التى يزعم البعض أنها فريدة هى الجوانب الهامة فيه . فالظواهر التاريخية لا تفهم إلا بمقدار انطوائها تحت لواء التحليل العلمى المقنع الذى زودتنا بـه العلوم الطبيعية والاجتماعية الثابتة .

ولايمكن أن نأمل أنه يكفى لإعداد المؤرخ مجرد القيام بأبحاث فى الماضى أو تحصيل قدر كبير من الحقائق التاريخية التقليدية . فالشخص الذى يقوم بجمع وتحرير عدد كبير من النقوش لا يعتبر مؤرخاً مهماً تبلغ قيمة خدماته بالنسبة لتعلم التاريخ . إنه لا يزيد عن ذلك الشخص الذى يجمع قطع الأثاث القديم ويصنفها لوضعها وعرضها فى متحف للفنون الجميلة . كذلك فإن الشخص الذى يعى ويحفظ كتاب و . ل . لانجر — دائرة معارف التاريخ العالمى — لا يصبح مؤهلا بفضل هذا العمل وحده لكى يكون مؤرخاً .

وسيظل أساس كل التدريب الفني فى المدرسة الجديدة فى التاريخ هو الدراسة التقليدية الخاصة بأسلوب البحث فى الوثائق وتناولها . كذلك إن التدريب فى هذا المجال سيزداد بكل تأكيد اتساعا وشمولاً عن ذى قبل . فدارس التاريخ القديم اليوم مطالب بالتعرف على كل ما أمكن جمعه من نقوش ، وأكثر من ذلك فهو مطالب بأن يكون ملماً إلماماً كاملاً ثابتا بآثار ما قبل التاريخ وبكل ما يتعلق بأوراق البردى . وهى النواحى التى لم يكن يهتم بها كورتيوس وموسسن مثلا . وقد يكون على المؤرخ المبتدىء كذلك أن يلم بأساليب الحفر الميكانيكى والتصوير الجوى ، ومعنى هذا كله أن هناك حاجة ملحة فعلية عند دراسة التاريخ الجديد لقدر من المعلومات الفنية يفوق كثيراً ما كان مطلوبا لدراسة العصور الوسطى عندما كان أهم شىء هو اتقان اللغتين اللاتينية واليونانية ، فضلا عن الإلمام باللغة العربية والعلوم الثانوية الأخرى اللازمة لدراسة الوثائق ونقدها . واذا ما توفر ذلك يستطيع الفرد أن يمضى قدماً فى التاريخ مستعيناً بقائمة مصطلحات اللاهوت وكتاب دى كانج ليرشده إلى مصطلحات العصور الوسطى . أما الباحث الذى يبحث فى التاريخ المعاصر فسوف يواجه عدداً أكبر من المطالب ، اذ لابد وأن يكون ملما بمسك الدفاتر والمحاسبة وبأسس التكنولوجيا وأركان النظام الحالى للمؤسسات وبمصطلحات العلوم السياسية المعاصرة وأسس النقل ومبادىء علم التطور البيولوجى وأسس علم الطبيعة الكهربائية العلمية ، فضلاً عن عدد كبير آخر من مظاهر الحضارة المعاصرة . هذا إن أراد أن يقرأ بشىء من التمعن تلك الوثائق التى تحتوى على المادة الخاصة بمهنته .

ثم يلى هذه الخطوة الأساسية الخاصة بالإلمام بأسلوب البحث فى الوثائق ، خطوة أخرى هى اكتساب النظرة التاريخية الحقة . والسبيل السليم لهذه النظرة هو الإلمام الكامل بوجهة النظر الخاصة بالتطور . فالمؤرخ لابد وأن يفكر وفى ذهنه صورة واضحة لأصل الحياة البشرية بالضبط مثلما يقوم الطبيب بالعلاج فى ضوء التشخيص والأعراض معروفة له . ومن ثم فإن المؤرخ لابد وأن يكون ملما إلماما كاملا بعمليات التطور الكونى والبيولوجى والثقافى فضلا عن تطور النظم . كذلك عليه أن يعود نفسه على التفكير فى الإنسان فى ضوء عمليات ومصطلحات التطور . فالتطور اذا بالنسبة للمؤرخ شأن الديناميكا . أو علم القوى بالنسبة لعالم الطبيعة . وبمعنى آخر فإننا ينبغى أن نصر على أن الشخص الذى يريد أن يكون مؤرخا لابد وأن يكون من البداية ذا عقلية تاريخية .

وبعد ذلك فإنه على المؤرخ أن يلم بالمبادىء والحقائق الرئيسية لعلم الأجناس البشرية من الناحية الجغرافية ؛ أى كما يفسرها أحدث علماء الجغرافيا الأقليمية الذين يشاركون علماء الفرع

الثقافى لعلم الأجناس فى وجه نظرهم . ويوضح كتاب المدخل الجغرافى للتاريخ . ما تعنيه العبارة : فالمؤرخ لابد وأن يدرس جيداً ويإمعان الجغرافيا الطبيعية والاجتماعية للمنطقة التى ينوى التخصص فيها . وعلى أساتذة التاريخ الجديد أن يدركوا من البداية أن ما كان يسمى بالجغرافيا التاريخية فى الماضى وهى التعرف على التغييرات التى طرأت على الحدود السياسية ، والتعرف على الأماكن التى شهدت المعارك لا يعتبر بأى حال دراسة جغرافية للتاريخ مهما تكن قيمة وفائدة المعلومات التى زودتنا بها هذه الدراسة . كذلك على المؤرخ فى هذا الصدد أن يعتاد التفكير فى ضوء المراحل الثلاث الرئيسية لتأثير الجغرافيا على التاريخ كما بينها ليون متخنوف Leon Metch-nikoff والأستاذ ج . ك . رايت J.K.Wright ونعنى بهذه المراحل المرحلة النهرية والمرحلة القارية والمرحلة المحيطية هذا فضلاً عن أنه على المؤرخ أن يعطى اهتماما كافيا لنظرية س . س . جلفيلانS.C.Gilfillan المتعلقة بأن التقدم مرتبط بالمناطق الباردة ويضاف إلى ذلك ضرورة إلمامه بالأهمية التاريخية الأساسية باتصال الثقافات على المستوى العالمى وهو الأمر الذى وصفه بإيضاح الأستاذ و . ر . شيفرد W. R. Shepherd فى دراسته عن الأهمية التاريخية لحركة التوسع الأوربى .

وينبغى أن يلم دارس التاريخ الجديد إلماماً كاملاً بالإنسان وسلوكه العادى والشاذ ، وأن يلم كذلك بأسس علم الكيمياء الوظائفية وعلم الغدد الصماء . فالشخص الذى لا يدرى شيئا عن الأساس العادى للسلوك الإنسانى لا يستطيع أن يفسر هذا السلوك تفسيراً سليماً فى الماضى أو فى الحاضر سواء . ولابد من أن يلم دارس التاريخ بعمل وتأثير الغدتين فوق الكليتين قدر إلمامه بغيرها من غدد الإنسان . إذ من المحتمل أن تكون الغدة الأردنالية (فوق الكلية) قد لعبت دورا فى قرار سازانوف بإعلان الحرب فى يوليو ١٩١٤ لا يقل عن الدور الذى لعبته حركة التضامن السلافية فى إصدار القرار نفسه ولابد من أن يعد المؤرخ الحصيف والمعد تماما لمهنته بأنماط من السلوك غير العادى الأكثر شيوعاً والتى ترتبط بالأنواع المتعددة من الحالات المرضية لدى الإنسان . ولما كان رجال السياسة والديبلوماسيون ورجال القضاء عادة من المتقدمين فى السن . فإنه ليس من الممكن فهم سلوكهم إلا فى ضوء أنواع السلوك المرتبطة بالأمراض البشرية الرئيسية المتعددة كذلك فإن أى شخص لا يعلم شيئاً عن تأثير مرض الزهرى لا يمكنه أن يعطى تفسيراً كافياً لأعمال وتصرفات بعض الملوك والساسة والديبلوماسيين الأقدمين . فأمراض مثل الالتهاب المزمن وعسر الهضم كثيراً ما تساعد عادة على تفسير سلوك الشخص أكثر من معرفة تعليمه أو ديانته أو سياسته أو نشاطه الاقتصادى . كذلك فإنه لا غنى للمؤرخ عن فهم كاف لأنماط

السلوك المرتبطة بالأمراض النفسية والعصبية . ولا يمكن فهم السلوك البشرى إذا فصل فصلاً تاماً عن سلوك الحيوانات الأخرى وعلى الأخص عن سلوك القردة . وهكذا يبدو ضرورة الإلمام الكامل بعلم النفس المقارن ، وهنا نجد أن كتاب (إنسان تقريبا) Almost Human للكاتب يرك Yerke يعتبر أحسن عرض لسيكلوجية القردة يمكن الاعتماد عليه ، وهو كتاب لا غنى عنه لأى فرد يبغى الوصول إلى تفسير واقعى للسلوك الإنسانى وينبغى على المبتدىء الذى يمتلك قدراً كافياً من خفة الدم والروح أن يضيف إلى هذا الكتاب كتاباً آخر هو « عالم القرود » The Simian World لمؤلفه كلارنس داى Clarence Duy فالحقيقة الثابتة القائلة بأن الإنسان ليس إلا حيواناً فى مرتبة أعلى من القرود حقيقة ذات أهمية خاصة ومغزى هام بالنسبة للمؤرخ ، لأنها تفوق فى أهميتها ومغزاها التأكيد بأن الإنسان أقل درجة من الملائكة . ثم إن سيكلوجية السلوك بما تؤكده من التأثير الاجتماعى عنصر هام جداً بالنسبة للمؤرخ الذى يرغب فى تفسير شخصية الفرد فى ضوء حياته المبكرة والظروف الاجتماعية المحيطة به . ولابد أن يضاف إلى ذلك عنصر آخر هو علم النفس التحليلى الذى يلقى كثيراً من الضوء على الحركة اللا شعورية للسلوك . والذى يصر على البحث حول الحقائق الخاصة بحياة الفرد الشخصية واليومية من أجل التعرف على الدوافع الخفية لسلوك أى فرد . وأخيراً فإنه لابد من أن يكون المؤرخ ملماً إلماما كافياً بحقائق علم النفس الاجتماعى حتى يتمكن من توضيح تأثير سيكلوجية الجماعات على الإنسان وإبراز التفاعل المتعدد الجوانب بين الجماعة والفرد .

أما علم الأجناس البشرية فينبغى على المؤرخ دراسته ولما يحتويه من تأكيد لأساس تطور الإنسان ونظمه ، وما يتضمنه من توضيح النظرة الزمنية الجديدة للتطور والنمو البشرى . ولكن علاوة على هذا وذاك لما يحتويه من إيضاح لقوانين التقدم الثقافى وعملياته . وتزودنا كتب مثل كتاب (تطور الثقافة) لهوايت White وكتاب (الإنسان والثقافة) لويزلر Wissler وكتاب (التاريخ وعلم النفس والثقافة) لجولدن ويزر Golden wiser وكتاب علم الأجناس البشرية لكروبر Kroeber بقدر من المبادىء الرئيسية للتطور التاريخى يفوق ما تزودنا به أحسن الكتب التى ظهرت حتى الآن فى موضوع المنهج التاريخى .

والواقع أن علم الأجناس البشرية يفوق غيره من العلوم الفرعية الأخرى فى أهميته كمدخل للتاريخ وذلك من ناحيتى المنهج والتقويم الزمنى .

ولا يمكن للفرد أن يشتغل بكفاءة بالتاريخ الجديد دون أن يكون على دراية بعلم الاجتماع سواء أسس هذا العلم أو مبادئه وذلك بوصفه مقدمة للعلوم الأخرى كذلك لابد من أن يلم بالعلوم الاجتماعية الخاصة مثل الاقتصاد والسياسة والقانون والأخلاق وما إليها فالتاريخ ليس إلا سجلا لتطور الإنسان كما كيفته بيئته الاجتماعية ومن ثم فإنه يتعذر تماماً فهم هذا السجل فهماً سليماً دون أن تكون هناك معرفة علمية بحقائق الحياة الجماعية وتفاعلاتها كما يشرحها علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا كان الشخص ينوى القيام بعمل يتطلب أكثر من مجرد معرفة متوسطة بواحد أو آخر من العلوم الاجتماعية الخاصة ، فإنه لابد له من أن يكون متمكنا من هذا العلم . فعلى سبيل المثال لا يمكن لأى شخص أن يحاول القيام بوضع مؤلف تفصيلى عن التاريخ الاقتصادى ودون أن يكون قد ألم إلماماً كاملاً بكل فرع من فروع علم الاقتصاد والحديث فضلاً عن الإحصاء الاقتصادى ، كذلك إذا أراد الفرد أن يكتب عن تاريخ العلم أو الجمال فلابد أن يضيف إلى تدريبه العام تدريباً خاصاً فى العلوم الطبيعية أو الفنون الجميلة .

وكثير ممن يقرون سلامة هذا البرنامج الطموح لإعداد المؤرخ فى المدرسة الجديدة للتاريخ سوف يذهبون إلى أنه من المتعذر أن تتوافر كل هذه الشروط والمتطلبات فى فرد واحد . ولكن هذا الاعتراض يبدو للمؤلف صاحب هذا الكتاب خداعاً وغير دقيق ، فمن السهولة بمكان تحقيق مثل هذا الإعداد إذا ما أدركت ضرورته بالقدر نفسه الذى ندرك به ونقر ضرورة الإعداد الخاص لمن يمارس مهنة الطب أو الهندسة . فهناك فى جامعات كالولايات المتحدة الأمريكية مناهج تعد الطالب للإقدام على دراسة الطب . ثم هناك ما يلى هذه الدراسة من تدريب طبى مهنى . وبمرور الزمن سوف تكون لدينا مناهج (ما قبل الإقدام فى دراسة التاريخ) فضلا عن مدارس التاريخ المحترفة ومدارس العلوم الاجتماعية التى يمكن فيها وبواسطتها تحقيق ذلك البرنامج التعليمى الذى سبق أن تحدثنا عنه . ولن يحتاج الأمر إلى وقت أكثر مما يضيع فعلا فى تلك الجهود غير المخططة أو غير المنسقة التى تبذل فى الكليات والجامعات . وكل ما هو مطلوب من طالب التاريخ الناجح أن يمكن فى سهولة فى فترة السبع سنوات التى يقضيها دارسو التاريخ فى دراستهم التقليدية للحصول على درجة الليسانس أو درجة الدكتوراه . وسوف يكون فى أيدينا شىء مادى عندما نبدأ هذا البرنامج الإعدادى . وعندئذ لن يكون طلاب الدراسات العليا فى التاريخ على درجة من ادعاء العلم وضيق الأفق مثلما وصفهم كلارنس ليتل المدير السباق لجامعة ميتشجان ، إذ قال عنهم إنهم يعلمون عن حملات هنرى الثامن أكثر مما يعلم أى شخص آخر على قيد الحياة ، ولكنهم لا يهتمون بمعرفة أى شىء آخر .

وقد يقول البعض على سبيل الاعتراض بأن قليلاً من دعاة المدرسة الجديدة فى التاريخ أنفسهم هم الذين يستطيعون اجتياز الإعداد المرغوب فيه للمؤرخ وهو الإعداد الذى وصفناه آنفا . وربما كان ذلك صحيحاً ولكن لا يوجد شك فى أن الأستاذ روبنسون ربما كان أول من أقر أنه لم يكن سوى مبتدئاً متواضعاً فى كل جانب من جوانب الإعداد الخاص بطلاب التاريخ فى المدرسة الجديدة كما سبق أن أشرنا ، ولكنه كان يتمنى لو عاش حياته مرة أخرى ليعد نفسه إعداداً كافياً . وربما أضاف كذلك فى إنصاف أن ما أنجزه عن إعداد غير كاف يعتبر دليلا على النتائج الممتازة التى لنا أن نتوقعها فى المستقبل من الطلاب المدربين تدريباً كافياً وتاماً .

خلاصة القول فيما يتعلق بالتاريخ الجديد

فيما يلى النقاط الرئيسية التى حاولنا إبرازها فى هذا الفصل :

أولا : أن التاريخ الجديد أكثر من مجرد مفهوم جديد حول التاريخ وهدفه لأنه يحمل معه إلزاما بضرورة إعداد المؤرخ لمهنته إعداداً أكثر عمقاً وتنوعاً .

ثانيا : أن التاريخ الجديد جديد من ناحية قبول مبدأ اتساع مفهوم التاريخ ، وازدياد الاعتراف بأهمية العلوم الاجتماعية فى تدريب المؤرخ وإعداده . وكذلك من ناحية غزو التاريخ لاتجاه البحث عن أصل الإنسان وهو الاتجاه المأخوذ عن علماء البيولوجيا وفلاسفة التطور .

ثالثا : ويجد دعاة التاريخ الجديد حتى وقتنا هذا ضرورة القيام بحملة دعاية وتعليم حقيقية ، وارتبطت هذه الحملة ببعض الأسماء مثل لامبرخت ، بير ، روبنسون ، تيجارت ، مارفن . وكان أن حقق دعاة التاريخ الجديد نصراً مؤكداً ، ومن ثمّ فهم يستطيعون الآن أن يركزوا جهودهم للوصول بأساس التاريخ الجديد إلى مستوى الكمال ولتعليم وتدريب أولئك الذين سوف تكون لهم القدرة على ممارسة التاريخ الجديد .

رابعا : أما المهمتان الرئيسيتان للتاريخ الجديد فهما تصوير حضارات الماضى وإعادة بنائها على خير صورة ثم تتبع تطور النظم الاجتماعية الرئيسية القائمة اليوم . وتعتبر المهمة الثانية أهم بكثير من الأولى لأن ما يرجى منها أساساً هو ما يمكن أن تسهم به فى الوصول إلى فهم أفضل لعصرنا الحالى ، إن لم يكن هو الشيء الحقيقى الوحيد المطلوب من التاريخ . وقد يضيف البعض مهمة ثالثة وهى صياغة نظرية السببية الاجتماعية أو عمل دراسة عامة

للتغير الاجتماعي . ولكن الأفضل أن ينطوى هذا النوع من البحث تحت لواء علم الاجتماع التاريخي .

خامسا : لا يمكن اعتبار فئة واحدة من الأحداث التاريخية كافية لوضع إطار لتنظيم القصة الكاملة للتطور التاريخي للثقافة البشرية ، وينطبق هذا الكلام بصفة خاصة على الأحداث السياسية ، إذ لابد وأن يذوب في عالم النسيان ذلك الإطار السياسي للتاريخ ، وكذلك التاريخ التقليدي الخاص بالأمم ونظام التقويم الزمني السائد والمعترف به ليفسح المجال أمام نشأة تاريخ الثقافة والنظم .

سادسا : لا يوجد هناك سبب واحد يحدد مجرى الأحداث التاريخية . وعلى المؤرخ أن يتخذ موقفاً تجريبياً من السببية التاريخية وأن يتقبل النظرة ذات الجوانب المتعددة .

سابعاً : لابد من التخلي عن النظرة الساذجة غير الواقعية والقائمة على أساس غير تاريخي ، وهي نظرة المدرسة القديمة إلى التاريخ .

كذلك فإن ما يواجه مؤرخ اليوم من مشكلات حية وتعقيدات ، وحالة الضياع والاضطراب التي يجد نفسه فيها ليست إلا مظاهر للعصر بأكمله ككل ، والنتيجة الحتمية لأن المؤرخ اكتشف أنه يعيش فعلا في القرن العشرين .

ثامناً : من الضروري عند تدريب من يرغبون ممارسة التاريخ الجديد أن نستبعد من البداية فكرة أن التاريخ فن أدبي أو ترفيهي يستهدف البحث في سجلات الماضي . فالأديب الذي يستخدم المادة التاريخية لا يمكن اعتباره مؤرخاً شأنه شأن الرسام الذي يرسم منظراً لموقف تاريخي . فالتاريخ هو علم تفسير الحضارات الماضية والكشف عن أصل ثقافة اليوم . ومن ثم فإن على هؤلاء الذين يرغبون الدخول في مهنة المؤرخ أن يلموا إلماماً تاماً بكل أنواع المعلومات اللازمة لتصوير ماضي البشرية وتتبع التطور الذي أتى بحاضرهم . ويتطلب ذلك تخطيطا جيدا للدراسات منذ أن يلحق الطالب بالجامعة فصاعدا كما هو الحال في إعداد الأطباء والمهندسين . وباختصار فنحن لا نستطيع أن نستمر في كتابة التاريخ وتعليمه دون أن نأخذ في الاعتبار طبيعة الإنسان وسلوكه[1] .

(١) إذا أراد القارىء بحثاً مفصلاً عن التاريخ الجديد فعليه الرجوع إلى مقال للمؤلف ماكرين برنتون في مجلة « الفلسفة الاجتماعية » عدد يناير ١٩٣٦ . (المؤلف)

الاتجاهات الحديثة والاخطار التي تتعرض لها الكتابة التاريخية

لقد جرى العمل في إعداد الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سنة ١٩٣٦ – ١٩٣٧ بعد فترة وجيزة من صدور كتابي (تاريخ الحضارة الغربية) وهو الكتاب الذى حظى بقدر من الاهتمام وأثار من الجدل والمناقشات في الولايات المتحدة طوال الثلاثينيات مثلما كان لكتاب ويلز Wells (موجز التاريخ) . وبعد أن قرأت مئات التعليقات عن كتابي هذا اقتنعت بأن أكبر خطر يهدد سلامة الكتابة التاريخية يكمن في الصراع القائم بين العقائد المتعارضة . وستظل هذه الحقيقة قائمة طالما أننا ننظر إلى العالم المتحضر ككل . واذا ما نظرنا إلى الصراع بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية سنجد أن الصراع الأيدلوجي يزداد حدة ومرارة . والواقع أن الضغوط الأيدلوجية التي تأثرت بها في سنة ١٩٣٦ كانت في داخل العالم الغربي ذاته بين الفاشية والشيوعية .

وكان الحكم على الكتب التاريخية يتم بصفة رئيسية عندئذ في ضوء ما إذا كان مضمونها يتمشى مع مبادىء الفاشية أو مبادىء الشيوعية . ولما لم يكن في الولايات المتحدة من العلماء من يؤيد الفاشية ، فإن التقدير الأيدلوجي لكتابي هذا بني أساساً على مدى تمشيه مع العقيدة الماركسية . وهذا الحكم ينطبق بصفة خاصة على نظرة المؤرخين الشبان للكتاب . ولا أبالغ إذا ذكرت أن نصف من تعرض من النقاد لكتابي (تاريخ الحضارة الغربية) باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل الجدلية إنما أخذوا عليّ فشلي في اتباع ماركس بإخلاص . هذا على الرغم من أنني أعطيت كثيراً من الاهتمام للعوامل والقوى الاقتصادية ، وهو أمر لم يرض عنه كثير من المؤرخين التقليديين .

والآن اختفى تماماً وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية هذا التهديد الأيدلوجي المتنوع للكتابة التاريخية الموضوعية وهو التهديد الذى كان سائداً في الثلاثينيات . وإذا كان هناك مؤرخون لا يزالون يحترمون الأيدلوجية الفاشية ، فإنهم يحتفظون بأفكارهم ولا يعلنونها . كذلك فإن الحرب الباردة وضعت حداً للاتجاه الخاص بجعل التوافق مع الماركسية مقياساً لسلامة الكتابة التاريخية خارج الستار الحديدى .

ولما كان الجزء الأول من هذا الفصل قد خصص لمعالجة نشأة التاريخ الجديد وتطوره ، فإنه يجدر بنا وقد وصلنا إلى هذه النقطة أن نوضح أن الحماسة للشكل والمضمون الأوسع للتاريخ قد تضاءلت بوضوح في الخمسة والعشرين سنة الأخيرة .

وتعزى الشعبية المتزايدة للتاريخ الجديد فى أواخر العشرينات وفى خلال الثلاثينيات فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد ما إلى حركة العلوم الاجتماعية التى كان يطورها بقوة مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية ، وهو الذى كان يحصل على معونة من صندوق روكفلر ومنحة مؤسسة كارنيجى وهى تلك المنحة التى كان الغرض منها تمويل الدراسات الخاصة بعلاقة العلوم الاجتماعية بالكتابة التاريخية وتعليم التاريخ بصفة عامة . وكان أن شجعت حرية الجيل الجديد واهتماماته الاجتماعية على الاهتمام بالحضارة ككل .

وبقيام الحرب العالمية الثانية بدأ الانغماس فى الشئون الحربية والسياسية والميل العام نحو الأخذ بالاتجاه المحافظ ينعكسان فى اتجاهات المؤرخين . وبانتهاء الحرب أصبح أكثر الكتب الدراسية عن تاريخ الحضارة رواجاً وشهرة هو ذلك الكتاب الذى يحمل فى صدر صفحاته كلمة الحضارة والتى تعتبر مناهجه أقل بكثير فى تمثيلها للتاريخ الجديد من كتاب جيمس هارفى روبنسون الذى ظهر سنة ١٩٣٠ بعنوان (تاريخ أوربا الغربية) يضاف إلى ذلك أن الصحف بزعامة نيويورك تايمز هاجمت الميل نحو الدراسات الاجتماعية ودعت فيما يتعلق بتدريس التاريخ وكتابته إلى العودة إلى الجوهر والإطار السياسى السليم .

على أننا نبتعد عن الحق والصواب إذا قلنا إن نهر التاريخ الجديد قد جف ونضب وإن كنا نعتبر أنه من المؤكد أن سرعة النهر وشدة تياره قد تضاءلا بشكل ملحوظ . ومن العجيب أن يزداد الإعجاب بالعسكرية والاهتمام بالشئون الحربية فى ضوء افتتان المؤرخين بالحرب الأهلية فى عقدها المئوى . ومع ازدياد التعصب الوطنى الذى تميزت به فترة ما بعد الحرب نجد تأكيدا ملحا على التاريخ المعاصر الذى يمثل النقيض لاتجاه المدرسة القديمة التى تدعو للوقوف بالتاريخ عند الثورة الفرنسية أو الوصول به حتى سنة ١٨٧١ .

والحق أن ما اعتبر منذ الحرب العالمية الثانية أنه التهديد الرئيسى للتكامل والثبات التاريخى أمر لا يتعدى دائرة الخيال والوهم لأنه نتج عن الهروب من الواقع والاحساس بالذنب الذى نشأ لدى المؤرخين نتيجة لعدم رغبتهم فى الاعتراف بالأخطار الحقيقة التى تهدد التكامل التاريخى وعدم استعدادهم للإفصاح عنها . وأشير هنا إلى ما يعرف عند المؤرخين (بالنسبية التاريخية) إذ يقال إن الشخصيتين الرئيسيتين على هذا الطريق الخاطىء هما المؤرخان البارزان اللامعان كارل ل . بيكر وشارل أ . بيرد وهما من الرؤساء السابقين للجمعية التاريخية الأمريكية .

وتتلخص أسس هذه (النسبية) اللعينة عند بيكر وبيرد وغيرهما ممن يعطف على وجهة نظرهم فيما يلي :

١ - أن الأحداث التاريخية على درجة عالية من التعقيد والخداع لدرجة أن المؤرخ مهما يكن تدريبه وإخلاصه واجتهاده فلن يتمكن من تحقيق حلم ليو بولد فون رانكه الخاص بتصوير الماضي تماماً كما كان .

٢ - أن ما يقبله المؤرخون والجمهور على أنه حقيقة تاريخية في أي وقت إنما يتوقف على المناخ الفكري الذي يسود ذلك العصر . فضلاً عن صلابة الحقائق التاريخية نفسها .

٣ ـ أن ما يقبل على أنه حقيقة تاريخية من قبل المؤرخين والجمهور سوف يتغير من وقت الى آخر طبقا لعوامل عاطفية .

٤ ـ تكمن القيمة الرئيسية لمثل هذه الحقائق في مدى ما يمكن أن تقدمه لنا من عون لفهم الماضي والحاضر والتخطيط للمستقبل . ولم يتحمس بيكر للحديث عن هذا البند الرابع على الإطلاق وذلك عند تقديمه لتلك النظرية النسبية ولكن بيرد فعل ذلك وخاصة في السنوات المتأخرة من حياته .

وقد سبق أن رأينا بيرد Beard يفصح سنة ١٩٢٦ عن معتقداته الخاصة بالطبيعة المخادعة غير المكتملة والمعقدة التي تتصف بها الحقائق التاريخية[1] ولكنه عبر عنها بشيء من التفصيل والشرح في خطابه الرئاسي أمام الجمعية التاريخية سنة ١٩٣٣[2] كما أنه تولى توضيحها في مقالات لاحقة[3] .

(١) ألقى بيرد بياناً أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٣١ بعنوان Everyman His Own Historian ثم أعد هو نفسه بحثاً لم ينشر يتضمن تفصيلاً لما ألقاه أمام الجمعية التاريخية وقد سمي هذا البحث *Histoircal Evidence* وارجع كذلك لما كتبه صاحب هذا الكتاب ومعه Crane Brinton بعنوان The New History Twenty Years After ونشر في مجلة Journal of social Philosophy يناير ١٩٢٦ (المؤلف)

(٢) نشر هذا البحث في مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية يناير ١٩٣٤ بعنوان :
Written History as an Act of Faith

(٣) منها مقال بعنوان ذلك الحلم الجميل في المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٣٠ ومقال آخر بعنوان ما جدّ على الكتابة التاريخية عدد أبريل ١٩٣٧ أحسن المراجع عن ما كتبه بيرد ما كتبه G.P. Nash: Self Education in Histor-iorography: The Case of charles A. Beard Pacific North West Querterly July 1961.

وكان شائعاً فى أوساط العلوم الاجتماعية وخاصة بين علماء النفس الاجتماعى ، أن المتعارف عليه بأنه الحقيقة التاريخية هو ما يقبله الناس فى أى وقت على أنه الحقيقة ، وظل ذلك طيلة جيل بأكمله على الأقل قبل أن يناقش بيكر (الحقائق) التاريخية فى سنة ١٩٢٦ . ففى سنة ١٩١٣ ذكر وليم أ . داينج William A.Dunning فى خطابه الرئاسى أمام الجمعية التاريخية الأمريكية أن ما يظنه عصر أو شعب معين أنه الحقيقة فهو كذلك بالنسبة لذلك العصر أو « الشعب » وأن أى مؤرخ يدعى أن المؤرخين ليس لهم أن يأخذوا بهذا الذى أجمع عليه الرأى العام ليس له أن يتوقع أكثر من سخرية أولئك الذين يعرفون جيداً سلوك المؤرخين منذ عام ١٩٢٤ ، أى بعد أن أرسيت قواعد التاريخ العلمى الموضوعى ، وتم قبوله طوال ربع قرن . ومن الصعب أن نفهم لماذا تسوء أى فرد معرفة هذه الحقيقة .

وإنها لمسألة رأى تلك التى تتعلق بالنظر إلى الحقائق التاريخية سواء أكان تقديرها لما لها من دور عملى فى مساعدتنا على فهم الماضى والحاضر والتخطيط للمستقبل ، أم لما تثيره من فضول وكبرياء مهمّين لدى المؤرخ . ولكن المؤكد أن الاتجاه العملى هو الأكثر فائدة وتنويراً . وقد قطع روبنسون شوطاً أبعد من بيرد فى تأكيده النظرة النفعية العملية للحقائق التاريخية حيث أوضح أن المؤرخ الموضوعى هو ذلك الذى لا هدف له . ومن ثم فهو إلى حد ما إنسان لا يرجى منه فائدة إلا إذا ظهر شخص آخر يستطيع استغلال ما جمعه من حقائق .

وفى رأى مؤلف هذا الكتاب أن كل ذلك الخلاف حول النسبية لم يكن سوى زوبعة فى فنجان هدفها إلى حد ما تحويل الانتباه عن عدم رغبة المؤرخين فى مواجهة التحديات الخطيرة الحقيقية التى تجابه مهنتهم . ويشبه هذا الأمر انزعاج الفرد إزاء ظهور حالة حصبة ألمانية أو جديرى فى الوقت الذى ينتشر فيه التيفوس أو الطاعون . ونجد وصفا رائعا لتلك الطبيعة غير المعقولة للتيارات الفكرية التى كثيرا ما تؤثر على الأحكام العامة والتاريخية فى الخطاب الرئاسى الذى ألقاه وليم ل . لانجر عن (المهمة التالية) أمام الجمعية التاريخية الأمريكية سنة ١٩٥٧[١] .

(١) لمناقشة مسألة النسبية ارجع إلى الأبحاث التى نشرتها المجلة التاريخية الأمريكية أكتوبر ١٩٥٦ لكل من :
Perez Zagoru, Loe Coershy.W.A. Willian
وإلى ما كتبه Cushing Strout بعنوان الثورة العملية فى التاريخ الأمريكى Pragmatic Revolt in American History
ارجع كذلك إلى Carle Becker. Charble Beard yale uni, pren
B.T.William : Carl Becker
C. W. Smith : Carl Becker: On History and the Climate of Opinion
وهذا الكتاب الأخير من أحسن الكتب التى حاولت أن تواءم وتحدد التشابه بين النسبية عند بيكر وعند Ingsoc

وهناك تهديد أشد خطراً على الدقة والبصيرة التاريخية والصالح العام يتمثل فى الاتجاه نحو النكوص إلى الظروف التى سادت زمن انحلال الامبراطورية الرومانية عندما فقدت الطبقة الرومانية المثقفة المفكرة السيطرة على أعصابها على حد وصف جلبرت مراى إذ تحولت تلك الطبقة إلى دعاة ديانات عصرية غامضة تبشرهم بتخليصهم وتطهيرهم من خطايا الدنيا وتعدهم بالنعيم الدائم فى الآخرة ، فضلاً عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى شاعت وأدت إلى نبذ العقل والإقلال من شأن العلم وتمجيد العقيدة والإيمان . ونستطيع اليوم أن نرى ميلاً مماثلاً لدى المفكرين المضطربين الذين يحتمون بفلسفة معينة كالوجودية أو الديانة المتزمّتة . وأدى انهيار فكرة وجود قوى غيبية خارقة للطبيعة من ناحية ، والأخطار التى تواجه الاتجاهات القومية والديمقراطية المعاصرة إلى خلق اضطراب فكرى ، لا يختلف كثيراً عن ذلك الذى صحب سقوط الحضارة الكلاسيكية القديمة .

وخير مثال لهذا الاتجاه فى مجال التاريخ هو ذلك الكتاب الذائع الصيت الذى ألفه أرنولد توينبى بعنوان (دراسة التاريخ) وعلى الرغم من الحقيقة المعترف بها بأن توينبى هو دون شك أكثر المؤرخين الأحياء علماً ، فإن الإطار التاريخى لأعماله يرتكز على الانحراف الدينى والاعتماد تماماً على الشواهد الغريبة مما ينفر منه أى باحث جامعى واسع الاطلاع كذلك تنكشف تماماً ضعف الدعامة الفكرية اللاهوتية للتاريخ فى كتابين للمؤرخ الهولندى بطرس جيل Pieter Geyl أولهما (فوائد الحضارة ومضارها) وقد صدر سنة ١٩٥٥ وثانيهما (مناظرات مع المؤرخين) وقد صدر سنة ١٩٥٧[1] .

وثمة تهديد أكثر خطورة لمستقبل التاريخ يكمن فى الطريقة التى بعثت بها الحماسة للحرب وما صاحبها من عواطف تجيش فى صدور المؤرخين منذ سنة ١٩٣٩ . ولم يسمح المؤرخون هذه المرة لتلك العواطف أن تفتر وتسترد حالة التوازن مثلما حدث بعد سنة ١٩١٨ ، وهو الموقف الذى تناولناه بالتفصيل فى صفحات سابقة . وفيما يلى ما كتبه مؤرخ البحرية الإنجليزية البارز رسل جرنفيل Russel Grenfell موضحاً تأثير ذلك الموقف على صحة المثل التاريخية وسلامتها .
« سوف يبدو لى ولك — نحن الذين عشنا فى العالم المنحدر فكرياً إلى هنا عالم ما قبل ١٩١٤ — اندفاع المؤرخين المتعمد إلى بحر الزيف والتشويه مما يعتبر ظاهرة خطيرة . من منا كان يستطيع أن

(١) أحسن المراجع عن توينبى ما كتبه المؤلف بعنوان مقدمة للتاريخ وعلم الاجتماع ونشرته جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٨ .

يصدق فى العقد الأول من هذا القرن أن القيم التى كانت تبدو راسخة فى أعماق مهنة التاريخ سوف تختفى بهذه السهولة وهذه السرعة تاركة وراءها فئة قليلة من المحتجين الذين لا يعبأ بهم أحد ، والذين يبكون على ضياع هذه القيم ؟ »[1] .

والسبب الرئيسى فى عدم تماثل أى فرصة أمام المؤرخين للعودة إلى الموضوعية المعقولة منذ سنة ١٩١٩ هو أنه ما أن وضعت الحرب الساخنة أوزارها سنة ١٩٤٥ ، حتى بدأت الحرب الباردة فى أوائل سنة ١٩٤٧ أى فى خلال حكم الرئيس ترومان . وبهذا امتد تحيز المؤرخ بسرعة من ألمانيا وإيطاليا إلى روسيا والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية . وكانت معظم هذه الكراهية أصيلة غير مفتعلة على الرغم من أن بعضها كان بالتأكيد مصطنعا قصد به تحقيق أغراض وقائية وعلى الأخص من جانب المؤرخين ذوى الميول الشيوعية القوية قبل سنة ١٩٤٥ .

وقد أوضح المؤرخ البريطانى البارز أ.ج.ب. تايلور مؤلف كتاب (أصول الحرب العالمية الثانية) تأثير ذلك الاتجاه على استقلال التاريخ ورحابة أفقه . ففى تعليقه على كتاب «بين الحرب والسلام» للكاتب هربرت فيز Feis وهو من أبرز من يعرفون بمؤرخى البلاط فى هذا العصر وأكثرهم إنتاجاً . كتب تايلور يقول : «أمامنا مذكرة حكومية ترجمت إلى مصطلحات تاريخية أكاديمية . إن استنتاجات دكتور فيز لا تستند إلى أدلة حيث إنه افترض فيها ذاتية الوضوح قبل أن يبدأ فى تأليف الكتاب . وكان هناك حين من الوقت نفض فيه المؤرخون عن أنفسهم التزامهم القومى ، وكتبوا كما لو كانوا يرقبون الأمور من كوكب آخر . والواقع أنه عندما كان المؤرخون الأمريكيون يكتبون عن أصول الحرب العالمية الأولى أخذوا يعودون إلى الوراء وابتعدوا كثيراً إلى حد أنهم انحازوا إلى الجانب الألمانى . ولا نعرف اليوم حتى لدى العلماء الباحثين انفصالا عن الحرب الباردة ، إذ إننا نجد المؤرخين الأكاديميين فى الغرب يؤكدون استقلالهم العلمى حتى ولو كانوا يعملون فى إدارة حكومية . ولكنهم «مرتبطون» إلى الحد الذى يجعلهم يبدون وكأنهم يرتدون الأزياء الأنيقة التى أعدها دكتور جوبلز خصيصاً للأساتذة الألمان»[2] .

(١) فى رسالة منه إلى المؤلف فى ٢٣ من ديسمبر ١٩٥٢ وارجع كذلك لمقالة المؤلف فى مجلة Liberation سنة ١٩٥٨ .

(٢) ارجع إلى المانشستر جارديان الأسبوعية ١٩ من يناير ١٩٦١ ، وارجع كذلك إلى ملاحظة مؤرخ انجليزى بارز آخر هو هربرت تبرنيلد عن التاريخ الرسمى فى كتاب History and Human Relations (McMillan 1952 pp. 182-224)

ويتمثل أكثر الجوانب خطورة لهذه السيطرة البيروقراطية على الكتابة التاريخية ، وهذا الربط بين الحقيقة التاريخية والسياسة الحكومية فى أن هذين الشيئين يمثلان الخطورة الأولى والهامة نحو الانزلاق إلى حالة سيئة للتاريخ ولما سيصبح عليه سنة ١٩٨٤ . فنجد هنا توافقاً كاملاً من جانب الكتابة التاريخية مع الاتجاهات والآراء اليومية التى تخلقها النزوات والرغبات والأمزجة الحربية والتى قد تتطور إلى تزوير الحقائق وحجبها أو حتى تدمير الوثائق من أجل الوصول إلى نتائج معينة . وتوضح الفقرة الآتية من كتاب جورج أورويل George Orwell الروح التى تسيطر على الكتابة التاريخية فى ظل مبادىء اينجسوك Ing-soc الذى يمثل الإطار الايدولوجى للنظام القائم فى سنة ١٩٨٤ : «تعاد كتابة التاريخ باستمرار ، وهذا التزوير الذى يتم يوماً بعد يوم والذى تقوم به وزارة الصدق والحقيقة» ضرورى بالنسبة لاستقرار النظام القائم بالضبط مثل ضرورة أعمال الكبت والتجسس التى تقوم بها «وزارة الحب» . فأحداث الماضى ليس لها وجود موضوعى . وكل ما هنالك أنها تعيش فى سجلات مدوّنة وفى ذاكرة البشر . والماضى هو كل ما تتفق حوله السجلات والذاكرة . وحيث إن الحزب مسئول عن كافة السجلات ومسيطر على عقول أعضائه ، فإنه يترتب على ذلك أن الماضى هو كل ما يختاره الحزب ليكون كذلك . وقد أصبحت عملية التأكد من أن كافة السجلات تتفق مع ما نفترض أنه الصواب فى حاضرنا عملية ميكانيكية . ومن الضرورى كذلك أن نتذكر أن الأحداث وقعت فعلاً بالشكل المرغوب فيه . وإن كان من الضرورى أن نعيد ترتيب ذاكرتنا أو نقلب فى السجلات المدونة ، فإن علينا أن ننسى «أننا قد فعلنا ذلك» .

ويتضح بعد هذا الإجراء التاريخى عند انجسوك Ingsoc أن المصادرة والتدمير المتعمدين لكل الوثائق التى تتعارض مع ما يؤخذ على أنه الحقيقة التاريخية فى أى وقت من الأوقات ستكون سمة العصر .

وقد يشعر كثير من القراء أننا مازلنا بعيدين جداً عن مثل هذا الموقف . ولكن الحقيقة هى أننا نعيش فعلاً فى جو تاريخى أشبه ما يكون بهذا الموقف . والفرق فى الدرجة وليس فى النوع . فباستثناء عدد قليل من كتب التاريخ التى صادفت كثيرا من الاحتقار لا توجد كتابة تاريخية منذ سنة ١٩٣٩ حتى فى العالم الحر الذى تحدى ونبذ سيطرة الدولة على الكتاب . وإنها لحقيقة ثابتة أن أهم الوثائق المتعلقة بدبلوماسية الحرب العالمية الثانية قد صودرت أو دمرت . وهناك حوالى أربعين

مجلداً تحوى وثائق خاصة بالسياسة الخارجية الأمريكية فى الفترة الأخيرة ، كلها تنتظر الطبع والنشر ولكن لم يتم شيء يذكر من أجل تنفيذ ذلك البرنامج على الرغم من المال الكافى الذى رصد له وعلى الرغم من أن المسئولين وعدوا رسمياً فى مايو ١٩٥٣ بالعمل على سرعة طبعها ونشرها . كذلك نضيف أن الوثائق التى تم نشرها أخيراً عن مؤتمرات القمة فى وقت الحرب مثل مؤتمرى يالتا وطهران جاء مشوهة وبعضها حجب تماماً ، فضلاً عن أن التحقيق فى كارثة بيرل هاربر كشف عن حجب وتشويه وتدمير بعض الوثائق الدامغة التى تتعلق بالمسئولية عن تلك الكارثة التى حلت بالأسطول الامريكى .

وقد لا يكون الموقف على درجة تثير الفزع فى صفوف المشتغلين بالتاريخ . وهذا هو الواقع فعلا ، لأنه لا يوجد اتجاه عام لدى المؤرخين للاتجاهات الجارية . ولكن سيكون من المزعج حقاً للمؤرخين الذين يتمسكون بالمثل القديمة الخاصة بالتكامل والصدق أن يستسيغوا الآراء المتطرفة التى يتضمنها هذا الكتاب .

نبذة عن تاريخ تأريخ التاريخ

أبدى أحد أصدقاء المؤلف عندما علم بمشروع وضع سطور هذا الكتاب ملاحظة مؤداها أنه لن يمر وقت طويل حتى يظهر من سيكتب تاريخاً لتأريخ التاريخ . والواقع أن مقالة عن هذا الموضوع تظهر فى مجلة تاريخية محترفة ستكون حتما مفيدة وذات أهمية ثقافية ونأمل أن نراها فى وقت قريب . وليس هناك ختام أفضل وأنسب لهذا العرض المختصر لتكريخ الكتابة التاريخية من أن نلخص ما تم إنجازه فى هذك المجال حتى يومنك هذا .

ظهرت الخطوة الأولى نحو مناقشة الكتكبة التكريخية فى عهدها الأول فى كتاب بوليبيوس عندما استعرض ونقد مناهج الكتابة السابقة على عصره ، والتى كتبها الأقدمون عن التاريخ الرومانى وتتكشح تلك الكتابات . وكانت الغالبية العظمى من الكتابات التاريخية الإغريقية والرومانية ـ كما سبق أن أوضحنا ـ عبارة عن تاريخ معاصر ، ومن ثم لم يكن هناك سوى قليل جدك من الكتاب ممن شغلوا أنفسهم بالكتابة عن العصور السابقة على عصرهم . وبالتالى فإنه لا يمكن مناقشة أعمال المؤرخين الأوائل ونقدها بطريقة منظمة . ثم ظهرت بعد ذلك من المؤرخين المسيحيين ابتداء من بوليوس افريكانوس حتى جيروم من تناولوا أعمال المؤرخين الوثنيين

واليهود . كذلك دأب مؤرخو المدونات التاريخية والحوليات فى خلال العصور الوسطى على دراسة الأعمال التاريخية على الأقل بهدف الاستفادة منها فى كتابة مخطوطاتهم . وفى عصر حركة الإصلاح الدينى والحركة المضادة لها ظهرت أبحاث على أعلى مستوى من التنظيم حول الكتابة التاريخية عن المؤرخين القدامى . هذا إلى أن مؤلف كتاب (مئويات مـاجدبـرج) والكاردينـال باروفيـوس وآخرون غيرهم تناولوا بالنقد الكتّاب الذين اشتغلوا بالتاريخ الدينى منذ أيام رسل المسيحية والحواريين حتى القرن السادس عشر . كذلك قام كتاب المدرسة الإنسانية منذ فلافيوس بلوندوس حتى سيجنو يوس وليفسك دى بويلى Leves wue de Pouilly بتحليل مؤلفات الكتّب الذين عالجوا التاريخ القديم والوسيط ، أما ناقدو الكتاب المقدس ابتداء من عزرا حتى استروك وريما Astruc and Reimarus فقاموا ببحث المصادر التاريخية الكتاب المقدس .

ثم تابع المؤرخون العقلانيون وأصحاب المدرسة الرومانسية هذه الدراسات الناقدة إلى أن أصبحت أمراً منظماً وجهداً موجهاً ، فى الفترة التى ظهرت وتمت فيها حركة جمع مصادر التاريخ القومى والمدرسة الناقدة والمدرسـة الناقـدة الحديثـة فى التاريـخ ، ونهض كبار الكتـاب أمثال موراتورى Munatori ، ويتز Waitzجيزو Guizot،مولينير Molinierجيراد Guerard، ستبس Stubbs ومن إليهم بعمليـة نقد وتقييم الكتـاب المسيحيين الأوائـل ومؤرخى العصور الوسطى . وقد فعل الشيء نفسه علماء أمثال نيبوهر Neibhur ، وويتز Waitz، فون رانكه بالنسبة لمؤرخى العصور القديمة والعصور الوسطى وعصر النهضة .

وكان أن ترتب على جهود الناشرين ظهور أول حصيلة مرموقة من الكتب التى تعتبر بحق تأريخا للكتابة التاريخية . وكانت هذه الكتب المرشد الأساسى فى التاريخ القومى حيث أعطت نبذات مختصرة عن أبرز المؤرخين الذين كتبوا عن ماضى الشعوب ، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى العصور الوسطى ومستهل العصر الحديث ، وكان أول هذه الكتب ذلك الذى أصدره فردريك داهلمان Fredrich Dahlaman سنة ١٨٣٠ بعنوان « مصادر التاريخ الألمـانى » الذى تـولى جورج وايتز مراجعته وظهرت منه عدة طبعات . وتعتبر الطبعة الثانية التى أشرف عليها بولس هير Paul Herreفى سنة ١٩١٢ مجلداً عظيما فخماً ، إذ صنفت فيه باختصار كل الأعمال المتعلقة بالتاريخ الألمانى والتى صدرت باللغة الألمانية قبل سنة ١٩١٢ . وهناك أيضا كتاب « مصادر التاريخ الألمانى فى العصور الوسطى » الذى وصفه ويلهلم واتنباخ ، اوتوكار لورنز وهو كتاب أكثر تكاملاً من سابقه فيما يتعلق بالعصور الوسطى .

أما فى فرنسا فلقد أسدى كتاب « مصادر التاريخ الفرنسى » خدمة جليلة لا تقل عما أسداه لألمانيا كتاب ويتز عن مصادر تاريخها . كذلك خدم أوغسط مولنير August Molinire ، هنرى هاوزر Henri Hauser ، اميل بورجو Emil Bourgeois، أندريه لويس Andre Louis التاريخ الفرنسى فى عملهم العظيم بعنوان (مصادر تاريخ فرنسا) وهو ما يشبه ما فعله واتنباخ ، لورنز للتاريخ الألمانى . ويصل هذا الكتاب الفرنسى فى قائمته ونقده حتى ١٧١٥ . وأعد العلامة الأمريكى شارل جروس Charles Gross عرضاً لا يرقى إلى صحته شك للمؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى وذلك فى كتابه « مصادر وكتكبة التاريخ الإنجليزى » وهو الكتاب الذى قام جودفرى ديفز Codfrey Davis بإكماله . فتناول فترة حكم أسرة استيوارت . كذلك اهتمت معظم الدول الأوربية الأخرى بنشر كتب مماثلة عن تاريخ الكتابة التكريخية فيها . ويمكن أن نجد بيانا بهذه الكتب (المرشد إلى الكتابة التاريخية) . أما فى أمريكا فقد قام شاتنج Channing ، هارت Hart، تيرنر Turnerبإعداد كتاب مرشد ممتاز عن الكتابات الخاصة بالتاريخ الأمريكى .

ونجد فى سلسة كتب (أوائل المؤرخين فى أوربا) ، التى يصدرها جيمس جردنر ، جوستاف ماسون ، أوجو بالزانى ، عرضا رائعا لتاريخ الكتابة فى العصور الوسطى فى كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا — كما تعطى هذه السلسلة نبذة عن المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى وذلك لما كان من علاقات وثيقة بين إيطاليا وألمانيا فى تلك العصور . وإذا ما أراد الباحث تفاصيل أكبر عن الكتابة التاريخية الألمانية فى العصور الوسطى فعليه بالرجوع إلى كتب واتنباخ ، لورنز . كذلك نجد فى كتاب العلامة الفرنسى شارل ف . لانجلو Charles V. Langlois واسمه « بحث فى الفهارس التاريخيةManual of Historical Bibliography » عرضا مختصرا وتقييما لكافة الكتابات التاريخية منذ نهاية العصور الوسطى .

وهناك كتاب مفيد مثل سابقه ألفه شارلز كندال آدمزCharles Kendall Adams بعنوان (بحث فى المؤلفات التاريخية) يضم قائمة بأهم الكتب عن التاريخ الإنجليزى والفرنسى والألمانى كما يحوى وصفا لها ويكمل هذا الكتاب الذى ظهر قبل ١٨٨٩ كتاب هام آخر (المرشد إلى الكتابة التاريخية) الذى وضع خطته وأشرف على تحريره جورج م . دوتشر George M.Dutcher ، وليم هـ. اليسون Allison وآخرون . ويعطى هذا الكتاب اهتماماً خاصاً للأعمال التى ظهرت فيما بين سنتى ١٨٨٩ ، ١٩٣٠ وظهرت طبعة جديدة فى سنة ١٩٦١ تحت إشراف ج . ف . هو G.F.Howe .

وإذا كانت هذه المؤلفات التى ذكرها آنفا تعتبر جهداً خالداً ، فضلاً عن أنها تزودنا بمداخل للكتابة التاريخية ، فإنها مع ذلك ليست إلا تاريخاً عابراً للكتابة التاريخية . ولعل أول عمل هام يمكن أن يقال بحق إن مؤلفه قصد به أن يكون فعلاً تاريخاً للكتكبة التاريخية ، هو كتاب (فلسفة التاريخ فى أوربا) . « فرنسا وألمانيا » الذى ألفه روبرت فلنت سنة ١٨٧٤ . وقد عكف مؤلفه فى خلال العشرين سنة التى أعقبت ظهوره على توسيع الجزء الخاص بالمؤرخين الفرنسيين وجعل منه مجلداً كاملاً مستقلاً . ولكنه لم ينشر رسالته المطولة عن المؤرخين الألمان . وكان هذا الكتاب أكثر من مجرد تاريخ لفلسفة التاريخ حيث إنه تناول الكتابة التاريخية عند العقلانيين والمدرسة الرومانسية والقومية ، فضلاً عن الكتكبة التاريخية فى مدراس البحث الأولى ، ومدارس فلسفة التاريخ المعترف بها . وكانت هناك فى الفترة التى أعقبت صدور كتاب فلنت مؤلفات عديدة عن تاريخ الكتابة التاريخية . ولما كانت كلها قد ظهرت فى السنين الأخيرة فإن الأفضل أن نتناولها من حيث الفترات التاريخية المتعاقبة التى تتعرض لها وليس وفق تاريخ صدورها .

فبالنسبة للعصر القديم بأكمله لا يوجد كتاب أفضل من كتاب جيمس ج . شوتويل « مقدمة لتاريخ التاريخ » الذى تناول الكتابة التاريخية منذ المجتمع البدائى حتى عصر المؤرخين المسيحيين . وكان الأستاذ شوتويل ينوى إصدار كتاب عن تاريخ التاريخ كله كما يدل على ذلك بحثه الرائع عن التاريخ فى دائرة المعارف البريطانية ولكن لم يصدر للآن إلا ذلك الجزء الأول الذى لا يدانيه أى عمل مماثل كتب بلغة أخرى . وفيما يتعلق هنا بالشرق الأدنى فإن أقيم كتاب فى هذا المجكل هو كتاب (الفكر الاجتماعى للحضارات القديمة) الذى وصفه عالم الاجتماع جويس أ. هيرتزلار Joyce o. Hertzler وكذلك كتاب (السجلات المصرية القديمة) الذى ألفه جيمس برستيد ، وهو الذى يزودنا بعرض لأهم الكتابات التاريخية عن قدماء المصريين . ويساويه فى الأهمية كتاب ادولف إرمان Adolf Erman بعنوان (الكتابة الأوربية عند قدماء المصريين) . أما فيما يختص بالكتابة التاريخية فى أرض ما بين النهرين فى العصر القديم فتوجد عنها المقدمة الممتازة فى كتاب أ . ت ، أولمستيد عن كتابه « التاريخ عند الأشوريين » . ولا يوجد كتاب تاريخى مماثل يبحث فى الكتب التاريخية والبابلية . وإذا كانت هناك ترجمة لكثير من النصوص التاريخية فى كتاب « الكتابة عند الأشوريين والبابليين » مؤلفه روبرت ف . هاربر وكتاب « النقوش الملكية » عند السومريين والأكاديين للمؤلف د : د . لوكتيل . وهناك عدة كتب تعتبر مداخل لتاريخ الكتابة التاريخية العبرية أبرزها كتاب « أدب العهد القديم » لجورج فوت مور George Foote Moore

كذلك لدينا عن تاريخ الكتابة عند الإغريق القدماء ، ذلك الكتاب الرائع الذى ألفه جون . ب . بيورى تحت عنوان « المؤرخون اليونانيون القدماء » وهو أيضا يضم عرضاً مختصراً عن الكتابة التاريخية عند الرومان . ولدينا عمل مماثل عن تاريخ الكتابة التاريخية الرومانية لويلهلم سولتو Wilhelm Soltau . هذا إلى جانب العديد من الأبحاث الفنية لمصادر التاريخ الرومانى مثل تلك التى وردت فى كتاب مقدمة للتاريخ الرومانى ومصادر مادته لآرثر روزنبرج وكتاب « الكتابة التاريخية للإمبراطورية الرومانية حتى عهد ثيودوزيوس الأول » لمؤلفه هرمان بطرس Hermann Peter . وقد وضع كتاباً آخر يوضح فيه السيطرة التامة للبلاغة على الكتابة التاريخية فى العصور القديمة وهو كتاب « الحقيقة والفن » ، هذا فضلاً عن كتب كثيرة تتناول المؤرخين اليونكنيين والرومان منفردين مثل كتاب جلوفر Glouer عن هيرودوت وكتب كل من جراندى Grundy، أبوت Abbott ، كورنفورد عن ثيكوديدس وكتاب بوسيير Bossierعن تاكيتوس .

أما أحسن المداخل فى علم الكتابة التاريخية فى المسيحية فهو كتاب جوستاف كروجر بعنوان (الكتابة المسيحية فى عصرها الأول ، وكتاب بطرس دى لابرويل Pierre de Labriolle (التاريخ والأدب المسيحى) كذلك يحوى كتاب اندريه لاجارد ، «الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى» عرضاً مختصراً لابأس به للمؤرخين الكنسيين فى العصور الوسطى .

ويعتبر كتاب الكتابة التاريخية فى المسيحية والعصور الوسطى لمؤلفه مورتز ريتار Moritz Ritter أكثر تكاملاً من سابقه . وقد نشرته أول مرة المجلة التاريخية الألمانية . ولقد كان من الطبيعى أن تتعرض الكتابة التاريخية عن العصور الوسطى للمؤرخين المسيحيين . وقد أصدر بطرس جليداى كتاباً قيماً يحوى نبذات عن المؤرخين الكاثوليك منذ ايزبيوس حتى مؤرخى النصف الثانى من القرن التاسع مثل دينفل Denifl . باستور Pastor . أما أحسن المداخل لتاريخ الكتابة التاريخية فى أوائل العصور فهو كتاب س.جـ . هـ هايز C. J. H.Mayes بعنوان (المدخل للمصادر المتعلقة بالغزوات الجرمانية) وهناك عدد من الكتب الجيدة تعتبر مقدمات للكتابة التاريخية التى كتبها مؤرخو العصور الوسطى يأتى على رأسها ما كتبه تاوت Tout ، جنكنز Jenkins وستانلى لين بول . هذا فضلاً عن الأبحاث الممتازة عن المنهج التاريخى فى العصور الوسطى التى كتبها هينزكويرين Heinz Qurin والآنسة شولز Schulz . وقد سبق أن أشرف على سلسلة المؤرخين الأوائل فى أوربا . وتعتبر هذه السلسلة مع كتب كويرين qurin وواتنباخ Wattenbach أحسن عرض للكتابة التاريخية فى العصور الوسطى فى العالم المسيحى الغربى . أما

المدخل الوحيد المكتوب بالإنجليزية للمؤرخين البيزنطيين فهو كتاب « تاريخ الامبراطورية البيزنطية » الذى الفه أ . أ . فاسيليف A. A. Vasiliev ويضم هذا الكتاب كذلك عرضاً جيداً لكل الكتابات التاريخية الحديثة عن الإمبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى (فى الفصل الأول من ص ١٣ - ٥٤) . والكتاب الوحيد الذى يتناول بالتفصيل موضوع الكتابة التاريخية البيزنطية هو كتاب كارل كرومبشر Karl Krumbecher تحت عنوان History of the Byzan-tine Literature From Justinian to the End of The Eastern Roman Empire . «تاريخ الكتابة الأدبية فى الامراطورية البيزنطية منذ جستنيان حتى نهاية الامبراطورية الشرقية» أما عن المؤرخين المسلمين فلدينا الكتاب المختصر لمارجوليوث (محاضرات عن المؤرخين العرب) والبحث الرائع عن ابن خلدون الذى كتبه ناثانيل شميدت والمعروف أن ابن خلدون هو أقدر كتاب التاريخ المسلمين .

وليس هناك عمل منفرد شامل عن الكتابة التكريخية فى عصر النهضة على الرغم من أن هناك بعض الكتب الجزئية التى عالجت ذلك الموضوع والتى وصفها شيفل ، مورلى ، جبهارت ، جرفينوس عن المؤرخين الفلورنسيين فضلاً عن كتابات جويكامسن عن المؤرخين الألمان فى عصر الحركة الإنسانية .

كذلك لا يوجد هناك مختصر شامل عن الكتابة التاريخية فى عصر حركة الإصلاح الدينى وإن كان هناك عرض فنى رائع لمصادر تاريخ ذلك العصر فى كتاب جوستاف ولف Gustav Wolf « مصادر تاريخ حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا » . أما عن العصر الحديث بأكمله فهناك كتاب العلامة السويسرى الفذ المرحوم إدوارد فيوتر وعنوانه « تاريخ الكتابة التاريخية الحديثة » وهو كتاب يضم نبذة ممتازة عن الكتابة التاريخية فى عصرى النهضة والإصلاح الدينى . وقدم أدولف رين Adolf Rein خير بحث عن تأثير التوسع فيما وراء البحار على الكتابة التاريخية الأوربية ذلك فى كتابه « صدى مشكلة التوسع الأوربى فى الكتابة التاريخية » . وعالج جون ب . بلاك John B. Black فى كتاب « فن التاريخ » مؤرخى عصر التعقل البارزين مثل فولتير ، هيوم ، روبرتسون ، جيبون . ويعتبر هذا الكتاب على الرغم مما فيه من اقتضاب من أحسن الكتب وأمتعها التى تناولت تاريخ الكتكبة التاريخية . ويوجد فى مؤلفات روبرت فلنت التى سبقت الإشارة إليها دراسة لتاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة الرومانسية . كذلك قام فيوتر بعمل موجز رائع عن أولئك الكتاب الرومانسيين . ثم إننا نجد وصفاً ممتازاً وتقييماً سلبياً لتاريخ الكتابة التاريخية القومية ونشأة المدرسة

الناقدة فى الكتابة التاريخية فى كتاب جورج بيبودى George Peabody الذى عنوانه « التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر » . كذلك عالج لويس هالفن وآخرون بالتفصيل الفترة الحديثة جداً — وهى الفترة التى مر عليها جوش Gooch مرّاً سريعاً — وكان ذلك فى كتاب بعنوان « التاريخ والمؤرخون فى الخمسين سنة الأخيرة » وصدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٧ كما عولجت الفترة نفسها فى الكتاب الذى أشرف على إخراجه ستنبرج بعنوان The Historical Science Of The Present In Individual Exposition.

وهناك عدد من المؤلفات التى تناولت تاريخ الكتابة التاريخية فى دول الغرب المتقدمة . وقد حظيت ألمانيا بأكمل وأحسن ... فى هذا الشأن . فنجد عرضاً كاملاً لتاريخ الكتابة التاريخية فى ألمانيا فى العصور الحديثة فى كتاب فرانز فون ويجل Franz Von Wegle كما أن أنطوان جويلاند Antoine Guilland ناقش فى كتابه (ألمانيا الحديثة ومؤرخوها) تاريخ الكتابة التاريخية عند المدرسة القومية . كذلك تناول جورج بيلو George Below فى إلمام كامل الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر فى كتابه الكتابة التاريخية الألمانية من حرب التحرير حتى يومنا هذا) . ويوجد أحسن عرض لتطور التاريخ القومى وتاريخ مدارس البحث فى فرنسا . فى كتاب (التاريخ فى فرنسا فى خلال المائة سنة الأخيرة) الذى ألفه لويس هالفن . وكتب بنيتو كروز نبذة مطولة عن الكتابة التاريخية الإيطالية فى القرن التاسع عشر .

أما عن انجلترا فليس هناك عرض كامل للكتابة التاريخية فيها . ولكن هناك مادة حول المؤرخين الإنجليز فى القرن التاسع عشر وذلك فى كتاب جوش Gooch أما أهم المؤلفات الخاصة التى تناولت الكتابة التاريخية الإنجليزية فمنها كتاب « المواطن الإنجليزى وتاريخه » لهربرت باترفيلد Herbert Butterfield وكتاب فترة الأنتقال فى الكتابة التاريخية الإنجليزية (١٧٦٠ - ١٨٣٠ م) . وكتب بطرس بلوك Petrus Block كتاباً هاماً عنوانه . الكتابة التاريخية فى هولندا . وفى روسيا كتب بولس ميليكوف Paul Miliukov أبحاثاً عدة عن الكتابة التاريخية الروسية منها بحث « التيارات الرئيسية فى الكتابة التاريخية الروسية » . وكتب ج . فرانكلين جيمسون J. Franklin Jameson منذ عدة سنوات كتابا بعنوان (تاريخ الكتابة التاريخية فى أمريكا) ووصل بهذا التاريخ حتى تناول المؤرخين الأدباء العظام أمثال جوفلى وباركان وبرلسكوت وبانكروفت ومن إليهم . وقد عالج هذه المجموعة نفسها من المؤرخين جون س . باست Johns. Basseth فى كتابه المجموعة الوسطى من المؤرخين الأمريكيين كما عالج داود ليفن

David Levin في كتابه (التاريخ كفن رومانسي) . وأوجز . ثيودور كلارك سميث ردليام أ . وانتج ، والان نيفنز ، أ .م . شلزنجر ومساعدوه تاريخ الفترة الحديثة في أمريكا . واستطاع مايكل كراوس Micheal Kraus لأول مرة في كتابه « تاريخ التاريخ الأمريكي » ، أن يتناول تاريخ الكتابة التاريخية بأكمله . كذلك عالج هذا التاريخ كله ماركوس و . جيرنجان Marcus W. Jernegan في كتابه (أبحاث في الكتابة التاريخية الأمريكية) ، ويوجد العرض المطول الوحيد لنشأة تاريخ الثقافة والنظم وطابعها في كتاب للمؤلف بعنوان ، (التاريخ الجديد والدراسات الاجتماعية) كذلك هناك بحث رائع لفكرة أن التاريخ علم اجتماعي في مؤلفات ف . ج . تيجارت F. J. Teggart التي تحمل أسماء (المدخل إلى التاريخ) و (نظريات التاريخ) . ولم يتم التوصل إلى عرض كامل بدرجة معقولة لتاريخ الكتابة التاريخية إلا بعد صدور الطبعة المنقحة من هذا الكتاب سنة ١٩٣٨ وضمه إلى كتاب (تاريخ الكتابة التاريخية) الذي ألفه وستفول طومبسون Westfall Thompson وهو يقع في جزئين وصدر سنة ١٩٤٢ وكتاب (كتابة التاريخ الأمريكي) الذي صدر سنة ١٩٥٣ لمايكل كراوس والنبذة التي عنوانها (تطور كتابة التاريخ) ، الذي أشرف على إخراجه م .ا . فيتزسيموتز A. Fitzsimons M. ا .ج . بندت A.G. Pundt ، س .ا . نويل C.E. Nowell .

المراجـع :

SELECTED REFERENCES

Robinson, The New History.

"New Ways of Historians," Loc. cit.

H.E. Barnes, ed., An Introduction to the History of Sociology, chaps. XXXvii

xlvi. University of Chicago Press, 1948.

Tbe New history and the Social Studies.

History and Social Intelligence.

Barnes and Becker, Contemporary Social Theory.
Jacques Barzun, The House of the Intellect. Harper, 1959.
Smith, Carl Becker: On History and the Climate of Opinion.
B.T. Wilkins, Carl Becker. Harvard University Press, 1961.

For an excellent summary survey of the literature on the history of history and historiography, see the bibliography in the Encyclopedia of the Social 15 Vols., Macmillan, 1932, Vol. VII, PP, 389-91. See also Fitzsimons et al., op.cit., PP. 44 ff. Aconsiderable number of desirable additions to the list books mentioned in the above brief review of the history of history writing will be found in the Supplementary Bibliography at the end of this volume.

Lee Benson, Turner and Beard. Glencoe Free Press, 1960.
Dexter Perkins and J. L. Snell, The Education of Historians in tbe United States. McGraw-Hill. 1962.
E. T. Gargan, ed., The Intent of Toynbee's History. Loyola Univ. Press, 1961.
R.G. Collingwood, The Idea of History. Oxford University Press, 1946.

Allan Nevins, The Gateway to History. Appleton-Century, 1938.
Louis Gottschalk, Understanding History. Knopf, 1950.
Geoffrey Barraclough, History in a Changing World. University of Okla homa Press, 1956.
Pieter Geyl, The Use and Abuse of History. Yale University Press, 1955.
,Debates with Historians. Philosophical Library, 1957.
George Orwell, Nineteen Eighty-four. Harcourt, Brace, 1949.
C. L. Becker, Everyman His Own Historian. Crofts, 1935.
Karl Lamprecht, What Is History? Macmillan, 1905.
Odum, American Masters of Social Science.
Schaumkell, Geschichte der deutschen Kulturgeschichtschreibung.
Karl Heussi, Die Krisis des Historismus. Tubingen, 1932.
E. H. Carr, What Is History? Knopf. 1962.
P. L. Snyder, ed., Detachment and the Writing of History. Cornell University Press, 1958.
Charles Samaran, ed., L'Histoire et ses methodes. Paris, 1961.
J. H. Hexter, Reappraisals in History. Northwestern University Press, 1961.
Cushing Strot, The Pragmatic Revolt in American History. Yale University Press, 1958.
Donald Sheehan and H. C. Syrett, eds., Essays in American Historiograpby. Columbia University Press, 1961.

فهرس كتاب تاريخ الكتابة التاريخية

الفصل التاسع : الكتابة القومية تحت تأثير التحرير والقومية

الفصل الرابع عشر : التاريخ وعلوم الإنسان

الفصل الخامس عشر : التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٣٠/١٩٨٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٢٣٨ - ٠

يتناول الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى ألفه العلامة المؤرخ الراحل هارى المر بارنز وهو الكتاب الذى يذكر مؤلفه أنه الوحيد من نوعه بكافة اللغات دراسة للمدارس التاريخية منذ نشوء الكتابة القومية وما كان لها من رد فعل تمثلت فى نشأة المدرسة التاريخية النافذة التى تزعمها ليوبولد فون رانكه صاحب الموضوعية فى الكتابة التاريخية

ويتناول المؤلف التأثير الخطير الذى تعرضت له الكتابة التاريخية من جراء الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ويختم المؤلف كتابه بدراسة لبرنامجه الطموح لما ينبغى أن يدرب عليه المشتغلون بعلم التاريخ وكتابته والاتجاهات والأخطار التى تتعرض لها الكتابة التاريخية فى عصرها الراهن .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٧٥ قرشـــاً